
مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية

من أجل السلام

مشارك التفاوض

د . محمد الجوادى

مطبوعات دار الخيال

مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية

من أجل السلام
معارك التفاوض

مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية

من أجل السلام

معارك التفاوض

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٠٠

رقم الإيداع: ١٦٥٥٥ / ٩٩

التفريع الدولي: 8 - 14 - 5979 - 477

حقوق الطبع محفوظة

دار الخيال

٠١٢٣٢٩٠٦١٨

يحظر نقل أو اقتباس أى جزء

من هذا المطبوع

إلا بعد الرجوع إلى

(دار الخيال)

تصميم الغلاف: محمد الصباغ

جرافيك: محمد كامل مطاوع

خطوط الغلاف: لمى فهمي

كمبيوتر: دار جهاد

٣٥٦٤٧٨٣

إهداء

إلى الأستاذ أنيس منصور

تحية تقدير

لنظراته الفلسفية الشاقبة

وإبداعاته الأدبية المتمردة

وكتايباته السياسية المخلصة

محمد الجوادى

المحتويات

٥

إهداء

٢٥

هذا الكتاب

الباب الأول : زمن الانكسار والانتصار مذكرات دبلوماسي

عن أحداث مصرية وعربية ودولية

٣٣

للدكتور أحمد عصمت عبدالمجيد

• التعريف بصاحب المذكرات، ثقافته، قيمته الدبلوماسية، وظائفه
• المذكرات هادئة وهادفة، مفتاح نجاح الرجل، وصوله إلى المناصب الكبرى
بعد الستين، الرفعة والترفع في شخصيته وفي مذكراته، صغر الحجم،
المذكرات ككتب المتن القديمة • لا يقدم وقائع جديدة ولكنه يقدم زوايا
مختلفة، خليط من الفلسفة والتاريخ • سعادة صاحب المذكرات بالرضا النفسي
لجاء ما أنجز في حياته العامة • حبه للتفاوض، دوره في مفاوضات ونزاعات
تنفيذ اتفاقية الجلاء في ١٩٥٤ • جوهر التفاوض هو القبول بنسكة الحلول
الوسط، المفاوضات المتعمد يحدد بدقة حقيقة موقفه، المعركة تحتاج إلى ثبات
وتصميم، مشاركته في المفاوضات بين مصر وفرنسا حول مطالب الحكومتين
بعد حرب ١٩٥٦ • موقفه كرئيس لهيئة الاستعلامات في التعامل الإعلامي
الرسمي من الاعتداءات الإسرائيلية على العمق المصري في أثناء حرب
الاستنزاف، كشف حقائق الاعتداءات للعالم بدلاً من التستر على خسائرها
بحجة الحفاظ على تماسك الجبهة الداخلية، الإغارة على بحر البقر كانت بمثابة
نهاية الغارات الإسرائيلية على العمق المصري • ذكرياته عن نصر أكتوبر
العظيم، طلب مصر عقد جلسة لمجلس الأمن، هل كان الدكتور الزيات يعلم
بالخطط المصرية وتوقيتاتها، فخره بمعركة ٦ أكتوبر، ذكرياته عن تصرفات
الإسرائيليين • ٦ أكتوبر نموذج فذ للتخطيط العسكري ومثال رائع في الإدارة
العربية للصراع مع إسرائيل • رأيه المنتصف في ذكاء قرار السادات بطرد
أخبراء السوفييت • قصة طلب السادات استصدار قرار من مجلس الأمن
بالتدخل في أزمة الشرق الأوسط، الذكاء الكامن في طلب السادات قراراً
يعرف أنه سيواجه بالفيتو الأمريكي • قصة القرار ٣٣٨، ذكريات عن لقاءه

هو والدكتور الزيات بالدكتور هنرى كينجر فى ٥ أكتوبر ١٩٧٣ • رأيه فى مبادرة السادات، وفى استقالة إسماعيل فهمى • موقف السفراء العرب لدى الأمم المتحدة غداة المبادرة • تعليق على موقف السفير السورى موقف العلاف إيمانه بالمبادرة وأهميتها • رئاسته وفد مصر فى مؤتمر ميناهاوس التحضيرى المصاعب التى واجهت مصر عند تشكيل القوة متعددة الجنسيات، اتصال بالمشدوب الإسرائيلى فى الأمم المتحدة لتسليمه دعوة مصر لحضور مؤتمر ميناهاوس، دور السفير الهولندى كاوفمان • المنهج الأمثل فى التعامل مع الإسرائيليين، موقفه من حديث رئيس الوزراء الإسرائيلى شامير عن زيارة فالدهايم لمصر، دوره فى ترتيبات زيارة عرفات للأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٧٤ • المصاعب التى واجهها مع الحكومة الأمريكية، طلب السفير جون سالى نزول عرفات فى جزيرة أليس وسط ميناء نيويورك، عصمت عبدالمجيد يرفض لأن الجزيرة مخصصة للقادمين من دون تأشيرة قانونية، تدخل فالدهايم، برنامج زيارة عرفات خطاب عرفات فى الجمعية العامة للأمم المتحدة: «لقد جتكم بقصن الزيتون مع بندقية النائر فلا تسقطوا القصن الأخضر من يدي» • حديث المذكرات عن حرب يونيو ١٩٦٧، يلوم عبدالناصر على موقفه فى المؤتمر الصحفى قبيل حرب ١٩٦٧ • ذكرياته عن اتخذه فى القدرة العسكرية المصرية، حوار مع أريك لورو حديثه عن الفرص الضائعة فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧، المشروع اللاتينى، موقف الدبلوماسيين العرب من المشروع • انتقاداته لصدور «الملاءات الثلاثة» عن مؤتمر القمة العربى بالخرطوم فى أغسطس ١٩٦٧ رغم الإيجابيات التى حققتها المؤتمر • سماعته بالآثار التى حققتها معاهدة الجلاء عقب قيام الثورة • دوره فى إدخال اللغة العربية ضمن اللغات الرسمية فى الأمم المتحدة، فضل حرب أكتوبر فى هذا الصدد أزمة احتلال العراق للكويت، موقف مصر، إغراءات العراق، حوار مع الدكتور سعدون حمادى • موقف سابق لمصر من طلب للعراق تأييدها ضد سوريا فى طلب سحب القوات السورية من لبنان، الشعور بالأسف تجاه الانفصال فى ١٩٦١، انشغاله بتقييم تجربة الوحدة • الحديث عن دور جنىف والبعثة الدبلوماسية فيها فى مساندة ثورة الجزائر

● نشأة مؤسسة القمة العربية ● التفاصيل التي يرويها عن تغيير وزير الخارجية المصري أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣، حديث الدكتور محمد حسن الزيات مع برنامج «واجه الأمة» في التليفزيون الأمريكي، الزيات لم يكن يقصد الإشارة التي ذكرها إطلاقاً، الفروق بين الزيات وإسماعيل فهمي، رأيه هو ● رؤيته لطبيعة الاختلافات التي سبقت حركة التصحيح في مايو ١٩٧١ ظهور الخلافات في مجلس الوزراء، رغبة الدكتور فوزي في عقد مؤتمر تطوير التعليم، معارضة شعراوي جمعة وسعد زايد للدكتور فوزي، الفريق فوزي يعارض لأن المؤتمر يشغل الأنظار عن المعركة! ● عصمت عبدالمجيد يتصدى للفريق فوزي، رواية موسى صبري رأيه في توحيد الطاقات والجهود بحركة ١٥ مايو ١٩٧١ ● ثناؤه على الدكتور محمود فوزي، علاقته الوثيقة به إشادته بعبدالحق حسنة، وبمحمد كامل عبدالمرحيم حرصه على الإشادة بمحمد صلاح الدين ودوره العظيم، دور الخارجية المصرية في الإعداد لإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ● إنصاف السفير المصري في لندن عبدالفتاح عمرو، حقيقة موقفه من ثورة يوليو، نصيحته للسفير بالبقاء في الوظيفة، السفير يطلب إجازة والثورة تقيله، ثناؤه على محمد حافظ إسماعيل إشادته بديهيول، علاقته بالرئيس الأمريكي بوش، تقديره الجرم لجيمس بيكر، ثناؤه على سايروس فانس ● انتقاداته للإسرائيليين: تكواء غاية في الصلف والغرور والعنف والمدونات، يجيب ذو شخصية عقائدية منطرفة وعنصرية، تعامله فج ووقع ● حرصه على الإشارة إلى أساتذته وزملائه: أساتذته في حقوق الإسكندرية، زملاؤه في بعثات الخارجية، زملاؤه في الدراسة في فرنسا، زملاؤه في مفاوضات تنفيذ اتفاقية الجلاء، زملاؤه المتدربون المناوون في الأمم المتحدة، زملاؤه في وفد التفاوض في مؤتمر السلام بالقاهرة (١٩٧٧)، ملاحظة المؤلف على ذكر صاحب المذكرات مندوبي مصر الدائمين في الأمم المتحدة مستهياً بنفسه ● دور المرأة في حياته ● الحديث عن الدور الوطني لوالده في جمعية المؤاساة بالإسكندرية، شخصية والده المتهمة بنفسها، معاناته من المناعب بسبب مواقفه ● وفاة والده الثورة تنتصر لوالده ● حديثه عن ثقافته في باريس ● حديثه عن ثقافة الدبلوماسيين ● تحفظ المؤلف على انتقادات صاحب المذكرات للنظام

الدبلوماسي قبل الثورة • تجربته في العمل كرئيس لهيئة الاستعلامات • بعض ملحوظاتنا: الخطأ في تاريخ توجه النضال إلى الأمم المتحدة، ما المقصود بالاستقلال في ١٩٥١، حقيقة المدة التي عمل فيها وزيراً لمجلس الوزراء، محمود رياض لم يمين أياً عاماً للجامعة العربية إلا بعد خروجه من الوزارة بفترة.

الباب الثاني: البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط

١٠١ مذكرات محمود رياض (١٩٤٨ - ١٩٧٨)

• التعريف بمحمود رياض، بداياته العسكرية والدبلوماسية، نهايات عمله مذكراته، منهجه في كتابتها، إيمانه بالداعي إلى كتابتها، الطبعة الإنجليزية، والطبعة العربية، حبه لعبد الناصر، المواضع القليلة التي انتقده فيها: نقده رد فعل عبد الناصر تجاه قرار جونسون قطع المعونة عن مصر. كان يجب على عبد الناصر تنحية عبد الحكيم عامر في ٥ يونيو فوراً بقيادة الحركة، مدى مسئولية عبد الناصر عن هزيمة ١٩٦٧ • حساسة عبد الناصر وشعوره المرهف، تردده في طلب المعونة العربية، الإنجاز الذي حققه عبد الناصر قبيل وفاته بإتخاذ الجبهة الشرقية من الدمار، الانهيار المروع الذي حققه عبد الناصر نتيجة هزيمة ١٩٦٧ • تعبير المؤلف عن انزعاجه من فرض صاحب المذكرات لأستاذيته العسكرية على القراء (!)، انتقادات المؤلف في هذا الشأن. رأى المؤلف في قصور رؤية محمود رياض محاورات محمود رياض مع المسئولين والعسكريين حول تطورات حرب أكتوبر، محاوراته مع محمد حافظ إسماعيل ومع المشير أحمد إسماعيل على، تعليق المؤلف على سعة صدر المشير أحمد إسماعيل والفريق الشاذلي تجاه محمود رياض • محاوراته مع الفريق سعد الدين الشاذلي، ومع الفريق طلعت حسن على، حديث محمود رياض قبل هذا عن لقاء مع عبد الناصر عن القائد الكفء الذي يفقد المعركة مع إسرائيل، رأى المؤلف أن هذا هو ما أعطى محمود رياض كل هذه الثقة في معلوماته وقدراته العسكرية • المذكرات مرجع مهم للعلاقات المصرية السوفيتية. مقارنة محمود رياض ببطء السوفييت بسرعة كيسنجر، رأى محمود رياض في سرنجاح كيسنجر استياء الرئيس السوري حافظ الأسد من قرار السوفييت • حضور مؤتمر جنيف • الضيق الشديد الذي شعر به محمود

رياض عقب مقابلة السفير السوفيتي في القاهرة مساء الثامن من يونيو ١٩٦٧، في وسط المصعة السفير السوفيتي بطلب مقابلة وزير الخارجية لينقل رسالة أمريكية بشأن طائرة أمريكية قرب بورسعيد أرسلت للتحقيق (فقط) في ضرب السفينة الأمريكية «اليرتس» بطريق الخطأ من جانب إسرائيل • روايته عن مناقشة بين عبدالناصر والرئيس السوفيتي حول الدفاع والهجوم، تعليق المؤلف على ذكاء عبدالناصر وسرعة بديهته، وتجاوز صاحب المذكرات عن الالتفات إلى هذا المعنى بريجنيف حاسم، العجز السوفيتي عن استيعاب المتغيرات السياسية، الارتباط بالتفاصيل الصغيرة • حرص السوفييت على منع نشوب الحرب تعليق المؤلف: رياض يبدو وكأنه يسخر من السوفييت بعد فوات الأوان، سياسة كيسنجر هي سبب وجود السوفييت، قلق الزعماء السوفييت من زيارة روجرز لمصر • انتقادات محمود رياض للسوفييت ولاتفاقية مايو ١٩٧١، السادات يؤيد محمود رياض في طلب تعديل بعض بنود الاتفاقية • حرص السادات في أول أيامه على التأكد من استمرار الدعم السوفيتي • زيارة السادات الأولى للاتحاد السوفيتي، رياض كان خشناً مع السفير السوفيتي، السادات يقول للقادة السوفييت إن ما قاله رياض يعبر عن وجهة نظر الرئيس أيضاً • رأى محمود رياض في أن مصر خسرت بطرد الخبراء السوفييت، وأن السوفييت كسبوا من هذا القرار!! • انطباعات الفريق صادق عن موقف السوفييت، زيارة عزيز صدقي لموسكو • رفض بريجنيف الاشتراك في بيان عن خروج الخبراء السوفيت يتضمن شكر الحكومة المصرية للسوفييت • رأى صاحب المذكرات في العوامل التي ساعدت على صدور قرار إخراج الخبراء السوفييت من مصر، رواية عن حوار صادق له مع كيسنجر حول انطباعه عن قرار السادات • روايته عن المفاجأة التي أصابت القادة السوفييت عند قبول عبدالناصر لمبادرة روجرز. رأيه النهائي في موقف السوفييت من الخروج من مصر، روايته عن استبعاد المخابرات الأمريكية لقيام المعركة بسبب طرد الخبراء السوفييت • موقف السوفييت المختلف من القادة العسكريين المصريين: لا يرتاحون إلى محمد أحمد صادق ويلبسون طلبات أحمد إسماعيل • موقف السوفييت عقب حرب ١٩٦٧ • حديثه عن هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، رأيه أن عبدالناصر كان يريد - على سبيل المقطع - تجنب

دخول الحرب، أدلته على هذا • تقيمه المبكر وقلقه من قبل قيام الحرب • أحد الوزراء يسأل شمس بدران عن موقف الأسطول الأمريكي وشمس بدران يجيب بأن القوات المصرية كخيلة بمواجهة الموقف • عبدالناصر يسأل صاحب المذكرات عن تقيمه لاحتمالات الهجوم الإسرائيلي، رياض يبرر الأسباب التي دفعته إلى أن يذكر لعبدالناصر أن إسرائيل سوف تتردد في القيام بأي عدوان إذا كانت بيانات المشير عامر عن استعدادات قواتنا المسلحة • حقيقة روايته عن الخامس من يونيو، الصدمة الأولى نلقاها من عبدالناصر نفسه، أخطره أن الطائرات العسكرية ضربت كسلها، وأن سلاح الطيران المصري أصيب بالشلل، وأنه المبكر في استحالة إسقاط هذا العدد الكبير من الطائرات، شعوره بالإقبال على كارثة، روايته عن بداية هجوم برى قبل الهجوم الجوي، حديثه عن الارتباك العسكري • حديثه الصريح عن التواطؤ الأمريكي السوفيتي، مبالغة الاتحاد السوفيتي في الوعود الغامضة لمصر وسوريا، تفسير تعبير «المعارضة القوية» • روايته عن الاتصالات الأمريكية السوفيتية ومطالبة مصر بالأبداً بالهجوم • موقف عبدالناصر من المعركة، ما يرويه عن مناقشاته مع عبدالناصر طيلة أيام المعركة، قرار عبدالناصر بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة الأمريكية في ٦ يونيو، محاولة رياض إنشاء عبدالناصر عن القرار لأنه لا يفيدها لقاء رياض بالسفير الأمريكي • اقتراحات السفير الأمريكي بإبقاء الباب مفتوحاً مع الولايات المتحدة وبسفر زكريا محيي الدين في الموعد السابق تحديده، تقدير رياض للسفير الأمريكي وشرفه • حديث المذكرات عن التضامن العربي، حضور رياض جلسة مجلس الوزراء السوري لتأييد مصر أثناء عدوان ١٩٥٦ • نسخ أنابيب البنرول • التضامن العربي في أثناء حرب أكتوبر، تفاصيل توزيع الدعم العربي بعد مؤتمر بغداد، وفي مؤتمر الخرطوم • الملك فيصل يقاكي المؤتمر بتقديم خمسين مليون جنيه استرليني، عبدالناصر يصمم على أن يأخذ الأردن كل ما يحتاجه • إشارات محمود رياض بالملك حسين، روايته عن تأثر عبدالناصر بموقف الملك حسين في حرب ١٩٦٧ وتضامنه مع مصر ودخوله الحرب معها، عبدالناصر يقول لحسين إن مصر سوف تقسم الرغيف مع الأردن نصيبين، ثأؤه على موقف الملك حسين في حرب ١٩٧٣، وعلى موقف الملك حسين في مؤتمر الرباط

والقرار الخاص بالتمثيل الفلسطيني • إشداته بالملك فيصل، اعتماد السادات عليه وعلى هوارى بومدين، موقف الملك السعودي في مؤتمر الخرطوم وفي مؤتمر القاهرة • ثناؤه على الكويت وحكامها، حرصه في لقاء الرئيس المصري والسوفيتي على توضيح موقف الكويت وقطعها البترول في حرب يونيو ١٩٦٧، إيجابية الزعماء الكويتيين في كثير من المواقف • موقفه في مؤتمر القمة العربي في بغداد شبه المحايد، موقف السادات، الرئيس المصري يرفض استقبال وقد للقمّة العربيّة، آراء السادات في معالجة القضية الفلسطينية بطريقة عملية • انتقاداته لبعض المواقف الدبلوماسية العربية، حديثه عن الفرض الضامنة فيما بعد حرب ١٩٦٧، حوارات بومدين وعبدالرحمن عارف مع القادة السوفيت • جروميكو ينصح العرب بأن يتقبلوا شيئا خيرا من لا شيء! موقف العرب من رفض فكرة إنهاء حالة الحرب، السوفييت يحاولون الإقناع دون جدوى، رياض يفكر بطريقة عملية في قرار قطع البترول • رياض لا يستريح إلى الأداء الليبي • التضامن الدولي مع مصر فيما بين ١٩٦٧ و١٩٧٣، مقابلة مع سفير بولندا، موقف الدول الاشتراكية • ذكرياته عن المشاركة في مفاوضات رودس، مهمته في القاهرة، لقاؤه برئيس الوزراء إبراهيم عبدالهادي باشا • انطباعاته عن أن اتفاق الهدنة أنهى تماما النزاع المسلح بين إسرائيل والدول العربية • زيارته المبكرة لفلسطين • جهده في استصدار القرار ٢٤٢، تفاصيل عن جلسة اجتماع مجلس الوزراء الذي ناقش القرار، لقاؤه بلجنة الشؤون الخارجية في مجلس الأمة... «وعندئذ وضع بعض أعضاء المجلس أصابعهم في آذانهم قائلين إنهم لا يريدون أن يسمعوا المزيد»، حرص إسرائيل على إجهاض القرار ٢٤٢ مساعي السلام العربية الإسرائيلية عقب ١٩٦٧: اقتراح من نائب وزير الخارجية الروماني، محاولات تركية لوزير الخارجية إحسان صبري، وزير الخارجية الهولندي يعرض التوسط من خلال علاقته الوثيقة بأبّا إيبان • لقاءات بوزير الخارجية الأمريكي روجرز، قبول مبادرة روجرز، بدء سريان وقف إطلاق النيران، عودته إلى القاهرة، تعجيل الولايات المتحدة بتنفيذ المبادرة وعجزها عن التنفيذ • فرض الولايات المتحدة نفسها كمراقب، تعليقاته على التصرفات الأمريكية • الغوائد التي جنتها مصر من تطبيق المبادرة مباشرة • تفسير موقف مصر من إسرائيل - رأى

عبدالناصر فى ضرورة إعطاء الأولوية لمشروعات التنمية، هجوم إسرائيل على قطاع غزة فى فبراير ١٩٥٥ غير مفاهيم عبدالناصر • انتقاد المذكرات لبعض نصرقات القيادات الفلسطينية، معاناة عبدالناصر بعد قبول مبادرة روجرز من بعض القيادات الفلسطينية، رأى الملك حسين فى خطورة التطور الذى كان بعض الفلسطينين يطالبون به موقف محمود رياض من السياسات الأمريكية: تولّى، جولدبرج • تنفيذ مزامم كيسنجر عن الدور الأمريكى فى صراع المقاومة الفلسطينية وحكومة الأردن فى ١٩٧٠، رأيه فى قلب كيسنجر للحقائق، انطباعه السيء عن كيسنجر، رأى صديقه الأمريكى: وهل أعلن كيسنجر أنه غير صهيونى؟ • ثأؤه على روجرز، تأثره بفكرة الأمريكيين أن السادات متساهل ومعاونيه متشددون، أزمته مع روجرز وسييسكو بسبب هذا الاعتقاد • استنتاجه أنهما كانا يعانيان القنصل رأيه فى الأداء الإسرائيلى الدبلوماسى: يكررون أنفسهم، غياب الإسرائيليين فى رفض أحد اقتراحات سوشى ديان • حديثه عن المناصب التى تولاها، اختياره سفيراً فى سوريا، بداية العمل من أجل الوحدة مع سوريا، اختياره وزيراً للخارجية عقب مؤتمر القمة العربى فى ١٩٦٤ لاستغلال مياه الأردن • لا يتحدث عن خروجه من الوزارة • حديثه عن اختياره أميناً عاماً للجامعة العربية وعن استقالته من الجامعة • حديثه عن أزمة سلاح الطيران مع الدولة، تعاطفه مع القوات الجوية • كيف عرف حامد السايح بنبأ الهزيمة فى ١٩٦٧ من سكرتير أول السفارة الأمريكية • نصيحته بالاهتمام بالدبلوماسية الشعبية • رأيه فى بعض الشخصيات المعاصرة: المشير أحمد إسماعيل، حرصه على بقاءه بالجيش، صداقته القوية بالفريق محمد فوزى تجعله ينحاز له أكثر من اللازم، رأيه فى شمس بدران، روايته عن موقف عبدالناصر من شمس وموقف شمس من عبدالناصر، رأيه فى محمد إبراهيم كامل • بعض الأخطاء، أخطاء المونتاج، أول مايو يسبق منتصف أبريل، مندوب مصر فى الأمم المتحدة فى ١٩٧١ كان الزيات وليس القسوتى، لجوء صاحب المذكرات - ربما بغير قصد - إلى المنطق المقلوب • الخفاف الشديد فى الكتابة، رأى المؤلف أن الجدية لم تكن تقتضى كل هذا الجفاف.

الباب الثالث : السلام الضائع فى كامب ديفيد

٢١٣

لمحمد إبراهيم كامل

• إشادة المؤلف بالمذكرات، المذكرات قطع متصلة من الأدب الرفيع، حافلة بالصدق النفسى، تدل على استقامة شخصية صاحبها • قراءة المذكرات تنود إلى الإعجاب بالبطل والتماطف معه • منطق المؤلف فى إعطاء كاتب المذكرات حق الحصانة حتى يكتب تجربته الذاتية بصدق مطلق • الفترة التى تناولها المذكرات، ما أحاط بتعيين صاحب المذكرات وزيراً للخارجية • تصور المذكرات لوجهة نظر صاحبها فى خلافه مع السادات، رأى صاحب المذكرات فى الفرق بينه وبين بطرس غالى من حيث علاقتهما بالرئيس، رأى بطرس غالى • بعض المواقف التى أبدى فيها صاحب المذكرات إعجابه الشديد بالرئيس السادات: قبلة على جبين السادات، رأيه فى أحلك لحظات كامب ديفيد • قبلات السادات لبيجين • موافقته على رأى السادات فى أن أوراق اللعبة فى يد أمريكا، يعطى العذر للسادات فى قلقه على مصير مبادرته • إعجابه بدعوة السادات فى وسط حرب أكتوبر إلى مؤتمر دولى • اقتناع صاحب المذكرات بمبادرة السلام • صاحب المذكرات مبال إلى التفاوض حتى فى أحلك اللحظات، لم يكن راضياً عن قرار السادات بقطع مباحثات القدس وعودة الوفد المصرى إلى القاهرة • حرصه على طمأننة زملائه من وزراء الخارجية العرب وإقناعهم بجدوى استمرار الاتصالات مع إسرائيل • اعتقاده الراسخ فى أهمية مواصلة التفاوض، تعليق كتاب الأمالى على هذا المعنى • مظاهر أخرى للتعقل فى شخصية محمد إبراهيم كامل: موقفه من العلاقات المصرية - القبرصية بعد حادث مقتل يوسف السباعى وضباط المصاعقة المصريين، رأيه فى موقف السادات من العلاقات مع الاتحاد السوفىنى • أبرز تحفظاته على السادات: نصيحة الملك الحسن للسادات، حيرته فى شخصية السادات فى بعض الأحيان، قلقه الشديد فى الأيام الأخيرة من مجرد البقاء مع السادات، عودته المسرعة إلى مصر • لقاء بالسادات فى ١٩٧٧ وحوار عن الإسرائيلىين تعليق المؤلف على وجود بعض فقرات غريبة على نسيج الكتاب، أمثلة لهذه العبارات، مقارنة هذه العبارات الغريبة بأسلوب محمد

إبراهيم كامل الحار الساخن المفعم بالعاطفة والصدق، رأى أحمد ماهر السيد • حيرة محمد إبراهيم كامل تجاه جذور مبادرة السادات، نص في مذكرات جولدا مائير عن لقاء مقترض مع السادات • فقرة للسادات في لقاء أرتون يعبر فيها عن رفضه طلب السوفييت للقاء بجولدا مائير في طشقند عام ١٩٧٢ • رأى المؤلف في أن آراء صاحب المذكرات في السياسة العربية تعبر بصدق عن آراء نخبة المثقفين المصريين • حديثه عن القرص الضائعة عقب حرب ١٩٦٧ • إشادة صاحب المذكرات بالملك حسين وتقديره له • حبه وتقديره للملك فيصل وللأمير سعود القبصل اعترافه بأن العلاقات الثنائية بين مصر ورومانيا لم تكن تهمة في شيء على الرغم من أنه وزير للخارجية • وجهة نظره المعارضة للسادات فيما يتعلق بالتدخل السوري في لبنان، رأى السادات في الأسد، مشهد طريف عن كارتر وقلقه على سوريا بعد الأسد • السادات يصرح لسالدهايم بأن أعداء الفلسطينيين هم قادتهم، آراء للملك حسين ولرئيس الوزراء الأردني مضر بدران حديثه غير المباشر عن هزيمة ١٩٦٧، تحذيره للرئيس السادات من استفزاز سوريا فتقع فيما وقعنا فيه في ١٩٦٧، نظريته. يتنا من زجاج رأى صريح لكارتر يعترف بسطوة اليهود الأمريكيين، فانس يصرح له سرأ بسيناريو أمريكي للتحرك • ثناء متصل على الرئيس مبارك، تقدير خاص لجيهان السادات، تحته على البقاء بجوار الرئيس في لقاءاته مع بيريز • رأيه في كل من بطرس غالي، ومحمد حافظ إسماعيل، ومحمود رياض، وكمال حسن علي • مكانة أسامة الباز في مذكراته، التحفظ الوحيد العابر على أسامة الباز، رضاؤه لقيام أسامة الباز بالدور الأكبر في كامب ديفيد، إعجابه بأدائه تقديره لأحمد ماهر وأحمد أبو الغيط • هجومه على كارتر في حضور السادات • تقديره الشديد لفانسي، وهرمان ابلتس، مصطفى ايلنس ليعدته بخير الاستقالة • هجومه على بيجين في مواضع متعددة، روايته عن واقعة حفل العشاء في القدس • رأيه أن إسرائيل كانت تقتقد رجل الدولة في الوقت الذي عمل فيه وزيراً للخارجية، رأيه في ديان، ووايزمان • ذكرياته عن تعيينه وزيراً للخارجية الفقرة المحظوظة في كسابات أعداء السادات، فكرة حلف اليمين بحضور • بيجين أخوار

العاصف بينه وبين السادات في اجتماع مجلس الأمن القومي قبل السفر إلى كامب ديفيد • لماذا بدأ السادات يشك فيه؟ تهرب السادات من الرد على مكالماته وطلباته للقاء • حوار إنساني بين الرجلين، حوار آخر ينتهي بالاستقالة انطباعات أشرف غربال وبطرس غالي، تعليق المؤلف على دقة صاحب المذكرات في التصوير النفسى حوار بعد الاستقالة: أبق مع أولادك حتى تشع منهم... وهل تظل عاطلاً بدون عمل؟ روايته عن ليلة الاستقالة • مشورة أحمد ماهر ومحمد إبراهيم شاكر هل بينى وبينك حجاب يا محمد؟ • ها أنت تردد كالسيفاء ما يقوله الآن الاتحاد السوفيتى عن صلح منفرد • إنك لا تعلم شيئاً عن العرب • عناية صاحب المذكرات بالتفصيلات والتعقيدات حتى فى الموضوعات العابرة • حديثه عن حسن التهامى... ياتهامى، كرامات التهامى ومعجزاته، الإسرائيليون يحضرون طبيب ييجين الخاص لمناقشته • رأيه فى موقف سيد مرعى من عملية السلام، لقاء بلير هاوس بين سيد مرعى وبرجنسكى، تعليق صاحب المذكرات على الأفكار التى تضمنها الاتفاق المبدئى، شكواه للسادات، تحليله لموقف سيد مرعى، تعليق المؤلف على رأى محمد إبراهيم كامل • موقفه من عرض نساوى بتخزين النفايات الذرية فى مصر • حديثه عن نشاطه الوطنى المبكر لا يأخذ حظه المناسب فى المذكرات • حرصه على الاعتماد عن الأحزاب • لا يدرك حدود إيمان السادات بالفض • ما رواه له السادات عن عبدالحكيم عامر • المذكرات حافلة بالمواقف الإنسانية • ندرة الأخطاء التاريخية • التعليق على هامش غريب فى الكتاب.

الباب الرابع : يانفس لا تراعى

للسفير حسين ذو الفقار صبرى ٣٠٧

• التعرف بصاحب المذكرات، مكانته بين الدبلوماسيين فى عهد الثورة الموضوع الذى تناوله المذكرات، الفترة التى تناولها، على هيئة يوميات، الطبعه التى بين أيدينا، مقدمتا المؤلف، تقديم يحيى حقى • حاجة الكتاب إلى إعادة كتابة لأنه حافل بالألفاظ الغريبة والتراكيب اللغوية غير المستخدمة صاحب المذكرات يلخص قصتها، قصة العنوان الذى اختاره لمذكراته هذه ، جدوى مناقشاته ولقاءاته، صعوبة المناقشة فى موضوع العقبة ومنع المرور من مضيق نيران، أهمية الاتصال المباشر مع الرسميين وغير الرسميين، كثرة فقهاء القانون الدولى فى دول أمريكا اللاتينية • إحساسه بصعوبة مهمته حين بدأ

يؤديها من موقع الهزيمة • مدى تأثير كبار الدبلوماسيين البرازيليين
 بالعقلية الإسرائيلية بسبب زيارة أخيرة قام بها لإسرائيل • وصفه للقاء الرئيس
 البرازيلي وحرص الرئيس على التخلص منه، صدى المقابلة في نفسه • وصوله
 إلى ريو دي جانيرو، السفراء العرب لا يزالون يعيشون وهم الانتصار، صاحب
 المذكرات يصدق نفسه هو الآخر، حديث متعال إلى الصحافة: ولكن إسرائيل
 اختارت الحرب فهي الحرب الشاملة إذن • لقاءه بالرئيس الأرجنتيني • حرص
 صاحب المذكرات على الهجوم على رجال الإعلام المتعانين الذين أودوا
 بالأمانة الوطنية وساقوا الشعب إلى اعتناق معادلات خادعة، الشعارات التي
 يؤلفونها هي أصنامنا الجديدة • تفنيده الآراء الباطلة: الوقت ليس في صالحنا،
 الحديث عن قيمة الزمن في الطلعات الجوية، إنما الوقت أداة لن عرف كيف
 أن يذله بالعمل الجاد مطية لأهدافه، تفنيده القول القتال إن إسرائيل لا
 يمكنها أن تخسر معركة واحدة وإلا انتهت وأنها جزيرة معزولة وسط ذلك
 الحوض من المائة مليون! • صاحب المذكرات يصيح: هلا احترزنا من التردى
 مرة أخرى إلى مهاوى المسلمين؟؟ رأى المؤلف في أن أفضل فقرات الكتاب
 هي تلك التي يتقد فيها النظرية القتالة بأن حرب السويس وضعت فاصلا بين
 الاستعمار القديم بتدخلاته العسكرية السافرة والاستعمار الجديد وأساليبه غير
 المباشرة في السيطرة، صاحب المذكرات يرى التاريخ تواليف جديدة قوامها
 عديد من عناصر مستمدة من أساليب قديمة، نعم كان هذا صحيحاً عام
 ١٩٥٦ ولكن طرأت تحولات خطيرة • مدى مسئولية مفكرى الهزيمة عن
 تضليل قواتنا المسلحة • اعتقاد راسخ (وخاطئ) لدى قيادة قواتنا المسلحة أن
 العدو لن يتجاسر فيهجم • قيادتنا العسكرية لم تحاول التعمق في دراسة حرب
 السويس • رأى المؤلف في التأملات والرؤى التي يقدمها صاحب المذكرات
 عن مسيرة الحرب، المقارنة بينه وبين محمود رياض، حين ذو النصار متواضع
 جداً إذا ما قورن بمحمود رياض، اعترافات صاحب المذكرات بأن تقديراته
 نظرية حديث المذكرات عن خطأ استراتيجيتنا في الحرب، تلخيص المذكرات
 لأسس العلم العسكري القتالة بالمرونة وسرعة الحائط ونوزيع القوات وتحقيق
 الاختراق • خطة جودريان الألماني في اختراق استحكامات خط ماجينو، خطة
 روميل في حروب الصحراء • أهمية الاحتفاظ بالمدرعات قادرة على الحركة
 والمناورة، اندهاشه من استراتيجية تصوير مدرعاتنا في الصحف وهي مدفونة

فى حضرات من أجل استخدام مدافعها القوية! دور قيادات إسرائيل الجديدة فى ١٩٦٧ فى اشتعال الحرب، حديثه عن المؤسسة السرية المهيمنة على الصهيونية العالمية • جمود الفكر السياسى عند قيادات قواتنا المسلحة واطمئنانها إلى مسلمة غير حقيقية، تأكيد صاحب المذكرات على ذات المعنى فيما كتبه بعد عام من الهزيمة • حديثه الأسف عن انكشاف كل خططنا واتصالنا أمام العدو، تصرفاتنا خرقاء وإن الخرق لشؤم • صاحب المذكرات يعقد مقارنة بين حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ ويستقد فكر عبدالحكيم عامر فى تكرار خطة نجحت فى ١٩٥٦ لمجرد أنها نجحت: المبدأ الثابت للاستراتيجية المصرية أن تدافع مصر عن القناة فيكتب لكليهما السلامة وليس العكس فتضيق هذه وتلك • قرار الانسحاب خطير وأخطر ما فيه أنه لم تكن إليه حاجة أو ذريعة الانسحاب عملية صعبة تحتاج إلى سيطرة مركزية صارمة • العقيدة العسكرية فى صعوبة الانسحاب، استراتيجيات الانسحاب، صعوبات الانسحاب إذا ما تم فى الصحراء المكشوفة، صعوبة الانسحاب فى الليل مع اضطرابنا إليه بسبب التفوق الجوى للعدو • العلاقة بين القيادة العامة والقيادة الميدانية • جدوى الانسحاب فى ١٩٥٦ وخطورته فى ١٩٦٧ • استعداده لغفران كل خطأ إلى حين إلا قرار الانسحاب • ما يرويه من أن قادة الوحدات أخذوا بنسبون إلى إمكان الصمود وتحقيق نصر على مدرعات العدو التى استنفدت مخزونها من الوقود دون جدوى • صاحب المذكرات لا يعرف - من هول الصدمة - متى علم بالهزيمة، تحليل نفسه للذاكرة • المذكرات حافلة بالتعبير الجيد عن المشاعر المتباينة طيلة الفترة التى نتحدث عنها، انطباعه عن إهمال المكسيكيين بشأن استقباله كما ينبغي، تبرير الأمر بأنها معاملة المهزومين • حديثه عن علمه بتنحى الرئيس عبدالناصر • حرص المذكرات على تصوير معتقدات صاحبها فيما يتعلق بأهمية الزعامة للشعوب، استلهامه صورة عبدالناصر فى حديثه عن لوحة للفنان ريفيرا فى مطار المكسيك • المذكرات حافلة بالملوحات المعرفية: تصويره مدى قوة الجسالية اليهودية فى الأرجنتين فى المقابل: تخاذل الجالية العربية فى الأرجنتين، كل ما جمعه من أجل التصدي للعدوان: ٧٥ دولاراً حديثه المهم عن الجوانب الاجتماعية والفساسية للمجتمع العربى بعد الهزيمة، تفسيره لمظاهر التدين، تأكيده على وجهى القضية: ﴿ إن يتصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم

فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون * • صاحب المذكرات هو الذي أنهى مهمته بنفسه، تفسير المؤلف بأن العاطفة الشرقية كانت وراء هذا القرار إلغاء زيارته لشيلي، موقف الجبالية العربية (الفلسطينية) في شيلي. ندم صاحب المذكرات على قراره بإلغاء زيارة شيلي وغيرها • حديث المذكرات عن موقف إيطاليا منا بعد حرب ١٩٦٧، إشارة المؤلف إلى مناقضة رأى حسين ذو الفقار صبرى لما يرويه محمد حافظ إسماعيل في مذكراته وقد كان سفيراً لنا في روما • أكثر الدول تأثراً بانسداد القناة هي دول الكتلة الشرقية الصديقة، تعطل إمدادات الاتحاد السوفيتي إلى فيننام الديمقراطية • حديثه عن قلقه على أسرته، معنى القداء، دمار الوطن، الضياع المطبق عليه العودة إلى الوطن، اللقاء بتواطينه وبابنه عمرو في المطار. الأمل يدب في أوصاله • حرص صاحب المذكرات على وصف محاولة إغراء تعرض لها في الأرجنتين سنة ١٩٦٤ • ثناء بحبي حقي على هذه المذكرات.

الباب الخامس: شرح في جدار الجامعة العربية

٣٧١ للدكتور عبدالوهاب العشماوي

التعريف بالمؤلف. ثقافته، مناصبه، عائلته، أهمية المذكرات، تاريخ نشرها، قيمتها، تفردا، خطورتها، منهج صاحب المذكرات في كتابتها • رأى المؤلف في أسلوب المذكرات وتنوعه • رأيه في أن أسلوب الجامعة تأثر بأسلوب الأمين العام، كيف تأثرت الجامعة بالأمراء الثلاثة، نجاح العمل العربي كان نتيجة جهود فردية شخصية • نجاحات الأمراء الثلاثة • نجاحات أحمد أمين وطلح حسين والسنيهوري والعشماوي ومنازع الحصري وصلاح السنجد وبحبي أبو بكر • نظرنه إلى محمود رياض في تعال شديد، تحفظ المؤلف على وصف صاحب المذكرات للوحدة بالواقعية، أسلوب محمود رياض كان هزة عنيفة • موقف عبد الحالقي حسونة عند خروجه من منصب الأمين العام • أسباب عجز الجامعة العربية، انتقاد الجهاز العلمي المتخصص، هل كانت عند الجامعة دراسة حول الدول العربية التي انضمت أخيراً إلى الجامعة؟ انتقاد الأسلوب الذي نشأت به الإدارة السياسية للجامعة وأسلوب عملها، بروكول الجامعة والميثاق • أول مدة للأمين العام الأول كانت سنتين • عباراته الإنشائية عن بقاء الجامعة العربية كما عسى في معالجتها للقضايا السياسية • رأيه في جمود الجامعة تجاه القضية العربية الكبرى قضية فلسطين • الجامعة العربية فشلت

في مواكبة استعمال مصر لأحدث وأذكى أساليب الدبلوماسية المعاصرة، كان على الجامعة أن تحتوي الانحياز المصري الجديد ولكنها فشلت • الفارق بين الأسلوب المصري الجديد وأسلوب الجامعة كالفارق بين مفاعل ذري عملاق وموقد غاز • أمه في أن يتبه المستولون • يرى أن النقاش كان يجب أن يدور حول سؤال واحد: هل ما فعلته مصر كان صلحا متفردا أم مقدمة لعمل عربي شامل من أجل تحقيق السلام الكامل ؟ • مشكلة التمثيل الفلسطيني، موقف مصر، تحمل مصر لإقامة حكومة عموم فلسطين، الدور الذي حسنت به مصر مشكلة التمثيل الفلسطيني في مؤتمر الرباط • لم تسلم مصر من القول بأنها أرادت أن تجمد نشاط المنظمة وأن تطيع الثورة الفلسطينية بالطابع الدبلوماسي • مصر سبقت الجامعة في الحزب والسلام • الجامعة فوجئت بحزب أكتوبر ١٩٧٣ مفاجأة مذهلة ولم تستوعبها • الجامعة تترنح وهي تعالج قضية المصير - الجامعة تؤجل بحث موضوع دعم الصمود في الأراضي المحتلة إلى دورة مقبلة • سخرية صاحب المذكرات ومرارته من هذا القرار • السبخوخة تدهم الجامعة، مصر ثابتة على موقفها المرسوم والجامعة لا تفيق من الصدمة • نقاط الضعف في ميثاق الجامعة • الأمانة العامة عاجزة، أمناء العموم يتنبهون إلى عجز الأمانة، انتقاد سياسة محمود رياض في الاستعانة بالخبراء • اعتراض صاحب المذكرات على وجهة النظر القائلة بأن جهاز الجامعة جهاز إداري • نشأة المنظمة العربية المتخصصة • تكرار الكيانات داخل الأمانة العامة • الازدواجية تزدهر • تجربة التطوير في السبعينيات، تلخيصه وانتقاده لتتأججها في ظاهرها الرغبة وفي باطنها العذاب • تنازع التطوير على مستوى الأشخاص • العنت الذي لقيه محمود رياض حتى نهاية ١٩٧٣ • الصراع بين الأمين العام ومجلس الجامعة قصة خروج عبدالحالق حسونة من منصب الأمين العام • التبرص بالأمين العام وبالنخبة الطيبة من معاونيه • العبث الذي ساد سياسة الإعلام في عهد محمود رياض • الإعلام الخاص والإعلام العام • ثلاثون مليوناً من الدولارات نفقات الإعلام الخاص • سخرية صاحب المذكرات من الأهداف التي تبناها الإعلام الخاص، السرية التي أحاطت ببيانات البشرين - هذا الإعلام الخاص لم يخرج معاند يسمح بتقييم نتائج أو دراسة أسباب فشله • تقييمه لمحمود رياض • إحاطته بالتقضية الفلسطينية حتى مرحلة معينة فقط، صعوبة مهمته في الجامعة العربية، اضطرابه إلى العيش في

دوامه التغير والتطوير • صدام الأمين العام مع الرقابة المالية • استقالة محمود رياض من منصب الأمين العام، ماذا دار في ذهنه • وصف العشماوى لآخر يوم فى أيام محمود رياض فى الجامعة الحديث عن ذكرياته فى الجامعة العربية، حوارات والديه عن الجامعة العربية، قصة وصف أم كلثوم للجامعة.

الباب السادس : طرائف دبلوماسية

٤١٥

للسفير جمال بركات

مكانة الكتاب بين كتب التراجم، اختيار موضوع الحديث، الكتاب أشبه بفيلم تسجيلى كوميدى إن صبح هذا التعبير، خصوصية طرائف الدبلوماسيين التى يتحدث عنها الكتاب، صاحب الكتاب مقتصد فى القول سريع الوصول إلى الهدف، اهتمامه برمة البيت والمقارن المعادى • انتماء صاحب المذكرات إلى جيل الدبلوماسيين الذين شهدوا وشاركوا فى التفسير الذى أصاب المهنة الدبلوماسية، انعكاس هذا المعنى على آرائه فى الكتاب • تنبيهه إلى مشاق المهنة الدبلوماسية ومتاعها، إيجابيات الدبلوماسية، إحساسه بأهمية نقل التجربة • توجيه النصيح لزملائه بضرورة التعرف على البلدان المجاورة: لكل القضايا الداخلية جذور تاريخية تفسرها علاقات الجوار • اللقاءات بين الدبلوماسيين هى أمتع ما فى الدبلوماسية فى نظر صاحب المذكرات، قصة معرفته بروى اثرتون فى حلب ثم اللقاء فى واشنطن ثم فى القاهرة • ما يذكره عن تجربة توطيخ الفلاحين المصريين فى العراق، دعائم التجربة، عوامل نجاحها، ما انتهت إليه، بعض الجوانب السلبية، تقييم التجربة بعد عشر سنوات ١٩٧٦ - ١٩٨٦، انطباعات الرئيس العراقى أحمد حسن البكر عن التجربة • آراؤه فى سياسات التعاون الدولى، ما تحتاجه أفريقيا ليس لجنا أكاديمية، وإنما تدريب عملى ومزارع تجريبية ورأس مال وإرشاد زراعى ومكافحة آفات • تفسيره لبقاء الدول الأفريقية بلا استقرار سياسى، رآه أن أسلوب الحكم هو سبب كل المشكلات وليست الطبيعة، الانتماء القبلى فى أوغندا أقوى من الانتماء القومى، تنديده بالدكتاتورية • تعليقه على مظاهر التخلف الاقتصادى فى أفريقيا ومصاعب التنمية، زيارة لمعسكر يتبع الأمم المتحدة لاستخراج المياه من باطن الأرض لشرب المواطنين، تعبيره عن شكه فى أن أحداً فى الأمم المتحدة لم يسمع عن جهد هذا الجندى الجهول • نقطة التفتيش العلى واصطيد ذبايات الناسى نسي • حديثه عن البروتوكولات،

كيف يمكن نفاذ المواقف المحرجة، المؤلف ينقل فقرة من كتاب للسفير سعد الفطاطرى عما حدث يوم تقديم الدكتور محمود فوزى أوراق اعتماده سفيراً لمصر فى بريطانيا • هل يحق للحاصلين على بكالوريوس الطب والزراعة التقدم لامتحان السلك الدبلوماسى - رأيه فى مشاركة المرأة فى السلك الدبلوماسى، تعليق المؤلف على هذا الرأى وتحفظه عليه ونعجبه أن يصدر عن صاحب هذه المذكرات • قيمة الكتاب فى تنمية المعرفة بالآخرين. تجربته فى الاندماج التام فى المجتمع الأمريكى • تعليقه على أسيويا وإمبراطورها • حديثه عن الشعب السوفيتى وطبائه ومزايده المؤلف يُلخص آراء صاحب المذكرات فى فنلندا كنموذج لحديثه عن السياسات والمجتمعات الأخرى • اخطف الخارجى للسياسة الفنلندية: مزيج من الحياد وعدم الانحياز مع الابتعاد عن المحاور مع علاقات خاصة بالاتحاد السوفيتى. سياسة الفنلدة، الانطباع الخارجى أنها بلد شيوعى، هناك حزب شيوعى ولكن قوته لا تزيد على ١٥٪ • ولكن لا يمكن تشكيل وزارة معادية للسوفييت لا يمكن إقناع الغرب بحياد فنلندى حقيقى • السمات الاجتماعية للشعب الفنلندى: أثر الطقس فى حياة الفنلنديين، مشكلة الكحوليات، ممارسة الشعب للرياضة • المشاعر القومية والفقرات العاطفية فى كتاب جمال بركات، حديثه عن تطابق المسلمين المصرى والعراقى، قصة استعارة السلام المصرى فى تقديم أوراق اعتماد السفير العراقى فى فنلندا حديثه عن ذكرياته عن الوحدة مع سوريا • حلب تموج بالمشاعر الوطنية، زيارة السادات لحلب فى ١٩٥٧، زيارة عبدالناصر فى ١٩٥٨، صاحب المذكرات هو الذى أنشأ القنصلية المصرية فى حلب وهو الذى أغلقها بعد تحقيق الوحدة تعاطف الشعور القومى أثناء حرب ١٩٥٦. قصة الباخرة المصرية والقيطان الإنجليزى، نجاحه فى تنفيذ المهمة أزمة الباخرة كلبوباترا (١٩٦٠) فى ميناء نيويورك، العمال بقاطعون الباخرة، محاولاته لحل المشكلة مع الحكومة الأمريكية دون جدوى، الحضور الطاغى للزعيم عبدالناصر تكفل بحل المشكلة • حديثه عن الجو النفسى الذى عاشه الدبلوماسيون أثناء الحرب مع إسرائيل. يتنازل عن أقدميته لسفير الهند ثم يستردها، بهذا نفاذ أن يكون إلى جوار السفير الإسرائيلى • قصة غلاف هذه المذكرات، بذلة الصباح بالإيجار • الطبيب الإيراني جراح التجميل ناجح جداً فى تجميل كل الأنوف ما عدا أنف زوجته.

١٩٥٨: صاحب المذكرات هو الذى أنشأ القنصلية المصرية فى حلب وهو الذى أغلقها بعد تحقيق الوحدة نعظم الشعوب القومى أثناء حرب ١٩٥٦، قصة الباخرة المصرية والقبطان الإنجليزى، نجاحه فى تنفيذ المهمة أزمة الباخرة كليوباترا (١٩٦٠) فى ميناء نيويورك، العمال يقاطعون الباخرة، محاولاته لحل المشكلة مع الحكومة الأمريكية دون جدوى، الحضور الطاغى للزعيم عبدالناصر نكفيل بحل المشكلة • حديثه عن الجو النفسى الذى عاشه الدبلوماسيون أثناء الحرب مع إسرائيل، يتنازل عن أقدميته لسفير الهند ثم يستردها، بهذا نقادى أن يكون إلى جوار السفير الإسرائيلى • قصة غلاف هذه المذكرات، بذلة الصباح بالإبحار • الطبيب الإيرانى جراح التجميل ناجح جداً فى تجميل كل الأنوف ما عدا أنف زوجته.

معارك التفاوض

قد يكون من براعة الاستهلال أن تقول إن الدبلوماسيين الذين تعرض مذكراتهم في هذا الكتاب لم يكونوا في كتابتهم للمذكرات دبلوماسيين على حسب مدلول التعبير اللغوي في حديث المصريين، وإنما كانوا أقرب ما يكونون إلى طبائع مهنتهم وثقافتهم وشخصياتهم. فمحمود رياض العسكري الذي عمل بالدبلوماسية مبكراً، يظل عسكرياً يعمل بالدبلوماسية، وعصمت عبدالمجيد مازال - كما ينمى - المحامى الذى يجيد كتابة المذكرات النازعة إلى الوصول إلى الهدف فى أقصر عبارة، أو مع كما بدأ حياته أحد رجال قضايا الحكومة. أما محمد إبراهيم كامل فهو الوطنى الذى اختلطت الوطنية الساخنة بدمه الساخن على الرغم من صقيع أوروبا وبرودة كل أجهزة التكييف فى المباني والمنشآت الدبلوماسية. كذلك فإن حين ذو الفقار صبرى لا يخفى انتقاداته ولا إيجاباته وإنما هو يبرزها فى وضوح ودون أدنى حذر أما عبد الوهاب العشماوى فإنه يجاهر فى مذكراته بما لا يظن الناس أن أحداً قد همس به من قبل حين كانت الآراء تتدافع دون روية من أجل عزل مصر عن العرب، ومع أن جمال بركات يبدو بعنوان مذكراته أبعدهم عن مناطق الحرارة والسخونة فإن مذكراته حافلة بالدفاء والحماس وتجنب السلوك الحذر المنحسب للعواقب.



هكذا نجد أنفسنا أمام مجموعة من المذكرات الواعية لما تقدمه ولما نعتبر عنه، ولما هي

مهيئة لأن تكون مصدراً له ومتبعاً، بل مستودعاً، ذلك أن هذه المذكرات سوف تظل دائماً في المكتبة العربية وفي ضمير الأمة زاداً للحدث عن الأجواء المتباينة التي أحاطت بقضاياها ووطن عظيم في النصف الثاني من القرن العشرين، وشكلت كثيراً من القرارات المصرية، بل التحولات المصرية نفسها.

سوف نقرأ في هذه المذكرات انطباعات مهمة تعكس كثيراً من اللحظات الحاسمة التي غيرت مجريات التاريخ العربي في كثير من الاتجاهات، وسوف نعيش مع سطور أصحاب هذه المذكرات مشاعر متباينة ومتنامية ليس أقلها الأمل والقلق والضجر والبأس والفخر والانشاء والهلك والخيرة، وسوف نجد أصحاب هذه المذكرات وقد أجادوا بالفعل التعبير عن الملاحظات النفسية التي ألزموا أنفسهم بالحدث عنها.

ف

وقد يحلو لى أن أصور بعض الخلفيات في كتابة هذه المذكرات :

وإني لوائق - على سبيل المثال - أن محمود رياض قد بذل في كتابة ما كتب أضعافاً مضاعفة للمجهود الذي بذله في التحضير لأية مفاوضات أو لقاءات حضرها، فهو معنى بكثير من التفاصيل التي استقفاها من المحاضر التي لا تنتهي، وهو حفي بالتعاقب الزمني وبأصداء الفعل وردود الفعل، ولولا أنه ألزم نفسه كما ذكر في مقدمته بحجم معين في الطبعة الإنجليزية، لكان حجم كتابه قد وصل إلى ثلاثة أضعاف ما هو عليه.

ف

وعلى اليد الأخرى نجد أحمد عصمت عبدالمجيد وهو يقدم مذكراته في بساطة وعفوية ونلقائية وسلاسة، وكأنه يتحدث في أحد عشاءات أندية الروناري أو الليونز وما شابهها حين يقدر المتحدث أن حديثه في أحد جوانبه هو أحد مقبلات الطعام، وهو في جانب آخر أحد أسباب الاجتماع، وهذه البساطة والعفوية والنلقائية والسلاسة هي التي ترتفع بقيمة مذكرات أحمد عصمت عبدالمجيد إلى ذرى رفيعة من القدرة على التعبير. لأن الفكرة (بل الأفكار الكثيرة جداً) واضحة جداً. والرؤية من وراء الفكرة أكثر وضوحاً وأكثر إيضاحاً للفكرة. وعندى أن مذكرات عصمت عبدالمجيد تفوق مذكرات محمود رياض بمراحل كثيرة، لأن فيها رؤية كبيرة جداً وفكرة كبيرة جداً. أتراني أسرفت في استخدام تعبير «جداً» أم نراتي أمام نفسي عاجزاً

عن الوفاء للمذكرات بما تستحق من تقدير وبخاصة أنى قد وضعت نفسى فى اختبار
عبر كحكيم وناقد فضلاً عن أنى قارئ وعارض !



وأستطيع أن أصف مذكرات محمد إبراهيم كامل بكل ما وصفت به مذكرات
عصمت عبدالمجيد، لولا عامل واحد فقط هو عامل الوقت، فقد اقتصر محمد إبراهيم
كامل لنفسه ولمذكراته - على شريحة من الزمن لا تتعدى العام، وقد أجاد وأفاد فيما فعل
وفى ما كتب، ولو أنه كان مجرد سفير تقليدى أو كلاسيكى صار وزيراً للخارجية لفترة
قصيرة لأنها هو بإرادته حين استقال لتقبلنا منه هذا الذى فعله فى اختزال حياته كلها فى
هذه السنة، ولقلنا إن مذكراته لا تقل شأنًا عن مذكرات أحمد عصمت عبدالمجيد، ولكن
لأنه محمد إبراهيم كامل بالذات فإننا نأخذ عليه أنه ترك بقية حياته دون أن يقدمها حين
كتب مذكراته، ولا أحد يجهل أنه كان أحد المتهمين فى قضية وطنية كبرى تعرض
بسيها للاعتقال والسجن والانهام والمحاكمة، وهى تجربة ثرية إلى أبعد حدود الثراء حتى
لو لم يكن شريكه فيها هو رجل مصر العظيم الرئيس أنور السادات. كذلك فإن فى
حياته العامة فى أول الثورة أكثر من ومضة من ومضات حماسه وثورته وإخلاصه وطهره
ونقاته، وله موقف واضح من اعتزال صلاح سالم الحكم ولم يكن هو (باعباره أحد
مساعديه المقربين) راضياً عن أن يعتزل صلاح سالم الحكم. وفى بعض الروايات أنه كاد
يتهور من أجل دفاعه عن رأيه هذا.. ولكن هذا كله لا يرد أبداً فى هذه المذكرات.

كذلك فإنه كان عديل نائب وزير الخارجية أحمد خيرت سعيد، الذى استبعد من
الوزارة بسبب تصريح صدر منه فى شأن التفاوض مع إسرائيل، وبعض الناصريين يقولون إن
تصريحه كان باللون اختبار من عبدالناصر فلما قامت قيادة العرب المتحمسين كان لابد
من التضحية بمطلق البالون! ويبدو أن محمد إبراهيم كامل كان قادراً على أن يحدثنا عن
هذا كله بتفصيل ووضوح ولكنه لم يفعل.



أما حسين ذو الفقار صبرى فهو يبدو فى القطاع الذى اقتطعه ليروى فيه تجربته الذاتية
أكثر بخلًا من محمد إبراهيم كامل إن صح هذا التعبير، فهو يكتفى بتجربة واحدة هى
أحلك تجربة نمر يانسان، وهو لا يروى لنا من حياته كلها إلا تلك الأيام السوداء فى
هزيمة يونيو ١٩٦٧، وهو يستيقظ ذاته ويتأمل ويفعل ويكتب ويتألم ويضع بالشكوى

والقلق والضجر والبأس والمرارة والخيرة والضيق، لكنه مع ذلك كله يجد في إيمانه نور الأمل، ووهج العزة والكرامة، وليس أصدق في تصوير صدق مذكراته من أن نذكر أنه كتبها ونشرها بينما كانت الهزيمة سارزالت قاسية وثقيلة، ولما نظهر في الألق بعد أية بشائر - مما ظهر بعد كتابه - من عودة الروح في حرب الاستنزاف.

ولسنا نستطيع أن نلوم حسين ذو الفقار صبرى بما لنا به محمد إبراهيم كامل، فإن الحديث في وقت المأسى لا يتسع من تلقاء نفسه لاسترجاع الحياة الطويلة أو استعراضها.

ولكننا لا نستطيع إلا أن نأأسف على ما فاتنا من حديث هذا الرجل القادر على الكتابة على هذا النحو الجميل الذى رأيناه في هذه المذكرات، فها هو قد رحل دون أن يجد وطننا الحاضر أو الدافع الذى كان كفيلاً بأن يدفعه إلى أن يسجل لنا ما كان قادراً على أن يسجله من تجارب حياته الممتدة منذ كان بطلاً رياضياً ثم بطلاً سياسياً حاول التهرب مع عزيز المصرى وعبدالمعتم عبد الرؤوف فى أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم كان من الضباط الأحرار، ثم كان الرجل المسيطر على جهاز الدبلوماسية المصرية لفترة طويلة جداً من الزمان.



أما الدكتور عبد الوهاب العشماوى فقد قدم كتاباً كان فرضاً عليه أن يقدمه لأنه كان الوحيد المكلف بأداء هذا الفرض، لعل إلى الفقه الإسلامى لاستعير التشريق بين فرض الكفاية وفرض العين، ففرض الكفاية هو الذى يقال فى تعريفه إنه الفرض الذى إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، وذلك فى مقابل فرض العين الذى هو فرض على كل إنسان حتى لو قام به كل الآخرين، فليس يعنى عن الواحد منا أن الباقين يصلون، بل هو أتم إذا لم يصل. ولعل إلى المنطق لأقول إنه إذا كان البعض واحداً فقط فقد أصبح فرض الكفاية عليه فرض عين ملزماً يؤثم إذا لم يؤده، وقد قام عبد الوهاب العشماوى بهذا الفرض خير قيام، فصور لنا بدقة وطرافة الجامعة العربية وما انتابها من شروخ حين قادتها الظروف إلى هذه الشروخ!



ومع كل هذه الضروب من التعامل مع الحياة والتجارب التى تقابل الإنسان فيها، فإن دبلوماسياً سادساً هو جمال بركات يقدم لنا طرازاً مختلفاً من كتب المذكرات الشخصية

التي تتناول الدبلوماسية دون أن تنوء بأعباء وظيفة كبيرة كأعباء وزارة الخارجية أو الجامعة العربية ، لهذا يتبقى لكتابه طعم خاص ونكهة خاصة وسط بارود الدبلوماسية ورائحته التي تسود صفحات كثير من هذا الكتاب.

ولست أدبغ سرأ ولا أفضيه ولا أغري به إذا قلت إن هذه المذكرات جميعاً حافلة بالأسرار ولكنها تتقدم إلينا مغلقة تماماً، سواء غلفت بالفاظ شفافة أو بالفاظ سميكة لا تسمح للعين أن ترى ما في داخلها إلا أن نكون قادرين بحكم الخبرة على أن نفرض الالفاظ نفسها لتعرف ما وراءها.

وقد حاولت قدر ما استطعت أن أفض الأسرار والأستار من أجل تبين الحقيقة أمام قراني في كثير من القضايا التي نستحق حقائقها الجهد من أجل الوصول إليها. ولكني التزمت أيضاً بكثير مما التزم به كاتبو المذكرات من إضفاء بعض الآثار على بعض الأسرار.



وسوف يلاحظ القارئ أن الصراع العربي - الإسرائيلي يلقى بظله تماماً على كثير من صفحات المذكرات والصفحات التي تناولتها، وليس هذا بغريب، وقد حاولت أن أستخلص للقارئ العبرة من تأمل حركة التاريخ في هذا الصراع دون أن أشغله بكثير من تفصيلات جزئياته، والحق أن الصراع نفسه كان مجالاً رحباً لفهم حقائق الحياة نفسها، ولتفهم مسار التاريخ كذلك، ولست أملك إلا أن أشير إلى أن قراءة واستيعاب أي مذكرات من هذه التي بين أيدينا كفيلة بالارتفاع بمستوى الإدراك الفعلي لا السياسي فحسب لقارئها، أقول هذا لأستحث الآباء والمعلمين وذوي المسؤولية أن يدفعوا بهذه الكتب إلى أبنائهم كيما يتشكل وعيهم بالحياة على نحو كفيل للحياة بأن تحيا في أرقى وأرق وأدق صورها.



بقي أن أشير إلى بعض ما يبدو من تداخل في كتابي هذا وبين كتابي الأخرى التي تناولت المذكرات، فقد كان كتاب إسماعيل فهمي «التفاوض من أجل السلام في الشرق الأوسط» هو أول ما تناولت من كتب الدبلوماسيين، بل كان أول كتاب مذكرات أنشر نقداً له في ١٩٨٦، وقد خصصت له الباب الرابع من كتاب «مذكرات وزراء الثورة»

ولولا أنى لا أحب ولا أستطيع أن أكرر باباً من أبواب كنى فى كتاب آخر، لكان فى طليعة الكتب التى يتناولها هذا الكتاب.

أما كتاب السفير جمال منصور فى الثورة الدبلوماسية فقد تناولته فى الباب الخامس من كتابى «مذكرات الضباط الأحرار»، ولو أنى خبرت بين وضعه هنا أو هناك لتحيرت قليلاً ثم تخيرت أن يكون هناك، ففيه عن الثورة أكثر مما فيه عن الدبلوماسية، وإن كانت الدبلوماسية - فى أسلوب كتابته - تفوق الثورة.

أما جمال حسن على فى «مشاوير العمر» فقد جمع الدوائر الثلاث فى مؤسسات الدولة الكبرى الحربية والخرجية والمخابرات، ولهذا فإنى لو خبرت فسوف أبقيه كما هو بمثابة الباب الأول فى الكتاب الأول «مذكرات وزراء الثورة»، وهو - حتى الآن - أكبر مسئول تنفيذى كتب مذكراته على هذا النحو.

ومن بين وزراء الثورة أصحاب المذكرات الذين عملوا بالسلك الدبلوماسى يأتى الدكتور ثروت عكاشة، وقد تناولت ما تناوله من مهامه الدبلوماسية فى الباب الثالث من كتاب «مذكرات وزراء الثورة»، ولو خبرت لظل الموضع على ما هو عليه، على الرغم من أنى اقترحت عليه فى كتابى السابق أن يعيد تسميته «فى الثقافة والدبلوماسية» بدلاً من «الثقافة والسياسة».

ومع أن محمد حافظ إسماعيل عمل سفيراً أربع مرات ووكيلاً لوزارة الخارجية ووزيراً للدولة للشئون الخارجية وتناول هذه المهام كلها بقدر كبير من التفصيل فى مذكراته، إلا أنه كان فى واقع الأمر معنياً تماماً بالفكرة الملحة عليه، سواء فى حياته المهنية وحتى عنوان مذكراته وهو «أمن مصر القومى»، ولهذا فإنى أثرت ومازلت أؤثر أن يكون مكانه الباب الأول فى كتابى «مذكرات قادة المخابرات والمباحث: الأمن القومى فى مصر».

ونستطيع أن نكرر نفس وجهة النظر فى أمين هويدى، الذى عمل سفيراً فى المغرب والعراق وكتب كتاباً عن سفارته الثانية بعنوان: «كنت سفيراً فى العراق»، ولكن تبقى اليد الطولى والمكانة الأسمى لمهامه الكبرى فى الأمن القومى بمعناه الواسع.

وتبقى مذكرات الدكتور بطرس غالى، وأظننى أكون متعسفاً لو أنى صنفته ضمن

الدبلوماسيين المصريين، وهو الذى لم يعمل إلا وزيراً للدولة للشئون الخارجية، ومع أنه يتبوأ أرفع المناصب الدولية فإن علاقته بالدبلوماسية تظل منقطعة في إطار الدبلوماسية الخارجية، ولهذا فإنى أفتوى أن يكون الحديث عن مذكراته في كتاب آخر يعنى بمذكرات الأكاديميين والأيدولوجيين من رجال الحكم فى عهد الثورة! مع أنى انتهيت من كتابة الجزء الخاص بمذكراته، بل ونشرت بعضه فى «مجلة العربى» الكويتية فى نوفمبر ١٩٩٧.

ولست بمستطيع أن أنتهى من هذه المقدمة دون أن أشير إلى أنى بدأت كتابة هذا الكتاب منذ حوالى سبع سنوات، مع أن الباب الأول منه هو أحدث ما كتبه بحكم أن موضوعه لم ينشر إلا فى عامنا هذا. ولكن ظنى أن الروح المسبطرة على أبواب الكتاب كله تكاد تكون واحدة أو هكذا نراى لى وأنا أقرأ هذا الكتاب للمرة الأخيرة

والله سبحانه ونعالى أسأل مرة ثانية وثالثة أن يعيننى على نفسى، وأن يعيننى على عملى، وأن يعيننى على شكر نعمه وآلائه، وعلى الوفاء بحق وطنى ومواطنى على، ولست أظنى قادراً على بعض هذا كله إلا أن يشهدنى بفضلله وكرمه ونوفقه ورحمته.

د. محمد الجوادى

مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية
من أجل السلام

1

زمن الإنكار والانتصار
مذكرات دبلوماسي عن أحداث
مصرية وعربية ودولية
للدكتور أحمد عصمت عبد الحفيد

دار الخيال

(١)

يعد الدكتور أحمد عصمت عبد المجيد بلا جدال إحدى الشخصيات اللاعبة، وذات الأثر الهام في الدبلوماسية المصرية منذ أوائل عهد الرئيس السادات، بل ربما منذ أواخر عهد الرئيس عبدالناصر... ويمكن القول أن الدكتور عصمت عبد المجيد كان اليد اليمنى للدكتور محمود فوزى في رئاسة مجلس الوزراء، فقد عين في التشكيل الوزاري الثاني للدكتور فوزى (نوفمبر ١٩٧٠) بعد أربعين يوماً من بداية عهد السادات كوزير دولة، وكان من الواضح أنه يتولى معاونته رئيس الوزراء في أمور مجلس الوزراء، لأنه كان هناك وزير دولة آخر هو محمد حافظ إسماعيل، وهو أيضاً ممن عملوا لمدة طويلة في الدبلوماسية المصرية شأن محمود فوزى وأحمد عصمت عبد المجيد. وبدخوله الوزارة كان الدكتور أحمد عصمت عبد المجيد واحداً من أول مجموعة من الوزراء في عهد السادات، فإن لم يكن هو أول وزراء عهد السادات فهو الأول مكرر.

ولد الدكتور عصمت عبد المجيد في الثامن والعشرين من مارس سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وألف (١٩٢٣) وهي السنة التي تخرج فيها الدكتور محمود فوزى في كلية الحقوق^١، وتخرج في كلية الحقوق جامعة الإسكندرية سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وألف، وفي هذه السنة تخرج أيضاً المستشار أحمد عبدوح عطية والمستشار فاروق سيف النصر ووزير العدل فيما بعد ذلك. والدكتور أحمد خليفة وزير الشؤون الاجتماعية فيما قبل ذلك، والصحفيان الأديبان الأستاذان موسى صبرى وعبد الرحمن الشرقاوي وأحمد فؤاد رئيس بنك مصر والدكتور مصطفى كامل الذي ترأس محكمة النقض في ختام خدمته، والدكتور أحمد ثابت عويضة الذي ترأس مجلس الدولة في ختام خدمته.

حصل الدكتور عصمت عبد المجيد على دبلوم فى المالية والاقتصاد والسياسة من جامعة باريس ثم على الدكتوراة فى القانون الدولى من ذات الجامعة، وعمل بالسلك الدبلوماسى سكرتيرا لسفارة مصر فى لندن (١٩٥٠ - ١٩٥٤) وهى فترة من أحرج فترات العلاقات بين البلدين.. ثم رأس قسم بريطانيا فى وزارة الخارجية المصرية، وشارك فى الإشراف على تنفيذ اتفاقية الجلاء... واختير بعد ذلك مستشارا للوفد الدائم لمصر فى مقر الأمم المتحدة فى جنيف، ورأس عام ١٩٥٨ البعثة المصرية التى استأنفت العلاقات مع فرنسا... ثم عاد للعمل مستشارا قانونيا بوزارة الخارجية.

وفى مارس ١٩٦٢ عمل عصمت عبد المجيد مديرا لمكتب وكيل الوزارة (وعو يومئذ حافظ إسماعيل الذى دخل الوزارة بعد ذلك مع عصمت عبد المجيد فى نفس اليوم)، وفى نوفمبر ١٩٦٣ عمل عصمت عبد المجيد كوزير مفوض بسفارة مصر فى باريس، ثم عاد للعمل (نوفمبر ١٩٦٧) كمدير لمكتب وكيل الوزارة (أحمد حسن الفتى).

وفى آخر عهد الرئيس جمال عبد الناصر (سبتمبر ١٩٦٩) اختير الدكتور عصمت عبد المجيد كرئيس لهيئة الاستعلامات ومتحدثا رسميا باسم الدولة، ولم يلبث فى هذا المنصب إلا قليلا إذ عين فى أبريل ١٩٧٠ سفيراً فى فرنسا (وهو البلد الذى تعلم فيه، وقاوض لإعادة العلاقات معه، وعمل كوزير مفوض فيه).. ومن باريس جاء الدكتور عصمت عبد المجيد ليشغل منصب وزير الدولة فى وزارة الدكتور فوزى، وليكون الوزير المتوط به رفع المخاضات... ثم وزيرا للدولة لشئون مجلس الوزراء بالاسم بعد الفعل (مايو ١٩٧١ - يناير ١٩٧٢) بالنص على اختصاصه هذا فى قرارى التشكيل الخاصين بوزارنى الدكتور فوزى الثالثة والرابعة.

وعقب خروجه من الوزارة مباشرة عاد إلى العمل الدبلوماسى (وهى العودة الثانية إلى هذا السلك بعد العودة الأولى فى أبريل ١٩٧٠)، وقد عين مندوبا دائما لمصر فى الأمم المتحدة، ليخلف بذلك الدكتور محمد حسن الزيات، وكان قد خلفه من قبل فى منصب رئيس هيئة الاستعلامات، ومنذ ذلك اليوم وحتى صيف ١٩٨٣ شغل الدكتور عصمت عبد المجيد هذا المنصب، فكان بذلك صاحب أطول فترة فيه، وقد ساهم من خلاله فى تنفيذ السياسة المصرية الخارجية وتقييمها لمدة طالت عن أى مدد أخرى لغيره من الدبلوماسيين فى عهده الرئيسين السادات ومبارك.

عندما كلف السيد كمال حسن على بتشكيل الوزارة (أغسطس ١٩٨٤) فى أعقاب

وفاة الدكتور فؤاد محيي الدين نزامن هذا مع وقوع الاختيار على الدكتور عصمت عبد المجيد وزيراً للخارجية خلفاً لكمال حسن على نفسه. وقد بقي عصمت عبد المجيد في ذات الموقع في وزارة الدكتور على لطفي ووزارتي الدكتور عاطف صدقي الأولين حتى رشح (ثم انتخب) أسبنا عاما للجامعة العربية (في ١٩٩١) وعند تشكيل وزارة الدكتور على لطفي عين نائباً لرئيس الوزراء بالإضافة إلى منصبه كوزير الخارجية وبتعيين المشير أبو غزالة مساعداً لرئيس الجمهورية حتى ١٩٨٩ أصبح عصمت عبدالمجيد ثاني شخصية في الوزارة بعد رئيسها الدكتور عاطف صدقي مباشرة.

(٢)

أما هذه المذكرات فهي هادئة وهادفة ومهمة وقد نشرها صاحبها وهو لا يزال في منصبه متمتعاً بكل صور الجاه والاحترام والتقدير والاهتمام. كما أنه في الوقت ذاته حريص على ألا يثير أي غبار أو زوابع أو عواصف، متمسكاً فيما كتب وسجل بما يحرص عليه من يكسبون مذكراتهم من إبراز دور الذات، وحريصاً في الوقت ذاته على ألا يتطور هذا التمسك إلى أية صورة من صور الترسجية أو الأنانية أو الذاتية، وهو في كل ما تضمنته هذه المذكرات مولع بالصدق وبالوضوح وبالمنظرة الشاملة ولعاً شديداً لا يقل عن حبه لوطنه العربي وبلده مصر، بل عن حبه لذاته، وهو متميز في الجرح على هذه الجوانب الإيجابية من صراعات الحياة، لكنه يفعل هذا بصورة ذكية نبهزه على أنه أكثر المثاليين واقعية، مع أنه فيما كتب لم يصور نفسه إلا على أنه من الواقعيين وربما يكون من أكثرهم مثالية. ولكن تواضعه أضاف إليه الرفعة التي يستحقها، كما أضاف صدقه إليه بعداً من العقل والكمال ليسا بجديدين عليه وعلى شخصه.

وهناك مفتاح من أطرف ما يمكن، يصور لنا نجاح هذا الرجل طيلة حياته في أن يستمر لهذه الفترات الطويلة في هذه المناصب المرموقة التي شغلها، فقد ظل هذا الرجل طيلة حياته وهو ينوق إلى ممارسة المحاماة، وهي العمل الحر الذي هيأته له دراسته القانونية في كلية حقوق الإسكندرية ثم في جامعات باريس، ولكنه ظل بعيداً عن هذه الممارسة إلا عاماً وبعض عام، فيما بين بلوغه السن القانونية ثم اختياره وزيراً للخارجية ..

ومن الطريف أن أحداً من وزراء الخارجية في عهد الثورة لم يصل إلى هذا المنصب بعد سن الستين باستثناء هذا الرجل، وهو ما يدلنا على أنه، مع تقدم السن به، لم يستعد عن إمكانية تمثيل روح القدرة على التأقلم مع حوادث الزمن والسيطرة عليها. وحين أُخبر لشغل منصب الأمين العام للجامعة العربية كان أيضاً في سن متقدمة، ولكن نشاطه الملحوظ وروحه الشابّة القدرة على التحمل الفعال أو التواؤم الطبيعي أو التأقلم الإيجابي أو التحكم المنزّن، روحه هذه كانت لا تزال قادرة على أن تقدمه بثقة لهذه المناصب ولغيرها.

وسوف نجد هذا المعنى واضحاً كل الوضوح في مذكرات هذا الرجل، الذي كان على الدوام متقدماً في غير ضجيج (وهذا هو المهم) على زمانه بأفائه السرحية، وكانت عقلية السياسية قادرة على استشراف الصواب في حركة التاريخ بعيداً عن كل الأمجاد الزائفة والزائلة، ولأن هذا الرجل تقمص شخصية غيره عن معرفهم من مجوم حياتنا، فكان قد توقف بحياته وفكره عند أي من الفترات الأولى التي كان فيها اليد اليمنى للنائب وزير الخارجية الأولين في عهد الثورة أحمد خيرت سعيد وعبدانقاس حسن، أو عند عمله كمدير لمكتب وكيل وزارة الخارجية محمد حافظ إسماعيل وأحمد حسن الفقي، أو وزيراً لثبوت مجلس الوزراء مع رئيس الوزراء الدكتور محمود فوزي، ولكنه لم يحصر ذاته أبداً في أن يكون الرجل الرمادي، مع أنه أكثر من عرفنا في تاريخنا المعاصر لعباً لهذا الدور، وقد لعبه مع خسة مختلفي الأمزجة والمشارب، ومع هذا فقد كان على الدوام يستشرف الغد بغير ضجيج، حتى جاء هذا الغد يوماً بعد يوم متقاداً إليه، وإذا بالرجل يضيف إلى المناصب التي يحتلها وإلى رصيده العام ما يجعله على الدوام ملائماً لشغل ما هو أرفع، وما هو أهم، وما هو أكثر صعوبة، ولست في حل أن أصور ما لم يصوره هو من استيعاده من بعض المناصب في مراحل معينة حتى وإن عوض عن ذلك بما لا يقل عن هذه المناصب.

ومذكراته التي بين أيدينا صورة من نفسه، فيها الرفعة وفيها أيضاً الترفع الذي أسهم في صنع هذه الرفعة، ونحن نراه يقرأ لنا تاريخنا كما عاشه ورآه، وهو لا ينكر المشاعر المختلفة التي مرت به في حياته حتى ولو كان قد أخطأ في تكوينها، كما أنه لا يضمخ من الأدوار التي لعبها وإن كان في الوقت ذاته لا يستهين بها. ولا أريد أن أفيض في وصف منهجه في الحياة والسياسة والدبلوماسية، لكنني مع هذا أستطيع أن أصف هذا المنهج في كلمتين اثنتين بالتعاضدية المثمرة.

وعلى الرغم من أن حجم هذا الكتاب يبدو مضغوطاً بالنسبة للفترات التي تناولها فإننا نقدر من عصمت عبدالمجيد حرصه التام على تناول كل العموميات والكليات والمبادئ

والأفكار والبعد في ذات الوقت عن تفاصيل الجزئيات، ودقائق الخصوصيات، وخطوات التكتيكات، ونصوص التعبيرات، ولولا أنه اقتبس في كتابه بعض نصوص من محسن محمد، وموسى صبرى، ومن حديثه مع فوميل ليب، لقلنا إن الكتاب قد خلا تماماً من كل ما لا بد أن يخلو منه الكتاب «المتن» من كتب المذكرات.

ولعل هذه التسمية الكتاب «المتن» هي أصدق وصف يمكن أن يقدم لهذا الكتاب لولا أن مؤلفه حرص في الجزء الأخير منه على إيراد نصوص كلمات ألفت في الجامعة العربية (سواء ألقاها هو أو ألقاها الرئيس مبارك)... ومع هذا يظل الجزء الأكبر من الكتاب محتفظاً بهذا الوصف لطبيعته بين كتب المذكرات.

وأجذني مضطراً هنا لأن أكرر ما ذكرته في مقدمة هذا الكتاب حين قلت إن هذا الرجل يقدم مذكراته في بساطة وعفوية وتلقائية وسلاسة، وكأنه يتحدث في أحد عشاءات أندية الروتاري أو الليونز وما شابهها حين يقدر المتحدث أن حديثه في أحد جوانبه هو أحد مقبلات الطعام، وهو في جانب آخر أحد أسباب الاجتماع، وهذه البساطة والعفوية والتلقائية والسلاسة هي التي ترفع بقيمة مذكرات أحمد عصمت عبدالمجيد إلى ذرى رفيعة من القدرة على التعبير، لأن الفكرة (بل الأفكار الكثيرة جداً) واضحة جداً، والرؤية من وراء الفكرة أكثر وضوحاً وأكثر إيضاحاً للفكرة.

وقد وفق صاحب هذه المذكرات أبما توفيق في الحفاظ على قدر كبير من الصراحة والصدق مع الالتزام في الوقت ذاته بألا يجرح أحداً من الناس بسبب سلوكه أو رأيه رغم ما عاناه هو من انفعالات بعض من زاملوه، ولعل المثل الذي يرويه عن موقف صديقه السوري موفق العلاف يبيننا بما فيه الكفاية عن نجاحه في تحقيق هذا التوازن بين الثأر للنفس والثأر للحقيقة من ناحية، وبين الحفاظ على مشاعر الآخرين واحترام وجهات نظرهم التي تبدو له منذ البداية بعيدة عن الصواب من ناحية أخرى.

(٣)

يعترف صاحب هذه المذكرات أنه لن «يقدم فيها وقائع جديدة لم يتم تناولها من قبل»، لكنه «سيقدم هذه الوقائع من زاوية مختلفة»، وكأنه ينحسب لما سوف يهاجم به كتابه من

أنه لم يحدث الفرقة المطلوبة أو المعهودة في كتب المذكرات السياسية. ومن الطريف أن حسابات قصيرة النظر جعلت المسئول عن الدعاية لهذا الكتاب يتجاهل صدور المذكرات تماماً لولا أن الأهرام لفتت النظر إليه بما نشرت - سرياً - من حلقات معدودة منه، ولولا هذا لكان الكتاب قد صدر سراً.

وقبل أن ننقل النص الذي يتحدث فيه صاحب هذه المذكرات عن منهجه في كتابتها، فسوف نذكر أنها لم تخل من مواضع للحديث عن وقائع لم يتناولها أحد من قبل، من ذلك الحديث عن إقالة الدكتور محمد حسن الزيات في أثناء حرب أكتوبر، ومن ذلك الحديث عن موقف عبدالفتاح عمرو باشا من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. ومن ذلك الحديث عن دور صاحبها نفسه في إنقاذ مصر من وبلاات خراب محقق في أثناء حرب الاستنزاف كان بعض مسئولينا الإعلاميين والسياسيين يستمرثونه للأسف الشديد.

أما حديث عصمت عبدالجيد عن مذكراته فيقول فيه:

«... ومن تراكم الخبرات والتجارب، ومن عصارة القلب والفكر، وحصاد السنين والأعوام، قررت بعد طول تقدير وتردد، أن أضع بين يدي القارئ العربي هذا التاريخ. لا ليكون سيرة ذاتية ولكن تاريخاً لفترة، وشهادة للتاريخ أقدمها بصدق وموضوعية من موافقي المخلصة. ولست أعني بهذا بالضرورة أنني سأعرض وقائع جديدة لم يتم تناولها من قبل، لكنني سأعرض هذه الوقائع من زاوية مختلفة، وسأحاول أن أنقل للقارئ إحساسى بها وتجليلى لها عند وقوعها، كما سأعرض لما تركته هذه الأحداث لدى من خبرة وعبرة وكيف تكشف الأيام، في بعض الأحيان، عن خلاف ما كنت أظن وأقدر».

وبينما عصمت عبدالجيد في مقدمة كتابه أن مذكراته ستكون خليطاً من الفلسفة والتاريخ لأنه يعتقد أن المزج بين العنصرين ضرورى لعلوم السياسة.

«ولقد حرصت على أن أنوحي في كتابي هذا منهجاً علمياً من مناهج البحث في علم السياسة، بقدر ما يمكن ويستطاع. وإذا كانت طرق البحث في علم السياسة قد تشعبت وتعددت فإننى كنت ولا أزال أعتقد أن المنهج الأمثل من مناهج البحث هو المنهج الذى يجمع بين المدرسة التاريخية والمدرسة الفلسفية. ذلك أن المدرسة التاريخية تصب اهتمامها على وقائع التاريخ وأحداثه، ومن ثم فهي تسعى إلى أن تستنبط من الماضى ما يورثنا فى المستقبل، فى حين ترى المدرسة الفلسفية أن الأفكار والمثاليات هى التى تقود التطور البشرى ونموه. وإن عاب هذه المدرسة أنها تضيع النظريات المحردة ثم تسعى لتفسير الواقع على أساسها ولو كان فى هذا تكلف واعتساف»

«... ومازلت أذكر أنني ألقى عدداً من المحاضرات على طلاب معهد العلوم السياسية في كلية حقوق القاهرة في أواخر الخمسينيات تناولت فيها أهم المفاهيم والنظريات في العلاقات الدولية، مركزاً بشكل خاص على الدولة والعلاقة مع التنظيم الدولي، وكذلك حقوق الإنسان، وأشارت إلى تعاليم الإسلام ومبادئه التي أوجبت حق الفرد في حرية الرأي وحرية الفكر وحرية الاجتماع، ومنحته كل الحقوق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية ولم تعترف بأى قيد على الحريات العامة للإنسان وحقوقه. كما ذكرت في مقدمة هذه المحاضرات أن الطريقة المثلى في البحث السياسي هي استخدام الطريقة التاريخية مع الطريقة الفلسفية، فهما لا يتعارضان، بل تكمل وتتمم إحداهما الأخرى. فالمؤرخ لا بد أن يقدر الفلسفة، والفيلسوف لا بد أن يسترشد بالتاريخ، والتجارب، والظواهر التاريخية تضاء بأنوار الفكر».

(٤)

ويحدثنا صاحب هذه المذكرات في أكثر من موضع عن سعادته بالرضا بنفسى الذى يشعر به تجاه ما أنجز في حياته العامة، وله الحق في هذا الشعور، كما أن من الواجب عليه أن يعبر عن هذا الرضا كذلك، وهو يتحدث مثلاً عن نهاية عمله كمندوب دائم لمصر في الأمم المتحدة فيقول:

«... مرحلة طويلة من العمل الدبلوماسى الشاق والمكثف استمرت أكثر من عشر سنين، حفلت بالأحداث السياسية المتلاحقة في الشرق الأوسط وفي العالم كله، وانتهت في نهايتها مدة خدمتى الوظيفية، وقدرت أن أعد نفسى بعدها للعمل في حقل المحاماة، المهنة التى طالما تطلعت إلى ممارستها. مرحلة استطالت وتوازت مع حقبة من أخطر حقبة تاريخ مصر الحديث والمعاصر، إن لم تكن أخطرهما على الإطلاق، عشت على امتدادها في قلب الأحداث، واتخذت في أثنائها قرارات بالغة الصعوبة، ووضعت خلالها في مواقف شديدة الحساسية واخرج. وحينما أرجع النظر إليها الآن، فإننى أستطيع أن أقول بقلب مطمئن وضمير واثق، إننى لم أندم خلالها على كلمة واحدة قلتها، أو على موقف واحد اتخذته طوال سنواتها الحافلة، وأشعر بالرضا أننى قدمت في كل يوم منها لبلدى ولأمنى

خير ما أملك من جهد وعلم، من أجل الحفاظ على مصاحهما والدفاع عنهما، ومن أجل خدمة قضاياهما العادلة في التحرير والتنمية وتحقيق السلام والاستقرار^٤.

وهو حفى أيضاً بأن يحدثنا بنقطة شديدة واعتزاز واضح عن أنه يحب التفاوض، وهو يفعل هذا بطريقة واعية وغير واعية في كثير من المواضيع في كتابه، فهو لا يفخر أبداً بأنه هو الذى كتب الخطاب أو البيان أو الإعلان، ولا بأنه هو الذى تولى تبليغ أمر أو صياغته أو تعديله ولا بأنه وجد الفكرة أو عدلها، إنما هو فخور دوماً بمشاركاته وقدراته التفاوضية، ولنقرأ هذه العبارة:

لقد أتيت لي، بعد عودتي من لندن في ديسمبر ١٩٥٤ بفترة وجيزة، أن أشارك في عمل هو من أقرب الأعمال إلى قلبي، الاشتراك في المفاوضات والترتيبات الخاصة بتنفيذ اتفاقية الجلاء، فبمقتضى الاتفاقية عينت مصر قائداً عاماً لقاعدة قناة السويس هو الفريق على على عامر، كما أقامت ما يسمى بالقيادة الشرقية، جعلت مقرها مدينة الإسماعيلية، لتتولى الإشراف على الاتصال بالجانب البريطاني وتنفيذ عملية الجلاء عن القاعدة، وتسلم القوات المصرية لنشأتها وما فيها من عتاد^٥.

ويستطرد صاحب المذكرات بعد قليل ليتحدث عن اعتزازه بخبرته الأولى والمبكرة في هذا المجال فيقول:

٥ ... كانت متابعتي لمفاوضات الجلاء، ثم اشتراكى في المفاوضات المكتملة كمستشار سياسى للقيادة الشرقية تجربة بالغة الشراء. فمتذ تلك الأيام البعيدة من عامى ١٩٥٤ و١٩٥٥ بدأت أدرك العناصر الجوهرية في عملية التفاوض، وتكونت لدى خبرة عملية في كيفية التفاوض وأساليبه، وقد صاحبتنى هذه الخبرة الثرية طوال السنوات اللاحقة. وإذا كانت الأيام والأحداث قد أضافت خبرات جديدة، فلاشك أن هذه التجربة كانت الأساس الذى بنيت عليه ثم أضفت إليه^٦.

(٥)

ثم يبلور لنا صاحب هذه المذكرات فهمه لعملية التفاوض وجوهرها في صراحة شديدة وفي شجاعة واضحة فيقول بكل وضوح:

٦ أدركت أن جوهر عملية التفاوض هو القبول بفكرة الحلول الوسط، وأن يتقبل كل طرف أن يتنازل عن بعض مطالبه من أجل التوصل إلى اتفاق بين طرفى التفاوض. هذا

الاتفاق في حقيقة الأمر ميزان القوى بينهما، كما ينوقف ما يحصل عليه كل طرف على إدراكه لعناصر قوته، وقدرته على الاستخدام الأمثل لهذه العناصر. ومن ثم فإن الشروط المسبقة هي في الواقع محاولة لتحديد نتيجة المفاوضات قبل أن تبدأ، ولهذا فهي مخالفة أساساً لجوهر فكرة المفاوضة.

ويواصل هذا الخط من حديثه قائلاً:

١. والمفاوض المتمرس هو ذلك الذي يحدد بدقة حقيقة موقفه، بحيث يدرك أقصى ما يمكن أن يصل إليه في ظل الظروف الواقعية التي تحيط به، وأن يدرك في الوقت نفسه المدى الذي لا يمكن له أن يراجع بعده. وفي هذه المساحة المتاحة بين أقصى ما يمكن أن يطلب وأدنى ما يمكن أن يقبل، يتحرك المفاوض. كما أنه يدرك فوق هذا أن الصياغات والأساليب تأتي تعبيراً عن مواقف مدروسة ومحددة - لا أن تكون هي هدفاً في ذاتها - بحيث تكون أداة طيعة للمفاوض، وليست قيداً يحد من حرية حركته نحو أهدافه.

٥. المفاوضات إذن معركة تحتاج إلى ثبات وتصميم، إلى وضوح في الرؤية، إلى صبر وأناة ومرونة. وهي مغامرة، إذ إن الوسيلة الوحيدة لمعرفة إمكانات نجاح المفاوضات هي الإقدام على التفاوض. وهو أمر ليس سهلاً، إذا ما كانت هنالك اعتبارات سياسية وعاطفية وقومية تكتنف عملية المفاوضات، وبخاصة إذا ما نعلق موضوع المفاوضات بقضايا وطنية كبرى، وإذا ما جرت بين طرفين بينهما ميراث قديم من العداوة والبغضاء. ولعل ما يمكن أن نستشده في هذا الصدد ما هو معروف بأسلوب إدارة الأزمات، وقد تمكنت من تطبيق بعض ما تعلمته في تلك المرحلة على مفاوضات شاقة مماثلة هي الخاصة بالتحكيم بين مصر وإسرائيل في مشكلة طابا عام ١٩٨٥، وقد شرفت برئاسة اللجنة القومية لطابا وكانت ملحمة مشرفة لمصر ورجالها.

وفي موضع آخر يتحدث صاحب هذه المذكرات عن مشاركته في المفاوضات بين مصر وفرنسا حول تسوية مطالب الحكومتين بعد حرب ١٩٥٦ ويقول:

«كان من أهم الواجبات التي أُلقيت علي عاتقي في أثناء عملي في جنيف، المشاركة في المفاوضات التي دارت بين مصر وفرنسا حول تسوية مطالب الحكومة المصرية بتعويضات عن الأضرار التي لحقت بمصر نتيجة لعدوان السويس، ومطالبة الحكومة الفرنسية بتعويضات عن أملاكها وأملاك رعاياها الذين تضرروا من إجراءات التأميم أو التمييز

التي أعقبت هذا العدوان. وقد كانت هناك مفاوضات محائلة، ومتزامنة مع البريطانيين في روما حول تسوية المسائل المالية المعلقة بين البلدين، والتي نتجت عن أحداث خريف ١٩٥٦.

١ لم تكن هذه المفاوضات مجرد مفاوضات تقليدية، فقد كانت بالإضافة إلى طبيعتها الفنية، تعكس مقدار نوازل الإرادة السياسية لدى الجانبين - مصر وفرنسا - في تجاوز أجواء المعداد، وإنهاء مرحلة المقتنعة التي سادت بينهما، وقد كان هناك حرص واضح من الجانبين على إبقاء الأبواب مفتوحة طوال جلسات المفاوضات التي استغرقت سنة كاملة. إلا أن تطوراً سياسياً مهماً كان وراء دفع هذه المفاوضات إلى نهاية ناجحة، تمثل في التغيير الكبير الذي شهدته فرنسا بسقوط الجمهورية الثالثة، ومجيء الجنرال شارل ديغول إلى الحكم عام ١٩٥٨.

(٦)

أما أهم ما يظن صاحب المذكرات أنه فعله لبلاده - ومعه الحق في هذا - فهو موقفه الواعي من التعامل الإعلامي الرسمي مع الاعتداءات الإسرائيلية على العمق المصري في أثناء حرب الاستنزاف، وضرورة كشف حقيقتها للعالم كله بدلاً من التستر على خباياها بحجة الحفاظ على تماسك الجبهة الداخلية، وهكذا استطاع هذا الرجل في هدوء أن يغير من اتجاهات سياسة حكومة شمولية إلى آفاق ذكية ودبلوماسية أفادت منها مصر في حربها السياسية والعسكرية مع العدو الإسرائيلي، ولنقرأ ما يرويه عن هذه الحقبة:

٢ في ١٢ فبراير من عام ١٩٧٠، كان من المقرر أن يسعد مؤتمر ثلاثي بين الرؤساء عبدالناصر ومعمار القذافي وجعفر نمبري لمناقشة عدد من الموضوعات التي نهى الدول الثلاث. في صباح هذا اليوم، قامت الطائرات الإسرائيلية بغارة على مصنع مدني في منطقة أبو زعبل^٤، نتجت عنه خسائر جسيمة بالمصنع، ومقتل ٧٠ عاملاً وإصابة ٦٩٠ آخرين كانت المأساة مروعة. وكان الانحياز أن تتكتم الدولة أخبارها، أو على الأقل تفاصيلها لكن كان لي رأي مخالف تماماً فقد كنت أرى أن نعمل على كشف العدوان الإسرائيلي وفضحه أمام العالم كله. وسعيت إلى إقناع وزير الإعلام بهذا الرأي. ويبدو أنه استغرق

وقتاً طويلاً في إقناع المسؤولين بهذا الاتجاه الجديد، وفي الامتثال من الرئيس عبدالناصر في الماضي قديماً فيه^١.

«كانت الدعاية الإسرائيلية قد صورت العملية أنها ضرب لهدف عسكري يحوى مخازن أسلحة وذخائر. وكنت عازماً على أن أطلع الرأي العام العالمى على حقيقة ما حدث. فقد اصطحبت الصحفيين ومندوبى وكالات الأنباء إلى موقع المصنع، وكان إلى جوارى فى السيارة الصحفي الفرنسى اللامع إريك رولو ومدام رولو التى تعمل صحفية هى الأخرى. لم تكن قد مضت على وقوع الغارة ساعات، حينما عاين المراسلون الصحفيون الدمار الذى حاق بالمصنع، وسجلوا كل آثار المذبحة التى تعرض لها المئات من عماله، حيث هوجموا فى أثناء دخولهم المصنع فى نوبة الساعة الثامنة صباحاً. وقد فوجئ الإسرائيليون برد الفعل المصرى، فقد كانوا يتوقعون ألا تقدم مصر على الكشف عن حقيقة خسائرها المادية والبشرية، لكن أدى تحركنا - بإطلاع المراسلين الأجانب على كل جوانب المسألة، بالإضافة إلى ما أصدرته الهيئة من منشورات مصورة وأنشطة سينمائية - إلى تعرية السلوك الدموى الإسرائيلى وفضح بشاعته^٢.

ويواصل صاحب هذه المذكرات رواية ما حدث فى الفترة نفسها من الاعتداء على مدرسة ابتدائية للأطفال فى قرية «بحر البقر»

«وفى الثامن من أبريل ١٩٧٠، أغارت الطائرات الإسرائيلية على مدرسة للأطفال فى قرية بحر البقر، ولقى واحد وثلاثون طفلاً من تلامذة المدرسة حتفهم نتيجة لهذا العمل الإجرامى، وأصيب ستة وعشرون آخرون. وكانت لهذه المسألة أصداء بعيدة الأثر، فقد اهتز لها الضمير العالمى، كما انفجر وجدان شعبنا المصرى وأمتنا العربية بالغضب والاستنكار إزاء الهوة التى تدنت إليها وحشية العدوان الإسرائيلى. ومرة أخرى اصطحبت المراسلين الأجانب إلى موقع المدرسة، وبالإضافة إلى ما أبدوه من تأثر بالغ بما رأوه، فقد نقلوا لصحفهم ووكالات الأنباء التابعين لها، صورة كاملة لهذا العمل البربرى وهى أفاضت بدورها فى استنكار تلك الاعتداءات وإدانتها. وقد كانت الإغارة على مدرسة بحر البقر نقطة فاصلة توقفت بعدها الغارات الإسرائيلية على العمق المصرى ومن الممكن تفسير القرار الإسرائيلى بعدد من الأسباب السياسية والعسكرية، لكن الأمر الذى لاشت فيه أن غضبية الرأى العام العالمى واستنكاره هذه الأعمال الوحشية، كانت فى مقدمة الأسباب التى أدت إلى وقف الغارات الإسرائيلية على العمق المصرى».

هكذا يرى صاحب هذه المذكرات أن الإغارة على مدرسة بحر البقر كانت بمثابة نهاية الغارات الإسرائيلية على العمق المصري، وهو لا يظنطن في مكاسب مصر في هذه الناحية ونسبتها إلى نفسه أو عبقرته أو عبقرية مؤسسة الاستعلامات(!!) لكنه يفعل ما هو أقوى من ذلك كله، وهو التلميح بما لم يصرح به.

(٧)

أما أكتوبر العظيم كما يقول العنوان الجانبي الذي وضعه عصمت عبدالمجيد لحديثه عن ذلك اليوم الخالد في تاريخنا، فيورد عنه صاحب المذكرات فقرات رائعة وصادقة لا يدعى فيها أبداً أنه كان يعرف بقرار العبور أو بقرار الحرب، مع أنه كان رئيس وفد مصر الدائم لدى الأمم المتحدة، وقد طلب منه في ذلك اليوم أن يتقدم بطلب لعقد مجلس الأمن لبحث شكوى مصر من اعتداء إسرائيل في ذلك الصباح(!!) ولنقرأ هذا الذي يرويه:

«..... في الساعة السابعة من صباح السبت السادس من أكتوبر بتوقيت نيويورك، الواحدة بعد الظهر بتوقيت القاهرة، أيقظني رنين التليفون الذي حمل إلى صوت الدكتور الزيات بطلب مني أن ألتقيه على الفور، فقد تلقى مكالمة تليفونية من السيد حافظ إسماعيل منشار الرئيس للأمن القومي، يبلغه فيه أن هجوماً إسرائيلياً قد وقع على جزيرة زعفرانة في خليج السويس، وأن مصر في سبيلها إلى الرد على هذا الهجوم، وطلب منه تقديم شكوى بذلك إلى الأمم المتحدة».

«وبعد أقل من نصف ساعة التقيت الدكتور الزيات، ثم توجهنا معاً لمقابلة رئيس الجمعية العمومية ورئيس مجلس الأمن. وقدما شكوى عاجلة ضد إسرائيل. وتم هذا كله في الفترة من التاسعة إلى العاشرة من صباح السادس من أكتوبر، وقد أجرى هنري كيسنجر اتصالاً تليفونياً بالدكتور الزيات حول التطورات الجديدة في الموقف، ولكن حديثه هذه المرة كان ينقصه ذلك الشعور بالاسترخاء الذي ساد حديثه في اليوم السابق، وكان يغلب عليه إحساس بالانزعاج والقلق الشديدين».

«واتضح لي فيما بعد، من خلال اضلاعى على عدد من الوثائق التي تناولت ما حدث خلال هذه الساعات القليلة، أن القادة الإسرائيليين عندما اكتشفوا الأوضاع الهجومية

للقوات المصرية فجر السادس من أكتوبر، بدأوا إجراء اتصالاتهم فى ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم، فأبسطوا أبا إيبان وزير خارجيتهم لإبلاغه بما اكتشفوه، وأبسط إيبان كينجر من نومه هو الآخر ليبلغه بتقدير إسرائيل للموقف، وقام كينجر بدوره بإيقاظ الدكتور الزيات ليبلغه بما تلقاه من الإسرائيليين، وقد أيقظنى هو لتداول الموقف، ولتنفيذ الشق السياسى من التحرك المصرى فى الأمم المتحدة كما أبلغنا به حافظ إسماعيل.

«فى هذه الأثناء، انضح بما لا يقبل الشك أن القوات المصرية قد اتخذت أوضاعاً هجومية، وأن المدفعية والمدركات التى كانت مستترة قد انكشفت، وأصبحت موجهة للدخول فى المعركة».

«هنا يبادر إلى الذهن سؤال مهم حول ما حدث لدينا فى نيويورك: هل كان الدكتور الزيات يعلم بالخطط المصرية وتوقيتاتها؟ لا أستطيع الرد بالسلب أو الإيجاب بصورة حاسمة. لكننى أذكر أننى أقمت حفل عشاء على شرفه مساء الخامس من أكتوبر فى منزلى دعوت إليه عدداً من الشخصيات الأجنبية والأمريكية. وفى أثناء الحفل أطلق إحدى دعاياته قائلاً: «أنتم عاملين العشاء دا احتفالاً بعيد يوم كيور؟» (عيد الشكر اليهودى). كما تلقى الدكتور الزيات من مدير مكتبه الوزير المفوض محمد شكرى بريقة غامضة المضمون، فهل كانت تتضمن إشارة متفحفاً عليها؟».

«من ناحية أخرى، فقد وضح فى حديثه معى صباح السادس من أكتوبر وقع المفاجأة المصوب بالكثير من الفرح، مثلما حدث لى أنا، وبدأت تختفى من حديثنا نبرة اليأس والإحباط التى كانت غالبية عليه فى اليوم السابق. وعندما بدأت أجهزة الإعلام الأمريكية ابتداء من الساعة الثامنة من صباح السادس من أكتوبر بتوقيت نيويورك، الثانية بعد الظهر بتوقيت القاهرة، تذيع مباشرة من إسرائيل أن الحرب قد بدأت فى الشرق الأوسط، وأن موجات العبور العظيم ترى، أحسست إحساساً يقينياً أننى أشهد أباماً مجيدة، وأن سطوراً مشرقة من تاريخ مصر الحديث تضاف إلى رصيد تاريخها الناصع.

ولا يفوتنى هنا أن أذكر أننى استمعت مرة أخرى فى التاسع من أكتوبر إلى خطاب من أبا إيبان نفسه الذى استمعت إليه يوم الثالث من أكتوبر أمام الجمعية العامة، إلا أن حديثه هذه المرة كان مختلفاً، فقد كان يخاطب مجلس الأمن الذى انعقد بناء على شكوى من

إسرائيل، وكان حديثه خالياً من الغرور والصلف والغطرسة الإسرائيلية المألوفة، ليحل محلها حديث رجل في موقف المنهزم، يدور حول مصر المعتدية وإسرائيل النسي تنزف، وبطلب من المجلس أن يصدر قراراً بوقف إطلاق النار.

(٨)

ويبدو الدكتور عصمت عبدالمجيد في هذه المذكرات فخوراً إلى أقصى حد بمعركة ٦ أكتوبر وما تم فيها من انتصار ومن إنجاز ومن عبور وسيطر هذا الفخر على كل فقرات كتابه الذي بين أيدينا، وعلى روح هذا الكتاب بل وعلى عنوانه كما يلاحظ القارئ. ولعل موقفه هذا ينبئ عن مدى وطنيته الحقة إذا ما قورن بمواقف رجال آخرين شاركوا في تلك الأيام، لكن حقد هم الذين على القائد العظيم الرئيس السادات جعلهم يقللون بحقد رهيب من قيمة النصر. ولعل في قراءة ما كتبه عصمت عبدالمجيد درساً لبعض الذين شاركوا في تحقيق هذا النصر. ثم إذا هم اليوم يحاولون التقليل من أدوار قادة النصر العظيم ولنقرأ هذا النص المنعم بكل المشاعر:

«وكان مندوب إسرائيل لدى الأمم المتحدة في ذلك الوقت السفير يوسف تكواه. وكان رجلاً غاية في الصلف والغرور والعنف والعدوانية، وكان تحدث من قبل عن الجيش الإسرائيلي، يد إسرائيل الطولي، التي نستطيع أن تؤدب كل من يعرّف على المساس بها في المنطقة كلها. وعندما انعقد المجلس في التاسع من أكتوبر لمبحث في شكوى إسرائيل، كانت تحظى على الإسرائيليين مشاعر الإحباط واليأس. ولم يفتني عندما تحدثت أمام المجلس في هذه المناسبة، أن أشير إلى أن يد إسرائيل الطولي التي كانت تؤدب بها المنطقة، قد قطعت».

وهو يقول أيضاً بكل وضوح:

«... وكانت معركة السادس من أكتوبر نموذجاً فذاً للتخطيط العسكري بين مصر وسوريا، وكذلك السياسي والدبلوماسي. وكانت وثقة الدول العربية المصدرة للمنط لمنع تصديره إلى الغرب مشرفة وعامل ضغط مؤثر. مما أثبت للعالم قوة التضامن العربي لمواجهة الأزمات، ولا ننسى وثقة المغفور له الملك فيصل وعدد من قادة الدول العربية،

وأذكر بالخصوص موقف الشيخ زايد، الذي قال: إن النفط العربي ليس أغلى من الدم العربي، وكذلك الدور المتميز الذي قام به حينذاك المرحوم عمر السقاف وزير خارجية المملكة العربية السعودية. وكانت المعركة كذلك نموذجاً رائعاً في التنفيذ على كل هذه المستويات، وقد شارك جيل بأكمله في تحقيق هذا الإنجاز البطولي، وكان لي شرف المشاركة بدور فيه، والمساهمة بجهد متواضع في تحقيقه. ويحق لي، كما يحق لكل مصري وعربي، أن يشعر نحوه بالرضا والفخر والاعتزاز.

بل إنه يتحدث باعتزاز عن المثل الفذ الذي ضربته حرب أكتوبر لإدارة الصراع العربي الإسرائيلي:

« لقد شكلت حرب ١٩٧٣ مثلاً رائعاً ونموذجاً يقتدى به في الإدارة العربية للصراع مع إسرائيل.. كم نحن بحاجة أن نتذكر دروسه دائماً.. وقد تحلى هذا النموذج في مستوى التنسيق العربي وتضامنه وشموليته من مرحلة الاستعداد إلى مرحلة إدارة العمليات العسكرية، وصولاً إلى الإدارة الدبلوماسية للحرب. وما حصل في أكتوبر ١٩٧٣، وقد عشت بكل فخر واعتزاز تلك اللحظات التاريخية في نيويورك كما ذكرت، كان عبوراً من زمن الهزيمة إلى زمن النصر. وفي يقيني أن انتصار ١٩٧٣ الذي أسقط صورة إسرائيل التي لا تقهر، شكل البداية في إسرائيل لمراجعة استراتيجيتها في الصراع العربي-الإسرائيلي».

(٩)

وفي هذه المذكرات نجد عصمت عبدالمجيد وهو يعاين برأى واضح وصريح في قرار طرد السادات للخبراء السوفيت في ١٩٧٢، ويرى ويثبت رؤيته القائلة بأن السادات كان مصيباً وذكياً في هذا القرار وسوف نلاحظ أن تناول الدكتور عصمت عبدالمجيد لهذه القضية أذكر بكثير جداً من تناول محمد حافظ وإسماعيل ومحمود وباض لها. ويبدو عصمت عبدالمجيد وكأنه رجل الدولة المسئول، على حين يبدو الآخرون مع كل عظمتهم في مكانة العمدة المخضرم نحسب:

«... وبعد بضعة أشهر من وصولي إلى نيويورك، في يوليو ١٩٧٢، أصدر الرئيس

السادات قراره بالاستغناء عن الخبراء العسكريين السوفييت. وقد كانت للقرار أصداءه داخل الأمم المتحدة، كما أشاع حالة من الاغتياب والارتباك لدى العديد من الأوساط الغربية والأمريكية. فقد كان هذا يعنى أن مصر قد فقدت السند الرئيسى لقواتها المسلحة، وأن موقعها العسكرى قد أصبح أكثر ضعفاً. وثارت تساؤلات حول الدوافع الحقيقية للرئيس السادات من اتخاذ هذا القرار، وهل كانت رغبته فى إرضاء الولايات المتحدة الأمريكية، والتقرب إليها وراء اتخاذ له، حتى ولو تعارض مع المصالح الحقيقية لمصر وأدى إلى إضعاف قواتها المسلحة».

«وفى تقديرى أن الرئيس السادات لم يتخذ قراره بالاستغناء عن ثمانية عشر ألف خيرى سوفيتى لمجرد التقارب من الولايات المتحدة الأمريكية، وإنما كان وراء قراره حرصه على أن يوفر للجيش المصرى وقيادته استقلالهما وحريةهما فى الحركة دونما تدخل من جانب الخبراء السوفييت بأى شكل من الأشكال. كما كان قراره يعنى ضمناً أن القوات المصرية قد وصلت إلى مستوى من التدريب والكفاءة لم تعد معه فى حاجة إلى هذا العدد الضخم من الخبراء».

ويضيف عصمت عبدالمجيد لهذه الوقائع بعداً مهماً حين يتحدث عن حوار دار بينه وبين الشدوب الأمريكى فى الأمم المتحدة فى ذلك الوقت، وهو نفسه الرئيس الأمريكى (فيما بعد) جورج بوش:

«وقد دار بينى وبين جورج بوش حوار حول هذا الموضوع، وسألنى عن تفسيرى له. وقد أوضحت له أن القرار يعبر بصورة قاطعة عن استقلالية القرار المصرى، وأن القيادة المصرية لم تكن مستريحة إلى المشاكل التى يتسبب فيها وجود الخبراء السوفييت داخل مستويات الجيش المصرى، وكان إصدار هذا القرار بالتالى أمراً حتمياً».

«أما الدافع الآخر الذى ظهر جليلاً فيما بعد، فقد كان رغبة الرئيس السادات فى أن يدخل جيش مصر معركة التى يعد لها دون شبهة وجود تخطيط أو تنفيذ أجنبى، وأن تكون معركة بالتالى مصرية خالصة. وقد علق هنرى كيسنجر الذى كان مستشار الرئيس الأمريكى للأمن القومى وقتها، على قرار الرئيس السادات بأنه لو كان أى السادات - قد تقدم إلى الولايات المتحدة طالباً منها ثمن هذه الخطوة قبل اتخاذها لاستجابت له الولايات المتحدة. لكن حسابات هنرى كيسنجر البراجماتية شىء، وسبب مصر وأفكارها ومخططاتها وقيادتها شىء آخر».

كما يحكى صاحب هذه المذكرات بالتفصيل المعقول قصة طلب السادات من جهاز وزارة الخارجية العمل على استصدار قرار من مجلس الأمن بالتدخل فى أزمة الشرق الأوسط، وهو حريص جداً على أن يرينا كيف كان السادات يدير المعركة الدبلوماسية بصبر واقتدار وذكاء واضح، وكيف كان الهدف واضحاً تماماً أمام عينه دون أن يخشى ما قد يبدو وكأنه فشل:

« فى منتصف مايو ١٩٧٣ تلقيت برقية من وزير الخارجية الدكتور محمد حسن الزيات يطلب منى فيها الحضور إلى القاهرة لإجراء بعض المشاورات. ووصلت إلى القاهرة فى الخامس عشر من مايو ١٩٧٣، وقابلت الدكتور الزيات بمكتبه فى مبنى وزارة الخارجية القديم بالجيزة. وفى أثناء اجتماعنا تحدد موعد لمقابلة مع الرئيس السادات فى منزله بالجيزة.

« وكان لقائنا مع الرئيس الذى استمر ساعة كاملة، لقاء تاريخياً بالنسبة لى. بمجرد أن جلسنا، طرح الرئيس السادات علينا فكرة لجوء مصر إلى مجلس الأمن لتحريك الجمود الذى طرأ على قضية الشرق الأوسط، بمحاولة استصدار قرار من مجلس الأمن لإجراء تسوية سلمية للمشكلة، والدعوة إلى عقد مؤتمر دولى للسلام فى المنطقة. ونساءك الرئيس عما يمكن أن يحدث إذا ما لجأنا إلى المجلس وطلبنا تدخله، واستصدار قرار منه.

«وقد بدا الرئيس السادات مهتماً بأن نعمل على استصدار هذا القرار فى أسرع وقت ممكن. كان ردى أنه إذا ذهبت مصر بشكوى إلى مجلس الأمن، فسوف تواجه حتماً بـ«فيتو» أمريكى، وبالتالي فلن يصدر القرار، إذ إن الولايات المتحدة لا توافق على أن تأخذ الأمم المتحدة دوراً فى عملية تسوية مشكلة الشرق الأوسط».

« قال السادات إنه لا مانع لديه من مشروع قرار تعرض عليه الولايات المتحدة، ولكن يضايقه ذلك، لكن بشرط أن تحتضن مشروع القرار الدول الغربية الأعضاء فى مجلس الأمن، وأن تستخدم الولايات المتحدة حق الفيتو ضد هذا القرار. وسيبدو هذا الأمر غريباً، لأنها ستكون المرة الأولى التى تمارس حق الاعتراض على قرار غربي. إذ إن العادة جرت على استخدام هذا الحق ضد مشروعات القرارات المقدمة من الاتحاد السوفيتى أو من دول عدم الانحياز. لكن سيتضح الموقف جلياً عندئذ أمام الجميع. فنحن قد بذلنا كل جهدنا

لحل المشكلة سلمياً، واستطعنا أن نجذب الدول الغربية أعضاء المجلس إلى جانبنا، وستكون الولايات المتحدة هي التي وقفت في وجه صدور القرار، وتسببت في إضاعة فرصة للبحث عن مخرج من الأزمة. كان ردي أنه من الممكن تدبير السيناريو الذي اقترحه الرئيس بكل دقة، التقدم بمشروع قرار إلى المجلس تحتضنه دول أعضاء فيه من بينها الدول الغربية، وأن هذا القرار سيكون مصيره الرفض نتيجة الفيتو الأمريكي».

«أثار حديث الرئيس السادات في لقائنا معه تساؤلاً بالغ الأهمية، فما هو رئيس الدولة أمامي يفكر في استنفاد الوسائل السلمية لحل مشكلة الشرق الأوسط باللجوء إلى الأمم المتحدة للمساعدة في التوصل إلى الحل، ولا يمانع في صدور قرار بذلك تعترض عليه الولايات المتحدة الأمريكية، أي أن هذه المحاولة محكوم عليها مقدماً بالفشل. لا بد أن يكون لديه إذن بديل آخر. فما هي البدائل المتاحة أمامه؟ استعمال القوة واللجوء إلى الحرب؟ كان هذا هو التساؤل المنطقي الذي تقود إليه هذه المقدمات. ويبدو أن الدكتور الزيات قد طاف بذهنه ما طاف بذهني، فطرح على الرئيس سؤالاً محدداً: "ما هي البدائل؟"، فأجابته الرئيس السادات في هدوء: "لدينا بدائل". بعدما انتهى لقائنا مع الرئيس السادات، ونحن مازلنا نهيض سلم المنزل في طريقنا إلى السيارة، واصلت التفكير بصوت عال مع الدكتور الزيات، تساءلت عن الدافع الحقيقي وراء تفكير السادات في اللجوء إلى مجلس الأمن، لأنه لا يمكن أن يكون مجرد حصول مصر على فيتو أمريكي على مشروع قرار لمصلحة التسوية السلمية هو السبب وراء هذه الفكرة. ولن تكون نتيجة هذه المحاولة سوى أن نسد آخر الأبواب أمامنا. وسألت الدكتور الزيات سؤالاً صريحاً: "هل سنحارب، أم ماذا؟".

(١١)

وفي كل ما يرويه صاحب هذه المذكرات عن هذه الفترة من «الحرب الباردة» نجد مقتنعاً تمام الاقتناع بصواب وحنكة السادات. وهو يعلق في صفحة أخرى على الذكاء الكامن في سياسة السادات بقوله:

«ولكنني عندما أسترجع في ذهني ما دار من حديث مع الرئيس السادات في لقائي بإيه

في منتصف مايو ١٩٧٣، فإنني أجد أنه كان يتبع تخطيطاً دقيقاً، وضعه هو، لإعداد المسرح السياسي والدبلوماسي، كجزء من خطة شاملة لإعداد الدولة كلها، لقرار الحرب.

وبعد أكثر من اثنتي عشرة صفحة، وبعد حديثه عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ وصدور القرار ٣٣٨، فإنه يعود ليعلق على جدوى هذا القرار من الناحية الدبلوماسية والسياسة الدولية؛ ويبدو عصمت عبدالمجيد في تقييمه للأمور موضوعياً هادئاً، واعياً للخطوات والإنجاز منصفاً لما تم ولما يسم، لا يحركه غرض ولا هوى، ولا يفرض عليه الصداقات والعداءات منهجاً فكرياً شاذاً في تناول الحقائق الواضحة:

«حقق القرار ٣٣٨ إذن ما كنا نسمى إليه منذ مايو ١٩٧٣، واضطربنا إلى أن نحارب في أكتوبر من أجل تحقيقه. وقد نساءل العديد من السياسيين والكتاب الأمريكيين: هل كانت مصر ستدخل حرب أكتوبر لو كان مجلس الأمن قد أصدر قراره في مايو ١٩٧٣ بالدعوة إلى تسوية المشكلة بالطرق السلمية؟ وبالدعوة إلى عقد مؤتمر للسلام في الشرق الأوسط؟ ورغم أن هذا التساؤل افتراضي محض، ولا إجابة قاطعة عنه، فإنه لما لاشك فيه أن سقوط قرار مجلس الأمن في يولية ١٩٧٣ بسبب الفيتو الأمريكي، كان دافعاً قوياً لمصر للجوء إلى تحرير أراضيها بقوة السلاح، فهذا هو حقها المشروع، بعدما سدت أمامها كل السبل التي يمكن أن تحقق تسوية سلمية للأزمة. وقد كان دانيال باتريك موينهان، السفير الأمريكي لدى الأمم المتحدة آنذاك والسنااتور السابق عن نيويورك والصديق الوفي لإسرائيل، أحد هؤلاء. فقد وجه لي هذا السؤال: هل كانت مصر ستقوم بالحرب لو لم تمارس الولايات المتحدة حق الاعتراض على مشروع القرار؟ قلت له: إنني أعتقد أنه كان يمكن تجنب نشوب الحرب لو وافق مجلس الأمن، ووافقت الولايات المتحدة قبل ذلك، على إقرار مبدأ التسوية السلمية التي كان السادات يسعى إليها، وكان يأمل تفادي اختيار الحرب، لكنكم سياسيتكم سدتم أبواب التسوية السلمية، ولم تتركوا لمصر اختياراً آخر. هذا شيء أذكره للتاريخ. وقد سجله موينهان في كتابه عن تجربته السياسية».

كذلك بروي عصمت عبدالمجيد بدقة شديدة مشاعره ومشاعره كل من وزيرى الخارجية الدكتور الزيات والدكتور كيسنجر في اليوم السابق على حرب أكتوبر ١٩٧٣ متبعاً ما يروي به بالتساؤل التقريبي على نحو ما سنرى:

«في اليوم الخامس من أكتوبر - وكان يوم جمعة - تحدد موعد للقاء بين وزير خارجية مصر وأنا معه كمنذوبها الدائم لدى الأمم المتحدة، ووزير خارجية الأسريكي هنري

كيسنجر في فندق «والدورف استوريا»، روى أن يكون في الساعة التاسعة والنصف من صباح الخامس من أكتوبر. ذهبنا إلى اللقاء في موعده، وكان معنا السفير أحمد نوفيق خليل الذي برأس مكتب رعاية المصالح المصرية في واشنطن. ودار الحديث بين كيسنجر والزيات بحضورنا. ولم يكن لدى كيسنجر الجديد ليقوله. ووضح لنا أكثر من ذي قبل مدى إحساسه بالارتياح والاسترخاء إزاء الموقف في الشرق الأوسط، كما أبدى بغير تحفظ عدم تعجله لتناول الموضوعات الخاصة بالمشكلة، فمثل هذه الأمور تحتاج إلى فسحة من الوقت. كما أن إسرائيل مقدمة على انتخابات عامة، وأنه إذا ما فازت فيها السيدة جولدا مائير - وهو المتوقع - فسيكون أمامها بعض الوقت قبل تشكيل حكومتها الجديدة. كل هذا الوقت الذي تستغرقه الانتخابات، ونشكيل الحكومة في إسرائيل، لا يدع مجالاً لفتح ملف مشكلة الشرق الأوسط قبل يناير ١٩٧٤، وأنه ينتظر بالتالي أن يلتقينا في أوائل عام ١٩٧٤.

«كان لقاءً مهذباً وبارداً في آن واحد. وكان ذلك باعثاً على المزيد من الإحباط، ودافعاً إلى فقد الأمل في أي تحرك أمريكي في اتجاه تسوية المشكلة. دار حديثنا مع هنري كيسنجر قبل أربع وعشرين ساعة فحسب من بدء حرب أكتوبر. فهل لم يطلع وزير الخارجية الأمريكي على تقارير المخابرات الأمريكية والإسرائيلية، وعلى الصور التي تبعث بها الأقمار الاصطناعية الأمريكية لما يجري على ضفتي قناة السويس؟ لم يكن كيسنجر يشرح في أثناء لقائنا إياه شيء من القلق. ولم يد منه أن هناك ما يشغل فكره. فبم يفسر ذلك؟»

وهنا يجيب عصمت عبدالمجيد بما يعتقد من باب الاجتهاد والتقدير فيقول :

«في تقديري أن كيسنجر كان قد اطلع على هذه التقارير، وعلى التعليقات والتحليلات التي صاحبها، والتي أساءت جميعاً قراءة ماتعنيه هذه المعلومات. وقد أكد لي ما ذكره مارفين كالب في كتابه عن حرب أكتوبر حول هذه النقطة، فقد ذكر أن الأقمار الاصطناعية التي أطلقتها الولايات المتحدة من قاعدة فاندنبرج قد مسحت منطقة قناة السويس مسحاً شاملاً، وأظهرت الصور التي التقطتها تجمعات عسكرية مصرية واضحة في الضفة الغربية للقناة، إلا أن تفسير المخابرات الإسرائيلية لها - ومعها المخابرات الأمريكية - أنها ليست سوى جزء من مناورات الحريف التي تقوم بها القوات المصرية كل عام، وأن هذا التفسير أدى إلى خطأ في حسابات الإسرائيليين والأمريكيين على السواء ومن هنا كان إحساسه بالاسترخاء عند لقائه بإيتا».

ثم يعلق صاحب المذكرات بشعور ملىء بالفخر على ما خبره وأعجب به من إحكام خطة الخداع المصرية وانطلاقتها حتى على كينسجر نفسه فيقول:

"ليس أدعى إلى إحكام خطة الخداع المصرية لمصرف الأنظار عما يجري على صفة القناة الغربية، وعما سوف يحدث في المنطقة كلها في الساعة الثانية من اليوم السادس من أكتوبر، من لقاء بين وزير خارجية مصر ومندوبها لدى الأمم المتحدة، وبين وزير الخارجية الأمريكي، قبل أقل من أربع وعشرين ساعة من بدء الحرب. ولم ينس هنري كينسجر ما حدث في لقاء اليوم الخامس من أكتوبر، وظل شعوره بأنه قد خُدع وغُرِبَ به، أو «انضحك عليه» كما يقول التعبير المصري الدارج، ملازماً له طوال شغله منصبه كوزير لخارجية أمريكا، وربما إلى أبعد من ذلك، وهي حقيقة لم يلمحها أو يدركها أحد مثلما لمستها أنا وأدركتها بنفسى".

(١٢)

أما مبادرة السلام التي قام بها الرئيس السادات بزيارة القدس في ١٩٧٧ فتحتظى بتأييد عصمت عبدالمجيد، بل إنه حين يورد موقف وزير الخارجية إسماعيل فهمي من المبادرة يبدو لنا وكأنه كان لا يستطيع استيعابه فيقول:

"ويعلن الرئيس السادات في التاسع من نوفمبر ١٩٧٧ أمام مجلس الشعب المصري، في حضور ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، وفي وجود وزير الخارجية إسماعيل فهمي، وبعبارة اختيرت ألفاظها بعناية، أنه إنقاذاً لجندى مصرى واحد، فإنه على استعداد لأن يذهب حتى إلى إسرائيل في عقر دارها، وأن يقول هذا الكلام حتى أمام الكنيست الإسرائيلي".

"وكان السادات قد أطلع إسماعيل فهمي على أفكاره هذه في أثناء الزيارة التي قام بها لرومانيا، كما كان فهمي على علم باللقاء الذي تم بين مناحيم بييجين ونيكولاى تشاوشيكو قبل هذه الزيارة مباشرة، كما كان على علم باللقاء الذي تم بين حسن التهامي مساعد رئيس الجمهورية، ووزير الدفاع الإسرائيلي موسى ديان في المغرب بترتيب من الملك الحسن الثاني. لكن فهمي عارض الفكرة بشدة، وعدّد للسادات أسباب معارضته

هذه، وقدم إليه اقتراحاً بديلاً بأن بوجه دعوة إلى مؤتمر قمة دولي يعقد في القدس ويحضره رؤساء الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن، ورؤساء دول المواجهة ومعهم ياسر عرفات، ورئيس وزراء إسرائيل. بالإضافة إلى الأمين العام للأمم المتحدة. ولم يعترض السادات على الاقتراح، إلا أن الرفض جاء من جانب الرئيس الأمريكي جيمي كارتر، ولم يعد أمام فهمي بالتالي إلا الحديث عن إعادة عقد مؤتمر جنيف، ليعود الموقف بالرئيس السادات إلى النقطة التي بدأ عندها التفكير في الذهاب إلى القدس. كان فهمي على يقين بأن فكرة السادات بالسفر إلى القدس لا يمكن أن تؤدي إلى شيء، كما كان على يقين بأنها - إذا ما نُفذت - سيكون مصيرها الفشل. وبالتالي فقد رأى أنه من الأفضل له أن يأخذ موقف المعارض.

« وهكذا قدم الوزير إسماعيل فهمي استقالته من منصبه كوزير للخارجية ».

« ومع احترامي لوجهة نظره ولوقتفه من هذا التطور الجديد، فقد كانت الأيام وحدها هي الكفيلة بإثبات ما إذا كان إسماعيل فهمي على خطأ أو صواب في موقفه من تحرك السادات نحو السلام مع إسرائيل ».

وبعد أن يروى صاحب هذه المذكرات تداعيات الموقف على المستوى العربي والدولي بعد إعلان السادات عن مبادرته، فإنه يورد الانطباعات العاصفة للسفراء العرب لدى الأمم المتحدة عند لقائهم به في اليوم التالي:

« وفي اليوم التالي، الخميس ١٠ نوفمبر، ذهبت إلى مقر الأمم المتحدة، وهناك ووجهت بمشاعر عارمة من السفراء العرب. كانوا في حالة بالغة من الانفعال والغضب والحدة، مذهولين غير مصدقين أن يقدم السادات على شيء كهذا. وكان يمثل فلسطين أكثرهم عنفاً. كان ناثراً للغاية. وكان على أن أواجههم جميعاً بمفردي، وأواجه غضبتهم وثورتهم الجامحة ».

ثم يتحدث صاحب هذه المذكرات عن موقفه هو وشعوره النفسي تجاه المبادرة فيقول:

« بالنسبة إليّ، كنت شاعراً في قرارة نفسي أن حرب أكتوبر قد غيرت كل شيء حولنا، فقد انتصرنا فيها، وأثبتنا قدرتنا على أن نضع إسرائيل في الموقف عينه الذي وُضِعنا فيه من قبل، وحينما عبر الجندي المصري قناة السويس، تحطمت إلى الأبد أسطورة الجندي الإسرائيلي الذي لا يهزم، وكنت أشعر بالتالي أن الألوان قد آن للانجاء نحو السلام، وأن

هذا ليس شعورى وحدى، وإنما شعور الملايين من أبناء مصر الذين أنهكتهم حروب خمس منذ أن انطلقت نيران الحرب العالمية الثانية التي استنزفتهم هي الأخرى طول ست سنوات متصلة. كان هذا الشعور هو رد الفعل المبدئى عندي إزاء ما أعلنه السادات، و تلقيت الخبر إذن بالكثير من الهدوء، ورأيت فيه بُعد نظر حقيقياً للقيادة المصرية فى سعيها إلى السلام. حقاً هي خطوة جريئة، وغير متوقعة، إلا أنها كانت خطوة لا بد منها، كما أنها لم تكن صادرة عن ضعف، أو نابعة من عقدة نقص. وعندما التفت حولى السفراء العرب الذين كانت تربطنى بهم علاقات طيبة وصداقات وثيقة، كان علىّ أن أهدئ من مشاعرهم الملتهبة. وكان أكثرهم قرباً منى وأوثقهم صداقة السفير السوري موفق العلاف. وكان كذلك أكثرهم غضباً وأشدهم عنفاً. حاولت أن أهدئ من ثورته، فلت له إن ما حدث ليس سوى تطور طبيعى، فنعومنا قد أنهكتها الحروب، ونحن قد انتصرنا واخمد الله فى حرب أكتوبر. رد قائلاً: "أنت لازم تقول هذا. أنت تتكلم بصوت سيدك". قلت له: "سامحك الله. على كل حال ستثبت لك الأيام يا أخ موفق من ننا على صواب ومن ننا على خطأ". رد قائلاً: "إسماعيل فهمى استقال، والأمور غير مستقرة". قلت له: "اليوم الخميس وغدا الجمعة، وستكون صلاة الجمعة فى المساجد المصرية المقياس الدقيق لرد فعل الرأى العام المصرى، لو حدث شيء بعد الصلاة ضد هذه الخطوة يكون السادات على خطأ. ولو مرت صلاة الجمعة بسلام يكون الرأى العام فى مصر غير رافض للسلام".

ويعقب عصمت عبدالمجيد بعد هذا التحليل بقوله:

"دار هذا الحديث بينى وبين السفير موفق العلاف سفير سوريا لدى الأمم المتحدة آنذاك، ودار الزمن دورة كاملة، وقد تولى هو نفسه بدء المفاوضات بين سوريا وإسرائيل بعد ذلك. ولست أدري حقيقة مشاعره عندما أسندت إليه حكومته هذه المسؤولية".

(١٣)

وبعد فترات أخرى يتحدث صاحب هذه المذكرات عن اثر مبادرة السلام التى قام بها الرئيس السادات على المدى الطويل فيقول:

"... ومن خلال مشاهداتى وعلاقاتى فى أثناء عملى فى الأمم المتحدة فى نيويورك،

فإننى أستطيع أن أقول إن تأثير الشعب الأمريكى العميق بشخصية السادات وأسلوبه وما حملته له من تقدير وإعجاب، قد مثل رصيذاً ضخماً ساعد فيما بعد على التوصل إلى اتفاق للسلام بين مصر وإسرائيل لم يكن من الممكن تحقيقه دونه.

بل إن عصمت عبدالمجيد يتحدث بثقة رصينة وبألفاظ صريحة عن إيمانه بمبادرة السلام وبالعامل من أجل تحقيق السلام، وهو يحكى ببساطة شديدة وبسعادة هادئة فى نفس الوقت عن اختياره لرئاسة وفد مصر فى مؤتمر السلام التحضيرى ويقول:

"وفى الأيام الأولى من ديسمبر، أبرقت إلى وزارة الخارجية تطلب حضورى إلى القاهرة، حيث اختارنى الرئيس السادات لرئاسة وفد مصر فى مؤتمر مينهاوس التحضيرى لمؤتمر السلام فى الشرق الأوسط. كان الإعداد لهذا المؤتمر يتطلب أن أقوم بمراجعة شاملة لكل ما سبق من اتصالات، واستعراض لمواقف كل الأطراف، وجمع العديد من الوثائق والمستندات، وفوق كل ذلك، نهضة نفسى وفريق التفاوض لهذه المهمة الدقيقة. فللمرة الأولى تجلس مع الإسرائيليين وجهاً لوجه إلى طاولة المفاوضات. وكنت من جانبى مقتنعاً بالمهمة، فالهدف هو التوصل إلى سلام شامل وعادل، ولذلك كنت مقبلاً على هذه المسئولية بحماسة وإيمان، بالإضافة إلى إحساسى بالواجب، وبأن المهمة تستهدف مصلحة البلاد قبل كل شئ".

وبعد أن يروى صاحب هذه المذكرات المصاعب التى واجهته وواجهها بعد توقيع معاهدة السلام، وبخاصة فيما يتعلق بتشكيل القوة متعددة الجنسيات، وما عاناه من تعنت بعض الدول العربية الذى بدا وكأنه وضع للعقبات أمام استعادة مصر أرضها، وأمام توفير إجراءات الأمن الضرورية المرتبطة بالانسحاب الإسرائيلى .. بعد هذا كله يعود ليبر عن عقيدته وإيمانه بعد نظر السياسة المصرية فى ذلك الوقت فيقول:

"..... غير أننى كنت أحترم حق أى سفير عربى فى التعبير عن رأيه والدفاع عن موقفه. ويشهد الله أن علاقاتى مع الجميع على الرغم من ذلك لم تفصل فى وقت من الأوقات إلى وضع التجريح أو الإساءة أو نظورت الأمور إلى خلافات شخصية. كما أننى أستطيع أن أقول بنفس راضية إننى لا أشعر بنادم أو أسف على أى موقف اتخذته خلال هذه الفترة أو كلمة قلتها. وكان إيمانى لا ينزعج بأن السياسة المصرية كانت بعيدة النظر. وأنها تفتح الباب أمام السلام فى المنطقة. وفى وقت حرصت مصر فيه على مصلحة

الشعب المصري في استرداد أراضيه، حرصت في الوقت عينه على مصالح أمنها العربية ودافعت عن قضاياها وتصدت لأية محاولات تسعى إلى النيل من هذه المصالح^١.

(١٤)

كنا قد تحدثنا في موضع سابق من هذا الباب عن اعتزاز عصمت عبدالمجيد بقدراته التفاوضية، ونحن نعود الآن إلى هذا الموضوع ونصل إلى ذروة تعبيره عن حبه للمقارضة عند رئاسته لسوفد بمصر في مؤتمر السلام، ولابد أن نقدم لحديثه عن اتصاله بالمندوب الإسرائيلي في الأمم المتحدة لتسليمه دعوة مصر لحضور هذا المؤتمر:

٣ في صباح الأحد ٢٧ من نوفمبر، اتصل بي في نيويورك الدكتور بطرس غالي وزير الدولة للشئون الخارجية تليفونياً، ليبلغني أن هناك رسالة موجهة من الرئيس السادات إلى مناحيم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي سوف تصلني برقياً خلال نصف ساعة، وأن الرئيس يطلب نسلبها على الفور إلى سفير إسرائيل في الأمم المتحدة ليقوم بدوره بإبلاغها إلى مناحيم بيغن، وأنه سوف يتم الإعلان عن الرسالة وإذاعة نصها في نشرة أخبار الساعة الثامنة والنصف مساءً. كانت الساعة وقتئذ حوالي الحادية عشرة صباحاً في نيويورك، الخامسة مساءً بتوقيت القاهرة^٢.

٥ ووصلتني الرسالة التي تضمنت توجيه الدعوة إلى إسرائيل، وإلى سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية والأردن ولبنان والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، لحضور مؤتمر يعقد في فندق ميناهاوس بالقاهرة - منتصف ديسمبر - كمؤتمر تحضيري للسلام. وكان على أن أسلم هذه الرسالة إلى السفير الإسرائيلي لدى الأمم المتحدة حاييم هيرتزوج - الذي أصبح فيما بعد رئيساً لدولة إسرائيل - ولم تكن لي علاقة به، ولم أدر كيف يمكن ترتيب لقاء سعه وبخاصة أننا كنا في عطلة نهاية الأسبوع. وكان على أن أجد حلاً فوراً لهذه المشكلة حتى يمكن تسليم الرسالة وإبلاغ القاهرة خلال الساعات القليلة المتبقية على موعد نشرة أخبار الثامنة والنصف^٣.

٦ وقفز إلى ذهني يوهان كاوفمان سفير هولندا لدى الأمم المتحدة، وكان صديقاً لي كما كان صديقاً للسفير الإسرائيلي. وكان يهودياً هو الآخر، ورجلاً متزناً وهادئاً. وكان هناك

قدر من التوافق بيننا في المواقف والأفكار والآراء. وقد حاول أكثر من مرة أن يجمع بيني وبين السفير الإسرائيلي سراً في عزله لإجراء حوار هادئ معه. وكنت أرفض بالطبع. تذكرت هذا. وعلى الفور، اتصلت به تليفونياً وقلت له: «أنت كان عندك حلم، والظاهر أن الحلم سيتحقق». قال لي: «ما هو الحلم؟». أجبت: «أريد أن ألتقي السفير هيرتزوج عندك في منزلك». قال لي «غير معقول! هل أنت جاد؟». رددت بالإيجاب. وهو (أى السفير الهولندي) كان قد تابع زيارة السادات إلى القدس بالطبع، وأبدى استعداداً لترتيب اللقاء. وبالفضل، بعد ساعة واحدة، كنت ألتقي حاييم هيرتزوج عنده. طلبت من كاوفمان ألا يغادر مجلسنا، وأن يبقى معنا ليشهد هذا اللقاء التاريخي بالنسبة إلى ثلاثتنا».

«التقيت هيرتزوج وصافحته للمرة الأولى. وسلمته الرسالة العاجلة. قال إنه سوف يقوم بإبلاغها على الفور. دار بيننا بعد ذلك حديث ودي مهذب. فذكر أن زوجته ولدت في مصر في مدينة الإسماعيلية، وأن أباه كان يعمل مهندساً في شركة قناة السويس، وأنها شقيقة زوجة أبا إيبان، وأنه خطبها لنفسه في الإسكندرية. كان اللقاء هادئاً منضبطاً. وحرصت على أن أشير إلى أنني لا أعتبر أن علاقتنا قد صارت طبيعية، فأنا مجرد منفذ لمهمة كلفت بالقيام بها من حكومتى. فسألنى: أين أفضل أن يسلمنى الرد على الرسالة؟ فأجبته بأننى أفضل أن يكون ذلك فى منزلك السفير كاوفمان، إذا ما وافق على ذلك. وأبدى كاوفمان ترحيه على الفور».

«وفى أثناء حديثنا تساءل هيرتزوج عن نقطة يريد استجلاءها منى. قال: «الآن وقد نقابلنا فى منزل السفير الهولندى. هل يمكننا أن نتصافح إذا ما تقابلنا داخل مقر الأمم المتحدة؟». فأجبته بالنفى، فإن العلاقات فى نظرى ليست طبيعية بعد. وقد أحترم الرجل هذا الموقف منى والتزمه. وللمرة الثانية، التقينا فى منزل السفير الهولندى بعد يومين، وفى حضوره أيضاً، سلمنى هيرتزوج رد متاحيم ييجن بالموافقة على حضور مؤتمر ميناهاوس، وحده يوم ١٤ أو ١٥ ديسمبر ١٩٧٧. وعلى إثر ذلك بدأت الاتصالات بين العواصم المعنية للاتفاق على ترتيبات انعقاد المؤتمر فى موعده المقترح».

(١٥)

ومن الأمثلة البارزة الأخرى التى لجأ فيها عصمت عبدالمجيد إلى التعبير عن اعتزازه

بقدرته التفاوضية، قصة مناقشة له وهو وزير للخارجية مع رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق شامير حول ما أعلن عن زيارة كورت فالدهايم للقاهرة، وهو يظهر لنا فيما يرويه عن هذا اللقاء المنهج الأمثل الذي ينبغي للمفاوض العربي أن يلجأ إليه في مناقشاته مع الإسرائيليين:

«موضوع آخر حاول شامير إثارته معي يتعلق بزيارة الأمين العام السابق للأمم المتحدة كورت فالدهايم إلى القاهرة، بناء على دعوة رسمية وجهت له، معتبراً أن زيارته قد تسبب في دعاية مضادة للسامية. وقاطعته بشدة ومنتهى الحزم وأبلغته استياء مصر الشديد من السلوك الإسرائيلي، وأكدت أن دعوة فالدهايم هي قرار مصري وأنا لن أسمح بمناقشته في أي مكان، ونصحته بالامتناع عن مناقشة هذه المواضيع على صفحات الجرائد، وقلت إن هذا الموضوع مقلل ومنتهى ولو تسرب شيء منه إلى الصحافة فستضطرب إلى الرد بمنتهى القسوة. وقلت أيضاً إنه لو سُئِلت من الصحافة عما إذا كان هذا الموضوع قد أثير فستجيب بأنه لم يناقش، وإذا حدث وتسرب شيء عنه من الجانب الإسرائيلي فإنتسى سأجيب بمنتهى القوة وأقطع زيارتي فوراً وأعود إلى القاهرة، وسارع شامير إلى الموافقة على ما ذكرت وتراجع تماماً».

«وقد حضر هذا اللقاء معي السفير محمد بسيوني. وكان كلام شامير بمثابة بالون اختبار للتعرف إلى طبيعة رد الفعل المصري، فإذا كان حازماً جرى التراجع، وهو ما حصل، وإذا لم يكن كذلك نزيد المطالب الإسرائيلية. وقد يكون هذا المسلك أحد دروس التعامل التفاوضي مع إسرائيل، كما حصل أيضاً في ميناهاوس في بداية المفاوضات المصرية - الإسرائيلية».

ومن المواقف المهمة التي يرويها لنا هذا الكتاب وتدخل في إطار قدراته التفاوضية من أجل إحقاق الحق وحل المشكلات، ذلك الموقف الذي حدث عندما تولى صاحب المذكرات الترتيب لزيارة ياسر عرفات للأمم المتحدة في ١٩٧٤ والمتاورات التي استطاع إحباطها والسيطرة عليها:

«... وقد صادف أنني كنت في شهر نوفمبر ١٩٧٤ رئيساً للمجموعة العربية في الأمم المتحدة. وقمت باتخاذ الإجراءات الضرورية واللازمة لاستقبال السيد ياسر عرفات وإقامته وترتيب إجراءات الأمن في نيويورك والأمم المتحدة. وقد كان اتصالي أساساً مع الندوب الدائم للولايات المتحدة في ذلك الوقت وهو السفير جون سكالي، وعندما بدأت الحديث

معه اضطرب وأظهر عدم حماسة لهذه الزيارة، لكن لم تكن هناك رجعة في ذلك. ولما كنت أنوي الحجز للسيد ياسر عرفات في فندق «الدورف إستوريا» رفض سكاني ذلك تماماً وطلب أن ينزل السيد عرفات في جزيرة أليس وسط ميناء نيويورك بدعوى الحرص على سلامته، وأنه سيكون تحت حماية رجال خفر السواحل».

«وقد رفضت طلب سكاني بشدة لأن تلك الجزيرة مخصصة أساساً للقادمين إلى الولايات المتحدة من دون تأشيرة قانونية، وإن هناك مشاكل تحيط بدخولهم إلى الولايات المتحدة. واشتد الخلاف بيننا وتدخل الأمين العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم وعرض حل المشكلة، وقد وافقت على نزول السيد عرفات بطائرة مروحية في حديقة الأمم المتحدة قادماً من مطار كينيدي مباشرة، ثم المبيت في عيادة الأمم المتحدة داخل المبنى، وأن ينزل الوفد الفلسطيني في فندق «الدورف إستوريا».

«ووافقت على برنامج الزيارة كالآتي: الوصول مساء يوم ١٣/١١/١٩٧٤ ثم المبيت ليلة واحدة ومغادرة نيويورك مباشرة إلى كوبا بعد ذلك. واتخذت سلطات مدينة نيويورك إجراءات حماية مشددة حول الأمم المتحدة وعلى أسطح العمارات وفي الفندق. وأقيم بعد ذلك حفلة استقبال للسيد ياسر عرفات حضرها الأمين العام للأمم المتحدة وعدد كبير جداً من الشخصيات الدولية والأمريكية والعربية ورجال الإعلام الأمريكيين. وقد اعتبر هذا الاحتفال - وقتئذ في قصر الأمم المتحدة - أكبر احتفال شهدته المنظمة منذ سنين طويلة».

(١٦)

ثم يتحدث صاحب هذه المذكرات بعد فقرات عن خطاب ياسر عرفات في الجمعية العامة للأمم المتحدة ويبدأ سعادته وفخره بهذا الخطاب وأثره ويقول:

«جاء خطاب الرئيس عرفات قوياً ومؤثراً، وقد استعرض فيه الوقائع التاريخية، مؤكداً التواست الوطنية ومتحدثاً عن حرب أكتوبر المجيدة قائلاً: «وقد ضرب العدو» عرض الحائط بكل قرارات مجلس الأمن ونداءات الرأي العام العالمي للانسحاب من الأراضي التي احتلتها إسرائيل بعد يونيو ١٩٦٧، ولم نجد كل المساعي السلمية والدبلوماسية لردهه

عن هذه السياسة التوسعية، فما كان أمام أمّنا العربية، وفي مقدمتها دولتا مصر وسورية، إلا أن تبذل الجهود المضنية في الاستعداد العسكرى من أجل الصمود، أولاً: في وجه هذه الغزوة الهمجية المسلحة بالقوة، وثانياً: من أجل تحرير تلك الأراضي واستعادة حقوق الشعب الفلسطيني بعد استنفاد كل الوسائل السلمية. وضمن هذا الإطار اندلعت الحرب الرابعة، حرب أكتوبر، لتؤكد للعدو الصهيونى عقم سياسته الاحتلالية التوسعية واعتماده على شريعة القوة العسكرية^٩.

واختتم الرئيس عرفات خطابه ببارنه الشهيرة:

«لقد جئتكم بغصن الزيتون مع بندقية النائر، فلا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي^{١٠}.

ويردف عصمت عبدالمجيد بعد هذا بقوله:

«وكنتم من أوائل المهتمين للرئيس عرفات بعدما انتهى من إلقاء خطابه التاريخى الذى قوطع أكثر من مرة بالتصفيق الحاد والذى وصفته معظم التعليقات بالرصانة والعمق، واعتبرت أنه حمل الكثير من الرسائل الإيجابية للشعب الأمريكى وللشعب الإسرائيلى وكل محبى السلام والعدل^{١١}.

وعلى هذا النحو يظل عصمت عبدالمجيد على الدوام يفخر بكل الأدوار التى شارك بها فى صناعة السلام لأمته، ولعلى أفضت فى هذا الجانب لأؤكد هذا المعنى الذى كان فى ذهن صاحب هذه المذكرات وهو يكتب مذكراته بعد أن مضى السلام قُدماً إلى الأمام فى المنطقة، ولعله من هذا المنطلق ينظر إلى الأيام الماضية منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وهو قلق وضجر من هذا الذى حدث بضياع فرص كثيرة على بلاده فى أعقاب حرب ١٩٦٧، فضلاً عن الضياع الذى حدث فى الحرب نفسها.

(١٧)

ويوجه صاحب هذه المذكرات اللوم إلى الرئيس العظيم جمال عبدالناصر صراحة على موقفه فى ١٩٦٧، ولا يلبجأ إلى عبارات أو صياغات دبلوماسية فى توجيه هذا النقد وإنما هو يصف تصرف عبدالناصر فى دقة ووضوح بالخطأ الجسيم ويقول:

«..... وعقد عبدالناصر مؤتمراً صحفياً في ٢٧ مايو ١٩٦٧، بدا فيه بالغ التحدي، عظيم الثقة بقوة مصر، وأعلن أنها مستعدة لمواجهة أي تحرك عسكري إسرائيلي. كان هذا خطأ جسيماً من جانب عبدالناصر؛ فلم تكن القوات المسلحة المصرية على هذا القدر من القوة لكي تدخل في مواجهة مع إسرائيل، وبخاصة أنها كانت قد تأثرت سلباً في منظور المواجهة مع إسرائيل بتجربة الحرب التي خاضتها في اليمن، بينما كانت إسرائيل على الجانب الآخر مسلحة حتى أسنانها، مستعدة تماماً لخوض معركة خطفت لها. ودربت عليها قواتها على مدى سنوات طويلة».

٢

ثم يروي لنا صاحب هذه المذكرات أنه كان - هو الآخر - قبل حرب يونيو ١٩٦٧ منخدعاً تماماً في القدرة العسكرية المصرية، وهو يوحى لنا بأنه لم يكن له من سبيل إلى التعرف على الحقيقة فيما يتعلق بقدرتنا الدفاعية أو الهجومية. وذلك على الرغم من التحذيرات التي وصلته من صحفيين أجانب، وليس من شك أن صاحب هذه المذكرات صادق في هذا الذي يرويه، ولكني لا أستطيع أن أصف الاندهاش والذهول الذي يشعر به المرء منا اليوم وهو يقرأ مثل هذه الاعترافات، وإنني لأعجب كيف أمكن أن نعطل أمة بأسرها عقلاً على هذا النحو الذي لا يسمح لأحد الدبلوماسيين البارزين أن يتعرف على مثل هذه الحقيقة على الرغم من أنه كان قريباً جداً من المواقع المتقدمة في جهاز الدولة بحكم عمله من قبل مديراً لمكتب نائبى وزير الخارجية أحمد خيرت سعيد، وعبدالفتاح حسن، ووكيل الوزارة حافظ إسماعيل وهو يقول:

«في أثناء زيارتى القصيرة للقاهرة في هذه الأيام المرحجة، اتصل بى يوم ٣ يونيو الصحفى الفرنسى المرموق إريك رولو الذى قدم إلى القاهرة من قبرص بعد زيارة لإسرائيل، وهو - وإن يكن فرنسى الجنسية يهودى الديانة، إلا أنه كان مصرى المولد واللسان، فقد درس الحقوق في جامعة القاهرة، وكان كل شيء فى مظهره ينبئ بأنه أقرب إلى أن يكون مصرى».

سألتى إريك رولو: «ما هذا الذى تفعلونه؟ إنكم تهيجون المسائل - وتدفعون بالأمور إلى مواجهة حتمية، وإسرائيل عازمة بالفعل على أن تدخل معكم فى حرب حقيقية».

قلت له: إن القيادة المصرية هنا مستعدة لها، هكذا كانت قراءتى للموقف فى ضوء ما سمعته وما رأيته فى القاهرة.

قال لى رولو: «إن إسرائيل ستدخل الحرب لا محالة، وإنها لن تقبل قرار إغلاق العقبة أمام السفن الإسرائيلية».

وقابلنى رولو فى باريس بعد ذلك بأسبوعين، وقال لى: «ألم أقل لك؟».

(١٨)

أما أهم ما فى هذا الكتاب من ناحية الخبرة السياسية والدبلوماسية بلا جدال فهو حديثه عن الفرص المضائعة فى أعقاب حرب ١٩٦٧ حين كان فى وسع مصر فى ذلك الوقت أن تحقق فى مجال تقليل الحسائر (ولن نقول من المكاسب) قدرأ لا بأس به من خلال تدخل المجتمع المدولى، ومن المؤسف أن الفرص المضائعة فى هذه المرحلة كانت تساوى الكثير والكثير جداً من ناحية الكم ومن ناحية الزمن الذى ضاع حتى نعود إلى الحصول عليها، ومن المؤسف أيضاً أن كثيراً من الكتابات التى تتناول هذه الفترة من تاريخنا المعاصر تقفز قفزاً متعمداً لتخطى الأعقاب المباشرة لحرب يونيو ١٩٦٧ حين كان لا يزال بالإمكان أن نستعيد بعض ما فقدناه فى أثناء هذه الحرب إذا ما واجهنا الأمر الواقع على نحو أكثر شجاعة، ولكن السلوك القومى فى تلك اللحظات - كما سترى من رواية عصمت عبدالمجيد - كان أميل إلى العناد، وكان أكثر قابلية لمزايدة الأطراف على بعضها، وهكذا ضاعت فرص كثيرة كانت كفيلة باستعادة الأراضى التى احتلت فى ٥ يونيو فى مقابل إنهاء حالة الحرب، وهى تضحية أخف وطأة بكثير جداً من خطوات أخرى قبلناها بعد ذلك، وستقرأ لعصمت عبدالمجيد هذه الفقرات التى تحرى فيها الصدق، وكان أعظم جانب من جوانب صدقه فيها أنه لم يهمل الحديث عنها على الرغم من أن غيره فعل ذلك ببساطة شديدة، وليس من شك أن مما ساعد صاحب هذه المذكرات على التحلى بهذا القدر من الصدق أنه فى ذلك الوقت لم يكن أحد انتورطين فى صياغة تعبيرات من قبيل اللات الثلاث، وماأخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة، فضلاً عن أنه بحكم وطنيته وشخصيته وتربيته لم يكن من الذين يفضلون أن يعيشوا فى رغد وأمن على حساب شحن مشاعر الجماهير المظلومة وبقاتها فى المعاناة.

«..... بعد انعقاد قمة جلاسبرو بين الرئيس الأمريكى ليندون جونسون ورئيس الوزراء السوفيتى اليكسى كوسيجين، توصل الجانبان الأمريكى والسوفيتى إلى اتفاق على تأييد تقديم مشروع لمجلس الأمن يقوم على نقطتين رئيسيتين:

الأولى: إنهاء حالة الحرب بين العرب وإسرائيل.

الثانية: انسحاب إسرائيل من الأراضى العربية المحتلة.

وبالفعل، قدمت مجموعة الدول اللاتينية فى أغسطس ١٩٦٧ مشروع قرار أصبح يعرف بـ«المشروع اللاتينى». وإن كان يحظى بتأييد كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. وكان هذا المشروع قائماً على أسس ثلاثة:

الأول: إنهاء حالة الحرب بين الدول العربية وإسرائيل.

الثانى: انسحاب إسرائيل من جميع الأراضى التى احتلتها فى النزاع الأخير.

الثالث: ضمان حرية الملاحة البحرية فى الممرات المائية».

ويردف عصمت عبدالمجيد محدداً رؤيته بقوله:

«ولقد كان هذا المشروع فى واقع الأمر ممتازاً من وجهة النظر العربية، فلم يكن يعكس ثقل الهزيمة التى حاقت بالدول العربية، كما أن ما نص عليه من إنهاء حالة الحرب لم يكن سوى التزام سلبى على عاتق الأطراف العربية، وهو أمر يختلف اختلافاً بيناً عن اشتراط قيام حالة سلام، يحمل الدول العربية التزامات إيجابية، فإهاء حالة الحرب لا يعنى تلقائياً قيام حالة من السلام، ولا يفترض مع إنهاء حالة الحرب فتح الحدود بين الدول الأطراف، ولا إقامة تمثيل دبلوماسى بينها، إلى آخر الأمور التى تميز حالة السلام بين الدول. وفى مقابل ذلك، فقد نص القرار على الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة بعبارة صريحة لا تحتمل التفسيرات والتأويلات التى حاول بها البعض فيما بعد تفسير قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، وأهم من هذا كله أن المشروع كان يتميز بإمكانية تنفيذه الفعلى، نظراً إلى تمتعه بتأييد القوتين العظميين».

ثم يحدد عصمت عبدالمجيد بالأسماء موقف الدبلوماسيين العرب والمصريين من هذا المشروع فيقول:

«... فى ذلك الوقت: كان الدكتور محمود فوزى مساعد رئيس الجمهورية، والسيد محمود رياض وزير الخارجية، فى نيويورك يتابعان تطور المناقشات. واجتمعت المجموعة العربية فى الأمم المتحدة لمناقشة مشروع القرار اللاتينى. ورغم أن الرأى الغالب كان يعيل إلى الموافقة عليه، إلا أن المزايدات التى قام بها بعض وزراء الخارجية، وبصفة خاصة وزير

خارجية سوريا الدكتور إبراهيم ماحوس ووزير خارجية الجزائر عبدالعزيز بوتفليقة، أدت إلى رفض مشروع القرار من جانب الدول العربية، ومن ثم ضاعت فرصة ثمينة أخرى تضاف إلى ما ضاع من قبل. وعندما حاولنا المطالبة بشروط ماثلة للشروط التي تضمنتها القرار اللاتيني في المناقشات والمداولات التي سبقت التوصل إلى القرار ٢٤٢ في نوفمبر ١٩٦٧، وجدنا أن ما كان معروضاً علينا بالأسوأ أصبح بعيد المثال، وأن ما رفضناه أصبحنا نطالب به ولا نجاب إليه. وهكذا ضاعت من الدول العربية فرصة تحقيق انسحاب سلمي لإسرائيل من الأراضي العربية المحتلة في ذلك الوقت المبكر في مقابل إنهاء حالة الحرب».

(١٩)

وعلى نفس الخط وبذات الرؤية العملية الحصيفة لا يشعر عصمت عبدالمجيد أن هناك ما يمتعه من أن يوجه في هذه المذكرات انتقاداته لقمة الخرطوم التي عقدت في أغسطس ١٩٦٧ رغم تقديره لبعض الإيجابيات فيها، لكنه يتنبأ إلى المعنى الذي يخفى علينا في ظل الشعارات، لكنه لا يخفى على الدبلوماسي الخبير بآليات المفاوضات أو الذي يشارك في تقدير الموقف وصياغة التحولات:

«وفي التاسع والعشرين من أغسطس ١٩٦٧، وبعد أيام من رفض المشروع اللاتيني، انعقد مؤتمر القمة العربي في الخرطوم. وفي هذا المؤتمر، وبسبب الهزيمة، استعاد الرئيس عبدالناصر زمام المبادرة، وقام بعرض للموقف العربي والدولي عرضاً تميز بالعمق والموضوعية، كما أعلن بشجاعة محمله مسئولية الهزيمة، وطالب في هذا المؤتمر بأن يقوم العرب بتحريك سلمي سريع لاستعادة القدس العربية بالوسائل المتاحة في الوقت الحاضر - آنذاك - بل ذهب إلى أبعد من ذلك بأن طلب في الاجتماع أن يذهب الملك حسين إلى الولايات المتحدة للتفاهم مع الأمريكيين والاتفاق معهم على استرجاع الضفة الغربية. لأننا - وفقاً لما رآه الرئيس عبدالناصر - إذا تأخرنا، فلن يمكننا استرجاع الضفة الغربية أو القدس».

ولقد كان للموقف الكريم للملك فيصل أثره في أن يرتفع المؤتمر عن إثارة خلافات الماضي القريب وتبادل الاتهامات، وأن ينصب البحث على وسائل معالجة الموقف وبناء التضامن العربي. وإذا كان مؤتمر الخرطوم قد حقق نتائج إيجابية مهمة، في مقدمتها بعث روح المقاومة العربية والتصدي ورفض الهزيمة في نفوس العرب، وتوجيه دعم مالي من دول البترول لدول المواجهة، إلا أنه من ناحية أخرى لم يستطع استيعاب الواقع الجديد

الذى فرضته الهزيمة. فال مؤتمر، عندما كلف الملك فيصل والملك حسين ببذل المساعي مع الولايات المتحدة، أصدر فى الوقت ذاته «لاءاته» الثلاثة الشهيرة: لا صلح، ولا مفاوضة، ولا اعتراف. وهو موقف يمثل قيئاً ثقيلاً على أى محاولة للصلح السلمى، وبخاصة أن ميزان القوى كان يميل ضد العرب بشكل فادح».



وعند هذا الحد يصل عصمت عبدالمجيد إلى أن يقرر فى وضوح رأيه فى نتائج مؤتمر الخرطوم ويقول :

«من هنا، ففى تقديرى أن مؤتمر الخرطوم، رغم إيجابياته، ونجاحه فى إعادة التماسك للموقف العربى، إلا أن ما تحقق فيه لم يكن كافياً لكى يفرض العرب إرادتهم حرباً، كما قضت لاءاته الثلاثة على أى إمكان لنسوية المشكلة سلماً. وما يشير الأسف حقاً أن مرور الزمن، ووضوح الأبعاد الحقيقية للهزيمة، أدباً إلى تهقير العروض المقدمة إلى الجانب العربى بصورة مستمرة».

(٢٠)

ولعل هذا يدفعنا إلى الرجوع خطوات قليلة إلى الوراء ونحن نتأمل السعادة البالغة التى كانت تفرض نفسها على عصمت عبدالمجيد بما تحقق فى بداية الثورة من توقيع معاهدة الجلاء عن مصر. وسوف نجد هذا الرجل وهو فى لندن ينبسها إلى الآثار التى حققتها معاهدة الجلاء التى وقعتها مصر مع البريطانيين عقب قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، ونحن نراه ينصف كل عمل وطنى فى هذا الطريق لأن عنده القدرة الدقيقة على تقدير وتقييم الإنجازات الدبلوماسية والقانونية بعيداً عن ديماجوجية الكتابة المدعية بالفهم، وهو يعقب أولاً على توقيع اتفاقية السودان فى ١٣ فبراير ١٩٥٣ بقوله:

«وقد لمست بنفسى كيف أن الشعور السائد فى بريطانيا إزاء الاتفاقية كان مزيجاً من المرارة والشعور بالفشل: إذ أن القيادة المصرية الشابة قد استطاعت أن تنفوق على الدبلوماسية البريطانية بخبرتها وعراقتها وحنكتها، ومع ذلك فإن البريطانيين بقدرتهم الفائقة على إخفاء مشاعرهم، حرصوا على ألا يصوروا الاتفاقية كأنها نكسة للسياسة البريطانية، بل أظهروا احتفالهم بها، وعملوا على مجاملة الزعامات السودانية بأن وجهوا الدعوة للسيد عبدالرحمن المهدي والسيد محمد عثمان الميرغنى لحضور احتفالات تنويع الملكية إليزابيث فى لندن».

ثم يعقب صاحب هذه المذكرات بعد صفحات على توقيع اتفاق الجلاء عن مصر مبدئياً سعادته وغبطة بما أسفرت عنه المفاوضات والاتفاقيات بقوله :

«وفي أكتوبر ١٩٥٤ تم التوقيع النهائي للاتفاقية، وفي ١٨ يونيو ١٩٥٦ تم جلاء القوات البريطانية عن مصر، بعد احتلال جثم على صدرها أربعة وسبعين عاماً. وقد وقعت الاتفاقية وأنا مازلت عضواً في السفارة المصرية في لندن، وربما كان هذا سبباً في أن أكون أكثر تقديراً لأهمية توصلنا لهذه الاتفاقية، وأكثر إدراكاً لقيمتها باعتبارها تمثل لمجاًحاً وختاماً لحقبة من النضال الوطني، ذلك أن المفاوضات المصرية نجح في التوصل إلى هذه الاتفاقية مع أكثر القوى البريطانية نفراً وشمساً بالمرات الاستعماري، فقد كان تشرشل لا يزال رئيساً للوزراء، وكانت مواقف الاستعمارية إحدى السمات المعروفة عنه طوال تاريخه السياسي المديد، فكان أكبر المعارضين لاستقلال الهند، وكانت معارضته للجلاء عن قناة السويس عميقة وحادة. كان تشرشل ينظر إلى الأمور من منظور المصالح البريطانية والغربية من دون اعتبار لحقوق الآخرين أو مصالحهم. من هنا، فقد كنت من موقعي في لندن أكاد المس الصراع الهائل بين الإرادتين، إرادة مصر في التحرر، وإرادة القوى الحاكمة في بريطانيا في استمرار الأوضاع على ما كانت عليه. وكانت اتفاقية الجلاء بغير جدال اندحاراً لمفاهيم الاستعمار والسيطرة البالية وانتصاراً ميبناً لإرادة الاستقلال والتحرر الوطني».

(٢١)

وعلى الصعيد القومي لا يفوت صاحب هذه المذكرات أن يتحدث باعتزاز عن دوره في إدخال اللغة العربية ضمن اللغات الرسمية التي يعمل بها في المنظمة الدولية ، وهو يحكي بعض التفاصيل التي سبقت تحقيق هذه الخطوة ويصل إلى أن يقول :

«وبتوفيق من الله تعالى وافقت الجمعية العامة في ١٨ ديسمبر ١٩٧٣ على هذا المطلب العربي المشروع على أن تتحمل الدول العربية نفقات تنفيذ القرار خلال السنوات الثلاث الأولى التي قدرت بمبلغ ٢،٨ مليون دولار سنوياً، كما نص قرارها رقم ٣١٩٦ على ترجمة الكلمات التي تلقى بأى من اللغات الست وهي: الإنجليزية والفرنسية والروسية والصينية والأسبانية والعربية ترجمة فورية إلى اللغات الخمس الأخرى، وأن يتم إعداد محاضر الجلسات والقرارات والوثائق باللغات الست . غير أن هذا القرار لم يتضمن

استخدام اللغة العربية في مداولات مجلس الأمن وهو أعلى سلطة في المنظمة الدولية. لذلك سعينا حينئذ حتى عام ١٩٨٢، وكنت وقتها رئيساً للمجموعة العربية، لاستصدار قرارات من الجمعية العامة لإدخال اللغة العربية كلغة رسمية في مجلس الأمن قبل أول يناير ١٩٨٣. وفي إنجاز عربي أعتر به وافق مجلس الأمن بقراره رقم ٥٢٨ الصادر في ٢١ ديسمبر ١٩٨٢ على إدخال اللغة العربية كلغة رسمية في مداولاته وقراراته على قدم المساواة مع اللغات الخمس الأخرى. وقد وجهت رسالة تهنئة إلى رئيس مجلس الأمن وأعضاء المجلس على قراراتهم الإجماعية أشرت فيها إلى أن هذا القرار يساهم في تعميق التضامن والسلام بين الشعوب، كما يساعد في تعريف الشعوب المتحدثة باللغة العربية بالأمم المتحدة وأهدافها وميثاقها وبكل ما يدور فيها».

ولا يقوت عصمت عبدالمجيد أن يشير إلى أن حرب أكتوبر كانت أبرز العوامل التي أضافت إلى مكانة الدول العربية في المجتمع الدولي. بحيث يسرت الحصول على مثل هذا الإنجاز وهو يقول :

«... وإذا كان لي أن أضيف شيئاً هنا فإنه من الواضح أن المكانة التي اكتسبتها الدول العربية بعد نصر أكتوبر المجيد والثقل السياسي والاقتصادي الذي تمتعت به على الساحة الدولية، كان لهما أكبر الأثر في صدور قرار الجمعية العامة الأول في ديسمبر ١٩٧٣ بإدخال اللغة العربية ضمن اللغات الرسمية في الأمم المتحدة. وحديث الاستثمار السياسي والاقتصادي لنصر أكتوبر لا ينتهي».

(٢٢)

وقد خصص الدكتور عصمت عبدالمجيد جزءاً مهماً من هذه المذكرات لحديث مستفيض عن تطورات الأزمة العراقية - الكويتية، وقد كان في ذلك الوقت وزيراً لخارجية مصر، وكانت أسامة الجامعة العربية لانزال في تونس، وهو - شأن وطنه مصر - ملتزم بالمنظور الأخلاقي والقانوني في القضية منذ اللحظة الأولى لنشوبها، ونحن لا نراه مستعداً (لنفسه أو لوطنه) أن يساوم على أخلاق مبدئية أو على بدهيات وقواعد القانون الدولي، ومن ثمايا ذكرياته عن حرب الخليج الثانية يروي مناقشة مهمة بينه وبين نائب رئيس الوزراء العراقي، وهذه إحدى لقطات المناقشات :

«طلب الدكتور سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء العراقي - الذي كان قد وصل إلى

القاهرة بطائرة خاصة لشرؤس وقد بلاده إلى اجتماع وزراء الخارجية العرب - عقد لقاء خاص يتنا قبل الاجتماع. وقال لى فى ذلك اللقاء: «إن شمساً جديدة ستشرق على الخليج ومن مصلحة مصر عدم تقديم أو تبني مشروع القرار». وقد أبدت له دهشة من هذا الكلام وقلت إنه غير مقبول، وأضفت أنني كنت أنصوّر أنه يعرف مصر ومكانتها وهى لا تقبل مثل هذا الكلام، وعلى العراق أن يتراجع ويسارع إلى الانسحاب. وأبلغت أن الرئيس حسنى مبارك أصدر تعليماته بشأن دعم القرار وسيادته حريص على تلافى وقوع كارثة. ولم يقبل السيد سعدون حمادى هذا الكلام وتمك بموقفه.

وفى هذا الاتجاه يذكر عصمت عبدالمجيد بفتح هادئ وعميق موقف مصر الأخلاقى الصلب من بعض النزاعات العربية التقليدية حين كانت علاقة مصر بالعراق فى ذروتها، ولم تكن علاقتها بسوريا قد عادت إلى طبيعتها، ولكن مصر مع ذلك لم تؤيد العراق فى طلبه ضد سوريا، على نحو ما كانت حكومة العراق تظن الأمور سوف تسير:

«أذكر أنه فى اجتماع وزراء الخارجية التمهيدى لمؤتمر القمة الذى عقد فى ١٩٨٩/٥/٢١ حاول الوفد العراقى إدراج بند على جدول الأعمال يتعلق بدعوة سوريا إلى سحب قواتها من لبنان فى إطار سحب جميع القوات الأجنبية من لبنان. وعارضت هذا التوجه مؤكداً أن هذا الموضوع يندرج فى صلب العلاقات اللبنانية - السورية وليس من حقنا جميعاً التدخل فيه. وقد فوجئ الوفد العراقى بموقف مصر لاسيما أن علاقات خاصة كانت قد تبلورت بين البلدين بسبب الموقف المصرى المؤيد بشدة للعراق خلال الحرب العراقية - الإيرانية، وكان من ثمرات هذا الموقف إنشاء مجلس التعاون العربى، كما أن العلاقات المصرية - السورية لم تكن قد عادت إلى طبيعتها حينذاك، ورغم هذا كله فلقد اعتبرت أن لمصر مواقف مبدئية وهى تحترم خصوصيات مختلف الأطراف العربية».

(٢٣)

ويسيطر على هذه المذكرات بوضوح شعور مؤلف بالحسرة الشديدة والأسف العميق تجاه ضياع فرصة الوحدة العربية بحدوث الانفصال فى ١٩٦١، ويتكرر تعبيره عن الحسرة على ضياع الفرصة فى استمرار هذه الوحدة، وكأنه يحكم منصبه الحالى كأمين للجامعة العربية يحس بجسامة ما حدث فى ذلك اليوم من تدمير لخطوة جارية كانت كفيلة بخطوات أخرى تلونها على سبيل الوحدة فيقول:

اولعمل من أبرز التجارب التي مرت بى فى أثناء عملى فى جنيف، أننى ذهبت إليها دبلوماسياً ممثلاً لمصر، وبعد أشهر قليلة، أصبحت ممثلاً لدولة الوحدة التى جمعت سوريا بمصر. وكانت تجربة فريدة بالنسبة لى، فقد كان وجودى فى جنيف، التى تعد واحدة من أهم مراكز السياسة الدولية، فرصة نادرة لاستكشاف أثر الوحدة فى زيادة الوزن الدولى لمصر وسوريا بصفة خاصة، وللمرب جميعاً بصفة عامة، فعلى الرغم من أن أصوات الدول العربية فى الأمم المتحدة نقصت صوتاً بتوحيد مصر مع سوريا، فقد أصبح الصوت الواحد للجمهورية العربية المتحدة أثقل وزناً، وأعظم أثراً. ولو قدر لهذه الوحدة أن تستمر وأن تتسع، لكان للتاريخ العربى المعاصر شأن آخر.

وبعد عدة صفحات يؤكد صاحب هذه المذكرات هذا المعنى بعبارات دراسية إن صح التعبير ويقول:

«وبرغم اشتغالى ومساهمتى فى تلك الجهود الدبلوماسية، فقد كان تفكيرى منصرفاً إلى تقييم تجربة الوحدة، كيف بدأت؟ وكيف عاشت؟ وكيف انتهت؟ وبرغم ألى لوقوع الانفصال، وإيمانى الذى لا يهتز بحتمية وحدة العرب، فقد تولد لدى اقتناع بأن هذه الوحدة قد لا تعنى بالضرورة الوحدة الدستورية التى نضمهم جميعاً فى دولة واحدة تذوب فيها دولهم وكياناتها، وأن ما يهم حقاً هو المضمون دون الإصرار على شكل بعينه من أشكال الوحدة، وأن صيغة ما من الاتحاد أو التقارب أو التضامن، قائمة على حرية الاختيار والمصالح المشتركة والمتبادلة، مع احتفاظ كل دولة بالأوضاع الداخلية التى تلائمها، قد تكون مثل هذه الصيغة سبيلاً أوفق، وأسلوباً أفضل لتحقيق الأهداف المشتركة للأمة العربية».



وفى موضع ثالث يعود عصمت صيدالمجيد إلى هذا الموضوع وقد حنكته بعض التجربة، فهو أكثر واقعية بعد هزيمة ١٩٦٧ ويقول:

«والحقيقة التى تبرز هنا هى أن الوحدة العربية، على الرغم من كونها أملاً لشعوب الدول العربية جميعاً، إلا أنه حلم غائم، وأمل عسير المثال، يشغى أن يكون الاقتراب منه والتعامل معه محاطاً بقدر كبير من الحرص والحكمة، وفى منأى عن الخلافات والعداوات والمهاترات وأجواء الأزمات، وأن يكون تحقيقه قائماً على أساس من الرضى والتوافق والتجرد، ومراعاة المصالح القُطرية والقومية على السواء».

ويشارك عصمت عبدالمجيد في هذه المذكرات في سلسلة الاعترافات المصرية المشرفة بأن جنيف وبعثنا الدبلوماسية بها كانت مقر التحرك المصري في مساندة ثورة الجزائر، وهو المعنى الذي تناولته مذكرات كثيرة كان آخرها مذكرات قطب الإخوان المسلمين الدكتور توفيق الشاوي، وهو يكفي بأن يلخص الموضوع من بعيد دون الدخول في التفاصيل فيقول:

«وأستطيع أن أقول إن المهمة الرئيسية للبعثة المصرية في جنيف لم تكن التعامل مع المقرر الأوروبي في الأمم المتحدة، بل كانت مسؤوليات متابعة القضية الجزائرية. ولعل هذا يبين عمق الانخراط المصري تجاه هذه القضية القومية الكبرى واحتضانها لها في المجالات السياسية والإعلامية والدبلوماسية».

كما ينهنا صاحب هذه المذكرات إلى الظروف التي قادت إلى بداية ما سماه هو مؤسسة القمة العربية، وهي واقعة مهمة ضاع الاهتمام بها في ظل تأرجح مؤسسة القمة نفسها بين الوجود والعدم:

«... وفي ديسمبر عام ١٩٦٣، تفجرت أزمة تحويل إسرائيل لمياه نهر الأردن. ولم تكن القوات المصرية قد عادت بأكملها من اليمن ومن تجربة الحرب غير النظامية التي خاضتها هناك، مما ساهم في حدوث خلل استراتيجي في ميزان القوى بين العرب وإسرائيل سمح لها بأن تغطي قدماً في تنفيذ مخططاتها، كما كان الوضع العربي البالغ السوء عاملاً مساعداً على تشجيع إسرائيل، فقد كانت الخلافات محتدمة بين مصر وكل من المملكة العربية السعودية، والأردن، والنظامين الحاكمين في سوريا والعراق، وإن اختلفت أسباب الخلاف في كل حالة. وإزاء كل هذه الظروف السياسية غير المواتية، ولمواجهة التصرفات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، فقد أطلق عبدالناصر دعوته لعقد مؤتمر القمة العربي الأول. ولقيت دعوته هذه استجابة شاملة، وعقد المؤتمر بالفعل في ١٣ يناير ١٩٦٤، وبدل انعقاد هذا المؤتمر على أن العرب مهتماً بلغت خلافاتهم العقائدية والسياسية، قادرون في النهاية على تخطي هذه الخلافات لمصلحة الوقوف صفاً واحداً أمام التحديات التي تفرضها عليهم إسرائيل. وانعقاد مؤتمر القمة العربي الأول وما تلاه من مؤتمرات للقمة، أضيفت مؤسسة جديدة إلى العمل العربي المشترك. وأصبح انعقادها أو عدم انعقادها مؤشراً على الأجواء التي تسود العلاقات فيما بين الدول العربية، كما تحولت بعض هذه المؤتمرات - وهذا أمر يدعو للأسف العميق - إلى ساحة للصراع والصدام بين

الأطراف العربية، بدلاً من أن تكون مجالاً لحل الخلافات بينهم، وإحلال الوئام والتقارب وتحقيق التضامن المنشود».

(٢٥)

وكما ذكرت في مقدمة هذا الباب من هذا الكتاب فإن عصمت عبدالمجيد يقدم لنا بعض التفاصيل المهمة فيما يتعلق بتغيير وزير الخارجية المصري أثناء حرب ١٩٧٣ وهي إحدى الوقائع التي لا تزال غامضة في تاريخنا، ومع اعتزاز عصمت عبدالمجيد بالزيات وتقديره له، إلا أنه لا يجهل ما حدث بالفعل في أثناء الحرب ويقول:

«..... وعلى الجانب المصري، فقد حدثت تطورات مهمة غيرت ملامح العملية السياسية المصرية ومسارها، فقد أقصى الرئيس السادات الدكتور محمد حسن الزيات من منصبه كوزير للخارجية، وعين بدلاً منه السيد إسماعيل فهمي الذي كان وزيراً للسياحة، ومن قبلها كان وكيلاً لوزارة الخارجية.

«وليس من الواضح تماماً السبب الذي دعا الرئيس السادات إلى إجراء هذا التغيير. وقد يكون من المفيد هنا الإشارة إلى أن الدكتور الزيات ظهر في برنامج تليفزيوني شهير في أمريكا هو برنامج «واجه الأمة» (Face the Nation)، وتضمن حديثه إشارات قد توحي بتشكيكه فيما تنشره وكالات الأنباء نقلاً عن المصادر المصرية حول انتصارات الجيش المصري في جبهة القتال، وقد علق على ذلك قائلاً: «إننا لا نحارب لنحرز نصراً، ولكننا نحارب لأننا على حق» (We do not fight to win, we fight because we are right).

وهنا يردف صاحب هذه المذكرات بذكر بعض التعليقات المهمة :

«وقد نقلت وكالات الأنباء العالمية ما قاله الوزير، واستمع إليه عدد من سفرائنا في الخارج. وتلقيت مكالمة تليفونية من السفير المصري في بون محمد إبراهيم كامل، ووزير الخارجية فيما بعد، ومكالمة أخرى من باريس من المراسل والمعلق الصحفي المعروف الدكتور علي السمان، يسألان عن مدى صحة هذه التصريحات. وعندما استمعت إلى حديث الدكتور الزيات وجدت فيه ما يبرر هذا القلق الذي دفعهما إلى الاتصال بي. وقد قلت للدكتور الزيات وقتها إنني كنت أتمنى ألا تقال هذه الإشارة، لأنه ربما يساء تفسيرها. وهو في الواقع لم يكن يقصدها إطلاقاً، وربما كان تشكيكه هذا نابعاً من حرصه وتحفظه اللذين أظهرهما إزاء التطورات الجديدة. وفي غمار هذه الأحداث، أبلغ

الدكتور الزيات نبأ وفاة صهره الأستاذ الدكتور طه حسين، فاستدعى لحضور مراسم الجنازة وليكون إلى جوار أسرته في هذه المناسبة. وعلى الرغم من هذا المبرر، فقد بدا أن الدكتور الزيات قد استدعى إلى مصر لأن الرئيس السادات قد اتخذ قراره بتغيير وزير خارجيته، ربما بسبب ما نقلته عنه وكالات الأنباء، وربما لأسباب أخرى رآها الرئيس السادات، وبخاصة في ظروف المرحلة التالية من نزاع الشرق الأوسط.



وهو حريص بعد هذا على تناول الفرق بين الرجلين (الزيات وإسماعيل فهمي) في شجاعة التعامل مع الزملاء . وهو يورد وجهة نظره هو بالإضافة إلى وجهتي نظريهما، وهو محب لكليهما ومعجب به، وقد عمل تحت رئاسة كل منهما كوزيرين للخارجية، وإن كان هو دونهما قد سبقهما إلى عضوية مجلس الوزراء حين عمل كوزير للدولة لشئون مجلس الوزراء في حكومة الدكتور فوزي:

«..... اختار الرئيس السادات أن يعهد بوزارة الخارجية إلى دبلوماسي متمرس هو إسماعيل فهمي الذي بدأ سلم العمل الدبلوماسي من أولى درجاته، والذي كان قد أبدى - قبل أشهر قليلة - آراء انتقد فيها الاتحاد السوفيتي لمواقفه من قضية الشرق الأوسط، بما قد يعنى اقترابه من أسلوب التفكير الغربي عموماً، والأمريكي بصفة خاصة».

«وقد كان هناك قدر من التباين في المواقف السياسية لكل من الدكتور الزيات وإسماعيل فهمي، خاصة فيما يتعلق بمبادئ التسوية السلمية لازمة الشرق الأوسط. فقد كان فهمي يرى ضرورة التمسك بالقرار ٢٤٢ كأساس للتسوية السلمية، كما ذكر لي في أثناء لقائى إياه في مايو ١٩٧٣، وذكر لي كذلك أن الدكتور الزيات لا يوافق على وجهة نظره هذه. أما الدكتور الزيات فلم يكن يرى فائدة من التزام القرار، وقال لي مرة:

«يا أخى... القرار ٢٤٢ أصبح كالصنم .. نحن نعبد صنماً.. ماذا يعنى القرار ٢٤٢ لنا ؟ لابد أن نعتد على حقنا المشروع في تحقيق مصالح بلادنا دون أن نتقيد بهذا القرار، وبخاصة أن هناك تفسيرات كثيرة حوله» . كانت هذه هي وجهة نظره».

(٢٦)

بل إن عصمت عبدالمجيد بيننا بما هو أكثر أهمية من ذلك وهو ما تناولته في بعض

كتاباتي من قبل وهو وجود أربعة آراء على الأقل حول الرئيس السادات فيما يتعلق بديناميات الصراعين السياسى والدبلوماسى فى تلك المرحلة. وهو بضيف إلى وجهتي نظر الزيات وإسماعيل فهمى وجهتي نظر آخرين لحافظ إسماعيل وله هو شخصياً وإن كنت أنا أعتقد أن السادات كان يستمع أيضاً بقدر ما يريد إلى وجهات نظر نائبه المحنك الدكتور محمود فوزى، الذى كان لا يزال قريباً منه، وما يحصل عليه من خلال محمد حسنين هيكل وقناة اتصاله بالأمريكيين، هذا فضلاً عن وجود الدكتور محمد مراد غالب قريباً من الصورة وهو وزير سابق للخارجية وعضو فى مجلس الوزراء كوزير للإعلام حتى ٢ أكتوبر ١٩٧٣، ثم وزير مقيم فى ليبيا منذ ٣ أكتوبر ١٩٧٣، وقد كان سفيرنا فى الاتحاد السوفيتى لفترة طويلة، ولتقرأ ما يرويه عصمت عبد المجيد فى مذكراته:

«..... كانت هناك إذن خلافات واضحة داخل قيادات الدولة حول المشكلة وأسلوب تناولها، فوزير الخارجية له رؤية خاصة يختلف معها وزير السياحة، كما كان هناك أيضاً السياسى التقدير السيد حافظ إسماعيل الذى كان على مستوى عال من الكفاءة وحسن التقدير، وكان له رأيه أيضاً الذى لم أعرفه منه مباشرة، والذى كان يحبذ القيام بنحر كات متلازمة متصاعدة عسكرياً وسياسياً، إلى أن يتم التوصل إلى أسس مقبولة للنسوية السلمية. وكان الرئيس السادات يستمع لهم جميعاً، ويعطى كلا منهم الفرصة لغرض وجهة نظره والدفاع عنها».

«أما بالنسبة لى، فقد كنت أرى أن القرار ٢٤٢ قد وضع منذ إقراره فى نوفمبر ١٩٦٧ الأساس لحل مشكلة الشرق الأوسط، وأنا لا يمكننا استبعاده أو إهماله، إذ أنه على الرغم مما قد أثير حوله، والخلاف حول تفسير ما نص عليه من انسحاب من أراضى (Territories) أو «من الأراضي» (The territories)، فإن أهم ما فى القرار فى رأى هو استناده إلى قاعدة مهمة هى عدم جواز اكتساب أراضى بالقوة، كما نص على ذلك فى ديباجة القرار، وإلى صدوره من مجلس الأمن بإجماع آراء أعضائه، وهذا فى نظرى كاف لتقرير الشرعية الدولية كما يجب أن تكون، وأشير فى هذا الإطار إلى ما نقله أصحاب كتاب «سنة اليمامة» عن مناجم بيجن خلال مؤتمر الإسماعيلية إذ قال: «إننا مستعدون للقبول بالقرار ٢٤٢ دون الديباجة كمقدمة لانفاق السلام بيننا وبين مصر»، فرد السادات عليه قائلاً: «لا، فالديباجة مهمة وهى تكرر مبدأ عدم جواز اكتساب أراضى بالقوة».

وعلى صعيد ديناميات السياسة المصرية فى عهد السادات أيضاً، يلمح الدكتور عصمت عبدالمجيد فى هذا الكتاب بطبيعة الاختلافات التى سبقت ما أطلق عليه حركة التصحيح فى مايو ١٩٧١، وهو يأخذ صف الرئيس السادات بمتهى الوضوح على الرغم مما هو متوقع من دبلوماسيته وحذره، وعلى الرغم من أن أمثاله يجيدون تجاوز هذا الخلاف حتى يريحوا أنفسهم من هجوم الصوت العالى الذى يشنه ضحايا ١٥ مايو، ويأتى رأيه هذا وكأنه عارض وهو يتحدث عن نشاط مجلس الوزراء برئاسة الدكتور فوزى حيث كان هو وزيراً للدولة لشئون مجلس الوزراء فيقول:

«..... غير أن الرياح لم تكن تجرى كما يشتهي ريان السفينة، فقد كانت الوزارة تضم عناصر ذات توجه يكاد يكون مستقلاً عن الخط العام للحكومة، وتسمى باستماتة إلى المحافظة على ما كانت تتمتع به من نفوذ وسلطان فى حقبة ما قبل السادات».

«انعكست تلك المواقف على سلوك هذه المجموعة داخل مجلس الوزراء، فقد لجأت فى كثير من الأحيان إلى معارضة السياسة العامة للوزارة، وإلى وضع العراقيل أمام رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء. وكان الدكتور فوزى يبذل قصارى جهده فى ألا تؤدي هذه الصراعات داخل المجلس إلى إعاقة عمل الحكومة وأدائها. وعلى الرغم من بصيرته الثابتة وسعة صدره وسلوكه المنتم بالدبلوماسية والأدب الرفيع، فقد كانت مهمته صعبة للغاية. وكنت بحكم موقعى - إذ كنت أثولى مسئولية التنسيق فيما بين الوزارات، وبينها وبين رئاسة الوزارة - أعانى ما يعانى الدكتور فوزى، وربما كنت أقل صبراً منه.

ويستطرد الدكتور عصمت عبدالمجيد ليضرب مثلاً بالخلافات التى كانت تلوح فى المجلس، وما كانت تعكسه هذه الخلافات من توازنات للقوى والصراعات من أجل الحصول على نفوذ أكبر :

«ورغم أن واجبي ألا أتعرض لما كان يدور فى مجلس الوزراء فى ذلك الوقت، باعتبار أن مناقشات المجلس ملك للحكومة ككل، وأنه ليس من حق أحد أعضائه أن يقضى علناً ما دار فى مجلس يفترض فيه الثقة والكتمان، إلا أنني سأورد هنا على سبيل المثال قصة معبرة، رواها الكاتب موسى صبرى فى كتابه «وثائق ١٥ مايو» فذكر ما بلى :

«عندما أراد الدكتور محمود فوزى رئيس الوزراء أن يعقد مؤتمراً لتطوير التعليم، حاولوا أن يمنعوا عقد هذا المؤتمر فى مناقشات مجلس الوزراء، وكانت المعارضة منظمة من شعراوى جمعة وسعد زايد، كما عارضه أيضاً الفريق فوزى وزير الحربية بحجة أن هذا المؤتمر يصرف الأناظر عن المعركة، ولاصوت يعلو على صوت المعركة. وتصدى لهذه المعارضة - غير المفهومة - الدكتور عصمت عبدالمجيد وزير الدولة. وقال له شعراوى جمعة بعد اجتماع مجلس الوزراء: «أنت أطلقت مدفعية ثقيلة على الفريق فوزى». ورد عصمت عبدالمجيد: «هو الذى يملك المدفعية، لا أنا». واتخذ مؤتمراً لتطوير التعليم. وتحدث فيه الدكتور محمود فوزى».

ونحن نريد صاحب هذه المذكرات وهو يعقب بعد صفحات على نتائج هذا الصراع على السلطة فى مصر فى مايو ١٩٧١ ويقول:

«..... وبعد كلمتى فى ستراسبورج بأربعة أيام - فى ١٥ مايو ١٩٧١ - أجرى السادات حركة التصحيح، ووضع نهاية لمرآة القوى، وتوحدت الطاقات والجهود وراء القيادة السياسية للوصول إلى حقوقنا سلماً أو حرباً، وعدت مرة أخرى وزيراً للدولة لتستون مجلس الوزراء فى الوزارة التى أعاد تشكيلها الدكتور فوزى بعد حركة التصحيح، ولكن مناخ العمل وظروفه اختلفت اختلافاً كبيراً، وكما يعلم القارئ، فقد بلغ الصدام بين السادات وخصومه السياسيين ذروته، ثم انتهى إلى تصفية كل العناصر المعارضة وتقديمهم إلى المحاكمة، وأصبح السادات مسيطرأ على الموقف الداخلى سيطرة كاملة، واستطاع بأسلوبه وبنائاته وبتنصلاته أن يتمكن من الانفراد بالسلطة وإبعاد معارضية عن أجهزة الحكم وعن المسرح السياسى بأكمله، وأخذت السياسة المصرية منذ ذلك التاريخ منحى آخر غير المنحى الناصرى».

(٢٨)

وكما نتوقع من رجل يتمتع بأخلاقيات صاحب هذه المذكرات فقد حفل هذا الكتاب بالتقدير والثناء على عدد من الشخصيات السياسية التى عاصرها أو زاولها أو عمل تحت قيادتها، وفى مقدمة هؤلاء الدكتور محمود فوزى، الذى عمل معه منذ فترة مبكرة حين كان صاحب المذكرات عضواً فى سفارة مصر بلندن وعين الدكتور محمود فوزى سفيراً

لمصر في لندن. ولكن لثناء صاحب المذكرات المركز على الدكتور محمود فوزي لا يأتي إلا عندما يتحدث عن اختياره له ليكون وزيراً للدولة في وزارته في نوفمبر ١٩٧٠، وهو يتحدث عن هذا الموقف فيقول:

«...حاولت أن التمس الاعذار لإعضائي من هذا التكليف، وكان تعليقهم رحمه الله: «أنا أريد أن أشعر وأنا في الوزارة أنظهري مسنود بك». ومست هذه العبارة أوتاراً بالغة الحساسية في قلبي، فقد كانت تربطني بالدكتور فوزي علاقة عميقة حقاً، علاقة التلميذ بأستاذه، وعلاقة الزميل برفيقه في العمل، وعلاقة الصديق بصديقه، علاقة يختلط بها الحب والمودة والاحترام، وتؤكدها وتزكيها صحبة سنوات طويلة تقارب الثلاثين عاماً.

وعندما يتحدث صاحب هذه المذكرات عن خبرته بالعمل الوزاري في الفترة الأولى يعود للثناء على الدكتور فوزي ويقول:

«وكان على الدكتور محمود فوزي أن يقود السفينة بحكمته وسط كل هذه اللجج والأنواء والأعاصير. كانت الوزارة بمثابة مرحلة انتقال من حكم جمال عبدالناصر إلى حكم أنور السادات، وكان الدكتور فوزي الشخصية التي اختارها الرئيس السادات لأداء هذه المهمة».

«وكان للدكتور فوزي أسلوبه في إدارة العمل داخل مجلس الوزراء، أسلوب لم يكن مألوفاً من قبل في مداولات المجلس، كان يؤمن إيماناً عميقاً بالديمقراطية، وبأن نتائج الفرصة لكل الآراء أن تنطلق بغير قيود، وأن تناقش كل الأمور بحرية كاملة، وأن يكون الرأي الذي يتكون من خلال مناقشات المجلس بمثابة توجه لمجلس الوزراء كله. ومن ناحية أخرى، فقد كان الرئيس السادات يثق به ثقة كاملة، كما كان يحترم فيه حكمته وخبرته الطويلة وسعة اطلاعه، كما كان يقدر فيه تواضعه الجرم وأسلوبه الهادئ في تناول الأمور. وقد كان هذا كله يبدو بجلاء في اجتماعات المجلس، وفي الجلسات التي كان يرأسها الرئيس السادات».

وبعد صفحات أخرى يوحى لنا صاحب هذه المذكرات في عدو بقاء علاقته الوثيقة بالدكتور فوزي وهو ينقل لنا فترة مهمة من رسالة شخصية بعث له بها الدكتور محمود فوزي قبل حرب أكتوبر وفيها يقول:

«... ولا يفوتني أن أشير إلى الرسالة الشخصية التي تلقيتها من الدكتور محمود فوزي في سبتمبر ١٩٧٢ والتي حملها أيضاً تقييمه للأوضاع السائدة. وقد جاءت تلك الرسالة

بمثابة تنبؤ بما سيحدث لاحقاً. فلقد كتب الدكتور فوزى ما يلى: «الحال عندنا فى مصر وما حولها كما تراها فى معظمها، ولا بد أنك شاعر فى وضوح باقتراب ساعة الصديق التى يجب أن نرحب بما نقرضه علينا من شجاعة وحسن تدبير، ومن ترويض مكثف لأنفسنا واختيار حكيم لسبلنا التى يبدو أنها ستكون سبلاً جديدة غير تقليدية، وإذا قدر لها أن توصلنا إلى أهدافنا». فهل كان أستاذ الدبلوماسية يتحدث بناء على معلومات كان يملكها حينذاك، أو أن قراءته للأحداث تعبر عما عرف عنه دائماً من نظرة فائقة للتطورات».

(٢٩)

وقبل أن يصل صاحب هذه المذكرات إلى الحديث المتصف عن محمود فوزى، فإن عصمت عبدالمجيد يكون قد أشاد بعدد قليل من رجال الدبلوماسية المصرية، فهو يشيد بعبدالحالى حسونة الذى بدأ معه عهده الحقيقى بالعمل الدبلوماسى، وقبل هذا يشيد بوكيل الخارجية السفير محمد كامل عبد الرحيم، لكنه يحرص حرصاً شديداً ومتكرراً على الإشادة بدور الرجل العظيم محمد صلاح الدين وزير الخارجية المصرى فى حكومة الوفد الأخيرة، وهو يشئ بقلبه وعقله وقلمه على نشاطه وخلقه وممارساته فى أكثر من موضع، كما أنه يحدثنا على سبيل المثال باعتزاز وطنى عن الآثار الإيجابية لقيام النحاس باشا بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ راوياً الموقف من مواقع معايشته للمواقع السياسى فى لندن :

«... وقد أتيت لى من موقعى فى لندن أن المس علف الضربة التى وجهتها مصر إلى بريطانيا بإلغائها للمعاهدة، ليس لأن بريطانيا كانت متمسكة بها، وإنما تمسك فى يدها بزمام مصيرها، وأن تصل إلى أبعد الآماد فى مواجهتها مع بريطانيا من أجل تحقيق حريتها هذه. وهو ما حدث بالفعل، إذ شهدت منطقة قناة السويس مواجهات دامية بين القوات البريطانية والفدائين من أبناء مصر طوال عام ١٩٥١».

وهو حريص على أن يذكر الدور الذى لعبه أجهزة وزارة الخارجية فى الإعداد لإلغاء المعاهدة، وأعتقد أن هذا ضرورى لأن بعض المعادين للوفد وللحركة الوطنية قبل ثورة يوليو لا يتورعون عن أن يصوروا إلغاء المعاهدة وكأنه كان عملاً حماسياً ديماجوياً يستهدف المزايدة على شاعر الجماهير واستقطاب هذه الشاعر فحسب :

«ولا أنسى هنا أن أشير إلى دور وزارة الخارجية المصرية في الإعداد لقرار إلغاء معاهدة ١٩٣٦ من جانب مصر، وفي الدفاع عن هذا القرار ومشروعيته بمصد إعلانه، والذي نولى مسئوليته وزير الخارجية المصري القدير الدكتور محمد صلاح الدين ومعه نخبة من أبناء الوزارة. ولست في حاجة إلى أن أؤكد أن وزارة الخارجية كانت دائماً معقلاً من معاول الوطنية المصرية والعربية، كما كانت سلاحاً ماضياً من أسلحة مصر في كفاحها الطويل من أجل الحرية والقيم الحقّة والمثل العليا».

(٣٠)

ويحرص صاحب هذه المذكرات على إنصاف عبدالفتاح عمرو السفير المصري الشهير في لندن وعلى ذكر حقيقة موقفه مما ساعد على استتباب الأمور للثورة وحكومتها الجديدة في يوليو ١٩٥٢ عقب قيام الثورة:

«لم تكن المشاعر السائدة في سفارتنا في لندن إزاء الثورة تتطابق مع مشاعري. فقد كان السفير عمرو باشا من أصدقاء الملك المقربين، كما كان للعديد من الزملاء علاقات وثيقة بالقصر وبدوائر الحكم في مصر، وكان لقيام الثورة وقع الصاعقة عليهم. يادر عمرو باشا بالاتصال بالخارجية البريطانية فور علمه بالباء، وشمرت بقلق شديد خيال اتصالات السفير، فقد كنت واثقاً أنه - بحكم صلته بالملك فاروق - سوف يطلب تدخل بريطانيا ضد الثورة. وكان هذا ما يراه معظم الزملاء في السفارة كذلك. وقد انقضت سنوات طوال قبل أن تكشف وثائق الخارجية البريطانية الستار عن حقيقة ما دار بين السفير عمرو ومستر روجرز ألن، رئيس القسم الأفريقي بوزارة الخارجية البريطانية الذي تتبعه الشؤون المصرية. وقد تبين أن عمرو باشا - لدعشني الكبيرة - طلب عدم تدخل القوات البريطانية ضد الثورة الوليدة، وأعتقد أن موقفه في هذا اليوم كان موقفاً وطنياً خالصاً، فهو لم يقبل، رغم صلته بالملك، أن يعطى للإنجليز مبرراً للتدخل ضد الثورة، والاعتداء على سيادة مصر».

ويردف صاحب هذه المذكرات بقوله :

«ولعل القارئ يسمع لي أن أسشهد هنا برواية الكاتب الصحفي الكبير الأستاذ محسن محمد عن هذه الواقعة في مقال له بعنوان «لماذا امتنع الإنجليز عن التدخل ضد الثورة» الذي نشر بجريدة «أخبار اليوم» بتاريخ ١٦ يوليو ١٩٨٨، حيث يقول:

«رأى السفير المصري في لندن عبدالفتاح باشا عمرو - وهو من رجال فاروق ووثقت به الخارجية البريطانية - أن تقوم القوات البريطانية بإرهاب الجيش الثائر، وإخضاعه لفاروق، لكنه في الوقت نفسه حذر الإنجليز من الصدام المسلح».

«توجه عمرو باشا إلى وزارة الخارجية البريطانية ليلتقى روجر آلن، وكان يرأس قسم الأمم المتحدة قبل أن تسند إليه رئاسة القسم الأفريقي الذي تبعه الشؤون المصرية. وكانت خبرة آلن الواسعة باختصاصات الأمم المتحدة - وأنها سوف تقف ضد أي تدخل بريطاني - عاملاً مهماً في الموقف البريطاني من ثورة ٢٣ يوليو. قال عمرو باشا لروجر آلن: «أعتبر تجنب الصدام المسلح بين البريطانيين والمصريين أمراً بالغ الأهمية، ويجب عدم اتخاذ إجراء من شأنه استفزاز القوات المسلحة المصرية». وأضاف السفير: «يجدر بكم الإعلان عن بعض الاستعدادات من جانب القوات البريطانية في منطقة القناة لإعطاء الانطباع بأن القوات البريطانية مستعدة للتحرك إذا لزم الأمر لحماية نفسها فقط». وفسر عمرو مقاصده قائلاً: «أريد أن يحدث نوع من إصادة توزيع القوات، بما في ذلك المدرعات، والقيام ببعض الطلعات الجوية الاستطلاعية، ولكن ذلك كله يجب أن يكون داخل منطقة القناة. ومن المهم للغاية ألا نخرج أية قوات من المنطقة». وطلب عمرو باشا أن ينقل رأيه إلى أنتوني إيدن على الفور. وكان مريضاً يستجم خارج لندن. أعد روجر آلن مذكرة بنص الحديث، قدمها إلى سلوين لويد وزير الدولة للشؤون الخارجية وهو يدخل قاعة اجتماع مجلس الوزراء، وكان إيدن قد تخلف عن حضور الاجتماع بسبب مرضه. وقال آلن في مذكرته ما نصه: «هذه المقترحات تتناسب بصفة عامة مع تفكير وزارة الخارجية».

«ونص حديث عمرو باشا لم يعرف به قادة الثورة أبداً، ولم يعلموا أن السفير المصري طلب عدم الصدام العسكري بين المصريين والإنجليز، وكان كل ما رغب فيه عمرو باشا أن تتحرك قوات بريطانية داخل منطقة القناة، ربما لإرهاب قادة الانقلاب ومنعهم من التماهي في مطالبهم بعزل فاروق، والتلويح لهم بأن بريطانيا قد تتدخل. وعلى أية حال فإن قادة الثورة عزلوا السفير المصري بعد رحيل الملك فأقام في لندن. والجدير بالذكر أنه في تلك الأيام كان في السفارة المصرية بلندن دبلوماسي مصري يبدأ خطوته الأولى في السلك السياسي هو الدكتور عصمت عبدالمجيد. يراقب عن كثب خطوات السفير المصري عبدالفتاح عمرو، وفي رأيه في تلك الأيام أن أهم مانعته السفير المصري أنه لم يطلب تدخلاً بريطانياً ضد الثورة، وإلا كان ذلك مبرراً للإنجليز» (انتهى الاقتباس).

ثم يقول عصمت عبد المجيد :

« عندما أعود بذاكرنى إلى الوراء، وإلى تلك الأيام الأولى من ثورة يوليو، وأتذكر مدى اقتناعى بأن السفير عبدالفتاح عمرو قد ذهب يستعدى الإنجليز على الثورة، وأقارن ذلك بحقيقة ما حدث، فإن الحكمة التى يمكن أن نستخلصها هى ألا تتسرع فى إصدار أحكامنا على الناس أو على الأمور، وألا نأخذ بالظواهر مهما بدت لنا أنها حقائق، وأن نتيح الفرصة للزمن، ونعمن البحث والنظر، وأن نضع فى اعتبارنا - فى محاولتنا الوصول إلى صواب القرارات - أن بعض ما نظنه بقبناً صواباً، قد لا يكون دائماً كذلك، وأذكر فى هذا السياق قول الإمام الشافعى: « رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب، ومن جاء بأفضل من قولنا قبلناه ».

ويردّد عصمت عبدالمجيد بعد هذا بقوله :

« وعلى أية حال، ومع تقديرى لموقف السفير عبدالفتاح عمرو بأشأ، بعدما تكشفت حقيقة، فإن امتناع الإنجليز عن التدخل ضد الثورة راجع - فى اعتقادى - إلى عدد من العوامل، فى مقدمتها عدم تأكدهم من حقيقة التغير وأبعاده، وأملهم فى أن يتمكنوا فى مرحلة لاحقة من احتواء الثورة. وأطمئنانهم إلى القيود التى تفرضها الاعتبارات الدولية على حركة القادة الجدد، فضلاً عن ثقتهم فى قدرة الولايات المتحدة الأمريكية على مواجهة كل الاحتمالات، باعتبارها القوة العالمية الجديدة التى سينول إليها ميراث الإمبراطوريات الاستعمارية فى العالم الثالث ».



ثم يحكى صاحب هذه المذكرات فى هدوء شديد بقصة القصة نامباً إلى نفسه ما ليس مستغرباً منه من أنه تصح السفير المصرى الشهير فى لندن بقبول النقل إلى الهند، لكنه لم يأخذ بنصيحته، ولتقرأ مصير السفير المصرى وأعضاء السفارة جميعاً :

« بعد أيام من قيام الثورة، تلقت برفقة مرسلة من الوزارة بالرمز، وكانت تبلغ السفير نقله من لندن وتعيينه سفيراً لمصر فى نيودلهى. سلمت السفير البرقية، وفوجئ بما تضمنته. وأصابه ارتباك بالغ. ولم يجد أمامه وسيلة سوى أن يجمع أعضاء السفارة لبشيرهم فيما يمكنه عمله، هل يذهب إلى الهند أم يرفض ما قرره الوزارة؟ فأشار البعض عليه ألا يذهب، وكنت أنا من بين الآخرين الذين نصحوه بأن يمثل لتعليمات

الوزارة، وكانت وجهة نظري هذه تستند إلى أنه يتمتع بسمعة طيبة، خلافاً لما كان يتصف به أفراد بطانة الملك. كما أن الثورة لم تنقب منه موقفاً عدائياً، بدليل أنها رأت نقله من منصبه وليس عزله منه أو إحالته إلى التقاعد. غير أن السفير عمرو لم يقتنع بهذا المنطق، واختار أن يطلب من الوزارة منحه إجازة مرضية للعلاج في سويسرا نظراً لاعتلال صحته. ولم يكن لطلبه هذا معنى آخر؛ فأصدرت الوزارة قرارها بإحاله إلى التقاعد. ولقد تلقى السفير عمرو هذا القرار، ومعه طلب إبلاغ وزارة الخارجية البريطانية ترشيح مصر الدكتور محمود فوزى سفيراً لها في لندن، وكان يشغل منصب مندوب مصر الدائم في الأمم المتحدة».

ومن الأمور التي أثارت دهشتي، كما أثارت إحساسى بالرضا، أنه عقب قيام الثورة مباشرة، صدرت قرارات بنقل جميع أعضاء السفارة المصرية من لندن، باستثناء شخصي أنا، وكنت وقتها سكرتيراً ثالثاً، ولم أنصوّر أن يكون من بين قادة الثورة من يعرفني، ولكن يبدو، بشكل أو بآخر، أن المسئولين الجدد في مصر قد عرفوا حقيقة مشاعري تجاه النظام الملكي وتجاه الثورة، ورأوا بالتالي استمرار بقائى في مكائى حتى عام ١٩٥٤ حين عدت إلى القاهرة رئيساً لقسم بريطانيا بالإدارة السياسية».

(٣١)

ويثنى صاحب هذه المذكرات على محمد حافظ إسماعيل بتواضع مشكور لا بد أن نقدره، وبخاصة أن حافظ إسماعيل أصبح وزيراً في نفس اليوم الذى أصبح فيه عصمت عبدالمجيد وزيراً، وأنهما عملاً بعد ذلك كسفيرين في وزارة الخارجية مع كونهما وزيرين سابقين، لكن الطريف في ذلك كله أن عصمت عبدالمجيد عمل كمدير لمكتب حافظ إسماعيل حين عين حافظ إسماعيل وكيلاً لوزارة الخارجية، كذلك فقد خلف عصمت عبدالمجيد حافظ إسماعيل في منصب السفير المصرى في باريس في أبريل ١٩٧٠ حين عين حافظ إسماعيل مديراً للمخابرات، وفما بين ذلك كان حافظ إسماعيل قد أصبح سفيراً في باريس وعين الدكتور عصمت عبدالمجيد مستشاراً للسفارة، وتشاء الأقدار كذلك أن يعود حافظ إسماعيل سفيراً في باريس فيما بعد.

لنقرأ هذا الوصف الحنون المفعم بالاحترام والتقدير الذي يصف به عصمت عبدالمجيد زميله ورئيسه حافظ إسماعيل دون أن يلجئه إليه أحد، فقد نشر عصمت عبدالمجيد هذه المذكرات بعد وفاة حافظ إسماعيل بسنوات، لكنه يقول:

«كانت عودتي إلى القاهرة في صيف ١٩٦١ بعد أربع سنوات قضيتها في جنيف. وكانت في انتظاري مسئولية جديدة في ديوان الوزارة، فقد أسندت إليّ مهمات مدير مكتب وكيل وزارة الخارجية السفير حافظ إسماعيل، وعرفت في الرجل - رحمه الله - إنساناً فاضلاً، يتميز بحس وطني صادق، والزام خلقي رفيع. وإلى جوار ثقافته العسكرية، فقد كان على معرفة عميقة بالتاريخ وحقائقه، وبالسياسة ودقائقها، كما كان يتمتع بقدرة هائلة على التنظيم، أما صرامته في الحق، فكانت سمة الرجل المحنك الذي يزن الأمور بمقاييس دقيقة، ويمالج كل موقف بما يستحقه من اهتمام وبما يحيط به من اعتبارات. ولم يكن حافظ إسماعيل وكلياً عادياً لوزارة الخارجية، فقد اختاره الرئيس عبدالناصر بنفسه لهذا المنصب، وأوكل إليه مسئولية إعادة تنظيم العمل بالوزارة، وهي المهمة التي قام بها باقتدار، وأشرف على تنفيذها حتى استقرت قواعدها، وما زال التنظيم الذي وضعه معمولاً به في عموميته حتى اليوم».

(٣٢)

أما من زعماء العالم فإن صاحب هذه المذكرات حفي جداً بالإشادة بديجول في مواضع متعددة، وهو حريص على أن يذكر اهتمام دييجول به حين كان لا يزال حسب البروتوكول بمثابة آخر عضو في السلك الدبلوماسي الأجنبي في باريس كلها، حيث كان أحدث رؤساء البعثات الدبلوماسية المعتمدين لدى فرنسا، وكان وقوفه تبعاً للبروتوكول في آخر الصف، ولكن دييجول العظيم توقف عنده ووجه إليه حديث طال بقدر ما سمح به المقال وأكثر مما تعود هو وما ينتظر منه أن يفعل (!!) وهو ينسب على دييجول في مواضع عديدة :

□ «كانت لدييجول رؤيته الاستراتيجية لدور فرنسا الحضاري والتاريخي في منطقة البحر المتوسط، وفي العالم على اتساعه، وكانت سنوات عمله في فرنسا حافلة بالأدلة

على أن الخط السياسى لديجول ليس مؤقتاً أو عارضاً، وأنه عازم على ترجمة رؤيته إلى واقع حى^٩.

□ «اتساقاً مع هذه الرؤية، كان موقف ديغول من قضية الجزائر، وتبنيه ما أسماه «سلام الشجعان». كان يواجه مقاومة ضارية من قوى فرنسية داخل فرنسا وفوق أرض الجزائر تنادى بأن الجزائر فرنسية، واستطاع بقدراته السياسية الفائقة التغلب عليها».

□ «وكان له موقفه الحازم إزاء علاقة فرنسا بالولايات المتحدة وبحلف شمال الأطلسى الذى انسحب من جهازه العسكرى وطور مفهوماً للردع عرف بـ«القوة المضاربة»، وعكس بروز استراتيجية نووية فرنسية مستقلة.

□ «وكان له موقفه التاريخى من العدوان الإسرائيلى على الدول العربية فى يونيو ١٩٦٧، فقد ندد بهذا الاعتداء، ووصفه بأنه غير مقبول، ووصف الشعب الإسرائيلى بأنه شعب قاهر. وتوقفت غاماً مظاهر الصداقة التى كانت تربط فرنسا تقليدياً بإسرائيل».

□ «كل هذه المواقف كانت وليدة رؤية واضحة شجاعة، تنطلق من حرص على مصالح فرنسا، وتعطيها أولوية على ماعداها من اعتبارات، وكانت زعامته الواعية الوطنية الهادئة نابعة من وجهة نظر فرنسية خالصة، لا تعمل حساباً لغير المصالح القومية العليا لفرنسا».

ويتحدث صاحب هذه المذكرات بإنصاف شديد عن كورت فالدهايم الذى تزامن توليه منصب الأمين العام للأمم المتحدة مع عمل صاحب المذكرات رئيساً لوفد مصر إليها.

«... وكان على رأس الأمم المتحدة عندئذ كورت فالدهايم، الذى انتخب أميناً عاماً لها فى أوائل عام ١٩٧٢. وكان يشغل قبل انتخابه منصب وزير خارجية النمسا، كما عمل قبلها سفيراً لبلاده لدى الأمم المتحدة. وبدأ عمله فى منصبه مع بداية عملى رئيساً لوفد بلادى لدى المنظمة الدولية، ونشأت بيننا علاقة صداقة ومودة استمرت سنين، ومازلت أحمل لها فى قلبى كل تقدير وإعزاز».

(٣٣)

وكذلك يتحدث صاحب هذه المذكرات عن الرئيس بوش بتقدير خاص قبوش بالنسبة له ليس الرئيس الأمريكى الذى تعامل معه وزير الخارجية المصرى فحسب، ولكن

العلاقة قديمة وهي أقرب إلى الزمالة منها إلى أى شيء آخر، فقد كانا مندوبى بلديهما (مصر وأمريكا) لدى المنظمة الدولية فى بداية السبعينيات، وهو يقص علينا قصة لقاءهما الأول، وهو لقاء كان من الممكن ألا ينم لأن العلاقات المصرية - الأمريكية كانت مقطوعة، وهكذا فقد كان فى وسع عصمت عبدالمجيد ألا يزور مندوب أمريكا لدى الأمم المتحدة، لكنه فضل أن يزوره كما زار بقية مندوبى الدول الخمس الكبرى فى مجلس الأمن.. وهو يحكى عن رد فعل بوش فيقول:

«... قمت بزيارة بوش فى مكتبه، كما زرت ممثلى الدول الأربع الأخرى، ولم يرد أحد منهم الزيارة كما هو متوقع. إلا أننى فوجئت بطلب جورج بوش تحديد موعد معى لرد زيارتى له على غير ما هو متبع. وكانت لفنة متحضرة منه، رداً على اللفنة الأخرى من جانبي. وبدأت بيننا منذ ذلك الوقت، وبين زوجته وزوجتى، علاقة ودية وثيقة تجاوزت الفترة التى نزاملنا فيها فى الأمم المتحدة التى تولى بوش فيها منصب نائب رئيس الولايات المتحدة، ثم منصب رئيسها فيما بعد. وقد حرص جورج بوش على إبقاء هذه العلاقة منذ بدايتها».



ومن بين الدبلوماسيين الأمريكيين جميعاً يحظى جيمس بيكر وزير خارجية أمريكا فى عهد الرئيس بوش بشاء جم من صاحب هذه المذكرات حيث يقول:

«يتميز بيكر بقدرة فكرية كبيرة وب نظرة موضوعية للأمور مع عقلية قانونية تيسر له دفع المسائل الشائكة نحو إيجاد حلول لها على قاعدة التوفيق المتوازن بين الأطراف، وهو متحرر إلى درجة كبيرة من المؤثرات السياسية الداخلية التى كثيراً ما تعترض عمل وزير الخارجية. واتسم بيكر بدرجة كبيرة من الجرأة، ولعل أبرز مثال على ذلك ما حصل بينه وبين بنامين نتنياهو عندما كان الأخير نائباً لوزير خارجية إسرائيل. فلقد اتهم نتنياهو الولايات المتحدة بأنها تبني سياستها على «الكذب» و«الأضاليل»، وكانت نتيجة ذلك أن منعه بيكر من دخول وزارة الخارجية، وعندما ادعى أنه قد أسئ فهمه سمح له بيكر بزيارة الخارجية، لكنه استمر فى رفض لقائه طالما بقى وزيراً للخارجية».



كما يتحدث صاحب هذه المذكرات عن وزير الخارجية الأمريكى فى عهد كارتر سايروس فانس ببارات رقيقة موحية فيقول:

٥ وتغيرت الإدارة الأمريكية مطلع عام ١٩٧٧، فذهب الجمهوريون وجاء الديموقراطيون، وتولى جيمي كارتر الرئاسة. وكان الرجل داعية حقبة للسلام، وجاء معه سايروس قانس وزيراً للخارجية، وهو رجل أمين وقدير ومنفتح. وكان من الأسر التعامل معه أكثر من سلفه كينجر.



ومع كل هذا البناء الذي يسبقه عصمت عبد المجيد على هؤلاء الساسة الدوليين، فإن بعض السياسيين الإسرائيليين لا يحظون أبداً بشأنه، فأما يوسف تكواه مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة في أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ فيحظى بانتقاده الواضح والصريح والقاتل لأسلوبه الفج حيث يقول:

١... وكان مندوب إسرائيل لدى الأمم المتحدة في ذلك الوقت السفير يوسف تكواه. وكان رجلاً غاية في الصلف والغرور والعنف والعدوانية، وكان قد تحدث من قبل عن الجيش الإسرائيلي، يد إسرائيل الطولى، التى نستطيع أن تؤدب كل من يجترأ على المساس بها فى المنطقة كلها.

وأما رئيس الوزراء الإسرائيلى بيجن الذى شهد احشكاكات كثيرة مع عصمت عبدالمجيد فى أثناء عملية السلام فيحظى هو الآخر بتقده الحاد الاذع فيقول:

٢... يمكن القول عن منحيم بيجن أنه ذو شخصية عقائدية متطرفة وعنصرية تؤمن بتفوق الشعب اليهودي على بقية شعوب العالم، وهو ذو نظرة متعالية وتعامل فج ووقع. ويتميز بيجن بالقدرة على تموير الأمور والحقائق التاريخية والسياسية، ولعل خلفيته القانونية وطبيعته المتعالية تجعله يستغل ذلك معتقداً أن من يحاوره ليست لديه دراية أو قدرة على المحاورة أو أن عليه أن ينهر بشخصيته.

(٣٤)

ويحرص عصمت عبدالمجيد فى كثير من مواضع كتابه، على الإشارة إلى زملائه أو أساتذته أو مرؤسيه بالأسماء لا على سبيل المثال وإنما هو خلق نبيل من أخلاقه، لأنه لا يتجاهل الناس بل هو فخور بهم.

لـ من ذلك حديثه عن أساتذته في جامعة الإسكندرية حيث بعددهم على النحو التالى:

«كانت كلية الحقوق في الإسكندرية عند إنشائها فرعاً من كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن - إلى أن انتقلت الإسكندرية بجامعة عام ١٩٤٢، وكانت تضم مجموعة من أساطين العلم والقانون، أذكر من بينهم الأستاذة الدكتورة: حامد سلطان، حسن بغدادي، حامد زكي، حسين خلاف، زكي عبدالمتعال، السعيد مصطفى السيد، محمود مصطفى وغيرهم. ولم تكن نتلقى على أيديهم العلم فحسب، فقد كان كل واحد منهم مدرسة في ذاته في الفكر والعلم والوطنية والقيم الرفيعة. وكانت قلة عدداً تتيح لنا أن تكون علاقاتنا بهم وثيقة وحسنة. فكانوا أساتذة وآباءً ورواداً ومثلاً عالياً في آن واحد».

لما كما أنه بعد صفحات يحدثنا عن زملائه الذين فازوا معه ببعثات وزارة الخارجية للدراسة في الخارج ويقول:

«... وهكذا تقدمت للترشيح على إحدى بعثتي فرنسا، وتوجهت إلى القاهرة بناء على استدعاء من وزارة الخارجية لكي أجرى مقابلة مع لجنة الاختبار التي ضمت الأساتذة السفراء: راضي أبوسيف راضي وحسن عمر وأمين أبو الذهب. وكانت المقابلة في المكتب نفسه الذي شغلته بعد ذلك وزيراً للخارجية المصرية عام ١٩٨٤، وافقت اللجنة على اختيار اثنين للدراسة في الولايات المتحدة هما السفيران أشرف غريال وصلاح أبو جيل، واختارت اثنين للدراسة في إنجلترا هما السفيران جمال بركات وعبدالمعزم فهمي، واثنين للدراسة في فرنسا هما السفير سعد الشطاطري، وأنا، وكان وزير الخارجية في ذلك الوقت الدكتور عبدالحamid بدوي باشا».

لما وبعد صفحات أخرى يتحدث عن زملائه في الدراسة في فرنسا فيقول:

«امتدت إقامتي في باريس ما يقرب من العامين ونصف عام، حصلت في نهايتها على ثلاثة دبلومات في الدراسات القانونية العليا، وحصلت على دبلوم في الدراسات السياسية من معهد العلوم السياسية ودبلوماسيين في الاقتصاد السياسي والقانون العام، ثم بعد ذلك قدمت رسالة الدكتوراه في القانون الدولي سنة ١٩٥٢ وكان موضوعها «محاكمة الغنائم دراسة مقارنة»، وكما سعدت بتحقيق هذا الإنجاز العلمي، فقد أسعدتني كذلك زمالة أصدقاء أقاضل، أذكر من بينهم الأستاذة الدكتورة: إسماعيل غانم وحسن أبو السمود وحسن ظافا، كما سعدت بتلميذتي على أيدي أساتذة أجلاء كان في مقدمتهم الأستاذ شارل روسو، وسعدت كذلك بصداقة الكثيرين من العرب والفرنسيين ممن جعلوا حياتي في فرنسا أكثر يسراً وأرحب أفاقاً».

لأ وفي موضع رابع يتحدث عن الوطنيين الذين زاملوه في الاشتراك في المفاوضات والترتيبات الخاصة بتنفيذ اتفاقية الجلاء، ويذكر أن الفريق على على عامر عين قائداً عاماً لقاعدة قناة السويس، ثم يذكر الزملاء الباقين فيقول:

«وعين اللواء أمين حلمي الثاني رئيساً للقيادة الشرقية، كما تولى العميد نور الدين قرة رئاسة أركانها. ولم تكن القيادة الشرقية مجرد قيادة عسكرية، بل كانت جهازاً عسكرياً سياسياً قانونياً اقتصادياً، بحيث تكون قادرة على متابعة التفاوض، واتخاذ الترتيبات اللازمة في كل ما يقتضيه التعامل مع الجانب البريطاني تنفيذاً لاتفاقية الجلاء. وكان لي شرف اختيارى مستشاراً سياسياً للقيادة الشرقية، كما كان الأستاذ أحمد كمال أبو الفضل مستشارها القانوني، وكان الدكتور حامد السايح مستشارها الاقتصادي».

لأ وفي موضع خامس عندما يتحدث عن عمله كمندوب دائم لمصر في الأمم المتحدة يذكر الذين زاملوه كمندوبين مناوئين:

«وكان أول مندوب مناوب يعمل معي - كنائب لرئيس وفد مصر - السفير الدكتور أحمد عثمان، وهو زميل وأنح عزيز ورفيق دراسة، وهو رجل على درجة عالية من الكفاءة والقدرة والخبرة في مختلف جوانب العمل الدبلوماسي. وقد عمل معي بالإضافة إليه في تلك الفترة خمسة من أعلام الدبلوماسية المصرية هم على التوالي: الدكتور محمود سمير أحمد ثم الدكتور نبيل عبدالله العربي، ثم الأستاذ عبدالحليم عبدالحمد بدوي، ثم الأستاذ عمرو موسى، وكلهم أصدقاء أعزاء أكن لهم كل محبة وتقدير».

لأ وفي موضع سادس يتحدث عن زملائه أعضاء وفد التفاوض في مؤتمر السلام بالقاهرة في ١٩٧٧:

«كنت على رأس الوفد المصري الذي كان يتألف من عدد من المسؤولين الكبار في وزارة الخارجية على رأسهم الدكتور أسامة الباز، وضم الوفد السفير عبدالرؤف الريدي مدير إدارة التخطيط السياسي، في ذلك الوقت، والدكتور نبيل العربي مدير الإدارة القانونية وقتها ومندوبنا الدائم لدى الأمم المتحدة حالياً، والمستشار أحمد الزنت الذي كان مديراً لإدارة المعلومات، والسيد عمرو موسى مدير إدارة الهيئات حينذاك ووزير الخارجية الحالي، والدكتور حسين حسونة مدير مكتب الجامعة العربية في نيويورك حالياً، والدكتور محمد البرادعي الذي يشغل مدير وكالة الطاقة الذرية الدولية حالياً».

ومع هذا كله قلنا ملاحظة مهمة على عصمت عبد المجيد قضى ملاحق الكتاب يتخصص صفحة لذكر مندوبى مصر الدائمين لدى الأمم المتحدة متنبهاً بنفسه دون أن يذكر الذين تلوه فى هذا المنصب الذى تركه منذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، وكان الدنيا قد انتهت عنده ، كذلك يبدو - وبعض الظن إثم - أنه خص هذا المنصب دون كل المناصب التى تولاها لأنه صاحب أطول مدة فيه بين كل زملائه .

(٣٥)

وللمرأة المصرية دور مذكور ومشكور فى حياة عصمت عبدالمجيد التى تحدثنا عنها هذه المذكرات ، فهو معتز بزوجته فى كثير من الفقرات ، وهو فخور معتز بوالدته كذلك ، ولنتقرأ على سبيل المثال ما يرويه عن رأى والدته فى اختيار الخط الذى كان عليه أن ينتهجه لحياته عندما أتاحت له الفرصة للابتعاث إلى الخارج ، وتعليق عصمت عبدالمجيد على هذا الموقف :

... وكان معنى تقدمى لإحدى هذه البعثات ، أن أقبل أن أترك مصر إلى فرنسا لمدة غير قصيرة ، وأن أقضى حياتى كلها منتقلاً بين بلاد العالم شرقه وغربه ، ولم يكن القرار فى هذا الاختيار قرارى وحدى ، لكن والدتى ، بالرغم من اعتبارات كثيرة ، لم ترد فى أن تدفعنى إلى التقدم للبعثة ، وأصرت على ألا أضيع فرصة استكمال دراستى العليا ، كان لموقفها هذا أكبر الأثر فى تغيير مجرى حياتى ، وكان فيه درس جديد من دروس الأمومة الحقة ، ضربت به مثلاً فى التضحية والإيثار ، وتقديم فريضة طلب العلم على كل اعتبار آخر .



ويحرص عصمت عبد المجيد فى مطلع هذه المذكرات على أن يحدثنا فى إسهاب وبإعزاز وتقدير عن التاريخ الوطنى المشرف لوالده فى خدمة الحياة الاجتماعية فى الإسكندرية وعن دوره فى إنشاء مستشفى المواساة ، وهو حريص على أن يذكر لنا تفاصيل الموقف الذى لحق به والده الملك والسراى الملكية كما أنه حريص على أن يورد لنا نص حكم محكمة الثورة على الدكتور النقيب وهو الحكم الذى استغرد إلى الإشادة بدور والده ومواقفه الوطنية وسوف نجتزئ من روايته الفقرات التالية :

٥ ... شهدت الأشهر العشرة الأولى من عام ١٩٣٨ تحولاً سلبياً في علاقة القصر الملكي بجمعية المواساة وبوالدى الذى كان يرأسها ، بعدما كان موضع تقدير كامل من الملك منذ ولايته العرش فى أبريل ١٩٣٦ فقد افتتح مستشفى المواساة رسمياً فى ١٢ نوفمبر ١٩٣٦ ، وهو ما رفض أن يفعله والده الملك فؤاد ، واستقبل الملك والذى فى سبتمبر ١٩٣٧ ليعرض عليه مشروعات الجمعية المستقبلية ، وافتتح بنفسه مسجد المواساة فى أكتوبر التالى ، وحضر الحفل الخيري الذى أقامته الجمعية فى نوفمبر من العام نفسه ، وكانت كل الشواهد تدل على أن الملك يكن إعجاباً كبيراً بالدور الإنسانى الذى تقوم به الجمعية ، وبالجهد غير العادية التى بذلها والذى فى بناء أحدث وأكبر مستشفى فى الشرق كله فى زمن قياسي من مارس ١٩٣٢ حتى أكتوبر ١٩٣٥ ، وفى توفير التمويل اللازم لهذا المشروع غير المسبوق فى العمل الخيري التطوعي .

والمواقع أن هذا المشروع الذى تبناه أبى - منذ أن كان أملاً يطوف بأخيلة القنائمين على جمعية المواساة حتى تحول إلى حقيقة شامخة قائمة إلى اليوم - قد شهد تأييداً كبيراً من أبناء الشعب المصرى كله ، كما قدم كثيرون من بينهم أجناس مقيمون فى مصر مساهمات مالية كبيرة من أجل هذا المشروع ، كما كان للصحافة دورها فى إنجاحه ، فقد ساهمت المقالات الرائعة التى كانت تنشرها الصحف للدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين والأستاذ فكرى أبازة فى إذكاء حماسة المواطنين فى الإقبال على تأييد الجمعية وتدعيم مشروعها العظيم .

«إلا أن رجال القصر كان لهم موقف آخر ، فلم يكن رئيس الديوان الملكى فى ذلك الوقت على ماهر باشا راضياً عن الخطوة التى نالتها الجمعية ورئيسها لدى الملك لسبب أو لآخر ، كما أدى اعتراض والدى على المجاملات التى كان يقدمها الدكتور أحمد النقيب مدير المستشفى إلى رجال القصر ، ومن ضمنها إعفائهم من نفقات علاجهم بها ، بدعوى أن ذلك سيدفعهم إلى تركبة الجمعية لدى الملك واجتلاب رضاه السامى عنها ، أدى ذلك إلى إثارة حفيظتهم عليه ، وسعوا بالفعل فى تأليب الملك على والدى الذى لم يجد أمامه من عاصم سوى إيمانه» .

وكان الحفل الخيري السنوي للجمعية مناسبة مواتية لأن يظهر القصر عدم رضاه بصورة عملية ، فقد قبل الملك أن يحضر الحفل إلا أنه رفض أن يقوم رئيس الجمعية بإلقاء كلمتها أمامه ، واختار الدكتور أحمد النقيب لبتولى هو هذه المهمة وكان هذا

القرار الاختبار الحقيقي لوالدى أمام سطوة القصر ورجاله . وقد أبانهم والدى أنه يملك بحقه فى أن يكون هو المتحدث باسم الجمعية ، طالما أنه رئيسها ومؤسس مشروعها العظيم ومنفذ ، وأنهم إذا أصروا على موقفهم فإن كرامته تأبى عليه أن يشارك فى استقبال الملك عند حضوره الحفل ولم يصدق رجال القصر أن يقدم والدى على تنفيذ تهديده ، كما حاول أعضاء الجمعية من جانبهم أن يشوه عن عزمه .

« وكان على والدى عصر ذلك اليوم ، السادس من أكتوبر ١٩٣٨ أن يقرر ما إذا كان سيظل على موقفه حتى النهاية فلا يشارك بالفعل فى الحفل ، وأن يتحمل عواقب تصرفه هذا ويواجه وحده نقمة القصر عليه ، أو أن يمثل ويذهب مؤثراً السلامة . وصادنا سكوت قصير ، قبل أن يعلن أبى فى حزم كلمته الأخيرة أنه لن يذهب . نسنا جميعاً كل شيء عن الحفل ، ولم يعد يملأ رؤوسنا وقلوبنا غير هذه المغضة النبيلة التى فاض بها كيان أبى . أيدت أمى موقفه من غير تحفظ ، وقلت أنا إننا زاهدون فى حضور الحفل . وعقب خالى فهمى باننا الناضورى قائلاً إنه واثق من أن أبى قد اتخذ القرار الصائب ، إلا أنه يرى تحدياً لنقمة الملك أن يرسل إلى القصر برقية يعتذر فيها عن عدم مشاركته فى الحفل بسبب مرض فجائى ألم به .

« وكانما أوحى هذا الاقتراح لأبى بما يجب عليه أن يفعله ، ليؤكد للناس جميعاً اعتزازه بكرامته ، ونمسه بكبريائه أمام سطوة القصر ورجاله . غادر أبى المنزل ، واتجه إلى « محطة الرمل » وهناك فى مقهى « تريانو » على منضدة من تلك المنتشرة على طول الشارع ، جلس هادئاً مطمئناً بحسن قهوته ، لا يفصله عن مسرح « الهمبرا » سوى أمتار قليلة .

« وممر سوكب الملك قادماً من قصر رأس النين أمام مقهى « تريانو » ويرى الجميع رئيس جمعية المواسة فى جلسته المطمئنة ، غائباً عن استقبال الملك عند وصوله إلى المسرح ، وعن الحفل كله ، ويكون غيابه هذا على مرأى من الملك وحاشيته جميعاً . وقبل أن ناوى إلى مضاجعنا فى مساء ذلك اليوم ، كنا جميعاً نشعر بالرضى كما كنا نشعر بالفخر بأننا ننتمى إلى أسرة على رأسها هذا الرجل .

« ونزداد الحلقة الشريرة إحكاماً ففى صباح اليوم التالى السابع من أكتوبر ١٩٣٨ . يستدعى على ماهر باننا والدى إلى مكتبه فى قصر رأس النين ، ويعلمه أنه قد خرج على طاعة ملك البلاد ، وأنه لم يعد حائزاً لرضاه ، وأن عليه أن يترك جمعية المواسة

ومشروعاتها منذ ذلك اليوم ، فيقدم والذي استقالته من جميع الهيئات والجمعيات الخيرية التي يرأسها أو يشترك في إدارتها ، لأسباب صحية ، وينحلي مكرها عن المهمات الإنسانية التي ألزم بها نفسه ويقدم استقالته غير آسف إلا على ما كان يمكن أن يقدمه إضافة إلى ما قدمه ، في سبيل تحقيق بعض العدالة الاجتماعية للضعفاء من أبناء وطنه .

« ثم نكتمل الدائرة الشريفة تماماً ، حينما يكلف الملك على ماهر باشا ناليف وزارة جديدة يوم ١٩ أغسطس ١٩٣٩ ويكون أول ما يفعله بعد أن يصبح رئيساً للوزراء أن يصدر في مساء اليوم نفسه مرسوماً بإلغاء وظيفة وكيل عام مصلحة الجمارك التي كان يشغلها والذي ، وكان معنى إلغاء الوظيفة إحالة شاغلها إلى المعاش بقوة القانون . وطلع والذي على الخبر في الصحف اليومية وهو في طريقه من منزله إلى مكتبه صبيحة يوم ٢٠ أغسطس ١٩٣٩ فيعود من فوره إلى المنزل .

« وكان بينه وبين سن التقاعد وقتئذ أحد عشر عاماً كاملة » .

« وقد عمل أبى مستشاراً لأحدى شركات التأمين منذ أوائل عام ١٩٤٠ ، غير أن الله يختاره إلى جواره في ١٥ يناير ١٩٤٣ » .

« وقدّر ما كان الألم والحسرة يملكانه منذ إحاقته إلى المعاش ، إلا أنه لقى ربه بنفس مطمئنة راضياً عما قدمه لبنى وطنه مؤمناً بأن ما فعله كان خالصاً لله الذي يرفع إليه العمل الصالح وأنه وحده عبده حسن الجزاء » .

١٤

وبعد هذا كله يحرص عصمت عبد المجيد على أن يعلق على هذه القصة التعليق اللائق والموحي بعبارة تخلو من الخطابة ، لكنها تحقق ما لا تحققه الخطابة حيث يقول :

« وحتى لا يجد القارئ أمامه قصة تنتهي بانتصار الشر على الخير ، فإنني أبادر فأقول إن الزمن دار دورة كاملة وسقط الملك فاروق في يوليو ١٩٥٢ ، وسقطت بعده أسرته العلوية ، وسقط معه كثيرون من بينهم على ماهر باشا وغيره ممن كانوا أدوات الملك ومعينيه في ظلمه وإفساده كما كان من بينهم الدكتور أحمد النقيب باشا الذي حوكم أمام محكمة الثورة وأدانته بما ارتكبه من جرائم ، فحكمت عليه بالسجن خمسة عشر عاماً وصادرت ما جمعه من أموال بصورة غير مشروعة ورأت المحكمة أن العدل لا يكتمل إلا بأن ينصف من وقع عليه الظلم فقضت حكمها بالإشادة بمؤسس مستشفى أنواساة المرحوم محمد فهمي عبد المجيد فذكرت أن : « المحكمة تسجل بالفخر الموقف اشرف

الذى وثقه المرحوم محمد فهمى عبد المجيد رئيس جمعية المواطنة بالإسكندرية ، إزاء الطاغية الملك السابق .

(٣٦)

أما حرص صاحب هذه المذكرات على الحديث عن تكوينه الإنسانى فهو نموذج للأئسنة التى صرنا نقتدها فى الحديث الذى قد يقبض فيه أصحاب المذكرات عن النفس وإنجازاتها بعيداً عن تكوينها ، ولنقرأ مثلاً ما يرويه عن الثقافة التى حصلها وأفاد منها فى باريس حيث يقول :

"..... ولم أنوقف عند حد فى مجالات التحصيل العلمية والثقافية فإلى جانب دراستى فى القانون درست العلوم السياسية وهى مكتملة للدراسة القانونية ، وتنوعت قراءتى فى مجالات المعرفة المختلفة : مع زيارات منتظمة لمتحف اللوفر بما يضمه من كنوز حضارية ، وحرص على متابعة فرق الموسيقى الكلاسيكية وفرق الأوبرا ، حيث شاهدت ولأول مرة أوبرا « عابدة » لفيردى العظيم . ومع متابعة للتيارات الفكرية السياسية والاقتصادية التى كانت تملأ أجواء باريس : البسارية الماركسية والاشتراكية واليسينية المحافظة والليبرالية والقومية ، كنت أقرب كذلك أنشطة حركات التحرير الوطنية فى نضالها ضد الاستعمار وأسمع أصداها فى العاصمة الفرنسية .

وربما أتاحت كتابة هذه المذكرات فرصة لعصمت عبدالمجيد ليحدث الناس (لأول مرة) عما راودته نفسه به فى مرحلة مبكرة جداً من ترك العمل فى وزارة الخارجية بعد أن رأى المستوى فيها أقل مما كان يتصوره ، وهو مهذب إلى أبعد حدود التهذيب فيما يرويه ، ولكن المرارة واضحة فى السطور التى يكتبها عن تلك الفترة رغم مضى العهد بها ، ورغم أنه وصل إلى قمة الجهاز الدبلوماسى المصرى وبقي عليها فترة لم تنع أبداً لأقرانه ، ولكنه مع ذلك يعود بذاكرته إلى الوراء ... إلى مشاعر الألم والقلق والإحباط التى تنتاب كثيراً منا فى بدايات حياتهم المهنية على نحو ما انتابت صاحب هذه المذكرات وهو يعبر عنها بدقة شديدة لا تحصى دون ظهور مشاعر الإحباط والملل والضجر واليأس حيث يقول :

... وجدت أيضاً أن الكثيرين ممن يعملون فى السلك الدبلوماسى المصرى وقتئذ

أكثر اعتناء بمظهرهم منهم بجوهرهم ، ولم تكن الجدية والالتزام والثقافة والعلم أموراً ذات أهمية بالنسبة إليهم ، وكان سندهم فى الوصول إلى مركزهم الوظيفى هو صلات القربى التى تربطهم بذوى النفوذ والسلطان فى مصر... دفعنى هذا كله إلى اتخاذ قرار بينى وبين نفسى بترك العمل فى وزارة الخارجية والعودة إلى قلم قضايا الحكومة حيث بدأت ، أو إلى مجلس الدولة وصارحت وكيل الوزارة وقتها السفير كامل عبد الرحيم برغبتي هذه وكان رجلاً جهم الأدب واسع الثقافة رفيع الخلق ، وقد بذل رحمه الله جهداً فى إثنائى عن عزمى وفى إقناعى بالاستمرار فى العمل فى المسلك الدبلوماسى وكانت حجته فى ذلك أن الوزارة فى حاجة إلى التمييز من أبنائها لكى يكونوا نواة للإصلاح المأمول وأكد أن الخارجية أوفدتنى فى بعثة إلى فرنسا وعلى أن أقدم خدماتى لسلوك الوزارة دون غيرها وامثلت لرايه دون اقتناع كامل .

وبعد صفحات من هذا الكتاب فإن صاحب هذه المذكرات يحرص للأسف الشديد على أن يذكر أنه نقل دون واسطة إلى لندن ، وهو يروى الواقعة كأنها حدثت صدفة ، ولا يجد فى نفسه القدر الكافى لإنصاف نظام ظل ينتقده طيلة صفحات ، ومع هذا فإنه لم يظلم فى هذا النظام على طول الخط ، ولنقرأ هذه الفقرة التى تصور الرجل كأنه من أولئك الذين وصفهم القرآن حين نأثبهم الحسنة فيظنونها من أنفسهم أما السينة فلا بد أن يلقوا بتبعاتها على الآخرين :

« عندما أصدرت الوزارة قرارها بنقلى إلى السفارة المصرية فى لندن فى ديسمبر ١٩٥٠ أصابتنى الدهشة ، فقد كان المنصب على قدر كبير من الأهمية ، وكانت مثل هذه المناصب مقصورة على المقربين من أصحاب السلطان وذوى الخطوة ، ولم أكن من بينهم كنت أعمل فى ذلك الوقت فى مكتب وزير الخارجية الذى كان يشغل منصبه السياسى الوطنى التابه الدكتور محمد صلاح الدين وكان القرار مفاجأة لى ، ولم أنردد فى قبوله وسافرت إلى لندن بنهاية عام ١٩٥٠ . »

(٣٧)

وقد اجتاز صاحب هذه المذكرات على ما يرويه لنا تجربة نفسية مهمة فيما يتعلق

بمستقبله الوظيفى والمهنى حين طُلب إليه فى أواخر الستينيات العمل كرئيس لهيئة الاستعلامات ، وكان النظام البيروقراطى المصرى فى ذلك الوقت لا يتم مثل هذا النقل بطريقة الانتداب الشائعة الآن، حيث يظل السفير محتفظاً بموقعه الدبلوماسى ثم يعود، ولهذا فإن صاحب هذه المذكرات يحدثنا عن حيرته وحديثه إلى نفسه عن هذا التحول الذى يمكن أن يتم فى حياته الوظيفية عندما تلقى هذا العرض .. ويقول:

«وكنت أجمع حقايبى استعداداً للنزول إلى الإسكندرية فى شهر أغسطس ١٩٦٩، عندما تلقيت رسالة تليفونية من السيد محمد فائق وزير الإعلام فى ذلك الوقت، وطلب منى المرور عليه بالسيارة وأنا فى طريقى إلى الإسكندرية. وعندما التقيت عرض على أن أعمل رئيساً للهيئة العامة للاستعلامات المصرية، وكان هذا المنصب قد أصبح شاغراً بعدما عين شاعله المرحوم الدكتور محمد حسن الزيات مندوباً دائماً لمصر لدى الأمم المتحدة. ولم يكن القرار من جانبى سهلاً، واستغرق التوصل إليه فترة العطلة بأكملها، فقد كان معنى قبولى المنصب الجديد أن أستقبل من عملى بوزارة الخارجية التى ارتبطت بها منذ عام ١٩٤٥، وأن تنقطع صلتى بالعمل الدبلوماسى الذى مارسته قرابة ربع قرن من الزمان. إلا أنني وجدت نفسى مدفوعاً إلى المسئولية الجديدة بعاملين:

أولهما شخصى، وهو رغبتى فى أن أهيئ لأبنائى قدراً من الاستقرار الذى يفتقده أبناء أعضاء السلك الدبلوماسى، وأن أكون إلى جوارهم فى مصر فى فترة مهمة من مراحل تكوينهم العلمى والنفسى، وأن يترسخ لديهم شعور الانتماء إلى وطنهم الذى حرصت على غرسه فيهم أينما كنا.

وثانيهما موضوعى، وهو شعورى بأن عملى كرئيس لهيئة الاستعلامات سوف يتيح لى فرصة خدمة بلادى فى مجال بالغ الأهمية، كما أنه وثيق الصلة بعملى الدبلوماسى. فقد كان على أن أكون - بالإضافة إلى صفتى كرئيس لسلهية العامة للاستعلامات - متحدثاً رسمياً باسم الحكومة المصرية. وكان ذلك يقتضى أن أكون على متابعة آتية لكل التطورات والأبناء، وأن أكون على علم واطلاع على موقفنا من هذه التطورات، بحيث تأتى تصريحاتى معبرة عن موقف مصر الرسمى خصوصاً فى المؤتمرات الصحفية الدولية التى كانت تتم يوم الأربعاء من كل أسبوع بغير زيادة أو نقصان. وكان نقديرى أن تكوينى الدبلوماسى سوف يساعدنى على أداء هذه المهمة، وعلى إرضاء رغبات رجال الإعلام المصريين والأجانب، الذين لا يسوؤهم شىء قدر الامتناع عن الإجابة أو رفض التعليق».

وبعد هذه الخيرة ينهى إلينا قراره فيقول: «وعندما عدت إلى القاهرة في شهر سبتمبر ١٩٦٩ أبلغت السيد محمد فائق قبولي المهمة الجديدة الذي أبلغه بدوره إلى الرئيس جمال عبدالناصر».

أما قصة خروجه السريع من هذا المنصب الذي حقق فيه نجاحاً باهراً فقد نغاضى عنها صاحب هذه المذكرات وإن كانت لا نخفى على القارئ الأريب، الذي يدرك حقيقة نفسيات البشر.

(٣٨)

لست أحب أن أترك هذا الكتاب من دون أن أشير إلى الدقة التي تميز بها في مجمله، وإلى الحرص على ذكر التواريخ كاملة، وإلى روح الإنصاف والعدل تجاه كل ما تناوله، ولأن الكمال لله وحده، ولأننا نريد لهذا الكتاب في طبعته القادمة أن يتميز في كل شيء فإنني أود أن أشير إلى احتوائه على بعض الأخطاء اللغوية والنحوية والطبعية، بل والتاريخية أيضاً.

١ - أما أبرز الأخطاء التاريخية التي يقع فيها هذا الكتاب، فهي هذه العبارة:

«وعندما توجه محمود فهمي النقراشي باشا رئيس وزراء مصر إلى نيويورك عام ١٩٥٠ ليمرض الخلاف المصري - البريطاني على مجلس الأمن، كان الكثيرون في مصر ينتظرون أن تصدر الأمم المتحدة قراراً في مصلحة مصر، لكن فشل مجلس الأمن في إصدار القرار المنشود كان سبباً قوياً في إثارة المزيد من مشاعر الغضب والمرارة لدى الشعب المصري كله».

ولست في حاجة إلى أن أذكر ما يعرفه كل القراء من أن النقراشي توفي قبل هذا التاريخ!! ومن العجيب أن خطأ عصمت عبدالجيد في هذه الجزئية ليس خطأ في ذكر التاريخ فحسب، لكنه في السياق الذي يورد فيه هذه الواقعة، إذ هو يوردها في سياق حديثه عن الفترة التي قضاها في السفارة المصرية في لندن، وهي الفترة التي لم تبدأ أصلاً إلا بعد وفاة النقراشي.

٢ - كذلك فإن هناك سطرأ مقلقاً في نهاية صفحة ٣٦ يقول فيه عصمت عبدالجيد

ما نصه:

«وعندما استقلينا عام ١٩٥١، كان واضحاً أن العلاقات بين مصر وبريطانيا قد وصلت إلى مفترق طرق».

ومن العجيب أن يصدر مثل هذا النص عن هذا الرجل العظيم أستاذ القانون الدولي، فأى استقلال هذا الذي يتحدث عنه في ١٩٥١؟ أو يقصده؟ هل يقصد إلغاء المعاهدة؟ وهل يعبر عن هذا بالاستقلال؟ وهل يكون الفعل على هذا النحو في تصريفه في اللغة العربية وحين يسند إلى نا الدالة على الفاعلين؟؟

٣ - وفي صفحة ١١٧ حين يتحدث صاحب هذه المذكرات عن خبراته قبل شغله لوظيفة المندوب الدائم لمصر في الأمم المتحدة، فإنه يقول إنه كان مسلحاً بخبرة ما يقرب من ربع قرن في العمل الدبلوماسي الدؤوب تدعمها حصيلة تجربة ستين من العمل السياسي كوزير في وزارة الدكتور محمود فوزي (!!) ومن العجيب أنه هو نفسه الذي يدلنا في (١٠٩) أنه تسلم منصبه في أوائل يناير ١٩٧١، وفي (ص ١١٤) أن الوزارة تقدمت باستقالتها في يناير ١٩٧٢، وهكذا نتحول السنة الواحدة إلى ستين!!

وهو - مع هذا - معذور بلاشك فقد كانت تلك السنة حافلة بالنشاط والعمل الدؤوب والتقلبات السياسية المستمرة وربما وازت هذه السنة وحدها أربع سنوات كما قبلها أو ما بعدها.

٤ - ويتحدث أحمد عصمت عبد المجيد عن خروجه من الوزارة عند تشكيل وزارة الدكتور عزيز صدقي في يناير ١٩٧٢ فيذكر أن منصب سفيرنا في موسكو قد خلا بتعيين الدكتور محمد مراد غالب وزيراً للخارجية خلفاً لمحمود رياض الذي عين أميناً عاماً لجامعة الدول العربية ومن العجيب أن يقع صاحب هذه المذكرات في هذا الخطأ بينما هو أمين عام لجامعة الدول العربية ويوسعه أن يتأكد من أن محمود رياض لم يخرج من منصبه لاختياره أميناً عاماً للجامعة العربية وإنما خرج من الوزارة في يناير ١٩٧٢ وبقي مستشاراً للرئيس السادات إلى أن عين بعد شهور في هذا المنصب العربي الكبير . أما الخطأ الثاني في هذا الجملته فهو أن الدكتور محمد مراد غالب كان قد ترك موسكو منذ الوزارة السابقة أي في سبتمبر ١٩٧١ حين اختير (ولاً) كوزير للدولة للشئون الخارجية في وزارة الدكتور محمود فوزي الرابعة وقبل أن يحل في الوزارة التالية (أي في يناير ١٩٧٢) محل محمود رياض كوزير للخارجية !

مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية
من أجل السلام

2

البحث عن السلام
والصراع في الشرق الأوسط

١٩٦٨ - ١٩٤٨

مذكرات محمود رياض

دار الخيال

(١)

ولد محمود رياض عام سبعة عشر وتسعمائة وألف (١٩١٧) فى الثامن من يناير ، وقد كان فى الاصل ضابطا. بيد أنه انصرف منذ مرحلة مبكرة من حياته إلى العمل الدبلوماسى، فلم يعلق بأذهان الناس من عسكريته شيء، ولكن حياته العسكرية تستحق نظرة تقدير على الأقل فيما يتعلق بالرتب التى نفلدها فى سن مبكرة، فقد نخرج عام ستة وثلاثين ووصل إلى رتبة الأميرالاي منذ ما قبل الثورة، فإذا تذكرت أن معظم الضباط الأحرار كانوا تالين له بدفعتين حين قاموا بالثورة وكانوا لا يزالون فى رتبة البكباشى أو الصاغ - وجدت أن محمود رياض كان سابقاً لهم بمراحل إلى الترقيات والرتب .

بدأ محمود رياض مع ما يمكن أن يوصف مجاوزاً بأنه صلته بالعمل الدبلوماسى قبل الثورة حين انضم إلى لجنة الهدنة فى مباحثات رودس ويقال إن الذى رشحه لهذه المهمة أحد أصدقائه المقربين من الأسرة المالكة وقتها.

وبعد الثورة مباشرة نقل السيد محمود رياض إلى وزارة الخارجية (يوليو ١٩٥٢) وعمل فيها مديراً لإدارة شئون فلسطين ، فمديراً للإدارة العربية (٥٤-١٩٥٥)، فمديراً لمصر فى سوريا فى الفترة التى سبقت الوحدة (مارس ١٩٥٥ - فبراير ١٩٥٨)، وشارك فى مباحثات الوحدة ! أو ما سعى بمباحثات الوحدة، ثم عين محمود رياض مستشاراً لرئيس الجمهورية فى دمشق وإذا فقد كان محمود رياض من المجموعة التى كان من المفترض أنهم يحكمون أو يديرون سوريا فى أثناء الوحدة !

وفى سبتمبر ١٩٦٠ عين مستشاراً للرئيس عبد الناصر للشئون السياسية والخارجية.

وفي يناير ١٩٦٢ اختير ليرأس وفدنا الدائم في الأمم المتحدة، ووقتها كانت مصر عضواً في مجلس الأمن، وهكذا ترأس محمود رياض مجلس الأمن (نوفمبر ١٩٦٢).

في مارس ١٩٦٤ كان أول عهد محمود رياض بعضوية مجلس الوزراء في وزارة على صبري الثانية حيث عين وزيراً للخارجية وظل يشغل هذا المنصب تسع وزارات متتالية منذ مارس ١٩٦٤، وحتى يناير ١٩٧٢ في عهدي الرئيسين عبد الناصر والسادات وفي وزارات على صبري الثانية وزكريا محيي الدين وصديقي سليمان ووزارتي عبدالناصر الأخيرتين ووزارات الدكتور محمود فوزي الأربع: الأولى والثانية والثالثة والرابعة. ومنذ نوفمبر ١٩٧٠ (وزارة الدكتور فوزي الثانية) أصبح محمود رياض نائباً لرئيس الوزراء، وفي بعض هذه الأعوام (٦٤، ٦٩، ٧٠) ترأس محمود رياض وفد مصر إلى اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، وإلى اجتماعات منظمة الوحدة الأفريقية (٦٧) وإلى مؤتمر الدول الإسلامية (١٩٧٠)، وقد ترأس محمود رياض في أكتوبر ١٩٦٤ اجتماعات وزراء خارجية دول عدم الانحياز، كما شارك بالطبع في اجتماعات عدم الانحياز، وبحكم المنصب زار محمود رياض كثيراً جداً من البلاد العربية والأجنبية لمرات عديدة.

ترك محمود رياض منصبه الوزاري في مصر عندما شكل عزيز صدقي وزارته في يناير ١٩٧٢، وقد كان تركه الوزارة مفاجئاً للمراقبين... وقد عين مستشاراً للرئيس السادات لمشتون السياسية، على حين خلفه في وزارة الخارجية الدكتور محمد مراد غالب. وفي يونيو ١٩٧٢ انتخب محمود رياض أميناً عاماً لجامعة الدول العربية وبقي في هذا المنصب حتى استقال منه ١٩٧٩ إثر المؤتمر العاشر للعاصف للقمة الذي أعقب اعتزام الرئيس السادات التوقيع على اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة السلام.

(٢)

كتب محمود رياض مذكراته وركز فيها وفي عنوانها على الصراع العربي الإسرائيلي... على حين ركز محمد إبراهيم كامل على الفترة التي سبقت كامب ديفيد مباشرة (السلام الضائع في الشرق الأوسط) وركز إسماعيل فهمي على الفترة ما بين

حرب أكتوبر ومبادرة السلام (التفاوض من أجل السلام فى الشرق الأوسط) ، أما عصمت عبد المجيد فكانت مذكراته أوسع مساحة وأكثر شمولاً وإن لم نعن بالتفاصيل الدقيقة على نفس النحو الذى اعتنت به هذه المذكرات الثلاث لمحمود رياض واسماعيل فهمى ومحمد إبراهيم كامل ومذكرات رابعة هى طريق مصر إلى القدس للمذكتور بطرس غالى .

وطبعة الكتاب التى تعرضها ونحللها فى هذا الباب ونشير إلى أرقام الصفحات فيها هى الطبعة الأولى الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسة والنشر (بيروت) فى ١٩٨١ ، وقد طبعت هذه المذكرات طبعات أخرى .

ومن مقدمة مذكراته نقتطف للقارىء هذه الفقرات المهمة والمعبرة عن منهج محمود رياض فى كتابة هذه المذكرات :

« .. ورأيت أن يتضمن الكتاب مراحل النزاع كما شاهدتها ومحاولات السلام العديدة التى أهدرت. وهى المحاولات التى مازالت مستمرة حتى اليوم ولم يتحقق لها النجاح بالرغم من مرور ما يزيد على ثلاثين عاماً من بداية النزاع ».

« وكان لابد من إيضاح دور الدول الكبرى التى خلقت المشكلة والتى ساهمت فى تغذية النزاع العربى الإسرائيلى، والدور الذى لعبته الولايات المتحدة فى استمرار النزاع حتى اليوم ».

« وكانت بداية تفكيرى فى إصدار الكتاب ، إلحاح العديد من الأصدقاء ومن بينهم وزراء الخارجية العرب بضرورة تسجيلى للأحداث التى شاهدتها خلال الأعوام الثلاثين الماضية ».

« إلا أننى كنت اعتذر بأننى لا أستطيع أن أضع كتاباً وأنا فى منصبى أميناً للجامعة العربية، وبعد الاستقالة توجهت إلى لندن لأحظى بقسط من الراحة ، ولأول مرة طوال عملى فى المجال السياسى، التقيت بمجموعة من الأصدقاء العرب الذين ذكرونى بوعدى بالكتابة عندما أتحلل من مسؤولياتى الرسمية. وكان من بينهم من له خبرة فى إصدار الكتب فبسطوا لى الأمور فتخيلت أن الأمر لا يقتضى منى جهداً كبيراً أو وقتاً طويلاً ».

« وزال ترددي تماماً عندما سمعت بقصة الأستاذ العربى الذى ذهب ليحاضر فى إحدى

الجامعات الأمريكية فطلبوا منه أن يكون موضوع محاضراته: الصراع العربي الإسرائيلي، على أن يشرح وجهة نظر كل طرف، فاكتشف أن مكتبة الجامعة تضم عشرات الكتب التي وضعها العديد من المسئولين الإسرائيليين، ولم يعثر على كتاب واحد وضعه مسئول عربي يتحدث فيه عن واقع تجربته^٨.

٨ ثم فوجئت بمشكلة، فدار النشر العربية لا ترى التقييد بعدد محدد من صفحات الكتاب بينما ترى دار النشر الانجليزية ضرورة التقييد بعدد من الصفحات^٩.

٩ فاقضى الأمر جهداً ووقتاً فوق كل توقعاتي، فقد كان على أن أعيد كتابة الطبعة الانجليزية بطريقة أكثر تركيزاً مع حذف بعض الأحداث التي لا نهتم القارئ الأجنبي مع عدم المساس بجوهر الكتاب^{١٠}.

١٠ وقد حاولت على قدر الإمكان، وعلى ضوء الممارسة الشخصية إيضاح المخاطر التي تهدد أمن الدول العربية، كما حاولت التذكير بأنه لا سبيل لدراء هذه المخاطر إلا بالعودة إلى وحدة العمل العربي وفي ظل عمل منظم لاسترداد الحق العربي^{١١}.

وفي نهاية الكتاب يحرص محمود رياض على أن يبلور هدفه من الكتاب بعد أن انتهى منه كما يبلوره في بدايته ويقول:

"ولعل فيما أوردته في هذا الكتاب خطة للجيل المقبل، فهو الأمل في أن تظل أعلام النضال العربي مرفوعة إلى أن يقوم السلام الحقيقي القائم على العدل الذي ظل مطلب العرب على الدوام".

(٣)

يجدر بنا أن نذكر في البداية أن محمود رياض محب لعبد الناصر ومقدر لجهده طوال هذه المذكرات، ومع هذا فلا تخلو المذكرات التي بين أيدينا من توجيه بعض النقد إلى الرئيس جمال عبدالناصر شخصياً، ولكنه نقد في محله، لا يقلل من قدر عبدالناصر عند محمود رياض ولا من حب محمود رياض لعبدالناصر. واعتقد أنه من الضروري أن نبداً بتناول مواضع هذا النقد حتى غمضى بعد ذلك مع كل المواقف ونحن واعون لتأييد صاحب المذكرات المطلق والأكيد لخط عبدالناصر فيها:

١ - فهو في الصفحات الأولى من كتابه (صفحة ٣١) لا يبدى ارتياحه تجاه رد فعل جمال عبدالناصر على قرار جونسون بقطع المعونة الأمريكية مع مصر:

«وفي الليلة التي علم فيها جمال عبدالناصر بهذا القطع، كنت سمع في منزله، عندما قال لي معلماً: منى يفهم جونسون أن متاعب أمريكا في هذه المنطقة ليست بسبب شخص جمال عبدالناصر أو بلد اسمه مصر.. ولكن متاعب أمريكا هي بسبب سياسة أمريكا نفسها.. إنهم لا يجيدون التعامل إلا مع عملاء مثل كميل شمعون الذي أنزلوا قواتهم بسبه في لبنان (١٩٥٨) ومثل شاه إيران الذي جعلوه يتحالف مع إسرائيل ضدنا. إن المجتمع الأمريكي مجتمع قوى وعظيم.. ولكنهم جاءوا لنا برئيس يتعامل بمنطق فطاح الطرق مع شعوب تعيش في القرن العشرين».

وقد خرج عبدالناصر ليلقى خطاباً جماهيرياً في بورسعيد في ٢٣ ديسمبر (١٩٦٥) يعلن فيه موقفه من قطع المعونة الأمريكية عن مصر بعبارة المشهورة: «فليشرب الأمريكان من البحر، وإذا لم يكفهم البحر الأبيض فلديهم البحر الأحمر»!

وهنا لا يجد محمود رياض حرجاً في أن يعلق منتقداً ومبرراً في ذات الوقت فيقول: «إن مثل هذا التعبير كان قاسياً بالطبع في التعامل مع قوة عظمى كالولايات المتحدة. ولكن عبدالناصر كان رجل ثورة وكان يرى أن قوته الأساسية لا تكمن في مركزه الرسمي كرئيس للجمهورية ولكن في إيمان رجل الشارع في الوطن العربي به. وفي قدرته على استثارته وتعبيته على مستوى شعبي، مما كان يفرض عليه مصارحته تماماً بحقائق الموقف دون اللجوء للديبلوماسية الهادئة داخل المكاتب المغلقة التي كانت نفيد الولايات المتحدة وتضر بموقفه هو».

٢ - كذلك فإنه (في صفحة ٦٦) يلجأ - دون اتفاق - إلى تأكيد نظرية تبنائها أنور السادات وهي أنه كان يجب على عبدالناصر تنحية عبدالحكيم عامر فوراً في ٥ يونيو، وهي الرواية التي رواها السادات بنفسه لمحمد فوزي على حسب ما رواه محمد فوزي في إحدى مذكراته، مع أن محمد فوزي نفسه يعترض على هذه الرؤية. ولكن محمود رياض يرى أن هذا الذي كان السادات يرى جدواه كان ضرورياً:

«... وكان الخطأ الثاني هو أنه عندما تبين له عجز القيادة العسكرية السنام في صباح يوم ٥ يونيو كان لزاماً عليه أن ينحى عبدالحكيم عامر عن القيادة فوراً، وأن يتولى القيادة

بنفسه. ولقد كان عبدالناصر يستطيع في ذلك اليوم الأول من الحرب، وبرغم نجاح الضربة الجوية الإسرائيلية، أن يسحب القوات المصرية إلى خط المضائق، وفي ذلك الوقت كانت الخسائر المصرية مازالت قليلة للغاية وكان حجم القوات المصرية التي ستقف عند المضائق كفيلاً لمنع أى تقدم إسرائيلي. أما سلاح الطيران فقد كان من الممكن تعويض خسائره خلال وقت قصير لأن خسائره انصرفت على الطائرات دون الطيارين».

اعلى أن عبدالناصر لم يتوقع على وجه التأكيد أن تفقد القيادة العسكرية قدراتها خلال الساعات الأولى من المعركة، وقد تصور أن ما لدى القيادة من قوات كفيلاً بعرقلة تقدم الجيش الإسرائيلي عند المضائق، وعندئذ كانت ستبدأ مناعب إسرائيل الحقيقية فكان عليها حماية خطوط مواصلات وإمدادات طويلة عبر صحراء سيناء، وهو أمر لم تمارسه من قبل ويحتاج إلى قوات ضخمة، كما كانت ستحتاج إلى وضع الجيش الإسرائيلي بكامله في سيناء لعدم وجود قواعد ارتكاز تستند إليها في حالة تعرض قواتها لهجوم مصري مضاد. والأمران يحتاجان إلى أعداد من الأفراد وهو ما لا تحتمله إسرائيل اقتصادياً لمدة طويلة».

«ولم يكن عبدالناصر يتصور أن تصدر القيادة العسكرية الأوامر بالانسحاب مساء يوم ٦ يونيو، أى بعد ٣٦ ساعة من بدء القتال، ولقد سألت الفريق محمد فوزي فيما بعد : لماذا لم تقف قواتنا عند الخط الدفاعي الطبيعي وهو خط المضائق، الذي جرت دراسته منذ عام ١٩٤٩ وبعد توقيع اتفاقية الهدنة وأجمعت كافة الدراسات العسكرية منذ ذلك الوقت على أنه أنسب خط للدفاع شرق القناة. وقد أجابني الفريق محمد فوزي بأن المشير عبد الحكيم عامر قد استدعاه بعد ظهر يوم ٦ يونيو وطلب منه وضع خطة لسحب قواتنا من سيناء فاجتمع الفريق محمد فوزي مع عدد من أفراد القيادة ووضعوا خططهم على أساس الانسحاب إلى غرب القناة على أن يتم ذلك تدريجياً وبطريقة منظمة تسغرق ثلاثة أيام. ولقد تم وضع تلك الخطة خلال فترة لا تزيد على نصف ساعة. وحينما دخل الفريق محمد فوزي على المشير عبد الحكيم عامر ليقدم إليه الخطة التي طلبها فاجأه المشير عبد الحكيم عامر بقوله: إنى أصدرت فضلاً تعليماتى إلى القوات المسلحة بالانسحاب إلى غرب قناة السويس (أى من سيناء بالكامل) قبل الصباح (صباح اليوم التالي - ٧ يونيو) أى خلال ١٢ ساعة. ولقد كان تنفيذ هذا الأمر مستحيلًا لوجود آلاف من الدبابات والعربات ووحدات المدفعية وعشرات الآلاف من الجنود في سيناء،

بينما الطرق محدودة والأرض وعرة والمبارات فى قناة السويس قليلة العدد وكان الانسحاب خلال ثلاثة أيام تحت نيران الطائرات الإسرائيلية عملية شاقة. أما الانسحاب خلال ١٢ ساعة فهو بمثابة حكم بالإعدام على القوات المنسحبة، مثل هذا الأمر لا يمكن أن يصدر من شخص فى حالة طبيعية. وهكذا، فإنه تنفيذاً لهذا الأمر العشوائى بالانسحاب اكتظت الطرق القليلة فى سيناء بالدبابات والمعدات وتعطل العديد منها على الطرق ولم يكن هناك من ينظم سير الوحدات فندخلت مع بعضها وتوقف التحرك تماماً. وهكذا وجد سلاح الطيران الإسرائيلى تحته على أرض سيناء صيداً سهلاً ففتح نيرانه على العربات والجنود المكتظين على طرق سيناء ووصلت خسائرنا فى هذا اليوم إلى ما لا يقل عن عشرة آلاف جندي وتم تدمير كافة المعدات والعربات الموجودة شرق المضائق وعاد الكثيرون من الجنود مشياً على الأقدام فى حالة سيئة للغاية ومات بعضهم فى الصحراء جوعاً وعطشاً، الأمر الذى جعل طائرات الصليب الأحمر تعمل لبضعة أيام بعد الحرب لإنقاذ الأفراد الباقين على قيد الحياة. فقدت مصر جيشها وأصبح ميراً لإسرائيل من الناحية العسكرية البحتة أن تعبر قناة السويس وتتقدم نحو القاهرة.

٣- وهو فى صفحة ٨٠ فى نهاية حديثه عن حرب ١٩٦٧ وتأمله لما حدث فيها من أخطاء عسكرية بالغة الصعوبة، ينتقد عبدالناصر بكل وضوح للمرة الثالثة، بل إنه فى هذه المرة يصل إلى التصريح بإحساسه بأنه لم يعد لائقاً له أن يكون وزيراً للخارجية فى نظام يمثل هذا القدر من التذاعى!! ويقول:

«لقد كانت الأخطاء العسكرية فوق كل تصور، ولكن ذلك لا يعفى القيادة السياسية من مسئوليتها فى التأكد من وجود قيادة عسكرية تستطيع القيام بواجباتها على الوجه السليم».

«ولقد أصبح واضحاً لى، فى تلك الفترة، كما أصبح واضحاً لعبدالناصر نفسه، أن الخطأ يكمن فى النظام الذى سمح بوقوع مثل هذه الأخطاء، وقد شعرت فى هذه اللحظات أننى لا أستطيع الاستمرار فى عملى كوزير للخارجية بسبب تلك الأخطاء التى كان يمكن تفاديها. إلا أننى راجعت نفسى فيما بعد فقد أصبح الأمر يتطلب من كل فرد أن يبذل أقصى ما يملك من جهد للخروج من هذا الموقف العصيب، وأن المصلحة تقتضى العمل على تحرير أراضينا قبل إلقاء اللوم على النظام أو مجموعة أفراد».

«لقد أدركت أن من واجبنا كأفراد أن نشارك فى تحمل المحن، قبل أن نشارك فى الزهو بالانتصار».

ومع هذه الانشقاقات فإن محمود رياض حريص على أن يثبت مدى حساسية عبدالناصر وشعوره المرهف بالعزة والكرامة في أكثر من موضع، منها ما يرويه على سبيل المثال (صفحة ١١٧) عما صرح له به عن مدى استغرابه أن يطلب المعونة العربية للتغلب على آثار هزيمة ١٩٦٧ وصعوبة مثل هذا التصرف على نفسه:

«سكت عبدالناصر قليلاً، قبل أن يقول معترضاً: كل هذا معقول، ولكن غير المعقول أن أطلب باسم مصر أموالاً من دول عربية كانت مصر هي التي نعاونهم قبل ظهور البترول. كيف تتخيل وقع ذلك على الشعب المصري، وعلى أنا شخصياً».

«كان واضحاً أن تلك النقطة صعبة فعلاً على نفس عبدالناصر، وقد حاولت أن أخفف عليه الأمر بقولى: اعتدنا أن نعطي من قبل فعلاً، ولكننا أعطينا لإخوة لنا، وهم إذا أعطونا الآن فإنهم كذلك سيمطون لإخوة لهم. ثم إننا الآن في معركة لا يقتصر الخطر فيها علينا فقط، ولكنه خطر مشترك ضد العالم العربي بأكمله، فنحن جميعاً شركاء في كل ما يحدث سواء أردنا أو لم نرد».

«قال عبدالناصر: ألا يجوز أن يراها البعض في العالم العربي، ممن لم تتفق سياستنا معهم في الماضي، أنها فرصة ذهبية أمامهم للشماعة فينا؟».

«أجبت قائلاً: لا أعتقد ذلك. لأن الجميع أصبحوا يدركون الآن أن الخطر الإسرائيلي هو أمر يعلو على النظم السياسية أو الآراء السياسية في العالم العربي، لذلك فإنني لا أعتقد أن أي دولة عربية ستتأخر في تقديم عوننا لنا.. إدراكاً منها لضرورة المساهمة في أعباء المعركة».

«عند هذه النقطة زال تردد عبدالناصر تماماً. وإن كان قد بقي لديه تحفظ صامت بشأن جدية رد الفعل الذي سنحصل عليه من الدول البترولية العربية».

كذلك فإن صاحب هذه المذكرات يروي (صفحة ٢٨٧) بقدر كبير من الفخر والاعتزاز مدى وطبيعة الإعجاز الحقيقي الذي حققه عبدالناصر قبل وفاته مباشرة بإنقاذ الجبهة الشرقية والمقاومة الفلسطينية من دمار كان مبيتاً لها إذا ما سارت الأمور على نحو ما بدأت به من تحرش وتحريض وسوء فهم وذلك حيث يقول:

«... وفى ذلك المؤقر تأكد من جديد مدى احترام الرؤساء والملوك العرب لعبدالناصر، وبرزت زعامته فوق كل المتناقضات، فقد استطاع أن يواجه ويحتوى أضخم أزمة تعرض لها العالم العربي منذ ١٩٦٧ حينما لى الملوك والرؤساء العرب دعوته للحضور إلى القاهرة، وحينما جعل الطرفين المتقاتلين يتوصلان إلى إيقاف المذبحة، معجباً بذلك محاولة التدخل العسكرى من جانب إسرائيل والولايات المتحدة، وهو التدخل الذى كان يمكن أن تكون له عواقب فى منتهى الخطورة على الموقف فى المنطقة بأسرها، وحينما نصح الحكومة السورية بسحب قواتها من الأراضى الأردنية».

«ولاشك أنه مما ساعد عبدالناصر على احتواء الأزمة التصرف السليم لسوريا وسحبها المدرعات السورية من الأراضى الأردنية».

«وكان هناك أيضاً عامل آخر هو عدم تدخل القوات العراقية المراقبة المربطة فى الأردن، على الرغم من مهاجمة الحكومة العراقية سياسياً للملك حسين».



كما أن محمود رياض يعترف (صفحة ٦٤) بمقدار الانهيار المروع الذى حل بعبدالناصر (شخصاً ونفساً) نتيجة انهيار القوات المسلحة فى حرب ٥ يونيو، وفى هذا ما ينفى عن عبدالناصر أى إهمال أو نقصير أو نواطؤ أو ارتياح لنتيجة الحرب فيما يتعلق بتقليم أظافر القوات المسلحة وقائدها عبدالحكيم عامر:

«وفى الساعة التاسعة مساء ٦/٨ طلبنى الرئيس عبدالناصر تليفونياً فى مكالمة لن أنساها سلقاً وبدأ يحدثنى بشرة مؤلمة ومفجعة فى صوته ، كانت فى حد ذاتها كافية لتصوير الموقف كله. لقد أخطرني بأن الانهيار فى القوات المسلحة كان كاملاً وفوق أى تصور، وأنه لم يعد فى إمكاننا مواصلة القتال، وأنه يجب أن نخاطر القونى لإبلاغ مجلس الأمن بموافقتنا على وقف العمليات العسكرية».

(٥)

لعلى أستاذن القارئ فى أن أبدأ فى عرض أكثر ما أزعجنى فى هذه المذكرات ، فقد أزعجنى كقارئ وأظنه يزعج غيرى من القراء الآخرين إلى أبعد حد ممكن ومحتمل أن نجد محمود رياض فى هذه المذكرات وهو حريص بكل ما أوتى من قدرة على الكتابة

والتحليل وفى كل فرصة على أن يفرض علينا أسناذيته العسكرية، وذلك على الرغم من ابتعاده الشام عن القوات المسلحة منذ أوائل الخمسينيات، ولكنه يظل رغم هذا متشبهاً بتخرجه فى كلية أركان الحرب، وبأنه كان أستاذاً (مدرساً) فى الكلية الحربية وكلية أركان الحرب، وهو حريص على أن يكتب هذه الصفات فى تقديمه لنفسه فى أول الكتاب، وعلى غلافه الداخلى، كما أنه لا يفنأ فى حديثه إلينا فى هذه المذكرات يهبنا إلى تمتعه بهذه المؤهلات. وقد دفع هذا الخلق وهذه الرغبة النفسية العارمة محمود رياض إلى أن يتناول بالتحليل والنقد المفصل أداء قواتنا فى معركتى ١٩٦٧ و١٩٧٣، أما تحليلاته لحرب ١٩٦٧ فلا تخرج بالطبع عن نطاق إثبات الأخطاء الرهيبة التى وقعنا فيها (سواء القيادة السياسية أو العسكرية) وليس فيما توصل إليه محمود رياض فى شأن هذه الحرب إعجاز، لأنها أمور عامة يسهل أن تكون مدركة بالبداهة، ولكن تحليله لحرب ١٩٧٣ يبدو على النقيض من ذلك تماماً، فهو يتعمق نفسه على الأداء العسكرى فى هذه الحرب فيبدو وكأنه لا يفعل شيئاً إلا أن يقتدى بالحاقدين من الذين عز عليهم أن يتحقق نصر على هذا المستوى دون أن تسبقه على نحو ما تعودوا وعود ضخمة، وشعارات طنانة، وخطب رنانة، واستعراضات جنونية، وعلى الرغم من أن ما يقدمه محمود رياض عن هذه الحرب فى هذه المذكرات يبدو على مستوى النص وكأنه تحليل جيد الشكل، إلا أنه فى حقيقة الأمر يمثل إهانة كبرى لمحمود رياض حين يزج بنفسه وآرائه فى هذه التفصيلات بينما هو بالقطع غير مدرك لكل المعطيات، ومع أن تحليله واستنتاجه للمحقق من خلال ما توفر له بالسؤال وبالاتطباع قد يكونان صواباً إلا أن هذا لا يضمن لنا أن يكون ما وصل إليه محمود رياض هو الحقيقة بعينها، أو هو أمر قريب من الحقيقة.

وسوف ننقل للقارئ بعد قليل، الفقرات التى تحدث فيها محمود رياض مع أربعة من كبار المسؤولين والعسكريين هم: المشير أحمد إسماعيل والفريق سعد الدين الشاذلى واللواء طلعت حسن على ومحمد حافظ إسماعيل فيما يتعلق بمجريات الأمور أثناء الحرب، ولكننا بعد أن نقرأ هذا كله نجد أنفسنا متعجبين تماماً من أن يصل رجل فى سنه وفى خبرته إلى الاعتقاد بأن فى إمكانه الإحاطة بوجه الصواب فى معركة مستمرة لمجرد أن يحظى بالإجابة على مجموعة محددة من الأسئلة النظرية على هذا النحو، بينما هو لا يعرف على وجه التحديد ما اتفق عليه القائد الأعلى للقوات المسلحة (رئيس الدولة) مع القائد العام (الوزير أحمد إسماعيل) ورئيس هيئة الأركان (الفريق الشاذلى)، وهل كان

فى وسع القائد العام أن يتجاوز ما هو مطلوب منه حتى لو كان علمه يدفعه إلى مثل هذا التجاوز، وحتى لو كان حماسه يدفعه إلى مثل هذا التجاوز!!

هذه هى النقطة الجوهرية فيما أراه من قصور أحكام محمود رياض وقصور رؤيته، وللأسف الشديد فإن محمود رياض لم يكن وحده الذى عانى من هذا القصور، بل إن كثيرين آخرين من المصريين والعرب انساقوا إلى مثل هذا الدرب الضيق أو التفق المظلم الذى كان كفيلاً بتعذيب الذات بل جلدها فى بعض الأحيان.. ولتأمل هذه التعبيرات المقصبة بالألم التى ترد على قلم محمود رياض وهو يتحدث عن ضياع الفرصة فى تطوير الهجوم، بينما هو فى نيويورك.. سنقرأ هذه التحليلات وقد نجد أنها تبدو وكأنها منطقية ولكنها بالقطع لم تكن واقعية، ولن نظن أن الأمور كان ينبغي لها أن تخفى على نحو ما يريده محمود رياض لسبب بسيط هو أن عقلنا البشرى أصبح اليوم قادراً على تصور مدى التعقيدات فى تشييل الغسالة الأتوماتيكية وموتور الدش وذكرة التليفون المحمول، فما بالنا بإدارة الحرب كلها!! وهكذا سنفاجأ إذا أمعنا الفكر لدقيقة واحدة أن الأمور الاستراتيجية لم تكن أبداً بهذه السهولة، بل لم يكن من الممكن أن تكون بهذه السهولة..

وقد نتجاوز عن التهذيب قليلاً فنصف تفكير محمود رياض ومحاوراته على أنها شبيهة بأراء جترالات المقاهى الذين كانوا يجلسون ليطوروا خطط الحرب العالمية الثانية بمنتهى التلقائية وهم يلعبون النرد وكأنهم أوتوا من الحكمة ما لم يؤت القواد الميدانيون من أمثال مونتهجرى وروميل، فضلاً عن القادة السياسيين من أمثال تشرشل وهتلر وروزفلت.

لنقرأ هذا الحوار بين محمود رياض عند عودته من نيويورك ولقائه بحافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى الذى كان قد عمل معه كوزير دولة للشئون الخارجية، وهو مثله عسكرى سابق متخرج فى كلية أركان الحرب:

«... وبمجرد وصولى إلى القاهرة التقيت مع حافظ إسماعيل مستشار الرئيس السادات للأمن القومى، بمنزلى، حيث خصص الموقف العسكرى فقال إنه حدث تهاون فى موضوع الثغرة حيث كانت المعلومات التى وصلت بشأنها فى البداية نقلت من شأنها وأهميتها، وبناء على تلك المعلومات غير الدقيقة لم تصدر القيادة بالقاهرة من اللحظة الأولى القرار السليم للتعامل مع الثغرة، وعندما تبينت ضخامة الاختراق الإسرايلى وسرعته (فقد)

ارتبكت القيادة لأنه لم يكن لديها الاحتياطي الكافي لمواجهة الأعداد الكبيرة من المدرعات الإسرائيلية التي عبرت إلى الضفة الغربية بسبب عبور الفرقة المدرعة ٢٦ والفرقة المدرعة الرابعة وهما من الاحتياط إلى الضفة الشرقية للقناة. وذكر أنه أمكن سحب بعض الصواريخ المصرية إلى الخلف لإنقاذها من التدمير، وأنه لم تحدث خسائر في أطقم الصواريخ. وأهمية ذلك أن تدريبهم يحتاج إلى شهور طويلة.

وعندما استفهمت منه عن المساعدات الخارجية التي وصلت خلال تلك الفترة وعن مدى كفايتها لمسد الثغرة، قال: إن الاتحاد السوفيتي أرسل إلينا ما يعادل ثلاثة ألوية مدرعة، كما سادرت الجزائر بإرسال لواءين مدرعين بأطقمهما كاملة، وأرسلت ليبيا لواء مدرعاً، ويوجوسلافيا لواء مدرعاً، أما المغرب فقد أعلنت أنها سوف ترسل لواء مدرعاً. وبذلك يكون المجموع ثمانية ألوية مدرعة، أي ما يزيد على ثمانمائة دبابة.



عند هذا الحد ينبغي لنا أن نتوقف لننتقد محمود رياض في جزئية مهمة وهي أنه حسب علينا أو على الجيش المصري بمعنى أدق كل ما أتى وكل ما وعد به كذلك وأخذ يطالب الجيش بأن يحارب ويتصدى ويطور بهذا الذي أصبح متاح له في الوجود .. وهكذا أصبح المجموع ثمانمائة دبابة، بينما القراء يعرفون أن هذا الرقم لم يكن قد وصل بالفعل .. ولكن محمود رياض يريدنا أن نحارب المعركة ونطور الهجوم في أرض سيناء بالأسلحة التي في الطريق وبالأسلحة الموجودة بها كذلك .. وهذا من أعجب الأمور التي تعرض لها أداؤنا الفذ في ٦ أكتوبر المجيدة فإذا بواحد كمحمود رياض يفعل بهذا الأداء كل هذا الانتقاد غير المبرر .. ومن العجيب أن محمود رياض نفسه ذكر في كتابه الذي بين أيدينا أرقاماً تختلف تماماً عن هذه الأرقام في موضع آخر، لكن ما يهمنا بالطبع هو هذا المنهج في التفكير .. ولو لم يكن في عرض صاحب هذه المذكرات لوجه نظره غير هذا العيب [أو العوار بعبارة أدق] لكفانا دليلاً على مدى قصور رؤيته الاستراتيجية والعسكرية، وما هو يواصل إعطاء الدروس مع هذا :

"ولقد علقت قائلاً: إنني أستغرب أن تهدر القيادة أحد مبادئ الحرب الأساسية وهو أهمية احتفاظها بقوات احتياطية. وأشارت إلى تصريح لقائد الجبهة الإسرائيلية بأنه عندما عرف من طلعات الاستطلاع التي قام بها الطيران الأمريكي بأن ثلاث فرق مصرية من الاحتياط قد عبرت القناة، وجد أن أمامه ثغرة في الخط الدفاعي المصري دون حماية فقرر

القيام بعملية الاختراق، كما أبدت دهشنى عندما علمت بعدم وجود قائد للجهة، واقرحت إصلاح هذا الخطأ الفادح بتعيين قائد للجهة على الفور، وقلت إن عدم وجود قائد من البداية هو الذى منع استغلالنا لنجاح العبور الذى تم بسرعة فائقة وبدون خسائر تذكر. ثم عدم استغلالنا لفشل الهجوم الإسرائيلى المضاد، وذلك بالتحرك نحو المضائق مباشرة، والأهم من ذلك فإن وجود قائد للجهة لن يحرم نفسه من القوات الاحتياطية وكان سينصرف بسرعة لسد الثغرة^١.

(٦)

ثم لنقرأ بعد عشر صفحات من حوار محمود رياض مع محمد حافظ إسماعيل هذا الحوار المثمر الذى أجراه هو أيضاً (وهو أمين عام لجامعة الدول العربية) مع المشير أحمد إسماعيل على، متتهراً فرصة لقاء عابر فيما بعد الحرب، ولنتأمل هذه الثقة وهذا التواضع فى إجابات أحمد إسماعيل على أسئلة محمود رياض القلقة وربما المستفزة، مع أن الرواية لمحمود رياض وليست لأحمد إسماعيل :

«... وبمجرد انتهاء مقابلة السفير السوفيتى اجتمعت مع الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الحربية، وذكرت أنه يجب الان اعتبار أن المعركة قد انتهت وأنه يمكن الحصول على مساندة قوية من الدول العربية فى مؤتمر القمة المقبل، ثم أشرت إلى المعركة والأخطاء التى حدثت بإشراك قواتنا الاحتياطية فى الهجوم بدلاً من الاحتفاظ بها للقيام بواجبها الأصلى وهو صد الهجوم المضاد، وذكرت أنه من الضرورى الإسراع بتشكيل احتياطى كبير وأشرت إلى خطأ آخر أظهرته المعركة وهو عدم تعيين قائد للجهة، فقد تبين أنه لا يمكن إدارة المعركة من القاهرة، وقائد الجهة كان يستطيع أن يعالج مشكلة الثغرة مباشرة ودون انتظار تعليمات من القاهرة»^٢.

١ فأجابنى أحمد إسماعيل بأنه هو شخصياً قائد الجهة. وشرح لى ظروف الثغرة بأنه حدث للأسف تعديل فى القيادة المحلية فى نفس اليوم الذى بدأت فيه الثغرة، مما أحدث نوعاً من الخلل فى القيادة، وإنه أصدر أمراً باستخدام لواء مدرع لمواجهة الثغرة فى بدايتها، إلا أن القائد المحلى أبلغه أن موضوع الثغرة بسيط للغاية، وأنها مجرد دورية إسرائيلية نجحت فى عبور القناة، وأنه يستطيع معالجتها دون استخدام اللواء المدرع.

وعندما تبينا ضخامة حجم القوات الإسرائيلية التي عبرت القناة، أصدرت أمراً إلى لواء ميكانيكي بالتصدي للثغرة، ولكنه لم ينجح في أداء تلك المهمة بعد أن دعمت إسرائيل رأس الكوبرى بقوات كبيرة^{٢٤}.

« قلت لأحمد إسماعيل: إنى أفهم أنك قائد عام للقوات العربية وأنت مسئول عن التنسيق بين الجبهتين المصرية والسورية، ومازلت أرى ضرورة وجود قائد عام للجبهة على أن يكون مركز قيادته خلف قوائمه مباشرة^{٢٥}.

« ثم انتقلت بعد ذلك إلى شكوى الرئيس حافظ الأسد من تناقض المعلومات التي كانت تبلغ إليه عن الموقف في الجبهة المصرية وما لديها فعلاً من احتياطي حقيقي، ورد على أحمد إسماعيل بأنه كان لديه فرقة مدرعة لحماية القاهرة ورأى عدم استخدامها لمواجهة الثغرة الإسرائيلية. وأضاف أحمد إسماعيل أن القوات المصرية تطوق الآن الجيب الإسرائيلي وتستطيع القضاء عليه تماماً وهو في انتظار تعويض خسائره من الطائرات والصواريخ المضادة للطائرات والمضادة للدبابات^{٢٦}.



لست أستطيع أن أنفي تحيزي لقائد معركة ٦ أكتوبر ولكل قادتها، ولكنى أعجب كل العجب من أن يجد انسان كائناً من كان الجراءة ليثبت كل هذا الذي يرويهِ محمود رياض، وسوف ينزعج القراء من مثل هذا الذي يقرءونه لهذا الرجل، وهنا لا بد لى أن أذكر لهم أن مثل هذا الأسلوب العلوى كان موجوداً بشدة وقد عانى منه قادتنا أضعاف ما عانوا من إدارة المعركة نفسها ..

وإنى لأدعو الذين يقرءون الفاتحة على روح أحمد إسماعيل أن يكرروا قراءتها وهم يرون صبر هذا القائد العظيم على هذه « الدروس » التي يتلقاها من رجل ترك العسكرية منذ أكثر من عشرين عاماً !! .

(٧)

وبعد اثنتى عشرة صفحة يأتي دور الفريق سعد الدين الشاذلى فى حوارات محمود رياض مع القادة العسكريين. وقد كان الشاذلى يحكم منصبه أميناً عاماً مساعداً للجامعة العربية للشئون العسكرية، وسوف نفاجاً - على عكس المتوقع - بأن رؤية الشاذلى لا

تختلف عن رؤية أحمد إسماعيل، وإن اختلفت بالطبع عن رؤية محمد حافظ إسماعيل ومحمود رياض، وهذه هي الفقرات التي يروى بها صاحب هذه المذكرات حوارهما:

«... بمجرد عودتي إلى القاهرة، عقب اختتام مؤتمر القمة بالجزائر لأعماله، دعوت الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس أركان حرب الجيش المصري للاجتماع معي في ٢ ديسمبر، وكان يتولى في نفس الوقت منصب الأمين العام المساعد للجامعة العربية للشئون العسكرية، وكان الهدف من الاجتماع هو متابعة القرارات العسكرية التي تم اتخاذها في اجتماع القمة».

«وفي الاجتماع تطرق الحديث إلى الطريقة التي أديرت بها معركة أكتوبر على الجبهة المصرية، والتطورات التي انتهت إليها. وكان من الطبيعي أن أسأل الشاذلي عن السبب في عدم تقدم القوات المصرية إلى المضائق بسيناء، خصوصاً بعد نجاحها الرائع في تحقيق عملية عبور قناة السويس».

«وقد أجبني الشاذلي بأنه من الناحية الميدانية فإن الهدف الذي تم تحديده للقوات المسلحة هو فقط عبور قناة السويس، لأن التقدم إلى المضائق كان من المعتقد أنه يفوق الإمكانيات العسكرية المتوافرة».

«وقد ناقشته في هذه النقطة الأخيرة، على أساس أنه حتى لو كان هذا الافتراض قائماً على أن تبدأ المعركة فعلاً، فإنه بمجرد أن بدأ القتال ظهرت خلال الأيام الأولى عوامل جديدة تحتم توجيه القوات المصرية على الفور إلى احتلال مضائق سيناء. ومن تلك العوامل مثلاً عدم وجود قوات إسرائيلية كبيرة في جبهة سيناء، والمفاجأة الكاملة التي أصيبت بها القوات الإسرائيلية الموجودة، وأخيراً أسرع إسرائيل بحشد قواتها الضاربة لصعد الهجوم السوري في الجولان. لقد كانت إسرائيل تعطي أولوية عسكرية للجبهة السورية، لأن نجاح سوريا في تحرير الجولان من الاحتلال الإسرائيلي يجعلها في مركز عسكري يمكنها من تهديد شمال إسرائيل بما فيه من مستعمرات ومدن وكثافة سكانية كبيرة. وبالإضافة إلى ذلك فقد ثبت خلال الأيام الأولى من القتال على الجبهة المصرية كفاءة الأسلحة المصرية المضادة للطائرات، والتي تسببت في إلحاق خسائر كبيرة في الطيران الإسرائيلي، علاوة على المفاجأة باستخدام الصواريخ المضادة للدبابات بواسطة القوات المصرية الأممية، مما تسبب في تدمير مائتين وخمسين دبابة إسرائيلية خلال ثمان وأربعين ساعة».

«وقد أجابني الفريق الشاذلي بأن ما حدث لإسرائيل في الأيام الأولى من القتال قد جرى لنا عندما تقدمنا بدباباتنا يوم ١٤ أكتوبر، ففقدنا مائتين وخمسين دبابة وتعاملت معها إسرائيل بنفس الأسلوب الذي استخدمناه نحن، أي باستخدام الصواريخ المضادة للدبابات».

«وسألت الشاذلي: وكيف نقع من جانبنا في هذا الخطأ القاتل حيث كان المفروض أن نغير تكتيك المعركة، حتى لا نعرض دباباتنا لتدمير إسرائيلي مؤكد؟ وحتى لو تجاوزنا عن ذلك، فكيف فلتنا إلى هذا الحد في معالجة الثغرة الإسرائيلية في الدفوسوار؟».

«وأجاب الشاذلي معلناً بأن القيادة المصرية كانت مركزية إلى أقصى حد، مما أدى إلى عدم معرفة حقيقة الموقف في الساعات الأولى حتى يمكن التصرف بسرعة على ضوء المعلومات التي نرد من الجبهة. أما بالنسبة للثغرة الإسرائيلية فإن القيادة المصرية لم تتيقن الحقيقة إلا بعد ضياع وقت طويل تكثفت فيه إسرائيل من إقامة رأس كوبري وتثبيت أقدامها في غرب قناة السويس».

«وأضاف الشاذلي أنه لم تكن هناك قوات احتياطية كافية لعلاج الموقف، فبعد أن أرسلت القيادة الاحتياطى الأساسى إلى سيناء، لم يبق سوى لواء مدرع واحد ولم يكن يستطيع وحده مواجهة الاختراق الإسرائيلى. ثم ذكر أن مصر فقدت حوالي مائة وعشرين طائرة من جميع الأنواع ولم تستعص بعد كل خسائرها في الطيران، أما بالنسبة للدبابات فقد تلقت مصر ما يكفي لتشكيل ستة ألوية مدرعة، وأن ما يلزم القوات المصرية بشكل عاجل، بالإضافة إلى تعويض خسائر الطيران، فهو الصواريخ المضادة للدبابات، وكذلك الصواريخ سام - ٦ وسام - ٧ المضادة للطائرات».

«وأضاف الشاذلي أنه يعتقد بإمكانية القضاء على الجيب الإسرائيلى بسهولة إذا نوافرت تلك الأسلحة، وإذا أصبحت القيادة أقل مركزية».

«ثم بدأ الفريق الشاذلي بشرح لى الموقف الحالي للمجيب الإسرائيلى، فذكر أنه يتشكل الآن من ثلاثة ألوية مدرعة ولواءين ميكانيكيين، وإن أقصى نقطة وصلت إليها القوات الإسرائيلية غرب القناة هي الكيلو ١٠١ على طريق السويس/ القاهرة، وهي تبعد حوالي ٣٥ كيلومتراً من السويس، والمتوسط العام لعرض الثغرة الإسرائيلية يبلغ حوالي عشرين كيلومتراً».

«وعندئذ أبلغت الفريق الشاذلي بأن المطلوب الآن هو أن تعد مصر قائمة بطلباتها من

الأسلحة للاتصال بشأنها مع الدول العربية، خصوصاً السعودية والكويت ودولة الإمارات التي أبدت استعدادها لشراء احتياجات مصر من الأسلحة، كما أن الرئيس هواري بومدين تطوع بشراء المزيد من الأسلحة لمصر وسوريا إذا طلبت أي منهما ذلك».



على هذا النحو يمتضى هذا الاستجواب الذي تطوع به محمود رياض وجاراه فيه أحد قادة حرب أكتوبر المجيدة، وهو واثق من أنه يستطيع أن يجيب إجابات مشرفة حتى على ما يعتقده صاحب الأسئلة خطأ أو أداء أقل مما ينبغي أن يكون ! ولا يسعى أن أثرك هذه الفقرة دون أن أشيد بسعة صدر الفريق الشاذلي وثقته في نفسه وفي القوات المسلحة التي ينسب إليها !

(٨)

وبعد صفحات معدودة يذكر محمود رياض حواراه حول نفس النقطة مع قائد عسكري متميز ولكنه كان قد ابتعد قبل هذه الحرب عن موقعه في القوات المسلحة المصرية وهو الفريق طلعت حسن علي، (وهو شقيق كمال حسن علي نفسه مدير المدرعات في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ومدير المخابرات ووزير الدفاع بعد ذلك)، ويأتي حديث رياض عن هذا الحوار مع (زميله) الفريق طلعت حسن علي على النحو التالي:

«... وعندما تبادلنا الحديث عن حرب أكتوبر ذكر السفير (يقصد السفير السوفيتي راجع صفحة ٤٦٩) أنه بمجرد أن بدأت الحرب وقبلها حتى بوقت طويل - كان من رأي الخبراء السوفيت أن الهدف المصري يجب أن يكون واضحاً من البداية في ضرورة التقدم إلى مضائق سيناء، وإن مصر كانت تملك الإمكانيات العسكرية الكفيلة بذلك».

«والواقع أن تلك النقطة كانت نقطة جوهرية للغاية بحيث إنني لم أتوقف عن الاستفسار بشأنها فحدثت يوم ١٠ ديسمبر إلى الفريق طلعت حسن، وكان مشرفاً على القيادة الموحدة للجبهة العربية، وذكر لي أنه من وجهة نظره كان يجب أن تقدم القوات المصرية إلى مضائق سيناء بمجرد عبورها لقناة السويس خاصة بعد أن تبين أن معظم أطقم الدبابات الإسرائيلية كانوا في إجازة، وتبين أيضاً أن الحشائر المصرية في العبور لم

تجاوز ٢٨٠ فرداً، أى أنه لم تكن هناك أية مقاومة إسرائيلية تذكر، وإن المفاجأة المصرية كانت كاملة. وأكد الفريق طلعت حسن أن المفاجأة المصرية كانت فى الواقع مفاجأة سياسية، لأن التحركات العسكرية المصرية كان من المستحيل إخفاؤها بالكامل، فقد كانت الطرق إلى الجبهة مكتظة بالدبابات والعربات المدرعة قبل ٦ أكتوبر بأيام، على أن إسرائيل رفضت أن تصدق أن مصر يمكن أن تنتج إلى الحرب. وباعتباره من خبراء المدرعات، فقد ذكر الفريق طلعت حسن أن المدرعات المصرية قد تم استخدامها بطريقة خاطئة عسكرياً يوم ١٤ أكتوبر، وهو الأمر الذى تسبب فى الخسائر الكبيرة التى لحقت بها. وقد اتبعت إسرائيل فى تدمير الدبابات المصرية نفس الأسلوب الذى كانت مصر قد استخدمته قبل ستة أيام لتدمير الدبابات الإسرائيلية، أى بواسطة الصواريخ المضادة للدبابات. ولذلك كان من الواجب أن يتغير الأسلوب العسكرى المصرى والا يتم دفع الدبابات المصرية فى المعركة دون غطاء كافٍ من المدفعية والطيران. والتأكد من تدمير الصواريخ الإسرائيلية المضادة للدبابات^١.

^٢ ومثل كثيرين غيره، فإن الفريق طلعت حسن كان من رايه ضرورة وجود قيادة أمامية للقوات المصرية المحاربة فى الجبهة، وكان هذا كضيقاً يتلافى كل الأخطاء التى وقعت فيها القيادة المركزية فى القاهرة. وأضاف قائلاً: إن أكبر خطأ وقعت فيه القيادة العسكرية هو فى السماحها بعبور الاحتياطى المصرى إلى شرق القناة، وهو السبب المباشر الذى أدى إلى نجاح الإسرائيليين فى إحداث الثغرة^٣.



ها نحن نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نسأل الفريق طلعت حسن على ومحمود رياض نفسه : وماذا كانت تفعل القوات المصرية حين تتقدم إلى المضائق بينما الإسرائيليون فى إجازة عندما يعود هؤلاء من إجازتهم ، وتصيب قواتنا فى الصحراء عرضة للتشوق الجوى الحاسم من فوقها وعرضة لمصاعب لانتهى من حولها.

ولكننا فى نفس الوقت نشيد بهذا التعبير الجميل الذى وصف به طلعت حسن على المفاجأة فى الحرب بأنها كانت مفاجأة سياسية ، وتعليقه لهذا الوصف تحليل منطقي ومتعمق .

ولكننا فى ذات الوقت لا نأخذ حديثه عن قيادة أمامية مأخذ الأمور المسلم بها ، ونحن نعرف من ضباط المصريين المحدثين ما يجعلنا نتشكك تماماً فى كل تعدد للقيادات ، ولو

أن الفريق طلعت حسن على على قيد الحياة لاستشهدت له بخبرته هو في اليمن ، وقد أشاد الفريق صلاح الحديدي في مذكراته عن حرب اليمن بما تحقّق على يدي طلمت حسن على في اليمن بسبب توحيد كل المستوليات وتجميعها في يديه بحيث أصبح في ذلك الوقت مشابها للحاكم العسكري البريطاني في الهند ، وقد اجتمعت له القيادة السياسية والعسكرية معاً فاستطاع أن ينقذ قواتنا ووجودنا في اليمن من مضاعفات أسوأ كنا نمضي في طريقها دون توقف .

(٩)

وقبل كل هذا الأحاديث المطولة عن حرب أكتوبر وتطوراتها فإن محمود رياض مصمم تماماً على أن يفرض علينا وأن يوحى إلينا بفهمه العميق للعسكرية ومسار الحروب وكيفية تحقيق النصر فيها بل وإدارتها من الأصل . وانظر - على سبيل المثال - إلى ما يرويه في (صفحة ١١٥) حيث يقول:

«وبعد سفر الرؤساء العرب من القاهرة، ذهبت إلى الرئيس عبدالناصر في منزله فوجدته منهمكاً في دراسة مجموعة من التقارير والبيانات العسكرية التي كان الفريق محمد فوزي القائد العام يمدّه بها أولاً بأول، وبإدراى عبد الناصر يسؤال عما إذا كان لدينا قائد كفء يستطيع قيادة الجيش في المعركة ؟ » .

«لحظتها أجبته بأن لدينا الكثير من القادة الأكفاء، ولكن عندما تبحث عن القائد يجب أن يكون واضحاً أن عصر هانيبال ونابليون وخالد بن الوليد قد انتهى . وفي ذلك الوقت كان القائد يقف على أرض مرفوعة لمراقبة سير المعركة ولإعطاء أوامره، فيكسب المعركة لبراعته في تحريك قواته . وذكرت أن مونتجمري قد كسب معركة العلمين ضد روميل باتباعه الأسلوب التكتيكي تماماً حيث درب قواته جيداً، ولم يهاجم الألمان قبل أن يتأكد من تفوقه في كافة الأسلحة . ثم قام بمدّها بنشع الثغرة في الخطوط الألمانية بالأسلوب التقليدي، واندفع بقواته المدرعة ومشاته من خلال الثغرة في ظل غطاء جوي كاف . والآن فإن المطلوب منا ببساطة هو أن ننقذ ما جاء بالكتاب » .

«واسترخى عبدالناصر إلى الحلف على كرسيه، فقد كان منهكاً، وسألني: أى كتاب ؟

قلت له: كتاب التكتيك، والذي كنا ندرسه لطلبة في الكلية الحربية ثم تعمقنا في دراسته في كلية أركان الحرب.

١١

هل يستطيع القارئ بعد هذا كله أن يشاركني مشاعري وتفكيري حين أزعج أن عندي تفسيراً لهذا كله، وهو أن القائد الأعلى نفسه (وهو الرئيس العظيم عبدالناصر) كان قد ابتعد بحكم انشغاله بأشياء كثيرة وبنشاء الدولة والقومية والمجد عن الجيوش وعن الحروب، فلما وصلت الأزمة إلى الذروة التي وصلت إليها ووجد نفسه مسئولاً حقيقة عن كل هذا الذي حدث ومسئولاً من البداية من أجل تحقيق شيء مختلف كان قد أصبح شأنه شأن كل إنسان بسيط منا وقد منى بالورطة، ولا بد له أن يخرج منها، فهو لا يفنأ يسأل كل من يقابله عن العمل في هذه الورطة، وهكذا سأل عبدالناصر رياضاً كما سأل منات غيره من العسكريين وأنصاف العسكريين وغير العسكريين. ولكن رياض كان يعد نفسه عسكرياً ذا قيمة، وهكذا تمكن رياض من أن يأخذ الثقة في نفسه، وكيف لا وهو الذي يشير على القائد الأعلى الذي يجيد الاستماع ولا يوجه النقد، ولتقرأ مرة ثانية الواقعة التي يرويها هو والتي نقلناها لتونا لتتأكد من هذا المعنى الذي أوردناه لتونا!!

(١٠)

ولعلنا قبل أن نستعرض الآراء القيمة والروايات المهمة والمعبرة لمحمود رياض في كل القضايا التي أتبع له أن يعاصرها وأن يعيش بعضها بأكثر من غيره، تكون بحاجة إلى أن نتأمل آراءه في بعض الشخصيات المعاصرة له على نحو ما نفعل في كتابتنا عن هذه الكتب، ونحن نقرأ في المذكرات أسلوب صاحبها ومواقفه ومزاجه. ومن سوء الحظ أن رياضاً لم يعط هذا الجانب العناية الكافية له، ولكنه مع هذا كان حريصاً بصفة خاصة على إبداء رأيه في عدد من الشخصيات المصرية المعاصرة، ومن حسن الحظ أن المشير أحمد إسماعيل يأتي في مقدمة هؤلاء. ويتراوح رأي محمود رياض في المشير أحمد إسماعيل من التقدير المطلق والاعتراف الشديد إلى التقدير مع التحفظ المحدود، وما هو يثابرها في الفصول الأولى من كتابه عن الصراع العربي الإسرائيلي بقصة تبين لنا حرمته (الذي ترجم إلى موقف) على بقاء أحمد إسماعيل ككفاءة عسكرية في الجيش المصري وذلك حيث يقول:

«.. وأثناء وجودى فى مطار القاهرة للاشتراك مع عبدالناصر فى استقبال أحد رؤساء الدول، تحدثت مع عبد الحكيم عامر عن توقي لاستمرار الاعتداءات الإسرائيلية وأشرت إلى الاتفاقية العسكرية التى وقعتها مع سوريا مؤخراً وأنا قد نجد أنفسنا فجأة فى حرب مع إسرائيل وطماننى عبد الحكيم عامر إلى الاستعدادات المصرية . وعندما انتهت من حديثى مع عامر فاجأتنى عبد الناصر بإخراج ورقة من جيبه قائلاً بأن عبد الحكيم عامر لديه كشف بأسماء عشرة ضباط لنقلهم لوزارة الخارجية . وقرأت الأسماء ثم أجبته بأننى سأدرس الموضوع . فأدرك عبد الناصر أننى معترض وقال ضاحكاً : «مالك مش متحمس لنقل الضباط للسلك الدبلوماسى . أنت نسيت إنك كنت ضابط . على العموم أنا أقدر أصدر قرار جمهورى. إيه رأيك ؟» . وعلقت باقتضاب بأننى فى سبيل إعادة تنظيم وزارة الخارجية . وأخذ عبد الناصر بوجهة نظرى : «لأننى شعرت بالقلق فى ذلك الوقت فقد كنت أعرف معظم الضباط المطلوب نقلهم وهم من القادة الأكفاء وكان فى مقدمتهم اللواء أحمد إسماعيل والذى كنت على صلة وثيقة به وأعهد فيه الخلق الرفيع وعلمه الواسع فى الشئون العسكرية . وكان نقلهم للخارجية خسارة مؤكدة للجيش فى فترة حرجة تحتاج فيها القوات المسلحة إلى القادة ذوى الخبرة وقد أصبح أحمد إسماعيل فيما بعد وزيراً للحربية وهو الذى نفذ خطة عبور الجيش المصرى إلى سيناء عام ١٩٧٣ . وبقي هذا الأمر يلح على فكرى كمثال ينبع عبد الحكيم عامر فى اختيار قيادات الجيش . وجاءت نتيجة حرب ١٩٦٧ تشير بوضوح إلى عدم توفيقه فى اختياره للقادة ووضع كل منهم فى مكانه المناسب».



أما تحفظ محمود رياض على أحمد إسماعيل فيبدأ فى الظهور فى موضع آخر هو موضع مجد الرجل وانتصاره وبجيء هذا التحفظ عرضاً ضمن حديثه عن تصوره عن مجرى الحرب فى مصر وكأته أى صاحب هذه المذكرات ترك صبيانه أو مساعديه يديرونها وهو يتحدث عن بشائر حرب أكتوبر فيقول :

«... وفى صباح اليوم التالى اجتمعت مع الدكتور الزيات الذى أبلغنى نجاح قواتنا فى عبور القناة وتحطيم خط بارليف، وأنها نسيطر الآن على الضفة الشرقية لسيناء وتتقدم منها إلى داخل سيناء. وبعد قليل جاء لزيارنى عدد من وزراء الخارجية العرب الذين كانوا فى نيويورك لحضور دورة الجمعية العامة، وسألنى بعضهم عن الخطوة التالية بعد

هذا النجاح المذهل في عبور القناة وتحطيم خط بارليف، فأجبتهم بكل ثقة بأن قواتنا في طريقها لاحتلال مضائق سيناء. وعندما قلت ذلك كانت ماثلة في ذهني طول الوقت الخطة ٢٠٠ التي وضعت خطوطها العريضة منذ سنة ١٩٦٨ وتقوم على أساس أن العبور في حد ذاته ليس هدفاً، وأن القناة هي مجرد مانع مائي يجب اجتيازه لتحقيق الهدف الأول وهو احتلال مضائق سيناء، وهي الخطة التي كان قد أشرف على وضعها الفريق أول محمد فوزي. ثم تذكرت ما سبق وأطلعني عليه الفريق صادق الذي تولى وزارة الحربية عام ١٩٧١ بأن بعض القادة قد اقترح توقف القوات المصرية بعد العبور مباشرة وأنه رفض تلك الفكرة تماماً لأنها لا تحقق هدفاً سياسياً كما أنها من الناحية العسكرية عملية غير سليمة وتعرض قواتنا لهجمات مضادة ناجحة من القوات الإسرائيلية. ولذلك غابني لم أتصور إطلاقاً أن يقوم المشير أحمد إسماعيل، والذي عينه الرئيس السادات وزيراً للحربية خلفاً لصادق في أكتوبر ١٩٧٢ بإجراء تغيير جذري في الخطة التي تم تحديد أهدافها وخطوطها العريضة منذ ١٩٦٨ والتي كان يجري تطويرها على ضوء الأسلحة التي تصل إلينا وكان يتم تدريب الجيش مرتين في السنة، منذ عام ١٩٦٨ في شكل مناورات عامة للقوات المسلحة بالإضافة إلى المناورات التي تنم عن مستوى القادة وبدون جنود، وقد أصبح لدى الجيش في عام ١٩٧٣ قدرات قتالية تمكنه من تنفيذ هذه الخطة».

«ولذلك فإنني بدأت أشعر بالقلق عندما مرت الأيام الأولى بعد نجاحنا المذهل في العبور بغير أن أسمع عن تقدم قواتنا إلى المضائق. لقد مر يومان على نجاحنا في العبور وهي المدة الكافية لتعريض مواقعنا الجديدة شرق القناة والبدء في استغلال هذا النجاح الكبير لتحقيق هدف عسكري وسياسي حقيقي».

«ثم استبد بي الشك عندما علمت أن قواتنا لم تتحرك شرقاً لاحتلال المضائق بعد فشل هجوم إسرائيلى مضاد يومى ٨ و٩ أكتوبر، خسرت فيه إسرائيل مائتين وخمسين دبابة».

«وعندئذ تأكدت بأن القيادة العسكرية في مصر قد اكتفت بالنجاح الذي حققته قواتنا في عملية العبور واكتفت بانخاذ مواقع دفاعية داخل الشريط الضيق من الأرض الذي استولت عليه ولا يتجاوز عرضه عشرة كيلو مترات وكان ذلك يعنى انتشار قواتنا

فى مواقع دفاعية مكشوفة على امتداد حوالى ١٧٠ كيلو متراً شرفى القناة مما يعرضها لهجمات مضادة ناجحة من القوات الإسرائيلية .



كل هذا يحكيه محمود رياض لنا بينما هو فى نيويورك فى أروقة الأمم المتحدة كأمين عام للأمم المتحدة ، ويستطرد قائلاً :

« عندما سمعت يوم ١٦ أكتوبر بأن عدداً من الدبابات الإسرائيلية قد عبرت قناة السويس فى منطقة الدفرسوار ، توافد على مقر إقامتى العديد من وزراء الخارجية العرب وهم فى حالة انزعاج شديد . وسألنى أحدهم عما يحدث . وابتسمت له مؤكداً أن هذا الاختراق لا قيمة له من الناحية العسكرية ، فهو متوقع ومعروف شأن ذلك الذى حدث فى نهاية الحرب العالمية الثانية فى الجبهة الأمريكية فى منطقة آردين ، والذى تم القضاء عليه بواسطة القوات الاحتياطية " . ولقد كنت أتحدث إلى وزراء الخارجية العرب بثقة كاملة ، فلم يكن الأمر بالنسبة لى هو مجرد معرفة بالبادئ الأساسية للحرب والتى تحتم الاحتفاظ بإحتياطي قوى لمواجهة الهجوم المضاد الذى يجب أن نتوقعه . ولكن السبب الأكثر أهمية لثقتى تلك كان معرفتى السابقة بالخطوة التى وضعنها القيادة العسكرية المصرية منذ ١٩٧٠ لمواجهة مثل هذا الاختراق ».

(١١)

نتقل من حديثه عن المشير أحمد إسماعيل إلى حديثه عن الفريق أول محمد فوزى ، ويكاد حب محمود رياض للفريق أول محمد فوزى - بحكم زمانتهما المبكرة وصداقتهما الممتدة - يوقعه فى كثير من الشطط والتحيز ، سواء قارن الفريق فوزى بمن قبله (عبدالحكيم عامر) أو بمن بعده (محمد أحمد صادق ، وأحمد إسماعيل) . وانظر - على سبيل المثال - هذا النموذج لتعبير رياض عن محمد فوزى بلقب الفريق ، بينما عبدالحكيم عامر فى نفس الجملة ونفس السطر بدون لقب تماماً .. أى أنه حتى فى البروتوكولات وهو رجل دبلوماسى لا يمتنى بعبدالحكيم أبداً ، أما فوزى فهو على الأقل الفريق محمد فوزى ، وهذه هى الفقرة :

«وفي ١٦ مايو رأى عبدالحكيم هامر القائد العام للقوات المسلحة المصرية أن يتخذ خطوة أخرى في الضغط على إسرائيل، فطلب من الفريق فوزي رئيس أركان الحرب إلى آخر الجملة».

وقد رأيناه من قبل وهو يستعرض آراءه في حرب أكتوبر يوحى لنا أن خطة محمد فوزي كانت تفوق ما تحقق!! بل إنه كما رأينا يقول إنه لم يكن يتصور أن يقوم أحمد إسماعيل بالتغيير فيها (١!) ولستنا في حاجة إلى تعليق على مثل هذا التجاوز.

ولكن انظر إلى مقارنته بين وجهتي نظر الفريق أول محمد فوزي والفريق أول محمد أحمد صادق (وزير الحرية) من ناحية، والمشير أحمد إسماعيل (مدير المخابرات) من ناحية أخرى (في صفحة ٣٧٠ و٣٧١) حيث يقول:

«وكان الرئيس عبدالناصر والفريق فوزي يشفقان شاماً معي على ضرورة أن تكون المرحلة الأولى هي الوصول للمضائق، وكانت الخطة العسكرية قد تم وضعها على هذا الأساس».

وهذه - في نظري - جملة لا يليق بمحمود رياض أن تصدر عنه، لأن الجيش المصري ليس مقاولاً لأعمال إنشائية يطلب العميل الذي هو محمود رياض من قائده الأعلى (الذي هو الرئيس عبدالناصر) ومن قائده العام (الفريق فوزي) مثل هذا الطلب، أو يحدث بينهما مثل هذا الاتفاق حسب تعبير المذكرات:

«وكان الفريق فوزي قد أبلغني أن قواتنا المسلحة قادرة على إنجاز هذه المهمة اعتباراً من شهر مارس سنة ١٩٧١، وهو نفس الموعد الذي خطط له جمال عبدالناصر من قبل».

«وعندما عين الرئيس السادات الفريق محمد صادق وزيراً للحرية، كان صادق من البداية يرى ضرورة حصوله على طائرة بعيدة المدى حتى يمكن للقوات المسلحة المصرية عندما تبدأ في عملياتها العسكرية الانطلاق مباشرة إلى تحرير كافة الأراضي العربية».

وفي موضع آخر (صفحة ٣٧١) يقول محمود رياض:

«وقد حدث في تلك الفترة أن اطلعت على تقرير وضعه الفريق أحمد إسماعيل مدير المخابرات العامة حينئذ والذي أصبح وزيراً للحرية يرى فيه ضرورة البدء بعمل عسكري يستهدف تحريك الموقف سياسياً، عن طريق استئناف حرب الاستنزاف. وبمجرد قراءتي

للتقرير اتصلت على الفور بأحمد إسماعيل وقلت له أن حرب الاستنزاف قد استنفدت أغراضها وفاتت وقتها ، بعد أن استنفدت إسرائيل فترة وقف إطلاق النار في تحصين خط بارليف ، ومن ثم فلن تكون المدفعتنا نفس فعاليتها التي كانت لها في الماضي ، في الوقت الذي تستطيع فيه إسرائيل الرد علينا بالضرب جواً في العمق المصري . أما في حالة تحركنا العسكري للتقدم حتى مضائقنا واحتلالها ، فإننا بذلك نكون قد حققنا انتصاراً كبيراً يسمح لنا بنحمل أية خسائر ننجم عن غارات إسرائيل الجوية في العمق المصري ، وفضلاً عن ذلك فهذا هو التحرك العسكري الذي يمكن فعلاً أن يحرك الموقف سياسياً ، ولقد كانت تربطني بأحمد إسماعيل علاقات ود وصداقة ولذلك فبعد أن ناقشنا سوياً بعض الوقت اقتنع بوجهة نظري .. ولزيت من الاطمئنان اتصلت بالفريق محمد صادق وزير الحرية للتصرف على رأيه فأعترض بشدة على استئناف حرب الاستنزاف ، مؤكداً على أن يكون تحركنا العسكري من أجل تحرير سيناء بكاملها .

هكذا تبدو المفارقة أمام القارئ اليوم فأحمد إسماعيل الذي قاد حرب أكتوبر كان يريد أن يستأنف حرب الاستنزاف على حين كان الفريقان فوزي وصادق ومعهما محمود رياض ينظران أن يكون التحرك العسكري من أجل تحرير سيناء بكاملها (!!!) .. على كل الأحوال فأحمد لله أن حرب أكتوبر حررت سيناء بكاملها (١) .

(١٢)

أما عبد الحكيم عامر وشمس بدران فإنهما يحظيان في هذه المذكرات بكثير من تعريض محمود رياض وانتقاداته الصريحة والخفية ، وقد رأينا كيف ضرب المثل بإبعاد المشير عبد الحكيم عامر لأحمد إسماعيل على الأسلوب الذي كان يتبعه المشير عامر في إدارة شؤون الجيش كما أنه في أثناء حديثه عن معوقات حرب يونيو ١٩٦٧ يصرح بما لم يصرح به غيره من نصريح عبد الناصر له بفقده الثقة نهائياً في عبد الحكيم وشمس بدران . يروي محمود رياض في مذكراته (ص ٦٩) فيقول :

... ويقول عبد الناصر أنه صارح عبد الحكيم عامر في ذلك اليوم بأنه سوف يلقي ببيان على الهواء غداً وسوف يعلن فيه تنحيه عن منصبه . فأجابه المشير بأنه هو أيضاً لا يستطيع البقاء في قيادة الجيش ، وهنا سأله الرئيس عن رأيه في من يتولى رئاسة

الجمهورية فاقترح المشير عليه اسم شمس بدران وزير الدفاع والذي كان يعمل مدير مكتب المشير عامر ، فأخبره الرئيس بموافقته على هذا الترشيح .

«ويضيف عبد الناصر في روايته لى أنه فى اليوم التالى ، وقبيل إيلائه بخطاب التنحي عن الرئاسة انصل بعبد الحكيم عامر تليفونياً وأخبره بأنه قد استقر رأيه على اختيار زكريا محيى الدين وليس شمس بدران لكى يتولى منصب رئاسة الجمهورية ، ولم يكن المشير راضياً عن هذا الاختيار . وعندما تطورت الأمور بعد ذلك واستقال شمس بدران كوزير للحربية . ذكر عبد الناصر أن شمس بدران قد استمر على صلته بالتنظيم السرى الموجود فى الجيش والذي كان قد تشكل قبل سنوات ليكون واجبه مقاومة أى انقلاب عسكرى وحماية نظام الحكم . وكان شمس بدران هو المسئول من البداية عن هذا التنظيم . محتفظاً بسريته وبأسماء أعضائه بحيث إن عبد الناصر نفسه لم يكن يعرف أشخاصهم جميعاً ، وعلم عبد الناصر أيضاً أن عدداً من أفراد هذا التنظيم يرددون على عبد الحكيم عامر وشمس بدران . وأنهم يهاجمون فى أحاديثهم عبد الناصر نفسه والنظام كله . خصوصاً بعد أن قام المشير بطبع صورة من استقالة كان قد سبق له أن قدمها فى سنة ١٩٦٤ (هكذا فى الأصل وهو يقصد استقالة ١٩٦٢) وطالب فيها بالديمقراطية فى نظام الحكم - وبدأ فى توزيع تلك الاستقالة».

ويردف محمود رياض حديثه مصرحاً بما أنهاء إليه الرئيس عبدالناصر من اضطرابه إلى اعتقال كثير من الضباط الكفاء بدون سبب واضح إلا التحجب لما قد يتوهم شمس بدران:

«وهنا يقول عبد الناصر إنه اضطر إلى اعتقال عدد كبير من الضباط ، خصوصاً كل دفعة شمس بدران التى تخرجت معه من الكلية الحربية فى عام ١٩٤٨ . وقد استرسل عبد الناصر قائلاً إنه اجتمع بعبد الحكيم عامر بعد ذلك فى يوم ٢٩ يونيو وعانته على تصرفاته وأحاديثه مع عدد من النواب ومهاجمته لنظام الحكم أمام الضباط الموجودين فى منزله . وأنه فى هذه الحالة يقوم بدور كالأذى قام به مكرم عبيد سكرتير حزب الوفد عندما اختلف مع مصطفى النحاس رئيس الحزب فخرج ليشهر به شخصياً وبحزب الوفد كله».



على هذا النحو يروى لنا محمود رياض ما لم يروه غيره عن هذا التشبيه الذى شبه به عبدالناصر نفسه وصديقه بالنحاس ومكرم عبيد، وهو تشبيه جيد لكنه غير مكتمل، فإن

علاقة النحاس ومكرم لم تورد البلاد مورد التهلكة، كما أن خلافهما لم ينته إلى ما انتهى إليه خلاف عبدالناصر وعامر، وإذا كان من الممكن أن يقبل النحاس وعبدالناصر أن يكونا مشبها ومشبها به، فإن مكرم عبيد سوف يستجير في قبره من أن تكون صورته شبيهة إلى أى حد بصورة عبدالحكيم عامر!!



ويستطرد محمود رياض لبؤكد رأيه في مسئولية عبدالناصر عن الهزيمة حتى على الرغم من تأكيد عبدالناصر له أن عبدالحكيم عامر كان هو الذي يقود المعركة العسكرية!! :

وما يعنيني في هذه الرواية هو أن عبد الناصر قد أكد فيها أن عبد الحكيم عامر هو الذي كان يقود المعركة العسكرية وأنه هو أيضاً الذي أصدر الأمر المشؤاني بالانسحاب الشامل من سيناء وهو القرار الذي كان كما ذكرت من قبل ، بمثابة حكم بالإعدام على قواتنا ومعداتنا المنسحبة من الجبهة . وبالطبع فإن هذا لا ينفى الخطأ الفادح في التقدير السياسى ، ليس فقط فيما يتعلق بنوايا إسرائيل نفسها ولكن كذلك بالطرفين الأكثر أهمية في الأزمة وهما الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة .^٥



ومن بين الدبلوماسيين المصريين الذين تولوا وزارة الخارجية في عهد السادات وبعده لا يحظى بالثناء إلا محمد إبراهيم كامل . فحين يأتى الحديث عن مفاوضات السلام التى أعقبت مبادرة السادات بزيارة القدس ويأتى ذكر محمد إبراهيم كامل ، فإن محمود رياض يبادل محمد إبراهيم كامل المديح ونحن نورد هنا نص محمود رياض في محمد إبراهيم كامل، ونشير إلى أن رأى محمد إبراهيم كامل فى محمود رياض يبادل الاحترام والتقدير، وقد أوردناه فى الباب (الثالث) الخاص بذكرات محمد إبراهيم كامل:

« وكان وزير الخارجية محمد إبراهيم كامل يستعد لهذا اللقاء بتشكيل لجان من خبراء وزارة الخارجية ، وكان حريصاً على أن يتعرف على بعض جوانب القضية فتعددت مقابلاتي معه ، وكان محمد كامل من أكفأ السفراء الذين عملوا معى ومشهودا له بالاستقامة والوطنية . وسبق أن قبض عليه فى عهد الملك فاروق فى إحدى القضايا السياسية، وقد سميت قدر طاقتي أن أزوده فى هذه الفترة القصيرة بما لدى من معلوما .

وخبرات، وكنت أتوقع أن يواجه الوفد طريقاً بالغ الوعورة في سبيل تحقيق الحل الشامل».

(١٣)

وتحظى العلاقات المصرية - السوفيتية في هذه المذكرات بقدر كبير جداً من الحديث عن تفصيلاتها وتطوراتها على مدى الحقبة الزمنية التي شارك فيها محمود رياض في إدارة دفة الدبلوماسية المصرية، وسوف نلخص للقارئ معظم آراء محمود رياض في مآرات هذه العلاقة وتطوراتها على مدى هذه السنوات، ولكننا سنلجأ إلى أسلوب ترتيبى لا يلتزم بالأقدم قبل الأحداث، وإنما سنخضع هذه الآراء لإطار موضوعى فى الترتيب يكون قريباً من قدرة القراء على التصور والفهم وتكوين الأحكام.

لنأخذ على سبيل امثال رأى محمود رياض القاطع والصريح فى مدى بطء القادة السوفيت إذا ما قورنوا بكينسجر، وعلى الرغم من أن محمود رياض لا يحب كينسجر ولا يقدره، ولا هو مبهور به، ولا بأسلوبه، ولا هو منسحق أمامه أو خائف منه، ولا هو يسمى أن يحظى بمثل لقبه أو بمثل مكانته، إلا أنه لا يجد طريقاً آخر غير الاعتراف بسرعه وبطء القادة السوفيت فى المساعى التى أعقبت حرب أكتوبر، ورياض إذن لا ينتقد السوفيت ولا يقلل من قدرهم ولا يكرههم، ولكنه بأسى لحالهم الذى انتهى بهم إلى ما انتهى إليه على الرغم من أن محمود رياض كتب مذكراته هذه ونشرها بالفعل قبل انتهاء الإمبراطورية السوفيتية بوقت كاف. لنقرأ هذه الفقرة التى ترد فى صفحة ٤٧١ :

١... وفى تلك الفترة كنت ألاحظ سرعة التحرك الأمريكى والنشاط الزائد الذى يقوم به كينسجر، وذلك فى مقابل البطء الشديد فى التحرك السوفيتى، مما يتسبب فى خلل شديد فى التوازن السياسى بين البلدين، وكان هذا يرجع إلى أسلوب العمل الذى تنبعه الولايات المتحدة، فقد كانت القرارات فى البداية يتخذها نيكسون بعد مناقشتها مع كينسجر، ثم اتضع من تصرفات كينسجر أثناء زيارته للعواصم العربية أنه قد أصبح لديه تفويض من نيكسون باتخاذ القرارات. وبذلك كان يستطيع أثناء وجوده بالمنطقة أن

يقرر ما يراه مناسباً دون الرجوع إلى نيكسون، فإذا احتاج إلى مساندته فإنه كان يحصل عليها في نفس اليوم».

«أما الاتحاد السوفيتي فقد كان تشكيل أي موقف سياسي له إزاء أي تطورات سياسية سريعة في أزمة الشرق الأوسط، يحتاج إلى الوقت الذي يستلزمه الحصول على موافقة القيادة الجماعية السوفيتية في موسكو، وهو الأمر الذي قد يستغرق بضعة أيام».

«وكانت النتيجة هي أن كيسنجر استطاع بسبب تحركاته السريعة، وبما لديه من تفويض من رئيس دولته، وعدم قدرة الاتحاد السوفيتي على ملاحظته، أن يحتل وحده ميدان العمل السياسي بالمنطقة خلال تلك الفترة الحرجة».

وهكذا وصل محمود رياض إلى سر نجاح كيسنجر إذا ما قورن بالسوفييت، والسر نفسه هو سر الاضمحلال الذي بدأ يشرب إلى مكانة السوفييت وقراراتهم ومستقبل وجودهم في مصر وفي غير مصر، بل في بلادهم نفسها.



ولنقرأ بعد هذا النص بخمس صفحات أخرى نصاً آخر لمحمود رياض يعبر فيه بكل وضوح عن مدى وصوله إلى الاقتناع بأن السوفيت كانوا يرتكبون أخطاء سياسية واضحة في معالجتهم لأزمة الشرق الأوسط، بل إن محمود رياض يثبت لنا كذلك ما قد يبدو غريباً على أفهامنا وذكرائنا عن هذه الفترة، وهو أن الرئيس السوري حافظ الأسد كان متناً تماماً من قرار السوفييت بحضور مؤتمر جنيف:

«... وعندما علمت أن الاتحاد السوفيتي قد وافق على انعقاد المؤتمر وحضوره بالرغم من غياب سوريا، شعرت أن السوفيت يرتكبون خطأ سياسياً، لأنهم بذلك يكونون قد ساهموا في ضرب وحدة الموقف العربي بين مصر وسوريا، وهو خروج على الخط الذي كان بريجنيف يلح عليه من قبل حينما كان يؤكد على أهمية الوحدة العربية في مواجهة العدوان الإسرائيلي».

«ولقد نبيت فيما بعد أن الرئيس السوري حافظ الأسد قد استاء كثيراً من القرار السوفيتي بحضور مؤتمر جنيف. والواقع أنني لا أعرف الوعود التي قدمها كيسنجر للسوفييت في مقابل الحصول على موافقتهم على حضور المؤتمر، إلا أنه في النهاية نجح في بذل الشك بين كل من سوريا والاتحاد السوفيتي، ولكن الأمر المؤكد هو أن السوفييت

قد فقدوا دورهم الإيجابي من أجل التوصل إلى التسوية. وإن كان كينجسر قد عمل على إشراكهم في رئاسة المؤتمر حتى يضمن عدم عرقلتهم له^١.

(١٤)

ولنعد قبل هذا إلى المرحلة التي بدأ الخلاف العربي - السوفيتي (ولا نقول المصري - السوفيتي) يطل فيها برأسه، لنعد إلى مرحلة مبكرة من تطور الصراع العربي - الإسرائيلي بوقوع ما وقع من كوارث في حرب ٥ يونيو ١٩٦٧، ولنقرأ هذا التعبير الصريح عن الضيق الشديد الذي بدأ محمود رياض يحسه ويعبر عنه بعد لقائه بالسفير السوفيتي في الأعقاب المباشرة لهزيمة ١٩٦٧، وهو بروي مشاعره وأحاسيسه وخلجات نفسه فيقول:

«... وفي مساء ٦/٨ طلب السفير السوفيتي مقابلة عاجلة معي، وقد وافقت على استقباله فوراً لتوقعي بأنه سوف يبلّغني بقرار هام للحكومة السوفيتية، ولكن كانت المفاجأة التي لم أتوقعها!».

«لقد بدأ السفير السوفيتي يفض رسالة يحملها معه وبدأ يقرؤها بعناية شديدة، وكانت عبارة عن صورة رسالة من جونسون إلى كوسيجين تلخص في أن الرئيس الأمريكي ليندون جونسون يخطر رئيس الوزراء السوفيتي كوسيجين بأن سفينة أمريكية لجمع المعلومات اسمها «ليبرتي»، قد تم ضربها خطأ من جانب الطائرات الإسرائيلية قرب بورسعيد، وأنه أصدر التعليمات إلى حاملية الطائرات الأمريكية «سارانتوجا» الموجودة في البحر الأبيض المتوسط بإرسال طائرة إلى مكان الحادث للتحقيق، وأن الولايات المتحدة تريد أن تخطر الحكومة السوفيتية بأن كل مهمة تلك الطائرة هي للتحقيق فقط، وتأمل في اتخاذ الإجراءات اللازمة لكي تكون جميع الأطراف على علم بهذا الحدث».

«بمجرد أن انتهى السفير السوفيتي من القراءة سأئلته: هل هذا هو كل شيء؟ قال السفير: نعم».

«وقد بذلت مجهوداً لكي أحتفظ بهدوني ولا أعلق وتهضت مودعاً السفير».

على هذا النحو كان محمود رياض يتفاعل بكل أسى وحزن ومرارة وهو رجل هادئ

متعقل ممارس للسياسة وللدبلوماسية وليس في المحل الأول من المسئولية.. فما بالنا إذن بالرئيسين جمال عبدالناصر والسادات وما كانا يعانيناه من مثل هذه التصرفات السوفيتية الباردة في أحلك اللحظات!!؟



ولنقرأ أيضاً هذا النموذج البارز للتفوق السوفيتي في المناقشات البيزنطية، ولنتأمل مدى عظمة وحكمة جمال عبدالناصر في التعامل الذكي بالبديهة السريعة مع هؤلاء القادة التقليديين وأفكارهم البيروقراطية، وكيف كان عبدالناصر قادراً ببديته ومنطقه أن يصل بسرعة إلى قدر مذهل من الاحترام الحقيقي من هؤلاء القادة السوفيت حين كانوا يواجهون عبدالناصر وهو بهذه العقلية وهذه البديهة.. هذا كله نلمسه من رواية عابرة لمحمود رياض (في صفحة ٩٠ من مذكراته) لم ينته هو نفسه إلى ما تتضمنه:

سألك الرئيس السوفيتي: «ولكن لى نقطة أريد استيضاحها، هل تطلبون الطائرات بهدف الهجوم؟»

ورد عبدالناصر: «فلنسأل أنفسنا.. ما هو الدفاع وما هو الهجوم؟ وما هى أسلحة الدفاع؟ وما هى أسلحة الهجوم؟ عندما تبدأ الحرب ليس هناك ما يسمى بأسلحة للهجوم وأسلحة للدفاع، المهم بالنسبة لنا عندما نطلب الطائرات ونضع مواصفاتها، أن نكون قادرين على ضرب جميع مطارات إسرائيل عند بدء العمليات الحربية، وكما قلت لكم فإن إسرائيل قادرة بما لديها الآن من أسلحة على ضرب مطاراتنا حتى مرسى مطروح».

«قال بودجورنى: قطعاً أنا معك، عندما تبدأ الحرب ليس هناك فرق بين الدفاع وبين الهجوم».

(١٥)

ولنتأمل كذلك - فيما نرويه الروايات التفصيلية لهذه المذكرات - مدى الفهم والحسم الذى كان بريجنيف يتمتع به، وكأن محمود رياض يعطينا الدليل على ما كان السادات يكرره من أن بريجنيف وحده من بين القادة السوفيت هو الذى كان سياسياً.. وهذه هى الواقعة التى برويها محمود رياض (فى صفحة ١٧٢ من مذكراته):

«وقلت لبريجنيف: «لقد وصلتنا منكم مؤخراً رسالة تخطرنا بأنه مطلوب منا دفع ما يعادل ٢٠ مليون دولار للخبراء السوفيت، وأعتقد أن هناك صفراً أضيف خطأ، وأن الرقم المطلوب هو ٢ مليون دولار. وليس ٢٠ مليوناً».

«فقال بريجنيف ضاحكاً: إننى أوافقك على ذلك، فلتعتبروا أن المطلوب هو مليونان فقط وليس عشرين مليوناً».

وكذلك فإن محمود رياض يطلعنا فى موضع آخر من مذكراته (صفحة ٢٩٦ من المذكرات) على نموذج للعجز السوفيتى عن استيعاب المتغيرات السياسية، والارتباط المتأصل بالبيروقراطية والتفاصيل الصغيرة وتجارب الماضى البعيد فى الكفاح والحرب فى فكر أحد زعمائهم وهو رئيس الوزراء السوفيتى كوسيجين:

«وذكر كوسيجين أن اليقظة السياسية والعسكرية فى هذه الظروف الدقيقة هى أمر حاسم، فقد لاحظ مثلاً وجود حالة استرخاء بين حراس الكبارى أثناء مروره فى الشوارع، وأن الولايات المتحدة يمكن أن تدفع إسرائيل إلى شن الحرب على مصر فى أية لحظة. ولذلك فإن المسئوليات كبيرة على القيادات الجديدة فى مصر لأن هناك محاولة لاستنزاف مصر واستئثاف إطلاق النيران بهدف عرقلة الجهود العسكرية والسياسية المصرية».



وكذلك يحدثنا محمود رياض عن بودجورنى ورأى السادات فى أنه هو الذى يتكفل بإبلاغنا بالأمور المحرجة التى لا يجدون غيره قادراً على توصيلها، ولتأمل هذا الذى يرويه محمود رياض (فى صفحة ٣١٦) من كتابه:

«... ومن ناحية إجمالية فلقد كان واضحاً أن القادة السوفييت قد عادوا الآن إلى اعتقادهم بعدم القيام بعمليات عسكرية كبيرة لتحرير الأرض، وأنهم يميلون إلى مد وقف إطلاق النار، والتركيز على التحرك السياسى على الرغم من كافة الأبواب التى أغلقتها إسرائيل. ولقد لاحظت أن بريجنيف على الرغم من ذلك تحدث بتركيز عن قوة الجيش المصرى وعن حقيقة أن تعداده قد وصل إلى ثلاثة أرباع مليون مقاتل. ولكن بريجنيف رفض أن يعطى رأيه فيما يجب عمله، وإنما كان ينصح بالابتداء بأى عمل عسكرى قبل أن نكون متأكدين من نتيجته. ولقد كان هذا معنى بوضوح أن السوفييت يفضلون الحل السلمى، فإذا رأت مصر ضرورة الحل العسكرى لتحرير أراضيها، فإنهم لا

يريدون تحمل مسؤولية المشاركة في اتخاذ هذا القرار. ومن ثم فقرار الحرب يدخل في نطاق مسؤولية مصر وحدها».

ثم لتأمل مغزى هذا الذي يرويه صاحب هذه المذكرات بعد ثمانى صفحات (صفحة ٣٢٤) في حديثه عن تفصيلات زيارة بودجورنى للقاهرة فى يناير ١٩٧١ وما انتهت إليه من انطباعات أو قرارات:

«... وبتهاية مباحثاتنا مع بودجورنى أصبح واضحاً أن الموقف السوفيتى هو عدم استئناف حرب الاستنزاف، وعدم التحمس للذهاب إلى مجلس الأمن. وقد كان هذا هو نفسه موقف الولايات المتحدة الذى أوضحه لنا ولسيم ووجرز فى رسائله. ومن ناحية أخرى فإن بودجورنى انفعّل بشدة عندما تناولت أمامه الهدف الأمريكى لطرده الاتحاد السوفيتى من المنطقة، خصوصاً من مصر، ولم يكن يتصور على الإطلاق فى ذلك الوقت أن تطور الأحداث فى المنطقة سيؤدى إلى خروجهم من مصر فعلاً فى السنة التالية».

(١٦)

على هذا النحو يبدو محمود رياض وكأنه قد بدأ يسخر من السوفييت بعد فوات الأوان، وينبئ لنا أن نشبه إلى وصفه - غير المقصود فى الغالب - لطرده السادات الخبراء السوفييت بأنه خروج فعلى للسوفييت من المنطقة!!

ولنتأمل تقييم محمود رياض الموضوعى لأهمية الوجود السوفيتى فى الشرق الأوسط ومبررات هذا الوجود حين يتحدث عنه قبل هذا كله (فى صفحة ٢٩٩) فى مذكراته التى بين أيدينا يقول:

«والواقع أنه إذا كان هناك وجود سوفيتى فى الشرق الأوسط، فذلك يرجع إلى هذا الفريق بالذات داخل السياسة الأمريكية الذى يمثلته هنرى كيسنجر. فإذا كان كيسنجر يستهدف حقاً إبعاد أو «طرده» النفوذ السوفيتى من مصر منذ عمله مع نيكسون فى بداية عام ١٩٦٩، فإن النتيجة العملية التى ترتبت فعلاً على أفكاره هذه هى زيادة فرص النمو أمام هذا الوجود السوفيتى. فالخبراء السوفييت فى مصر أصبحوا فى سنة ١٩٧٠ أضعاف ما كانوا عليه فى سنة ١٩٦٩، والطيارون المقاتلون السوفييت الذين لم يكن لهم

وجود في مصر في سنة ١٩٦٩ أصبحوا موجودين في مصر في سنة ١٩٧٠، ولأول مرة، وصفقات السلاح التي تحصل عليها مصر من الاتحاد السوفيتي في سنة ١٩٧٠ أصبحت أضعاف ما كانت تحصل عليه قبل ذلك.

وكان السبب في كل مرة هو تلك السياسة التي يدعو إليها هنري كيسنجر، التي تقوم في جوهرها على مزيد من الانحياز الأمريكي لإسرائيل.



وعلى نفس الخط فإن محمود رياض يعطينا كثيراً جداً من الأضواء الكاشفة لحقائق ونظورات الصراع الأمريكي - السوفيتي على مصر ومنطقة الشرق الأوسط، وهو موضوع قتل بحثاً، ولكن مذكرات محمود رياض (برؤيته البانورامية للأحداث وقد قدر له أن يكون معاصراً لكل التطورات على مدى أكثر من ربع قرن) تبثنا بكثير من التفاصيل التي غاب معظمها في خضم الحديث عن التطورات والمكاسب والتحالفات وأثر الأشخاص... وهو يروي - على سبيل المثال - (في صفحة ٣٥٩) قلق الزعماء السوفيت من زيارة وزير الخارجية الأمريكي وليم روجرز للقاهرة في مايو ١٩٧١ فتكون روايته لهذه الانطباعات على النحو التالي:

«... ولقد أدت زيارة روجرز للقاهرة إلى قلق موسكو، فقد كانت الزيارة بداية تحول في طريقة معالجة قضية العدوان الإسرائيلي بقيام الاتصالات مباشرة بين مصر والولايات المتحدة، ولم تعد الاتصالات تتم مع الاتحاد السوفيتي كما كان يحدث في الماضي، مما جعل السوفييت يشعرون بعدم الارتياح، خاصة بعد تكرار التصريحات الأمريكية عن ضرورة إخراج الاتحاد السوفيتي من منطقة الشرق الأوسط».

«ولذلك، فبمجرد انتهاء زيارة روجرز وميسكو للقاهرة، أبلغتنا موسكو برغبتها في إرسال وفد مياسى برئاسة نيكولاى بودجورنى رئيس مجلس السوفييت الأعلى لزيارة القاهرة، ورحب الرئيس السادات بالزيارة ووصل بودجورنى يوم ٢٥ مايو».

(١٧)

وعلى الرغم مما قد يبدو في بعض فقرات هذه المذكرات وكأنه التعاطف التام لمحمود

رياض مع السوفييت، إلا أن هذا لا يمنعه من أن يبدى آراء صريحة في أدائهم على نحو ما رأينا من بين سطور ما كتب في لحظات حرجة من التعامل معهم وجهاً لوجه، بل إنه لا يجد حرجاً في أن يسجل انتقاداته التي وجهها للاتفاقية التي وقعتها السادات في ١٩٧١ مع السوفييت في أعقاب حركة ١٥ مايو ١٩٧١، وهو يعبر عن هذه الآراء التي كان يراها في عجز الاتفاقية عن تحقيق أمانينا والتعبير عن الواقع (في صفحة ٣٦٠ من مذكراته) فيقول:

«وبعد اطلاعي على الاتفاقية وجدت فيها نقصاً شديداً. فلقد كنا نتلقى الأسلحة والمساعدات الاقتصادية من الاتحاد السوفيتي في غياب معاهدة الصداقة. والآن، ونحن نقرر الموافقة على إبرام اتفاقية صداقة، فإن الاتفاقية تخلو من أي نص يشير إلى التزام الاتحاد السوفيتي بإمدادنا بالأسلحة اللازمة لتحرير أراضينا. لذلك طلبت من أندريه جروميكو تعديل الاتفاقية وإدراج بند جديد عن التزام الاتحاد السوفيتي بتعزيز القدرة الدفاعية العسكرية المصرية وتقديم كل الإمكانيات العسكرية اللازمة لمصر من أجل إزالة آثار العدوان على أراضينا. ولقد توقفت مباحثاتي مع جروميكو عند هذه النقطة، فقد كان عليه أن يعود بشأنها إلى بودجورني، الذي كان عليه بدوره أن يتصل بموسكو ليحصل على موافقة بقية رفاقه على إضافة ذلك البند الجديد».

«واتصلت بالرئيس السادات وأخبرته بالتعديلات التي طلبتها، وعندما سألتني عما إذا كنت أتوقع أن توافق موسكو على ذلك، أكدت له أن القادة السوفييت لابد أن يوافقوا إذا كانوا حريصين على توقيع الاتفاق، وأشارت إلى البند الذي اقترحت بأنه التزام عام إلا أنه يعطى بعض القوة السياسية والمضمون العسكري للاتفاقية، فأبدى الرئيس في طلب تعديل الاتفاقية على هذا الأساس وجاء من موسكو الرد بالموافقة على التعديل الذي طلبته. أما التعديل الثاني الذي طلبته فقد كان شكلياً ووافق عليه جروميكو، حيث كانت المدة المقترحة لسريان الاتفاقية في المشروع السوفيتي هي عشرون عاماً. وعندما طلبت إنقاص المدة إلى ١٥ عاماً سألتني جروميكو عن أهمية هذا التعديل، فأجبت بأنه لا توجد له أهمية عملية ولكنني تذكرت أن المعاهدات المصرية - البريطانية التي وقعناها في عام ١٩٣٦ كانت مدتها عشرون عاماً وهي معاهدة كريمة على نفس كل مصري، لا أربح في وجود أي تماثل بين الاتفاقيين ولو من الناحية الشكلية».

ولكن صاحب هذه المذكرات من ناحية أخرى حريص على أن يقدم نفسه وكأنه يرى آراء مخالفة لما هو شائع - في الأدبيات السياسية المتاحة وقت تأليف مذكراته - فيما يتعلق بمعلقة السادات بالسوفيت.

فهو أولاً حريص على أن يروى لنا كيف كان السادات في أول أيام توليه المسؤولية وعقب وفاة عبدالناصر مباشرة (صفحة ٢٩٢) حريصاً جداً على الاطمئنان إلى استمرار التأييد السوفيتي لمصر:

«... وخلال المناقشات التي حدثت بعد ذلك سألني أنور السادات قائلاً: هل نرى أن وفاة الرئيس جمال عبدالناصر يمكن أن تجعل السوفييت يتراجعون في التزاماتهم نحو مصر؟».

«وأجبت قائلاً: إنه بصرف النظر عن السوفييت والأمريكان، فإن العامل الأساسي الذي يجب ضمانه هو مدى استمرار التماسك في جبهتنا الداخلية».

«وأيدني عدد من الحاضرين مطالبين بضرورة إعداد بيان سياسي يوضح أن السيد أنور السادات سيقوم مؤقتاً بأعباء رئيس الجمهورية، وبأننا مستمرون في السير على نفس الخط السياسي الذي وضعه الرئيس الراحل جمال عبدالناصر».

«وطلب مني أنور السادات إعداد هذا البيان السياسي لمناقشته في اجتماع يعقد في صباح اليوم التالي».

«وفي ظهر اليوم التالي اجتمعنا من جديد على هيئة اجتماع مشترك بين اللجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء لمناقشة الترتيبات النهائية للجنائز، والبيان السياسي، الذي كانت خلاصته هي أننا مستمرون في السير سياسياً على نفس الأسس التي رسمها جمال عبدالناصر. والإجابة في هذا الصدد عن المناوئات التي بدأت تثار، سواء بالنسبة لعلاقتنا الخارجية أو بالنسبة لسياستنا الداخلية».

«وطلب أنور السادات أن يتضمن البيان فقرة واضحة عن تمسكنا بالملاقات الوثيقة مع الاتحاد السوفيتي نظراً لدعمه لنا في معركة التحرير».

ليس لنا أن نسال عن مدى صدق الرئيس السادات في هذا الموقف أو عن مدى

مناورته، فقد أصبح مثل هذا البحث خارج الهامش وليس خارج الموضوع فحسب، ولكننا نستطيع أن نسين على الأقل مدى إحساس صاحب هذه المذكرات - دعلك من الرئيس الجديد - بأهمية العلاقات مع الاتحاد السوفيتي، ولكن يبدو أن الاتحاد السوفيتي نفسه لم يكن واعياً لهذا الإحساس، وإلا ما دفع السادات إلى كل ما دفعه إليه، وما دفع عبد الناصر من قبله إليه.

(١٩)

كما أن صاحب هذه المذكرات يروي (في صفحة ٣٣٥ وما بعدها من مذكراته) تفصيلات مهمة عن زيارة السادات الأولى للاتحاد السوفيتي بعد توليه الرئاسة، وهي الزيارة التي آثر السادات أن تكون سرية، وهو يبتنا عن المبررات التي كانت من وراء هذه الزيارة، بل إن محمود رياض يعترف بأنه هو نفسه كان خشناً جداً مع السفير السوفيتي الذي استاء بالطبع من طريقة رياض الحاسمة المعبرة عن نفاذ الصبر. وهكذا كان لا بد للسادات من أن يؤكد بنفسه وبطريقة أخرى وعلى مستوى آخر نفس ما سبق لرياض أن أبلغه السفير السوفيتي:

«... وفي نفس اليوم الذي كان بيرجس يبلغني فيه برسالة روجرز وبستمع إلى ردي عليها، سافر الرئيس أنور السادات إلى الاتحاد السوفيتي في زيارة سرية استغرقت يوماً واحداً، وكانت هذه هي زيارته الأولى إلى موسكو منذ أن أصبح رئيساً. وكانت تلك أيضاً هي المرة الأولى التي تجري فيها مشاورات على هذا المستوى بغير حضوري ومشاركتي».

«والواقع أن تشيبر ذلك كان يرجع إلى واقعة جرت بالقاهرة قبل أيام قليلة من الزيارة. فإزاء اعتراف الولايات المتحدة بقبولها في الحصول على رد إيجابي من إسرائيل على مقترحات يارنيج، وإزاء الإجماع الدولي، خصوصاً من الدول الصديقة لنا، على ضرورة تحركنا العسكري، فقد كنت أرى أن العمل العسكري تنزايد أهميته يوماً بعد يوم كوسيلة نهائية لتحرير أراضينا المحتلة».

«وفي هذا الوقت جاء السفير السوفيتي فينوجرادوف لمقابلتي وفوجئت به يستهل

حديثه بضرورة استمرارنا فى الجهود السياسية نحو الحل السلمى، ولم أكن على استعداد لسماع المزيد من النصائح فى هذا الشأن؛ فقلت بشيء من الاستياء: وماذا كنا نفعل إذن منذ أكثر من ثلاث سنوات؟ إن ردنا على يارنج لم يكد يمر عليه سوى أيام قليلة، فماذا نفعل أكثر من ذلك؟».

«وحاول السفير تفسير رأيه، إلا أنني استرسلت قائلاً: أن الموضوع لا يحتمل مناقشة، وعليه إخطار موسكو بأن هناك استياء فى أوساط الجيش لعدم نزويدهم لنا بمعدات سبق التماقد عليها مثل الصواريخ الخاصة بفتح الثغرات فى حقول الألغام وأدوات التثمين للمدفعية بعيدة المدى وأجهزة الرؤية الليلية للمدرعات».

«ولاشك أن السفير قد فوجئ يومها باستيائى الشديد، وقد أبلغت الرئيس السادات بما دار وكان تعليقه بأنه يتفق مع كل كلمة قلتها فى هذه المقابلة».

«وعندما زار الرئيس موسكو أبلغ القادة السوفييت بأن ما قلته كان يعبر عن وجهة نظره، وأن زيارته تستهدف التعجيل بوصول الأسلحة المتعاقد عليها مع الاتحاد السوفيتى».

على هذا النحو كانت تعبيرات المسئولين المصريين على المستويين الأعلى (الرئيس والوزير) قد بلغت حداً واضحاً من الضيق النفسى دون أن يحاول أحدهما الإدارة أو اللف والدوران لنفى هذا التعبير أو تلطيفه، بل إن السادات يؤكد على أن ما قاله رياض - فى استرسال على حد تعبيره - كان يعبر عن وجهة نظره هو أيضاً !!

(٢٠)

ومع هذا كله فإن رأى محمود رياض فى قرار السادات بطرد الخبراء السوفييت يأتى معارضاً تماماً لأنور السادات، وهو يرى أن مصر خسرت من مثل هذا القرار وأن السوفييت كسبوا منه (١١) وهو بعضى نفى هذا الحديث المنطقى مشيراً إلى مدى الراحة النفسية التى حصل عليها السوفييت بخروج خبراءهم من مصر، وإن كانوا فى نفس الوقت قد شعروا بخيبة الأمل. وهو يعبر عن هذا المعنى فى أكثر من فقرة وغير صفحات كثيرة (١٥) وما بعدها من مذكراته)، وسنتقل للقارىء بعض هذه الفقرات الموحية:

الفقرة الأولى :

«وعندما عاد الفريق صادق إلى مصر كان انطباعه هو أن السوفييت يعملون على نهضة الأوضاع. وأنهم لن يوافقوا على أى عمل عسكري مصرى حتى شهر نوفمبر ١٩٧٢، ومع ذلك فإنهم سوف يستمرون فى التسويف فى تقديم الأسلحة بأمل تحقيق حل سلمى للقضية».

«وظل الرئيس السادات فى انتظار الرد من الاتحاد السوفيتى حول طلباته من الأسلحة ومواعيد تسليمها إلى أن حل الأسبوع الأول من يوليو بدون وصول أى رسالة من موسكو. وعندئذ اتخذ قراراً بإنهاء عمل الخبراء السوفييت فى مصر وأبلغ وزير الحربية بذلك يوم ٧ يوليو، وعندما طلب السفير السوفيتى مقابلته حدد له الرئيس يوم ٨ يوليو وجاء السفير لى يبلغ الرئيس برد موسكو على رسالته، وكان رداً يدور حول الموقف السياسى بغير أن يتطرق إلى ما كان يطلبه الرئيس السادات من أسلحة».

«وعندئذ أبلغ الرئيس السادات السفير بقراره بإنهاء عمل الخبراء السوفيت مع إمكان استبقاء الوحدات العسكرية السوفيتية على أن يتم وضعها تحت القيادة المصرية، وفى حالة رفض هذا الطلب فعليها أن تغادر الأراضى المصرية قبل يوم ١٧ يوليو».

«وكان هذا القرار مفاجأة للسفير لم يكن يتوقعها على الإطلاق، وكان يتصور فى البداية أن الموضوع يمكن مناقشته، ثم تبين أن الأمر منه، وأن المطلوب هو إخطار موسكو والبدء بالتنفيذ».

«هكذا يعطينا محمود رياض فى هذه الفقرة إحياء قوياً بعظمة السادات فى اتخاذ قراراته على الرغم من أن القرار نفسه لا يحظى بقبول محمود رياض، ولكن عرض رياض للمقصة يربط كيف كان السادات أذكى من السوفييت والأمريكيين جميعاً وكيف قاد قراره بنفسه، وقد حضر السفير - على نحو ما يرويه رياض - وليس فى ذهنه أى فكرة مسبقة عن هذا القرار، حتى إنه ظن حديث السادات عن القرار مناورة من السادات، فما كان من السادات نفسه إلا أن قطع عليه الحظ نهائياً!!!»

«وقد قام الرئيس السادات بمحاولة للتخفيف من وقع القرار فأوفد رئيس الوزراء عزيز صدقى إلى موسكو باقتراح منه بأن يصدر بيان مشترك يتضمن شكر الحكومة المصرية للاتحاد السوفيتى بمناسبة انتهاء عمل الخبراء السوفيت فى مصر. ولكن بريجنيف

رفض أن يشترك في مثل هذا البيان وترك لمصر أن تتصرف منفردة في هذا الشأن كما ترغب».

الفقرة الثانية :

«وفي تقديرى أن من العوامل التي ساعدت على صدور قرار إخراج الخبراء السوفيت من مصر - إسراف السوفييت في تردهم من ناحية، وإسراف الأمريكيين في وعودهم للرئيس السادات من ناحية أخرى. فلقد استمر السوفيت في تردهم وخشيتهم من استخدام القوة العسكرية لتحرير أراضيها المحتلة على الرغم من تأكيدهم أن الولايات المتحدة لن تتحرك مطلقاً في اتجاه الحل السلمي، وكانوا حريصين دائماً على تجنب احتمالات المواجهة مع الولايات المتحدة في المنطقة».

الفقرة الثالثة :

«ولقد ذكر لى أحد الأصدقاء أنه سأل هنرى كيسنجر بعد تركه لمنصبه عن سبب موقف الولايات المتحدة السلبى من القرار الذى اتخذته السادات بإخراج السوفيت من مصر، وكان رد كيسنجر عليه هو أن هذا الموقف الأمريكى السلبى هو الموقف الطبيعى تماماً في هذه الظروف. فالسياسة لا تعرف الأخلاقيات، وليس من مهمة الولايات المتحدة أن تتطوع بدفع ثمن لشيء تم تقديمه إليها مجاناً ولم يشترط عليها أحد دفعه».

«والواقع أن إنهاء عمل الخبراء السوفيت لم يأت بأى عائد سياسى لمصر. فضلاً عما تورب عليه من الخسارة العسكرية. بل إن توقيت إخراج الخبراء السوفيت من مصر جاء فى منتصف السنة الانتخابية للرئاسة الأمريكية، التى يشاقق فيها المرشحون للرئاسة على خطب ود الأصوات اليهودية، فلم تعطه الإدارة الأمريكية أى اهتمام».

وكننت أظن محمود رياض فى هذه الفقرة يتوقف ليبدى تعليقه : لا ليؤيد السادات. ولكن ليظهر لنا أنه لم يكن من المهورين بهذا التخايث الذى أيداه كيسنجر مما جعله يدعى الحكمة بدون داع! وكأنه وحده هو الذى يحرك الكون بصفقاته ورشوانه!! وكأن المبادئ والنزعات والأهداف الوطنية بل والنزوات غائبة عن تسيير الحياة السياسية.

الفقرة الرابعة :

«والواقع أننى مازلت أذكر المفاجأة التى أصابت القادة السوفيت فى الكرملين عندما أخطروهم عبد الناصر بالموافقة على مبادرة روجرز فى يوليو ١٩٧٠ لحظتها تحدث كل من بريجنيف وكوسيجين على التوالي معترضين على أن تقبل مصر حلاً

أمريكياً ولكن ، تبين بعد ذلك أن اعتراضهم بمس الشكل فقط دون الجوهر، لأن الشكل بمس وجودهم كتوة عظمى، ولكن ، بعد أن استبعدوا الشكل وعادوا إلى الموضوع وافقوا على قبول عبد الناصر للمبادرة الأمريكية بلا تحفظ لأن الحل السلمى هو ما يتشئ مع السياسة السوفيتية^١.

«ولذلك فإنه عندما وصل رئيس الوزراء المصرى إلى موسكو، كان اسياء القادة السوفييت حول الشكل الذى يخرجون به من مصر، أما الموضوع الأساسى وهو خروجهم نفسه، فهو أمر رحبوا به فى قرارة أنفسهم وسارعوا فى تنفيذه قبل نهاية المدة التى حددها لهم الرئيس السادات».

«وسبب هذا الموقف هو أن عبد الناصر سبق له أن أقنعهم خلال السنوات الماضية بالمساهمة بوحدات عسكرية مقاتلة وطيارين مقاتلين للدفاع الجوى عن العمق المصرى، بحيث يتفرغ الطيارون المصريون للعمليات الهجومية فى الجبهة».

«وكان السوفييت يأملون فى أن يؤدى مجرد تواجدهم العسكرى إلى الضغط على إسرائيل والولايات المتحدة لقبول بالحل السلمى إلا أن ذلك لم يتحقق بل أدى إلى مزيد من التصعيد من جانب الولايات المتحدة الأمريكية».

«ولذلك فإنهم عندما لمسوا من مصر إصراراً على العمل العسكرى شعروا بالراحة لتخلصهم من الالتزامات العسكرية التى كان يفرضها عليهم وجود وحداتهم العسكرية فى مصر وبخاصة طيارهم، فالاتحاد السوفيتى يصبح أقل تورطاً فى الحرب المصرية الإسرائيلية حينما تتم تلك الحرب بغير وجود عسكرى فى مصر عنه إذا تمت تلك الحرب وله طيارون مقاتلون داخل مصر ووحدات للدفاع الجوى، والواقع أن السوفيت لم يكونوا حريصين على استمرار وجودهم العسكرى فى مصر بما دفعهم لإبلاغ الولايات المتحدة استعدادهم لسحب وحداتهم العسكرية عندما تتم التسوية السلمية.

[١]

هنا يقف محمود رياض ليشاهد الأحداث من شرفة عالية متمنعا بما انتهت إليه الأمور كما شهده هو أيضاً ويقول:

«وهذا هو ما يفسر فى تقديرى السبب فى أن الاتحاد السوفيتى، بمجرد خروج خبرائه ووحداته العسكرية من مصر، واصل فى نفس الوقت دعم مصر عسكرياً بل قدم لمصر أسلحة حديثة وجديدة لم تكن لديها من قبل ، واستمر فى ذلك أثناء وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣».

وعلى الرغم من هذا كله فإن محمود رياض وهو رجل يحاول الإنصاف في معظم أحكامه، وموضوعي أيضاً في أغلبها لا يغفل (في صفحة ٤١٦) ذكر الفائدة غير المباشرة التي عادت على بلاده من قرار طرد الخبراء السوفييت، ولكنه للأسف الشديد لا يعقب عند ذلك الموضوع ولو بالإشارة إلى ذكاء السادات وبعد نظره ولا حتى بالاعتراف بالفوائد غير المباشرة التي عادت من جراء قرار أرعن أو مندفع اتخذها! ولست أحب أن ألوم محمود رياض ولكني كذلك لا أحب أن أتجاهل الأمر كما تجاهله هو:

«... وخلال النصف الأول من عام ١٩٧٣ كانت الاستعدادات للمعركة مستمرة في كل من القاهرة ودمشق، وعلى الرغم من مراعاة السرية المطلقة إلا أنه كانت هناك بلائيك مظاهر وتحركات لا يمكن إخفاؤها نظراً لضخامة الاستعدادات التي تجريها الدولتان. مع ذلك فقد نبين فيما بعد أن المخابرات الأمريكية استبعدت من تفكيرها تماماً احتمال قيام مصر وسوريا بخوض معركة عسكرية لتحرير أراضييهما بعد تلك الفترة الطويلة التي توقف فيها إطلاق النيران. وقد عزز من هذا الشعور قرار الرئيس السادات بإنهاء عمل الخبراء السوفييت، فلقد تصور الأمريكيون أن النتيجة الطبيعية لهذا القرار هي تخلي مصر عن المعركة، وكذلك تخلي الاتحاد السوفيتي عن مواصلة تسليم مصر».

ولنا أن نقارن بين رأي رياض في هذه الجزئية ورأي عصمت عبد المجيد الأكثر إنصافاً وقد أوردناه في الباب الأول من هذا الكتاب، ومع أن غياب السوفييت عن معركة ٦ أكتوبر لم ينقص في حد ذاته من الإنجازات التي يمكن الحصول عليها في هذه الحرب إلا أن محمود رياض يكتفي في نظره للأمور بالجوانب المنطقية المتعلقة بفقدان شيء كان في اليد ولم يكن من الذكاء أو الحكمة التفریط به بإرادتنا!! وهي وجهة نظر تستحق الاحترام بالطبع حتى لو لم أكن من الموافقين عليها بحكم كوني طبيباً يفهم فائدة الفطام المبكر للمريض من على أجهزة التنفس الصناعي على سبيل المثال وإتاحة القوة الذاتية لكي تمارس الحياة كما ينبغي.

وفيما قبل ذلك فإن محمود رياض يدلنا من حيث لا يقصد بالتحديد على موقف

السوفييت أنفسهم من القادة العسكريين المصريين، فعلى حين أنهم كانوا لا يرتاحون إلى الفريق أول محمد صادق الذي كان يبادلهم الكراهية ويناصبهم العداء، فإنهم لبوا للفريق أول (المشير فيما بعد) أحمد إسماعيل طلباته من السلاح.. وبالطبع لم يعقد محمود رياض هذه المقارنة بين الوزيرين في مذكراته، ولكننا نحن الذين عقدناها ولهذا قلنا في السطر الأول من هذه الفقرة (من حيث لا يقصد).. ربما كان محمود رياض واعياً لهذا الفارق، بل في الأغلب أنه كان كذلك ولكنه لم يجل هذا المعنى لأن كل موقف من هذين الموقفين جاء سياقه في تربيته التاريخي بعيداً عن مثل هذا التحليل أو المقارنة. لهذا أولاً هو ما يروييه محمود رياض (صفحة ٣٨٤) عن معادشات الفريق صادق مع القادة السوفييت:

«..... وهنا تدخل الفريق محمد صادق وزير الحربية معلقاً على البيانات التي تناولها جريشكو فقال: إنني متفق مع هذه التقديرات بصفة عامة، وعلى صحة الأرقام التي ذكرها الماريشال جريشكو، إلا أن الدبابات السوفيتية طراز ٣٤ لا يمكن إدخالها في الاعتبار لأنها لا تستطيع مواجهة الدبابات الحديثة التي تملكها إسرائيل. أما كافة الدبابات الموجودة لدينا فلا تستطيع العمل ليلاً بسبب النقص الشديد في أجهزة الرؤية الليلية اللازمة لها. وبالنسبة للمدفعية بعيدة المدى فتفتقنها أدوات التوجيه وبالنسبة للطيران فلا شك أن الميج ٢١ طائرة ممتازة ولكن مداها قصير للغاية إذا قورنت بالميراج أو الفانتوم، وكل هذا يقلل من كفاءة الأسلحة الموجودة لدينا».

«وهنا تحدث بريجنيف معلقاً بقوله: أعتقد أنه على ضوء البيانات التي ذكرها الماريشال جريشكو يتضح أننا قد قطعنا شوطاً كبيراً في دعم الجيش المصري، ولذلك فنحن لا نوافق على القول بأن الجيش المصري لبس في مستوى العدو، والأمر الذي يشغلني حقاً هو ما سمعته الآن من حديث عن ضعف القوات المصرية، لأنه إذا كان أفراد الجيش المصري يرددون مثل هذه الأقوال، فإن الجيش في هذه الحالة يصبح غير مستعد لأي معركة مهما تلقى من أسلحة. ولذلك فيجب على جميع أفراد الجيش أن يكونوا مقتنعين بأن المهارة في استخدام السلاح هي الأساس في النجاح. وعلى الرغم من هذا كله، فإن من واجبنا أن نستكمل لكم أي نقص تشكون من وجوده في السلاح. وأرجو ألا يساء فهم قولي عما يردد بين أفراد الجيش».

«وعموماً فنحن نرى أنه في جميع الأحوال يجب الاستمرار في المساعي السياسية.

والاستمرار في الاتصال بنيكسون. ومن جانبنا فسوف نواصل الضغط على الأمريكيين، ولا نستطيع أن أسلم بفقدان الأمل في الاتصالات التي تجري ولكن أحب أنؤكد على أهمية وقوف الدول العربية في جبهة واحدة على الدوام إذا كان لكم أن تحققوا النجاح في الحصول على حقوقكم. وفي لقاتنا القادمة مع نيكسون سوف نتحدث معه عن فيننام والشرق الأوسط. والشئ المهم هو استمراركم في الصمود وعدم تقديم تنازلات هو عنصر أساسي في الأمر كله».

«وأضاف بريجنيف: إن لديكم الآن حوالي ٩٥٠٠ خبير عسكري سوفيتي لتدريب القوات المصرية ولكن من الضروري أن تكون لديكم خطة كاملة للدفاع المدني بشارك فيها الشعب كله».

«ثم تحدث بريجنيف عن المطالبات العسكرية التي تباحث بشأنها الفريق محمد صادق مع جريشكو من اليوم الأول، فقال: إن لدينا اقتراحات معينة لمزيد من الدعم للقوات المسلحة المصرية سوف يكون لها تأثير جسيم تماماً لكل ما يجيء وإنا نوافق على ما يلي: أولاً: سوف نرسل لكم طائرات فاذة بعيدة المدى من الطراز الصاروخي «تى. يو» ولكنني أرجو منكم ألا تستخدموا تعبير «سلاح الردع» الذي تطلقونه على تلك الطائرة، وألا تعملوا بأي شكل من قبامنا بإمدادكم بها.

ثانياً: نوريد مائة طائرة من الطراز ميغ ٢١، وسوخوي، خلال عامي ٧١ و٧٢ بالإضافة إلى سرب ميغ ٢٣ يصلكم خلال النصف الثاني من العام القادم.

ثالثاً: نوريد كتيبة مدفعية ١٨٠ مليمترأ يصل مداها إلى ٤٢ كيلو متراً، بالإضافة إلى مدافع هاون ٢٤٠ مليمترأ.

وواصل بريجنيف حديثه قائلاً: إنه بالإضافة إلى هذا كله فسوف نمدكم بمزيد من وسائل العبور بحيث تصلكم على الفور ثلاثة كباري جديدة، إلى جانب مزيد من أجهزة فتح الثغرات.

ولقد كان حجم هذه المصفقة الجديدة التي أعلن بريجنيف موافقتهم عليها ضخماً إذ تبلغ قيمتها ٢٨٨ مليون دولار.

ولقد كان موقف السوفييت خلال هذه الزيارات أكثر وضوحاً منه في أي مرة سابقة: فأولاً: هم يتصحبون بالاستمرار في جهودنا السياسية من أجل الحل السلمي.

وثانياً: يطلبون وحدة العمل العربي، فلا يتحدثون عن دول رجعية أو دول تقدمية بعكس السياسة الأمريكية التي تقاوم أى وحدة عربية، بل تعمل ضد الدول التي تعتبر أنها «راديكالية» كمصر وسوريا.

وثالثاً: يؤيدون مصر والعرب في التمسك بحقوقهم وعدم تقديم تنازلات.

ورابعاً: كان أهم انطباع خرجت به من تقييم المارشال جريشكو للموقف العسكري ومن حديث القادة السوفييت، أنهم لا يرون تحمل الاشتراك في مسئولية إصدار قرار الحرب، لأنه حسب وجهة نظرهم يجب أن تتوافر لمصر قبل كل شيء إرادة الحرب.

وبعد أن استمعت لتقرير جريشكو شعرت بأنه لا يجوز أن نتأخر كثيراً في اتخاذ القرار، وكان ذلك موضوع حديثي مع الرئيس السادات خلال العودة إلى القاهرة.

(٢٢)

على هذا النحو كانت محاورات السوفييت مع الفريق محمد أحمد صادق وكأنهم بالفعل لا يرتاحون إليه ولا إلى طلباته ومناقشاته، وعلى الجانب الآخر فإن محمود رياض (صفحة ٤٢١) بورده موقف السوفييت قبل حرب أكتوبر من التعاون مع وزير الحربية الجديد الفريق أحمد إسماعيل وتلبية طلباته حيث يقول:

«وكانت العلاقات المصرية مع الاتحاد السوفيتي قد أصابها الشلل عقب استبعاد الخبراء السوفييت لبعض الوقت، إلا أن الزيارة التي قام بها رئيس الوزراء المصري إلى موسكو في أكتوبر ١٩٧٢ ثم وزير الحربية المصري في مارس ١٩٧٣ أدت إلى إزالة هذا التوتر، وبالتالي تم توقيع اتفاقية جديدة تضمنت قيام الاتحاد السوفيتي بتوريد أسلحة جديدة إلى مصر، في مقدمتها ثلاثة أسلحة لم يسبق لمصر الحصول عليها، تتضمن سراً من الطائرات ميغ - ٢٣، ثم لواء صواريخ تي - ١٧ - آر، وصواريخ من طراز سام - ٦، بالإضافة إلى عربات قتال مدرعة من طراز جديد. وعدد من المدافع والصواريخ المضادة للدبابات».

«وقد وعد السوفييت الفريق أحمد إسماعيل وزير الحربية المصري بإعادة الطائرات ميغ ٢٥ إلى مصر، وهي الطائرات التي كانت تقوم باستطلاع المواقع الإسرائيلية في

سيناء، وكذلك إعادة الوحدات الإلكترونية المتقدمة والتي نعاون الدفاع الجوي وسلاح الطيران، وكان الرئيس السادات قد طلب من السوفييت سحبها من مصر في الصيف السابق^٤.

«وعندما قام حافظ إسماعيل بزيارة موسكو في يوليو، أكد له بريجنيف أنهم مستمرون في تأييد مصر، وإن النفاق مع الولايات المتحدة لا يمكن أن يكون على حساب تأييدهم للقضية العربية»^٥.

١

أما موقف السوفييت في أعقاب حرب ١٩٦٧ وبداية تحقيق التعاون الوثيق معهم، فإن محمود رياض يوفيه حقه تماماً، وسننقل للقارئ بعض الفقرات التي تصور هذا التعمق:

«كما وجهت القيادة السوفيتية دعوة إلى جمال عبدالناصر للنباحث معه في موسكو، وعندما نقلت الدعوة إلى عبدالناصر طلب مني أن أبلغ السفير السوفيتي بأنه لا ينوي الذهاب إلى موسكو في الوقت الحاضر، وأنه يرى أنه من الأفضل من الوجهة السياسية حضور أحد القادة السوفييت إلى القاهرة بدلاً من ذهابه هو إلى موسكو، وأن التقاليد قد جرت في مصر على أنه إذا حل مكروه بشخص فإن الأصدقاء هم الذين يقدون إلى داره للوقوف بجانبه»^٦.

«وهكذا حضر بودجورني إلى القاهرة بعد ظهر يوم ٢١ يونيو، وتم أول لقاء بينه وبين عبدالناصر في تلك الليلة بمنزل الرئيس الذي أقام له حفل عشاء»^٧.

«وفي اليوم التالي بدأت المحادثات في قصر القبة»^٨.

«وأهمية تلك الجلسة الأولى من المباحثات الرسمية ترجع إلى أنها كانت بداية مرحلة جديدة في العلاقات المصرية - السوفيتية، أدت فيما بعد إلى تواجدهم سويفتي قوي، ليس في مصر وحدها، بل في أماكن أخرى عديدة في العالم العربي، وأدت بالتالي إلى تغيير تدريجي في سياسة مصر بالنسبة لعدم الانحياز»^٩.

لكن الأهم من تعليقات محمود رياض ورأيه في عجز السوفيت عن تقديم المعونة المناسبة بعد الحرب ، وهو ما تمثل به صفحات مذكراته ، الأهم من هذا في نظري هو توصيف محمود رياض المذكرى لطبيعة الدور السوفيتي المؤامرة في حرب ١٩٦٧ وهو يوصف المؤامرة توصيفا جيدا فيصفها بأنها كانت تواطؤا أمريكيا سوفيتيا ، ويصل رياض في اثباته لصحة مقولته هذه إلى آفاق بعيدة من الصواب الواضح والفكر القويم ، ويريد هذا الصواب بمهارته في الحديث عن هذا التواطؤ فهو لا يقحم مثل هذا الحديث في مسار الحرب في أيامها ، ولكنه يتحدث به حين أصبح متاحا له تكوين رؤية متكاملة عن جوانب التواطؤ وذلك بعد أكثر من خمس عشرة صفحة حيث يتحدث بوضوح لا تنقصه الصراحة عن التواطؤ الأمريكي في الحرب محللا بالأدلة هذا التواطؤ وملقيا ببعض اللوم على الاتحاد السوفيتي ، ولكنه بالطبع يلقى بالقدر الأكبر على وزير الحربية المصري شمس بدران والقيادة المصرية وهو يقول :

«... فقيما يتعلق بالاتحاد السوفيتي نستطيع أن نتبين أنه قد بالغ في وعوده الغامضة لكل من مصر وسوريا ، فخلق تصورا في كل من القاهرة ودمشق بأن الاتحاد السوفيتي سيكون بجانبهما عسكريا إذا حدث وبادرت إسرائيل بالعدوان . وعلاوة على الرسائل التي حملتها الاتصالات المباشرة فإن الكرملين قد أصدر بياناً رسمياً في ٢٣ مايو جاء فيه أن «أى عدوان في الشرق الأوسط سوف تتم مواجهته ليس فقط بواسطة القوة الموحدة للبلاد العربية ولكن أيضاً بواسطة المعارضة القوية من جانب الاتحاد السوفيتي» .

«واستخدام تعبير « المعارضة القوية » فسرّه العرب على أنه وعد بالتأييد العسكري في مواجهة التهديدات الإسرائيلية بدخول دمشق » .

«وعندما قام شمس بدران وزير الحربية بزيارة موسكو في ذلك الوقت ، طلب منه القادة السوفيت عدم نصعيد الموقف . ومع ذلك فإن المارشال جريشكو قال لشمس بدران وهو يودعه في المطار : إننا سوف نكون إلى جانبكم على الدوام ، ونقل إليه رسالة من رئيس الوزراء كوسيجين إلى عبد الناصر بهذا المعنى ، ولقد فسر شمس بدران هذه الكلمات من جانبه على أنها وعد بالتأييد العسكري السوفيتي في حالة مبادرة إسرائيل بشن الحرب . ولم يخف عبد الناصر من جانبه ذلك التأكيد بل أعلنه في كلمة له يوم

٢٩ مايو قائلًا: «وحيثما قابلت شمس بدران بالأمس بعد عودته من موسكو أبلغني رسالة من السيد كوسيجين يقول فيها إن الاتحاد السوفيتي يقف معنا في هذه المعركة ولن يسمح لأي دولة بأن تتدخل». لقد كان ذلك التصريح مذكراً ومنشوراً على أوسع نطاق، فلو افترضنا أن شمس بدران قد حمل وعد السوفييت بأكثر مما يحتمل، أو أنه أساء الفهم، فإن الاتحاد السوفيتي كان يجب أن يسرع بتصحيح الموقف لسعد الناصر بعد تصريحه العلني هذا.

«ولكن السوفييت لم يفعلوا ذلك وكانت النتيجة هي تلك الوعود التي تحمل أكثر من معنى والتي كانت تستهدف في الأغلب مجرد إحراز مكاسب سياسية».

«ولقد كانت لدى موسكو قناعة مبكرة بأن إسرائيل تعد لهجوم شامل على الدول العربية وبخاصة مصر وسوريا، وهو الأمر الذي ثبت صحته فعلاً. ومع ذلك فإن سفير الاتحاد السوفيتي بالقاهرة كان هو الذي أيقظ عبدالناصر من نومه في فجر يوم ٢٧ مايو لإبلاغه برسالة عاجلة من القادة السوفييت يطلبون منه فيها ألا تكون مصر هي البادئة بإطلاق النار».

«وفي تلك الليلة ذكر السفير السوفيتي أن الرئيس الأمريكي جونسون قد أبلغ الكرملين بأن مصر ستقوم بالهجوم على إسرائيل في فجر ذلك اليوم، ولكن الأمر اللافت هنا هو أن يطلب السوفييت «ألا تكون مصر هي البادئة بإطلاق النيران».

«وكان عبدالناصر قد تلقى رسالة مماثلة من جونسون تحمل طابع التهديد السافر لمصر ويقول فيها: إن «على مصر أن تتحمل نتائج عملها إذا بدأت بفتح النيران».

وهنا يصل صاحب هذه المذكرات إلى توجيه اتهاماته للسوفييت صراحة فيقول:

«وهكذا نرى أن دور الاتحاد السوفيتي هنا لم يكن أكثر من نقل رسالة جونسون بأسلوب مهذب، بينما كان المفروض أن يكون له دور مختلف تماماً وبخاصة أن السوفييت كانوا يعلمون بالتفوق العسكري الإسرائيلي وبضعف القوات المصرية لوجود قسم كبير منها في اليمن، ويعلمون بنقص التدريب في القوات الباقية. ومعنى ذلك أن السوفييت لم يكونوا في حاجة إلى جهد كبير لكي يخرجوا بنتيجة واضحة هي أن قيام إسرائيل بالضرية الأولى - بعد التزام مصر بعدم البدء بالحرب - فيه خطورة فادحة على مصر، وبالتالي على سوريا والأردن. لذلك فقد كان من واجب السوفييت، وهم ينقلون إلى

عبدالناصر رسالة جونسون وطلبهم التزام مصر بألا تكون هي البادئة بإطلاق النيران، أن يحصلوا في مقابل ذلك على تعهد واضح ومحدد من الولايات المتحدة بأن إسرائيل لن تقوم هي الأخرى بالعدوان وتضمن تنفيذ ذلك كدولة عظمى.

(٢٥)

ويأتي حديث محمود رياض عن حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ في إطار تاريخي متميز ورؤية استراتيجية ثاقبة، ويؤكد لنا محمود رياض على كثير من الآراء التي لم يستطع غيره بلورتها على هذا النحو الجيد، فهو يذكر في (صفحة ٥١) أن جمال عبدالناصر كان يريد على سبيل القطع تجنب الدخول في الحرب، وله أسانيده على هذا الرأي حيث يقول:

«وقد حاول جمال عبدالناصر تجنب الحرب واتبع في ذلك خطين:

«الأول: هو الموافقة على مقترحات بوثانات الخاصة بقرم الشيخ وخليج العقبة، وكذلك إعطاء تأكيدات رسمية لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والرئيس الفرنسي شارل ديغول والسكرتير العام للأمم المتحدة يونات. وكذلك للصحافة العالمية في مؤتمر معهم يوم ٢٨ مايو بأنه لن يبدأ بالهجوم».

«والثاني: إصدار الأمر لتعبئة القوات المصرية وإرسال بعض الفرق عبر قناة السويس إلى سيناء، تصوراً منه أن هذا الإجراء سوف يحول دون الهجوم الإسرائيلي على سوريا.

«وعندما أعلن عبدالناصر أنه لن يبدأ بالهجوم فقد كان ذلك من منطلق موقف عملي لأنه لن يحقق من وراء الهجوم أي مكسب، كما أن قيامه بمثل هذا الهجوم معناه الدخول في صدام علني ومباشر مع الولايات المتحدة، التي تعلن دائماً حمايتها لإسرائيل، ولم يكن عبدالناصر راغباً في هذا الصدام».

«والأمر الأخير أنه حتى لو أراد عبدالناصر ذلك فيانه لم تكن تحت يده القدرة العسكرية على تدمير الجيش الإسرائيلي، فضلاً عن انشغال جزء من قواتنا المسلحة في اليمن، إلا أن الأمر الذي لاشك فيه أن قيام عبد الناصر بضربة وقائية، عقب قيام إسرائيل بالتعبئة كانت تحول دون كارثة ٦٧ لأنه كان سيتمكن سلاح الطيران المصري من

تدمير جزء من السلاح الجوي الإسرائيلي وسيحول دون تدمير الطائرات المصرية وهي رابضة على الأرض في مطاراتنا العسكرية في صباح الخامس من يونيو.

«وهنا تبدو أهمية الدور الذي قام به الرئيس الأمريكي ليندون جونسون في عملية الخداع الكبرى، بل نجاحه في إشراك الاتحاد السوفيتي في السيناريو».

وليس معنى هذا الذي يرويه محمود رياض أن الرئيس عبد الناصر تجنب الحرب إلى النهاية فسوف نرى في فقرات كثيرة كيف تطورت الأحداث وأصبح الرئيس عبد الناصر متأكداً من تقارير عبد الحكيم عامر من كفاءة قواتنا الجوية على سبيل المثال !!

(٢٦)

كذلك فإن محمود رياض يعرض لنا في هذه المذكرات (صفحة ٤٤) - بمزيج من الثقة والتواضع - تقييمه المبكر لظروف حرب ١٩٦٧ ونائجها حتى من قبل اندلاعها، وهو يروى كيف أنه كان بالفعل مرتاباً في الأمر فهو قلق غير مطمئن إلى ما يسمع ولكنه لا يدري ماذا يفعل، ولنتقرأ هذا النص الجيد الحافل بالصدق النفسي على الرغم مما قد يوصف به من أنه ليس إلا مجرد ادعاء للحكمة بأثر رجعي :

«... وفي يوم ٢٨ مايو دعاني عبدالناصر لتناول الغداء وآخرين، وحضر المشير عبدالحكيم عامر متأخراً بعض الوقت، وقال ضاحكاً وهو يجلس: إن إسرائيل قد أصيبت بالذعر قبل الظهر، فقد أرسلت طائرتي ميغ ٢١ للاستطلاع فوق بحر السبع وإن الطائرتين التقطنا إشارات إسرائيلية تدل على مدى الذعر الذي أصابهم من وجود الطائرتين المصريتين».

«ولقد أزعجني هذا الحديث كثيراً، لأن بحر السبع لا تبعد عن الحدود المصرية بأكثر من أربعين ميلاً، أي أن الطائرتين المصريتين لم تمكنا في الأجواء الإسرائيلية أكثر من بضع دقائق، وهو إجراء لا يقدم الدليل على مدى قوة سلاح الطيران المصري».

«وفي اليوم التالي زرت عبدالناصر في منزله بعد الظهر، وكان يوماً قاتظ الحار، فاقترح أن نتمشى في حديقة منزله، وأثناء سيرنا أشرت إلى موضوع الطيران وذكرت أنه لو اعتدت علينا إسرائيل فإن كفاءة سلاح الطيران المصري عندنا ستكون هي القفصل

الحاسم في المعركة، وسألته عن مدى استعداداتنا في هذا المجال، فكان رد عبدالناصر هو أن عبدالحكيم عامر يؤكد أن استعداداتنا كاملة».

«ويبدو أن جمال عبدالناصر قد تحدث مع عبدالحكيم عامر ونقل إليه مدى قلقى، فقد فوجئت بعد اجتماع لنا في قصر القبة بعبدالحكيم عامر ينتحى بى جانباً ويقول: يبدو لى أن هناك ما يقلقك فما هو؟ وأجبت قائلاً: إننى أرى أن الموقف يزداد توتراً، وليست لدى أية معلومات عن مدى استعدادنا العسكرى».

«وضحك عبدالحكيم عامر قائلاً: اسمع.. لو حدث وقامت إسرائيل بأى عمل ضدنا فإننا نستطيع بثلاث قواتنا فقط أن نصل إلى بير سبع.. ولكى نتأكد بنفسك ما رأيك أن تزورنى في القيادة لكى تطلع على الموقف العسكرى؟».

«ولقد وعدته بأن أفعل ذلك، ولكننى لم أذهب لأننى كنت أعلم بأننى سوف أرى مجموعة من الخرائط وأستمع إلى بيانات وخطط، ولكننى لن أكتشف أبداً مدى صحة البيانات ولا مدى قدرتنا على تنفيذ هذه الخطط».

«وفى اجتماع لمجلس الوزراء توجه أحد الوزراء بالسؤال إلى وزير الحربية شمس الدين بدران عن الموقف إذا تدخلت الولايات المتحدة عسكرياً لصالح إسرائيل عن طريق الأسطول الأمريكى السادس فى البحر الأبيض بعد أن صرح ليفى أشكول رئيس الوزراء الإسرائيلى بأن الأسطول الأمريكى السادس هو الاخطاى الاستراتيجى لإسرائيل».

«وقد أجاب شمس الدين بدران بأن القوات المصرية كفيلة بمواجهة الموقف».



عند هذا الحد يعلق محمود رياض فى مذكراته - وليس فى مجلس الوزراء المنعقد يومها - بقوله :

«ولقد كان هذا الرد مؤشراً خطيراً عن التصور الخاطى لدى القيادة العسكرية، وقد اعتقد بعض الوزراء أن وزير الحربية، الذى كان قد عاد لثوه من زيارة إلى الاتحاد السوفيتى، لا يمكن أن يعطى هذا الرد ما لم يكن متأكداً بأن لديه السلاح الذى يواجه به الأسطول الأمريكى السادس».

ثم ينهى إلينا محمود رياض ما هو أكثر خطورة من هذا كله ويقول:

«كانت مقابلاتى مع عبدالناصر قد تعددت يومياً فى تلك الفترة، وقد ذكر لى فى

إحدى المقاتلات أن عبدالحكيم عامر قد أكد له أن سلاح الطيران المصري على استعداد كامل لمواجهة الموقف، وأضاف أن عبدالحكيم عامر أبلغه بأنه أرسل سرباً من طائراتنا إلى الفردقة على شاطئ البحر الأحمر لمواجهة الهجوم الإسرائيلي على شرم الشيخ.

«ومرة أخرى لم أسترح إلى هذا التفكير المبني على أن إسرائيل سوف تتركب مثل هذا الخطأ بتوجيه هجومها الأساسي - في حالة قيامها بالحرب - إلى شرم الشيخ».

«وعاد عبدالناصر يسألني في ذلك اليوم عن تقييمي لاحتمالات الهجوم الإسرائيلي، وقد لاحظت أن قلقه كان يزداد يوماً، وكانت إجابتي تتلخص في أن إسرائيل لديها حالياً صورة واضحة عن توزيع قواتنا العسكرية، فإذا كانت البيانات التي سمعتها من عبدالحكيم عامر ومن وزير الحربية عن استعدادات قواتنا المسلحة حقيقية، فإن إسرائيل سوف تتردد في القيام بأي عدوان ضدنا».

[]

هكذا يروي محمود رياض بكل بساطة أنه هو نفسه كان بشجع عبد الناصر على التصدي للموقف لأن إسرائيل - في ظنه في ذلك الوقت - سوف تتردد في القيام بأي عدوان ضدنا ، ولست أحب أن أحاجم محمود رياض ولكنني متزعج من أن يكون هذا الرجل - خريج أركان الحرب - قد انخدع تماماً في القدرة القتالية لقواتنا المسلحة ! وبخاصة أنه هو الذي سوف يحاضرنا في مذكراته عن أخطاء قيادة قواتنا المسلحة المجيدة في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، أكان محمود رياض بكل قدراته التي حدثنا عنها فيما بعد عاجزاً عن أن يعرف الحقيقة من الزيف في تقارير وتقديرات عبد الحكيم عامر وشمس بدران ؟ ! هذا هو السؤال : وليس من شك أن محمود رياض نفسه قد استشعر السؤال على هذا النحو الذي استشعرناه ولهذا فهو يسارع بالتعقيب ليقول :

«إنني ما زلت مقتنعا بأن إجابتي كانت سليمة يومها، ففعل قواتنا العسكرية من حيث العدد وكمية الأسلحة المتوافرة لديها غير كافية فيما لو كنا نتوي أن نبادر نحن بشن الحرب، ولكنها كانت كافية تماماً لردع أي هجوم إسرائيلي والرد عليه، وهكذا فإن الأمر يتوقف في ترجيح كفة أي من الفريقين على حسن القيادة ومستوى التدريب والاستعداد والنتبه. وقد نبين فيما بعد أنه من حيث القيادة العسكرية الموجودة لدينا، إننا الأزمة، فإنها لم تكن تتمتع بالحد الأدنى من الخبرة والتنظيم والكفاءة في ظل أي مفهوم

عسكري، فكانت الأوامر تصدر بطريقة عشوائية لا علاقة لها بأى فكر عسكري. برغم ما لدينا من الكفاءات العسكرية التى اكتسبت خبرات ضخمة وتلقت تدريبات متخصصة بطريقة علمية، إلا أنها لم تكن فى مواقع المسئولية^٥.

(٢٧)

أما أحداث الحرب نفسها فتحظى بكثير من الأضواء الكاشفة يلقيها محمود رياض عليها وهو يسود ما وقع فى الحرب بتدريب تاريخى دقيق يروى فيه ما حدث بالتفصيل وبدقة شديدة، ولنقرأ له هذا الوصف الذى يصف به وقوع الواقعة:

«استيقظت فى صباح الخامس من يونيو على صوت انفجارات شديدة وكانت الأصوات تأتى من شرق وغرب القاهرة، فأدركت أن إسرائيل قد بدأت هجومها».

«فأسرعت إلى مكتبى بوزارة الخارجية لكي أتابع الموقف منه. وبعد قليل تلقت الصدمة الأولى. فقد اتصل بى جمال عبدالناصر تليفونياً ليخطرني بأن المطارات العسكرية المصرية قد ضربت جميعها، وأن سلاح الطيران المصري قد أصيب بالشلل^٥.

«كانت هذه بالطبع خسارة فادحة، ولكنها ما كان يجدر أبداً أن تؤدي إلى ذلك الانهيار لو توفر التخطيط العسكرى الجيد. ولكن الذى حدث هو أن القيادة قد بدأت تذيع بلاغات عن إسقاط عشرات الطائرات الإسرائيلية. وقد اتضح فيما بعد أن الطائرات الإسرائيلية كانت تتخلص من خزانات الوقود الاحتياطية بها فكانت البلاغات ترد إلى القيادة بأنها طائرات إسرائيلية تساقط^٦.

«وعندما أذاعت القيادة العسكرية أن دفاعنا الجوى أسقط ٨٦ طائرة، وبحكم خبرتى السابقة فى الدفاع الجوى، فإنى كنت أستطيع أن أجزم على الفور باستحالة إسقاط هذا العدد الكبير من الطائرات بوسائل الدفاع الجوى المتوافرة لدينا^٦.

هكذا بدأ محمود رياض - على نحو ما يرويه لنا - يستشف المأساة من البيانات العسكرية التى بالغت فى الحديث عن نصر مزعوم، ولكنه للأسف الشديد لا يصارح رثيه بهذا ولا يصارح المسئولين الكبار وإنما هو يحاول الاتصال بعيد الحكيم عامر وكأنه سيظمن إلى ما لا يظمن له عقله وخبرته، ومع هذا فإنه فى محاولته للاتصال كما سنرى - يرى الاضطراب ولكنه لم ير الهزيمة بعد، ولنقرأ ما يعقب به مباشرة ويقول:

«ولقد حاولت في ذلك اليوم أن أتصل بالمشير عبدالحكيم عامر فلم أفلح في ذلك مرات عديدة. ولمست حالة من الاضطراب غير العادي في القيادة. ولم أجد مستولاً يمكنه أن يزودني بأية تفاصيل حقيقية الموقف. وعندما نجحت أخيراً في الاتصال بأحد أفراد القيادة طلبت منه أن يعين ضابط اتصال لتزويد وزارة الخارجية بالمعلومات حتى يمكن التحرك سياسياً على ضوء الواقع العسكري، لكن هذا الطلب لم ينفذ لعدم وجود من ينفذه!».

وعند هذا الحد فقط يبدأ رياض في الانتباه :

«وقد شعرت بأننا مقبلون على كارثة، بخاصة أن مبادرة إسرائيل بالهجوم ضدنا، وبالذات الضربة الجوية، لم تكن مفاجئة للقيادة العسكرية».



ولا تصف صورة ما حدث في ٥ يونيو ١٩٦٧ عند هذا الحد، ولكن صاحب هذه المذكرات يحاول بإخلاص شديد رسم كل جوانب الصورة التي أتيح له أن يعرفها في ذلك اليوم وهو يروي في مذكراته الواقعة المهمة التي رواها الفريق صلاح الحديدي في كتابه «شاهد على حرب ١٩٦٧»: من أن الهجوم الإسرائيلي البري قد بدأ بالفعل قبل الهجوم الجوي، ويعلق على هذا بقوله:

«فقد هاجمت قوة إسرائيلية موقعا مصريا في «أم بسيس» بمنطقة الحدود، وكان ذلك قبل الضربة الجوية بأكثر من ساعة. الأمر الذي كان ينذر بقيام إسرائيل بهجومها الواسع، كما أن إشارة لاسلكية قد وصلت من عجلون في الأردن، عن طريق الفريق عبدالمنعم رياض هناك، وتشير إلى أن الرادار الأردني قد اكتشف قيام عدد كبير من الطائرات الحربية الإسرائيلية من مطاراتها متجهة نحو مصر. ولكن رموز الشفرة كانت قد تغيرت في ذلك اليوم مما أدى إلى عدم معرفة محتوى البرقية في الوقت المناسب».

«ولقد كان هناك إذن منسع من الوقت أمام سلاح الطيران المصري لمواجهة الطائرات الإسرائيلية في الجو ومنعها من تحقيق أهدافها لو أن هذه المعلومات قد وصلت في الوقت المناسب لقيادة على مستوى متوسط من الكفاءة».

ويواصل محمود رياض ضرب أمثلة على حالة الارتباك التي أصابت قيادة قوائنا المسلحة ويبدو وكأنه حريص على إلقاء التبعة على القيادة ليسبرئ القيادة السياسية من

ناحية وليرى رؤيته هو لقدرة قواتنا المسلحة حسبما صرح بها لعبد الناصر قبل الحرب،
وصرح هو بها لنا فى هذه المذكرات :

«ولقد ظل الارتباك فادحاً طوال اليوم إلى درجة أنه كانت هناك ست طائرات مصرية
من قاذفات القنابل طراز (تى يو) فى الجو، وبدلاً من إرسالها إلى السودان صدرت
التعليمات بنزولها فى مطار الأقصر، وبعد قليل دمرنها الطائرات الإسرائيلية ومعها
ثمانى طائرات نقل من طراز (أنتينوف)».

(٢٨)

أما عما حدث بعد الحرب وما انتهت إليه من هزيمة فإن محمود رياض يلخص
موقف عبدالناصر بعد المعركة فى أكثر من موضع لعل أبرزها قوله الذى يورده على
لسان عبدالناصر نفسه :

«... أنا فى يوم ١١ يونيو عندما عدلت عن قرار التحدى كنت فى حالة سيئة جداً
إلى درجة أننى أرسلت عائلتى خارج القاهرة ووضعت مدسى إلى جانبى لاستخدامه
فى آخر لحظة. يومها سألت عن عدد الدبابات المتبقية فى القاهرة، فقالوا لى لم يبق إلا
سبع دبابات. وبالرغم من ذلك بدأت مع القيادة العسكرية السير فى الطريق الصعب.
طريق إعادة بناء قواتنا المسلحة من جديد. كنت أتحدث مع الفريق فوزى كل ليلة قبل أن
أذهب للنوم، ثم أطلبه فى الساعة السادسة صباحاً لأراجع معه موقف القوات وموقف
القيادات واسم القائد المستول فى كل موقع، ولو لم أجد إلى هذا الأسلوب لكانت الأمور
فلتت...».

وقبل هذا كله فإن محمود رياض كان قد تحدث مع الرئيس عبدالناصر فى مناقشات
يلخصها لنا فى قوله :

«وفى صباح اليوم التالى، ٦ يونيو، اتصل بى جمال عبدالناصر فى المنزل، وكنت قد
أمضيت الليل بطوله مستيقظاً أفكر فى عواقب العدوان. ومرة أخرى أبلغنى عبدالناصر
بأن سلاح الطيران المصرى قد أصيب بالشلل الكامل، وأنه لم يعد لديه شئ فى نواطه
الولايات المتحدة مع إسرائيل فى هذا العدوان، وأنه قرر قطع العلاقات الدبلوماسية
معه».

«تناقشت عبدالناصر في هذا القرار على أساس أنه لا يفيدنا بالرغم من قناعتي الشخصية بالتواطؤ الأمريكي - الإسرائيلي»^١.

«ولكن جمال عبدالناصر كان له رأى آخر. فقد قال:

«يجب أن نحس الولايات المتحدة بأنها ستدفع ثمن هذا التواطؤ من تعبئة العالم العربى ضدها. وبالتالي فقطع العلاقات مع أمريكا ضرورى»^٢.

«وقلت لجمال عبدالناصر: ولكن مع التسليم بهذا، فإننا محتاجون إلى التعامل سياسياً مع الولايات المتحدة في الأيام القادمة»^٣.

«رد عبدالناصر: أبدأ، إن وجود التواطؤ الأمريكى، وبهذا المستوى مع إسرائيل معناه أن لدى أمريكا ما تريد أن تفرضه علينا في الفترة القادمة ثمناً للإسحاب الإسرائيلي، والمشكلة هنا أن هذا التواطؤ الأمريكى مع إسرائيل بدلاً من أن يدفعنا إلى تقليل التعامل مع الاتحاد السوفيتى فإنه سوف يدفعنا إلى العكس تماماً. إن أمريكا لم تترك أمامنا أى اختيار في هذا المجال. ولقد عرفوا، أمريكا وإسرائيل، كيف يوقعوا بنا أخيراً، ولكنى لن أمتسليم أبداً لهم. وأضاف إنه تلقى معلومات من القيادة العسكرية بأشترك طائرات أمريكية وبريطانية في الهجوم»^٤.

«فتوجهت إلى مكتبى، واستدعيت السفير الأمريكى ريتشارد نولتى لأبلغه بقرار قطع العلاقات بين مصر والولايات المتحدة، وكنت قد أرسلته قبلها بلحظات إلى كافة رؤساء الدول العربية»^٥.

«ولقد كان السفير متفهماً للموقف، ونصح بابقاء الباب مفتوحاً مع الولايات المتحدة، بل أن يسافر السيد زكريا محيى الدين إلى واشنطن كما كان مقرراً برغم الحرب، ثم أكد من جانبه عدم اشتراك طائرات أمريكية أو بريطانية في القتال، وقد تبين فيما بعد صحة تأكيدات»^٦.

«وردت على السفير بأن المشكلة ليست في سفر السيد زكريا محيى الدين ولا هي حتى في اشتراك الطائرات الأمريكية أو البريطانية، إنما المشكلة تكمن أساساً في حصول الولايات المتحدة على تعهد من مصر بعدم بدء القتال، وفي تأكيدها لمصر أن إسرائيل من جانبها لن تبدأ الحرب وضمانها المسبق، في الرسالة الرسمية من الرئيس جونسون، بأن أمريكا سوف تقف بحزم ضد الطرف الذى يبدأ بالحرب. وها هي إسرائيل قد بدأت الحرب واعتدت علينا، ثم ها هو راسك يعلن بأنه لا يعرف على وجه التأكيد من الذى بدأ الحرب، وهي بداية تندر بأسوأ النتائج للموقف الأمريكى في الأيام القادمة»^٧.

«وسألتني السفير عما إذا كان هناك الآن ما يمكن عمله».

«قلت له: نحن لا نطلب أكثر مما جاء في رسالة جونسون نفسها منذ بضعة أيام بأن يطلب من إسرائيل، وهي الدولة العنيدة، العودة إلى مواقعها السابقة مع استعدادنا بعد ذلك لبحث قضية فلسطين بالكامل».

«ولقد كان السفير الأمريكي ريتشارد تولشي واحداً من مئات الأمريكيين الشرفاء الذين قابلتهم طوال عملي كوزير للخارجية وأظهروا قناعة كاملة بعدالة موقفنا، ولكنهم كانوا عاجزين عن أن يؤثروا في الأحداث التي كانت تحركها المصالح الشخصية وجماعات الضغط الصهيونية في واشنطن».

(٢٩)

ويحظى التضامن العربي بقدر كبير من التمجيد والاهتمام والاحتراف في مذكرات محمود رياض، وليس هذا بسبب توليه منصب الأمين العام للجامعة العربية فحسب، ولكن ينبغي لنا ألا ننسى علاقته العربية القديمة، وأنه كان - نيرنا في سوريا منذ ١٩٥٥ - وهو السفير الذي قامت الوحدة وهو سفير! وسوف نختار لنقارئ بعض الفقرات الكفيلة بتصور مدى تغلغل الشعور القومي في عقلية ونفسية هذا الرجل، فها هو يحكي لنا (صفحة ٢١) عن صدى عدوان ١٩٥٦ على الحكومة السورية والشعب السوري، وكيف دعى وهو سفير لحضور جلسة مجلس الوزراء السوري:

«ولذلك كان عدوان القوات الإسرائيلية على مصر يوم ٢٩ أكتوبر مفاجأة، سواء في القاهرة أو دمشق، وعندما بدأ الغزو البريطاني - الفرنسي في اليوم التالي اجتاحت العالم العربي موجة من الغضب الشديد ضد بريطانيا وفرنسا، خاصة بعد أن تبين تواطؤهما مع إسرائيل».

«وعرضت سوريا والأردن معاوتهما العسكرية لمصر بالهجوم على إسرائيل لتخفيف الضغط عليها، إلا أن الرئيس عبدالناصر طلب عدم اشتراكهما في المعركة حتى لا يتعرضا للعدوان البريطاني - الفرنسي».

«وقد حضرت جلسة صاحبة لمجلس الوزراء السوري بطلب من رئيس الجمهورية

شكرى القوتلى لإقناع الوزراء بأن مصر هى التى تلج فى عدم خوض سوريا المعركة، وكان عسدد من الوزراء يصمر على دخول المعركة بجانب مصر مهما كانت النتائج، ويرددون أنه لا يحق أن يسجل التاريخ أن مصر كانت تضرب والشعب السورى ساكن لا يتحرك^٩.

^{١٠} وزارنى فى اليوم التالى عدد من قادة الجيش وكان من بينهم عبد الحميد الرأج رئيس شعبة المخابرات وانفقنا على نسف أنابيب البترول التى تم فى سوريا وتلكهما الشركة البريطانية، وكانت هذه أول مرة استخدم فيها سلاح البترول فى المعركة^{١١}.

أما تفاصيل التضامن العربى فى لحظات الأزمات الكثيرة التى مرت بها مصر وفلسطين، فيأتى الحديث عنها كثيراً جداً على مدى صفحات هذا الكتاب وهذه بعض أمثلة :

١ - فى صفحة ٤٤٠ - على سبيل المثال - يتحدث محمود رياض عن بعض تفاصيل هذا التضامن فى أثناء حرب أكتوبر فيقول:

«... ولم يقتصر الأمر على استخدام البترول كسلاح فى مجال التضامن العربى، وإنما سارعت الدول المنتجة للبترول بتقديم مساعدات مالية ضخمة لدول المواجهة، كما أرسلت الدول العربية بعض قواتها على وجه السرعة إلى ساحة القتال^{١٢}.

^{١٣} فعلى سبيل المثال، وصل الجبهة المصرية ثلاثة أسراب ميج وسوخوى من الجزائر، وسربا ميراج من ليبيا، وسربا هوكر هنتز من العراق، ولواء مدرع جزائرى، ولواء مدرع لىبى، ولواء مشاة مغربى، ولواء مشاة سودانى، وكتيبة مشاة كويتية، وكتيبة مشاة تونسية^{١٤}.

^{١٥} ووصل إلى الجبهة السورية أربعة أسراب ميج ٢١ و١٧ عراقية، وفرقة مدرعة عراقية، وفرقة مشاة عراقية، ولواء مدرع أردنى، ولواء مدرع مغربى^{١٦}.

^{١٧} إلا أن عدداً كبيراً من هذه الوحدات لم تشارك فى المعركة بسبب وصولها بعد وقف إطلاق النار^{١٨}.

^{١٩} كما أن الرئيس بومدين سافر يوم ١٤ أكتوبر إلى موسكو حيث دفع مائتى مليون دولار ثمناً لدبابات طلب بومدين توريدها على الفور إلى كل من مصر وسوريا^{٢٠}.

٢ - كما يتناول صاحب هذه المذكرات فى ص ٥٧٩ تفصيل توزيع الدعم بعد مؤتمر بغداد الذى عقدته جبهة الصمود والرفض وعلقت فيه عضوية مصر:

والالتزاماً بالموقف العربى الموحد قرر المؤتمر دعم سوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية مالياً لمدة عشر سنوات بمساعدات تبلغ ٣٥٠٠ مليون دولار، وقد خص سوريا منها ١٨٥٠ مليون دولار، والأردن ١٢٥٠ مليوناً، ومنظمة التحرير ٢٥٠ مليوناً، بالإضافة إلى تخصيص ١٥٠ مليون دولار لدعم صمود الشعب الفلسطينى داخل الأراضى المحتلة. وقد تحملت السعودية وحدها ألف مليون دولار ندفعها سنوياً، والعراق ٥٢٠ مليوناً، وليبيا ٥٥٠ مليوناً، والكويت ٥٥٠ مليوناً، ودولة الإمارات ٤٠٠ مليون، والجزائر ٢٥٠ مليوناً، وقطر ٢٣٠ مليوناً من الدولارات. وكان الهدف من هذا العون الكبير لدول الجبهة الشرقية ومنظمة التحرير هو محاولة تصحيح الخلل الذى أصاب توازن القوى بخروج مصر من المواجهة مع إسرائيل.

٣- وكان محمود رياض قد تناول من قبل (فى صفحة ١٢٠) تفصيلات توزيع المعونة فى أعقاب حرب ٥ يونيو ١٩٦٧:

١. وفى الجلسة الرسمية للمؤتمر اتصلت بأعضاء الوفد السعودى والامير سلطان وعمر السقااف وزير الدولة للشئون الخارجية، وذكرت أن المبلغ الذى تحتاجه مصر هو ١٢٠ مليون جنيه استرلىنى لتعويض ما خسرت من القناة والبترو، واقترحت أن تحدد السعودية المبلغ الذى ترى دفعه حتى يمكن مطالبة بقية الدول العربية المنتجة للبترول بدفع نفس النسبة. ولم أكن أنوقع أن تدفع السعودية أكثر من ثلاثين مليون جنيه، وهو مبلغ يمكن معه أن نستكمل احتياجائنا من بقية الدول.

«واتصل بى عمر السقااف وذكر أنه قد أبلغ الملك فيصل. ولكن الملك فيصل رفض أن يفصح عن رأيه قبل الجلسة الرسمية، كما أنه يعارض فى أن يكون الدفع على أساس نسبة مئوية من الموارد البترولية، كما أنه يرفض من حيث المبدأ أن يدفع أى مبلغ للحكومة السورية فى ذلك الوقت بسبب هجومها المستمر عليه».

«ولذلك فلقد كانت المفاجأة كاملة فى الجلسة الرسمية للمؤتمر عندما أثير موضوع الدعم وأنصبة الدول البترولية، فرفع الملك فيصل يده مشيراً بأصابعه الخمسة، محدداً أن السعودية ستساهم بخمسين مليون جنيه استرلىنى من إجمالى المبلغ المطلوب وهو ١٣٥ مليون جنيه استرلىنى، وقرر الأمير صباح السالم الصباح أن تدفع الكويت ٥٥ مليون جنيه، وقررت ليبيا أن تدفع الثلاثين مليوناً الباقية».

«وفي الاجتماع الفرعي الذي عقد بعد ذلك بين ممثلي الوفود، طلب وزير الاقتصاد الأردني أن تحصل الأردن على ٤٠ مليون جنيه، لأنه يرى أن الـ ١٥ مليوناً المقترحة للأردن لن تكون كافية للموفا باحتياجاتها».

«فأبلغت الأمر إلى الرئيس عبدالناصر واقترحت عليه أن ترفع نصيب الأردن من ١٥ إلى ٢٠ أو ٢٥ مليون جنيه، فاعترض قائلاً: دع الأردن تحصل على كل ما تطلبه، فلقد كان الملك حسين شجاعاً وشريفاً معنا، وليكن هذا خصماً من نصيب مصر. وفعلاً حصلت الأردن على ٤٠ مليوناً ومصر على ٩٥ مليوناً».

(٣٠)

ونحن نجد صاحب هذه المذكرات على عكس المتوقع يأخذ مواقف مقدرة بل بمننة تجاه سياسات الملك حسين ملك الأردن، وهو حريص على إثبات هذه المواقف والآراء في أكثر من موضع :

(١) فعلى سبيل المثال فإنه (في صفحة ٩٦) يشيد بالملك حين وبموقفه في أعقاب هزيمة ٦٧ ويقول:

«في تلك الفترة، كان الموقف الذي تأثر به عبدالناصر فعلاً هو موقف الملك حين ملك الأردن، فقد دخل الحرب تضامناً مع مصر مما كلفه فقدان الضفة الغربية بعد أن واجه إسرائيل بقواته المحدودة وبدون أي غطاء جوي. ولقد كتب عبدالناصر خطاباً إلى الملك حسين في ٢٢ يونيو يذكر فيه «أن مصر على استعداد لأن تربط أقدارها ربطاً كاملاً ونهائياً بقضية شعب الأردن البطل تحت قيادتك الوطنية التي أثبتت إخلاصها لشعبها في أكثر الظروف صعوبة وخطراً. وإتنا على استعداد لأن نضع كل ما نملك في خدمة المصير المشترك لشعبينا». ولقد كان عبدالناصر صادقاً للغاية في كلماته تلك. وظل متأثراً بموقف الملك حين أثناء الحرب ولم ينس ذلك أبداً إلى أن توفاه الله».

«وقبل أن يسافر الملك حسين إلى نيويورك للإلقاء خطاب أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، قضى ليلة في القاهرة للشاور مع عبدالناصر وقال له عبدالناصر في ذلك اللقاء: «إن مصر سوف تقسم الرغبة مع الأردن نصحين، نصف لكم ونصف لنا». ونحن من

جانبنا لن نخرج من هذه الأزمة إلا معاً، لأننا دخلناها معاً، وخسرتها معاً، ويجب أن نكسبها أيضاً معاً».

٢ - وعلى عكس المتاح في الأدبيات السياسية المعاصرة، يسجل صاحب هذه المذكرات (في صفحة ٤١٥) ثناءً بالفاء على موقف الملك حسين في حرب ١٩٧٣ ويقول:

«وعندئذ رأيت أن أطلب من الملك حسين طلباً محدداً، فذكرت له أنني لا أعرف على وجه التحديد متى تبدأ المعركة، ولكن على أي حال ففي لحظة يدها سيصبح جنوب الجبهة السورية معرضاً للتطويق من جانب القوات الإسرائيلية، وقد تفعل إسرائيل ذلك عبر الأراضي الأردنية، فهل يمكن أن تقوم القوات الأردنية بتوزيع نفسها بطريقة تحول دون تهديد القوات الإسرائيلية للجبهة السورية من الجنوب؟».

«وكان رد الملك حسين بأن ما أطلبه منه هو واجب عليه في جميع الأحوال، وسواء كان هناك تنسيق مسبق أو لم يكن، ولذلك فإن قوائه سوف تحول بالطبع دون أي تهديد إسرائيلي للجبهة السورية عبر الأراضي الأردنية».

«والواقع أنه عندما قامت الحرب فيما بعد، في السادس من أكتوبر، فإن الملك حسين أوفى بتعهدده، بل بادر إلى إرسال قوات أردنية مقاتلة إلى سوريا على وجه السرعة. وقد أخبرني الملك حسين فيما بعد أنه كان قد قرر عندما بدأت الحرب في السادس من أكتوبر أن يتحرك الجيش الأردني لتحرير الضفة الغربية في اللحظة التي يصل فيها الجيش المصري إلى المضائق وتحرير سوريا للجولان».

٣ - ويسجل صاحب هذه المذكرات (في صفحة ٥١٢) موقفاً مشرفاً للغاية للملك حسين من قرارات مؤتمر الرباط فيما يتعلق بالتمثيل الفلسطيني حيث يقول:

«... وفي الاجتماع علق الملك حسين على قرار قمة الرباط المتعلق بالتمثيل الفلسطيني فقال: إنه مستريح للقرار بعد أن وضع المسؤولية بكاملها على عاتق منظمة التحرير باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، إلا أنه متعب قومياً لقتاعته بأن ذلك القرار لم يكن في صالح القضية الفلسطينية، وأضاف إنه في ظل هذا القرار (أصبح) يتمتع بعلاقات طيبة مع الجميع».

«وعندما أشرت إلى متاعب المقاومة الفلسطينية في لبنان، وأنها كانت تأمل في انسحاب إسرائيل لمسافة عشرة كيلومترات في الضفة الغربية كمرحلة أولى، تدخل زيد الرفاعي رئيس الوزراء قائلاً: إن الأردن قد حاولت ذلك فعلاً في البداية مع كيبستجر، ولكن إسماعيل فهمي وزير الخارجية المصري نصح كيبستجر بالألا يسمى لإجراء فض اشتباك بين الأردن وإسرائيل، لتصوره أن فض الاشتباك يمكن أن يتم مع منظمة التحرير الفلسطينية».

«وكان رأيي حول هذا الموضوع أن إسرائيل لن تنسحب لأية مسافة مهما كانت محدودة في الضفة الغربية - بصرف النظر عن الجهة العربية التي ستوقع معها على مثل هذا الاتفاق - لتعارضه مع خطتها بالسيطرة على فلسطين بكاملها».

٤ - وبعد أكثر من خمسين صفحة يشيد محمود رياض بالملك حسين للمرة الرابعة (في صفحة ٥٧٥) ويقول:

«والواقع أنه أثناء مقابلاتي المتعددة مع الملك حسين كانت آراؤنا متقاربة بالنسبة لبناء القوة العربية. لذلك كنت أتح خلال اتصالاتي بالملك والرؤساء في بغداد بالأخذ بالخطوة التي يعرضها الملك حسين لما تشله من موقف إيجابي ولما فيها من واقعية».

(٣١)

ويحظى الملك فيصل بن عبدالعزيز على الدوام بإعجاب وتقدير وامتنان محمود رياض سواء وهو وزير للخارجية المصرية أو وهو أمين عام للجامعة العربية .

١ - ونحن نرى صاحب هذه المذكرات يعبر (صفحة ٥٠٨) عن أسفه الشديد حين سمع خبر وفاته.

«وكان الملك فيصل يتحدث بشقة عن المستقبل، ودوره فيه، ولكن القدر لم يتح له مواصلة هذا الدور المهم، فقد تلقت أسوأ مفاجأة عندما كان مجلس الجامعة العربية مجتمعاً في ٢٥ مارس. ودخل أحد المساعدين وهو مضطرب ليهمس في أذني بخبر إطلاق الرصاص على الملك فيصل في قصره بالرياض. وكان موت الملك فيصل في هذا الوقت الحرج يمثل خسارة ضخمة وحقيقية للقضية العربية، مما أدى إلى انتشار الشائعات بأن هناك أيدي أجنبية وراء اغتياله»

٢ - كما أنه يذكر بكل وضوح أن الرئيس السادات فيما بعد حرب أكتوبر كان يعتمد على زعيمين عربيين هما الملك فيصل والرئيس هواري بومدين، وقد صرح بذلك لمحمود رياض أكثر من مرة.

٣ - كذلك يروي محمود رياض بكل اعتزاز وامتنان موقف الملك فيصل في مؤتمر الخرطوم عام ١٩٦٧، وكذلك موقفه في مؤتمر القمة العربي بالقاهرة في ١٩٧٠ قبيل وفاة عبدالناصر، وذلك على الرغم من معاناته من بعض الأنظمة، ونحن ننقل عن محمود رياض ما يرويّه:

«مع ذلك فلم يأس عبدالناصر من معالجة الموقف، وظل يكتف مشاوراته مع الملوك والرؤساء العرب، وأثناء ذلك أعلن محمد داود رئيس الحكومة العسكرية الأردنية الجديدة استقالته من منصبه وهو في القاهرة، وكان قد جاء إليها موفداً من الملك حسين إلى مؤتمر القمة العربي».

«ولقد ظهر داخل مؤتمر القمة اتجاه يطالب بإرسال قوات مسلحة عربية من ليبيا والعراق وسوريا للدفاع عن المقاومة الفلسطينية ضد هجوم الجيش الأردني، وكان يمثل هذا الاتجاه الرئيس الليبي معمر القذافي، ولكن الرئيس جمال عبدالناصر اعترض على ذلك قائلاً: إن مهمتنا هنا هي وقف القتال وليس توسيعه، وواجب الدول العربية في هذه اللحظة هو إنقاذ المقاومة الفلسطينية لأن الجيش الأردني متفوق عليها عسكرياً بشكل حاسم. وتحدث الملك فيصل مؤيداً هذا الرأي».

«أقنع عبدالناصر المجتمعين بضرورة استمرار الحوار مع الملك حسين وليس مقاطعته، ومن هنا وافق المجتمعون على إرسال وفد باسمهم مرة أخرى إلى عمان».

«وهكذا سافر الرئيس السوداني جعفر نميري مرة أخرى إلى الأردن يوم ٢٤ سبتمبر على رأس وفد يضم حسين الشافعي، ورشاد فرعون، وسعد عبدالله الصباح، والباهي أدغم، ممثلين لدولهم، والفريق محمد أحمد صادق».

«وفي اليوم التالي عاد الوفد إلى القاهرة بعد أن حقق وقفاً للقتال لم يستمر سوى ساعات قليلة، وعاد مع الوفد السيد ياسر عرفات، وشرح الرئيس ثيري للمجتمعين الموقف الخطير في الأردن والهجمات الساحقة التي يتعرض لها الفلسطينيون هناك».

«في هذا اليوم ارتفعت حرارة المناقشات داخل المؤتمر، وطالب الرئيس الليبي الرؤساء والملوك المجتمعين بأن يعلنوا فوراً مقاطعة عربية شاملة للملك حسين، ولكن الرئيس رد قائلاً:

«ربما يكون سهلاً الآن مقاطعة الملك حسين، ولكن هذا يعنى أن يذهب فى قتاله مع المقاومة إلى آخر المدى، فضلاً عن احتمال انتهاز إسرائيل لهذه الفرصة للتدخل العسكرى المباشر، وعلينا الآن أن نرسل بريقة للملك حسين، نبلغه بأننا نرفض الاستمرار فى قتال المقاومة وأن عليه أن يوقف القتال فوراً».

وعندما وصلت البرقية إلى الملك حسين بادر الملك إلى الاتصال بالرئيس عبدالناصر وأبدى استعداداه للحضور إلى القاهرة لتوضيح موقفه أمام الملوك والرؤساء المجتمعين، لكن عبدالناصر أجل الرد عليه إلى أن يهيمى المناخ المناسب لهذا اللقاء، فقد كان هناك انجاء قوى يرفض الاجتماع بالملك حسين».

«واستمرت المناقشات لأكثر من أربع ساعات، طالب عبدالناصر خلالها بدعوة الملك حسين بالحضور، مشيراً إلى ساعته قائلاً: يجب أن نتذكر أنه فى كل دقيقة تمر هناك عشرات من الفلسطينيين يسقطون قتلى، وهدفنا الآن قبل أى شىء آخر، هو إيقاف تلك المذبحة».

«وعندما نجح عبدالناصر أخيراً فى إقناع المجتمعين بدعوة الملك حسين كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، بحيث بدا الإرهاق كاملاً على وجه عبدالناصر، ومع ذلك فإنه لم ينس تلك الليلة إلا بعد أن أرسل يدعو الملك حسين إلى القاهرة، وبعد أن قرأ آخر برقيات السفارة المصرية فى عمان».

«لم ينس عبدالناصر أكثر من ساعتين أو ثلاث فى تلك الليلة، وعندما استيقظ فى السادسة صباحاً كان أول ما طلبه هو ملف برقيات السفارة المصرية فى عمان وبرقيات وكالات الأنباء خلال الساعات الثلاث السابقة. ولم يكن عبدالناصر قد ذهب إلى منزله منذ أن بدأ المؤتمر، وظل مقيماً فى فندق «هيلتون» مقر المؤتمر بغير أن تتوقف مشاوراته مع الرؤساء والملوك الموجودين ساعة واحدة».

«وفى الحادية عشرة صباحاً وصل الملك حسين إلى القاهرة حيث كان عبدالناصر فى استقباله».

«وعلى الفور اجتمع الملوك والرؤساء، بحضور كل من الملك حسين وياسر عرفات. وبالطبع نستطيع أن نتخيل مدى عنف الكلمات التى تم تبادلها والانتهاكات المضادة، بحيث إن كلاً من الملك فيصل والرئيس عبدالناصر بذلا جهداً ضخماً لتهدئة المناقشات الساخنة والأعصاب المتوترة».

أما دولة الكويت وحكامها فتحظى بتقدير صاحب هذه المذكرات في أكثر من موضع.

١ - فهو (في صفحة ٨٨) - على سبيل المثال - يشير إلى موقف حكامها المشرف عقب حرب ١٩٦٧ مباشرة :

«وتساءل بودجورني: ما هو موقف البترول العربي؟».

«رد عبدالناصر: مازالت بعض الدول العربية تسلم بترولها إلى الأمريكيين بشكل غير مباشر وتعلن عكس ذلك».

«وهنا تدخلت في المناقشة قائلاً: ولكن الكويت أوقفت فعلاً ضخ البترول إلى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا، وهي تخسر في ذلك حوالي مائة وثمانين مليون جنيه سنوياً».

٢ - وبعد صفحات ثمان يشير صاحب هذه المذكرات (في صفحة ٩٦) إلى دعوة الكويت لاجتماع وزراء الخارجية العرب للاجتماع عقب حرب ١٩٦٧ وما أعلنه وزير خارجيتها في هذا الاجتماع من تصميم حكومته على قرارها بقطع البترول:

«في تلك الفترة دعت الكويت إلى عقد اجتماع لوزراء الخارجية العرب لبحث الموقف، وعندما وصلتها لحضور الاجتماع بعد ظهر يوم ١٨ يونيو كان هدفه الأساسي هو تقوية التضامن العربي باعتباره أقوى سلاح نواجه به العدوان الإسرائيلي، واستقر الرأي على استئناف اجتماع وزراء الخارجية العرب في نيويورك أثناء انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الخاصة، وأعلن الشيخ صباح الأحمد وزير الخارجية الكويتي أن الدول العربية المنتجة للبترول ثابتة على قرارها بقطع البترول».

٣ - وفي موضع ثالث (صفحة ١٦٨) يشير محمود رياض إلى التعاون المتنامي بين قادة الكويت، وأن موقف الكويت كان أكثر إيجابية من أي موقف آخر، وهو يوحى لنا بهذا المعنى من خلال استعراضه للمواقف المختلفة التي قابلها فيقول:

«وفي تلك الجولة العربية الأولى لمست أن الخلافات العربية تشكل عبة أمام تحقيق ما نسعى إليه من إقامة جبهة شرقية. فكان لدى سوريا تحفظات عديدة حول سياسة الملك

حسين، كما أن سوريا كانت تشكو من أن العراق لم يرسل قوات عسكرية إلى الجبهة السورية، في الوقت الذي لمست فيه شكوى في بغداد من أن هناك نشاطاً سورياً معادياً للنظام في العراق».

«أما في الكويت فقد لمست استعداداً قوياً لدى الشيخ جابر الصباح ولى العهد والشيخ سعد وزير الدفاع لإنشاء قوة جوية كويتية نشترك في أي جبهة تحدد لها».

«وفي المملكة العربية السعودية قال لى الملك فيصل إنه مستعد لتقديم كل ما يطلب منه استعداداً للمعركة، وفضلاً عن ذلك، فقد كان الملك يعمل على تقوية العلاقات مع مصر».

٤ - وفي موضع رابع (صفحة ٤٣٨) يعبر محمود رياض بامتنان واضح عن شعوره بالامتنان تجاه سلوك زعماء الكويت أثناء حرب ١٩٧٣ :

«... ولقد غثل الوعي العربى والتضامن أثناء المعركة عندما اجتمع وزراء البترول العرب في الكويت في نفس اليوم الذي اجتمع فيه وزراء الخارجية العرب الأربعة مع نيكسون وأصدروا قراراً بخفض إنتاج البترول بمقدار خمسة في المائة شهرياً، وذلك إلى أن يتم انسحاب إسرائيل من كافة الأراضي العربية المحتلة».

(٣٣)

ويبدو من حديث هذه المذكرات عن موقف صاحبها في مؤتمر القمة العربى الذى انعقد في بغداد في ١٩٧٩ أن موقفه شبه محايد، فقد أثر ألا يحضر حين وجهت العراق الدعوة من تلقاء نفسها ويبدأ عن الجامعة العربية، ثم اضطر إلى الحضور، ثم اضطر إلى الاستقالة، وهو يلقى بعض الضوء (في صفحة ٥٧٦) على محاولة التوفيق بين المؤتمر والرئيس السادات فيقول:

«وقد اقترح الرئيس العراقى أحمد حسن البكر أن يكون الوفد برئاسة الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات، ولكن الشيخ زايد اعتذر عن عدم رئاسة الوفد. فاستقر الأمر على أن يكون الوفد برئاسة سليم الحص، رئيس وزراء لبنان، وعضوية كل من أحمد خليفة

السويدي وزير خارجية دولة الإمارات، وطارق عزيز عضو مجلس الثورة العراقي، وأحمد إسكندر وزير الإعلام السوري.^١

«ولقد تقرر سفر الوفد على الفور، حيث كانت بعض الدول الأعضاء تأمل في أن تؤدي استجابة الرئيس السادات لهذه المحاولة إلى عدم اتخاذ الإجراءات المقترحة لتجميد العلاقات مع مصر».

«وقد عاد الوفد من القاهرة لكي يقدم تقريره إلى مؤتمر القمة في جلسته الخامسة صباح الخامس من نوفمبر، حيث قال السيد سليم الحص رئيس وزراء لبنان ورئيس الوفد في بداية الجلسة: لقد انتقل الوفد المكلف من قبل مؤتمر القمة إلى القاهرة لتسليم الرسالة التي حملها من قبل المؤتمر إلى الرئيس السادات بعد ظهر أمس، وكان الرئيس عند وصولنا بلقي خطباً أمام مجلس الشعب بمناسبة افتتاح دورته العادية، فكان علينا أن نتنظر انتهاء الرئيس السادات من إلقاء خطابه في أحد الفنادق. وبعدها مباشرة جاءنا وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء السيد سليمان متولى موفداً من قبل الرئيس السادات ليبلغنا رسالة شفوية من الرئيس السادات من ثلاث نقاط، فقال: «إن الرئيس السادات لم يبلغ برحلتنا وبمهمتنا رسمياً وقد سمعنا من وكالات الأنباء ولم يكن له فرصة لإبداء الرأي بشأنها. والنقطة الثانية هي أن الرئيس السادات سبق له أن بعث برسائل شخصية إلى الملوك والرؤساء العرب يشرح فيها الوضع بالنسبة لاتفاقيتي كامب ديفيد، ولم يتلق جواب أي من هذه الرسائل من أي من الملوك والرؤساء العرب. والنقطة الثالثة هي أن الرئيس السادات على استعداد للقاء أي رئيس أو أي من الملوك العرب في القاهرة لمناقشته في هذا الموضوع».

«وكان المؤتمر في بغداد قد علم برفض الرئيس السادات الاجتماع مع الوفد من وكالات الأنباء. وقبل عودة الوفد إلى بغداد فقد أعلن الرئيس السادات في خطابه بمجلس الشعب في القاهرة أنه قد علم من وكالات الأنباء أن اجتماع بغداد قرر إيقاف وفد للاجتماع به دون اتفاق مسبق، وأعلن رفضه لمقابلة الوفد وهاجم اجتماع الملوك والرؤساء العرب».

«وقد أدى رد الفعل هذا من جانب الرئيس السادات إلى زوال بصيص الأمل الذي كان يراود البعض في بغداد بأن يعود الرئيس السادات إلى التمسك بالتسوية الشاملة».

ومع هذا فإن محمود رياض لا ينحاز للسادات، وإن كان قد أشار من قبل (صفحة

٤٩٧) إلى حكمة السادات في مؤتمر القمة العربي بالرباط حين لخص بعض آرائه في هذا المؤتمر، ومن العجيب أن سلوك الرئيس السادات في ١٩٧٩ لم يكن مختلفاً أبداً عما نادى به من قبل، وعما كان يعتقد في صوابه، ولكن للأسف فإن التحريض ضد السادات كان قد نجح في أن يعين الشاعر ضده على نحو ما نعرف جميعاً، وبحيث أصبح محمود رياض نفسه غير قادر على معرفة الحق من الباطل ولا الصواب من الخطأ:

«... ونحدث في اليوم التالي الرئيس أنور السادات فأشار إلى اقتراحه بإقامة حكومة فلسطينية تتولى مسؤولياتها إزاء الشعب الفلسطيني، وأضاف أن المعركة طويلة وتعتمد على صمود اقتصادي وسياسي وصمود عسكري بالدرجة الأولى، واليوم الذي سنغفل فيه عن قواتنا العسكرية سنستطيع إسرائيل أن تغير مجرى الأحداث أو تحتص النصر الذي حدث كي تأخذ المبادرة من أيدينا مرة أخرى».

«وأضاف الرئيس السادات قائلاً: إننا سنسمع في الفترة القادمة نصريحات كثيرة من المسؤولين الإسرائيليين، ومن الأمريكيين، ومن جهات كثيرة، تريد أن تحدث فرقة بين العرب، وكل رجائي أننا بهذا الجمع وبهذه الروح التي عملنا بها حرب أكتوبر لأننا جميعاً شركاء فيها، نتلقى هذا ونضمه جانباً، وهناك أساس واضح نطلق منه حددناه في مؤتمر الجزائر، أنه لا تفريط في شبر من الأرض ولا مساومة ولا مهادنة في حقوق شعب فلسطين، وحقه في تقرير مصيره بنفسه».

«وقال الرئيس السادات إنه يوافق على الرأي الذي قيل من أنه على الفلسطينيين، أن يأخذوا كل شبر يحصلون عليه من الأرض، حتى ولو أتى به كينجر أو الشيطان، فليكن أيما ما كان، لتقوم مرة أخرى كلمة فلسطين، التي زيفت فيها إسرائيل الوقائع فقالت في تصريحاتها إنه لم يكن هناك شيء اسمه فلسطين ولا شعب فلسطين».

على هذا النحو كان السادات يفكر بل يصرح في مؤتمر القمة العربي بالرباط، ولعلنا أصبحنا الآن وقد تقدم بنا الزمن ندرك كم كان هذا الرجل على صواب !!

(٣٤)

وعلى الرغم من كل هذا التقدير الذي يوجهه صاحب هذه المذكرات إلى مظاهر

التضامن العربي في كثير من المواقف، إلا أنه يبدو منصفاً لنفسه وللمعقل وللمنتطق حين يوازن في رهافة وحساسية ودون أن يملأ علينا آراءه بين هذه الإيجابيات وبين سلبيات أخرى، ونحن نراه لا يستتشف أبداً أن يوجه انتقادات عنيفة إلى بعض الحماقات التي ارتكبتها الدبلوماسية العربية .

على سبيل المثال فإنه يتحدث حديثاً واضحاً عن الفرص الضائعة فيما بعد حرب ١٩٦٧، وهي الجزية التي تناولناها أيضاً في مذكرات الدكتور أحمد عصمت عبدالمجيد ونحن نجد محمود رياض يتناول (في صفحة ٩٩) هذه الجزية ويقول:

«كما أبلغني نصيحة السوفييت بأن نوافق على المشروع الجديد المطروح أمام الجمعية العامة، حيث إن المشروع ينص على انسحاب القوات الإسرائيلية مقابل إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل، ولا يعني الاعتراف بإسرائيل ولا الدخول معها في مفاوضات مباشرة كما يصير الجانب الإسرائيلي. وبومها أبلغت السفير بموافقتنا على مشروع القرار، إلا أن الأمر يستلزم موافقة كافة الدول العربية لأننا حريصون على الحفاظ على التضامن العربي في الجمعية العامة».

ويعقب محمود رياض على هذا بما يرويه من سعادة الإسرائيليين والأمريكيين من تفریط العرب في الفرص التي كانت متاحة أمامهم في تلك الفترة ويقول:

«وقد أدت هزيمة مشروع القرار في التصويت إلى ابتهاج إسرائيل والولايات المتحدة، وعبر آرثر جولدمبرج المندوب الأمريكي عن سعادته بشمل المشروع لعدد من مندوبي الدول الأعضاء».

وفي موضع آخر (صفحة ١٠٨ وما بعدها) يروي صاحب هذه المذكرات جانباً من محادثات بومدين مع القادة السوفييت ويرينا مدى التصلب الذي كان بومدين يأخذ به في تعامله مع القضية، على الرغم من محاولات القادة السوفييت إقناعه أن يكون العرب أكثر عملية ومنطقية في تعاملهم مع الأمر الواقع، ونحن نرى صاحب المذكرات لا ييخل على قارئه بإيراد نصوص شبه كاملة لمحاضر اجتماعات القادة السوفييت مع الرئيسين العربيين هواري بومدين (رئيس الجزائر) وعبدالرحمن عارف (رئيس العراق) اللذين زارا موسكو بالاتفاق مع عبدالناصر لمناقشة القضية وسبل الدعم السوفيتي للحقوق العربية بعد هزيمة ١٩٦٧، ومن الواضح أن محمود رياض كان يريد أن يفتح أعين قومه على نحو ما كان السوفييت يريدون في ذلك الوقت، ولهذا السبب فقد حرص على إيراد كل هذه التفاصيل التي سنكتفي ببعضها :

«لقد ارتفعت حرارة الجدل بعد ذلك، والغضب المتبادل من بريجنيف وبومدين. قال بعده الرئيس بومدين: إن إنهاء حالة الحرب معناه الاستسلام عملياً للشروط الأمريكية - الإسرائيلية. أما بريجنيف فقد أصر على أن إنهاء حالة الحرب يختلف عن توقيع اتفاقية صلح مع إسرائيل، ومن ثم فإنه لا يفرض على العرب إقامة علاقات سياسية ودبلوماسية مع إسرائيل».

«وعندما بدأت الجلسة الثانية من المباحثات في اليوم التالي، والأخيرة، وقد بدأت بمحاولة للتهنئة من جانب القادة السوفيت، حيث قال بريجنيف:

«إنني لست مرتاحاً من حديث الأمس، فالموقف الذي سمعناه لا يدل على وجود صورة واضحة، كما أننا لم نسمع أي حل. إننا نعرف أن شعوبكم متألمة لما حدث، لكن الاستماع إلى رأي الشعوب فقط ليس كافياً. لا بد من مكافحة الاستعمار، فهو خبيث، ولا بد أن نكون خبيثاً أيضاً عند مواجهته. لقد بحث إلينا جروميكو وزير الخارجية اليوم من نيويورك قائلاً: إن الجمعية العامة للأمم المتحدة ستنتهي أعمالها دون اتخاذ أي قرار. وهذا أمراً سيئاً لأنه يعني أن يد إسرائيل حرة ويمكنها أن تضرب مرة أخرى، وللأسف لا يوجد بلد عربي الآن مستعد للدفاع، والموقف في رأيي سيكون صعباً. يا رفيق بومدين أنتم في الجزائر بعيدون عن ساحة المعركة، وقد ترون الموقف العام أكثر وضوحاً».

«وقال كوسيجين: «أود أن أضيف شيئاً، وهو أن موعد انتهاء دورة الجمعية العامة بعد غد، ولا يعرف أحد ماذا ستكون النتائج بعد ذلك. أرجوكم أن تفكروا جيداً. إن أموركم بيدكم، وليس لنا حق في الضغط عليكم، ولكن إذا اقتنعتم بأمر ما يمكننا أن نتصلوا من هنا بالتليفون مع الرئيس جمال عبدالناصر، ومع رئيس سوريا، ونوضحوا لهما الموقف خلال دقائق. إن الوقت ضيق ولا بد من الوصول إلى جواب محدد. الموقف في رأي جروميكو هو أن تنسحب أولاً قوات إسرائيل، ثم نربط ذلك بموضوع إنهاء حالة الحرب وحرية الملاحة في قناة السويس».

«قال بومدين: «بالنسبة إلى هذه النقطة فإن مرور علم إسرائيل في القناة معناه الاعتراف بإسرائيل».

«رد كوسيجين: «هذه قضية نظرية. الألمان كانوا يمرون في عمراتنا المائية، وكنا في حالة حرب معهم. لقد قبلنا ذلك لأننا كنا في حاجة لمثل هذا التصرف من الناحية الاقتصادية».

(٣٥)

هكذا كان الحوار يجري بينما جروميكو في نيويورك يحاول أن يثني العرب بأن يتقبلوا شيئاً خيراً من لاشي... ولكن منطلق الفرض الضائعة كان للأسف الشديد هو السائد.

وبعد أن يروي محمود رياض كثيراً من تفصيلات ذلك الحوار العربي السوفيتي على مستوى القمة يصل (في صفحة ١١٠) إلى بلورة رأى بريجنيف:

«قال بريجنيف: «أنتم لا تريدون حتى الاعتراف على الورق بإنهاء حالة الحرب، وإسرائيل لا تريد أن تنسحب. ثم هناك المشاكل الأخرى كحرية الملاحة وغيرها. نحن نبحث عن حل، والعدو من الجانب الآخر يبحث عن حل. في ظروفنا الحالية، قد نقبل ورقة مكتوباً عليها «إنهاء حالة الحرب» مقابل بقاء الأنظمة التقدمية، ومقابل بقاء الكفاح مستمرًا. من جانبنا سنساعدكم عسكرياً ولن نوقف الدول الاشتراكية مساعداتها لكم. أنتم كمسكربين تفهمون جيداً أنه لا يمكن إعادة بناء قوات عسكرية في خلال يومين، خاصة بعد الدرس الأخير».

وبعد صفحات أخرى يطلبنا صاحب هذه المذكرات على هذه الذروة من ذروات الحوار:

«وبعد عاد بريجنيف للتساؤل قائلاً: «ماذا بهم لو مر العلم الإسرائيلي في قناة السويس أو لم يمر؟».

«واحتد الرئيس الجزائري هواري بومدين بشدة قائلاً: «إذن في هذه الحالة لو نحصل على جرارات تكون أكثر فائدة لنا من الدبابات».

«رد بريجنيف: «نعم ستحصلون على جرارات وكل شيء. ولكن، ماذا بهم في هذه الظروف لو صدر قرار بإنهاء حالة الحرب شرط أن يتوقف ذلك على إتمام انسحاب

القوات الإسرائيلية؟ ثم إنكم قلتم إنكم ستكلمون مع الأمريكيين ولا تتكلمون مع إسرائيل، هذا شيء جديد بالنسبة لنا. إن إسرائيل لا تستعبدكم، ولكن أمريكا يمكنها ذلك».

على هذا النحو لخص بريجنيف الموقف للعرب: إن أمريكا هي التي تستعبدكم وليس إسرائيل.. ولكن أحداً لم يكن مستعداً في ذلك الوقت لإدراك مثل هذه الحقيقة، بل إنه بعد هذا الموقف بأكثر من عشر سنوات كان أنور السادات وهو بطل الحرب المنتصر يلقى العنت والسخرية عندما يصرح بالحقيقة، وهي أن ٩٩٪ من أوراق اللعبة في يد أمريكا.. ولتأمل بقية ما يرويه محمود رياض عن تفصيلات الحوار:

«وعلق يومدين على ذلك بأن هذا كلام غامض، ثم أضاف: «إن المشكلة ليست إسرائيل نفسها لأنها آلة في يد الأمريكيين، وهم الآن في مركز القوة. ونعتقد أن إنهاء حالة الحرب يؤدي عملياً إلى قبول الشروط التي ترفضها إسرائيل. إن أي سياسة تؤدي إلى الاعتراف بإسرائيل هي غير مقبولة من الجانب العربي. إن هذا أمر صعب جداً بالنسبة للحكومة المصرية وللآخرين».

«قال بريجنيف: «دعوا إسرائيل تنسحب، ثم فسروا القرار كما يريدون، لا كما نريد إسرائيل. وعندما تصبحون أقوياء افعلوا ما تشاءون».

لعل هذا يطلعننا على ما كان يتمثل في فكر محمود رياض ولو لم يصرح به، ولهذا كله فإن محمود رياض لا يخفى أنه هو الذي اقترح عدم الاستمرار في استخدام سلاح البترول عقب حرب ١٩٦٧ وضرورة إعادة ضخه، وهو يروي الوقائع (صفحة ١٠١) ثم يقول:

«... وقبل نهاية الاجتماع تحدثت إلى الرؤساء الخمسة وأشارت إلى أنه أصبح من الواضح أن الاستعدادات العربية تحتاج إلى وقت طويل، وأن الاستمرار في قرار وقف ضخ البترول سيعود بالضرر على الدول التي ليس لها أية موارد سوى الموارد البترولية، وفي نفس الوقت فإن دول المواجهة في حاجة إلى معونة اقتصادية حتى يمكنها مواصلة الصمود، ولذا اقترحت أن تستأنف الدول العربية ضخ البترول على أن يخصص عشرة في المائة من موارد الضغط لمعاونة دول المواجهة، وقدرت المبلغ في ذلك الوقت بحوالي ١٠٠ مليون استرليني».

«وكان الاقتراح مفاجئاً ولا يتماشى مع الرأي السائد بضرورة الاستمرار في وقف

الضحك، ولم يعلق سوى الرئيس الأتاسى تعليقا عاما لا يتضمن معنى الرفض. وجاء التعليق الإيجابي الذي سمعته من نائب رئيس الجمهورية زكريا محيي الدين ونحن تغادر قاعة الاجتماع بأن اقترأ حتى عملي^١.



هكذا يمكن لنا أن ندرك الآن بدون إجهاد لأذهاننا أنه كان من الممكن في ذلك الوقت أن يجرى التعبير عن التفكير العملى حتى على مستوى اجتماعات يحضرها كبار المسئولين بمن فيهم الرؤساء!

(٣٦)

ومع هذا كله فإن محمود رياض لا يستريح إلى الأداء اللبى، وهو يعبر عن عدم الراحة هذه فى أكثر من موضع من مذكراته، وهو - على سبيل المثال - (فى صفحة ٢١٧) يتحدثنا عن معنى مهم حيث يقول:

«وتوجهت مع عبدالناصر لحضور اجتماع قمة الرباط يوم ٢٠ ديسمبر».

«وعندما بدأ الملوك والرؤساء فى بحث موضوع الدعم اللازم لدول المواجهة سواء بالمال أو السلاح، تقدمت وفود عديدة بمقترحات مختلفة وطالت المناقشات، فكان كل وفد يبدى استعداده لبذل كل جهد من أجل المعركة، إلا أن المؤتمر عجز عن التوفيق بين المقترحات العديدة والمنبأية، واشترك الرئيس الليبى معمر القذافى فى المناقشات وكان شديد الحماس لمساندة مصر والرئيس عبدالناصر، فطالب الملك فيصل بزيادة الدعم الذى تقدمه السعودية».

«وهنا التفت الملك فيصل نحوى وقال: يا أخ رياض.. أليست الدراسة التى وضعتها تفيد بأن السعودية تدفع ١٢ فى المائة من دخلها بينما تدفع ليبيا أربعة فى المائة فقط؟».

«وأجبت قائلا: هذا صحيح».

«عندئذ ذكر الملك فيصل أنه يجب أولاً أن تدفع الدول العربية الأخرى نفس النسبة التى تدفعها السعودية قبل أن تزيد السعودية من المبلغ الذى تدفعه».

«واستمرت المناقشات دون أن يشترك فيها عبدالناصر. ثم فوجئت بعبدالناصر بعد أن

نقد صبره يقف ويقادر قاعة الاجتماع. ويخروج عبدالناصر من المؤتمر انفض دون أن تصدر عنه أية قرارات.

وعند هذا الحد يعبر محمود رياض عن أسفه وخيبة أمله بقوله:

«وكانت النتيجة الطبيعية لفشل المؤتمر هي أنه لم يعد أمام عبدالناصر سوى الاعتماد كلية على الاتحاد السوفيتي اقتصادياً وعسكرياً. وكان ذلك يشكل في الواقع نقطة ضعف شديدة حاولت تفاديها قبل مؤتمر القمة».

(٣٧)

ولا يقف محمود رياض في حديثه عن ديناميات الدبلوماسية المصرية فيما بين حربى ١٩٦٧ و١٩٧٣ عند حدود التضامن العربى، ولكنه يشير إلى أن كثيراً من دول العالم كله قد بدأ يتضامن معنا. وعلى سبيل المثال فهذا ما يرويهِ (صفحة ٨٣ و صفحة ٨٤) عن بعض المواقف الإيجابية التى اتخذتها الدول الشرقية من أجل دعمنا وتأييدنا:

«... كما زارنى سفراء الدول الاشتراكية يعرضون معاونة حكوماتهم. فتقدمت ألمانيا الشرقية مثلاً بمعونة كبيرة عاجلة تتمثل فى خمسين طائرة من طراز ميغ ١٧ وعدد كبير من الدبابات والمدفعية. أما سفير بولندا فقد كان له شأن آخر. كان من أكثر السفراء نشاطاً وتقديماً للأفكار. وكان ما يعرضه من آراء أحياناً تكون آراء سوفيتية تستهدف تحسس وجهة نظر مصر وعبدالناصر حتى لا يتعرض السوفيت إذا تقدموا بها مباشرة إلى الرفض مما قد يسبب لهم الحرج».

«وأثناء مقابلتى لسفير بولندا أشار إلى أن إسرائيل قريبة من عدد من القواعد العسكرية الأمريكية بما يتيح لها الحصول على معونات عسكرية سريعة فى وقت الحاجة، وأنه شخصياً ينادى عن إمكانية التفكير فى إعطاء تسهيلات للدول الاشتراكية حتى يمكنها تقديم معونتها بسرعة. وعندما أجبت بأن الأمر العاجل الآن هو سرعة وصول الأسلحة إلينا لإعادة بناء الجيش، عاد مرة أخرى ليقترح من جانبه عقد اتفاق عسكرى مع الاتحاد السوفيتى لتسهيل مهمته فى سرعة إمدادنا بالأسلحة».

ومن المهم أيضاً أن نسجل ما حرص محمود رياض على تسجيله من موقف الدول الاشتراكية من إسرائيل بعد حرب يونيو ١٩٦٧ وهو الموقف الذى أبلغه له السفير

السوفيتي عند اجتماعه به عقب وقف إطلاق النار مباشرة ، وقد قررت هذه الدول في اجتماع طارئ عقد في موسكو قطع علاقاتها مع إسرائيل ، وأصدرت بياناً مشتركاً وقعت عليه كلها فيما عدا رومانيا .

(٣٨)

أما الأدوار السياسية التي اضطلع بها محمود رياض في القضية الفلسطينية والصراع العربي - الإسرائيلي فتبدأ كما نعرف بمشاركته في مفاوضات رودس ، وهو يحكى عن هذه المشاركة في الصفحات الأولى من كتابه ويقول :

... وبناء على قرارات مجلس الأمن توقف القتال في النهاية على كافة الجبهات ، وتوجه وفد إسرائيلي وآخر مصري إلى جزيرة رودس للتفاوض من أجل توقيع اتفاق الهدنة ، وكان ذلك أول تفاوض رسمي بين إسرائيل ودولة عربية . وعندما غادرت غزة للاشتراك في مفاوضات رودس ، كان الموقف نتيجة للمعمارك العسكرية استيلاء إسرائيل على أراضي تتجاوز الحدود التي رسمها قرار التقسيم للدولة اليهودية ، كما طردت ما يزيد على مليون فلسطيني من قراهم وأراضيهم ليحل محلهم المهاجرون اليهود .

«وبدأت المفاوضات يوم ١٣ يناير ١٩٤٩ تحت إشراف دكتور رالف بانس ممثل الأمم المتحدة ، وفي أول لقاء ضم الوفدين كادت المفاوضات أن تقطع بسبب تصميم كل وفد على موقفه ، ولذا لجأ بانس إلى اتباع أسلوب المفاوضات غير المباشرة ، وذلك بالتنقل بين مقر كل وفد عاملاً على تقريب وجهات النظر . وبعد مفاوضات استمرت حوالي أربعين يوماً توصل الوفدان إلى مشروع اتفاق ، وكلفني رئيس الوفد (لا يذكر لنا محمود رياض اسمه مع أن مثل هذه الأسماء التي ترأس المرء في أول حياته لا تنسى) بمرضه على القائد العام اللواء فؤاد باشا صادق ، فافرت إلى رفح حيث يوجد مقر القيادة ، لاستطلاع رأيه في عدد القوات المصرية التي يرى الاحتفاظ بها في قطاع غزة ، فكان رده بأنه لا يستطيع البت في الموضوع قبل التعرف على القرار السياسي للحكومة ، فإذا كان هناك احتمال لاستئناف القتال فيجب الاحتفاظ بثلاثة ألوية ، أما إذا كانت الحكومة تستبعد العودة إلى الحرب فيمكن الاحتفاظ بلواء واحد فقط » .

«فتوجهت في نفس اليوم إلى القاهرة وقابلت وزير الخارجية حيدر باشا الذي رأى ضرورة استطلاع رأي الحكومة، فتوجهنا سوياً لمقابلة رئيس الوزراء إبراهيم باشا عبد الهادي، وكان بصحبته عدد من الوزراء، وبعد أن شرحت الاتفاقية وتعليق القائد العام عليها، دارت مناقشة وانتهت بأن قرر رئيس الوزراء الاكتفاء بلواء واحد في قطاع غزة على أساس أن الاتفاق الذي سنوقعه يحرم على الطرفين العودة إلى القتال».

«وبمجرد عودتي إلى رودس تم توقيع الاتفاق وأقام دكتور بانس حفل عشاء لأعضاء الوفدين، وخلال العشاء دارت أحاديث بين أعضاء الوفدين، ونولد لدى انطباع مما سمعته من أعضاء الوفد الإسرائيلي بأنهم سعداء للغاية بالنتيجة التي حققوها، وأنهم يتوقعون تسريح بعض قواتهم ليعودوا إلى أعمالهم أو استئناف دراستهم الجامعية، وعندما علموا بأن القاهرة أذاعت تعييني رئيساً لوفد مصر في لجنة الهدنة المشتركة ركزوا حديثهم معي حول مستقبل السلام في المنطقة، وكان من بينهم الجنرال يادين الذي أصبح نائب رئيس الوزراء في حكومة بيجن، وكان يتحدث عن اتفاقية الهدنة باعتبارها خطوة أساسية لتحقيق السلام الدائم».

«وخرجت أنا شخصياً بانطباع قوى أن النزاع المسلح بين إسرائيل والدول العربية قد انتهى تماماً، وزاد يقيني عندما وقعت الأردن ولبنان وسوريا على اتفاقات مماثلة».



هكذا نرى محمود رياض وقد خرج بانطباع قوى - على حد تعبيره - أن النزاع مع إسرائيل قد انتهى إلى هذا الاتفاق أو بهذا الاتفاق، وهكذا كان رياض شأنه شأن كل الضباط الآخرين بمن فيهم عبدالناصر - كما رأينا من قبل - لا يتطرقون بأذهانهم إلى صراع نارينخي ولا إلى ما تضمنته بروتوكولات حكماء صهيون مما أصبح بعد هذا وقوداً مستمراً وصادقاً للحديث عن الصراع العربي - الإسرائيلي .



وفي الحقيقة فإن هذه المشاركة في مفاوضات رودس لم تكن هي أولى علاقات محمود رياض بفلسطين، فقد زار صاحب هذه المذكرات فلسطين عدة مرات من قبل على نحو ما يروي في أول صفحات الكتاب حيث يقول:

«عندما صدر قرار تعييني مديراً لمكتب المخابرات الحربية بغزة عام ١٩٤٨، لم تكن

تلك هي المرة الأولى التي أזור فيها فلسطين، فقد سبق لي أن زرتها عام ١٩٤٣، عندما التحقت بكلية أركان حرب، ثم زرتها مرة أخرى عام ١٩٤٥ عندما كنت أقوم بالتدريس للقسم النهائي في الكلية الحربية واصطحبت الطلبة لأحد المعسكرات القريبة من عكا للإشراف على المناورات العسكرية التي كانوا يقومون بها قبل تخرجهم.^٥

«وفي المرتين كان الهدوء مستتباً بسبب ما فرضته ظروف الحرب العالمية، ولكنه كان كالهوء الذي يسبق العاصفة. فقد كان عرب فلسطين شأنهم شأن بقية الشعوب العربية، يناضلون في سبيل الاستقلال منذ مطلع القرن العشرين».

(٣٩)

ونحن نجد صاحب هذه المذكرات حفيظاً إلى أبعد حد ممكن بالحديث عن جهده الشاق في استصدار القرار رقم ٢٤٢ الذي ظل مناراً للمجدد لفترة طويلة، ويبدو واضحاً أن لاحتفاء محمود رياض بالظروف والجهود التي سبقت إصدار هذا القرار علاقة بما نعرض له القرار منذ صدوره وحتى الآن من هجوم ونقد متصلين، وهو يروى كيف أنه كان يتوقع مثل هذا الجدل حول مغزى القرار طوال العمل من أجل استصداره إلى أن يصل (في صفحة ١٥٣) إلى تلخيص دقائق الموقف الدولي الذي صدر القرار في ظله فيقول:

«... ولقد حاولت في سردى للأحداث في هذه الفترة أن أوضح الأهداف الحقيقية للقرار والتفسير السليم له، ومواقف الدول الأعضاء في مجلس الأمن إبان موافقتها على القرار ٢٤٢، وقد نعروض القرار طوال السنين التالية للتنمويه وإعطائه تفسيرات خاطئة من جانب إسرائيل. وأنا لا أقول إن هذا القرار كان مثالياً، فالواقع أنه كان أضعف من مشروعات قرارات أخرى سبقته، ولكنه كان القرار الممكن الحصول عليه في ظل الظروف التي صدر فيها».

«لقد بقيت في نيويورك تلك المرة سبعة وسنين يوماً، عدت بعدها منهكاً إلى القاهرة لكي أتجه في نفس اليوم إلى اجتماع كان منعقدًا لمجلس الوزراء برئاسة الرئيس جمال عبدالناصر».



ثم يتحدث محمود رياض عن جلسة مجلس الوزراء المصري التي تمت مناقشة القرار

فيها، وهي الجلسة التي خلصت وقائمهـا في عرضي لمذكرات المستشار عصام الدين حسونة في الباب الأول من كتاب «مذكرات رجال القانون والقضاء»، كما أشرت إلى موقف عبدالناصر فيها من محمود رياض نفسه في الباب الثالث من كتابي: «مذكرات قادة المخابرات والمباحث» في عرضي لمذكرات أمين هويدى مع عبدالناصر. وقد تعدد رياض تجاهل الآراء التي أبديت في هذا الاجتماع وبخاصة رأى عصام حسونة الذى أبدته كمال رفعت! ومع هذا فإننا نلمح فيما يرويه محمود رياض نفسه عن اجتماع مجلس الوزراء أن الأمور لم تكن تسير سيرها الروتينى المعتاد وأن الأمر جعله عصبياً أو متمكناً من حقائق لا يعرفها المستمعون فهو يلقيها عليهم بينما هم فى ذهول وهو يتابع الإلقاء بينما هم لايزالون فى ذهول. وهذا هو المعنى الذى استعار له الرئيس عبد الناصر الوصف القائل بإلقاء ألدش البارذ! ولم يصرح عبد الناصر بهذا التعبير لتوه ولكنه توصل إليه بعد أن استنصر الصورة طوال الليل:

«ولم يكن قد حدث فى مصر تمهيد إعلامى لقبولنا للقرار أو تفسير له. الأمر الذى انعكس على مناقشات مجلس الوزراء فى تلك الليلة. ولا أستطيع أن أتذكر الطريقة التى شرحت بها للمجلس ظروف القرار وملاساته وأسباب موافقتنا عليه. ولكن فى اليوم التالى وصف لى عبدالناصر أسلوبى فى الرد على استفسارات زملائي من الوزراء، فقال لى ضاحكاً: لقد بدوت كما لو كنت تصب دشاً بارداً على الحاضرين».



كذلك يتحدث صاحب هذه المذكرات بأمانة وصدق عما واجهه من ذهول نواب الشعب فى مجلس الأمة وهو يحدثهم عن تفصيلات القرار بناء على طلبهم ونحن نحمد لمحمود رياض إثبات هذه الواقعة المهمة بهذا السيناريو الغريب، مع أنه كان فى وسعه أن يقفز عليها كلية ولكن يبدو أن أثر هذا اللقاء مازال مسيطراً على فكره، وحاضراً فى وعيه:

«بعدها طلبت لجنة الشؤون الخارجية فى مجلس الأمة المصرى الاجتماع بى لبحث هذا الموضوع، وكان برأس الاجتماع أنور السادات باعتباره رئيساً للمجلس، فى ذلك الوقت».

وعندما استفسر منى بعض الأعضاء: هل معنى القرار هو إيماننا لاتفاقية صلح مع إسرائيل، أو إقامة علاقات دبلوماسية معها؟^١

«فقلت: «بالأكيد لا».

«وسأل عضو عن موضوع الحدود».

«أجبت: إنه بموجب القرار نعتزف بالحدود الدولية لإسرائيل».

«وسألني عضو آخر: هل معنى القرار هو اعترافنا بإسرائيل؟».

«وأجبت: «إننا اعترفنا بإسرائيل كأمر واقع عندما وقعت معها اتفاقيات الهدنة في عام ١٩٤٩».

«وكان أحد رجال الإعلام حاضراً الاجتماع باعتباره عضواً في المجلس، فسألني بعد الشرح الذي قدمته حول القرار: «هل كان كل ما نردده، كإعلاميين، خلال السنوات الماضية خطأ إذن؟».

«وأجبت ببساطة: «نعم».

«وعندئذ وضع بعض أعضاء المجلس أصابعهم في آذانهم قائلين إنهم لا يريدون أن يسمعوا المزيد».



على هذا النحو الذي يرويه صاحب هذه المذكرات كان استقبال نخبة مختارة من نواب الشعب في البرلمان (مجلس الأمة) لقبول مصر هذا القرار.

هل نستطيع بعد هذا أن نرى صورة للإحباط النفسي أكثر تعبيراً وتأثيراً من هذه الصورة؟ إنها الهزيمة يشربها الشعب ونوابه مرة أخرى بعدما كان في ٥ يونيو ١٩٦٧، نسأل الله سبحانه وتعالى ألا يعيد علينا مثل هذه الأيام أبداً، وأن يتغمد برحمته وفضله شهداءنا وقادتنا الذين حررونا من هذه الهزيمة، وأعادوا إلينا العزة والكرامة.

ثم يحاول محمود رياض أن يلجأ إلى التعقل وبرود الأعصاب وهو بصف كل هذا الذي حدث وكأن قدره أن يصبح هو المسؤول الكبير الذي يواجهه ويتصدى له، بينما غاب عن مواجهته المسئولون عن الهزيمة، وعمما ترتب عليها، وفي شجاعة نادرة يحدثنا رياض عن أنه كان يرى أن من واجبه أن يتحمل العبء:

«لقد كان هذا هو الجو الانفعالي السائد عند صدور قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ بسبب الغضب ضد الولايات المتحدة والرغبة في الثأر من إسرائيل، وكنت أشعر أنه من واجبي أن أشمل العبء لتصحیح المفاهيم ولاتخاذ مواقف أكثر واقعية».

ولا يغفل محمود رياض أن يتحدث عن محاولات إسرائيل المبكرة جداً من أجل تشويه القرار وإجهاض محتواه فيقول:

«وبدأت إسرائيل بعد صدور القرار مباشرة فى حملة من أجل تشويه المعنى الحقيقى للقرار والتركيز على كلمة «أراضى» فى النص الإنجليزى، فى محاولة التملص من التزامها بالانسحاب من جميع الأراضى العربية المحتلة».

(٤٠)

ولا يغفل محمود رياض فى هذه المذكرات الحديث باستفاضة معقولة عن دوره فى مساعى السلام العربية - الإسرائيلية فيما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ وهو دور كبير جداً، وهو يقدم للحديث عنه (صفحة ١٨٣) بحديث عما اكتشفه من أن إسرائيل نفسها هى التى كانت حريصة على إشغال أى جهد من أجل السلام، وهو يروى وقائع محددة عن جهود هولندية وتركيبية ورومانية للوصول إلى حلول سلمية مع إسرائيل بامت كلها بالفشل، وهذه الفقرات من أهم ما يمكن لنا وللتاريخ المعاصر الذى لم يتوعد بعض قرائه ما كان على الرئيس العظيم أنور السادات أن يفعله من أجل الوصول إلى حل ففعله فى مبادرته:

«... وخلال وجودى فى نيويورك حاولت وفود عديدة المساهمة فى إيجاد حل للأزمة المتعلقة بتنفيذ القرار ٢٤٢، تدفعها فى ذلك النوايا الطيبة وكان على أن أسير معهم إلى نهاية الطريق حتى تكتشف بنفسها حقيقة موقف إسرائيل وسوف أكتفى بأمثلة لهذا :

«فقد جاءنى نائب وزير خارجية رومانيا [هكذا يبدو لنا أن مشورة رومانيا - بالذات بالسلام كانت مبكرة جداً عما نعرفه من محاولات شاوشيكو وحكومته مع الرئيس السادات] يوماً يقترح على أن أعقد لقاء سرياً مع وزير الخارجية الإسرائيلى وأضاف أن الإسرائيليين قد أكدوا له أن مثل هذا اللقاء لو تم سوف يحقق حل جميع المشاكل ، فرفضت فكرة اللقاءات السرية وذكرت له أنه إذا كانت لدى إسرائيل أى أفكار جديدة فلماذا لا تقدمها لنا عن طريق يارنج أو تقدمها لكم حتى نتعرف على مدى جدية مشترحاتهم وأضفت أثنى شخصياً سبق واجتمعت علناً مع وفود إسرائيلية فى رودس وفى لجان الهدنة ، والسرية لن نخدم قضية السلام خاصة أن مجلس الأمن رسم الطريق لتحقيق السلام فى المنطقة» .

«ولم تكن رومانيا وحدها التي اقترحت المقابلات السرية، فقد قامت يوغوسلافيا أيضاً بمحاولة أخرى وإن كان طابعها مختلفاً تماماً. فقد كان ناهوم جولدمان صديقاً شخصياً للرئيس اليوغوسلافي تيتو، وكانت له آراء تختلف عن آراء جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل سواء بالنسبة لدور الحركة الصهيونية وعلاقتها بإسرائيل أو بالنسبة لحل مشكلة الشرق الأوسط. فقد كان مقتنعاً بأن تحقيق السلام بين إسرائيل والدول العربية هو أفضل من محاولة ضم أراضي عربية جديدة للاحتلال الإسرائيلي. وكان الرئيس تيتو يرى أن الاتصال بجولدمان ربما يكون مفيداً ولذلك فإنه أثناء وجوده في أسوان للاجتماع بالرئيس عبد الناصر، اجتمع بي وزير خارجية يوغوسلافيا واقترح أن ينضم لقاء سري بيني وبين ناهوم جولدمان في بلغراد، ولكنني مرة أخرى رفضت أسلوب المقابلات السرية، وذكرت له أن ناهوم جولدمان لا يمثل إسرائيل ولا يملك إصدار قرار بشأن سياستها ومن ثم فإنني لا أرى أي جدوى من هذا اللقاء».

«وبعد سفر الرئيس تيتو ببضعة أيام سألتني عبد الناصر ما هي قصة ناهوم جولدمان فرويت له ما حدث، فأقرني على تصرفي وإن كنت لم أعط الموضوع أهمية نستدعي أن أخطر عبد الناصر به».



وهذا ما يرويه لنا محمود رياض في هذه المذكرات عن المحاولة التركية من أجل السلام:

«... جاءني وزير خارجية تركيا الصديق إحسان صبرى، وذكر لي أن إسرائيل طلبت من تركيا التوسط في القضية، وعندما سألتني إحسان صبرى عن رأيي قلت له إنني أريد قبل أن أجيء أن أسمع منه مرة أخرى ما هو موقف تركيا بالنسبة للعدوان الإسرائيلي، فرد عليّ بسرعة وحزم: [إننا ندين العدوان بشدة ونطالب بالانسحاب الإسرائيلي الشامل من جميع الأراضي العربية المحتلة واحترام حقوق الشعب الفلسطيني]».

«وهنا قلت لإحسان صبرى: [إن دور الوسيط يحتم عليه الامتناع عن إبداء الرأي، وقد لاحظت مؤخراً أن إسرائيل قد قامت بماعى بمحاولة لدى بعض الدول الصديقة لإبعادها عن تأييد موقفنا وهي لعبة ذكية من إسرائيل] فسارع إحسان صبرى في تأييد موقفى وكان شديد الحماس في تأييده للحق العربى فى كل مؤتمر شارك فيه».



وهذا - ثالث - ما يرويه صاحب هذه المذكرات عن محاولة وزير الخارجية الهولندي التوسط في النزاع العربي - الإسرائيلي من خلال علاقته الوثيقة بأبا إيبان:

«جاءني دكتور جوزيف لوز وزير خارجية هولندا وسكرتير عام منظمة حلف شمال الأطلسي فيما بعد ، وأراد أن يقوم أيضاً بالوساطة نظراً لملاقته الشخصية مع وزير خارجية إسرائيل ، وقد ذكر لي أنه استفهم من أبا إيبان عن الموقف الإسرائيلي بالنسبة للحل ، فأكد له أن الموقف الإسرائيلي يتلخص في العبارة التالية : [الحد الأقصى من الأمن بالنسبة لإسرائيل ، والحد الأدنى من التغيرات بالنسبة للحدود التي كانت قائمة في ٤ يونيو]» .

ثم سألتني وزير خارجية هولندا عن رأيي ، قلت له : «إنني موافق» .

«ونظر إلى بدهشة مستفسراً ، فقلت له مؤكداً : « إنني أوافق على مسألة أمن إسرائيل دون قيد أو شرط ، ولكن على ضوء التاريخ العملي في المنطقة ، فإن إسرائيل كانت هي التي هددت أمتنا دائماً ، ولذلك فإن من حق الدول العربية أن تحصل على نفس الضمانات التي تطلبها إسرائيل لأمنها » .

وقال وزير خارجية هولندا : « إن هذا مطلب عادل بما فيه الكفاية » .

قلت له : « أما بالنسبة للحدود فأرجو أن توافيني بخريطة محددها هذا » أخذ الأدنى « الذي يتحدث عنه أبا إيبان حتى يمكن دراستها » .

وتركتني وزير خارجية هولندا وهو سعيد للغاية ، وقد كان رجلاً لا يعرف الخداع .

ثم سألته عندما قابلته فيما بعد لماذا لم يأت بالخريطة ، فأجابني وهو يشعر بالحرج الشديد : « إن المشكلة هي أن أبا إيبان رجل طبيب ولكن حكومته سيئة وقد رفضت إعطاء الخريطة !

ولم أكن في حاجة أن أؤكد لدكتور لوز من البداية أن أبا إيبان لن يأتيه بالخريطة التي يصفها له لأنها تضع قيدا على التوسع الإسرائيلي » .

(٤١)

ولعلنا نأتي الآن إلى تفاصيل لقاءات صاحب المذكرات ومباحثاته مع وزير الخارجية

الأمريكي ولیم روجرز، وهی اللقاءات التي انتهت بموافقة الرئيس عبدالناصر على مبادرة روجرز:

يتأمل محمود رياض تفصيلات لقائه الأول مع روجرز ويقول:

«.. وخلال حرب الاستنزاف كان أول لقاء لى مع ولیم روجرز أثناء دورة الأمم المتحدة فى سبتمبر ١٩٦٩، خرجت منه بانطباع أنه مخلص فى محاولته لفهم حقيقة الصراع فى الشرق الأوسط وأنه يرغب فى التعامل معى بذهن متفتح مما جعلنى أشعر بصدقه وجديته فى محاولة تنمية مصالح الولايات المتحدة فى المنطقة. وفى ذلك اللقاء ذكر لى روجرز أنه قابل فى دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة حوالى خمسين وزيراً للخارجية وأنه أصيب بالدوار حيث لم يكن يتصور أن العالم ملئ بـ بكل هذه المشاكل التى سمعها، وأن الكل يتوقع أن يكون للولايات المتحدة دور فى حل هذه المشاكل».

وعلى مدى أكثر من سبعين صفحة يروى صاحب هذه المذكرات تفاصيل قبول مصر لمبادرة روجرز على نحو ظنه البعض مفاجئاً خصوصاً مع كثرة الحديث عن لاءات الخطوط الثلاث وسياسة التمسك بالحدود القصوى من المطالب العربية واعتماد إسرائيل فى الجانب الآخر على هذا التشدد غير المبرر من جانب الدول العربية، ويبلور محمود رياض هذا كله فى فقرة موحية فى صفحة ٢٦٣ حيث يقول:

«... وبمجرد إعلان قبولنا لمبادرة روجرز بدأت إسرائيل بمناورات سياسية تستهدف عرقلة المبادرة لأنها كانت تتضمن عدداً من النقاط تعارضها إسرائيل، مثل المفاوضات المباشرة وتمدد وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر بينما كانت إسرائيل تطالب بوقف دائم لإطلاق النار».

«وكتب نيكسون لرئيسة وزراء إسرائيل يحثها على إعلان قبولها لمبادرة روجرز، وبعدها يومين أعلن موسى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى أن إسرائيل «ليست قوية إلى درجة نسمع لها بخسارة حلفائها» مشيراً بذلك إلى الولايات المتحدة، كما أعلن إيجال آلون نائب رئيسة وزراء إسرائيل أنه «حتى ولو كان هناك تباين فى الآراء بين الولايات المتحدة وإسرائيل، فحين تأخذ حكومة الولايات المتحدة مبادرة كهذه، يبدو لى أنه يجب علينا القبول بها فى هذه الظروف، حتى ولو لم تكن راضين تماماً عن كل التفاصيل».

«وهكذا وبعد عديد من المناورات السياسية، قررت الحكومة الإسرائيلية بعد اجتماع لها فى ٣١ يوليو، الموافقة على مبادرة روجرز وأخطرت الولايات المتحدة بذلك».

ثم يروى صاحب هذه المذكرات بعد عدة صفحات (صفحة ٢٦٦) مدى الفوائد والايحيات التي أُنعم الله بها على مصر من جراء غباء الإسرائيليين والأمريكيين عند توقيع مبادرة روجرز أو من جراء الغشاة التي ألقاها الله سبحانه وتعالى على أعينهم ، ويكاد محمود رياض في مذكراته هذه يتفرد بكل هذه التفصيلات عن المبادرة وأجوائها وعمما حدث بعدها من إجراءات وترتيبات تنفيذية وما فيها من مفارقة :

«... وفي اليوم التالي وصلتني برفقة أخرى من مدير مكتبى يخطرني فيها بأننا قد اتفقتنا مع الولايات المتحدة فعلاً على موعد بدء سريان وقف إطلاق النيران وهو الأمر الذي كان مفاجأة بالنسبة لى فعدت إلى القاهرة فوراً يوم ٩ أغسطس » .

«وعندما استقبلنى مدير مكتبى فى مطار القاهرة أبلغنى بأن برجس قد تقدم باقتراح من واشنطن بتعلق بموعد وترتيبات وقف إطلاق النيران وأن الرئيس جمال عبد الناصر قد وافق على أن يبدأ سريان وقف إطلاق النيران اعتباراً من الساعة الواحدة صباحاً بتوقيت القاهرة يوم ٨ أغسطس ولمدة تسعين يوماً وعندما اطلعت على تقرير محمد رياض الذى شمل كافة الاتصالات مع برجس اعتباراً من اللحظة التى تقدم فيها مساء ٦ أغسطس باقتراح وقف إطلاق النيران بعد منتصف ليل نفس هذا اليوم أو صباح يوم ٧ أغسطس تبين لى على الفور أنه إذا كان لدى بعض الأمل فى نجاح المبادرة لتحقيق السلام فقد تبخر هذا القدر البسيط من الأمل بل توقعت المزيد من المشاكل بيننا وبين الولايات المتحدة، وكانت لدى فى هذا الصدد ملاحظتان :

فأولاً : إن الولايات المتحدة كانت متعجلة جداً فى التكبير بموعد وقف إطلاق النار وقد فسر برجس هذا التعجيل بأن الوقت قد يغرى إسرائيل بأن تقوم بغارة كبيرة جداً ضد الصواريخ المصرية الموجودة داخل منطقة الخمسين كيلو متراً غرب قناة السويس، كما أن الوقت قد يغرى مصر ببناء مواقع جديدة للصواريخ داخل تلك المنطقة ، ولم أتبين فى ذلك الوقت معنى هذا التهديد إلا أننى عندما علمت فيما بعد بأن إسرائيل كانت أعدت خطة لإنزال قوات خاصة بطائرات الهيلوكوبتر خلف قواتنا لتدمير حائط الصواريخ استطعت الربط بين الأمرين .

وثانياً : إن هذا التهديد يبين مدى عجز الولايات المتحدة عن تنفيذ المبادرة التى تقدمت بها من لحظتها الأولى ، لأننا إذا كنا حقاً فى طريقنا إلى تحقيق السلام فلماذا تهاجم إسرائيل المواقع المصرية ؟ والسؤال الهام كيف تسمح الولايات المتحدة لإسرائيل

أن تقوم بهذه الغارات التي تفسد المبادرة وإذا كانت الولايات المتحدة لا تستطيع وقف اعتداءات إسرائيل بعد أن أعلنت قبول المبادرة الأمريكية فكيف تستطيع الولايات المتحدة إلزام إسرائيل بعد ذلك بتنفيذ قرار مجلس الأمن والانسحاب من الأراضي العربية ؟ » .

(٤٢)

وعلى هذا النحو من القلق والضجر والإشفاق يحدثنا صاحب هذه المذكرات عن طبيعة الشكوك التي راودته حين قرأ تقرير مساعديه عن الساعات والأيام الأولى التي أعقبت تنفيذ المبادرة، وهو يبدى عجبه من هذا «الضعف الأمريكي» تجاه إسرائيل، كما يبدى عجبه من تورط الولايات المتحدة في فرض نفسها كمراقب فيقول:

«ولقد لاحظت أيضاً أن الولايات المتحدة قد فرضت نفسها كمراقب لوقف إطلاق النيران ولكن بدلاً من أن نخطرنها بأنها ستقوم بذلك لصالح الطرفين وكطرف محايد إذ بها نخطرنها بأنها سوف ترسل طائرات استطلاع أمريكية على ارتفاع عشرة كيلومترات لمساعدة إسرائيل في الرقابة ، وإن الولايات المتحدة تنصور أن يفعل الاتحاد السوفيتي نفس الشيء لمساعدة مصر» .

ويعقب رياض على هذا الانحياز الأمريكي في التصرف تجاه القضية والاندفاع في التعبير عنه بقوله:

«ولم أفهم إطلاقاً كيف يصدر مثل هذا الاقتراح من الولايات المتحدة لأننا من جانبنا لم نطلب من الاتحاد السوفيتي شيئاً من هذا القبيل ، وكنت أتصور أن تطلب الولايات المتحدة من منظمة الأمم المتحدة القيام بتلك المهمة أو أن تطلب منا قبولها (أى قبول الولايات المتحدة) كطرف محايد ، أما أن تقوم الولايات المتحدة بممثل إسرائيل وتقرح أن يقوم الاتحاد السوفيتي بممثل مصر فقد كان هذا أمراً لا بد أن يؤدي إلى خلافات شديدة ولذلك فقد رفضت من البداية الاعتراف بحق الولايات المتحدة في إرسال طائرات أمريكية » يو ٢ «لتنجس علينا لحساب إسرائيل» .

ويمضي صاحب المذكرات ليزيد الأمر إيضاحاً فيقول:

«وزاد من شكوكي بالنسبة للولايات المتحدة ما اطلعت عليه من بنود في اتفاق وقف إطلاق النيران حيث جاء به :

- ينوقف الطرفان عن إطلاق النيران في الأرض وفي الجو عبر خط وقف إطلاق النيران .

- يمنع الطرفان عن تغيير الوضع العسكري في داخل المنطقة التي تمتد خمسين كيلو متراً شرق وغرب القناة ولا يحق للطرفين إدخال أو إنشاء أية مواقع عسكرية في هذه المناطق ويقتصر أي نشاط على صيانة المواقع الموجودة وتغيير وإمداد القوات الموجودة في هذه المناطق .

ب

ويلحق محمود رياض على نص هذه البنود تعليقاً ذكياً يستمد من خبرته العسكرية - الدبلوماسية المزودة ، ويقول:

«وكان من الواضح أنه يمكن إعطاء أكثر من تفسير لهذه البنود وفي نفس الوقت لم يكن هناك جهاز محايد يشرف على تنفيذه، ولذلك فإن مصر عندما قامت في اليوم السابق على موعد سريان وقف إطلاق النيران باستكمال تجهيز المواقع الضرورية التي يراها الجيش لتقوية شبكة الصواريخ لم يكن في ذلك أي خرق لنصوص الاتفاق وكانت العملية بلا شك مفاجأة لإسرائيل لأنها تمت بسرعة وبمجهود خارق في ساعات الليل القليلة السابقة على الواحدة صباحاً موعد بدء سريان وقف إطلاق النيران بحيث إنه لم يطلع صباح اليوم التالي حتى وجدت إسرائيل نفسها أمام شبكة كاملة من مواقع صواريخ الدفاع الجوي ، ولذلك فلم تكن مصر في حاجة إلى خرق أي بند من بنود الاتفاق بمجرد وقف إطلاق النيران كما أنه لم يكن هناك بند يحول دون تقوية المواقع الموجودة فعلاً وهذا هو بالضبط ما قامت به مصر بل إن الاتفاق سمح بإجراء تغيير في القوات وهو ما كانت تفعله مصر لأنها كانت قد احتفظت بمواقع هيكلية للصواريخ وكانت تعمل على تغيير القوات وتبديل المواقع في نطاق الخمسين كيلومتراً حتى لا تنجح لإسرائيل معرفة مواقع الصواريخ بصفة مستمرة ودائمة».

ج

وعند هذا الحد يبدأ رياض في التعبير بوضوح عن معادته بما وصفناه بالظروف المؤاتية لمصر التي جاءت كنتيجة مباشرة وسريعة جداً لتنفيذ مبادرة روجرز على هذا النحو السريع:

«وكان من الواضح أن الأجهزة الأمريكية التي وضعت هذا الاتفاق لم تنبئ إلى ما فيه من ثغرات كما لم تكن إسرائيل تتخيل بأن مصر تستطيع أن تبذل هذا الجهد الخارق وفي

ساعات محدودة قبيل سريان موعده وقف إطلاق النيران، وقد وجهت إسرائيل كل غضبها وثورتها إلى المبادرة الأمريكية ذاتها وحاول وزير الخارجية الأمريكي وليم روجرز في البداية الصمود لصالح استمرار المبادرة، وبالتالي فعندما جاءته أول رسالة من واشنطن عن طريق برجس في ١٩ أغسطس، اقتصرت على الإشارة إلى الاتهامات الإسرائيلية ولم تجزم الولايات المتحدة بوقوع أيه مخالقات من مصر، بل تضمنت إصرار روجرز على البدء في المباحثات فوراً عن طريق يارنج ٤.

(٤٣)

ولأن الكتاب كله بل حياة رياض كلها قد استغرقتها قضية فلسطين، فإن صاحب هذه المذكرات معنى بالطبع بالحديث عن موقف مصر من قضية فلسطين، وهو لا يقدم هذا الموقف وتطوراتها في إطار التألم لما حدث من تورط مصر في القضية الفلسطينية، ولا في إطار الزهو والمن بما قدمت مصر، ولكنه يقدمه في الإطار الطبقي الذي حدث دون انحياز إلى هذه الرؤية أو تلك، وعلى سبيل المثال فإنه يقص علينا كيف تحول موقف الرئيس عبدالناصر نفسه من إسرائيل في أول الثورة من تجنبها تماماً إلى الانبعاث المفاجئ إلى خطورتها، ولم يكن عبد الناصر وغيره من قادة الثورة بدعاً في هذا الموقف الأولي من إسرائيل، ذلك أن محمود رياض نفسه قد روى في فقرة سابقة أوردناها في هذا الباب أنه كان يظن أن توقيع اتفاقية رودس كان كفيلاً بإنهاء النزاع في هذه المنطقة، وكان هذا بالفعل هو التوجه العام عند طبقة محمود رياض وعبد الناصر وغيرهما من العسكريين الذين بدأوا بممارسة السياسة، وهو بذكر بكل صراحة أنه حين تحدث مع الرئيس عبدالناصر وعبد الحكيم عامر من أجل تقوية الجيش لإرهاب بن جوريون، كان رأي عبدالناصر متحازاً إلى ضرورة إعطاء الأولوية في الإنفاق لمشروعات التنمية:

«وعندما قامت الثورة في مصر في يوليو ١٩٥٢ عدت إلى القاهرة وتوليت إدارة شؤون فلسطين في القيادة العامة، وبذلك أصبحت مسئولاً عن كافة جوانب القضية الفلسطينية، ولاحظت من متابعتي للتقارير التي كانت تصلني في هذا الوقت أن إسرائيل تعمل على زيادة قواتها المسلحة ازدياداً مطّرداً مع ترديد بن جوريون في تصريحاته الإشارة إلى حاجة إسرائيل للمزيد من الأراضي والمياه لاستيعاب المهاجرين الجدد، وكان قد وصل إلى إسرائيل ما يقرب من سبعمائة ألف مهاجر خلال الفترة بين ٤٨ و ١٩٥٣. وبدأ

التوتر السياسي عندما أعلن بن جوريون عن رفضه لقرارات الأمم المتحدة فعجزت لجنة التوفيق عن تنفيذ قرار الأمم المتحدة الخاص باللاجئين الفلسطينيين^٩.

«وبدأت أشعر بالقلق للموقف المتشدد لبن جوريون في الوقت الذي كانت الثورة في مصر تحاول تثبيت أقدامها داخلياً، وقد كرس كل جهودها من أجل البناء الداخلي والتنمية فنحدثت مع الرئيس جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر أكثر من مرة في بداية عام ١٩٥٣ حول ضرورة تقوية الجيش المصري بغرض الحفاظ على توازن القوى بما يحول دون إقدام بن جوريون على مغامرة عسكرية من أجل التوسع، إلا أن الرئيس عبدالناصر كان من رأيه ضرورة إعطاء مشاريع التنمية الأولوية في الإنفاق، كما كان مقتنعاً بأن اتفاقية الهدنة تحول دون قيام نزاع مسلح».

□

ثم يحدثنا محمود رياض عن الحدث الذي جعل عبدالناصر يتحول بفكره إلى موقف آخر أكثر مسئولية وإيجابية وفهماً :

«وقد استمر عبدالناصر على موقفه هذا إلى أن قامت إسرائيل بهجوم على قطاع غزة في ٢٨ فبراير ١٩٥٥، مما أدى إلى مقتل ثمانية وثلاثين من العسكريين المصريين، وكان ذلك الهجوم نقطة تحول في المنطقة، فقرر عبدالناصر ضرورة الإسراع بتقوية الجيش بعد أن تبين له بوضوح أن بن جوريون لا يرغب في السلام لأنه يعوق خطته التوسعية».

«وذكر لي الرئيس عبدالناصر بعد هذه الغارة أن خطة التنمية وبناء المستشفيات والمدارس يجب ألا تؤخر بناء جيش قوى لحماية أمن مصر».

(٤٤)

وعلى الرغم من الإحساس بالانتماء الشديد إلى قضية فلسطين ، وإلى قضية الشعب الفلسطيني، فإن محمود رياض يقف من السياسة الفلسطينية موقفاً رشيذاً وهو لا يمانع أبداً - عند اللزوم - أن يتخذ بعض التصرفات الفلسطينية، كذلك فإنه لا يهمل أبداً أن يتحدث عن معاناة عبدالناصر نفسه من بعض الفصائل الفلسطينية عندما قبل مبادرة روجرز في عام وفاته، وموقف عبدالناصر القوي والحاسم تجاه الاتهامات الفلسطينية بالتواطؤ مع الأمريكيين:

«وعندما أعلنت مصر قبولها لمبادرة روجرز في سنة ١٩٧٠، وبدأ سريان وقف إطلاق النار على الجبهة المصرية في مطلع شهر أغسطس، بادرت بعض العناصر الفلسطينية في مهاجمة عبدالناصر وانهامه بالتواطؤ مع الأمريكيين. وكانت هذه التهمة تنطلق من محطة إذاعة صوت فلسطين من القاهرة وهي التي كانت الحكومة المصرية تتيحها للفلسطينيين، فاضطر عبدالناصر إلى إغلاق محطة الإذاعة، ومع ذلك فلم يسمح عبدالناصر بتحويل الأمر إلى عداء مصري فلسطيني، وكان يرى بأن من حق الفلسطينيين أن يهاجموا مشروع روجرز والتحرك الأمريكي الجديد، ولكن دون توجيه هجوم للسياسة المصرية التي لم يكن حرصها على القضية الفلسطينية يوماً ما موضع شك».

وعلى نفس الخط يبدو رياض مقتنعاً برأي الملك حسين بل مردداً لهذا الرأي في أن التهور الذي تنادي به بعض العناصر الفلسطينية لن تكون له نتيجة إلا المزيد من الاحتلال:

«وعندما حضر الملك حسين إلى القاهرة في الأسبوع الثالث من أغسطس ١٩٧٠، لاحظت ضيقه الشديد بتصرفات المقاومة في الأردن والتي قد تؤدي إلى احتكاكها بسلطات الأمن الأردنية. ثم ذكر أنه لا يوافق إطلاقاً على رأي بعض العناصر الفلسطينية والتي تنصّور أن احتلال إسرائيل لمزيد من الأراضي العربية كرد فعل للأعمال العدائية الفلسطينية سوف يدفع الدول العربية إلى تعبئة مواردها وإمكاناتها للتصدي للعدوان الإسرائيلي وتحرير فلسطين في النهاية. واستطرد الملك حين قال: إن قبول هذا المنطق سيؤدي إلى احتلال إسرائيل لمزيد من الأراضي العربية، بينما يجب أن نعمل بكل الوسائل للمحافظة على ما في أيدينا من أراضى تنطلق منها من أجل استرجاع ما فقدناه في حرب ١٩٦٧».

(٤٥)

أما موقف محمود رياض من السياسة الأمريكية والحكومة الأمريكية فإنه يتراوح ما بين المعجب والاندحاش والاستنكار ، ويسدو رياض واقعاً تحت تأثير فكرة اتحاد الولايات المتحدة في إسرائيل ونوابها، ولست أحب أن أسعالي على أفكاره فأذكر أن

وأبى هو أن إسرائيل أداة في يد الولايات المتحدة وسياستها المنسمة - أحياناً - بالتلاعب بالشعوب ومقدرات الشعوب ومصالح الشعوب ، ولكنى مع هذا حريص على أن أصور مشاعر محمود رياض تجاه الولايات المتحدة وهو يبدو متخدعاً بالقيم الأمريكية إلى حد بعيد بل إنه يبدو متعاطفاً مع الولايات المتحدة ضد هذا الضغط الصهيونى وهكذا .

ويزاوج موقف محمود رياض من الولايات المتحدة الأمريكية والسياسة الأمريكية فى هذه المذكرات من الأمل إلى اليأس :

فهو حريص على أن يستكر (فى صفحة ١٣٣) أن يقع المجتمع الأمريكى المتفتح فى هذه الرؤية الغيبة تجاه القضية الفلسطينية على هذا النحو ، وهو يروى من الواقع قصة نبين لنا كيف كان بالإمكان أن يتم العزف على مشاعر الشعب الأمريكى بصورة أفضل ، ولكننا كنا غائبين تماماً عن الساحة الأمريكية :

... ولقد كان المرء سندهش ، كيف أن مواطنين شرفاء مستيرين ، كمواطنى المجتمع الأمريكى ، يبنون مشاعرهم على حقائق مزيفة يتم تكرارها لهم كل يوم . وكان يبدو لى أن يهود أمريكا أكثر تشدداً ونظراً من غيرهم من اليهود ، بمن فى ذلك يهود إسرائيل .

لعلنى أقطع سياق حديث محمود رياض هنا لأذكر القارئ بفقرة أوردها وهو يتحدث عن حرب ١٩٦٧ ولقائه بالسفير الأمريكى قبل قطع العلاقات بين مصر وأمريكا حيث يقول :

«ولقد كان السفير الأمريكى ريتشارد نولتى واحداً من مشات الأمريكيين الشرفاء الذين قابلتهم طوال عملى كوزير للخارجية وأظهروا قناعة كاملة بعدالة موقفنا ، ولكنهم كانوا عاجزين عن أن يؤثروا فى الأحداث التى كانت تحركها المصالح الشخصية وجماعات الضغط الصهيونية فى واشنطن» .

ونعود إلى السياق الذى يتحدث فيه محمود رياض عن عجبه من الموقف الأمريكى من الصراع العربى - الإسرائيلى حيث يقول :

«وفى هذا المجال تحضرنى واقعتان بالذات ترسب أثرهما فى نفسى فترة طويلة . فبينما أنا عائد من الأمم المتحدة ذات يوم إلى «فندق والدورف استوريا» الذى أقبم فيه ، تقدم شاب ليصافحنى ، متحدثاً باللغة العربية ولهجة مصرية ، ليطلب منى أن أعاونه فى العودة إلى مصر . لقد ظننته فى البداية طالباً مصرية يدرس فى إحدى الجامعات الأمريكية . ثم

تبين من روايته أنه يهودى مصرى كان يقبم فى مصر إلى أن أخرجه رجال الأمن، فهاجر إلى الولايات المتحدة وعمل فى إحدى شركات التأمين. وهو الآن يريد العودة إلى مصر لأنه مصرى وجمال عبدالناصر هو رئيسه، وليس ليفى أشكول. والواقع أننى تأثرت تماماً بمشاعر الشباب الوطنية ولم أجده ما أقوله له سوى أنه واحد من الضحايا الذين أوقعهم الصراع العربى - الإسرائيلى فى طريقه، وهو صراع سياسى فى أساسه، وليس دينياً.

«أما الواقعة الثانية فلقد كنت خلالها مجرد متفرج، حينما دخلت مصعد الفندق لأجد أمامى آرثر جولدمبرج المندوب الأمريكى الدائم فى الأمم المتحدة، والذي كان هو لسان حكومته فى المنظمة الدولية قبل وأثناء وبعد حرب يونيو. لقد صافحت جولدمبرج، وبعد لحظة دخل شخص آخر إلى المصعد ما أن شاهد جولدمبرج حتى رفع قبعته مقدماً نفسه إليه وقائلاً: إننى مثلك يهودى أمريكى أقيم فى نيويورك، ونابعت كل كلمائك التى أذاعتها شبكات التليفزيون، وأريد الآن أن أحتى رأسى لك شكراً وامتناناً، فلن ننسى أبداً الخدمات الجليلة التى قدمتها إلى إسرائيل».

«لحظتها ابتسم له جولدمبرج، وهو يشمر بالخرج الشديد أمامى».

(٤٦)

وصاحب هذه المذكرات قبل هذا حريص على أن يملجأ إلى إحقاق الحق فى كثير من الأمور التى فرضتها البدعاية الأمريكية على كتابات كثير من أولئك الذين يبدو لنا وكأنهم قد احتكروا الصواب والوطنية بينما هم يرددون لنا بطريقة (ناعمة الملمس) ما تريده الصهيونية على وجه التحديد. وعلى سبيل المثال فإنه (فى صفحة ٢٨٩) حربص على تأكيدات تكذيب مزاعم كيسنجر ونكسون عن دورهما فى أزمة صراع المقاومة الفلسطينية والحكومة الأردنية فى ١٩٧٠، وهو يخصص فقرات طويلة لنقد هذه الرؤية إلى أن يقول:

«وعلى أية حال، أثبت كيسنجر أنه على قدر كبير من القدرة على قلب الحقائق، لأنه استطاع إقناع الكثيرين بأنه كان وراء إنهاء الأزمة الأردنية، وذلك فى الوقت الذى كان

كثيرون يرون بصمات الولايات المتحدة في قيام الأزمة من أساسها. وكان الكثيرون وعدد من وزراء الخارجية العرب يدركون أن للولايات المتحدة وإسرائيل مصلحة مؤكدة في انهيار الجبهة الشرقية وازدياد الخلافات العربية».

□

ونحن نلاحظ أن محمود رياض على وجه العموم - وله كل الحق في هذا - لا يرنح إلى كينسجر ولا إلى أدائه، ونحن نجد هذا المعنى واضحاً حين نقرأ على سبيل المثال هذه الفقرة (في صفحة ٣٧٦) حيث يقول:

«...ولقد خرجت من اجتماعي مع كينسجر بانطباع سيئ، لأن قوله بأنه لم يدرس القضية غير صحيح، فوظيفته تحتم عليه دراستها؛ وقد درسها فعلاً قبل وقت طويل. ثم إنني لمست من أسئلته أنه يبنى الموقف الإسرائيلي من أهمية التركيز على اتفاق مؤقت مع مصر لا علاقة له باطل النهائي، وأهمية فصل مصر عن الدول العربية الأخرى بالنسبة للنسبة الشاملة، وأهمية عدم المطالبة بانسحاب إسرائيل كبرى».

«ولقد حاول كينسجر في حديثه معي أن ينفي أن يكون لديناته اليهودية تأثير على تفكيره السياسي. وقد سألت أحد أصدقائي الأمريكيين الذين شغلوا منصباً كبيراً في الإدارة الأمريكية عما إذا كان يعتبر أن هنري كينسجر صهيوني، فرد مبهماً ومتساهلاً: وهل أعلن كينسجر أنه غير صهيوني؟»

□

كذلك فإن محمود رياض في موضع آخر (صفحة ٥١١) من هذه المذكرات، يحرص على أن يظهر ما يدل على أنه كان يؤيد رأي الرئيس الأسد في أداء كينسجر الحفيث وولائه غير المحدود لإسرائيل وتلاعبه بالالفاظ والتصرفات من أجل تمكينها من إحراز مكاسب في جميع الجبهات:

«وأشار الرئيس الأسد إلى دور كينسجر في عرقلة الحل الشامل، فذكر بأنه عندما استقبل كينسجر في دمشق بعد تنحي نيكسون عن الرئاسة، بدأ كينسجر في الحديث عن سياسة الخطوة خطوة دون الالتزام بالحل الشامل».

«فرد عليه الرئيس الأسد: معنى ذلك أنكم تتحللون من التزاماتكم السابقة بالحل الشامل الذي تعهد نيكسون بالعمل على تحقيقه على مراحل عند زيارته لى في دمشق».

«وعندما حاول كيسنجر التشكيك في ذلك القول أمر الرئيس الأسد بالإتيان بمحضر المباحثات مع نيكسون، وعندئذ سارع كيسنجر إلى القول إن هذه كانت سياسة الرئيس السابق، والآن فهو يعبر عن سياسة الرئيس الحالي».

«فعلق الرئيس الأسد: إن ذلك يدعونا إلى عدم الثقة في أي تعهدات أمريكية وعدم الثقة فيما يقوله أي مسئول أمريكي حتى ولو كان رئيس الولايات المتحدة».

(٤٧)

وفي مقابل هذا الموقف الواضح والصريح تجاه هنري كيسنجر في أكثر من موضع من مذكراته (صفحة ٣٠٩ على سبيل المثال) فإن محمود رياض يحرص على أن يثنى على وزير الخارجية الأمريكي روجرز صاحب المبادرة المشهورة والذي ضحي به نيكسون من أجل كيسنجر، وهو يقدمه للمقارئ في حديثه عنه بصفات حنة، كما يتحدث بتقدير عن جهوده في محاولة إقرار سلام عادل من أجل مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، كما يلفت رياض نظرنا إلى أن روجرز يعد أن وجد قرارات الأمم المتحدة تصدر لصالح العرب بدأ أكثر تفهماً لموقفنا ولوقف المجتمع الدولي، وأصبح بالتالي أقل انحيازاً إلى الرؤية الأمريكية التقليدية المدعومة لإسرائيل على طول الخط:

«ولقد كان وليم روجرز في الواقع شخصية تدعو للاحترام، ويحكم رئاسته لوزارة تضم خبراء محترفين بشئون الشرق الأوسط، فقد كان مسلماً بطبيعة وحجم المصالح الأمريكية في المنطقة، ومحكمه الرغبة في المحافظة على تلك المصالح ونسبتها، ويتمنى التوفيق بين تلك المصالح وبين السلام العادل بين العرب وإسرائيل، ويرى أن هذا ممكن فعلاً لو استطاعت الولايات المتحدة كبح جماح رغبة إسرائيل في التوسع على حساب الآخرين. وفي المرتين اللتين اجتمعت فيهما به بنيويورك كان هناك فارق كبير بين انطباعاتي عن روجرز، ففي المرة الأولى كان يثير قضية انتهاكنا لوقف إطلاق النار كمقدمة للتأثير في موقفنا، ولكنه في المرة الثانية بعد أن أصدرت الجمعية العامة قرارها بدأ يدرك أن المجتمع الدولي ليس مستعداً على الإطلاق لمساندة إسرائيل في احتلالها لأراضيها، وإن الحكومة الأمريكية تجازف بالكثير من هيبتها في المجتمع الدولي بانساقها

وراء الحجب الإسرائيلي المتعنتة التي تموق في النهاية أية مساعي جادة نحو السلام في الشرق الأوسط.



كذلك يبدو محمود رياض في هذه المذكرات متأثراً بالجو الذي شاع أن الأمريكيين عموماً كانوا يرون أن السادات متساهل وأن وزراء خارجيته هم المتشددون، ويروى رياض بطريقة غير مباشرة (صفحة ٣٧٢) أنه شخصياً كان بالطبع أول من عانى من هذه النظرة:

«.. وأثناء هذه المقابلة حدثت مواجهة بيني وبين روجرز لم أكن أتوقعها ولم أعرف في ذلك الوقت ما إذا كانت هذه المواجهة مجرد زلة لسان منه، أو أنها كانت مقصودة. فلقد فاجأني وزير الخارجية الأمريكي بقوله إن الرئيس السادات يقبل بالاتفاقية المؤقتة وبالحل الجزئي. ولكنك أنت الذي ترفض ذلك وتصر على النسوية الشاملة. وعندئذ تذكرت أن هذا هو نفس ما رددته برجس في القاهرة».

«ولقد ساءني تعليق روجرز هذا، فهو تدخل غير لائق في العلاقة بيني وبين الرئيس السادات، فحتى لو افترضنا أن هناك خلافاً في الرأي فلا يجوز لوزير خارجية دولة أجنبية أن يخوض فيه معي».

ويستأنف محمود رياض تعبيره عن موقفه تجاه هذه الرؤية بقوله:

«ولقد ضبظت أعصابي وأجته بهدوء بأن الرئيس السادات قد أعلن في خطاب يوم ١٦ سبتمبر أنه يقبل بالمرحلة الأولى التي نقوم فيها إسرائيل بالانسحاب ضمن برنامج للانسحاب الكامل من كافة الأراضي العربية. وقد أكد الرئيس في خطابه مرة أخرى على أن المرحلة الأولى بحسب ألا تزيد على ستة شهور تبدأ بعدها المرحلة الثانية من الانسحاب إلى حدود مصر الدولية ومن الأراضي العربية المحتلة منذ حرب يونيو. وقلت لروجرز: إنكم لا بد وقد افلظتم هنا على خطاب الرئيس، ولم أشأ أن أسترسل في سرد بقية خطاب الرئيس له. فقد ذكر الرئيس أن الولايات المتحدة تقوم بعملية تضليل وخداع، فهي تذيب أن الاتصالات بينها وبين مصر مستمرة. وأن مصر قبلت بالحل الجزئي. وأشار الرئيس إلى مهمة سيسكو الفاشلة في إسرائيل وإلى أن الولايات المتحدة حتى هذه اللحظة - أي بعد مضي أكثر من شهرين على عودة سيسكو - لم نخفرتنا بما جرى بينها وبين إسرائيل. وأعلن أنه كلغني بالسفر إلى الأمم المتحدة وإعلان ذلك في

الجمعية العامة، وأن أطلب بإجتماع لمجلس الأمن وعلى مستوى وزراء الخارجية حتى
تحدد الولايات المتحدة موقفها في هذا الاجتماع».

(٤٨)

ويعود محمود رياض ليكرر شعوره بالضيق تجاه تعليق وزير الخارجية الأمريكي حتى
ليبدو لنا أن رياضاً كان واعياً لهذه الطريقة الأمريكية في الإيقاع بين المسؤولين المصريين
ورئيسهم ، وهى الطريقة التى كانت تفلح فى كثير من المرات فيما بعد، وسنقرأ على
وجه الخصوص أصداءها فى الباب الثالث من هذا الكتاب عند حديثي عن مذكرات
محمد إبراهيم كامل :

«ولقد رأيت أن كلمات روجرز فيها الكثير من التجاوز، فهو يدعى أمامى وعلى
لسان الرئيس السادات عكس ما يعلنه الرئيس فى اجتماعاته وخطبه الرسمية. وعندئذ
سمعت من سيسكو الذى كان يجلس إلى يسارى وهو يقول بشيء من العصبية: إننا نريد
أن نجعل من الرئيس السادات بطلاً».

«وأجبتة قائلًا: مستر سيسكو.. إن الرئيس السادات لا يريد منكم أن تجعلوه بطلاً،
وكل ما يريده هو استرداد الأراضي العربية المحتلة».

ثم ينهى صاحب المذكرات حديثه فى هذه النقطة بما توصل إليه من إحساس روجرز
ومساعديه بالفشل وفقدان الدور وبخاصة بعد صعود نجم هنرى كيسنجر :

«ولقد خرجت من تلك المباحثات مع روجرز وسيسكو بانطباع أنهما يعانيان من
الفشل. وفقدان أى دور لهما فى السياسة الخارجية الأمريكية، بعد نجاح هنرى كيسنجر
فى استبعاد دور وزارة الخارجية، وهكذا فإن روجرز فى سعيه مع مصر إلى اتفاقية مؤقتة
أو إلى حل جزئى، كان يقوم بأمر محاولة لتسجيل نقطة نجاح، ولو كانت على حساب
مصر وعن طريق إيهام العالم والشعب الأمريكى بأن هناك اتصالات ناجحة يقوم بها.
وعندما رفضت محاولاته غضب روجرز واتهمنى بالتشدد. وقد اكتشفت بأن من
الأسباب الإضافية لضيقه أننى أدليت بتصريح فى اليوم السابق للمقابلة لمحطة كولومبيا
الأمريكية للتليفزيون قلت فيه إنه لم يحدث أى اتصال بين مصر والولايات المتحدة منذ

أكثر من شهرين، كما ذكرت أن الولايات المتحدة لم تحظونا بتصورها عن كيفية ارتباط الانسحاب الإسرائيلي الجزئي بالتسوية السلمية الشاملة. وقلت أيضاً: إن وزير الخارجية الأمريكى عندما كان يزور القاهرة فى شهر مايو ذكر لى أنه لا يستطيع أن يطلب من مصر أكثر مما قدمت فى ردها الإيجابى على يارنج، كما ذكر أنه أصيب بخيبة أمل تجاه موقف إسرائيل^٤.



ولكن هذا الموقف الذى انتهى إليه محمود رياض فى تقييمه لروجرز لا ينفى حقيقة أن محمود رياض يذكر فى فصل كامل من هذه المذكرات أن روجرز كان هو صاحب تعبير سنة الحسم وليس أنور السادات، ثم يصرح محمود رياض (صفحة ٣٦٨) بهذا المعنى بوضوح شديد ويقول:

«وقد شعر الرئيس السادات عندما أبلغته بما جاء به برجس باليأس من موقف الولايات المتحدة، وكان قد تولد لديه بعض الأمل عندما جاء روجرز إلى القاهرة وأكد أن عام ١٩٧١ هو عام حاسم فى تحقيق السلام، فكرر الرئيس هذا الوصف فى بعض تصريحاته معتقداً بأن الولايات المتحدة سوف نبذل جهداً حقيقياً من أجل السلام».

«إلا أنه فوجئ بأمريين، تراجع أمريكى إزاء مقترحاتها السابقة، ومضاعفة معونتها العسكرية لإسرائيل. فأعلن أمام مجلس الشعب أنه اقترح إعادة فتح قناة السويس لإثبات نوايا مصر السلمية وتيسير الملاحة الدولية، ولكن إذا فهم أننا نريد حلاً جزئياً أو منفصلاً فلن نعيد فتحها بل الأفضل ردها».

(٤٩)

وعلى عكس ما هو متوقع من دبلوماسى مصرى عانى الأمرين بسبب نجاحات إسرائيلية متصلة فى محاولة فرض الأمر الواقع بالقوة، فإن محمود رياض فى هذه المذكرات يبدو غير مبهر بالأداء الإسرائيلى فى المجال الدبلوماسى:

١ - فهو (فى صفحة ١٧٠) يتحدثنا عن خبرة مبكرة اكتسبها وأجادها فى التفاوض مع إسرائيل فى أعقاب حرب ١٩٦٧ ويقول:

«... وأصبحت المذكرات الإسرائيلية لكثرتها تكرر نفسها إلى درجة أن السفير يارنج

حينما أخطرني مرة بأنه سوف يرسل لي مذكرة نلقاها من أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل، فطلبت من اللجنة المشكلة في وزارة الخارجية أن تعد ردنا على مذكرة إيبان. وعندما قال لي أحد أعضاء اللجنة إن مذكرة إيبان لم تصل إلينا بعد، طلبت إليه أن يعود إلى المذكرات السابقة لإسرائيل، ويعد الرد على أسامها. وأعدت اللجنة ردها، وعندما وصلت مذكرة إيبان لم يكن على اللجنة إلا إضافة التاريخ لردنا على المذكرة الإسرائيلية^٤.

٢ - وهو يتحدث بكل صراحة عن الغباء الإسرائيلي في موضع آخر (صفحة ٣١٦) من مذكراته راوياً أن ديان اقترح ذات مرة اقتراحاً كان يفيد دولته ، ولكن الحكومة الإسرائيلية غلبت الناحية السياسية ففقدت المزايا التي كان يقدمها اقتراح ديان:

١... وبالإضافة إلى ذلك فقد أعلن موسى ديان وزير الدفاع، اقتراحاً يقضى بانسحاب إسرائيل جزئياً شرق قناة السويس، لمسافة تسراوح ما بين ثلاثين وأربعين كيلومتراً، وذلك في مقابل أن تقوم مصر بتطهير قناة السويس وإعادة فتحها للملاحة الدولية^٥.

«وكان اقتراح ديان ذا فائدة عسكرية لإسرائيل حيث تستطيع قوات قليلة الحجم التركز في خط المضائق واستمرار سيطرتها على سيناء، إلا أن الحكومة الإسرائيلية رأت أنه من الناحية السياسية الأفضل لها الاستمرار في احتلالها للضفة الشرقية للقناة».

(٥٠)

وعلى المستوى الشخصي يبدو محمود رياض في حديثه عن نفسه في هذه المذكرات في منتهى الأدب والرفقة والكياسة، وهو يتحدث عن المناصب الثلاثة الكبرى التي تولّاها سفيراً ووزيراً وأميناً للجامعة العربية بنواضع شديد، فأما عن اختياره سفيراً فهو يقول :

١... وحدث تطور جديد عندما لمس الرئيس عبد الناصر أهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه سوريا في السياسة العربية ، فسمي إلى توطيد العلاقات معها وقرر تعييني سفيراً لمصر في سوريا في ربيع ١٩٥٥ للقيام بهذه المهمة وأطلق يدي في العمل لتحقيق هذا الهدف^٦.

«ولم أكن في حاجة إلى وقت طويل لتوطيد علاقتي مع كافة الأحزاب السورية ومع

قيادات الجيش وقد لمست قوة المشاعر العربية في سوريا ومساندة الشعب المعنوية لكل قضية عربية وإيمانه العميق بالوحدة العربية» .

«وعندما تبين للسوريين الدور القيادي لعبد الناصر في العمل على استقلال كافة الشعوب العربية والتخلص من السيطرة الأجنبية وإصراره على سياسة عدم الانحياز والسعي من أجل وحدة العمل العربي ، أصبحت مصر أقرب ما يكون لقلب كل سوري» .

«وعندما لمست هذه المشاعر القوية اقترحت على الرئيس عبد الناصر في شهر يوليو ١٩٥٥ عقد اتفاقية عسكرية مع سوريا وإنشاء قيادة عسكرية موحدة يمكن أن تنضم لها الأردن فيما بعد» .

«وكننت أرى أن لنجاح الدول الثلاث في إقامة وحدة عسكرية سيحول دون قيام إسرائيل بأى عدوان على الدول العربية» .

«وقد تردد الرئيس عبد الناصر في البداية بسبب تخوفه من أن تؤدى الخلافات بين الأحزاب السورية إلى عرقلة الاتفاقية فيسوء الإخفاق إلى موقف مصر السياسى فى العالم العربى إلا أن تردده زال عندما أكدت له أن قادة الجيش السورى يؤيدون الاتفاق وأنه لا توجد معارضة بين السياسيين لئىل هذا الاتفاق . وإدراكاً من قادة الجيش السورى لأهمية الاتفاق تجاوبوا بسرعة مع الاقتراح ووقعت الاتفاقية فى دمشق فى ٢٠ أكتوبر ١٩٥٥ ثم انضمت لها الأردن فى أكتوبر عام ١٩٥٦» .

وعلى الرغم من هذا التفصيل الذى يذكر به محمود رياض ما أحاط بتوقيع اتفاقية الدفاع المشترك من ترتيبات، فإن مذكراته تهمل تماماً تحقق الوحدة بين مصر وسوريا، وحدوث الانفصال... وربما أن محمود رياض ومساعديه فى كتابة هذه المذكرات ظنوا أن هذا مما يخرج عن موضوع المذكرات، بينما لا يمكن لأى مؤرخ أو مراقب أن يغفل أن حدوث الوحدة بين مصر وسوريا كان أكبر باعث على تطوير وتكثيف السياسات الإسرائيلية (والغربية) من أجل تصعيد وتعقيد ما يمثلته الوجود الصهيونى!!

ولهذا فإننى لا أستطيع أن أدافع عن صاحب هذه المذكرات فى إهماله الحديث بالتفصيل الوافى عن هذا الحلم العربى الكبير.

أما اختياره وزيراً للخارجية فهو يرويه على النحو التالي :

«فدعا عبدالناصر إلى عقد قمة عربية في يناير ١٩٦٤ للنظر في تنفيذ المشروع العربي لاستغلال مياه نهر الأردن؛ وهو مشروع كنت قد أشرفت على وضعه مع مجموعة من المهندسين العرب وسبق لى وبحته مع إريك جونسون عندما جاء يمثل حكومة الولايات المتحدة ويحمل معه مشروعاً أمريكياً لتوزيع المياه بين إسرائيل والعرب، إلا أننا لم نصل إلى اتفاق بسبب إصرار إسرائيل على الحصول على معظم مياه نهر الأردن».

«وقد استدعاني عبدالناصر من نيويورك حيث كنت أشغل منصب المندوب الدائم لمصر لدى الأمم المتحدة للاشتراك في مؤتمر القمة».

«وتقرر في هذا المؤتمر إنشاء قيادة عسكرية عربية موحدة للدفاع عن الأراضي العربية ضد أي تهديد إسرائيلي، وخصص لها مبلغ ١٥٤ مليون جنيه إسترليني».

«كما تقرر إنشاء هيئة للإشراف على تنفيذ المشروع العربي لاستغلال مياه نهر الأردن. وكانت إسرائيل قد بدأت في مشروعها لتحويل مياه نهر الأردن إلى النقب».

«كذلك تقرر قيام تنظيم فلسطيني وهو منظمة التحرير».

«ورجعت إلى القاهرة في شهر أبريل ١٩٦٤ لأشغل منصب وزير الخارجية. وفي اجتماع مع عبدالناصر لتحديد الخطوط العريضة لسياستنا الخارجية، كان واضحاً أمامي المشاكل التي تواجهنا في هذه الفترة، فقد بدأ التهديد الإسرائيلي للدول العربية يتزايد، وكان يمثل في غاراتها على سوريا لمرقلة الأعمال الإنشائية التي تقوم بها سوريا لتحويل قسم من مياه نهر الأردن، كما كانت تواصل غاراتها على عدد من مدن الضفة الغربية».

على هذا النحو التفصيلي بحدوثنا رياض عن الظروف التي دعت إلى تعيينه وزيراً للخارجية في ١٩٦٤، ولكنه في المقابل يهمل تماماً خروجه من الوزارة في مطلع ١٩٧٢ حين شكل الدكتور عزيز صدقي وزارته، ولا يتحدث عن هذا الخروج إلا حين يقول في سياق حديث عابر إنه كان قد أصبح مستشاراً للرئيس للشئون السياسية (صفحة ٣٩٥).

أما ترشيحه وانتخابه أميناً عاماً للجامعة العربية فبأى فى سياق حديثه عن فترة السبعينيات، وهو لا يجد حرجاً أن يبدو فى الرواية التى يقدمها وكأنه أصبح أبعد من السادات على حين أصبح محمد حافظ إسماعيل أقرب إلى السادات، وكان كلاهما مستشاراً للرئيس، محمد حافظ إسماعيل لشئون الأمن القومى، ومحمود رياض للشئون السياسية. وقد كان الوضع فى أول عهد السادات على هذا النحو من كثرة المناصب الموازية بحيث لا يخرج الوزراء السابقون ولا المسئولون من دائرة السلطة وإنما هم مستشارون، ولتذكر أن محمود فوزى نفسه كان قد أصبح نائباً للرئيس للشئون الخارجية، أما وزارة الخارجية فقد أسندت إلى الدكتور محمد مراد غالب، وكان فى الوزارة نفسها وزيران مرشحان لتولى الخارجية عن قريب وهما الدكتور محمد حسن الزيات وزير الدولة للإعلام (وقد تولاها بالفعل) والدكتور زكى هاشم وزير السياحة (وقد تولى الوزارة خلفه فى وزارة السياحة إسماعيل فهمى). ونأتى الآن إلى النص الذى يتحدث به عن ترشيحه لأمانة الجامعة العربية، وهو النص الوحيد الذى أورد فيه ما يفهم منه أنه ترك الوزارة وأصبح مستشاراً للرئيس للشئون السياسية:

«... ولقد بقيت فى منصبى كمستشار للرئيس السادات للشئون السياسية ستة أشهر، إلى أن نشأت ظروف جديدة جعلتني فى موقع آخر، فلقد نقل حافظ إسماعيل مستشار الرئيس للأمن القومى إلى الرئيس نتيجة مناقشة أجراها معي بشأن الموقف، فشرحت له تصوري بإمكانية إعطاء دفعه قوية لموقفنا السياسى والمكبرى عن طريق العمل العربى الموحد. واستدعانى الرئيس السادات ليخطرني بأنه يرى ترشيحي لمنصب أمين عام الجامعة العربية، نظراً لأهمية العمل العربى فى المرحلة القادمة، ولأننى عملت بالقضية العربية لسنوات طويلة وتربطنى علاقات شخصية بمعظم القادة العرب. ولقد اجتمع مجلس الجامعة فى أول يونيو، حيث تم تصويت الدول الأعضاء على اختيارى للمنصب، وعندما التقيت بالرئيس السادات يوم ١١ يونيو أخطرني بأنه يواصل الإعداد للمعركة ويأمل فى مواصلة جهدى فى الجامعة لتحقيق أقصى حد من المساندة والنضال العربى».

على هذا النحو يقدم محمود رياض حصوله على هذا المنصب مع أن المسألة لم تكن بهذه البساطة بالطبع ، وسوف نجد تفاصيل أكثر عن وصول رياض إلى هذا المنصب فيما سوف نقرأه فى الباب الخامس من هذا الكتاب من مذكرات الدكتور عبد الوهاب العثماني « شرح فى جدار الجامعة العربية » .

على كل الأحوال فإن محمود رياض يبدو حريصاً فى هذه المذكرات على أن يثبت ترحيبه بعمله الجديد كأمين عام للجامعة العربية حيث يقول :

«..... ولقد كانت مهمتى الجديدة كأمين عام للجامعة العربية هى فى الواقع أقرب ما يمكن إلى نفسى، فلقد كرست كل جهودي منذ مدة طويلة لخدمة القضية العربية ، التى تنصدها مأساة الشعب الفلسطينى ، والتى زاد عليها منذ يونيو ١٩٦٧ مشكلة احتلال اسرائيل للأراضي العربية».



أما قصة استقالته من الجامعة العربية فبروبها محمود رياض باختصار شديد على النحو التالى :

«وقد كنت عقدت العزم بعد قمة بغداد على الاستقالة من منصبى كأمين عام للجامعة العربية، فقد انتهزت العلاقات بين مصر والدول العربية وانهار معها أمل تحقيق وحدة العمل العربى الذى كنت أؤمن به وأعمل له».

فأرسلت خطاب الاستقالة إلى ملوك ورؤساء الدول العربية فى ٢٢ مارس ١٩٧٩ ، ذاكرا فيه أن الرؤساء العرب عند اجتماعهم بالقاهرة فى أكتوبر ١٩٧٦ كلفونى بالاستمرار فى المهمة التى أتولاها منذ يوليو ١٩٧٢ كأمين عام للجامعة الدول العربية. وأن هذه المهمة بالنسبة لى كانت مبعث فخر واعتزاز كبيرين، فالوحدة العربية هدف أمنت به طوال حياتى وقضية عملت من أجلها سنوات طويلة من قبل أن نصبح شاغلى الأول كأمين للجامعة العربية».

«و كنت أشعر دائماً أنه إذا كانت الوحدة العربية هدفاً يحتاج تحقيقه إلى زمن غير قصير فإن هناك حداً أدنى من وحدة العمل العربى يجب أن يتوافر على الدوام».

«ولقد بذلت من الجهود قدر ما استطعت لكى يتوفر ذلك الحد الأدنى ، ولكن التطورات التى تمر بها العلاقات العربية قد أهدرت ذلك الحد الأدنى ولذلك أصبحت

غير قادر على الاستمرار في أداء الرسالة التي آمنت بها وسميت لتحقيقها ولذلك أرجو اعتبار مهمتي منتهية في آخر مارس ١٩٧٩.

ويردف محمود رياض بالقول:

"وعندما اجتمع مجلس الجامعة يوم ١٤ مارس في مقديشيو أعلنت استقالتى أمام المجلس. وقد زارنى إثر الاستقالة عدد من وزراء الخارجية لإخطاري بأن مجلس الجامعة قد اتخذ قراراً بالإجماع لمناشدتى بالعودة عن الاستقالة ، مما كان له فى نفسى بالغ الأثر، فشكرت لهم وللمجلس ثقتهم وأكدت أن نركى منصب أمين الجامعة لا يعنى توقفى عن العمل لخدمة الأمة العربية وقضاياها.

(٥٣)

وتحتل مذكرات محمود رياض بكثير من الجزئيات المهمة لتاريخنا كله، بعد كل هذه القضايا الكبرى التى عرضناها على مدى هذه الصفحات، ومن الأمور الفرعية المهمة التى تدلنا عليها هذه المذكرات ما يرويه محمود رياض فى أكثر من موضع عن أزمة الثقة التى نشأت بين سلاح الطيران المصرى وبين القيادة الساسية للدولة وهو حديث مهم جداً على الرغم من أنه يأتى فى هذه المذكرات بطريقة عابرة جداً ، ولكنه يفسر لنا كثيراً من الوقائع التى حدثت بعد ذلك بل وقبل ذلك.

وهو يحدثنا (فى صفحة ٦٠) عن صدى معركة يونيو ١٩٦٧ فى نفسية ضباط سلاح الطيران فيقول:

"وعندما توجهت إلى المطار لتوديع عبدالعزيز بوتفليقة، قابلت عدداً من الطيارين المصريين الذين سيتوجهون بصحبته إلى الجزائر للسعودة بطائرات الميج الجزائرية وكانوا جميعاً فى حالة غليان وسخط شديد، وذكروا أنه طالما كنا نتوقع الهجوم الإسرائيلى فقد كان لزاماً علينا أن نبادر بالضربة الأولى حتى لا نفقد طائراتنا على الأرض".

"ولقد استمعت منهم لأول مرة إلى تفصيلات هجوم الطائرات الإسرائيلية وكيف أنها تطير على ارتفاع منخفض حتى لا يكتشفها الرادار الموجود لدينا فى ذلك الوقت، وأن بعض أسراب الطائرات الإسرائيلية يمتد شمالاً فوق البحر الأبيض المتوسط ثم انجھت

جنوياً نحو أهدافها داخل مصر مهاجمة جميع مطاراتنا العسكرية فى وقت واحد. وقد كان جزء كبير من سخطهم يرجع إلى أنه يفرض وجود قرار سياسى بعدم البدء من جانبنا فى الهجوم، فقد كان من الواجب وجود مظلة جوية لحماية مطاراتنا.



وهكذا يبدو محمود رياض وهو يحاول بطريقة غير مباشرة أن يلفت نظر قرائه إلى ما لاحظته هو نفسه من أن سلاح الطيران كان مظلوماً فيما حاولت القيادة السياسية (ومن ثم مظاهرات ١٩٦٨ فيما بعد) من الإحياء بمسئوليته عن الهزيمة، وعندى أن هذه الفقرة من كتاب محمود رياض تنطق بالإنصاف فى خليفه لأنه لم يكن مضطراً إلى مثل هذه الشهادة وكان فى وسعه أن يشتر عليها، لكنه رآها - أى الشهادة - واجبة فى ضوء الأحداث التى تسببها فأبداها وسجلها ولم يكتسها، وهكذا نجا من الإثم أمام الله ولا نركى على الله أحداً.

وفى وسط الكتاب تقريباً (صفحة ٢٠٣) يتحدث محمود رياض عما أحسه وشاهده ولمسه من إلحاح سلاح الطيران المصرى من أجل الإسراع فى خوض المعركة:

«وبدأ سلاح الطيران المصرى بضغط على عبدالناصر من جديد للاشتراك فى المعركة. لكن عبدالناصر كان يطلب منهم كبح جماح مشاعرهم الغاضبة، وأن علينا أن نتحمل ضربات إسرائيل دون أن نفقد أعصابنا. واستمرت الغارات الإسرائيلية ضد الأهداف الاقتصادية والمهنية مع بداية عام ١٩٧٠ حتى يوم ١٨ أبريل عندما كانت مجموعة من الطائرات الإسرائيلية تحلق فى الجو جنوب السويس متجهة إلى وادى النيل لمواصلة الغارات ضد المدنيين، فتوجست بتعرض طائرات ميج لها يتحدث طياروها باللغة الروسية، فعدت إلى قواعدها وتوقفت منذ ذلك التاريخ الغارات الإسرائيلية على الأهداف المدنية».

(٥٤)

كذلك يناقش صاحب هذه المذكرات فى كتابه جزئية فى غاية الأهمية لتاريخنا المعاصر، وهى تتعلق بالكيفية التى كانت المعلومات تصل بها إلى قيادتنا، فعلى نحو ما

عرف بعض المثقفين بالنتيجة المبكرة لحرب يونيو ١٩٦٧ من الأستاذ محمد عودة بعد عودته من مقابلة الصحفي السوفيتي (مندوب جريدة البرافدا) بريماكوف (رئيس الوزراء السوفيتي فيما بعد) فقد عرف محمود رياض بالظهورات من حامد السابح (وزير الاقتصاد فيما بعد) وقد كان وكيلاً للوزارة في ذلك الوقت الذي كان قد عرف بالأنباء من سكرتير أول السفارة الأمريكية عند لقائه به:

«... في اليوم التالي، ٨ يونيو، اتصل بي الدكتور حامد السابح وكيل وزارة الاقتصاد وأبلغني بأن سكرتير أول السفارة الأمريكية بالقاهرة كان في زيارته، وأخبره بأن الضفة الغربية لنهر الأردن قد سقطت بالكامل في يد إسرائيل، وأن الجيش المصري قد تحطم في سيناء، وأنه يحسن أن تسرع مصر بالإعلان عن وقف إطلاق النار».

وعلق محمود رياض هنا تعليقاً في غاية الأهمية يرينا به كيف كانت طبول التضليل قادرة حتى على خداع السفراء الموجودين في العواصم الأجنبية:

«ولقد تبين فيما بعد أن مثل هذه المعلومات كانت تصل إلى سفاراتنا في الخارج إلا أن السفراء كانوا يسمعون نقيضها تماماً من إذاعة القاهرة فيأخذون بما يصلهم من القاهرة».

ويردف محمود رياض هذه الفقرة بالحديث الذي بصور به الناحية الأخرى تماماً والذي ينبئنا أن خططنا في خداع النفس ظلت مستمرة حتى رابع أيام الحرب:

«وفي ذلك اليوم أيضاً، ٨ يونيو، وصلتني المعلومات التالية من القيادة: إن عدد الطائرات المعادية للغبرة قد أصبح أقل منه في الأيام السابقة، وأن نيران الدفاع الجوي المصري مؤثرة للغاية، وأنها قد أسقطنا عدداً كبيراً من الطائرات الإسرائيلية، وأنه تمت إبادة قوة من المظليين الإسرائيليين في عمر متلا، وأن طائرتنا قامت بضرب فوج مدرع إسرائيلي في منطقة رمانة وحالت دون تقدمه».

ولا يجد محمود رياض بعد هذا حرجاً في انتقاد الأداء العسكري وفي إلقاء اللوم على هذا السبب في فشل الأداء السياسي والدبلوماسي في أن يعقب بقوله:

«إن مثل هذه المعلومات التي ثبت فيما بعد مخالفتها للواقع، تعطى صورة صادقة عن مدى الانهيار في القيادة العسكرية، كما أنها كانت تؤدي أيضاً إلى شل الجهود السياسية وعدم واقعيتها».

ولا يغفل صاحب هذه المذكرات على مواطنيه وحكومته بالنصيحة القيمة بأهمية الدبلوماسية الشعبية، وذلك على الرغم من أنه يتخذ في هذه المذكرات سمت الدبلوماسي البيروقراطي ولكنه بعد التجربة الأليمة التي مرت بها بلاده بعد حرب ١٩٦٧ فإنه يتنبه إلى أن يحثنا في ذكاء شديد على العناية بالعلاقات الدبلوماسية مع الشعوب وليس مع الحكومات فقط، وهو لا ينسب إلى هذا المعنى إلا مؤخراً جداً (في صفحة ١٧٢) وبعد وقوع الهزائم العسكرية وبداية النذر المتبهاة إلى احتمالات نواتر هزائم دبلوماسية أيضاً، حيث يقول:

«وفي طريق العودة إلى القاهرة توقفت في براغ، حيث تلعت حكومة جديدة مقابليد الحكم وأخذت بعض وسائل الإعلام ندعو الحكومة التشيكية إلى إعادة العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل».

«وسألت وزير الخارجية التشيكي، وكنا قد عملنا سوياً في الأمم المتحدة عندما كان مندوباً دائماً لبلاده، عن سبب تلك اللهجة الجديدة، فأجابني بصراحة بأن الأقلية اليهودية في براغ أصبح لها نفوذ في وسائل الإعلام، وقد انتهزت فرصة الحرية النسبية التي سمح بها في وسائل الإعلام للمطالبة بإعادة العلاقات مع إسرائيل».

هنا يعقب محمود رياض بما خرج به من الحكمة في ذلك اليوم وليس قبله ويقول بكل صراحة :

«وفي هذا اليوم اكتشفت خطأ اعتمادنا على الحكومات وحدها، وإن علينا أن نكتف اتصالاتنا مع جميع القطاعات الشعبية في كافة الدول، حتى الاشتراكية منها، وهو الاتجاه الذي بدأنا نسير فيه فعلاً في السنوات التالية».

وكعادة كل جهد بشري فإن هذا الكتاب لا يخلو من الأخطاء. فاما الخطأ الأكبر (وهو وحيد) في هذا الكتاب فيأثر (في صفحة ٥٥٥) حيث يقول صاحبه:

«فإسرائيل تدخل مفاوضات مباشرة مع مصر وهي تحتل الأراضي العربية في سيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة بعد أن فشلت حرب ١٩٧٣ في تحرير هذه الأراضي».

إنني لأتشعر وأنا أقرأ لمحمود رياض وصفه لحرب أكتوبر ودورها في تحرير الأراضي وقد جاء بهذا اللفظ الفج «فشلت»، وإنني لأبرأ بمحمود رياض أن يكون هذا هو رأيه، والحمد لله فقد تحررت أراضينا بفضل هذه الحرب وما أعقبها من سياسات الرئيسين العظيمين الوطنيين المخلصين اللذين كانا من الذين قادوا هذه الحرب نفسها.

٢ - من الأخطاء الفنية في الطباعة التي يبدو أنها نتيجة العناية في المونتاج حين كانت الصفحات تعد بطريقة القص واللصق من الشرائع التي تخرجها أجهزة الجمع التصوري، أن نجد الكلام وهو يفتقد فقرات يبدو أنها ضاعت في أثناء عملية المونتاج لأن السياق غير متصل، ونجد هذا بصفة خاصة في صفحة ٣١٠ وفي صفحة ٤١٨ من الطبعة التي أشرنا إلى تناولها في هذا الباب .

٣ - كذلك يقع محمود رياض في خطأ ظاهر من التناقض التاريخي (في صفحة ٣٤٣) حيث يبدو من سياق كلامه أن أول مايو يسبق منتصف أبريل (!!!)، وهذا لا يحدث أبداً إلا في عامين مختلفين بالطبع:

«... وقد أعلن الرئيس (أي السادات) في خطابه في عيد العمال في أول مايو توضيحات قاطعة لمبادرته بأنها جزء مرتبط تماماً بالحل الشامل. ولم أبق بالقاهرة سوى أربعة أيام فقط، طرت بعدها إلى موسكو للتشاور مع الحكومة السوفيتية طبقاً للتفاهم الذي كان قد تم بينا أثناء زيارة بودجورنى للقاهرة في شهر يناير. وهكذا سافرت إلى الاتحاد السوفيتي في ١٥ أبريل وكانت لهذه الزيارة أهمية سياسية لأنها جاءت في أعقاب فشل مبادرة يارنج».

٤ - أما نموذج الخطأ التاريخي فبأتمى (في صفحة ٣٥٥) حين يتحدث محمود رياض عن أن مندوب مصر في الأمم المتحدة في ١٩٧١ كان محمد عوض القوسى، بينما كان مندوب مصر وقتها هو الدكتور محمد حسن الزيات، ولتقرأ الفقرة كلها:

«ولقد حدث مثلاً أن أبلغنى مندوبنا الدائم فى الأمم المتحدة بأن مندوب فرنسا الدائم فى الأمم المتحدة أخبره بأن الإسرائيليين يقولون إن إسرائيل تلقت تأكيدات من الولايات

المتحدة بأن مصر لن تستأنف العمليات العسكرية بعد انتهاء مدة سريان وقف إطلاق النار في ٧ مارس ١٩٧١، وإن الولايات المتحدة قد حصلت على تلك التأكيدات من أحد الشخصيات المصرية. فأخبرت الرئيس السادات عندما قابله يوم ٢٢ أبريل برسالة القنوي، فتفى حدوث ذلك، وعندما أشرت إلى أننا قد استنفدنا كل جهد من أجل تحقيق الحل السلمي وأن الدول الصديقة أصبحت تؤيد قيامنا بالعمل العسكري فرد قائلاً: إننا ربما تستأنف العمليات العسكرية في شهر مايو أو يونيو».

ومن الواضح أن المتدوب الذي يقصده محمود رياض هو محمد حسن الزيات أما محمد عوض القنوي فقد كان وصل إلى منصب وزير السياحة في ١٩٦٩ وترك العمل الدبلوماسي كله. ولعل ذكره كمتدوب دائم لمصر في الاسم المتحدة مازالت محفورة في ذاكرة محمود رياض يوم اتصل به من أجل وقف إطلاق النار في ١٩٦٧ وكان اتصاله أعنف صدمة تلقاها في حياته وهو يعبر عن هذه اللحظة الحرجة في موضع آخر بقوله:

«وفي اللحظات الفاصلة بين مكالمات الرئيس ومكالمة السفير القنوي بدأت أفكر في عواقب هذه الهزيمة المروعة - والأيام الحالككة التي تنتظرنا - والانتصار القائم على الحديعة والنضليل الذي أحرزته إسرائيل بتواطؤ مسبق مع الولايات المتحدة.

»... وعندما جاء صوت محمد عوض القنوي على التليفون من نيويورك أخيراً كانت الساعة قد اقتربت من العاشرة ليلاً (٨ يونيو) بتوقيت القاهرة والثامنة بتوقيت جرينتش».

وعندما أبلغت القنوي بالموقف أدركت من نبرة صوته أن ما سمعه كان أعنف صدمة يتلقاها في حياته، فلقد كنت طوال الأيام القليلة الماضية أنقل إليه البيانات التي تصل من القيادة عن الموقف العسكري، والتي اتسمت جميعها بعدم مطابقتها للواقع وبالتالي فقد كان محمد عوض القنوي يرفض تصديق المعلومات التي فصله من الغرباء الأجانب في نيويورك عن انهيار الجبهة، والآن فما نحن جميعاً نكتشف في لحظة واحدة عالم الوهم الذي كنا نعيشه».

«وبرغم أن محمد عوض القنوي قد أبلغ مجلس الأمن رسمياً بقبولنا وقف إطلاق النار، وبغير شروط، إلا أن إسرائيل واصلت العمليات العسكرية من جانبها حتى اكتمل لها احتلال سبئاء كلها. وهكذا، فإن إسرائيل في اليوم التالي، ٩ يونيو، واصلت هجماتها الجوية على منطقة السويس وبالذات على ميناء الأدبية».

ونحن نجد محمود رياض فى بعض فقرات هذا الكتاب يلجأ إلى منطق مقلوب، وربما لم يكن رياض هو المخطئ وإنما من حرر الكتاب أو طبعه أو ترجم بعض فقراته من الإنجليزية إلى العربية أو من العربية إلى الإنجليزية ثم العكس؛ لذلك فإننى لا أستطيع أن آخذ هذا الخطأ على محمود رياض نفسه، وإنما أنصوره فى إطار أخطاء النسخ أو الكتابة أو التحرير وربما الترجمة.

انظر مثلاً إلى هذا الاستنتاج البعيد فى منطقته حين يتحدث صاحب المذكرات عما لسه من اهتمام إيطاليا بمشكلة الشرق الأوسط (فى صفحة ٣٢٢):

«... وفى روما قابلت ألدو مورو، وكانت إيطاليا قد زادت اهتمامها بمشكلة الشرق الأوسط باعتبارها مشكلة كبرى تواجه دول البحر الأبيض المتوسط، وإيطاليا هى أكبر دولة أوروبية تقع كافة شواطئها على البحر الأبيض. ومن ثم فيهما أمن واستقرار دول حوض البحر الأبيض. ولهذا كان طبعاً أن يرحب ألدو مورو تماماً بفكرة القوة الدولية المشتركة لحفظ السلام بين كل من العرب وإسرائيل».

لنا أن نتوقف هنا لتساءل: هل يكفى طول الشواطيء لتحقيق الاهتمام؟ ربما ... ولكنه ليس بالطبع السبب الأساسى ولا المباشر.

وانظر أيضاً إلى مثل هذا الاستنتاج غير المنطقي حين يذكر محمود رياض أنه كان يحرص دوماً على لقاء وزير خارجية أصغر دولة وكان أصغر الدولة هو السبب فى حرصه على لقائه (!) وهو سبب غير منطقي بالطبع (فى صفحة ٣٤١):

«مرة أخرى خرجت من باريس بانطباع أنه لم يعد هناك مكان لأى حل سياسى وتؤكد انطباعى هذا مرة أخرى بعد لقائى مع جاستون ثورن وزير خارجية لوكسمبورج. وكنت أحرص على الدوام على لقائه؛ فهو يمثل أصغر دولة فى أوروبا. وكان يتميز بالوضوح وبفهمه العميق لأبعاد الصراع السياسى فى الشرق الأوسط، وقد أكد فى حديثه معى على تأييده العميق لردنا الإيجابى على مقترحات بارنج».

بقى أن أذكر أن هذا الكتاب جاف جداً، ولا أظن أن الجدية كانت تقتضى كل هذا الجفاف، ولكن هذا ما حدث بالفعل وقد أصبح الكتاب جاداً وجافاً في نفس الوقت، ومع أن في حياة كل دبلوماسى وفي حياة كل رجل دولة مواقف طريفة، إلا أن محمود رياض قد بخل علينا بها في هذه المذكرات ولم يقدم لنا منها إلا موقفين، الأول هو اكتشافه للمفارقة في عزاءات الأمريكيين حين يقدمون الفطائر والحلوى في العزاء وهو ما لم يكتشفه إلا حين ذهب للعزاء في الرئيس الأمريكى. أما الموقف الثانى فهو حديث جاف أيضاً عن مفاجآت السفر القاسية:

«وقد توقعت في الكويت قبل سفرى إلى طهران للمزيد من التشاور. وعندما حان موعد سفرى أصر الشيخ صباح على وضع طائرة كوينية خاصة تحت تصرفى لتقلنى إلى طهران. وأثناء الطيران نظرت في الخريطة التى أحملها عادة عندما أستخدم طريقاً لأول مرة، فلاحظت أننا نسير في اتجاه خاطئ. وعندما ذكرت ذلك لزوجتى أدهشها قولى وذكرت أنه من غير المعقول أن يخطئ قائد الطائرة، فلزمت الصمت، وعندما هبطت الطائرة جاءنى الطيار، وهو ألمانى الجنسية، ليخطرئى بأنه لا يوجد أحد في استقبالى. وعندما سألته أين نحن؟ أجابنى بأننا في الظهران، وعندما أفهمته أن وجهتنا طهران لا الظهران، اعتذر عن سوء الفهم وسارع بالعودة في الطريق الصحيح، الأمر الذى جعلنى أصل طهران متأخراً نحو ثلاث ساعات. وقد تسبب ذلك فى قلق وزير الخارجية الإيرانى والسفراء العرب الذين توجهوا إلى مطار طهران فى التاسعة صباحاً لاستقبالى، وقد تضاربت المعلومات بشأن الطائرة حتى خشى الجميع أن تكون فقدت».

وفيما عدا ذلك يخلو الكتاب من أى موقف طريف اللهم إلا إذا اعتبرنا موقف جولدبرج فى المصعد فى نيويورك الذى أشرنا إليه من قبل موقفاً طريفاً وما أظنه كذلك، إنما هو مؤلم إلى أبعد درجات الإيلام .

مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية
من أجل السلام

3

السلام الضائع
في كامب ديفيد
محمد إبراهيم كامل

دار الخيال

(١)

هذه مذكرات سياسية وتاريخية مهمة إلى أقصى حدود الأهمية، ولكن الأهم من السياسة ومن التاريخ فيها هو ذلك الأدب الرفيع الراقى الذى كتبت به، وإذا كانت بعض الصياغات أو الخطابات السياسية توصف بأنها قطعة رائعة من الأدب السياسى، فإن هذه المذكرات ليست قطعة واحدة بل قطع كثيرة متصلة، ولولا أن وصف «الملحمة» وصف اصطلاحى توصف به أعمال أدبية تستوفى شروطاً محددة، لقلت إنها ملحمة من الأدب السياسى، بل إنى أستطيع وأنا قارئ العين أن أصف هذه المذكرات بأنها قطع من الأدب نفسه وليس الأدب السياسى فحسب، ذلك أنها تضم بين سطورها كل ما يمكن للأدب الرفيع أن يضمه ويتمتع به من صدق الوجدان وحرارة العاطفة وحماسة الشعور ورقى اللفظ، وفضلاً عن هذا فإن المذكرات التى بين أيدينا تحفل بكثير من الصور البديعة والتشبيهات الرائعة والتعبيرات الموفقة، وتتواصل صياغة فقرات هذه المذكرات مع بعضها على نحو بديع، وكأنما كتب صاحبها رواية رفيعة المستوى.

ومع هذا كله تتمتع هذه المذكرات بصدق نفسى لا حدود له وبصدق فنى لا يتضاءل أبداً، ولا يحتاج القارئ لهذه المذكرات إلى كثير من الجهد ليدرك فى بساطة شديدة أن صاحب هذه المذكرات رجل مستقيم أشد الاستقامة فضلاً عن نزاهته ووطنيته وتربيته.

وفى الحقيقة فإن قارئ المذكرات مهما كانت آراؤه السياسية يعضى فى قراءتها فيظل متفعلاً على نحو ما يفعل الإنسان أثناء قراءته للأعمال الأدبية الخالدة وبطل معجباً بالبطل متعاطفاً معه متحمساً له مشفقاً عليه، ولست أستطيع أن أنكر أنى كلما عدت إلى

قراءة هذه المذكرات شعرت بحسب غريب تجاه يظل هذه المذكرات وهو كاتبها ونجاة البطل الثاني في هذه المذكرات وهو الرئيس السادات الذي أحب هذا الرجل والذي اختاره وزيراً لخارجية بلاده، وكنت كثيراً ما أسأل نفسي: هل هذا الحب نوع من الأناثية الناشئة عن شعوري بكل هذا الاستمناح بهذه المذكرات الرائعة؟ وهل من حقى أن أرفع ولو بيني وبين نفسي بقيمة مذكرات (أيا كانت صباغتها) إلى ذرى التعبير الأدبي لمجرد أنني شعرت فيها بشيء غير قليل من التنفيس عن الاستقامة المطلقة والوطنية الدافقة والزربة المثالية والفهم العميق، فإذا بي أجاوب مع نص كتب بنوع من الحماسة دون أن يكون معنياً بما وراء الحماسة، وبما وراء الواقع، وبما وراء التاريخ؟

ولكنني كنت في واقع الأمر أعود لأقتنع نفسي بأن مثل هذا النص هو ما نحتاجه بالفعل إذا أردنا لفن كتابة التجربة الشخصية أو الترجمة (على وجه العموم) أن يزدهر في أدبنا العربي المعاصر، ذلك أنه لابد من أجل ازدهار هذا الفن أن يعبر كل من أراد التعبير عن خلجات نفسه قبل أن يعبر عن نلاقيف عقله، وأن يعبر عن فرحه وحرزته وتطيره وخوفه ورهبته قبل أن يتحدث عن خبرته أو حكمته وحنكته أو إنجازاته.

وفي الحقيقة فقد تفوق محمد إبراهيم كامل في التعبير عن كل ما أراد التعبير عنه، وليس من المهم أن محمد إبراهيم كامل كان على خطأ أو على صواب حين كتب ما كتب، بل وحين مارس ما مارس، فنحن لا نحاسبه ولا نحاكمه ولا نجزيه ولا نجازيه ولا نعاتبه حين نقرأ له - أو لغيره - قصة تجربته الذاتية في أي موضوع حتى لو كان هذا الموضوع هو مستقبل بلاده ووطنه، ذلك أن كتابة التجربة الذاتية ينبغي أن تعطى لمن يقدم عليها مظلة واسعة من الحرية في أن يصور الأجواء التي عاشها دون أن يكون مسئولاً عن التزام الصواب أو التحرز من الخطأ، لأن التجربة الذاتية ليست كما ذكرت منذ قليل محلاً للإدانة أو الاتهام، إنما هي تصور لنا الأجواء النفسية والاجتماعية والمجتمعية التي عاشها صاحب التجربة دون أن ندفعه إلى أن يضطر إلى تصوير نفسه في صورة أحكم الحكماء، وإلا صرنا نقرأ تجارب الجميع فنراهم جميعاً حكماء في كل لحظة من لحظات حياتهم، وهو ما لا تستقيم الحياة معه.

كأنني أريد أن أقول إنه يجب علينا أن نعطي نوعاً من «الحماية» أو من «الحصانة» لصاحب التجربة الذاتية حين نقرأ نصوصه التي يقدم فيها تجربته.

وليس من العدل أن نأثي في أواخر التسعينيات لنحكم على الصواب والخطأ في نص كتب ونشر في منتصف الثمانينيات وأواخرها عن تجربة وقعت أحداثها في نهاية السبعينيات، ذلك نوع من الظلم لا أرضاه لغيري، ولا أرضاه لنفسي بالطبع.

وأنا حصى بأن أقرر مثل هذا الذي أقرره في شأن هذه المذكرات بالذات لأنها على الرغم من روعتها ودقتها وصدقها قد صُورت وقُدِّمت لكثير من القراء على أنها مذكرات معادية تماماً للسادات ولعملية السلام، ولست أحب أن أسارع بأن أقول إن هذه المذكرات ليست كذلك أبداً، ولست أحب كذلك أن أقرر في نهاية هذا الباب ولا في وسطه أن هذه المذكرات ليست كذلك الشيء الذي صورت به معادية للسلام وللسادات، لأنني لا أحب أن أتورط بالفعل فيما انتقدته بالقول في الفقرات السابقة.

(٢)

وعندي أن قيمة هذه المذكرات الحقيقية لا تتأني أبداً مع وضعها داخل إطار الموضوع الذي يتحدث عنه عنوانها الصريح «السلام الضائع في كامب ديفيد» نحسب لأنها إذا وضعت كذلك سوف تكون مجرد رؤية شخصية (مصبية أو قاصرة أو خاطئة) لأبعاد صراع تاريخي طويل وعميق في نفس الوقت، ولكن قيمة هذه المذكرات - في رأيي - تأتي من كونها عملاً أدبياً متميزاً بالصدق الفني، وبالصدق النفسي، وبالتعبير الراقى، وبالتصوير الجميل، وبالصيغة الموحية.

لا أظن أن من حصى أن أترسل إلى أكثر من هذا بينما المذكرات بين أيدينا قادرة على أن تشدنا إلى كل ما فيها من متع ذهنية وحسية وعقلية لا تنتهي، فضلاً عما نوحى به إلينا من رؤى وآراء وانتقادات ثرية ثراء تجربة الإنسان الناضج البالغ من مدارك الرقى درجة رفيعة من الأنسة الهادئة الوديمة في مظهرها الأنيق وفي مخبرها الرقيق وصورتها الجميلة المشتعلة حماسة وجبا وغيره وإخلاصاً وانتماء وولاء.

سأبدأ عرضي لهذه المذكرات بشيء من التعسف اللذيذ الذي تصوره النادرة التي تمكى عن أهل بيت استضافوا رجلاً أכולاً نهماً كان في ذات الوقت محدثاً لبقاً، فأراد أحدهم أن يثبت لأهله مهارته في أن يشغل ضيفهم الأكل عن الطعام الفاخر بحديث سيجرّس فيه الضيف على إظهار مواهبه في القصص، وبهذا يتشغل عن الطعام، فما أن جلس الضيف إلى المائدة حتى سأله الشاب الذكي أن يقص عليهم قصة سيدنا يوسف! نتحج الضيف وقال: قصة سيدنا يوسف تلخص في كلمتين، ابنم الجميع لأن هذه

هي البداية الطبيعية لكل حديث طويل.. ولكن الضيف سرعان ما أردف قائلاً: ناه، ووجوده!! وانصرف إلى الطعام.

وفي مذكرات محمد إبراهيم كامل عبارة قريبة الشبه جداً من هذه العبارة يقول فيها:
«تم تعييني وزيراً للخارجية يوم ٢٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٧، وسافرت في اليوم التالي للانضمام في مباحثات الإسماعيلية بين مصر وإسرائيل، وفي ٥ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٨، سافرت مع الرئيس السادات لحضور مباحثات كامب ديفيد بين السادات والرئيس الأمريكي كارتر، ومناحم بيجن، وفي ١٦ سبتمبر (أيلول) قدمت استقالتى للرئيس السادات بعد حديث استمر نصف ساعة، وقبَلَهَا، لكنه طلب منى عدم إعلانها حتى نعود إلى القاهرة».

وهذا إذن هو كل موضوع هذا الكتاب من قبيل أن قصة سيدنا يوسف أنه ناه ووجوده.. وإذن فالفترة الزمنية التي تستغرقها هذه المذكرات تمتد لأقل من ٩ شهور أو على وجه التحديد ٢٦٠ يوماً فقط!!

ومع هذا فإن التجربة الإنسانية الرائعة التي تقدمها المذكرات لم تأت أبداً لأى من قراء محمد إبراهيم كامل الذين كتبوا مذكراتهم عن مثل هذه الفترة القصيرة من عمر الزمان.

نعود إلى المتعسف الذي أشرنا إليه في بداية الفقرة لأقول إنه سهل على - وعلى غيرى - إذا ما سألنا أحد عن مضمون هذه المذكرات أن نسارع فنقول إنها تحكى عن تجربة محمد إبراهيم كامل كوزير للخارجية المصرية، وربما يسأل السائل سؤالاً ثانياً: وهل كان محمد إبراهيم كامل وزيراً للخارجية؟ والسائل معذور، فتصنف سكان مصر الآن لم يعيشوا بالفعل الأيام التي كان محمد إبراهيم كامل فيها وزيراً للخارجية!

أما الذين يذكرون أنه كان وزيراً للخارجية فسوف يسألون عن المدة التي قضاها لأنهم يتذكرون أنها كانت مدة قصيرة. وبذلك سوف يفعل الذين يقرأون هذا الكتاب وهم يدركون من قبلها أن اتصال محمد إبراهيم كامل بالصراع العربى - الإسرائيلى قد انقصر على هذه الفترة (٢٦٠ يوماً) فلم يكن قبلها ولا بعدها على صلة مباشرة بهذا الصراع.

وليس سراً أن انتقادات كثيرة قد وجهت (همساً على الأقل) إلى اختيار السادات له كوزير للخارجية بينما هو غير ملم على الإطلاق بتاريخ هذا الصراع ولا تفاضله، ولم

يحدث أبداً أن كان طرفاً في أى مفاوضات أو حتى مذكرات معنية به. وعلى اليد الأخرى فإن محمد إبراهيم كامل حين ترك منصبه فى وزارة الخارجية كان قد ابتعد تماماً عن أية ممارسات دبلوماسية متعلقة بهذا الموضوع، وهكذا تظل المذكرات الموسعة تتحدث فى إطار الأيام المائتين والستين فقط.

(٣)

نبدأ الآن بتصوير وجهة نظر محمد إبراهيم كامل فى خلافه مع السادات أو فى اختلافه معه، ومع أننا سنعرض لوجهة نظر محمد إبراهيم كامل نفسه من واقع الاختلافات لا من واقع حديثه عن الاختلافات إلا أننا أفضل أن أبدأ بتحريك العدسة من الأبعد إلى الأقرب مبتدئاً برأى الآخرين، ومن حسن الحظ أن صاحب هذه المذكرات قد قدم هذا الاختلاف فى قطعة أدبية رائعة من قطعه، بل من حسن الحظ مرة أخرى أنه قدم هذا الخلاف فى لوحة تضمنت فى ذات الوقت صورة الوفاق بين السادات وبين زميل آخر له هو بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية، وحين يقدم محمد إبراهيم كامل هذه اللوحة فإنه لا يصور نفسه مصيباً وبطرس مخطئاً، لكنه يصور نفسيهما مختلفين فحسب، وهو حريص فى مواضع أخرى على أن يدلنا على أن علاقته بطرس غالى ظلت ممتازة، وأنه لم يكن بينهما خلاف ولا تنافس ولا وقية، وعندى أن محمد إبراهيم كامل صادق فيما يروى عن طبيعة هذه العلاقة.

ولنقرأ هذا التصوير الجميل الذى يصور به صاحب هذه المذكرات الخلاف بينه وبين السادات فى ضوء تفريقه بين شخصيته هو وشخصية زميله بطرس غالى حيث يقول:

«كانت علاقتى ببطرس غالى طيبة للغاية وكنا نفاهم على الكثير من المسائل ونصل إلى نفس الحلول أو إلى حلول متقاربة فى معظم الأحيان، ولكن الخلاف الرئيسى بيننا كان فى فهم كل منا لمهامه والواجب المنوط به، وعلاقة العمل بالرئيس السادات، كان بطرس يؤمن بطاعة الرئيس وأن علينا أن ننفذ ما يقرره ونزينا إخراجنا ونمنق صباغته فى المقالب السياسى أو الدبلوماسى أو الإعلامى ولننضم به، فالرئيس يرى من مركزه الشمولى ما لا نراه ويقرر ما ليس فى حسابنا أن نقره، وإن جاز لنا اقتراح رأى أو فكرة على الرئيس - إذا كان مزاجه طيباً - فسيجب ألا يتجاوز الأمر حد الاقتراح إلى الجدل أو

المتناقضة . وكنت أرى غير ذلك تماما ، وأن واجبا ومهمتنا تتمدى ذلك إلى النصح والمشورة ونصيره فيما يقدم على اتخاذه من قرارات أو خطوات .. بما قد يشوبها من نقص أو عيب أو تجاوز أو خطر . فنحن وزرائه ومستشاروه ونحن لا نعمل فى دائرته الخاصة أو أموره الشخصية ، وإنما نعمل فى قضية مصيرية معقدة متشابكة لا يستطيع فرد مهما أوتى من طاقة ومقدرة وذكاء الاضطلاع بها وحده على الوجه الأمثل ، ولا يعنى هذا فرض رأينا على رأيه فهو الرئيس والرأى الأخير له . فقط يكون قد أئتم بما له وما عليه وأحاط بكل جوانبه وبمزاياه وبمخالبه وبمواقبه . وما قصدت أن أخص بطرس بذلك ، أو ألومه فهو فى هذا لا يختلف عن غالبية الوزراء ورجال الدولة المحيطين بالسادات ، وإنما أثرت هذه النقطة لانعكاساتها على عملنا فى كاسب ديفيد . وأوضح فأقول إن الوفد الرسمى كان يتكون من الرئيس ومن حسن النتهامى وحسن كامل وأنا وبطرس غالى وأسامة الباز ٩ .

هذه الصورة الجعيلة التى يجدر بنا أن نتركها كما هى دون أى تعقيب بنضال أمام روعتها تأتى فى أثناء حديث محمد إبراهيم كامل المتصل عن أحد اجتماعات الوفد المصرى فى مفاوضات كاسب ديفيد مع الرئيس أنور السادات، وهو يروى قبلها مباشرة بامتنان واضح ما نصحه به بطرس غالى فيقول:

«وأذكر أنه بعد انتهاء أحد اجتماعات الوفد مع الرئيس قال لى بطرس غالى ربما حرصا على "أرجوك يا محمد لا تناقش الرئيس فى حضور الوفد" فقلت "كيف؟ إن من واجبى ومن واجبك أنت وباقى الأعضاء مناقشته وإبداء آرائنا وملاحظتنا ولهذا أشركنا فى الوفد وإلا فما هى مهمتنا؟" فقلت "يحسن أن نقول له ما تريد أن تقول وأنتما وحدكما فلقد لاحظت أنه يغضب عندما نكلمه أمامنا" فقلت: "لا أعتقد أنه يغضب من سماع رأى قد يفيد أو ينوره دون أن يلزمه ، وأنا أخاطبه دائما بالاحترام الواجب له كرئيس فإذا غضب بعد ذلك فهو حر" .

وقال بطرس غالى إنه بشاركنى مشاعرى وإنه فى دهشة من موقف السادات فى الاجتماع وربما كان شارد الذهن ، أو متعبا ولم يع ما قاله الرئيس كارتر . فلقد كان يوما طويلا مجهدا ، وربما قصد كارتر بما قاله اختبار مدى تصليبا، وطرح أفكارا لا يتبناها بالفعل ولكن ليستمع إلى رأينا وملاحظتنا ويعدل فيها على أساسها . ولقد أحسنت فى ذلك على كارتر وكنت موقفاً ولا بد أنه سيأخذ ما قلت بعين الاعتبار .

قلت : ولكن ما قيمة كلامى فى ظل صمت الرئيس ، أليس السكوت رضا ؟

ثم ألم تلاحظ إشارة كارتر الماكرة عند رده على التهامى عندما قال إن الشائع هو أن الرئيس السادات معتدل بينما معاونوه متشددون ، إنه يعنينا نحن ، أنتظن أن الرئيس كارتر مسير كلامى الالتفات ويقدمه على كلام السادات ، أو عدم كلامه ؟ سيقول كارتر إن موقف الرئيس يجب موقف وزير خارجيته ولن يستطيع أحد أن يلومه على ذلك .

وقال بطرس غالى على كل حال فلن اجتماع اليوم كان للاستطلاع ، وهم بسبيل الإعداد لمشروعهم وليس ما قالوه يمثل بالضرورة أفكارهم النهائية ، ولن نعرف ما انتهوا إليه حتى يفرغوا من مشروعهم ويقدموه لنا ، ونرى ما فيه ، فدع القلق حتى وقتها ولننم بعض الوقت فقد أوشك المفجر على البروغ . وقلت " معك حق ، تصبح على خير " وأطفأت النور .

(٤)

هل لنا بعد هذه الصورة من بعيد أن تقترب إلى قلب الصورة ، وأنا أزعج أنه على الرغم من أن الجو العام لهذا الكتاب يدور فى ذلك انتقاد السادات ، إلا أن الأمر لا يخلو من إعجاب كثير بالسادات نفسه فى كثير من المواقف ، فلم يكن السادات شراً كله ولا شيطاناً طول الوقت ، وإنما كان فى نظر صاحب المذكرات بلا شك رجلاً بطلاً شجاعاً مقداماً مغواراً ، ولكن الظروف كانت أقوى منه فى بعض الأحيان . وفى حقيقة الأمر فإن الكتاب ملىء بالمواقف التى أيدى فيها صاحب المذكرات إعجابه بالسادات وبأدائه فى المفاوضات أو فى التعامل مع الإسرائيليين حتى خارج نطاق المفاوضات ، ولكن لأن بعض الناس لا يقرأون فى بلادنا بما فيه الكفاية ، بل لأن كثيراً من المبدعين يقدمون لك الكتاب كما حكى لهم عنه لا كما قرأوه ، فسوف يعجب القارئ من هذا الذى أقوله ، ولكننى سأدلى القارئ على بعض مواضع مهمة فى هذا الكتاب يتحدث فيها صاحبه عن السادات بإعجاب حقيقى ، ولنأخذ - على سبيل المثال - الفصل الذى عنوانه « قبلة على جبين السادات » ، وهو يلخص فيه بل يسجل حوار السادات مع أثرتون وأيلتس صباح يوم

الثلاثين من يوليو في استراحة المعمورة، وحين ينتهي محمد إبراهيم كامل من رواية هذه التفاصيل يقول:

«... وانتهى الاجتماع، ورافقت المستر أثرتون والسفير أيلتس حتى باب الغرفة حيث كان يتجمع خارجها عدد من رجال الصحافة. ثم عدت واتجهت إلى الرئيس السادات وقيلته على جيبه وأنا أقول: براخو ياريس. وابتسم الرئيس السادات وقال: وماذا كنت تتوقع ياسى محمد؟».



بل إن محمد إبراهيم كامل ينحو نفس المنحى المعجب بالسادات حتى في أحلك لحظات كامب ديفيد وقبيل استقالته مباشرة، وهو يقول ما نصه:

«ولست أشك في أن الرواية التي رواها الرئيس السادات لأسامة الباز حول ما دار بينه وبين ديان هي حقيقة ما جرى وليس ما أورده ديان في كتابه».



ولأن صاحب هذه المذكرات رجل سوى صريح لم يعتد للممارسات السياسية المداهنة، فإنه يعجب كل العجب من قيام السادات بتقيل ييجين بحرارة وشغف عند توقيع المعاهدة ويقول:

«وانتهت التوقيعات ثم قام الرؤساء الثلاثة يتعانقون ويهتنون بعضهم بعضاً. ورأيت الرئيس السادات يعانق بحرارة وشغف وإقبال مناحم ييجين، وتعجبت كيف يستطيع أن يفعل ذلك مع شخص قال لى عنه منذ أيام قليلة إنه «أحظ وأخس عدو».

(٥)

وقبل هذا كله فإن صاحب المذكرات بصرح بكل وضوح بموافقة هو شخصياً على رأى السادات القائل بأن أوراق اللعبة في يد أمريكا ومع أن صاحب هذه المذكرات لم يشغل نفسه بالنسبة وهل هي ١٠٠٪ أو ٩٩٪ أو ٩٠٪ أو ما فوق ٥٠٪ فحسب: فإنه في واقع الأمر يكاد بهذا الرأى يحسم قضية النظر إلى الدور الأمريكى متحازاً إلى نهج السادات حتى لو لم يتحز إلى هذا النهج حتى النهاية، وسوف نرى من قراء هذه المذكرات أن صاحبها كان يعول على الموقف الأمريكى بأكثر مما لعب الدور الأمريكى

دوره في القضية ، فقد كان - شأن مثقفينا - مقدراً الحضارة الأمريكية والامكانيات الأمريكية ولكنه فيما يبدو كان حسن الظن أكثر من اللازم بالروح الأمريكية :

« كذلك كنت أجد شيئاً من الحقيقة فيما كان يردده السادات دائماً من أن ٩٠٪ من أوراق اللعبة في يد الولايات المتحدة. حيث تعتمد إسرائيل عليها كلياً من الحيز إلى الصاروخ، والمفروض أن يشكل ذلك للولايات المتحدة قوة تأثير هائلة على إسرائيل، ولا أقول قوة ضغط ».



ولست أحب أن أصور موافقة صاحب هذه المذكرات للسادات على هذه العقيدة في إطار إعجابه بالسادات ولكني لا أستطيع مع هذا ألا أفعل ! ذلك أن الجوع العام الذي كان يحكم التفكير السياسي المصري في ذلك الوقت لم يكن قد تطور بعد إلى هذه المرحلة فقد كنا لانزال أسرى الفترة السابقة التي صغنا فيها لأنفسنا شعارات كبرى ظنناها قادرة على توجيه سياستنا إلى تحقيق أهدافنا .. وهكذا كان من الصعب النزول إلى أرض الواقع. وهكذا أيضاً كان مجرد الاقتناع بأهمية النزول إلى أرض الواقع يمثل انحيازاً إلى فكرة جديدة يستحق أن يصنف على أنه اقتناع بالشخصية وبفكرها على نحو ما تصور اقتناع محمد إبراهيم كامل في ذلك الوقت بأفكار السادات في هذا الصدد .

كذلك فإن صاحب هذه المذكرات في خضم حديثه عن الإحباطات التي توالى على مسار المفاوضات مع إسرائيل كان يعود إلى نفسه للتفكير في هذا الوضع القلق ، وفي هذا الوقوف « محللك سر » ، وفي بعض هذه الملحظات كان صاحب المذكرات حريصاً على أن يعطى بعض العذر وربما كل العذر لتصرفات السادات القلقة على مصير مبادرته وهو يصف الانفعالات التي صادفت السادات بأنها كانت أكبر من طاقة البشر ويقول :

« وأسارع فأقول إن السادات لم يقصد بالطبع فشل مبادرته وإنما حدث ذلك لفرط نلهمه ونعجله أن يتحقق لها النجاح ».

« كان قد وقع فريسة لانفعالات لا يتحملها بشر ووقع مبادرته مابين تعلق الملايين بالأمل في السلام، وشراسة هجوم أشقائه العرب عليه، وتصلب بيجين وغدره، وخروجه عن عرينه العربي، وتسريته في دوائر النفوذ المؤثرة، واتساقه وراء السراب الأمريكي الخداع ».

وعلى نفس هذا الخط فإنه يمكن لنا أن نتأمل حرص صاحب المذكرات على أن يسجل في بداية كتابه (وقبل أن يروي الذكريات التي عاصرها) إعجابه الشديد بأداء

السادات وبحكمته في وسط حرب أكتوبر عندما دعا في خطابه في مجلس الشعب في السادس عشر من أكتوبر إلى انعقاد مؤتمر دولي في الأمم المتحدة لمناقشة مشكلة الشرق الأوسط.



ومن نفس المنطلق فإن محمد إبراهيم كامل يتطوع بأن يعطى لنا تبريراً مقنعاً لحرص السادات على القيام بمبادرته بصورة فردية ويقول:

«صحيح أن السادات كان يمين عليه أن يحاول الإعداد لهذه المبادرة بالتشاور والتنسيق مع الدول العربية، أو على الأقل مع دول المواجهة والدول العربية المعتدلة قبل أن يطرحها على إسرائيل، فيتفادى بذلك الفسقة والمعارك الجانبية مع بعض الدول العربية، إلا أنه يبدو أن السادات وقد احتوته فكرة المبادرة لم يطق صبراً وخشى - إن هو فاتح الدول العربية في الأمر - أن تذبل وتبدد من بين يديه نتيجة الاختلافات والتعارض في وجهات النظر (بين الدول العربية) وتنفد بذلك بريقها وقوة تفجير المفاجأة وأخذ إسرائيل والعالم على غرة. فأقدم عليها دون تشاور أو تنسيق، وأصبحت أسراً واقعاً وحقيقة سياسية فماذا يفيد الصراخ والتقد والندم؟ لقد فعلها ووقعت ومن هنا يجب أن نبدأ ونستمر إلى آخر المدى ولكن بضوابط ومحاذير وانجاء بوصلة ثابت لا تحيد عنه أبداً».

(٦)

وينبغي لنا ألا ننسى أبداً أن صاحب هذه المذكرات قد ذكر منذ البداية تأييده واقتناعه التام بمبادرة السادات حيث يقول:

«..... وكان زملائي السفراء العرب جميعاً يكنون لي محبة ووداً حتى من كانوا يمثلون دولاً تناصب السادات العداء، وكان خطاب السادات قد أراحني بعض الشيء، إذ كان خطاباً قوياً ملتزماً بالموقف العربي وقد صيغ بروح سامية ومنطق سليم، فدافعت عن مبادرته مسبراً أن ما دفعه إليها هو احتدام الخلافات العربية حول أصغر المسائل وعدم اتفاقهم على موقف موحد ندخل به مؤتمر جنيف، وذكرت أن مصر التي لم نتوان عن القيام بمسؤولياتها في النضال ضد إسرائيل في سبيل حل القضية الفلسطينية، قد تحملت

تضحيات ضخمة سواء فى الأرواح أو الأموال، وأن أوضاعها الاقتصادية تمر بمرحلة خطيرة، وأن مصر لا تستطيع الاستمرار فى هذه الحالة إلى ما لا نهاية.

«وأضفت أن خطاب السادات فى الكنيست كما سمعته وكما سمعوه، لم يتضمن أية تنازلات أو تفريطاً فى الحقوق العربية، وأنا لا نستطيع أن نستمر فى إخفاء ما نراه كما نفعل التعمية، وما خوفنا من مقابلة عدونا وجهاً لوجه فى مباحثاته من أجل السلام وقد واجهناه فى الحرب. وقلت إنه مهما يكن من أمر فلا مجال الآن للجدل فلقد تمت الزيارة وتم اللقاء بالفعل وأصبح الأمر واقعاً مثل تاريخ ما قبل الميلاد وتاريخ ما بعد الميلاد، والواجب علينا الآن هو أن يتحد العرب جميعاً فى مجابهة تحدى السلام ويعلموا انضمامهم لمبادرة السادات على أساس العناصر التى تضمنها خطابه».

«ومع ذلك أمضيت الليل دون أن أذوق طعم النوم تأخذنى الأفكار والحيرة، ولم أستطع أن أتخذ بينى وبين نفسى موقفاً محدداً واضحاً من هذه المبادرة، فمن ناحية بدت لى فكرتها براءة شجاعة بناءة، ومن الناحية الثانية كنت أشعر بتخوف من هذه الزيارة إلى المجهول، إذ أن ظواهر الحال لا تدل على أنه سبقها إعداد أو تحضير، خاصة أن من يمسك بزمام الأمور على الجانب الآخر أمثال مناحم بيجين وشارون وشامير بماضيهم المرعب وأفكارهم المستحجرة البالية وأهدافهم التوسعية المعلنه. وأحست أن ما أدخله خطاب السادات على نفسى من ارتياح وطمأنينة قد بدده رد بيجين عليه فليس فيه ما يدعو إلى الارتياح على الإطلاق، واعترانى شعور بالخوف من أن تؤدى هذه الزيارة، بل هذه المفامرة، إلى هدم صرح القوة العربية والتضامن الذى حققته حرب أكتوبر وتطيح بكل ما أحرزه العرب من مكاسب».

«ومع ذلك فقد وقع «الغأس فى الرأس» كما يقولون ومن يدري؟ ربما!!».

(٧)

ومن الخطأ البين أن نقول إن محمد إبراهيم كامل كان ضد عملية السلام على نحو ما بدأها السادات، بل ربما كان العكس هو الصحيح، فقد كان محمد إبراهيم كامل على الدوام ميالاً إلى التفاوض وإلى المضى قديماً بعملية السلام، والأمثلة على هذا واضحة

وكثيرة، فقد كان محمد إبراهيم كامل يجاهد من أجل استمرار اللجنة السياسية في القدس، ولم يكن من أنصار قرار السادات القاتل بعودة الوفد فوراً، وقد عبر هو عن هذا المعنى في روايته الطويلة المؤثرة عن أحداث ذلك اليوم والتي أفضل أن أنقلها كلها للقارئ:

«... كان التعب والإرهاق قد استبدا بي فتنازلت غداء سريعاً وتوجهت للنوم بعد أن طلبت منهم عدم إيقاظي قبل السادسة والنصف لأنهياً لحضور عشاء فانس في الساعة السابعة. وكنت أعط في نوم عميق أقرب إلى الموت عندما شعرت بيد تهزني هزاً عنيفاً وصوت يناديني ليوقظني، ولكني لم أستجب وتكرر ذلك إلى أن صاحوت من النوم ولكن دون أن يستيقظ عقلي، ووجدت شخصاً غريباً لم أره من قبل يقف بجوار سريري ولم أدر كيف وصل إلى غرفة نومي وسألته: من أنت؟ فقال: إنه رئيس غرفة الاتصالات المصرية وأنه يحمل لي بريقة عاجلة وصلت من الرئيس السادات، وأنه يحاول إيقاظي منذ نصف ساعة دون جدوى وبأسف لاضطراره لذلك».

«وحاولت قراءة البرقية أكثر من مرة دون أن أستطيع أن أستوعب شيئاً منها، فغمت وغسلت وجهي بالماء البارد وعدت أقرأها فكانت تعليمات من الرئيس السادات بأن أعود مع الوفد إلى القاهرة على الفور بعد أن تبين أن إسرائيل نعمت إلى تجميع الموقف وطرح حلول جزئية، وأن تصريحات ديان بوجوب إجراء التوصل إلى حل وسط وخطاب بيجين في حفل العشاء أوضح عقم استمرار اللجنة في أعمالها. وطلب مني الرئيس في البرقية أن أوضح أن أمر العودة ليس قطعاً للمباحثات وإنما مجرد استدعاء وأن أقابل فانس لأشرح له الظروف، وأبلغه أن الرئيس يرغب في مقابلته في القاهرة».

ويحكى صاحب المذكرات عن مشاعره المشابنة والمتناقضة في هذه اللحظة، ومحاولاته تغيير القرار المصري دون جدوى:

«ولم يكن أحب إلي من ترك القدس والعودة إلى القاهرة، ولكنني أدركت على الفور خطورة هذا القرار المياغت - دون سبق التشاور معي - وأتينا بذلك نلعب بين أيدي مناحم بيجين الذي سيقم الدنيا ويقعدها ويصور هذه الخطوة بأننا غير جادين في السعي للسلام وإلا فما معنى قطع المباحثات الجارية في اللجنة السياسية وقد بدأت بالكاد، ومن الناحية الثانية أدركت أن سحب الوفد بدون سابق إخطار سيكون لطمة مباشرة لوزير الخارجية الأمريكي سبروس فانس الذي جاء من واشنطن ناركاً أعماله ليساهم في محاولة التوصل

إلى حل والذي كان يعمل جاهداً مخلصاً على ذلك ويتخذ موقفاً كريماً متفهماً لوجهة نظرها».

«انجذبت على عجل إلى غرفة الاتصالات المصرية وطلبت الاتصال بالرئيس السادات، إلا أنني لم أجده في أى مكان، فانتصت بالسيد حسنى مبارك نائب الرئيس وأبلغته بوجهة نظرى فقال: إن القرار قد اتخذ من مجلس الأمن القومى ولا سييل إلى التراجع فيه، فاقترحت عليه أن يبلغ الرئيس بأن أعود وحدى وأترك الوفد لتابعة الاتصالات المقررة فى العشاء مع فانس ومعرفة آخر موقف. وأضفت أن استمرار انعقاد اللجنة السياسية قد يكون هاماً على ضوء اجتماعات مجلس الوزراء الإسرائيلى لبحث المقترحات الأمريكية وأن قطع الاتصال سينغله بيجين فى لومنا فى حين أن مصلحتنا فى أن يبدو استدعاء الوفد نتيجة لموقف إسرائيل المتعنت والذي ينتظر إعلانه بعد اجتماعات مجلس الوزراء الإسرائيلى، وبالتالي نحملها مسئولية فشل الاجتماع. وواعد السيد نائب الرئيس بنقل ذلك ومعاودة الاتصال بى».

«وبعد حوالى ثلث ساعة اتصل بى نائب الرئيس من جديد وأبلغنى أن القرار قد صدر ووصل إلى علم وسائل الإعلام وأن راديو القاهرة يذيع الآن البيان الرسمى حول أسباب استدعاء الوفد الرسمى من القدس، وأنه أصدر الأوامر بسفر طائرتين مصريتين من القاهرة لعودة الوفد إليها ونمنى لى التوفيق».

(٨)

كذلك فإن صاحب هذه المذكرات يحدثنا عن أنه كان فى اتصالاته العربية حريصاً على إقناع إخوانه العرب بجدوى الاتصالات مع إسرائيل، وخذ مثلاً ما يرويه هو نفسه عن حوار له مع الأمير سعود الفيصل:

«... أرى أن قيام مصر بإعلان إنهاء الاتصالات مع إسرائيل فى هذه المرحلة يضر ولا ينفع، وشرحت له الجوانب الإيجابية التى نتجت عن المبادرة، وأشارت إلى المظاهرات التى قامت فى إسرائيل، وإلى تقدم ثلاثمائة ضابط وجندى إسرائيلى بمريضة إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى بأنهم يفضلون السلام على احتلال أرض الغير، وهو أمر له دلالة».

وكذلك التحول الذي حدث على صعيد الرأى العام العالمى وبالذات فى الرأى العام الأمريكى، والذي انعكس على موقف الحكومة الأمريكية نفسها بحيث مرت صفقة الطائرات الحربية للسودية ومصر رغم معارضة شرسة من إسرائيل وجماعاتها الضاغطة فى الولايات المتحدة، وهو مؤشر لا يمكن التقليل من أهميته.



ونحن نرى صاحب هذه المذكرات وقد ظل على عقيدته هذه طيلة الفترة التى عمل فيها وزيراً للخارجية وحتى كتب مذكراته ، كذلك فإنه فى الأيام الأخيرة فى كامب ديفيد كان على ما يرويه هو نفسه فى هذه المذكرات حريصاً على بقاء السادات واستمرار المفاوضات ولست فى حاجة إلى أن أفيض فى الاستشهاد على هذا المعنى.

ولهذا فإن «كتاب الأهالى» حين نشر هذه الطبعة «المصرية» من مذكرات محمد إبراهيم كامل أشار على خلافها إلى معنى قريب من هذا المعنى بقوله:

«... وقيمة هذه المذكرات الأساسية، لا تكمن فحسب فى أن صاحبها كان فى المكان الذى يتيح له أن يشاهد بنفسه ويسمع بأذنيه جوانب رئيسية من الطريقة التى أدار بها السادات المفاوضات مع الطرفين الأمريكى والإسرائيلى، مما لم يذع قبل نشر هذه المذكرات لأول مرة عام ١٩٨٣، ولكنها تعود أساساً إلى أن صاحبها لم يكن صاحب موقف ضد «مبادرة» السادات بزيارة القدس المحتلة، وهو ليس ممن رفضوا المفاوضات مع العدو الإسرائيلى فى الظرف الذى اختاره السادات، ومع حماسه لذلك جميعه، فقد وجد نفسه مضطراً للاستقالة من منصبه بعد تسعة شهور فقط، عاين خلالها أسلوب التفاوض الساداتى، وتوصل إلى أن السادات قد أهدر بخضوعه للضغوط الأمريكية، وعدم أخذه بآراء مستشاريه وانفراده باتخاذ أخطر القرارات، كل الثمار التى كان ممكناً أن يحققها بمبادرته».

«ومع أن التجمع كان منذ البداية ضد مبادرات السادات، إلا أن «كتاب الأهالى» بنشر هذه الطبعة المصرية لمذكرات محمد إبراهيم كامل، ضمن «مكتبة كامب ديفيد»، على سبيل التوثيق من جانب، ومن جانب آخر لأن جوهرها يقول إنه حتى الذين لم يعارضوا زيارة السادات، يرون أنه فرط فى حقوق مصر بالطريقة التى فالوض بها، وبالتصوص التى وقع عليها فى اتفاقيات كامب ديفيد».

وليس هذا هو التعقل الوحيد الذى ندلنا عليه مذكرات هذا الرجل، ذلك أن موقفه من أزمة العلاقات المصرية - القبرصية يعكس هذا المعنى بوضوح، وقد كان حريصاً على التوقف بالأمور عند حد معين:

١. واجتمعت بالرئيس القبرصى كبريانو - الذى كان يقيم بنفس الفندق - وكانت مصر قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية بقبرص بعد أحداث مطار لارناكا. وكان الرئيس السادات يتخذ موقفاً عنيفاً من قبرص ورئيسها لرفضه تسليم قاتلى يوسف السباعى لمصر، إلى حد أن السادات كان يلقب فى أحاديثه وخطاباته الرسمية الرئيس كبريانو بأنه زعيم القبارصة اليونانيين، مما يحمل على الفهم بأن الرئيس السادات يوافق على تقسيم قبرص بين القبارصة اليونانيين والقبارصة الأتراك، وهو ما يخالف الموقف المصرى المعلن بالاعتراف بوحدة الدولة القبرصية. وقد عبر الرئيس القبرصى عن أسفه الشديد للأحداث الدامية التى أدت إلى الإطاحة بالعلاقات التقليدية الطيبة التى تربط مصر بقبرص منذ آلاف السنين، وشرح لى صعوبة موقفه من إمكانية تسليم قاتلى يوسف السباعى، باعتبار أن ذلك يخل بسيادة قبرص التى وقعت الجريمة على أراضيها. وأشار إلى استعداده مع ذلك بعد مضى فترة من الوقت نهدأ فيها الأمور إلى إيجاد طريقة لتسليمهما لمصر.

«وكننت من ناحيتى أعارض تماماً مطلب الرئيس السادات فى تسليم قنلة السباعى وإجراء محاكمتها من جديد وتنفيذ حكم الإعدام عليهما فى مصر، فقد كنت حريصاً على عدم اشتعال المشاعر العنيفة من جديد بين المصريين والفلسطينيين، وهو ما كان سيؤدى إليه حتماً إعادة المحاكمة وتنفيذ حكم الإعدام. وكان يهمنى للغاية إنهاء هذا الفصل المأساوى فى العلاقات المصرية - الفلسطينية، الأمر الذى نستفيد منه إسرائيل وحدها ويؤثر سلباً على موقفنا فى المباحثات التى تستهدف أساساً حل القضية الفلسطينية بوصفها جوهر النزاع العربى - الإسرائيلى. لذا فلم أشر فى حديثى مع الرئيس كبريانو إلى طلب التسليم، وكل ما أصررت عليه هو أن تقوم قبرص بتنفيذ الحكم الصادر عليهما فى أقرب وقت، واتفقنا على العمل على تهدئة العلاقات بين البلدين تمهيداً لعودة العلاقات الدبلوماسية».

ونحن نرى نموذجاً آخر لهذا التعمق فيما يبدية صاحب المذكرات من تحفظ على سياسة السادات تجاه الاتحاد السوفيتى وهو يقول:

«ولم يكن هذا هو حال مصر مع الاتحاد السوفيتى، فقد كان له عندنا رصيد ضخم فى تأييد قضايانا سياسياً وعسكرياً منذ عام ١٩٥٦، بل إننا دخلنا حرب ١٩٧٣ بالسلاح السوفيتى، ولا أدعى أنه لم يكن له مآرب ليست على هواننا، ولكن هذا هو شأن الدول الكبرى. وماذا جئنا من الولايات المتحدة التى ظلت تساند إسرائيل رغم عدوانها المستمر ونزودها بالسلاح والمال والتأييد؟».

«لقد قام السادات بإنهاء العلاقة الخاصة التى كانت قائمة بين مصر والاتحاد السوفيتى، عندما طلب منه سحب خبراته العسكريين وغيرهم فى ١٩٧٢، واستجاب الاتحاد السوفيتى لذلك فى هدوء وبدون تعقيدات، فما جدوى استعدائه واستفزازه بعد ذلك؟ والحقيقة أن السادات - كما أخبرنى مراراً - كان يشعر أن الاتحاد السوفيتى يعاديه شخصياً منذ البداية، إذ كان يأمل أن يخلف عبدالناصر بعد وفاته على صبرى الذى كانت تربطه علاقات نفاهم بالاتحاد السوفيتى. ولكن على صبرى كان فى السجن وكان السادات قد وطد مركزه رئيساً لجمهورية مصر، مما كان يوجب عليه أن ينحى جانباً مشاعره الشخصية».

(١٠)

أما أبرز محفوظات صاحب هذه المذكرات على السادات فهي عجبه من أن السادات كان قد بدأ يخفى عنه بعض التفاصيل رغم ثقته به، وهو يعبر عن هذا المعنى فى كثير من المواضع ولكنه يبلوره بطريقة واضحة فيما يسجله على لسان الملك الحسن الثانى ملك المغرب :

«... وأذكر عند مغادرتنا القصر الملكى فى الرباط أن طلب الملك الحسن مرافقتى لهما فى السيارة، وتكلم عن علاقته بوزير خارجيته أحمد بوسنة فقال: إنه محل سره، ولا يخفى عنه كبيرة أو صغيرة، وقال: إن هذه الثقة يجب أن تقوم بين الحاكم ووزير خارجيته بالذات، ونصح السادات بأن يفعل ذلك معى لما سمعه عنى من صفات طيبة على حد

قوله. وبالنسبة للسادات اتبع هذه النصيحة.. إذن لتجنبنا الكثير من المشاكل التي نشأت عن قيامه بتصرفات فجائية على أساس أفكار طارئة عنت له دون استشارة أو تمحيص».

ومع أن محمد إبراهيم كامل كان يعذر السادات كما قدمنا، إلا أنه كان كثيراً ما يشك في طبيعة شخصية السادات على الرغم من أنه كان قادراً على أنه يقدم لنفسه ثم للقراء بعض التفسيرات الكفيلة بفهم هذه الشخصية، لكنه رغم هذا العلم الذي قدمه ظل حائراً:

«وكان نوع من الحيرة المصحوبة بالقلق قد بدأ يساورني نحو شخصية السادات، إذ لاحظت أنه مع الوقت ومن اتصالي المستمر به بعد تعييني وزيراً للخارجية، أنها لم تكن ثابتة ملتزمة بوتيرة واحدة، ففي بعض الأحيان كان ينسجم بالبساطة والنواضع، وأحياناً أخرى ينسجم بالتعقيد والتعالي، وأحياناً يكون هادئاً، ثم يشتد به الغضب دون مبرر ظاهر، وأحياناً يكون واضح الفكر قوى المنطق منطلق الحديث، وأحياناً أخرى يكون شارد الفكر عاجزاً عن الكلام أو يوضح ما يريد أو وجهة نظره أو ينصرف إلى أحاديث فرعية أو بعيدة عن جوهر الموضوع محل البحث».

«وفي بعض الأحيان كان متفتحاً يستوعب تماماً ما يقرؤه أو يسمعه، وفي أحيان أخرى يصيبه الحمول وعدم المبالاة فلا يقرأ ولا يسمع أو يستوعب مهما كانت أهمية الموضوعات المعروضة. ولم أجد تفسيراً لذلك، وكنت أرجعه إلى ضخامة المسئوليات التي يتحملها منذ تولي الحكم بعد وفاة الرئيس عبدالناصر».

(١١)

وقد تنامي هذا الخوف أو الإشفاق على السادات أو من البقاء معه إلى درجة أن صاحب هذه المذكرات أصبح قلقاً في الأيام الأخيرة من مجرد البقاء مع السادات بعد أن قبل استقالته من منصبه، رغم كل ما فعله السادات من طمأننة له سواء بما عرضه عليه من مناصب أو بنصيحته له بالعودة معه في نفس الطائرة والرحلة. ولكنه كان قد وصل في هذه اللحظة إلى ضرورة وحتمية الخلاص السريع والابتعاد الفوري مع أنه سيعود إلى مصر التي يرأسها الرئيس السادات نفسه، ولكنه كان مطمئناً إلى حكم ديمقراطي برئاسة

السادات على حين كان خائفاً من التورط بسبب الصداقة معه، ولتقرأ هذا الوصف المبدع للحظات الأخيرة له فى أمريكا وكيف اضطر هو نفسه وأصدقائه الأمريكيون إلى حجز تذاكر فى نفس اليوم ثم المضى بسيارة تكسر كل إشارات المرور لكى يلحق بالطائرة المغادرة إلى القاهرة:

.....

«.. فتردد (أى الرئيس السادات) بعض الشيء وقال: إذا أردت رأيتى أنصحك بالسفر معى، قلت: لا.. أفضل العودة الآن، فلا بد أن عائلى قلق على من جراء خبر الاستقالة، فقال: أنت حر، إذا أردت العودة، متى تسافر؟ فقلت سأحاول السفر اليوم نفسه، فقال: مع السلامة».

«وكانت الساعة قد بلغت الثانية والنصف بعد الظهر، فهرعت إلى مكتب محمد شاكر فى مبنى المكتب الجاور للسفارة، وطلبت منه أن يقوم بترتيبات سفرى اليوم، فقال: سيكون ذلك صعباً ولكن سأحاول، ونجح فى حجز ثلاثة مقاعد على طائرة شركة الخطوط الجوية العالمية (T.W.A) المتجهة إلى باريس والتي كان موعد إقلاعها من مطار نيويورك الدولى فى الساعة السابعة مساءً، وكانت التذاكر لى ولأحمد ماهر وعمرو حمدى وبقيت مشكلة الوصول إلى المطار قبل موعد قيام الطائرة».

«وأخيراً وجدنا طائرة تغادر واشنطن إلى نيويورك وتصلها قبل موعد قيام الطائرة المسافرة إلى باريس بثلاث ساعة، ولكنها كانت ستهبط فى مطار نيويورك الداخلى وليس الدولى، والمسافة بينهما حوالى نصف ساعة على الأقل، فاتصل محمد شاكر بوزارة الخارجية الأمريكية التى وعدت بإعداد ترتيبات خاصة للحاق بالطائرة قبل إقلاعها».

«وبالفعل عندما هبطت بنا الطائرة فى مطار نيويورك الداخلى وجدنا سيارة بوليس فى انتظارنا على باب الطائرة وأمامها مونتوبىكل يركبه ضابط، وما أن دخلنا السيارة حتى انطلقت مسرعة يسبقها المونتوبىكل وكلاهما يطلق صفاراته المزعجة دون انقطاع ولا يبالى بإشارة مرور أو غيرها.. وذكرنى ذلك بما كنا نشاهده فى الأفلام الأمريكية فى مطاردات البوليس الأمريكى، والفرق أننا كنا نحن الذين داخل السيارة والناس هم الذين يشاهدونا، ووقفت بنا السيارة أمام باب الطائرة فى الساعة السابعة وخمس دقائق وكانت محرقاتها دائرة بالفعل وتنتظر وصولنا وفقاً لتعليمات وزارة الخارجية الأمريكية».

«وصعدنا إلى الطائرة فقادتنا المضيئة إلى مقاعدنا ورجتينا أن نربط أحزمة النجاة

وبعدها بدقيقة تحركت الطائرة ثم صعدت على الهواء، وتنفس الصعداء وقلت لنفسى الحمد لله ألف حمد، ونم مستريحاً يا أبى^٨.

هل يجدر بنا أن نقول هنا إن هذه كانت آخر سطور هذا الكتاب !

(١٢)

وتوحي لنا هذه المذكرات (على نحو ما) أن استدعاء محمد إبراهيم كامل إلى ذاكرة السادات كى يختاره وزيراً للخارجية، جاء كنتيجة لهذا الحوار الذى دار بينهما فى ألمانيا فى ١٩٧٧ حين كان السادات يزور ألمانيا قبل مبادرة السلام بشهور:

«... وفى مايو ١٩٧٧ أسفرت نتائج الانتخابات الإسرائيلية عن مفاجأة، إذ فازت فيها كتلة الليكود برئاسة مناحم بيجين لأول مرة فى تاريخ إسرائيل، التى ظل يحكمها حزب العمل منذ نشأتها فى عام ١٩٤٨».

«فى ذلك الوقت كان الرئيس السادات قد أنهى زيارته للولايات المتحدة وفى طريق عودته إلى مصر توقف فى ألمانيا الاتحادية لقضاء يوم فى الغابة السوداء بولاية بادن فرتمبرج. وكنت فى ذلك الوقت سفيراً لمصر فى ألمانيا، وأثناء نحوالنا فى الغابات المحيطة بالفندق وكانت لا تزال هناك بقايا للوج نغضى الأرض، حضر بعض مراسلى الصحف وسألو السادات عن رأيه فى فوز مناحم بيجين فأجاب أنه لا فرق لديه بين بيجين أو بيريز أو رايبين أو جولدا مائير أو أى شخص آخر ينتخبه الشعب الإسرائيلى».

«وربما كانت إجابته هذه صحيحة - دبلوماسياً - ولكنى أثرت معه الموضوع بعد ذلك ونحن نتناول الغداء، وقلت إنه كان من الأنسب التحفظ فى الإجابة حيث إن برنامج حزب حيروت الذى يرأسه بيجين يقوم على أساس إقامة إسرائيل الكبرى على أشلاء ما تبقى من الأرض الفلسطينية، وعلى أساس أنه من غلاة الإراهييين والمنسول عن مذبحة دير ياسين. وقلت إنه كان حتى قبل الانتخابات ممنوعاً من دخول المجلتر حيث كان مطلوباً القبض عليه، وأن الرئيس السابق كنيدي عندما كان عضواً فى الكونجرس الأمريكى فى ١٩٥٤ أرسل برقية تنسحب فيها من عضوية اللجنة المشكلة لاستقبال مناحم بيجين عند زيارته للولايات المتحدة - بوصفه من محررى إسرائيل - لجمع التبرعات».

«وذكر كنيدي في برقيته هذه أنه عندما قبل الاشتراك في اللجنة لم يكن يعلم بماضي ييجين الإرهابي، وقد رد على السادات وقتها بأن الإسرائيليين جميعاً على شاكلة واحدة، وهو ما لا أسلم به على الإطلاق».

على أن العجيب في هذا الحوار أن السادات كان يرى الإسرائيليين هكذا، وأن محمد إبراهيم كامل نفسه كان يحفظ على هذا الرأي الذي يراه السادات فانتظر إلى خبرة عام واحد في التعامل مع الإسرائيليين كيف غيرت رأي صاحب هذه المذكرات !!

(١٣)

هل أستاذنا القارئ الآن لأحدثه عن معنى يتراءى لي من قراءة هذه المذكرات مرة والثنتين وثلاثاً، ويتعلق بأسلوب كتابتها الجميل الجزل وقد شابه في بعض المواضع تعليقات لا تنتمي إلى النسيج الممتد في المذكرات كلها. ومن الواضح في نصوص هذا الكتاب أن يداً أخرى قد امتدت إلى هذا الكتاب لتضع بعض العبارات الساخنة في نهايات الفصول، وهي عبارات استفزازية لا تبلغ في حماسها حماس محمد إبراهيم كامل وصدقه ووطنيته، ولكنها تعتمد بغيث إلى توريث صاحب المذكرات في الهجوم على السادات بأساليب كان هو في غنى عنها، لأنه فعل ما هو أقوى منها بكثير.

١ - خذ على سبيل المثال هذه الفقرة:

«إلا أن معدن الرجال يختلف فلم يكن كارتر في صلابة أيزنهاور. كما لم يكن السادات في صلابة عبدالناصر. كان كلاهما - كارتر والسادات - يرتدي قناعاً رقيقاً من الصلب يغطي ظاهره، ولكن لا ينفذ إلى باطنه».

ليس لهذه العبارة أية علاقة بآراء صاحب المذكرات ولا بفكره ولا بموضوع ما يتحدث عنه وهو الرجل الأمين المقتصد في عباراته الذي لا يخرج من الوقائع إلى هذا النوع من الاستطراد حتى لو كان هو الصواب بعينه !! وفضلاً عن هذا فإن كارتر لم يزعم أبداً ولم يكن بحاجة إلى الزعم بأنه صلب.

٢ - وخذ أيضاً كمثال على هذا التدخل هذه الفقرة في نهاية الفصل الثالث عشر:

«كان السادات يعشق «التعميل» ولاح له ما ظنه فرصة سانحة ليلعب دور إسرائيل في

عملية «عنتيبي» وغاب عنه أنه هارو، وإسرائيل محترفة. وسأعود إلى هذه المسألة وذيولها فيما بعد.

وهي عبارات غير متوافقة مع أسلوب محمد إبراهيم كامل الحار الساخن!! المقعم بالعاطفة! أما هذه العبارات فشيء آخر غير ذلك، وفضلاً عن هذا فإن صاحب هذه المذكرات كان يمضى في مذكراته بنفس متصل دون أن يعود أو يشير إلى العودة لأنه بقدرته هائلة كان يقول كل شيء في وقته دون لف أو دوران.

٣ - خذ ثالثاً هذه العبارة التي لا تتمشى مع أسلوب محمد إبراهيم كامل المذهب فضلاً عن أنها لم تتجح في انتقاد أسلوب السادات في التفاوض على نحو ما انتقده صاحب المذكرات بالفعل بعبارات أقوى بكثير من هذه العبارات الإنشائية الفجة ذات الاستعارات السيئة التي لا تصدر عن دبلوماسى رفيع القدر:

«وصلت إلى يقين بأن حصيلة السلسلة الطويلة من اللقاءات الثنائية التي كان السادات طرفاً فيها، كانت من أخطر العوامل التي أدت إلى تآكل مركز السادات وندهوره، حتى أنه عندما عبر بوابة كامب ديفيد كان مفلساً عارياً مكبلاً لا يملك حراكاً بسبب ما انفلت به لسانه داخل الغرف المغلقة من تنازلات وتجاوزات وتعهيدات الواحد بعد الآخر وفي لقاء وراء لقاء حتى كثف نفسه وبدد ما كان معه من أرصدة، وكانت النتيجة أنه لم يجد أمامه مفرأ من التوقيع على إشهار إفلاس مبادرته».

٤ - خذ رابعاً هذه العبارة أيضاً:

«ولا يخامرني شك في أن محادثات فض الاشتباك كانت تجربة مفيدة بالنسبة للإسرائيليين، فمن خلالها حللوا شخصية السادات وخبروا عوده وعرفوا مفاتيحه وسال لعبهم الشره إلى مزيد لا ينقطع من التنازلات يكتزونها في جيوبهم... ولم لا؟»
وتعليقى على هذه العبارة بسيط وهو أن الذى يتخذ ويظن الماكر ساذجاً هو الساذج.

٥ - وخذ أيضاً هذه العبارة التي تخلط في ترتيب الأحداث بينما صاحب هذه المذكرات دقيق لا يخلط أبداً على هذا النحو بين الأسباب والنتائج وبين المقدمات والنهايات:

«وأول هذه الملاحظات أنه كان يؤمن بحسن طالعاه وحظه ولا غرابة في ذلك، فقد مرت به أقسى التجارب وأشد المخاطر ولكنه يجتاز كل ذلك ويتركه وراءه، ثم هو نشأ في بيئة متواضعة وعانى شظف العيش، وإذا به يشارك مجموعة من الضباط تقوم بثورة

فنتجح ويصبح عضواً في مجلس قيادة الثورة، ثم لا يلبث أن يخفى أعضاء هذا المجلس الواحد وراء الآخر من حصول قائد الثورة جمال عبدالناصر، ويبقى هو وحده صامداً ويصبح سكرتيراً عاماً للمؤتمر الإسلامي ورئيساً لمجلس الأمة ثم نائباً لرئيس الجمهورية، ويموت جمال عبدالناصر وهو في سن مبكرة وعلى غير انتظار فإذا به أنور السادات رئيس جمهورية مصر، ويدخل في معركة صراع على السلطة مع مجموعة من مراكز القوة التي تسيطر على مقاليد السلطة فيتصمر، ثم هو يطلب من الاتحاد السوفيتي سحب خبرائه من مصر فيتم ذلك في بساطة، ثم يدخل حرباً مع إسرائيل ويعبر في ساعات خط بارليف الذي قيل عنه ما قيل، وهكذا.

٦ - كذلك لنقرأ ختام الفصل السادس والثلاثين :

«ونظرت فزعاً إلى الرئيس السادات عله يندارك الأمر ويعلق على هذه الفكرة الخطيرة التي طرحها كارتير، ولكنه كان مازال سابحاً في ملكونه يشد على غليونه، أو لعله أثر الالتزام بحكمة القروء الصينية الثلاثة (أنا لا أرى ولا أسمع ولا أتكلم)، وانتهى الاجتماع وخامرني شعور بأن أموراً كثيرة تجري في الخفاء بين كارتير والسادات، وأن على أن أعد نفسي للمفاجآت الأرجح أنها ستكون غير سارة».

ويندرج تحت هذا الاتجاه مضمون الهامش المنشور في (صفحة ٣٣) والذي يشير إلى استقالة مراد غالب سفيرنا في يوجوسلافيا ووزير الخارجية السابق بعد استقالة إسماعيل فهمي ومحمد رياض، مع أن محمد إبراهيم كامل لا يعطى في نصوص مذكراته لهذه الاستقالة أية أهمية، وقد تحدث عن استقالة إسماعيل فهمي ورياض في مواضع كثيرة بعد هذا.

(١٤)

قارن بين كل هذه العبارات الجارحة في ظاهرها الفارغة في مضمونها وبين الموضوعية الشديدة المكتوبة بأسلوب راق رفيع ينتقد السادات بأقصى ما يمكن من صفات وأوصاف ولكن دون إسفاف أو افتعال:

« كنت أشعر بأنه لم استطع التخلص تماماً من عقلية وأسلوب وتكتيك عضو

الجمعية السرية الذي يشكر ويخطط في الحفاء لينفذ خطته، سواء كانت اغتيال شخصية يعتبرها خائنة للوطن أو الإعداد لثورة أو انقلاب في نظام الحكم».

«وظل شيء من ذلك يحكم تفكيره بعد أن تحولت عقارب الساعة وأصبح رئيساً للدولة ومدافعاً عن قضية مشروعة تستند إلى الحق والعدل والقرارات الدولية».

«وما قصدت من سرد كل هذا إساءة إلى الرئيس السادات أو تشهيراً، وإنما كان ذلك بصدد إيضاح تأثير السليبيات وانعكاساتها على مسيرة المبادرة التي أقدم عليها والتي أقحمتني معه فيها تعييني وزيراً للخارجية».

«فأنا لا أعتقد أن رئيس الدولة يشترط فيه أن يكون عظيم الثقافة أو عالماً فذاً أو قانونياً ضليعاً أو مفادياً جباراً، فمسئوليات رئيس الدولة في نظام رئاسي كما هو الحال في مصر عديدة ومتشعبة، والمشاكل أمامه لا تنتهي، سواء كانت تحرير الأرض المحتلة أو إقامة السلام أو كمات تتعلق بمعالجة رفع مستوى المعيشة أو الإسكان أو التعليم أو غزو الصحراء.. إلخ. وليس في مقدور البشر التمكن من ذلك جميعاً».

«كل ما كان مطلوباً هو ألا ينغرد بالحلول أو يتصدى للمشاكل دون مشورة وزرائه ومستشاريه وخبرائه.. ووراءه ونحت أمره أجهزة الدولة متكاملة حافلة بكل الإمكانيات، وشعب متطلع لمباركة وتقدير كل الإنجازات».

«وكان لديه بما له من ماضٍ وطني ونضالٍ طويل ومقدرة على الخطابة وشخصيته التي لا تخلو من جاذبية وخلق ليس بشري، ما يمكنه من تحقيق الكثير على أساس صلب لا تذروه الرياح وعليه يعود فضل النجاح وإليه ينسب. ولكنه لم يشأ أن يقتنع بأن عصر الفرد قد انتهى، وأنا دخلنا في عصر الكمبيوتر».

«وحتى أستكمل الصورة أقرر أنه كان - إذا ما قرأ المذكرات - يعجب بها ويوافق عليها ويلتزم بها إلا فيما ندر، كانت ثقته بي وبأمانتي في العرض وإخلاصي في القصد هائلة لا نهنز، كان يكن لى إعزازاً ومحبة حقيقية ويسمح لى في حضرته بما لم يكن يتقبله من أحد ويحرص على عدم إغضابي أو جرح شعوري، إلا أن نفاذ صبره وتلهفه على النجاح كانا أقوى من أن يحتويهما صدره فراح - من وراء ظهري - يتلمس طريقاً خفياً عسى أن يختصر الوقت ويحقق المراد».



وخذ أيضاً مضمون هذه العبارة اليلبغة التي يوردها صاحب هذه المذكرات لأحمد ماهر وقد تحدث في التمساً إلى صاحب المذكرات .

«وهذا ماهر من روعي وقال: إن مسئوليات السادات ضخمة مرهقة، وإنه يلجأ أحياناً إلى مثل هذه التصرفات بدافع القلق من مرور الوقت دون أن تحقق مبادرته شيئاً محسوساً، وإنه يظن أنه يمثل هذه التصرفات بدفع الأمور إلى التحرك. وقال: إن وجودي إلى جانب الرئيس السادات له أهمية قصوى - فهو يقدرني ويسمع إلى دون أن يغضب، وليس ذلك الحال بالنسبة للآخرين الذين ربما يفضلون عدم الإفصاح له عن آرائهم حرصاً على مرضاته، وإنها على كل حال مسئوليتي المباشرة كوزير للخارجية».

(١٥)

لا يستقر محمد إبراهيم كامل على رأي فيما يتعلق بجذور مبادرة السادات ومتى بدأ صاحبها التفكير فيها، ويبدو أن اندفاعه إلى الهجوم (المتكرر) على السادات قد جعله يجمع بين المتناقضات في هذه الجزئية ولن نقبض في الحديث عن هذه النقطة التي نخص السياسة بأكثر مما نخص حديثنا عن هذا الكتاب ولكننا سنحلل نقطة واحدة فقط نتراءى فيها المتناقضات أو المواقف المتناقضة وقد وردت في مواضع مختلفة من هذا الكتاب دون أن يعلق عليها صاحب المذكرات بما ينبغي أن يعلق به من التفاتة إلى هذا التناقض .

١ - فعلى سبيل المثال فإنه يتساءل عن مدى صحة ما رواه له السادات من أنه كان يفكر في القيام بعمل جريء، وكيف أنه اجتمع بشاوشبسكو ثم اختمرت في ذهنه فكرة المبادرة وهو في الطائرة.. يروي محمد إبراهيم كامل هذا أكثر من مرة، وفي إحدى المرات يورد تعقيباً من كتاب لجولدا ماثير صدر عام ١٩٧٥، وهذا معناه أنه كتب ونشر قبل مبادرة السادات وبالطبع قبل أن يقبل محمد إبراهيم كامل العمل - دعك من الاستمرار - كوزير للخارجية [أو الاستمرار - دعك من العمل - كوزير للخارجية] ولنقرأ هذا النص:

٢ . وأحاول أن أبين خلفية ذلك فأعود إلى الوراء إلى سنة ١٩٧٧ وأذكر - على سبيل المثال - ما أعلنه السادات في أحاديث متعددة وما أورده في كتابه «البحث عن الذات» وما رواه لي شخصياً من أن فكرة المبادرة قد خطرت له لأول مرة بعد أن تلقى

خطاباً من الرئيس كارتر يخبره فيه بأخطر التطورات والمصاعب حول عقد مؤتمر جنيف، وأنه رد عليه بأنه يفكر في القيام بعمل جريء، وكيف أنه بعد أن اجتمع بالرئيس شاوشيسكو الذي أكد له أن مناحم بيجين رجل قوى وأنه يريد السلام، احتسرت في رأسه المبادرة وأنه لم يلبث أن استقر رأيه على الذهاب إلى القدس، وهو في الطائرة من بوخارست إلى إيران^٥.

«هل كان هذا صحيحاً؟ لا أدري، فقد استرعى نظري فيما بعد وأنا أقرأ كتاب جولدا مائير «حياتي» ما ذكرته من أنه في بداية عام ١٩٧٢ زار نائب وزير خارجية رومانيا إسرائيل تحت ستار مقابلة أقرانه في وزارة الخارجية الإسرائيلية، وأنه طلب مقابلتها على انفراد، حيث أبلغها أن الرئيس شاوشيسكو كلفه بإبلاغها أن لديه رسالة هامة للغاية يريد أن يفرض بها إليها شخصياً وتعلق بمباحثاته مؤخراً مع الرئيس السادات عندما زاره في القاهرة، ووجه لها الدعوة لزيارة بوخارست سواء في زيارة سرية أو معلنة حسبما تراه».

«وذكرت جولدا مائير أنها سافرت بعد ذلك إلى بوخارست وأمضت أربع عشرة ساعة في محادثات مع شاوشيسكو في جلستين أبلغها فيهما أنه «فهم من السادات نفسه أن الزعيم المصري على استعداد لمقابلة شخصية إسرائيلية ربما تكون هي جولدا مائير، وربما تكون المقابلة على مستوى أقل قليلاً من مستوى الرؤساء، ولكن مقابلة ما يمكن أن تحدث». وتقول جولدا مائير إن شاوشيسكو كان منحنماً على نحو ما كانت هي وأنه لم يكن هناك لديه شك في أنه ينقل إليها رسالة تاريخية وصادقة تماماً، وأنه تحدث معها بعد ذلك في التفاصيل، إننا لن نعمل عن طريق السفراء أو وزراء الخارجية، واقتراح أن يقوم نائب وزير خارجيته بالاتصال الشخصي بجولدا مائير عن طريق سكرتيرها السياسي «سيمحاً ديتز» الذي صحبها في الزيارة إلى رومانيا».

«ونذكر جولدا مائير أنها بعد عودتها إلى إسرائيل ظلت تنتظر وتنتظر دون جدوى، فلم تنابع الموضوع بعد ذلك، وأنها تعتقد أن السبب في أن شاوشيسكو لم يفتحها في الأمر بعد ذلك لأنه لم يستطع أن يعترف - حتى لها - بأن السادات قد ضلله».

«وقد نجد ملاحظة أن كتاب جولدا مائير صدر في سنة ١٩٧٥ أي قبل المبادرة».

٢ - ولكننا في موضع ثان نجد محمد إبراهيم كامل وهو يحاول تحليل شخصية السادات من خلال الفكرة التي شاهدها في فيلم «حياة والتر ميتي السرية» يصل إلى رأي آخر مخالف تماماً لفكرة الترتيب المبكر منذ ١٩٧٢ حيث يتصور المبادرة نوعاً من الفكر الملح الذي جاء للسادات وهو جالس وحيداً بعيداً عن الناس :

«إلا أن السادات لم يكن بائع لين وإنما كان رئيس دولة يفكر في مشاكلها المتعددة وهو جالس وحده بعيداً، فكانت تطرأ له الأفكار ولا تلبث أن تهيم على خياله فكرة تلح عليه، فيعشقها ثم ينقلها من حيز الفكر إلى حيز التنفيذ، وفي تصديري أن فكرة المبادرة وزيارة القدس التي ذكر أنه لم يشاور فيها أحداً ويظلمه عليها حتى أعلنها، كانت من قبيل ذلك».

٣ - ومن ناحية ثالثة فإننا نجيد صاحب المذكرات وهو ينقل عن السادات عبارات واضحة المعنى عن رفض السادات لاقتراح سوفيتي ببقاء مع جولدا مائير في طشقند سنة ١٩٧٢ وقد جاء هذا النص ضمن الفقرات التي سجل بها صاحب المذكرات حديث السادات إلى أترتون في لقائهما في المعمورة في ٣٠ يوليو حيث تأتي هذه الجملة بالنص: «الرئيس السادات: هذا منطقي لأنه لا يمكن تحقيق أي شيء دون الجلوس إلى مائدة التفاوض، وكان السوفيت قد طلبوا مني أن أجلس مع جولدا مائير في طشقند سنة ١٩٧٢ ولكنني رفضت لأنني كنت مهزوماً. واليوم عندما يطلبون مني أن أجتمع معهم بعد أن أبلغني ييجين بشكل نهائي أن سياسته هي عدم إعادة الأرض يدون مقابل، فإنني لن أقبل ولا نحاولوا إخراجي».



وهكذا يمكن لنا أن نعيد النظر في الفكرة التي وردت في خاطر محمد إبراهيم كامل بعد قراءته لمذكرات جولدا مائير التي صدرت قبل ١٩٧٥ أي قبل المبادرة (١١١) ولكن صاحب المذكرات على الرغم من أنه هو الذي أطلعنا فيها على تلك الزوايا الثلاث للرواية فإنه فاته أن يكون فكرة أو رأياً واضحاً حول جذور مبادرة السادات.. وحقاً فعل!!

(١٦)

ويبدو لي أن آراء محمد إبراهيم كامل في السياسة العربية تمثل تعبيراً كاملاً وصادقاً وأميناً عن آراء نخبة المثقفين المصريين؛ وهو يبدو عملياً مستقيماً واضح القصد سليم النية والطوية، بعيداً عن الأيديولوجيات وأحلام التنفوق وأوهام دعاة الناصرية وأخطاء الثورة، ولتقرأ هذه الفقرة التي يتحدث فيها مع السادات عن استحالة قيام مصر بدور ما في الضفة الغربية لنهر الأردن تنفيذاً لاتفاقات السلام، حيث يصل إلى القول:

... وقلت للسادات وأنا أكبح جماع غضبي: «ماذا تقول، إن هذا جنون، إن عدونا هو إسرائيل وليس الشعب الفلسطيني الذي قمت بمبادرتك لخل مشكلته، فهل سيصل الأمر إلى حد أن نقاتل مع الفلسطينيين تحت سجع إسرائيل وبصرها! وما هو الهدف؟ أنريد أن نتورط في الضفة الغربية كما تورطنا في اليمن أو كما تورطت سوريا في لبنان؟».

«وقال السادات بهدوء شديد: «لا تفعل يا محمد فإنك لا تعرف الملك حسين، سأقول لك سراً لا تعرفه، ففي سنة ١٩٧٣ بعد أن انتهت من وضع خطة الحرب وإعداد ترتيباتها أرسلت إلى الملك حسين أطلب منه السماح لعشرين أو ثلاثين ضابطاً مصرياً من «الكوماندوز» بالسفر إلى الأردن، واقترحت عليه إذا شاء أن ينضم إليهم عدد من الضباط الأردنيين تكون مهمتهم النسل إلى داخل إسرائيل عبر الضفة الغربية حتى إذا ما بدأت الحرب قاموا بنسف وتدمير المنشآت الحيوية داخل إسرائيل نفسها، إلا أن الملك حسين خاف ورفض ذلك».

«وقلت: «ربما، وهذا من حقه بعد تجربته في سنة ١٩٦٧».

هكذا يبدو صاحب المذكرات وهو يعذر الملك حين في الواقعة التي نسبت إليه على نحو ما يفعل معظم المصريين مع أن الملك حين لم يكن كما ظنوا ولنقرأ على سبيل المثال ثناء محمود رياض عليه وعلى شخصيته .



كذلك فإن صاحب هذه المذكرات يتحدث عن الفترة التي أعقبت حرب ١٩٦٧ بتعبير أو وصف الفرص الضائعة، وينبغي أن نسجل هنا بكل وضوح أن استخدامه لهذا التعبير قد سبق استخدام عصمت عبدالمجيد له في مذكراته، ولا يخرج حديث هذه المذكرات عما ورد في مذكرات محمود رياض أو مذكرات عصمت عبدالمجيد، لكن الإضافة الحقيقية هي ما يرويه صاحب المذكرات بوضوح عن تراجع عبدالناصر عن تصريحات أدلى بها عام ١٩٥٤ وذلك حيث يقول:

«فقد ظهر لي من استعراض المواقف العربية منذ قيام إسرائيل أنه حافل بالفرص الضائعة. ففي كل مرة كان العرب يفوتهم القطار فإذا ما عادوا لمحاولة اللحاق به تكون إسرائيل قد رست قدمها في أرض جديدة. وكان ما يعوق العرب ويسبب ترددهم هو ضعفهم وتفرقهم وروح الزايدة والتناحر بينهم وإصرارهم بعناد على وصف إسرائيل بأنها دولة «مزعومة» رغم اعتراف أغلب دول العالم بها».

«ونذكرت سنة ١٩٥٤ بالذات عندما دعا أنتوني إيدن وزير خارجية بريطانيا في ذلك الوقت إلى عقد اجتماع مائدة مستديرة تشترك فيه الدول العربية وإسرائيل لبحث

تسوية النزاع، ولم يلبث جمال عبدالناصر أن أعلن أنها فكرة جذيرة بالنظر وأنه سيقوم بدراستها، إلا أن القيامة قامت في بعض الدول العربية وخاصة سوريا والفلسطينيين وانتهالت الاتهامات بالخيانة على جمال عبدالناصر وبأنه يبيع القضية الفلسطينية للعدو الصهيوني، وكان الهجوم في وسائل الإعلام عنيفاً فراجع جمال عبدالناصر عن تصريحاته وادعى أنها حُرِفَتْ وفهمت على غير حقيقتها. فهذأت العاصفة وعاد الموقف العربي إلى ما كان عليه^٥.

«عادت إلى ذهني تلك الواقعة - وكنت وقتها سكرتيراً أول في لندن - التي حدثت في وقت كان كل ما تطالب به إسرائيل هو أن تقبل الدول العربية التفاوض معها والاعتراف بها في حدودها التي بينها قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولة فلسطينية وأخرى يهودية، وأحسست بسخرية القدر فلم تكن إسرائيل وقتها تحتل سيناء ولا الضفة الغربية ولا القدس ولا غزة ولا الجولان، إذ لم يتم ذلك إلا في حرب ١٩٦٧، فما كان من الدول العربية إلا أن أعلنت في مؤتمر الخرطوم أنه لا مفاوضة ولا اعتراف ولا صلح مع إسرائيل».

«وقد أدركت إسرائيل كيف تستغل موقف الرفض العربي هذا فظلت تعتمد بعد احتلالها للأراضي العربية في سنة ١٩٦٧ إلى مطالبة العرب بالاعتراف بها والتفاوض معها وهي مطمئنة واثقة بأن رد الفعل العربي سيكون مزيداً من الرفض، مما يتيح لها الوقت والفرصة لوضع مخططاتها التوسعية موضع التنفيذ عن طريق تعزيز مواقعها في الأراضي الجديدة المحتلة وإقامة المستوطنات فيها وقطع أوصار هذه الأرض وعزلها عن وطنها الأم».

«كان الموقف العربي إذن موقفاً سليماً يفتقر إلى بُعد النظر ويعود إلى التفرقة والخلافات والانصراف عن إدراك مخاطر السكوت على الكيان الإسرائيلي وتركه يتشعب ويتوسع وسطنا والاكتفاء بالخطب والبيانات في الأمم المتحدة وغيرها دون الإعداد الجدي والصادق لمواجهة حرياً أو سلباً».

(١٧)

وعلى خلاف المتوقع - بعد كثرة حديث صحفيين الرسميين السابقين عن الملك

حسين - فإن محمد إبراهيم كامل يشيد بالملك حسين إلى أقصى الحدود ويعبر عن إعجابه به، بل يحرص على أن يذكر انتقاده لرأى الرئيس السادات فى الملك حسين فى أكثر من موضع، وهو يروى بالتفصيل هذا الحوار:

«وفى المساء أقام المستشار كرايسكى وزوجته حفل عشاء محدوداً حضره الرئيس السادات والسيدة زوجته والمستشار السابق ويللى براندت ورئيس البرلمان النمساوى وزوجته ووزير الخارجية وزوجته وأنا».

«وإدار الحديث حول موضوعات شتى إلى أن أشار كرايسكى إلى أن الوقت قد حان لاشتراك الملك حسين فى مباحثات السلام حتى يمكن حل القضية الفلسطينية، خاصة أن المشروع المصرى يطالب بعودة الضفة الغربية إلى الإدارة الأردنية. فرد الرئيس السادات بأن الملك حسين يتبع سياسة انتهازية، فهو لا يريد المخاطرة بأى شىء وبنظر حتى نقدم له الضفة الغربية كهدية. وقال إن ما وصفه به الملك حسين من أنه يتخذ القرار غير المناسب فى الوقت المناسب، هو وصف صحيح، فقد انضم الملك حسين إلى الرئيس عبدالناصر فى حرب ١٩٦٧ وكانت النتيجة أنه فقد الضفة الغربية ورفض الانضمام إلى مصر فى حرب ١٩٧٣ وفاته المشاركة فى النصر الذى حققه العرب فيها. وأضاف الرئيس السادات: إنكم تعلمون بطبيعة الحال أن الملك طلال والد الملك حسين قد مات مجنوناً وأن لديه معلومات أن الملك حسين بدأت تظهر عليه أعراض الشيزوفرانيا. وقد تضايقت بما ذكره السادات وشعرت بأن باقى الحاضرين قد شاركونى هذا الشعور وأنبرى كل من كرايسكى وبراندت يشيدون بسياسة الملك حسين وبشجاعته وذكائه ويعبرون عن تفهمهم للظروف الصعبة التى تحيط بالأردن».

وفى موضع آخر من الكتاب وبعد حوالى ٧٥ صفحة فإن محمد إبراهيم كامل يعبر بطريقة مباشرة عن تقديره للملك حسين قبل أن يروى زيارته للأردن واستقبال الملك معه ويقول:

«وكنيت ومازلت أكنى للملك حسين إعجاباً وتقديراً خاصين، ولاشك أنه شخصية متميزة بين الملوك والرؤساء العرب، وقد تولى السلطة فى ظروف صعبة بعد اغتيال جده الملك عبدالله أثناء خروجه من المسجد الأقصى بعد أن أدى الصلاة فيه فى ١٩٥١، وقد حدث ذلك على مرأى الملك حسين الذى كان لا يزال طفلاً».

«وهو يتميز بالشجاعة والذكاء والكياسة والبلاغة، ويتمتع بشخصية جذابة، وقد

مرت به منذ توليه الملك سلسلة متتالية من المحن والتجارب الخاصة والعامة صمد لها فشجذت إرادته وأكسبه صلابة وزادته حكمة وجعلت منه سياسياً محتكاً.

«واستقبلنا الملك بترحيب وبشاشة، ودخلت معه غرفة مكتبه ودعاني إلى الجلوس، ولم أكد أجلس حتى وجدت نفسي أخرج علبة السجائر وأضع سيجارة في فمي وأهم بها عليها، ثم تداركت الأمر وانزعجت السجارة وقلت للملك: «إني آسف فأنا لا أستطيع الكلام دون تدخين، فهل يسمح لى بذلك» فقال مبتسماً: «تفضل»، وقلت إني آسف أيضاً لأنني أقابله بهذا الشكل دون أن أغسل وجهي من عناء السفر ودون أن أغير ملابسي رغم أنني أحضرت معي بدلة جديدة خصيصاً لمقابلتها، ولكنني لم أشأ أن أطيل انتظاره، وضحك الملك وقال: «اعتبر نفسك في منزلك».

(١٨)

ويحظى الملك فيصل بن عبدالعزيز والساسة السعوديون بإعجاب صاحب المذكرات إلى أبعد حد، وهو في مستهل كتابه يتحدث عن أسفه لرحيل الملك فيصل بقوله:

«وفي منتصف ١٩٧٤ اغتيل الملك فيصل، وبوقاته اختفت من مسرح الأحداث أقوى شخصية عربية جادة تتميز بالانضام والاعتدال وتحسك في يدها - بحكمة - أقوى سلاح عرفه العالم وهو سلاح البترول».

[يخطئ صاحب هذه المذكرات في تاريخ وفاة الملك فيصل، فقد توفي في مارس ١٩٧٥ وليس في منتصف ١٩٧٤].

وفي موضع آخر ينهز صاحب المذكرات زيارته للقدس ليبدى مرة ثانية إعجابه بالملك فيصل وليذكر دون أن يقدم دليلاً قانونياً أو تاريخياً واضحاً أن الملك فيصل استشهد بسبب القدس:

«وسبب القدس اغتيل الملك فيصل ملك السعودية لأنه كان يردد أمله في الصلاة في المسجد الأقصى قبل أن يموت».

أما سعود الفيصل فإنه يحظى هو الآخر بمحبة صاحب المذكرات وتقديره وهو يقول:

«واستمر لقاءنا أكثر من ثلاث ساعات... كان شامياً وسيماً، متأصلة فيه سمات الأرستقراطية العربية العريقة، ذكياً ذا ثقافة عالية ونسب كريم. وكنت أشعر وأنا ألقاه لأول مرة أنني أعرفه من قبل، ربما لأنني كنت أكن إعجاباً وتقديراً كبيرين لوالده الراحل الملك فيصل».

ويحتفل هذا الكتاب بكثير من الآراء الصريحة والبريئة لمؤلفه، فهو على الرغم من كونه وزير خارجية مسئولاً، إلا أنه يعترف أنه لم يكن مهتماً - على سبيل المثال - بتفاصيل العلاقات الثنائية بين مصر ورومانيا، وهو يروي حديثه مع وزير الخارجية الروماني دون أن يذكر اسمه، وربما لم يتذكره من الأساس إلى أن يقول:

«ثم انتقل الحديث إلى العلاقات الثنائية بين مصر ورومانيا في شتى مجالاتها، وكانت علاقات رومانيا بنا نشطة في المجال التجاري وفي التصنيع، إلا أن ذلك الحديث لم يكن يستهويني ولم تكن قد أتيحت لي الفرصة ولا الرغبة في دراسة العلاقات الرومانية - المصرية الثنائية».

ومن الآراء الجريئة التي حرص محمد إبراهيم كامل على تسجيلها في هذا الكتاب، معارضته للسادات في مطالبته سوريا برفع يدها عن لبنان، وتصريحه باعتقاده في أهمية الوجود السوري في لبنان:

«في صباح اليوم التالي ٨ أغسطس اجتمعت مع المستر فانس، وكان مدار الحديث الأوضاع المتردية في لبنان.. كان فانس معيماً للغاية بهذا الأمر، وسألني عن رأيي في الوجود السوري في لبنان فقلت: إنني سأكلمه بصراحة وإن رأيي في هذا الشأن يخالف تماماً رأي الرئيس السادات الذي ينادي بالانسحاب السوري من لبنان ورفع الأيدي الخارجية عنه.. وأشعر بأنه مدفوع في ذلك بانفعالات شخصية تجاه الرئيس الأسد.. بينما أنا أرى أنه في الظروف الراهنة فإن الوجود السوري في لبنان هو أهم العناصر الفعالة في كفالة شيء من الاستقرار فيها، والحيلولة دون تدهور الأوضاع إلى فوضى شاملة لا تستطيع سوريا تحمل انعكاساتها عليها.. ولو تم انسحاب القوات السورية من لبنان فلا مناص من أن ينفجر الموقف تماماً وتفتت لبنان إلى شطأين من الدويلات والفرق المتناحرة، وهذا هو ما تسعى إليه إسرائيل خدمة لمخططاتها التوسعية في لبنان. وإن إسرائيل ولو ادعت ظاهرياً أنها قد سحبت قواتها من جنوب لبنان، إلا أنها في الواقع لم تفعل، فقد

زرعت ركيزة لها هناك ممثلة في عصابات الرائد اللبناني المنشق سعد حداد الذي تمده بالأسلحة والعتاد بدعوى حماية المسيحيين في لبنان، وهي من الحجج القديمة التي كانت تعمل بها الدول الاستعمارية في القرن التاسع عشر مبرراً للاستعمار، وتطلق يده الأتعة في الجنوب حتى يؤمن لها طريقاً مفتوحاً إلى جنوب لبنان في أي وقت تختاره، وينشر الفوضى والاضطراب في المنطقة باعتدائه على قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة ومنعها من ممارسة واجباتها، وكذلك منعه كتيبة من الجيش اللبناني من دخول الجنوب، وهو بهذا يعمل على تقويض الحكومة الشرعية في لبنان وانتهيارها حتى يهيئ لإسرائيل الصيد في الماء العكر، وتحقيق أطماعها التوسعية في لبنان، وقد وجدت فانس متفهماً لكل ما قلت ومنجأياً معه».

ل

وهو يبدو وكأنه يسرب لنا رأى السادات في الرئيس الأسد في مرحلة مبكرة من الكتاب:

«... وتكلم بمرارة عن الأسد شريكه في الحرب وذكر أنه غلبه، وأنه دخل الحرب على أساس أن تستمر لمدة ٤٨ ساعة على الأكثر... وهو الوقت الكافي للجيش السوري لاسترداد الجولان بعد مباغته إسرائيل بالحرب وانشغالها بالقتال على الجبهة المصرية، ثم يطلب وقف إطلاق النار عن طريق الاتحاد السوفيتي، ويكون قد حل مشكلته في استرداد الجولان غير حافل بما يجري لمصر (شريكه في الحرب). وذكر أن الاتحاد السوفيتي كان متواطئاً مع الأسد في هذا المخطط، وأن أغلب الحسائر التي تكبدها الجيش المصري حدثت من خلال الهجوم الذي قام به الجيش لرفع العبء عن الجيش السوري عندما قام الجيش الإسرائيلي بهجوم مضاد على سوريا».

م

بل يصل صاحب المذكرات إلى أن يروي لنا قرب نهاية الكتاب هذا المشهد الطريف: «ودعانا السادات أن نتمشى معه قليلاً لينعرف على المنطقة المحيطة وقال لنا: «تصوروا إن الرئيس كارتر الساذج المسكين أخبرني أنه يخشى أن يموت الأسد (الرئيس السوري) لأن ذلك سيكون مصيبة كبيرة»، وكانت قد راجت في ذلك الوقت شائعات بأن الرئيس السوري يعاني من سرطان في الحلق وأن حالته خطيرة».

وعلى نفس الخط فهو يسجل أن السادات قال لـ كورت فالدهايم أثناء لقائهما الذي حضره محمد إبراهيم كامل وأورد نصه (صفحة ٣٢٨) في هذه المذكرات إن أعدى أعداء الفلسطينيين هم قادتهم.

أما محمد إبراهيم كامل نفسه فيرى أن منظمة التحرير كانت متسارعة في موقفها من السادات وهو يقول:

«في اعتقادي الشخصي أن منظمة التحرير الفلسطينية قد اتخذت قراراً متسرعاً باندفاعها إلى الانضمام إلى جبهة الرفض والمشاركة في مؤتمر هذه الجبهة الذي عقد في طرابلس في أعقاب المبادرة، خاصة أن لمصر دوراً رئيسياً في القضية يقتضي أن نحرص المنظمة على إبقاء قنوات الاتصال بينها وبين مصر مفتوحة دائماً، وإن كانت دول الرفض مثل سوريا والجزائر وليبيا تملك أن تتخذ القرار الذي تراه، فإن وضع المنظمة لم يكن يسمح لها باتخاذ مثل هذا القرار بهذه البساطة، كان وضعاً دقيقاً وحساساً».

وفي الصفحة التالية من مذكراته يواصل محمد إبراهيم كامل التعبير عن فكره الواعي والمتعملة فيما كان يتمناه للممارسة السياسية الفلسطينية ويقول :

«وإنما كنت أعتقد أنه كان في وسع قيادتها السياسية اتخاذ موقف متأن مرن لا يقطع صلاتها بأي طرف، حتى تبلور الأمور ويتسنى لها تحديد موقفها عن طريق الحوار مع الأطراف العربية جميعاً».



بل إن محمد إبراهيم كامل لا يجد حرجاً في موضع رابع أن يثبت آراء في منتهى الجدية والخطورة والحساسية دارت في اجتماعه مع الملك حسين في الأردن وبخاصة في هذين البتدين:

«وتكلم الملك عن السعودية فقال: إنه يصعب فهم موقفها، فكل طرف يخرج من الحديث معهم بانطباع أنهم يتفقون معه، وأشار إلى ما حدث خلال زيارة النائب حسي مبارك له عندما نقل إليه استعداد السعودية لتشجيع الأردن على القيام بدور تجاه الضفة الغربية، ولكنه عندما قام هو (الملك) بزيارة السعودية أنكروا ما نقله النائب وذكروا أن موقفهم ثابت لا يتغير. وقد تألم الملك عندما بلغه فيما بعد أن الرئيس السادات ينهمه بأنه غير موقفه بشأن التدخل في الضفة الغربية. والحقيقة أن موقف السعودية الذي يعبر عنه السعوديون دائماً ويضغظون على الملك حسين أحياناً بسببه، هو تأييد قيام دولة

فلسطينية مستقلة عن الأردن مما يحقق الأمن السعودي ويمتد التيارات غير المرغوب فيها من التسرب إلى حدودهم.

.....

«وذكر أنه خلال زيارته لسوريا في الأسبوع السابق لس نغيراً في موقفها واستعداداً للانجاء إلى مؤتمر جنيف. وقد كان الرئيس الأسد ملتزماً حدوده دائماً في حديثه عن الرئيس السادات، وأبدى الأسد عدم تفهمه لقيام مصر بالهجوم على مناحم بيجين وحده، مع أن مواقف حزب العمل الإسرائيلي لا تقل - كما أثبتت تجارب الماضي - تعتاً عن موقف بيجين. وإن كانت أكثر التواء وذكاء».



بل إن صاحب المذكرات يتقل عن مضر بدران رئيس الوزراء الأردني وأبيه الذي بصرح فيه بمعرفة بتعاون إسرائيل مع عناصر فلسطينية معينة لاسقاط النظام الأردني :

«الذي إسرائيل خطط جاهزة لمحاولة إسقاط النظام الأردني وإقامة نظام فلسطيني محلّه يدور في فلك إسرائيل، وبذلك تحل المشكلة الفلسطينية نهائياً بسيطرة الفلسطينيين على أراضي الدولة الأردنية. وإسرائيل تجهز كواحد فلسطينية لاستخدامها في الوقت المناسب كما كانت تفعل قبل حرب ١٩٦٧ بالنسبة للضفة الغربية».

(٢٢)

يتجاوز كتاب محمد إبراهيم كامل الحديث عن هزيمة ١٩٦٧ بالتفصيل المعقول بحكم أنه يبدأ مذكراته من مرحلة تالية، ولكنه مع هذا يعبر عن سرارة شديدة تجاه هذه الحرب حين يأتي ذكرها... وهو يقول مثلاً:

«وفي مصر كان الشعور بالمرارة والضياع وخيبة الأمل يسيطر على الجميع بعد أن أفاقوا من وهم أن جيش مصر هو أقوى وأعتى جيوش دول الشرق الأوسط جميعاً».

وفي وسط الكتاب حين يتحدث صاحب هذه المذكرات عن بدايات أزمة لبنان والاحتلال الإسرائيلي والوجود السوري فإنه يستعيد وقائع ما حدث في ١٩٦٧ ويقول :

«وقلت للرئيس السادات: إن هذا الموقف يذكرني بما حدث في مايو ١٩٦٧ عندما كانت بعض الدول العربية وخاصة سوريا والأردن تهاجم نصريحات الرئيس عبدالناصر

باستعداده للحرب مع إسرائيل وتعبيره بأنه ما كان يعلنها لولا أنه يستر وراء حاجز قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة التي تفصل بينه وبين إسرائيل على الحدود المصرية وفي قطاع غزة، مما حدا به في النهاية إلى أن يطلب من يوثاثة السكرتير العام للأمم المتحدة سحب هذه القوات لتحل محلها قوات الجيش المصري، وكان ذلك من الذرائع التي تعللت بها إسرائيل لشن حرب ١٩٦٧، مما أدى إلى احتلالها للأراضي العربية الذي نعاني منه إلى الآن».



ويعد فقرات يؤكد صاحب هذه المذكرات على وعيه الشديد بمعنى آخر أكثر أهمية وهو ارتباط مصر بحكم المواثيق بالالتزام بالدفاع العربي المشترك وتقديم المعونة العسكرية لأية دولة عربية تتعرض لعدوان خارجي وهو يورد من حديثه إلى الرئيس السادات وحواره معه هذه الفقرة .

«والأكثر من ذلك أن مهاجمتنا لسوريا من هذه الزاوية تتردد وتنعكس علينا بدورها، فيتنا من الزجاج إذ نحن ملتزمون بمقتضى ميثاق الدفاع العربي المشترك بأن نهب عسكرياً لنجدة لبنان أو أية دولة عربية عضو في الميثاق إذا ما تعرضت لعدوان خارجي، فما البال ونحن أكبر الدول العربية وأشدّها بأساً. إلا أنه - مرة ثانية - كان الانفعال وكانت الغريزة أقوى من كل شيء».

(٢٣)

ويطلعنا محمد إبراهيم كامل في هذه المذكرات على رأى مبكر صرح به كاونر للسنادات في أثناء كامب ديفيد الأولى (فبراير ١٩٧٨) معترفاً ببطوة اليهود الأمريكيين حيث قال كاونر للسادات:

«إنني لا أريد خداعك ولا أريد التخلي عن مسئوليتي، ولكن بدونك وبدون التأيد الشعبي فإنني لا أستطيع إجبار إسرائيل على تغيير موقفها سواء بسرعة أو ببطء. أما بك فإنني أستطيع الضغط عليهم للتغيير، إن اليهود الأمريكيين يزايد شعورهم بأن ييجين وحكومته هم العقبة في طريق السلام بسبب إصرارهم على المستوطنات. ولكن في حالة مواجهة بيني وبين ييجين فسوف يكون من الصعب على اليهود الأمريكيين ألا يقفوا إلى جانب ييجين».

كما بطلنا صاحب هذه المذكرات على ما صرح له به وزير الخارجية الأمريكية في أثناء إحدى المحادثات الأمريكية المصرية التي سبقت كامب ديفيد عن سيناريو أمريكي للتحرك الدبلوماسي للمضيق على إسرائيل:

«... وقال فانس إن مشروعهم سيكون قريباً جداً من الموقف المصري. فقلت: وماذا سيكون موقفهم إذا رفضت إسرائيل المشروع الأمريكي عند تقديمه؟»

«ونظر إليّ فانس وقال: سأخبرك.. ولكن أرجو اعتبار ما سأقوله لك ذا سرية مطلقة ولا تطلع عليه أحد، سوى الرئيس ونائبه فقط، ووعدته بذلك فقال إنه بعد أن يتقدموا بمقترحاتهم سيخطي الرئيس كارتر الكونغرس حتى لا يصطدم بمعارضة أنصار إسرائيل ويتوجه إلى الشعب الأمريكي رأساً ويلقي بياناً يعلن فيه الموقف الأمريكي وأسبابه ثم يعملون بعد ذلك على كسب تأييد الكونغرس وتأييد الجماعات اليهودية، ويأملون أن يؤدي ذلك إلى رضوخ إسرائيل للمقترحات الأمريكية، وإن لم تفعل فإنهم يمتزمون اللجوء إلى مجلس الأمن واستصدار قرارات جديدة على أساس مقترحاتهم».

«وهنا ذكر أيلتس أن مونديل نائب الرئيس الأمريكي يعارض هذا السيناريو، ولكن الإدارة الأمريكية مصممة عليه».

«وقلت إنني أثق في فانس كما يثق الرئيس السادات فيه وفي الرئيس كارتر، وإنني أقدر هذا السيناريو ولكن المهم هو اتفاقهم معنا على مقترحاتهم قبل تقديمها».

(٢٤)

ويحظى الرئيس محمد حسني مبارك بشيء من إعجاب وإعتراف كامل على الدوام، وقد كان على الدوام عوناً لصاحب هذه المذكرات في كل المواقف التي احتاجه فيها، سواء من أجل إقناع الرئيس السادات أو حثه على موقف معين، وخلاصة رأي صاحب المذكرات في الرئيس محمد حسني مبارك يسجلها في قوله:

«وكانت علاقتي باليد حتى مبارك تقوم على الاحترام المتبادل والصراحة، فقد كان رجلاً جاداً أميناً لا يعرف اللؤام».

كذلك تحظى السيدة جيهان السادات بتقدير خاص من صاحب هذه المذكرات وهو يروي قصة حبها له على البقاء على الدوام إلى جوار الرئيس في أثناء المحادثات

واللقاءات التي سيقوم بها أثناء رحلته إلى فيينا حيث كان سيلتقي بشيمون بيريز، وويلي برانت وكرايسكي ويتنهنز هذه الفرصة لينتقل على السيدة جيهان السادات ويقول:

«..... بقيت وحدي مع السيدة جيهان السادات التي دعنتني إلى تناول الغذاء معها، وكانت تكن لي بعض التقدير منذ زيارتهما الأولى إلى ألمانيا الغربية في عام ١٩٧٤ - وقت أن كنت سفيراً بها - وقد كانت زيارة ناجحة للغاية وتركت شخصية السيدة جيهان السادات أثراً طيباً باقياً في نفوس كل من قابلتهم من المسؤولين وفي نفوس الشعب الألماني عامة».

«وفي أثناء الغذاء قالت لي: يا محمد بك لا تترك الرئيس وحده عند مقابلته لشيمون بيريز في فيينا. فقلت: «الحقيقة أنني محرج. وروبت لها ما ذكره لي الرئيس السادات عندما أبلغني بعدوله عن سفرى معه إلى النمسا منذ أيام باعتبار أن المقابلات التي ستجرى فيها غير رسمية وأنها على المستوى الحزبي ولن يحضرها وزراء خارجية وأناى لم أعلم بتغيير هذا القرار إلا في الساعة السادسة والنصف من صباح هذا اليوم نفسه». فقالت: «لا.. لا.. أرجو ألا تتركه وحده إطلاقاً مع هؤلاء الجماعة، فإن الإسرائيليين في غاية الخبث والدهاء والرئيس رجل صريح وما في قلبه على لسانه وسيمسدون حتماً إلى الإفادة من ذلك واستغلاله». وقلت: «ولماذا لا تطلين منه أنت ذلك؟» قالت: «لا أستطيع فهو يغضب إذا حدثته في شئون العمل، وهو يحبك ويتقربك ولن يمنع في حضورك معه إذا طلبت أنت منه ذلك»، وقلت: «سأحاول».

«وانتهى الغذاء وشكرتها واستأنفها في الانصراف وعدت إلى مقعدي في الطائرة إلا أن حديثها ظل يرن في أذني ويجول في فكري، نرى ما الذي دهاها إلى ما قالته لي؟».

«إنها سيدة ذكية قوية الملاحظة وهي قريبة منه، ثم إن لديها من الكبرياء ما يحول دون إفصاحها عن ملاحظاتها ومشاعرها، ولكنها تعلم أن الملاقة بيني وبين زوجها تعود إلى أكثر من ثلاثين عاماً وأنها تستطيع أن تشق في. لماذا هي قلقة؟ لابد أنها لاحظت شيئاً ما على السادات، ربما أنه لم يعد يعالج الأسور بما تقتضيه مسئولياته الخطيرة من دراسة وتبصر، ربما شعرت أن الضرور قد أصابه وأنه تجاوز مراحل الحذر، ربما أنه يسرف في التناؤل ولم يعد يحفل برأى غيره وربما وربما. ولكن شيئاً ما دفعها إلى ما قالته لي. ومر برأسى خاطراً، نرى هل كانت السيدة جيهان وراء عدول السادات عن قراره بعدم اصطحابي معه إلى النمسا وقراره في آخر لحظة بأن أسافر معه؟».

ونأتى إلى حديثه عن الوزير الذى قدر له أن يزامله طيلة عمله الوزارى كوزير دولة للشئون الخارجية وهو الدكتور بطرس غالى:

هذا هو الانطباع الأول لمحمد ابراهيم كامل وقد سجله فى العبارات الآتية مصوراً لقاءهما الأول ثم تعاونهما المتصل فى أثناء عملهما:

«... فى الأيام التالية لاجتماع الإسماعيلية توجهت إلى مكتبى بوزارة الخارجية وشرعت فى ترتيب أعمالى فانهضت بعض القرارات الإدارية واجتمعت والدكتور بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية وكانت معرفتى به ، مجرد معرفة سطحية اجتماعية .

ومن أول لقاء غمرنا نحن الاثنين شعور متبادل بالارتياح للعمل معا وإن اختلفت وجهات نظرنا بشأن بعض الموضوعات وأسلوب معالجتها وهو أستاذ للقانون الدولى عزيز الاطلاع غزير الإنتاج وله صلات دولية واسعة بين العاملين فى هذا المجال . كان اقترابه من المسائل أكاديمياً تطلب عليه الناحية النظرية، ولكنه كان مرناً فى الحديث يتمتع بظل خفيف وروح مرحة .

واعتدنا أن لنلقى يومياً فى مكتبى ولو لدقائق معدودة نتناول فيها بعض الموضوعات أو نقضيها فى حديث خفيف يسرى عن نفسنا من عناء الإرهاق والتوتر».

وفى موضع آخر يروى محمد ابراهيم كامل مدى الحميمة التى نشأت بينه وبين وزير الدولة الدكتور بطرس غالى حتى أصبح يحادثه كما لو كان يحدث نفسه بصوت عال:

«... ومن التوادد التى حدثت فى ذلك الوقت ، كان بطرس غالى يحكى عن خطابات التهديد التى وجهت له بعد مرافقته للرئيس السادات فى القدس، ثم أردف قائلاً بالفرنسية : ' إنهم يتهموننى بأنى الجبل الثالث من الحونة فى عائلة غالى ' فقلت ضاحكاً: ' كيف ؟ ' إبنى لا أعرف إلا اثنين فقط هما جدك وأنت فمن هو الثالث ؟ ' وأجاب بطرس: ' يقولون إن عمى نجيب باشا غالى قد نورط مع الانجليز أثناء الحرب العالمية الأولى».

وعلى هذا النحو المنصف والمتزن والواعي يقدم لنا محمد إبراهيم كامل حديثه وانطباعاته عن الشخصيات التي أتبع له أن يعمل معها أو أن يحتك بها، وهو منصف إلى أبعد حدود الإنصاف لكل الذين استفاد منهم أو عمل معهم، وخذ على سبيل المثال حديثه عن محمد حافظ إسماعيل حيث ينتهز صاحب المذكرات فرصة دعوة حافظ إسماعيل سفيرنا في باريس له على العشاء بمقر إقامته بينما يتناول الرئيس السادات وديتان العشاء ليتحدث عن مضيفه حديث إعزاز وتقدير فيقول:

«وكان السفير حافظ إسماعيل قد نقل من الجيش وكيلاً لوزارة الخارجية في سنة ١٩٦١ وكنت وقتها قنصلاً عاماً في مونتريال . ثم عين وزير دولة للشئون الخارجية إلى أن اختاره الرئيس أنور السادات مستشاراً للأمن القومي وقد سافر إلى واشنطن حيث اجتمع بهنري كيسنجر مستشار الأمن القومي للرئيس نيكسون وقتها لتحسن الموقف الأمريكي بشأن النزاع العربي الإسرائيلي قبل حرب أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ . وكانت علاقتنا الدبلوماسية بالولايات المتحدة الأمريكية مازالت مقطوعة وكان حافظ إسماعيل رجلاً جاداً لا يخطئ الناظر إليه تكوينه العسكري ويتميز بنظراته الاستراتيجية الشمولية والدقة والمقدرة التنظيمية ، وكانت ملامحه الصارمة تخفى وراءها طبيعة رقيقة وصريحة خارج إطار العمل وكنت ومازلت أكن له مودة وتقديراً واحتراماً» .

وعلى نفس الخط فإن صاحب المذكرات حين يورد استمعاته بوزير الخارجية الأسبق محمود رياض فإنه يتحدث عنه بلفظ أستاذي ويقول:

«... ولست أدعى خبرة واسعة في الشؤون العربية، كما لم يكن لي معرفة سابقة بوزراء الخارجية العرب - وإن كنت قد قابلت بعضهم أثناء عملي الدبلوماسي في الخارج عند قيامهم بزيارات للدول التي كنت معتمداً فيها - وهذانى تشكيري إلى الاستعانة بأستاذي محمود رياض الذي عاصر مشكلة النزاع العربي الإسرائيلي منذ بدايتها وشارك الوفد المصري في مباحثات رودس سنة ١٩٤٩ التي أسفرت عن توقيع اتفاقيات الهدنة بين مصر وإسرائيل» .

ومع أن صاحب المذكرات لا يستفد كمال حسن على (الذى أصبح فيما بعد استقالة صاحب المذكرات من وزارة الخارجية بفترة وزيراً للخارجية) فإنه يذكر لقاءاته معه حين كان لا يزال مديراً للمخابرات، لكنه يأخذ على كمال حسن على أنه لم يبد في اجتماع مجلس الأمن القومي وجهة النظر الكاملة التي كان قد أبداهها من قبل في اجتماع منفرد بينهما، أي أنه يمكن القول: إنه كان ينمي على كمال حسن على عدم مساندته في اجتماعات مجلس الأمن القومي بما كان يقدمه له من معلومات قبل الاجتماع :

« ... وقبل أيام من انعقاد مجلس الأمن القومي زارني في مكتبى السيد كمال حسن على مدير المخابرات وعضو المجلس وقدم لى مذكرة بتقييم المخابرات للموقف بشأن مؤتمر كامب ديفيد. وكانت المذكرة تتضمن جدولاً تفصيلياً بكل نقاط النزاع العربي الإسرائيلي، والحد الأدنى الذي يمكن أن نقبل به مصر في كل نقطة وقد قرأتها في حضوره وعبرت له عن تقديري واغتياطي ، حيث إن ما جاء بها يكاد يطابق الموقف الذي انتهت إليه وزارة الخارجية مائة في المائة ».

«ولم يعلق الرئيس السادات بشيء على ما قلته، وبدأ يسمح لمن يطلب من أعضاء المجلس الكلمة، فتكلم السيد سيد مرعي وتكلم الدكتور مصطفى خليل ولم يمرس أى منهما ما قلته بخير أو بسوء، وكأني لم أقل شيئاً . وإنما تفرعا إلى الحديث عن نقاط أخرى كالاستعلام عن الموقف الأمريكي أو مصير المستعمرات في سيناء، والوحيد الذي تعرض لما قلته كان الفريق الجمسى إذ أشار لى كلمته إلى أنه يوافق وزير الخارجية على أن تستبعد الأراضي من ترتيبات الأمن لما في ذلك من عواقب قد تمس أراضي سيناء نفسها، واتبرى السيد حسن المتهامى موجهها الحديث إلى: « يا أخ محمد لماذا نعترض على تعبير أمانى الشعب الفلسطيني؟ إن كلمة أمانى ترجمتها بالانجليزية هي ASPIRATIONS وهي أقوى من كلمة حقوق RIGHTS ».

«وحررت في الإجابة عليه ولم أجد غير كلمة «ربما»، وتذكرت المذكرة التي قدمها إلى كمال حسن على منذ بضعة أيام قليلة - وكان يجلس في مواجهتي - فصاولت أن أسرع نظره على أن يعفني بكلمة إلا أن جهدي ذهب عبثاً ».

ويشئ حديث محمد إبراهيم كامل عن أسامة الباز بمنتهى التقدير والاحترام اللهم إلا التحفظ على موقف بسيط عابر.

وهو يتحدث - على سبيل المثال - عن دوره في المباحثات التي عقدت في قلعة ليدز ببريطانيا فيقول:

«ثم طلبت من أسامة الباز أن يتولى شرح المشروع المصري وقد فعل ذلك بطريقة رائعة قوية ومؤثرة أوضحت معقولة ومنطقية المشروع والتزامه بقرارات الأمم المتحدة الخاصة بالنزاع العربي - الإسرائيلي من جميع جوانبه، ولم يترك شغرة يستطيع منها الجانب الإسرائيلي، النيل من المشروع».

وبعد صفحة واحدة يكرر صاحب المذكرات اعتزازه بمستوى أداء أسامة الباز ويقول:

«وانتهى على ذلك الاجتماع الأول بعد أن دام أربع ساعات والحق أن أسامة الباز سيطر تماماً على هذا الاجتماع ولم يفلح الجانب الإسرائيلي مرة واحدة في إخراجته أو تعجيزه عن الرد على أي سؤال أو استفسار رداً شافياً واضحاً مفحماً، وكان نجم الاجتماع بلا مرء مما ملأنا بالفخر وحاز إعجاب الجانب الأمريكي وأدى إلى شعور الإسرائيليين بالإحباط».

ولكن يأتي التحفظ العابر الوحيد على أسامة الباز في بداية الفصل الرابع والثلاثين الذي عنوانه «تصرفات غريبة وعلامات استفهام» ويقول ما نصه:

«وفي الساعة السابعة والنصف من مساء يوم ٣ سبتمبر وصلت إلى مطار المظلة الحربي يصحبني السفير أحمد ماهر وبدأ أعضاء مجلس الأمن القومي يندون تباعاً، وما أن اكتمل جمعهم حتى ركبنا الطائرة الانتيوف - سوفيتية الصنع - التابعة ل سلاح الطيران وانطلقت بنا إلى الإسماعيلية، وفي المطار ركبنا السيارات التي كانت في انتظارنا ونوجهنها إلى جزيرة الفرسان حيث تقع استراحة الرئيس السادات».

«وقبل أن تتوقف السيارة أمام مدخل الاستراحة لمحت السفير أسامة الباز بالقرب من المبنى ولم أدر سبب وجوده في الإسماعيلية، فقد قابلته أمس في الوزارة ولم يخبرني بشيء، وأشرت له بيدي محبياً فرد التحية ثم لم يلبث أن اختفى كالشبح».

ينبغي هنا أن نذكر أن ٣ سبتمبر هذا كان سابقاً مباشرة على سفر الرئيس السادات والوفد المصري إلى كامب ديفيد في ٥ سبتمبر ، وقد بدأ أسامة الباز يلعب من خلال مؤسسة الرئاسة مباشرة دوراً مهماً في إعداد مشروعات السلام .

ولكن سرعان ما يعود محمد إبراهيم كامل إلى التعبير عن رضاه لقيام أسامة الباز بالدور الذي قام به فيقول:

« وبقيت نقطتان قبل أن أنتقل إلى مؤتمر كامب ديفيد، ولكنني أعتقد أن ما تناولته من وقائع وتحليل هو أمر أساسي لفهم ما حدث في كامب ديفيد، وفيه أمور كثيرة لا تفسير لها إلا إذا كان القارئ مزوداً بهذه الخلفية».

«الأولى أن السادات لم يكن يستطيع أن يصوغ بنفسه مشروعه «إطار السلام» فإلى من يلجأ؟ اختار الرئيس السادات السيد أسامة الباز ليقوم بذلك لعدة اعتبارات، منها: أن الباز يعمل بصفتين، الأولى أنه وكيل وزارة الخارجية والثانية أنه مدير مكتب نائب الرئيس، إذن فالرئيس السادات قد عهد بهذا العمل إلى أحد معاوني الرئاسة الذي تربطه في نفس الوقت صلة قوية بعمل وزارة الخارجية، بل إنه كان أحد أعمدة مجموعة العمل التي تعد التخطيط لمؤتمر كامب ديفيد بالوزارة. والاعتبار الثاني أن الباز متمكن من قضية النزاع العربي - الإسرائيلي تماماً، وفي نفس الوقت فإنه بارع في الصياغة - وهي عملية بالغة الدقة والتعقيد - بعنصرها القانوني والسياسي».

«وأضيف أنني لم أجد عباراً على أسامة الباز في قبول هذه المهمة التي كلفه بها الرئيس السادات في اللحظة الأخيرة، والتزامه بتعليماته بالاحتفاظ بها سرا للوقت المناسب، فهو أولاً يعمل برئاسة الجمهورية، ثم إنها تعليمات صادرة من رئيس الدولة، وله أن يكلف من يرى من موظفيها بما يراه».

«ومن ناحيتي فإنه وإن أغاظني وأقلقني التحول الذي لجأ إليه السادات في اللحظة الأخيرة بملابساته التي أشرت إليها، فقد شعرت بالارتياح عندما علمت بأنه عهد إلى أسامة بصياغة المشروع. فأنا أثق في شعوره الوطني وفي ذكائه وكفاءته، وكنت على يقين بأن ما سينتج عنه فكره وسيكون مشروعاً قوياً متماسكاً ملتزماً بمواقفنا الاستراتيجية، وهذا ما حدث، فقد أعد مشروعاً جيداً متكاملأً يصلح أساساً للتسوية الشاملة المأذولة لو تدرجنا إليه في الوقت المناسب، لولا أن السادات بما جبل عليه من تسرع وتبديد كان

يزعم أن يلقى به وقوداً فى المرحلة الأولى من المباحثات، كما أشرت وكما فعل بالفعل
حسبما سيأتى بيانه.



وحين نأتى إلى الموضوع الخامس الذى تعرض فيه محمد إبراهيم كامل لأسامة الباز
بالتقدير بعد أكثر من مائة صفحة من الموضوع الرابع الذى تناولناه لتونا وقرب نهاية
الكتاب، فإننا نجد صاحب المذكرات يعاود التعبير عن شعوره بالرضا والتقدير والإعجاب
بأداء أسامة الباز فى أثناء مباحثات كامب ديفيد ويقول:

«ورغم كل ذلك فلم يسلم المشروع من هيش إسرائيل ونهشها لمزيد من التنازلات
وإدخالها الكثير من التعديلات على المشروع حتى آخر لحظة كما سنبين. وقد جاهد
أسامة الباز وكافح فى معركة الصياغة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ولكن ماذا كان يعجى ذلك
فى مواجهة تكاتف ثلاثة رؤساء حكومات من بينهم الرئيس المصرى نفسه».

(٢٨)

ويحتفل كتاب محمد إبراهيم كامل كذلك بالتقدير لزملائه الدبلوماسيين الذين عمل
معهم، ويأتى مدير مكتبه أحمد ماهر فى مقدمة هؤلاء، وقد كان معه على الدوام طيلة
صفحات هذه المذكرات :

«فى نفس الوقت (أى بعد أن علم بتعيينه وزيراً للخارجية مباشرة) كنت بصدد أن
أطلب أحمد ماهر السيد صديقى والوزير المفوض بوزارة الخارجية بالتليفون عندما دق
جرس الباب ودخل فمرضت عليه أن يعمل مديراً لمكتبى فوافق على ذلك واستأذن فى أن
يبدأ عمله معى بعد أسبوع حيث كان سيأمر فى اليوم التالى إلى الستغال لحضور أحد
المؤتمرات الأفريقية، وفارقتى الثعور بالوحدة الشديدة الذى لازمنى طوال الساعات الأربع
الآخيرة، فقد كانت تربطنى بماهر صداقة وطيدة منذ عمل معى سكرتيراً أول فى كينشاسا
واستمرت صداقتنا ونوطدت مع السنين وكنا نتكلم على موجة واحدة ويفهم أحدهنا
الآخر تماماً، وعلى المستوى الشخصى فإن ماهر يتمتع بكفاءة عالية، فهو متمكن من
اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية، وذو ثقافة عالية، وطاقة هائلة، وجلد على
العمل، وذكاء ملح».

كذلك بحظي أسامة الباز وعبدالرؤف الريدى ونبيل العربي بتقدير متواصل حين
بأني ذكرهم في وفود المفاوضات ، أما السكرتير الأول في مكتبه أحمد أبو الغيط فقد
تكرر ثناؤه عليه مرتين بنفس المعنى :

في صفحة ٣٤٥ حيث يقول : ... والسكرتير الأول أحمد أبو الغيط من مكتبى وهو
من الشبان الذين يشيرون بمستقبلي بأمر .

وفي صفحة ٤٩٤ حيث يقول : ... ومعه السكرتير الأول أحمد أبو الغيط الملحق
بمكتبى . وهو من الشبان الذين يشيرون بكل خير .

وليس من شك أن معاونى محمد إبراهيم كامل فى هذه المهمات والمهمات كانوا
يستحقون من التقدير أضعاف هذا كله ، وعندى أن حروب الدبلوماسية لا تقل ضراوة
وإنهاكاً لقادتها وجنودها عن حروب القوات المسلحة ، وليس هذا محلاً لحديث متصل أو
منفصل أو مفصل عن مثل هذه المصاعب ، فأتى على يقين من أن القراء لا يشكون فى أن
تفصيلات العمل الدبلوماسى فى مثل الظروف التى جرت فيها تفاصيل المرحلة التى
يروىها هذا الكتاب ، كانت مرهقة جداً ، وتحذونى الرغبة أن أروى للقارى - على سبيل
المثال - هذا النموذج للمعاناة الذى رواه صاحب المذكرات عن التعب فى إملاء رسالة أو
بيان قبل اختراع الفاكس والاتصالات الإلكترونية :

« وكنا حريصين على أن يصدر بيان فى الصحف المصرية فى صباح اليوم التالى ، وقد
ظل أحمد ماهر يملئ البيان فى التليفون على القاهرة لمدة تزيد على الساعة بسبب رداءة
الاتصال التليفونى ، ولكنه نشر فى النهاية فى صباح اليوم التالى » .

كذلك فأتى حفى بأن أذكر القارئ بمدى صعوبة السفر المفاجئ دون استعداد يدي له ،
ثم تكرار هذا السفر دون أى إخطار أو ترتيب بل على العكس يكون الاتفاق قد تم على
عدم السفر فإذا بمحمد إبراهيم كامل ومعاونيه يخطرون فى الصباح المبكر بأنهم
سيسافرون فى نفس اليوم ، وانظر إلى الرئيس حسنى مبارك حين أيقظ صاحب المذكرات
باتسامة وتلطف لينهى إليه نبأ سفره فى نفس اليوم مع الرئيس إلى النمسا :

« فى الساعة السادسة والنصف من صباح يوم ٧ بولية استيقظت على رنين التليفون
كان المتحدث السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ، وسألتني ضاحكاً : أنت له
نايم يا محمد بك ؟ فقلت : إني كنت نائماً بالفعل فقد سهرت لمدة طويلة أمس فقال : هل
ربيت نفسك للسفر إلى النمسا ؟ فقلت : إني غير مسافر وقد أخبرنى الرئيس بذلك منذ

أيام. فقال: بل ستسافر فقد كنت اتحدث مساء أمس مع الرئيس فطلب مني أن أبلغك بأن تعد نفسك للسفر معه، وسيستقل الرئيس الطائرة من مطار جناكليس في الساعة الحادية عشرة قبل ظهر اليوم. وسأسافر بالطائرة إلى جناكليس لأكون في وداعه فأرجو أن تقابلني في مطار المظلة المطار الحربي بجوار هليوبوليس لناسر معاً. وأيقظت بدوري أحمد ماهر ثم التقيت عمرو حمدي ضابط الحراسة وكان معه جواز سفرى وأبلغتهما بالاستعداد للسفر والمروور على في الساعة التاسعة للتوجه معاً إلى المطار. وقامت زوجتي بإعداد حقيبة سفرى على عجل، كما اتصلت بسكرتيرنى لإبلاغها بإلغاء مواعيدى خلال الأسبوع القادم».

(٢٩)

على هذا النحو مضى محمد إبراهيم كامل في هذا الكتاب الممتع فإذا بكتابه يظهر أماناً تملؤه التفصيلات والتعقيدات الدبلوماسية والبيروقراطية، لكنه مع ذلك يبقى حافلاً بكل ما في الأدب من صدق ورفق وتعمير حتى في الموضوعات التي لاتبدو قابلة لهذه المشاعر ولا تبدو متمعة بالأهمية التي تستحق العناية بها حين نكتب، وسأختار للقارئ حديث صاحب هذه الذكريات عن حسن النهامى وهو الشخصية المحيرة في السياسة المصرية كما يحلو وصفه لكثيرين من الذين يكتبون أو الذين يروون مذكراتهم، وقد رأينا في مذكرات محمد عبدالفتاح أبو الفضل تعريضه الشديد به في كثير من المواضع (راجع الفصل السادس من كتابى مذكرات الضباط الأحرار) كما رأينا في مذكرات أمين هويدى تعريضات لا تنتهى.

أما محمد إبراهيم كامل فإنه يقدم لنا حسن النهامى كما رآه دون أن يدعى أنه يملك قدرة الحكم عليه، لا في أخلاقه ولا في وطنيه ولا حتى في قدراته الحارقة، وقد رأيت أن أنقل للقارئ بعض الفقرات المتفرقة التي تعرض فيها محمد إبراهيم كامل لشخصية حسن النهامى بالدراسة والتحليل.

ها هو يحكى لنا عن أول لقاء له بحسن النهامى وقد تم هذا اللقاء على عشاء في النمسا (كان إفطاراً بالنسبة للرئيس السادات الذي كان كثيراً ما يصوم) ونحن نرى صاحب المذكرات وهو يصف النهامى على نحو ما يصف الأدياء الغربيون الرجال وصفاً

فسبولوجياً: وسيماً ذا عينين زرقاوين وشارب ولحية مدببة، طويل القامة، قوى البنية.. الخ:

«... وهبطت الطائرة في مطار فيينا وكان في استقبال الرئيس أنور السادات رئيس الجمهورية والمستشار برونو كرايسكى. ونزلنا في فندق 'إمبريال' الذي يعود بالخيال إلى أيام عظمة الامبراطورية النمساوية الهنغارية وقصص ومآسى أسرة الهابسبورج التي حكمتها طوال قرون حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وأرسل لى الرئيس أنور السادات يدعونى إلى العشاء معه فى جناحه - الإفطار بالنسبة له - وذهبت إليه فى الساعة السابعة مساءً وتحدثنا فى أمور شتى ثم انتقلنا إلى غرفة المائدة وواصلنا الحديث ونحن نتناول الطعام. وفى منتصف العشاء دخل سكرتير الرئيس وأبلغه أن السيد حسن التهامى قد حضر فطلب منه الرئيس أنور السادات أن يدعوه ليشاركنا العشاء. ودخل السيد حسن التهامى وعانق الرئيس أنور السادات الذى قدمنى له فصافحنى بحفاوة، وكان شخصاً وسيماً ذا عينين زرقاوين وشارب ولحية مدببة، طويل القامة، قوى البنية، تبدو عليه معالم القوة والحبوبة والصحة ويشع من عينه بريق غريب».

«كانت هذه هى المرة الأولى التى أقابله فيها، كنت قد سمعت عنه روايات وأساطير غريبة، منها أنه كان فى صدر شبابه يعيش حياة متحررة صاحبة ثم تحول فجأة إلى الدين والى التصوف، وكان من الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ وعمل فى المخابرات العسكرية ثم عين سفيراً فى النمسا لسنوات طويلة فى السنينيات ثم أمينا عاماً للمؤتمر الإسلامى ومنها أنه كان على اتصال مع الجن والأبياء ويستحدث مع الموتى».

«وقال الرئيس أنور السادات أنه كان يتوق لأن ألتقى بالسيد حسن التهامى الذى كان عضواً فى الجناح العسكرى للجمعية السرية التى كان الرئيس أنور السادات من أفرادها بينما كنت أنا عضواً فى الجناح المدنى لها».

«وقال السيد حسن التهامى: إنه كان ينطلع للقاءى وأنه يعرف عنى الكثير منذ كنت فى السجن، ولعلنى لا أعلم أنه كان قد أعد خطة مؤكدة النجاح ليهربنا من السجن فيما لو حكم علينا بالإدانة فى قضية الاغتيالات السياسية عام ١٩٤٦، وظل يروى قصصاً عن بطولاته وجسارته تتضمن أعمالاً خارقة لا يصدقها العقل ولكنه كان يروىها بتأكيد وثقة لا تقبل المناقشة وكان حديثه رغم ما فيه من مبالغات وجنوح إلى أحيال ظريفاً مسلياً

على غرار قصص «ألف ليلة وليلة». وقد فهمت أنه كان قد سبقنا إلى النسخة منذ مدة لإعداد زيارة الرئيس أنور السادات لها وترتيب اللقاء بينه وبين شيمون بيريز ، وأنه كان يستعين في ذلك برجل أعمال غساي يهودي من أصدقاء المستشار».

(٣٠)

وفي موضع آخر من مذكراته يروي لنا محمد إبراهيم كامل بدايات نصائح التهامي له وهو يوجهه إلى ما ينبغي أن يفعل عند اللقاء بوزير الخارجية الإسرائيلي موسى ديان:

«... عندما تقابل ديان إذا لاحظت أنه يراوغ في الحديث معك فما عليك إلا أن تقبض يدك اليمنى وأنت تنظر إليه ثم ترفعها أمام وجهه وتفرّد أصابعك أمام وجهه وأنت تصيح ' ياتهامي ' وستجد أنه سيعود إلى رشده على الفور وبذلك نستطيع التفاهم معه».

وحين نتقدم الخبرة بمحمد إبراهيم كامل في فهم سلوك التهامي فإنه يحدثنا عن طرائقه بقدر غير قليل من التقدير الخاص بمثل هذه الممارسات الطريفة (!!):

«... أما السيد حسن التهامي فإلى جانب عدم تخصصه في طبيعة ما غارسه فقد كانت له آراء فريدة من نوعها لا أستطيع أنا ولا غيري أن نرفي إلى مستوى فهمها بسهولة».

«وكان الوقت يمضي مملأً ثقيلاً حتى يفرغ السيد حسن التهامي من جولاته المجهولة وينضم إلينا في الاستراحة ، وكان الوحيد من بين أعضاء الوفود الذي ينزل في استراحة بمفرده ، كما كان هو ويجين الوحيدين اللذين بصران على ارتداء بذلتهما كاسلة مع رابطة العنق طوال المؤتمر . فما أن يعبر السيد حسن التهامي مدخل الاستراحة حتى يتلاشى في لحظة جو الملل والتناؤب والقلق ، وكأنه ضغط على زر إلكتروني ، ويتقلب إلى جو من البهجة والمرح والدعابة وتدب الحياة في المجتمعين ويشد انتباههم ويصحو سمعهم ويبدأ بأخر الأخبار . فيقول مثلاً إن موسى ديان قد وافقه منذ ساعة على عودة القدس إلى العرب . ثم يتكلم عن التصوف وعن تفسير الأحلام ، ويتنقل إلى القصص والروايات ويحكى كيف حل مشكلة المسلمين في الفلبين ، وكيف استطاع أن يؤجل

قيام النورة في الميلاو لمدة ثلاث سنوات ، وكيف عالج نفسه من السم الزعاف الذي دس له في الطعام أثناء إحدى زيارته لبعض الدول العربية . فانسحب إلى غرفته يتلوى من الألم وأغلق عليه الباب بالمزلاج لمدة ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ، وراح يعالج نفسه بترياق السموم الذي بحمله معه دائماً ، ثم يتكلم عن فوائد العنبر الذي يستخرج من كبد الحوت ، وعن مزاجا غسل سلكات النحل ، ثم يتوقف فجأة ويتكلم عن القدس ويخاطبني قائلاً : «القدس أمانة في عنقك يا أخ محمد فحذار أن تفرط فيها».. وكان كل ذلك يجري في جو خفيف ضاحك يحجب مشاعر القلق ويخفف التوتر الذي يعمل في النفوس .



وعلى هذا النسق يواصل محمد إبراهيم كامل هذا الحديث اللبق الشيق عن التهامي ونصرفاته في كأمب ديفيد حيث عقدت المباحثات الثلاثية فيقول :

«وتجاوز الاهتمام بكرامات السيد حسن التهامي ومعجزاته دائرة الوفد المصري ، ففي أحد الأيام دخلنا غرفة الطعام فوجدنا السيد حسن التهامي واقفاً بالقرب من إحدى موائد الطعام المخصصة للوفد الإسرائيلي وقد انف حولهُ العديد من الإسرائيليين يستمعون إليه يناقشونه في اهتمام ، وتبين أن السيد حسن التهامي قد أخبرهم بأن في مقدوره أن يوقف قلبه عن الحركة إلى أي وقت يشاء ، وطالت المناقشات بينهم ثم عاد إلينا لتناول طعامه معنا.. وفي المشاء دعا أعضاء الوفد الإسرائيلي السيد حسن التهامي إلى استئناف الحوار معهم ، وكانوا قد أحضروا معهم طبيب يجين الخاص خصيصاً ليتولى مناقشته عملياً في هذا الموضوع» .

وفي موضع رابع بحدثنا محمد إبراهيم كامل عن بعض آراء التهامي الغربية :

«وساد السكون برهة ثم قال السيد حسن التهامي فجأة :

«هناك تطورات هامة ، فلقد وصلنني معلومات مؤكدة من مصادري الخاصة بأن الملك حسين سيتنازل عن العرش لأخيه الملك الحسن بعد أسبوع واحد، وأن الأمير الحسن سيعلن فور توليه انضمامه إلى المفاوضات وتنتهي المشكلة» .

والثفت إلى السيد حسن التهامي وقلت : إن مصادرك الخاصة قد جانبها الصواب هذه المرة ، فإن معلوماتنا أن الأمير الحسن - على خلاف الملك حسين - يمارض بشدة في توريث الأردن في الضفة الغربية بأي شكل لما يراه في ذلك من عواقب» .

وعلى هذا النحو تمضى مذكرات محمد إبراهيم كامل فى كل ما ترويه عن موقف المسئولين المصريين من عملية السلام ومن بين هذه المواقف جميعاً فإن موقف سيد مرعى فيما يبدو كان أكثر إيجابية أو أكثر اندفاعاً حين قدر له أن يعقد بعض الاجتماعات التشاورية مع مسئولين أمريكيين فى أثناء عملية السلام المتواصلة. وفى روايته لآراء رئيس مجلس الشعب وعضو الوفد المصرى يعترف صاحب المذكرات بأن سيد مرعى فيما انتهجه من آراء كان يعكس رأى قطاع كبير من الشعب المصرى. وهذه ملحوظة طيبة من محمد إبراهيم كامل الذى لم يكن بالطبع يجهل أهمية مثل هذا الرأى، ولكنه كان يرى (شأن كل الدبلوماسيين) أن للتفاوض أصولاً وتكتيكات أخرى.. وكان محمد إبراهيم كامل مقدراً للدوافع التى دفعت سيد مرعى إلى هذه الآراء كخوفه من اتساع الاستيطان الإسرائيلى.. الخ، وقد أفاض صاحب المذكرات فى التعبير عن رأيه تجاه هذه النقطة فى فصل من مذكراته جعل عنوانه : «الخطر من الداخل» وما هو جدير بالذكر أن سيد مرعى كان عضواً فى الوفد المصرى (فبراير ١٩٧٨) إلى المفاوضات مع الجانب الإسرائيلى فى الولايات المتحدة الأمريكية (التي عرفت باسم مقاضات بليز هاوس).

٥.. وفى يوم ٧ فبراير (شباط) كنت فى بليز هاوس وعند دخولى لإحدى الغرف وجدت سيد مرعى رئيس مجلس الشعب وعضو الوفد المصرى جالساً إلى جوار الدكتور أشرف غربال سفيرنا فى واشنطن والذى كان منهمكاً فى الكتابة.. وسألت أشرف عرضاً عما هو منهمك فى كتابته، فرد المهندس سيد مرعى بأنه بعد مذكرة بما دار بينه (أى سيد مرعى) وبين برجنسكى مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر فى الصباح (وبمحضور أشرف غربال) بشأن وضع أسس الاتفاق على الاستراتيجية المصرية الأمريكية فى الأسابيع القادمة. ولم أرد على سيد مرعى وإنما وجهت اللوم للتفسير على قبوله المشاركة فى مثل هذه المقابلة دون أخذ رأى، وهو يعلم أنه ليس من شأن سيد مرعى مناقشة مثل هذه المواضيع. ورد أشرف بأن سيد مرعى هو الذى دعاه ولم يكن يعرف الغرض من المقابلة. ورد المهندس سيد مرعى بأنه لم يقصد التدخل فى اختصاصى، وأنجبتته بأنى لا أتدخل فى عمل أحد ولا أحب أن يتدخل فى عملى أحد وأن تدخله هذا يعتمد الأمور فى عملية معقدة فى حد ذاتها ١.

« وعندما اطلعت على الاتفاق المبدئي الذي تم بين المهندس سيد سرعى وبرجنسكى تارت ثايرتى. فقد كان معنونا باسم: «إستراتيجية للأسابيع القادمة». وينص على ما يلى:

١ - يجب التوصل إلى إعلان مبادئ بأسرع ما يمكن حتى يتسنى توسيع دائرة المفاوضات الحالية لتضم الأردن وممثلين عن الشعب الفلسطينى وسوريا ولبنان بفرض إنجاز تسوية شاملة لنزاع الشرق الأوسط.

٢ - التوصل إلى اتفاقية بشأن سيناء تتضمن على وجه الخصوص حكما بحسب المسوطنات تطبيقا لاحترام سيادة مصر ووحدتها الإقليمية.

٣ - دور الولايات المتحدة الأمريكية الآن هو تعديل الموقف الإسرائيلى فيما يتعلق بما هو مذكور أعلاه ، وباقى الموضوعات الخاصة بسيناء بما فيها المناطق المنزوعة السلاح ستعالج مباشرة بين مصر وإسرائيل.

٤ - يجب التوصل لاتفاقية سيناء بأسرع وقت ممكن. وتعلن مبادتها التى تنفق عليها مصر وإسرائيل، أما توقيعها فسيتم فى تاريخ لاحق يتفق عليه بعد إعلان المبادئ. وهذه الاتفاقية لن تشكل حلاً منفرداً.

٥ - بعد زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلى القادمة لواشنطن ستقدم مصر ورقة تتضمن وجهات نظرها بالمبادئ لتسوية وجوه أخرى متعلقة بالمشكلة الفلسطينية والضفة الغربية وغزة والقدس.

٦ - ومن المتوقع أن الولايات المتحدة ستقدم على ضوء الأوراق الإسرائيلية والمصرية وجهات نظرها واقتراحاتها لكيفية تحقيق حل عادل لمشكلة الضفة الغربية وغزة.

٧ - وفيما يتعلق بالضفة الغربية ستضمن الورقة المصرية:

أ - فترة انتقالية تحدد مدتها بواسطة الأطراف المعنية وتنتهى بممارسة حق تقرير المصير.

ب - تعتقد مصر أنه بعد الاتفاق على إعلان المبادئ والتوصل لاتفاقية بشأن سيناء يقوم ممثلو الشعب الفلسطينى والأردنى مع الأمم المتحدة وإسرائيل بمفاوضات تتعلق بالضفة الغربية.

٨ - وتخضع غزة لنفس المفاوضات بين مصر ومثلى الشعب الفلسطينى وإسرائيل والأمم المتحدة.

٩ - تستطيع سوريا من جانبها الدخول فى مفاوضات مماثلة بشأن الجولان.

١٠ - ستترك المملكة العربية السعودية مع مصر والأردن ومثلى الشعب الفلسطيني والأمم المتحدة في مفاوضات بشأن مستقبل القدس

١١ - كل هذه المفاوضات ستعالج موضوعات الانسحاب من جميع الأراضي وكذلك موضوعات الأمن المتبادل بين إسرائيل وجيرانها العرب ٥.

(٣٢)

هكذا لخص محمد إبراهيم كامل (بل عرض) في أمانة شديدة كل ما كتبه أشرف غربال عن لقاء سيد مرعى وبريجنسكى دون أن يعتمد العبث بالنصوص أو التعليق المباشر عليها، فهو يتحدث فيما هو أهم من ذلك وهو المبدأ، وهو يواصل ما يرويه :

«... وفي المساء توجهت إلى غرفة نوم الرئيس السادات في بليز هاوس وكان يجلس معه المهندس سيد مرعى فأخبرته أمامه بما أقدم عليه المهندس سيد مرعى من تفاهم مع بريجنسكى على أمور غاية في الخطورة، وقدمت له صورة الورقة المدة بينهما دون أن يأخذ رأى أو ينسق معى... وذكرت أنه لو قام عضو في الوفد بمثل ذلك فسنصل إلى أوضاع غريبة وسنفقد احترام الجانب الأمريكى ٥.

وبعد عدة صفحات يحلل محمد إبراهيم كامل هذا الموقف بقدر كبير من التعامل المقبول أو المبرر على سيد مرعى وعلى تفكيره في هذه القضية فيقول:

«كان ما يرمز إليه موقف المهندس سيد مرعى في لقائه مع بريجنسكى مصيبة لا أملك حيالها دفاعا ولا أستطيع لها علاجاً حيث إن الخطر كان يترعرع داخلنا نحن. كانت بذوره كاسية فيما كان المهندس سيد مرعى مقتنعا بخطورة أن يطول أمد الاحتلال الإسرائيلي لسيناء بعد أن اتخذ طابع الاستيطان الإسرائيلي التقليدي بإنشاء العديد من المستوطنات في رفح والمرش وأتحاء أخرى من سيناء، وقد ضاعف من مخاوفه ما أعلنته إسرائيل عن عزمها على تكثيف المستوطنات وإقامة مستوطنات جديدة في سيناء بعد اجتماع الإسماعيلية وقبل اجتماع اللجنة السياسية في القدس، والحق أنه لم يكن (أى سيد مرعى) يخفى ذلك، فقد شرح وجهة نظره في اجتماع مجلس الأمن الفومى قبل سفر الوفد المصرى في اللجنة السياسية للقدس كما ردها في بعض أحاديثه معى،

ولم يكن هذا يعنى عدم اهتمامه بمصير سائر الأطراف العربية من ضحايا العدوان الإسرائيلي، وإنما كان يعنى ببساطة أنه الجانب الأولى بالنسبة لمصر.. وأنه إذا فقدت مصر سيناء من جراء تشعب جذور المستوطنات الإسرائيلية فيها، فإن ذلك بالتالى يهضعف فاعلية مصر - كبرى الدول العربية - مستقبلا فى مساندة العالم العربى فى حل سائر أوجه المشكلة».

ويعقب محمد إبراهيم كامل على رأى سيد مرعى الذى لخصه - فيما سبق - مبدىا رأيه هو فيما يتعلق بالعمق الاستراتيجى للصراع العربى الإسرائيلى فيقول:

"وكنت ومازلت أرى غير ذلك وأعتقد أن مستقبل مصر المفتوح الآفاق فى هذه البقعة من العالم سرتهن بنسوبة النزاع العربى الإسرائيلى، نسوية شاملة متكاملة تحقق السلام والاستقرار فى المنطقة. وأن مكانتها ورخاءها وازدهارها لن تصل إلى القمة إلا وهى فى [رابطه] عالم عربى متضامن ومتعاون تنتمى إليه بأوثق الروابط، ويملك إمكانات هائلة وهو مجالها المؤثر. وعلى العكس فإن انزلاقها إلى حل منفرد سيؤدى إلى وقوعها فريسة لاضمحلال وتدهور أدبى ومادى ومعنوى لا قرار لهما. وتدخل فى زمرة الدول ممسوخة الوجهة التى لا تقدم ولا تؤخر وتصبح ترسا فى آلة الولايات المتحدة الضخمة تسخرها وتوجهها حسبما تشاء.. ولم تخلق مصر من أجل ذلك».

ويضيف محمد إبراهيم كامل بأمانة شديدة وبوضوح فكر يحسب له :

«ولم تكن الخطورة فى رأى سيد مرعى المنفرد - صحيح أنه رئيس مجلس الشعب وهو بحكم صداقته للرئيس أنور السادات ومصاهرته له واتصاله اللصيق به وما يتمتع به من شخصية يمكن أن يؤثر على الرئيس أنور السادات - ولكن الخطورة فى أن رأيه كان بعكس جانباً كبيراً من الرأى العام المصرى لب أو لآخر».

وليس لى من تعليق على كل هذا الذى رواه محمد إبراهيم كامل وازنائه إلا أن أذكر للقارئ ما ذكرته من قبل فى كتابى^٥ سيد مرعى شريك وشاهد على عصور الليبرالية والفورة والانفتاح فى مصر المعاصرة^٦ من أن آراء سيد مرعى فى هذا الموضوع لم تكن إلا صدى عميقاً لتجربته الاليمة قبل (٣٠ عاماً) بالتمام والكمال حين كلفه النقرائى باشا باستطلاع الأوضاع فى فلسطين قبل حرب ١٩٤٨ ويوسها لخص سيد مرعى موقفه بأن^٧ كارثة محققة على وشك الوقوع، لهذا فقد كان هذا الرجل حساسا إلى أقصى درجة تجاه مستقبل أرض بلاده ويخشى بالطبع أن تتعرض لنفس المصير السابق

الذى تعرضت له فلسطين في ١٩٤٨، ولهذا فإن المهم أن نقرأ ما رواه هو نفسه عن مهمته المبكرة جداً في فلسطين في كتابه «أوراق سياسية»، دون أن يكون دفاعاً عن موقف مقبول ومقدر من سياسى وطنى مسئول.

ويجدر بنا هنا أن نظهر اعتزاز محمد إبراهيم كامل بما يرويه هو نفسه في هذه المذكرات عما شهد له به سيد مرعى نفسه في موقف آخر:

«... ووافق الرئيس السادات على إرسال الخطاب إلى الرئيس كارتر كما هو بدون تعديل، وقال سيد مرعى «إن لغتك الإنجليزية ممتازة فقلت «إن الذى صاغ الخطاب بالإنجليزية هو أحمد ماهر السيد وليس أنا» فنظر إلى سيد مرعى وقال: «لم أر طوال حياتي شخصاً يعمل بالسياسة مثلك يرفض أن ينسب إلى نفسه فضلاً فقلت «إنى لا أعمل بالسياسة وإنما أحاول أن أؤدى واجباً نحو وطنى».

(٣٣)

وعلى عكس ما قد نتوقع فإن محمد إبراهيم كامل يقدر الساسة الأمريكيين الذين تعاونوا معه أو اشتركوا معه فى المفاوضات والمباحثات، ولكنه على عكس المتوقع أيضاً لا يقدر الرئيس كارتر فى النهاية بسبب اعتقاده بأن كارتر كان ضعيفاً تجاه الإسرائيليين على حساب الرئيس السادات (ومصر بالتالى). وهكذا فإن محمد إبراهيم كامل لا يجد حرجاً فى أن يروى ما حدث منه من سباب الرئيس كارتر (فى غيابه طبعاً) فى حضور الرئيس السادات، وهو يروى فيقول:

«ولم أستطع أن أكبح جماح لساني وانفجرت قائلاً بصوت عال منفعل: «أهذا هو رئيس أقوى دولة فى العالم؟ أهذا هو القديس الذى كان يدعى أن الدفاع عن حقوق الإنسان والمبادئ والقيم هو محور سياسته؟ إنه ابن كذا وابن كذا... أمن أجل أن يظل رئيساً لأمريكا ثمانى سنوات بدلاً من أربع يضحى بمصير شعب بأكمله؟ ياله من ناهة حقيرة».

«وساد سكون مطبق والجميع يرتقب رد السادات وكنت أشعر أنه لو كان أمامه سكين فى تلك اللحظة لأغمدته فى صدري، فقد أحس أن ما فعلته غير موجه إلى كارتر وإنما

موجه إليه أيضاً، ولكن يبدو أن ما أنقذنى أنه كان حريصاً على أن يبقى موضوع استقالتي سرّاً حتى ينتهى المهرجان».

«وبعد فترة فهذه السادات بصوت عميق درامى: هه.. هه.. هه».

«وقال وهو يضع يده على كتفى: أصلك أنت يامحمد مش سياسى، وقلت: إذا كانت هذه هى السياسة فإنه يشرفنى ألا أكون سياسياً».

«ونهض السادات واقفاً وانفض الجمع».



أما وزير الخارجية الأمريكى سيروس فانس فيحظى على الدوام بتقدير وصدقة محمد إبراهيم كامل، ويبدو أنه كان هو الآخر يحرص على محبة وصدقة محمد إبراهيم كامل، فقد هرع إليه عندما علم من السادات نبأ استقالته، وهذا هو أول رأى سجله محمد إبراهيم كامل فى سيروس فانس:

«... وفى أثناء زيارة كارتر هذه لأسوان قابلت لأول مرة سيروس فانس وتبادلنا الحديث نحو عشر دقائق. وقد تركت شخصيته فى نفسى أثراً طيباً للغاية أحسست أنه شخص شريف نظيف ذكى. حديثه واضح لالتواء فيه والتفاهم معه سهل، وقد أكدت لى الأيام هذا الانطباع ولا أزال أكن له كل الود والصدقة».

وفى موضع آخر من بدايات هذه المذكرات لمجد صاحبها حريصاً على تسجيل امتنانه لوزير الخارجية الأمريكى حين أظهر قدراً كبيراً من النبل تجاهه وهو يستعد للسفر إلى القاهرة من القدس بعد استدعاء السادات له من اجتماعات اللجنة السياسية:

«... وفى غرقتى والاستعداد للسفر على قدم وساق حضر فانس من جديد فأحطته بمضمون المقابلة وعبر لى من جديد عن أسفه لموقف ييجين المتشدد وقال: إن العملية تحتاج إلى وقت ومتابعة وإنه سيزور القاهرة بعد غد وهو فى طريق عودته إلى واشنطن لمقابلة الرئيس السادات. وانتهى الحديث بيننا وكنت أنتظر انصرافه حتى أغادر الفندق ويبدو أنه فهم ذلك فقال إنه سيذهب إلى المطار لوداعى فقلت: إن هذا مستحيل لأن المطار يبعد ساعة عن القدس ومعنى ذلك أن يعود إليها فى الساعة الثالثة صباحاً بعد يوم طويل شاق. قال: إنه يدرك ذلك ولكنه يريد إظهار أن قرار استدعاء الوفد المصرى لم يؤثر عليه فى شيء، وأنه يهمه أن يعرف الناس أن علاقته بى وبمصر ثابتة ومستمرة».

«شكرت فانس وقلت له: إنه يكفى لذلك زيارته لى، فقال: إنه إذن سينزل معى ليوصلنى إلى السيارة حتى يشاهده جموع الصحفيين المنتظرين بيهو اللوكاندة. وقد فعل».

وقد سبق لنا أن ذكرنا كيف أن فانس صرح لصاحب هذه المذكرات بالسيتاريو الأمريكى الذى لم يكن أحد يعرفه .

(٣٤)

أما هيرمان أيلتس فيحظى على الدوام بثقة محمد إبراهيم كامل وترتفع هذه الثقة إلى حدود يمكن وصفها بالحدود الخطرة، ويكفى أن أذكر للقارئ أن محمد إبراهيم كامل صرح لأيلتس دون غيره من الناس جميعاً بخبر استقالته مع أنه لم يصرح به لأحد (آخر) كما وعد السادات، حتى إنه لم يبيع به لبطرس غالى زميله فى حجرة النوم ! ولكنه مع ذلك أنهى الخبر إلى أيلتس. كذلك فإننا سنطالع هنا موقفاً وطنياً لمحمد إبراهيم كامل يرجو فيه أيلتس أن يساعده فى آليات العمل مع السادات، وستورد الموقف كما رواه صاحب المذكرات بتفصيلاته دون أن نكثر من التحفظ عليه، إذ تكفيها شجاعة محمد إبراهيم كامل ووطنيته ونبيل مقصده وسمو غايته، ولكننا سنبدأ بإيراد رأى محمد إبراهيم كامل المبدئى فى أيلتس الذى ورد فى صفحة ٧٤ حيث يقول:

«وكان أيلتس دبلوماسياً محتكاً من الطراز الأول، يشتمع بالذكاء والمعرفة وينسم بالصراحة وقوة الحججة ودقة التعبير، وكان قد أمضى طوال حياته الدبلوماسية فى بلدان الشرق الأوسط حيث عمل فى العراق وإيران ثم عمل سفيراً لدى المملكة العربية السعودية، ومنها عين أول سفير للولايات المتحدة فى مصر بعد سبع سنوات من انقطاع العلاقات الدبلوماسية بينهما منذ عام ١٩٦٧. وكان عند لقائى به قد أمضى ثلاث سنوات فى القاهرة وكون علاقات ضخمة وحضر اتفاقيات فك الاشتباك».

وهذه ثانياً هى قصة الموقف الذى أشرنا إليه لتونا :

«... وقلت لأيلتس إنى أريد أن أتحدث معه فى موضوع دقيق وهو أن الرئيس السادات يعمل بإخلاص من أجل تحقيق السلام الشامل، وهو مستعد لاتخاذ قرارات شجاعة فى هذا السبيل، ولكنه - أى السادات - كما لا يخفى على أيلتس، يشط أحبانا

ويرتكب بعض الأغلاط والتجاوزات والخصماقات وهو يثق في السفير أيلنس ويوح له بأفكاره بصوت عال، وإنى أرجو منه عدم استغلال هذا الضمف الذي يعتري شخصية السادات فى بعض الأحيان، بأن ينقلها إلى حكومته فتقوم هذه برصد هذه الأخطاء والخصماقات عليه وتقبله بها وتبنى مواقفها على أساسها، فهذا أسلوب غير عادل وغير شريف. وقلت: إنى سمحت لنفسى بمصارحته بهذا الأمر لأنى أثق فيه من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه رجل ذكى وأنا أعلم أنه يدرك تماماً ما أقصد ولا داعى للتظاهر بيننا بغير ذلك».

«ولم يد على أيلنس أى أثر للدهشة مما قلت، وقال ببساطة: ولكنه الرئيس وأنا سفير ومن واجبى أن أحبط حكومتى علماً بكل شىء... واجبته بأنى أحاول أن أحمى السادات من نفسه، وفى استطاعته دائماً - أى أيلنس - التحدث معى فى أى أمر مما أشرت إليه، وسأحاول أن أراجعه - أى الرئيس - فيه وأن المسألة ليست شخصية بل إنها لحماية مسيرة السلام نفسها وإتاحة الفرصة أمامها لتحقيق غايتها، وقال أيلنس إنه يتفهم قصدى».

ب

أما تبرير صاحب المذكرات لإخياره أيلنس بنبأ الاستقالة فيرويه على النحو التالى :

«وعدت إلى استراحتى مهموماً منشغل البال، وبعدها ببرهة دخل السفير الأمريكى هيرمان أيلنس ليخبرنا بأنه تقرر أن تتم مراسم التوقيع على الانشاقبات بعد ظهر اليوم فى صالة الاحتفالات، وعند مفادرنه الاستراحة ناديت عليه فجأة فوقف وخرجت معه إلى الخارج وقلت له: لدى مشكلة، فقال: ما هى؟ قلت: لقد استقلت، وقال أيلنس: يا إلهى، قلت: أنت تعلم ماذا حدث، لقد أخبرتك من شهور أنى سأفعل ذلك ما لم تنوصل إلى اتفاق مقبول، فقال: هذا حقيقى، وإنى أتفهم موقفك، فقلت: إن المشكلة ليست أنى استقلت ولكنى وعدت السادات بالأأعلن ذلك فى الوقت الحالى، وأنا مصمم على عدم حضورى مراسم التوقيع ولا أدرى ماذا أفعل؟».

«فقال أيلنس: دعنى أفكر فى الأمر: وقلت له وهو ينصرف: هيرمان أرجو أن يبقى هذا الموضوع سرأ بيننا، فقال: لا تقلق، ومشى».

(٣٥)

وسرى فى هذا الكتاب صاحبه حين يتعرض للحديث عن الشخصيات الأجنبية التى

نعامل معها ملتزماً بالاستقامة في التعبير والاستقامة في القصد، ولكنه يتحدث عن الإسرائيليين بجفاء واضح وله عذره في ذلك بعد كل ما رآه منهم طيلة المباحثات، ويحظى مناخم بيجين بالطبع بأكبر قدر من سباب [ولا نقول نقد] صاحب هذه المذكرات.

١ - لنقرأ هذه الفقرات التي يصف بها رئيس الوزراء الإسرائيلي في موضع مبكر من مذكراته فيقول:

«تركزت شخصية مناخم بيجين في نفسى التطبعاً سيئاً. فقد كان متحجر القلب والفكر، متعصباً مغروراً، لا يأتيه بما يحدث للغير أو للعالم بأسره طالما يحصل هو على ما يريد. ولم يكن ماضيه الإرهابي الدموي خافياً على أحد، ولكنه من ناحية أخرى كان ذكياً واسع الدهاء والحيلة، طليق اللسان، سريع البديهة».

«وقد أكسبته خبرته الطويلة كمضو في الكنيسة مقدرة هائلة في فنون المناقشة والحوار والمراوغة، بالإضافة إلى حفظه ملف «قضيته» عن ظهر قلب بكل وقائعها ونفصيلاتها ويعلم أوجه الضعف فيها، وبالتالي كان مستعداً للمرد الفوري على ما قد يسوقه الخصوم من حجج وحقائق، مهما تضمن رده من مغالطات وكذب».

٢ - وبعد أربع صفحات يعاود صاحب المذكرات مثل هذا الوصف مع إعادة توزيع اللحن فيقول:

«وإنه لمن مأسى القدر أن يختار كائن حي من «الحفريات القديمة» بدعى مناخم بيجين ليكون رئيساً لوزراء إسرائيل في تلك اللحظة، لينلقى عرض السلام ويخنق - دوئاً شفقة - ذلك الأمل الجميل الذي أطلقته إلى الوجود تلك الصورة التي رسمها السادات في خطابه في القدس».

٣ - وبعد خمس وعشرين صفحة يجأر صاحب هذه المذكرات بالشكوى (صفحة ٨٠) من تصرفات رئيس الوزراء وأسلوبه في التفاوض بل في التعامل فيقول:

«... وقبل انصرافي قلت للرئيس السادات: لقد تعددت تصريحات بيجين أمام الكنيسة في إسرائيل بعد اجتماع الإسماعيلية بأن وزارة الخارجية المصرية تعمل على عرقلة جهود السلام وتقف موقفاً مخالفاً لموقف الرئيس السادات من المباحثات، وأضمت

أنتى سأصدر تصريحاً يوضح أن مصر تتكلم بصوت واضح واحد وأنه لا توجد اتجاهات مختلفة أو متعارضة داخل الوفد المصرى المفاوض».

«ورد السادات على قائلنا: «لا لا.. لا تفعل.. سيبه يهو هو زى الكلب.. ولا تلق بالاً إلى هذه التفاهات».

٤ - وفى موضع رابع يصل صاحب المذكرات إلى أقصى درجات الملل والسأم من تصرفات بيجين فيقول:

«وإنى لا أراه إلا تحطيماً للمثل وتبديداً للأمل وزرعاً لبذور الشر، ومع ذلك فقد اقسام مناحم بيجين جائزة نوبل للسلام مع أنور السادات، وبألها من سخريه وباله من نفاق وباله من عار».

(٣٣٦)

أما أهم المواضع التى بوجه فيها صاحب المذكرات انتقاداته لرئيس الوزراء الإسرائيلى فهو حديث محمد إبراهيم كامل عن واقعة حفل العشاء الشهيرة حين اضطر إلى الرد على بيجين واستفرازه بهدوء وقوة، ولكنه يروى الواقعة نفسها محملة بكل ما استطاعه من تعبير عن كراهية لبيجين فيقول:

«.... كان صوته المنقر يرن فى أذنى ويكاد يشلنى عن التفكير وأنا فى حيرة من أمره، فمئذ أقل من ثلاث ساعات طلب منى هذا الشخص نفسه أن يكف كلانا عن الترائق بالتصريحات لكى نفسح المجال للجنة السياسية فى مباشرة سعيها للسلام بدون معوقات ورافقه على ذلك وتعاهدنا عليه أمام شهود من جانبه وشهود من جانبى. ماذا أفعل؟ هل أغادر الحفل منسحباً؟ هل أقوم وأصفعه؟ هل أرد عليه بما فعله الإسرائيليون بالشعب الفلسطينى؟ هل أذكره بأن يده هو نفسه مخضبة بدماء النساء والأطفال الذين ذبحهم فى دير ياسين؟ وشعرت به ينتهى خطابه وبدعو وزير خارجية مصر إلى إلقاء كلمته فى الحفل».

«وقعت ببطء ومما لكت أعصابى ومزقت الورقة التى تحوى الكلمة التى كنت قد أعدتها لهذه المناسبة وتكلمت بهدوء قلت: إنى أشكر حكومة إسرائيل على حسن

استقبالها للوفد المصري، وإنما عندما قبلنا الدعوة لحضور هذا الحفل كان يحدونا الأمل في قضاء ساعات طيبة خالية من التوتر بعد عناء عمل يوم طويل شاق، كان هذا هو أملنا، ولكن رئيس وزراء إسرائيل اختار غير ذلك وهذا حقه. إنني لا أعتقد أن هذا الحفل هو المكان المناسب للرد على ما قاله. كل ما أريد أن أقوله هنا هو أن المبادئ التي حددتها في خطابي في افتتاح اللجنة السياسية والتي يرفضها رئيس الوزراء هي الأساس الوحيد الذي يمكن أن يبنى عليه سلام عادل وشامل. أما ردي على ما قاله فأحتفظ به لأقوله في اجتماع اللجنة السياسية غدا فهي المنبر المخصص لذلك.

«وجلست دون أن أشرب نخب السلام أو نخب الداهي أو أضافحه، وساد سكون عميق لمدة ثواني، ثم سمعت دوي تصفيق في القاعة أعقبه شيء من الهرج وارتبك بيجين بعض الشيء ثم سارع إلى الميكروفون يدعو وزير الخارجية الأمريكي لإلقاء كلمته وبعدها شعرت بيد بيجين تربت على كتفي، فالتفت إليه وكانت تبدو على وجهه علامات الدهشة والقلق وقال: إنني لم أقصد إساءة، فلم أرد عليه وحولت وجهي عنه، وانتهى فانس من خطابه وانتهى العشاء فقمنا واتجهت مسرعاً إلى «الاسانسير» لأذهب إلى غرفتي وأحاط بي بعض الصحفيين الأجانب وسألوني: هل ستقطع المباحثات؟ فقلت: اسألوا مضيفنا المستر بيجين».

«وفي جناحي تجمع أعضاء الوفد ورؤساء تحرير الصحف المصرية وكانوا يستشيطنون غضباً من بيجين. وقد أراحهم ردي عليه الهادي المتزن حسبما قالوا، ولم يلبث أن حضر فانس لمزمارتي وقال: إنه آسف للغاية لتصرف بيجين وقال: إن كان هذا يعزبك فلقد عانيت منه تصرفاً مشابهاً في مناسبة سابقة في واشنطن».

«وبعد انصراف الحاضرين وكانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً جلست وحيداً أدخلت حتى نفدت سجائري وحاولت النوم فلم أستطع إلى أن استيقظ أحمد ماهر وحضر إلى في الساعة السادسة صباحاً فتناولنا إفطارنا بعض الفاكهة وطلبت منه سيجارة ودخلت إلى سريري حيث نمت حتى التاسعة والنصف».

(٣٧)

وفي الحقيقة فإن محمد إبراهيم كامل يقرر بكل وضوح ودون أدنى تردد أن إسرائيل

كانت تؤمن رجل الدولة في الوقت الذي عمل هو فيه كوزير للخارجية، وهو يقول ما نصه:

«وللأسف فإنني لا أرى في إسرائيل اليوم أي رجل دولة بعيد النظر بحيث يعنى له السلام والصداقة وعلاقات حسن الجوار مع الدول العربية والشعوب العربية، أهمية أكثر من الجشع لضم الأراضي العربية وفرض شروط غير مقبولة على أساس تفوق إسرائيل الخالي والمرحلي في الشرق الأوسط».

وكانني بصاحب المذكرات وقد كاد يقتنع بما كان السادات يذكره له في البداية من أن كل الإسرائيليين كبعضهم على الرغم من أن صاحب المذكرات كان حريصاً على أن يسجل اعتراضه على هذا الرأي .

وبالإضافة إلى ييجين فهناك سياسيان إسرائيليان آخران حظيا بتقييم صاحب المذكرات لهما في كتابه القيم وهما موسى ديان، وعيزرا وايزمان، ونحن نراه حريصاً على إنصاف موسى ديان رغم كراهيته له، فهو لا يزدريه على طول الخط كما يفعل مع ييجين، ولكنه يقر بجوانب بارزة في شخصية ديان وهو يصفه فيقول:

«وكان ديان ثعلباً مكاراً لا يتسم حديثه بالجمود والتحجر مثل مناحم ييجين، كان يلف ويدور، والمستمع إليه يكاد يحس بأنه مرن قابل للتفاهم، ولكنه كان في الحقيقة يستهدف توسيع رقعة إسرائيل ويمارس تحقيق ذلك بيد جديدة ولكن ينطيطها قفاز من الحرير، فهو صاحب نظرية «الجسور المفتوحة» مع العرب في الضفة الغربية وغزة وكان من رأيه عدم إقامة خط بارليف على حافة القناة بعد احتلال سيناء والبعد عن القناة بعشرة أميال مثلاً حتى يقلل من الاستفزاز المباشر الذي يخلقه وجود الجنود الإسرائيليين على صرمي البصر من المصريين».

«وهو صاحب نظرية تعليق السيادة على الضفة الغربية وغزة دون المطالبة بها فوراً على نحو ما كان يرغب ييجين حتى ينسر لهم الاستفادة من الوقت في إحداث تغييرات على الأرض تؤدي في النهاية إلى تكريس احتلالها ثم ضمها».

«وكان منفر الصوت (لاحظ أنه أضفى الوصف ذاته على صوت مناحم ييجين ولست أدري هل كان هذا الوصف صحيحاً من الناحية الفيزيائية أم أنه تعبير جيد عن الناحية النفسية عند المتلقي فحسب) بادي الهدوء ويتكلم من وراء قناع: إذ كان وجهه يبدو دائم الابتسام من أثر العمليات التي أجراها في وجهه ذي العين الواحدة».

وكان ديان رغم شخصيته المتسمة بالتواضع مغرماً بالظهور يتحرق شوقاً إلى أن تنصدر صورته وأحاديثه وأخباره الأنباء^٥.

٤... كان اسمه قد حظى بشعبية كبيرة داخل إسرائيل وخارجها كبطل انتصار إسرائيل المذهل في سنة ١٩٦٧، إلا أن حرب ١٩٧٣ أصابت سمعته بشيء من الذبول وكان من بين من حملوا مسئولية ما أصاب إسرائيل في تلك الحرب، ثم كان تحولاً من حزب العمل وانضمامه إلى وزارة مناحم بيجين قد أثر على منزلته بدوره لدى الإسرائيليين، فكان يعمل جاهداً لإثبات نفسه من جديد وتبوء المكانة التي احتلها يوماً في الرأي العام الإسرائيلي والدولي^٦.

أما عيزرا وايزمان وصداقته للسادات، فهو محل تحفظ دائم من صاحب هذه المذكرات، وهو يقول ما نصه:

١... وكان الانطباع لدىّ عن وايزمان أنه رجل طموح يميل إلى مناقشة المسائل بصراحة ودون لف أو دوران، وهو بشوش الوجه مرح الشخصية شأن الطيارين بوجه عام، وقد عاش في القاهرة سنوات أثناء الحرب العالمية الثانية عندما كان ملتحقاً بسلاح الطيران الملكي البريطاني. وكان شعوري أنه أخذ مباداة السادات مأخذاً جدياً وأنه أدرك أن التوصل إلى حل مع مصر يقتضى أن تدفع إسرائيل له ثمناً وتقدم تنازلات، أما مدى هذه التنازلات فلم أكن أستطيع التكهّن به، فقد كان عضواً في حزب حيروت الذي ينادى بإسرائيل الكبرى^٧.

(٣٨)

يجدر بنا الآن بعد كل هذه التحليلات والاستعراضات أن نعود إلى الأيام الأولى أو اليومين الأولين لمحمد إبراهيم كامل في وزارة الخارجية، ولست متعسفاً إذا قلت إن بعض المعادين للسادات قد اكتشفوا من قراءة هذه المذكرات بإحدى فقرات حديثه عن هذين اليومين الأولين، وهي الفقرة الخاصة بنية السادات في أن يدعو بيجين لحضور مراسم محمد إبراهيم كامل حلف اليمين كوزير للخارجية! ومن العجيب أن كثيرين قد كذبوا هذه الواقعة! وسثمهم حسن كامل نفسه! وأن كثيرين آخرين مازالوا ينقلون هذه

الواقعة على نحو ما وردت عليه في فقرة من الفقرات التي سننقلها الآن لقارئنا لينايل لا الجلو النفسي الذي عاشه محمد إبراهيم كامل ولكن تعبيره الجميل عن هذا الجو النفسي المختلف الذي عاشه بعد حلف اليمين مباشرة :

«... وبدون سابق إنذار اعتراني شعور داخلي غريب.. أحسست أنني استيقظت من كابوس ثقيل، فجأة رحل عني شعور القلق والاضطراب الذي لازمني في العشرين ساعة الأخيرة منذ أعلنت الإذاعة بآ تعييني وزيراً للخارجية إلى أن حلفت اليمين أمام الرئيس السادات في ركن من غرفة صغيرة بمدينة الإسماعيلية على مرأى ومسمع من قادة إسرائيل أعدائنا اللدودين والذين حاربونا وحاربناهم على مدى ثلاثين عاماً والذين سنبداً المباراة معهم سعيًا وراء حل سلمي بعد دقائق قليلة».

«وبدأت نفسي أغتلىء بشعور غامر فياض بالهدوء والثقة والقوة والعزم، وإيماناً بأن ما حدث لي هو من صنع القدر. لقد أصبحت رغم أنني وزيراً لخارجية مصر الخالدة في مرحلة مصيرية يتوقف على ما ستسفر عنه معركة السلام، مستقبل الشرق الأوسط وربما العالم أجمع، فمرحباً بالتحدي».

لنا أن نتساءل الآن كيف أصبح صاحب المذكرات (في هذه اللحظة) بشعر بالاطمئنان والهدوء والثقة والقوة والعزم ، ويؤمن بدور القدر فيما حدث له ! لن نطيل على القراء في وصف مفاجآت بتعيينه وزيراً للخارجية، وقد علم بالنبا من الإذاعة دون أن يؤخذ رأيه ، وكان قد وصل إلى القاهرة لتوّه للإعداد لزيارة مسئول ألماني كبير لعاصمة بلاده، فإذا به يفاجأ بالخير يذاع في الإذاعة بتعيينه وزيراً للخارجية، وإذا به يتلقى كل أقاربه ومعارفه في بيته مرة واحدة وإذا هو قبل أن يمضي نصف ساعة يتلقى حديثاً تليفونياً من رئيس الوزراء ثم نائب الرئيس :

«إلا أن الأحداث لم تترك لي وقتاً للتأمل أو السخط فلم غص نصف ساعة حتى ردّ التليفون، وكان المتكلم هو السيد مدوح سالم رئيس الوزراء الذي هنأني بسلامة الوصول من ألمانيا، ورجاني أن أتوجه لمقابله في مقر مجلس الوزراء. استقبلتني عند وصولي عدسات مصوري الصحف والتليفزيون. وكنت أعلم أن هذا مجرد استكمال للشكل

وكننت قد قابلت محمود سالم قبل ذلك مرتين بوصفى سفيراً لمصر فى ألمانيا، وازدادت معرفتى به بعد انضمامى لمجلس الوزراء، وأكن له محبة واحتراماً حيث إنه «جنتلمان» مهذب يتمتع بالنزاهة والإخلاص فى عمله».

«وقد عبرت له عما أشعر به من ضيق من جراء هذا التعيين دون استطلاع رأى» فذكر أنه بقدر ذلك، ولكن الموقف على كل حال لا يحتمل إلا القبول وذكر لى أن الرئيس السادات تكلم عني فى مناسبات عديدة ممتدحاً كفاءتى ووطنيتى وأنه يشاركه فى هذا الرأى وتبنى لى التوفيق».

«ولم أكد أعود الى المنزل حتى رنَّ جرس التليفون من جديد وكان المتكلم هذه المرة السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية- فى ذلك الوقت- الذى هنأنى وطلب منى أن أسافر معه صباح اليوم التالى بالطائرة الى الإسماعيلية حيث كان يقيم الرئيس السادات لمقابلته ثم المشاركة كوزير للخارجية فى مباحثات الإسماعيلية المقرر عقدها فى الساعة الحادية عشرة من صباح الغد بين الوفد المصرى برئاسة الرئيس السادات، والوفد الاسرائيلى برئاسة مناحم بيجين، وأغلقت سماعة التليفون وأنا أشعر بحالة انعدام الوزن».

.....

هذا هو صاحب هذه المذكرات وقد أصبح إذن فى حالة انعدام للوزن !!

(٣٩)

ثم نأتى الى تلك الفقرة المحظوظة فى كتابات «أعداء السادات» التى لم يستند فيها محمد إبراهيم كامل الفعل الى السادات وإنما الى ما رواه له حسن كامل من اعتزام السادات(١) ومن المهم أن نذكر هنا مرة ثانية أن حسن كامل نفسه قد نفى وقوع هذا الذى يرويه صاحب المذكرات:

«... وبعد وصول الوفد صحبه الرئيس السادات إلى غرفة الاستقبال بالاسراحة حيث قدمت لهم بعض الممرطبات ، وبقيت بالحديقة أحاول أن أحصل من الدكتور

عصمت عبد المجيد من جديد على خلفية المحادثات ، ولكن لم يلبث أن حضر حسن كامل ليبلغني أن الرئيس يطلبني لحلف اليمين كوزير للخارجية ، وأضاف أن السادات يعزم أن يشارك في مراسم حلف اليمين مناحم بيجين وبعض أعضاء الوفد الاسرائيلي كتعبير عن روح الود والسلام، وصدمت من الدهول وطلبت منه أن يبلغ الرئيس السادات أن مثل هذا لم يقع في العالم من قبل ، وأن هذه عملية لا شأن للإسرائيليين بها وعلى كل حال لن أقوم بحلف اليمين أمامهم مهما حدث».

وعداد حسن كامل ضاحكا وأخبرني بأن الرئيس وافق على رأيي . وعدل عن فكرته، وذهبت معه إلى غرفة الاستقبال حيث كان يجلس السادات مع مناحم بيجين وبعض معاونيه، فاستأذن منهم وتوجه إلى ركن من الغرفة، ووقف على يمينه السيد حنى مبارك وعلى يساره السيد عدود سالم وقمت بحلف اليمين . ولم أكد أنهى حتى حضر مناحم بيجين وأعوته والمصريون وصافحوني مهينين. وغادرت الغرفة مع باقى الحاضرين إلى قاعة الاجتماع وتركنا السادات وبيجين لاجتماع مغلق بينهما».

(٤٠)

هل لنا أن نقفز الآن إلى فقرة مهمة من كتاب محمد إبراهيم كامل نكاد نصور الصورة التي يحرص عليها أعداء السادات ومعارضوه جميعاً فى تصويره متدفعاً إلى تقديم التنازلات للعدو من أجل الوصول إلى حل بأسرع ما يمكن.

هذه الفقرة التى كتبها محمد إبراهيم كامل تفوق كل ما كتبه أعداء السادات فى التنديد به لأن كاتبها (أو راويها على الأقل) وهو صاحب المذكرات التى بين أيدينا، أدخل نفسه فى السيناريو، وتعرض فيها للسخرية من البطل دون داع ودون قدرة على أن يقتصر لنفسه فى ذات اللحظة.. ولنقرأ هذه الفقرة من حديثه عن اجتماع مجلس الأمن القومى قبيل سفر السادات إلى كامب ديفيد مباشرة:

«وانتهى الاجتماع وانتقل الرئيس ومن ورائه أعضاء المجلس إلى مدخل الشرفة حيث وقف والتفوا حوله يقدمون له التهاني بعيد الفطر المبارك الذى يبدأ غدا وأطيب التمنيات له بالنجاح والتوفيق فى مؤتمر كامب ديفيد».

«وكان الرئيس يقول إنه متفائل وعلى ثقة من النجاح في هذا المؤتمر ثم التفت إلى وقال «جهز نفسك يا محمد للسفر بعد بكرة» وقلت «أنا جاهز، وهناك نقطة أريد أن أقترحها على سيادتكم وهي أن الأمريكيين قد أبلغونا بأن مدة المؤتمر هي أسبوع على الأقل، وقد توافق على أن نبدأ في الأيام الأولى بمواقف أكثر تشدداً من تلك التي تتضمنها المشروع المصري حتى تفسح الفرصة أمامنا لإبداء نوع من المرونة أمام الأمريكين. بدلاً من أن نعرض مشروعتنا للضغط والتنازلات إذا طرحناه في البداية».

«وكانما كان ينتظر مني كلمة ليطلق شيئاً حياً في نفسي، فقد شرع يقهقه ضاحكاً بطريقة مسرحية تدل على التسفيه؛ ثم قال بصوت جهوري هز المحيطين به، «بقى أنت فاكرك نفسك دبلوماسي ياسى محمد» ثم قهقه من جديد وقال «والله ما أنت دبلوماسي، أسبوع إيه اللي انتظره ياسى محمد؟ أنا لازم أول ما حوصل أقدم مشروعي على طول وأفرقع المؤتمر وتنى راجع مصر بعد ثمانية وأربعين ساعة بالكثير». وغالبت نفسي حتى لا أقهقه ضاحكاً بدورى على سخافة ما قاله، وعلى منظره وهو يقول وسط هذا الجمع المختار من كبراء الدولة وقادتها، وشعرت بالدهشة، فلم يسبق له أن خاطبني بهذه الطريقة أمام أحد من قبل. وأحسست بقوة غريبة تمرى في أوصالي، وقلت وقد اعتلت وجهي ابتسامة هريضة لم أستطع التحكم فيها «إنت حر باريس طبعاً، وعلى كل حال أنا لم أدع أبداً أننى دبلوماسي خطير».

(٤١)

وعلى هذا النحو فإن محمد إبراهيم كامل في الشهر الأخير من عمله مع السادات كان قد بدأ يشك تماماً في مدى ثقة الرئيس فيه، وهو يصور الأمر بطريقة دقيقة وموحية لأنه يحدثنا بالفعل عن هواجس نفسه وهو يحاول أن يجتهد ليصل إلى الصواب أو إلى الحقيقة، وليت الذين يدعون الحكمة بأثر رجعي يقرأون هذه المذكرات مرة واثنين وثلاثاً حتى يتعلموا المصدق النفسي وكيف يمكن له أن يحقق ما يشبه المعجزات في الإقناع:

«... وركبنا الطائرة الأنتنوف عائدتين إلى القاهرة. وفي الطريق تشعب الحديث إلى العديد من الموضوعات بين الجد والدعابة، إلا أن أحداً لم يشر إلى أو يعلق على ما جرى

فى اجتماع مجلس الأمن القومى، ولماذا التفكير فيما مضى وفات، أما المستقبل فستكفل الرئيس بكل شىء فيه وعلى بركة الله . وليفكر كل فى كيف سيمضى إجازة العيد التى تبدأ غداً.

«وأضيت ساعات الليل حتى المفجر أسترجع الأحداث والتطورات الأخيرة، وأحاول فك الرموز والألغاز وأحلل تصرفات السادات الغربية، وأستبطن خبايا ما يدور فى رأسه، وأكتشف مراميه ومقاصده، عسى أن أنتهى إلى تصور عام أستطيع على ضوءه أن أحدد أين أقف وماذا أستطيع أن أفعل؟».

«وأول ما توصلت إليه هو أنه تجنب عن عمد وسبق إصرار أن يقابلنى طوال المدة التى مضت منذ أن قابلته فانس فى استراحة المعمورة يوم ٧ أغسطس (آب) ووجه إليه الدعوة إلى مؤتمر القمة حتى اجتماع مجلس الأمن القومى فى الإسماعيلية فى ٢ سبتمبر (أيلول) قبل السفر إلى كامب ديفيد مباشرة فى ٤ سبتمبر (أيلول). ولم يكن تهربه من الرد على مكالماتى التليفونية العديدة، أو اعتذاره عن عدم مقابلتى بحجة أنه متعب من الصيام، أو تعلله بمسئوليته ومشاغله فى إنشاء حزبه الجديد إلا تخابئاً وتقوياً وتترا على غرض فى نفسه . على نحو ما كان يفعل عندما كان يعد لحرب أكتوبر (تشرين الأول) حتى فاجأ إسرائيل بعبور القناة، مع فارق بسيط وهو أنى وزير خارجيته هو ولست وزير خارجية العدو».



هل رأيت مثل هذا الحب واللوم فى جملة واحدة؟ هل رأيت مثل هذا التحليل العميق الذى يكاد يلعبس شخصية السادات وسرها الأعظم بعد معاناة طويلة ولكنها وصلت إلى سر الشخصية التى تتعامل معه، أرجو أن تقرأ السطور الأخيرة من الفقرة السابقة حيث يقول محمد إبراهيم كامل:

« ولم يكن تهربه إلا تخابئاً وتقوياً ونسترا على غرض فى نفسه . على نحو ما كان يفعل عندما كان يعد لحرب أكتوبر حتى فاجأ إسرائيل بعبور القناة، مع فارق بسيط وهو أنى وزير خارجيته هو ولست وزير خارجية العدو».

ولكن الذى لم يحلله صاحب هذه المذكرات بالقدر المطلوب ولا حتى بسرعة هو السبب الذى جعل ثقة السادات فيه تتحول هكذا .. فقد أصبح على نحو ما يروى

صاحب المذكرات ينهرب منه ويتباعد بنفسه عن لقائه .. وقد علمنا الأدب وعلمنا النقد الأدبي أن البناء الفني يحتاج في مثل هذه اللحظة إلى إجابة عن التساؤل الذي يقفز إلى ذهن القارئ ، وإلا أحس القارئ باهتزاز غير مبرر في بناء الشخصيات التي أمامه ، وأحس بالافتعال وبالبعد عن الصدق الفني . ولهذا فقد كان من الواجب على صاحب المذكرات أن يبحث عن السبب الذي أفقده بعض ثقة السادات في وقت من الأوقات .. ويبدو أن كثرة الأعباء والعمل فضلاً عن الخبرة السابقة بتقلبات مزاج الرئيس السادات قد سدت فراغ الإجابة عن هذا السؤال في ذلك الوقت ولو إلى حين ، ولكنني أعتقد أن صاحب المذكرات نفسه لو أعاد قراءة ما كتبه اليوم لوجد نفسه كقارئ يسأل عن مثل هذا السبب .

وفي حقيقة الأمر فإنني أعتقد اعتقاداً يصل إلى حد اليقين أنني من خلال نصوص ما كتبه صاحب المذكرات أكاد أعرف السبب تماماً ، والفضل في هذا لصاحب المذكرات ولصدقه ولحرصه على رواية كل جوانب الصورة ، وقد حاول السادات أن يلفت نظر صاحب المذكرات إلى الفيروس الذي يهز الثقة بينهما فثار محمد إبراهيم كامل لأنه بحكم استقامته لم يكن يعرف كيف تعمل الفيروسات وكيف تسبب الأمراض الفتاكة ، وليس هذا المقام محلاً للتصريح بما فهمت من مذكرات الرجل ، فيوسع القراء أن يفهموا ما فهمت إذا ما عادوا إلى ذلك الحوار الصريح بين الرئيس والوزير ، والذي نشره صاحب المذكرات بكل أمانة ، إنما يهمني أنؤكد على أن ارتفاع الصياغة الفنية في هذه السيرة إلى كل ما يتطلبه الفن الروائي من دقة في بناء الشخصيات والمواقف كان كفيلاً بإبراز الحقيقة حتى لو أن الراوي نفسه (صاحب المذكرات) كان عاجزاً أو غير راغب في التصريح الكامل بالحقيقة الكاملة التي ربما لم يعرفها هو نفسه إلا بعد حين .

(٤٢)

لنتقل بعد هذا كله إلى الفقرة التي بضعف فيها محمد إبراهيم كامل - بسبب عوامل إنسانية ليس إلا - أمام أنور السادات بعد دقيقة واحدة من هجومه عليه ، ولنتأمل هذا النمط الفريد من العلاقة الإنسانية الرفيعة بين رئيس هو ملء السمع والبصر في العالم كله يومها ، وبين وزير خارجيته المعتر بنفسه :

٦ . . ويبدو أن ذهني كان قد انصرف إلى التفكير في أمر ما عندما سمعت السادات بصيح بصوت عال: «وماذا أفعل إذا كان وزير خارجيتي يظن أنني أهبل»، ونظرت نحوه وقد أصابني الذهول، فلم أكن مشاركاً في الحديث ولم يكن هناك أي مرور ظاهر لهذا الهياج. ولم أجد ما أقوله، وإذا به يصيح من جديد: «اتفضلوا اخرجوا بره كلكم»، وأعاد هذه العبارة مرتين ووقف الجميع وتوجهوا إلى خارج الغرفة في سكون وتبعهم حتى خرجوا فأغلقت الباب وراءهم وعدت إليه والغضب يسيطر عليّ والشرر ينطأير من عيني وفلت له بصوت عال: «كيف تسمح لنفسك بأن تقول أمام الجميع وأمامي أنني أعتقد أنك أهبل؟ ولماذا أعمل معك إذا كنت أظنك كذلك؟ كيف تطردني خارج الغرفة، أنتظن أن تعيينك لي وزيار الخارجية يخولك ذلك؟ سأترك هذا المنصب بمجرد عودتنا إلى القاهرة وفي سنين داهية».

«واستدريت عائداً لأغادر الغرفة، وسمعت صوته "انتظر يا محمد" فتوقفت مكانى فقال "تعال اجلس" وعدت إليه، ولكنى ظللت واقفاً فقال "ماذا جرى لك يا محمد، ألا تشعر بما أنا فيه؟ وإذا لم تتحملني أنت فمن الذى يفعل؟" فقلت وقد أحسست بالإشفاق عليه "إنى أشعر بما تشعر به بدورى ولكن ليس هناك ما يدعو إلى أن نخاطبني بهذا الشكل أمام أحد فأنا لا أقبل ذلك حتى من أبى».

«فقال: "أنا آسف، أعصابنا جميعاً متوترة بسبب هذا السجن اللعين، لماذا لا تجلس، وقلت "لا سأتركك نستريح فنحن في منتصف الليل، وأنا أرغب في المشى قليلاً».



ولتقرأ الآن نهاية القصة التى يروى بها محمد إبراهيم كامل نفسه الحوار الطويل الذى دار بينه وبين الرئيس السادات حتى انتهى بالاتفاق على الاستقالة ونحن نكتفى بنقل نهاية الحوار فقط:

«محمد كامل: إنك إذا وقعت على اتفاقية على أساس المشروع الأمريكى فسبكون حلاً منفرداً بكل المعايير ولن نتجع فى خداع أحد بغير ذلك، وأفضل لنا أن نقول ذلك صراحة على أن نستر وراء مسرحية الحكم الذاتى كما وردت فى المشروع».

«السادات: بل إنى أسير على استراتيجيه بعيدة المدى ستنتهى بالحل الشامل فى الشرق الأوسط وسيكون معنا الرئيس كارنر وستنضم إلينا السعودية والملك حسين».

«محمد كامل: إذا وقعت مثل هذا الاتفاق فلن يستطيع كارتير عمل شيء ، ولن يجذب ذلك السعودية والأردن بحال ، أرجو منك مرة ثانية أن تعيد النظر في الأمر ولتعد إلى مصر ونجري مشاورات مع الدول العربية لنرى ماذا تكون خطواتنا التالية؟».

«السادات: لا ، أنا أعلم ما أفعله ، وسأضئ في مبادرتي إلى النهاية».

«محمد كامل: إذن فأرجو أن تقبل استقالتي».

«السادات: كنت أعلم من البداية أنك تلف وتدور لتقول هذا في النهاية».

«محمد كامل: لا .. لقد حاولت إقناعك بما أراه وفشلت ، فلم يبق أمامي إلا هذا المخرج ، فأننا لا نستطيع أن أوافق على شيء يبدو لي من المؤكد خطؤه وخطره ، ولا أستطيع أن أغشك وأعش نفسي وضميري فإنه داخلي يعيش معي ليل نهار».

«السادات: إذا كان هذا يريحك فإني أقبل استقالتك ، وكل ما أطلبه منك هو أن تدعها بيننا في الوقت الحالي لا تخبر أحدا بأمرها حتى نعود إلى مصر».

«محمد كامل: سأفعل ذلك فليس قصدي إحراجك».

«السادات: إذن اتفقا ، ولتهدأ وتريح أعصابك وسبكون كل شيء على ما برام في النهاية».

(٤٣)

ولنقرأ بعد هذا ما يروييه صاحب المذكرات عن حوار هـ هو نفسه مع كل من أشرف غربال (وهو حوار عابر) ويطرس غالي (حوار أطول جزئياً) بعد اتفاه مع السادات على الاستقالة. وسوف نجد محمد إبراهيم كامل يعترف بمشاعره بعبارة دقيقة جداً وبلغه جداً ويستحيل أن يصل إلى مثل هذه المشاعر وإلى مثل هذا التعبير عن هذه المشاعر إلا من كان له صفاء نفسه وشرف غرضه ، فهو يعبر عن مشاعره بعد الاستقالة بأصدق ما يمكن التعبير فيقول:

«غادرت السادات والحزن والأسف يملآن قلبي ولكن من الناحية النظرية هدأت أعصابي وارتاحت نفسي».

تحفل هذه العبارة بكل ما يمكن لعبارة مثلها أن تحفل به من كلام طيب وجيد ودقيق نفسياً وعلمياً وأدبياً بدرس في كليات الطب ويدرس في ذات الوقت في كليات الآداب نموذجاً لرهافة التعبير الصادق:

لـ القلب ملىء بالحزن

لـا ولىء بالأسى

لـا ولكن الأعصاب هدأت

لـا والنفس ارتاحت

قارن هذا بآية عبارة أخرى قبلت عن الاختلاف مع أنور السادات ونأمل الفصل بين القلب والعقل بين الشعور الوقتي، والشعور الباقي، بين حزن القلب وراحة النفس، بين الأسى وهذوء الأعصاب، ومع هذا فقد اجتمعت كل هذه المشاعر في سطر واحد بفضل الصديق النفسى!! ولنقرأ هذه الفقرة القصيرة:

«... غادرت السادات والحزن والأسف يملآن قلبي، ولكن من الناحية الأخرى هدأت أعصابي، وارتاحت نفسي، وقابلني أشرف غربال فسألني عما بيني وبين السادات وقلت كنت أناقشه في مخاطر المشروع الأمريكى ولكنى لم أستطع إقناعه».

«وعندما أويت وبطرس غالى إلى نوترا قال لى:

«إن حالتك غير طبيعية هذا المساء فأنت تبدو هادئاً سعيداً فعماذا جرى بينك وبين الرئيس؟».

قلت وأنا أبتسم: «هذا سر بينى وبينه».

فقال: «بل قل لى».

وأجبت: «أعدك بأن أفعل ذلك حال وصولنا إلى القاهرة».

(٤٤)

ولم يكن من السهل بالطبع إخفاء خبر استقالة صاحب هذه المذكرات من منصبه

كوزير للخارجية وقد صرح به السادات نفسه لوزير الخارجية الأمريكي الذي طلب مقابلة صاحب المذكرات وأنهى إليه ما علمه، وها هو محمد إبراهيم كامل يلتقي مرة أخرى بالسادات بعد الاستقالة ويدور بينهما حوار إنساني غاية في النبل والصفاء يرفع من قدرهما معاً إلى أبد الأبدين، لأنه حوار نفس مخلصة إلى نفس مخلصة أخرى، على الرغم من الخلاف الحاد والافتراق الأبدي. ولنقرأ على سبيل المثال هذه الفقرة التي لا تقل في روعة مضمونها عن أية فقرة مقتطفة من روائع الأدب العالمي.. وقد وصل صاحب هذه المذكرات إلى هذه الدرجة من الإبداع بفضل الصدق أولاً وبفضل الإنسانية التي بين جوانحه ثانياً، ثم بما في الإنسانية الرحمة من ثقافة وقيم عليا رفيعة. هذا من ناحية البناء الأدبي للفقرة التي سنعرضها الآن، أما من ناحية البناء السياسي لمحتضمنا فمن فضل الله أننا وصلنا إلى هذه المرحلة في ١٩٧٨ أي بعد عشر سنوات فقط من مظاهرات الطيران وتصفية المشير ومؤامرة ١٩٦٧ وانتهاء دولة المخابرات وضباب مستقبل أمة بأكملها في ١٩٦٧، وهذا هو الوزير المستقيم النزاهة يفكر في الابتعاد تماما فيعطيه الرئيس المحتك المجرب واسع الأفق الفرصة مرة تلو أخرى ويدور الحوار بينهما بكل ما تحمله الإنسانية من معاني لن أتمزق فيها، لأن القراء سيفعلون هذا ولا أريد أن أفرض عليهم ذوقي في الغزل فيما تحويه هذه الفقرة:

١... ونوجهت في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي إلى السفارة وكان السادات مجتمعاً مع صديقه هنري كيسنجر، وعندما خرج كيسنجر دخلت إليه في صالون السفارة وقد دهش لرؤيتي وقال: فيه حاجة يا محمد؟ فقلت: نعم لقد طلب فانس مقابلي أمس قبل مغادرتنا لكاتب ديفيد وأبلغني أنك أخبرته باستقالتني رغم أنك طلبت مني الاحتفاظ بها سرا، وعلمت أنك اجتمعت أمس برؤساء تحرير الصحف المصرية وأنت حددت موعداً للذبة التليفزيون بربارا ولترز سيحل بعد نصف ساعة من الآن وسوف نسألك قطعاً عن موضوع استقالتني فماذا ستقول لها؟

وسكت قليلاً ثم قال: سأقول لها إننا بلد ديمقراطي وإن من حقك أن تبدي رأيك وتستقل دون أن أضعك في معسكر اعتقال.

وقلت: شكراً، وكنت أهم بمناقحته في موضوع عودتي إلى مصر وحدي بعد هذه المقدمة عندما سألتني: وماذا تنوي أن تفعل الآن؟

قلت: لا شيء سأذهب وأعيش مع عائلتي وولدي اللذين لم أقم معهما منذ عشر

سنوات بسبب وجودى فى الخارج أثناء دراستهما فى مصر : وقد كبرا وأريد أن أستمع
بالمعيشة معهما قبل أن يأخذ كل منهما طريقته فى الحياة ويستقل .

قال: اختر لك أى سفارة تريدها .

قلت: ليس لى رغبة فى العمل سفيرا ، فقد شبع من ذلك .

قال: وتظل عاطلا بدون عمل - اختر أى سفارة الآن .

قلت: كيف تتصور أن أعين سفيرا لانفذ سياسة أنا غير موافق عليها ، ولا أستطيع
أن أفعل ذلك بحال .

قال فى غضب: ليس من الضرورى أن تعمل شيئا ، استرح وامض وقتك فى التزهة
والسياحة».

«قلت: لا.. كما أخبرتك أنى أريد أن أبقى مع أولادى».

«وقال بانفعال: طيب ابق مع أولادك حتى تسبع منهم، وسأعينك سفيرا فى وزارة
الخارجية، على أى حال وعندما تغير رأيك سأعينك سفيرا فى المكان الذى تحدده».

«قلت: افعل ما شئت أما أنا فسأعيش فى مصر».

عند هذا الحد انتهى الحوار ، ولم يسجن محمد ابراهيم كامل لم يسجل ولم يعد
ولم يعزل ، بل ها هو يعيش - وقد نشر مذكراته - مرفوع القامة والهامة ، يزداد قدره مع
الأيام، ويزداد كذلك قدر رئيسه بما فعله معه. كلما نظر الناس والتفتوا إلى مصائر
السابقين فى عهود سابقة !

(٤٥)

أما ما يرويه صاحب هذه المذكرات عن ليلة الاستقالة فهو أيضا قطعة من الأدب
الرفيع الخافل بالتعبير الصادق عن المشاعر الصادقة حين يجد المرء نفسه عاجزا فى
حاضره وقلقا على مستقبله، ولكنه فى ذات الوقت يجد قيمه الأصيلة تدفعه إلى التضحية
بكل شيء كى يرضى فى نفسه التقييم الذى رباها والده فى نفسه .. وسجد محمد ابراهيم

كامل في هذا النص الذى نقله يلوح لنا (ولا نقول بصرح ولا نقول بلمح) بل هو يلوح بأن منصب رئاسة الجمهورية نفسه لم يكن مستبعداً عليه ، ومع أن العبارة تبدو متسقة مع السياق الذى يرسم صورة التناقض الحاد أو التضاد التام أو ، الكونتراست « العميق بين النتائج المترتبة على موقفين مختلفين إلا أنه يدفعنا إلى أن نشير بالبحث فى هذه النقطة ، فهل وصلت العلاقات بين الرجلين الرئيس والوزير إلى مثل هذا الحد من الوعود ؟ ولماذا ؟ وأجدنى مضطراً هنا إلى أن أسجل أن الأستاذ عبده مباشر نائب رئيس تحرير الأهرام والصحفى المقرب من الفريق أول محمد صادق روى فى مقال نشر فى هذا العام ما يفهم منه أن محمد أحمد صادق حظى بمثل هذا الوعد وأنه (أى مباشر) لهذا السبب فى حوار معه مع المشير الجسسى بعد اعتزاله حاول أن يسأله هل وعد هو الآخر بمثل هذا الوعد .. وأعتقد أن هذه الرواية تحتاج إلى تحقيق تاريخى بعيداً عن أحلام اليقظة، ونوهجات الصعود، ونزععات البشر فى الارتقاء المتواصل، فلترك الآن أمر هذا التحقيق ولتقرأ ما يرويه صاحب المذكرات حيث يقول:

«وغضى ساعات الليل وبأى النوم أن ينتشلى وتطوف فى ذهنى سلسلة مختلطة من الهواجس والمخاوف والمغريات، هانذا على بعد آلاف الأميال من وطنى وحيد أعزل فى معسكر تحيط به الأسوار وبين قوم بعضهم لا يروق له ما أقول، والبعض الآخر لا يطيقه ويرفضه، صحيح أن حولى مجموعة من الشبان الأذكياء الواعين يشاركوننى الرأى والمشاعر، ولكن ماذا فى وسمى أو سمهم أن تفعل إذا كان ذلك لا يقهره رئيسى ورئيسهم؟»

«وتهاجمنى كوايس بشمة وأرى صوراً ومشاهد مما قرأت أو سمعت عما تفعله إدارة المخابرات المركزية الأمريكية ومنظمة الموساد الإسرائيلية، ماذا لو تخلصوا منى بشكل أو بآخر تحت ستار حادث عارض أو زعم مرض نفسى، بل ماذا أفعل لو انقض المؤتمر ومشى أصحابه وتركت بلا صاحب، لا مال معى ولا حتى جواز سفر يقول من أنا؟»

«وماذا عن مستقبلى ومستقبل عائلتى وأولادى وكيف سيعاملنى السادات بعد تمردى وعصيانى؟ إنى من واقع علاقتى بالسادات والمركز الذى وصلت إليه، وأنا بعد منتصف العمر، أمامى - لو هادئته وسأيرته - كل ما يمكن أن يصوره أو يحققه الخيال المظموح من مال أو جاه أو نفوذ حتى منصب رئيس الجمهورية نفسه ليس بمستبعد».

«ثم تعود إلى ذكرى أبى. ذلك القاضى الشامخ المعتر بكبريائه الذى صقلته التجارب،

أبى الذى مات وأنا ابنه الوحيد منذ أكثر من ثلاثين عاماً وأنا طالب فى السنة الثالثة فى كلية الحقوق يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً سجين فى سجن مصر العمومى لا يعرف إلى أين المصير، وترن فى أذنى كلماته منذ أن كنت طفلاً صغيراً.. يابنى كل ما أطمع أن أتركه لك هو اسم طيب و تربية كريمة وثقافة واسعة وتعليم عال.. يابنى أجمل ما فى الحياة أن تعيشها على الرأس موفور الكرامة مرفوع الجبين.. يابنى لا تبع نفسك أو نذلها أبداً فإنك إن فعلت فلن تنعم بالسعادة مهما كان الثمن.. يابنى كن شجاعاً دائماً وقل رأيك ولا تفعل إلا ما يرضى ضميرك وشرfk ثم لا نبال».

ثم يحدثنا صاحب المذكرات بالقرار الذى انتهى إليه:

«وقلت لنفسى لا لن أسمح أبداً لأحد أن يشير بأصبعه إلى ولدى ويقول إن أباهما قد خرس وجبن عن أن يقول رأيه ورضى بالسكوت عما يعتقد أنه خطأ ويلاء».

«غداً أكلم الرئيس بهدوء وأمانة وقوة، عسى أن يفتق ويهتدى وإلا فليكن ما يكون، وقد أبرأت ذمتى وأرضيت ضميرى ونفذت وصية أبى وحسى الله ونعم الوكيل».

(٤٦)

ها هو صاحب المذكرات قد اتخذ قراره ولكن بقيت الطريقة التى يخرج بها هذا القرار، ونحن نراه يعترف بجدوى المشورة فى مثل هذه اللحظات وهو يروى وما أثمرته مشورته لأحمد ماهر ومحمد إبراهيم شاكر فى أمر استقالته:

«... فى الساعة الحادية عشرة ذهبت إلى استراحة الرئيس السادات وكان جالساً فى التراس ومعه الدكتور بطرس غالى والدكتور أشرف غربال، وجلست معهم تبادل أحاديث خفيفة إلا أن بقاءهما طال، وكنت أتوق إلى انصرافهما حتى أتكلم مع الرئيس - على انفراد - قبل أن يطرأ ما يحول دون إتاحة فرصة ذلك لى، وأخيراً دخلت إلى صالون السادات الذى يفتح على التراس وأصبح ظهر السادات لى فلوحت لأشرف بيدي بإشارة كى يأخذ بطرس غالى وينصرف ثم عدت وجلست، بالفعل بعدها بدقائق قام أشرف واستأذن من الرئيس فى الانصراف وصحب بطرس غالى ومضيا».

«وحملت مقعدي إلى حيث يجلس السادات وقلت فى هدوء: «إنى أرغب فى أن

أتحدث إليك لا بوصفي وزيراً للخارجية يتحدث إلى رئيس الجمهورية، ولكن بوصفي صديقاً وأخاً أصغر لك، أكلنا معاً العيش والملح في السجن منذ ثلاثة وثلاثين عاماً، وأنت تعلم مدى إخلاصى لك وللحق، وإنى حريص على ألا تقدم على شيء نندم عليه فيما بعد»، وقال السادات بصوت هادئ: «وهل بينى وبينك حجاب يا محمد؟ قل ما تريد ولا تتردد».

ويورد صاحب المذكرات نص الحوار الطويل الذي دار بين الرجلين قبل أن يشقا على استقالته، وهو حوار وطني وشرى وجميل ورفيع المستوى وليس يوسعنا أن نقلبه كله وسنكتفى من الجمل المهمة التي تدل على وطنية الرجلين وعظمتيهما بتلك الجملة في وسط الحوار:

«السادات: إنك لا تعلم شيئاً عن العرب، أسألنى أنا إنهم لو تركوا وشأنهم فلن يحلوا أو يربطوا، وسيظل الاحتلال الإسرائيلي قائماً إلى أن ينتهى إلى التهام الأراضى العربية المحتلة، دون أن يحرك العرب ساكناً غير الجمعية وإطلاق الشعارات الفارغة، كما فعلوا منذ البداية ولن يجمعوا على حال أبداً».

«محمد كامل: إنى لا أشاركك الرأي فيما قلته وهو ليس صحيحاً على إطلاقه، فقد اجتمعت كلمة العرب والمحدوا على يدك أنت نفسك وحققوا تضامناً وتكاتفاً عظيماً، عسكرياً وسياسياً واقتصادياً في حرب أكتوبر ١٩٧٣ وبعدها، وهذه حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها».



وفي موضع آخر نرى محمد ابراهيم كامل بثبت بالنص كلمات السادات إليه حين لا يجد السادات حرجاً في أن يصف وزير خارجيته (الذي هو صاحب المذكرات نفسه) في وجهه بأنه كالبغاء !!:

«أنت تردد كالبغاء ما يقوله الاتحاد السوفيتى عن صلح منفرد، كيف يكون صلحاً منفرداً إذا كنت ساطل ملتزماً بأن أقوم بدور فى الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وغزة خلال فترة السنوات الخمس الانتقالية وحتى تحل القضية الفلسطينية من جميع وجوها، وما معنى أن أبقي سيناء تحت السيطرة الإسرائيلية حتى تحل المشكلة الفلسطينية لتفمرها إسرائيل بمستوطنات جديدة يوماً بعد يوم، أليس هذا من البغاء؟ إنك تتكلم لأنك لا

نعرف شيئاً عن أحوال مصر الداخلية، لقد ترك لى عبدالناصر تركة مشقة بالهجوم والمشاكل، وإن أوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية فى غاية السوء وكل مرافق البلد منهارة ولن تستطيع مصر أن تخرج من أحوالها المتردية إلا إذا حصلت على السلام وكرست كل مواردها للتنمية، وعندئذ ستكون مصر فى مركز أقوى لمساعدة الفلسطينيين فى حل مشكلتهم".

وفى موضع ثالث يروي صاحب المذكرات:

"السادات (مقاطعاً): ماذا جرى لك؟ أتريد أن أنعرض لسمانة الاتحاد السوفيئى وحافظ الأسد والقذافى فيقولون: إن ما ادعوه على مبادرتى منذ البداية من أنها كانت ترمى إلى حل منفرد كان صحيحاً؟

(٤٧)

ومع أن عملية السلام والمفاوضات من أجلها قد استغرقت كل فصول هذه المذكرات، إلا أن محمد إبراهيم كامل لم يخل علينا بموقف وطنى عظيم وقفه وهو وزير للخارجية المصرية من عرض تمساوى بتخزين النفايات الذرية فى مصر، ورغم أن الموقف الذى يرويه يشرف السادات ولا يدينه، فإنه للأسف الشديد فى ظل سياسات انتقاء بعض الفقرات وإهمال بقية النص وتجاهل السياق يمكن انقطاعه والإشارة إليه فى اتجاه الهجوم على السادات، ذلك أن محمد إبراهيم كامل ينهم فى مقدمة القصة التى يرويها الرئيس السادات بما لا تشبه الرواية، وإن كانت الرواية تمس وزير الكهرباء فى ذلك الوقت الذى كان فيه محمد إبراهيم كامل وزيراً للخارجية، وقد كان المهندس أحمد سلطان إسماعيل وزيراً للكهرباء منذ مايو ١٩٧١ وحتى أكتوبر ١٩٧٨ وهكذا فإنه هو وزير الكهرباء المعنى فى المذكرات والذى لم يذكر صاحب المذكرات اسمه بالتحديد.

يقول محمد إبراهيم كامل:

أوقد حدثت فى ذلك الوقت واقعة أرى أن أنسب إليها لأنها تبين البساطة والسطحية التى كان يقابل بها الرئيس السادات بعض المسائل شديدة التعقيد والخطورة. فقد اتصل بى وزير الكهرباء والطاقة فى الصباح المبكر ليوم ٣ مايو (آيار) وطلب أن يمر على بعد

ساعة لتوجه معا فى سيارته إلى شبرا الخيمة للاستماع إلى الخطاب الذى سبلقه الرئيس السادات بمناسبة الاحتفال بعيد العمال فى أول مايو ٥.

«ووافقت على ذلك وفى الطريق إلى مكان الاحتفال قال الوزير: إنه يريد التحدث معى فى أمر عاجل وفتح حقيبة أوراقه وأخرج منها ملفاً قدمه لى، وقال «إن الموضوع يتعلق بإبرام اتفاقية بين مصر والنمسا تسلم مصر بمقتضاها نفايات الوقود النووى الناتجة عن استهلاك المفاعلات الذرية فى النمسا، لتقوم مصر بحفظها وتخزينها فى أراضيها».

«وذكر أنه توجد فى منطقة غرب قناة السويس كثبان جيرية تصلح لهذا الغرض. وقال إن مصر ستستفيد بخبرة تكنولوجية كبيرة من وراء هذه العملية تفيدنا للغاية عند إنشاء مفاعلات ذرية فى مصر لتغطية احتياجاتنا للطاقة».

«أما عن وجه الاستعجال فى الموضوع فهو أن دولاً أخرى تسعى بكل السبل للحصول من النمسا على هذه المخلفات الذرية ومن بينها إيران وأن الشاه يعرض على النمسا مبالغ طائلة فى سبيل ذلك، غير أن المستشار كرايسكى من واقع الصداقة التى تربطه بالرئيس أنور السادات يفضل إعطاء هذه المواد لمصر مجاناً بل إن النمسا ستبرع لمصر بمبلغ مليون شلن نمساوى!! (حوالى ٥٠ ألف دولار) للمساهمة فى إقامة مستشفى جديد بها».

«وأضاف وزير الكهرباء والطاقة إنه قد عرض هذا الموضوع عقب عودته من النمسا مؤخراً على الرئيس السادات الذى أحسن له ووافق عليه وطلب منه السير فى إجراءات تصفيه، وأنه لذلك يرجو أن أعد له تفويضاً منى بوصفى وزيراً للخارجية فى توقيع الاتفاقية مع النمسا على الفور وقبل أن تطير الصفقة من أيدينا!!!».

«وبعدما يومين ذهبت لمقابلة الرئيس السادات لأعرض عليه بعض المسائل وكان يقيم وقتها فى كنج مربوط، وتقع فى الصحراء الغربية فى منطقة اشتهرت منذ قدماء المصريين بجوها الجاف المنعش والذى هو فى حد ذاته علاج للكثير من أمراض الصدر، وكان السادات ينزل فى استراحة صغيرة ذات حديقة جميلة كانت تسأجرها الحكومة المصرية من مالكة اليونانى».

«وأثرت مع الرئيس السادات - وكان معه السيد حسنى مبارك نائب الرئيس - الموضوع الذى حدثنى بشأنه وزير الكهرباء وعلمت منه أن الوزير قد عرضه عليه وأنه وافق عليه بالفعل من حيث المبدأ».

«وقلت للرئيس السادات: إنى لست خبيراً فى هذه الشئون ولكن ما أعلمه أن الدول الأوربية جميعاً تواجه مشاكل فى تخزين مخلفات الوقود النووى ويريحها ويسعدها أن تتخلص منها، وأن شطراً كبيراً من الشعوب الأوربية يعارض بشدة إقامة المفاعلات الذرية فى أراضيهم رغم الاعتراف بوجود زيادة مصادر الطاقة، وتقوم المظاهرات فيها ضد ذلك، وأن الموضوع محل جدل هناك مما يدعوننا إلى عدم تعريض مناخ مصر الجميل - وهو من نعم الله عليها - لمخاطر التلوث ومضاعفاته. وأنه مهما تكن هناك من فائدة فنية حسبما يدعى وزير الكهرباء لهذا المشروع فلا شك أنه ستكون له آثار جانبية خطيرة تطيح بما قد يكون له من فوائد».

«وذكرت أن منطقة القنال التى اختارها الوزير لتخزين هذه المواد تقع فى متناول أى هجوم إسرائيلى، كما قد يؤثر تخزين هذه المواد على الملاحة فى قناة السويس وعلى البيئة فى المنطقة جميعاً. فضلاً عن أنى لا أستطيع التكهّن برد الفعل الشعبى إزاء التصور بأن مصر ستصبح مخزناً للمخلفات الذرية للدول الغنية».

«وخلصت من ذلك إلى أنى أرى ضرورة عدم اتخاذ أية خطوة قبل إجراء دراسات فنية متعمقة - ودون أى استعجال - لتغطية الموضوع من جميع جوانبه وتشكيل لجنة تشارك فيها وزارات الخارجية والدفاع والصحة والزراعة والصناعة والرى. واستمع الرئيس إلى نهاية حديثى وقال «أضف إلى اللجنة التى تقترحها أكاديمية البحث العلمى وهيئة قناة السويس واتفق مع السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء على تشكيل هذه اللجنة ومتابعة دراساتها على أن يحاط ذلك بسرية تامة».



هل لنا أن نتوقف هنا لنعتب على صاحب هذه المذكرات وصفه للرئيس السادات فى بداية هذه الرواية بالبساطة والسطحية التى كان يقابل بها بعض المسائل شديدة التعقيد والخطورة، وهو الذى قبل حديث صاحب المذكرات وملاحظاته لصوره، بل ووافقه على تشكيل اللجنة بل وأضاف إليها مؤسسات أخرى.. ماذا كان يعيب الرئيس السادات فى أن يوافق لكل وزير على ما يقترحه وأن يسحب موافقته عندما تنراى له مصالح وطنية أهم وأكثر أثراً وفائدة وخطورة.

ونحن نطالع صفحات هذا الكتاب أو هذه المذكرات يروعتنا أن حديث محمد إبراهيم كامل عن نشاطه الوطني المبكر والذي أدى به إلى السجن لا يأتى إلا فى إطار تفسير لقائه بالسادات، ونحت عنوان جانبى «اللقاء الأول» فى الفصل الأول من الكتاب الذى حمل عنوانه «كيف قابلت السادات» مع أن النشاط الوطنى لأى إنسان يستحق أن يكون فى حد ذاته مدخلاً لحديث خاص حتى لو لم يكن أحد زملاء صاحب المذكرات فى هذا النشاط الوطنى قد وصل إلى رئاسة الجمهورية واستوزره، وسوف نلاحظ فى الرواية التى سنقرأها الآن أن محمد إبراهيم كامل لم يعترف حتى فيما يرويه بعد أربعين عاماً بأنه كان له دور فى عملية اغتيال أمين عثمان، وكأنه أبى على نفسه أن يعترف فى الثمانينيات بما لم يعترف به فى الأربعينيات.. ولن نستبق الرواية وإنما سنتدع القارئ بنفسه يكتشف هذا الذى نتحدث عنه، ولكن صاحب المذكرات فى ذات الوقت يعرض هذا الإنكار أو التجاهل تعويضاً ممتازاً وقوياً وموحياً باعترافه أنه شارك بالفعل فى محاولة اغتيال النحاس باشا، وإن كان حريصاً فى ذات الوقت على أن يوحى لنا [بعد أن مات السادات وبعد أن اختلف هو معه] أن السادات قد نكث لحظة التنفيذ عن أداء الدور (الاحتياطى) الذى كان مفروضاً أن يقوم به، وسوف استأذن القارئ فى أن أضع بين يديه حديث صاحب المذكرات عن هذه الحقة كما أورده بالنص مع بعض تعليقات سريعة بين الأقواس رأيت أنها كفيفة بالتعبير عن رؤيتى (أو تعليقاتى) تجاه ما أوحى به أو صرح:

«... فى عام ١٩٤٣ اشتركت ومجموعة من أقاربى وأصدقائى الشبان فى تكوين جمعية سرية تستهدف القيام بعمليات ضد القوات البريطانية التى كانت تجوب شوارع القاهرة، وكثيراً من المدن المصرية على غرار حركة المقاومة الفرنسية التى نشأت فى فرنسا عقب الاحتلال الألمانى، وفى تلك الأيام كانت الجمعيات الإرهابية الصهيونية تقوم بنشاط واسع ضد الفلسطينيين، والقوات الإنجليزية فى فلسطين أو القاهرة».

«كانت مواردنا كمتيلة محدودة، ولذلك كنا نخصص جزءاً من مصروفنا الشخصى لشراء بعض الأسلحة - كالمسدسات والقنابل اليدوية - ونقوم بالتدريب على استعمالها

فى صحراء شرق القاهرة. وبالفعل قمنا بعدة عمليات اعتداء على الجنود والضباط البريطانيين، كما قمنا بإشغال النيران فى أحد معسكرات الجيش البريطانى بضاحية المعادى مما أدى إلى حريق هائل».

«فى ذلك الوقت تقريبا، وبالتحديد فى عام ١٩٤٥ أوفدت جمعية الأرجون الإرهابية التى كان يرأسها متاحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل الحالى اثنين من رجالها قاما باغتيال اللورد «موين» الموفد من قبل إنجلترا فى مهمة، وكادا يفلتان إلا أنه تم القبض عليهما، وقد دافعا عن عملهما هذا - أثناء المحاكمة - بأنه مشروع فى نظرهما لإقامة دولة إسرائيل، وهو ما يتكره الآن بيجين على الشعب الفلسطينى وجهاده فى سبيل استرجاع حقوقه المشروعة فى وطنه فلسطين».

«كان يدير جمعيتنا التى بلغ عدد أعضائها ٢٣ عضواً مجلس إدارة مكون من أربعة هم: نجيب فخري، وحسين توفيق وهما من أولاد خالتي، وسعد الدين كامل الطالب بكلية الحقوق، وأنا».

«وفى منتصف عام ١٩٤٥ عرض حسين توفيق على مجلس الإدارة اقتراحاً بالتمرف على شخص يدعى عمر أبو على الذى فاتحه فى الاشتراك فى جمعية أخرى يبدو أنها ذات إمكانيات أكبر من إمكانياتنا، وعندما أخبره حينئذ بأنه عضو بالفعل فى جمعية وطنية سرية اتفقا على أن يعود كل منهما إلى جمعيته ويمرض عليها قيام تعاون أو تنسيق بين الجمعيتين».

«وافق مجلس إدارتنا على هذا الاقتراح، وكلفنى أنا وحسين توفيق بمقابلة ممثلى الجمعية الأخرى للتفاهم حول كيفية تحقيق التعاون بيننا».

«ولم تخط أيام قلائل حتى تم اللقاء فى أحد المقاهى الكائنة بميدان الأوبرا، وقابلنا أنا وحسين توفيق، عمر أبو على الذى قدم لنا شاباً كان يرافقه، لفت نظرى أنه كان يكبرنا فى السن، كان أسمر اللون، عموق القوام، ذا شارب ضخم وصوت أجش عميق النبرات، إلا أنه كان يلبس ثياباً غريبة، إذ كان يرتدى بدلة رمادية داكنة، وتحتها صدرى فاتح اللون به مربعات حمراء، وربطة عنق فاقمة اللون، وحذاء أبيض، وقدمه لنا عمر أبو على باسم «أنور السادات».

ويرد محمد ابراهيم كامل بذكر انطباعاته عن هذا اللقاء المبكر مع أنور السادات فيقول:

«استمر اللقاء نحو ساعة ونصف الساعة، تبادلنا فيها الحديث عن أوضاع البلد وأفهمنا السادات بطريقة غير مباشرة أنه ينتمى إلى جمعية من رجال القوات المسلحة، وأنه كان (بيوزباشى) بالجيش وأحيل إلى التقاعد للشك فى ميوله المتعاطفة مع الألمان. وأنه يعمل الآن فى المقاولات والنقل».

«أدخل السادات على تفكيرنا تعديلاً لم يكن وارداً، وهو أن الطريقة الفعالة لتحقيق أهدافنا هى القضاء على الزعماء المصريين المتعاونين مع الإنجليز، وأتينا إذاً تمكنا من اغتيال عدد منهم فسيأتى اليوم الذى لن يجد فيه الإنجليز مصرياً واحداً يتعاون معهم فى حكم البلاد».

«عدنا إلى مجلس إدارة جمعيتنا وعرضنا عليهم ما دار فى المناقشة ووافقنا على القيام بعمليات مشتركة مع الجمعية الأخرى، كما وافقنا على أن يشمل نشاطنا المصريين المتعاونين مع الإنجليز».

ن

ثم يروى محمد إبراهيم كامل بعض تفاصيل سريعة عن محاولة اغتيال النحاس باشا التى شارك فيها مع أنور السادات وكأنه يريد أن يعوض ما سيفعله بعد قليل حين يتجاهل تحديد دور قام به هو أو السادات فى اغتيال أمين عثمان ، فهو هنا ينتهنا إلى أنه كان بالفعل لا يمانع فى أن يكون الاغتيال السياسى إحدى وسائل تحقيق الأهداف الوطنية:

«قمنا (أنا وحسين توفيق) بمقابلة أنور السادات مرة ثانية حيث أبلغناه بموافقتنا على التعاون معه ومع جمعيتيه، واقترح علينا أن نقوم باغتيال النحاس باشا رئيس حزب الوفد، لدوره المشين فى حادث ٤ فبراير، ووافقنا نحن على ذلك».

«ثم وضع خطة لتحقيق تلك العملية عهد فيها بالدور الرئيسى إلى حسين توفيق الذى كان يتمتع بأعصاب فولاذية، وشارك فيها من جمعيتنا سعد الدين كامل وأنا، ومن الجمعية الأخرى أنور السادات وعمر أبو على كمساعدين لتنفيذ العملية».

«كان دور أنور السادات أن يحضر سيارة وينتظر بها بجوار مبنى الجامعة الأمريكية فى القاهرة الذى يقع على مقربة من مكان تنفيذ العملية، كما سلمنا أنور السادات طراداً يحوى سددسين ماركة برنا عيار ٩ ملميمتر وبعض الطلقات، وقنبلتين يدويتين من طراز إنجليزى».

وبالفعل تمت المحاولة، إلا أنها فشلت نتيجة انفجار القنبلة التي ألقيها حسين توفيق في مؤخرة سيارة النحاس الذي أسرع فجأة ليشغادي تروماً قادماً بسرعة، فلم يصب أحد من راكبي السيارة التي غرت بسرعة، إلا أن حسين توفيق عندما توجه إلى المكان المتفق عليه بعد محاولة الاعتداء لم يجد أثراً لأنور السادات أو للسيارة حبماً كان متفقاً عليه، وعدنا جميعاً بعد ذلك إلى منازلنا دون أن يتطرق الشك إلى أي منا، وقيد الحادث ضد مجهول.

«مضت شهور أوقفنا فيها كل نشاطنا، بعد أن اتخذت أجهزة الأمن بعد الحادث تدابير أمنية مشددة»

(٤٩)

أما تفصيلات حادث اغتيال أمين عثمان فيرويهما صاحب المذكرات بأعصاب باردة وكأنه وكيل النيابة الأقدم الذي يلخص لزميله الأحداث الوقائع التي سيلخصها تقريرهما إلى رئيس النيابة الذي سيتولى الادعاء في القضية، وسرى هنا نموذجاً جيداً للحدث الجيد العاقل الذي يدلي به أحد المشاركين في عمل وطني عن هذا العمل بعد وقوعه بزمان طويل دون حماسة ظاهرة أو إدعاء مزيف .. بل إن صاحب هذه المذكرات حريص تماماً على الابتعاد بنفسه عن أي مشاركة وكأنه كما قلنا لا يريد أن يعترف في الثمانينيات بما أنكره في الأربعينيات:

«وفي مساء ٦ يناير ١٩٤٦، قام حسين توفيق بإطلاق النار على أمين عثمان وزير المالية السابق بوزارة الوفد أثناء دخوله مقر نادي الرابطة المصرية البريطانية في شارع عدلي باشا، ولم يلبث أن توفي متأثراً بجراحه».

«كان أمين عثمان معروفًا بصلاته الوثيقة والمريبة بالإنجليز، وكان كثيراً ما يدلي بخطب وتصريحات تمثل استفزازاً صارخاً لمشاعر المصريين ومنها خطبة الشهيرة التي قال فيها إن المجلترة متزوجة بمصر زواجاً كاثوليكياً لا طلاق فيه، كما كان شائعاً أنه - أي أمين عثمان - الرأس المذهب لحادث ٤ فبراير».

«لجئ حسين توفيق في الهروب بعد مغامرة مثيرة حيث جرى خلفه عدد من الناس، وكان أثناء هربه يطلق الرصاص من مسدسين كان يحملهما، ورغم ذلك زاح عدد

مطارديه حتى ألقي بقنبلة يدوية أخافت الناس دون أن يصاب أحد، وسار يهدوء حتى وصل إلى ميدان العتبة حيث استقل الترام وعاد إلى منزله.

«تدخلت الصدفة البحتة في القبض على حسين توفيق، فقد كان والده (توفيق باشا أحمد) وكيلاً لوزارة المواصلات، وكان مشهوراً بالشدة والصرامة، وحدث أن طرد أحد موظفي وزارته لسوء سلوكه، وكان هذا الموظف يعرف حسين توفيق بصفته ابن رئيسه ويعرف عنه عداوته وكرهيته الشديدة للإنجليز».

«انضم هذا الموظف إلى الرابطة المصرية البريطانية التي كان يرأسها أمين عثمان أملاً في التوصل إلى شيء عن طريق هذا الانضمام. وشاءت الظروف أن يلتقى بحسين توفيق قبل الحادث بأيام واقفاً أمام مقر الرابطة بشارع عدلي، حيث كان يدرس مكان العملية المكلف بها، فحياه هذا الموظف وتبادل معه حديثاً قصيراً انصرف بعده حسين توفيق».

«بعد الحادث أعلنت الحكومة عن مكافأة قدرها خمسة آلاف جنيه لمن يدلي بمعلومات تؤدي إلى القبض على الجاني، فما كان من هذا الموظف إلا أن توجه إلى البوليس حيث أبلغ بأن الذي قتل أمين عثمان هو حسين توفيق كان ذلك من مجرد التخمين المحض».

«توجه ضباط البوليس بالفعل (الأمن السياسي) في منتصف ليلة الحادث، إلى الفيللا التي يقيم فيها حسين توفيق مع عائلته في ضاحية هليوبوليس، فوجدوا بعض الأسلحة المخبأة، ومفكرة يومية تحوى بعض العبارات العدائية ضد الإنجليز وأعدائهم، وعنوان الرابطة المصرية البريطانية، فقاموا بالقبض عليه واصطحبوه، حيث جرى تحقيق طويل انتهى باعترافيه بقتل أمين عثمان لأسباب وطنية، وشمل اعترافه، الإدلاء بأسماء أعضاء الجماعة كلهم، والاعتراف على أنور السادات وعمر أبو علي».

ثم يروي صاحب المذكرات قصة إنكاره (هو والسادات وآخرين) المشاركة في اعترافات الآخرين بارتكاب عملية الاغتيال، وما ترتب على هذا الإنكار من فوائد جمة:

«تم القبض علينا (٢٦ شخصاً) وقد اعترف الجميع بالاشتراك في الجمعية السرية عدا أربعة هم: أنور السادات، وسعد الدين كامل، ونجيب فخري، وأنا».

«وقد أمضينا في السجن المخصص للتحقيقات السياسية (سجن الأجانب) شهرين في حبس انفرادي دون أن يسمح لنا بأى نوع من الاتصال بعضنا ببعض الآخر، حتى انتهت

التحقيقات التي كانت تجريها النيابة، ورجال البوليس. وكان مدير سجن الأجانب مأموراً بالإنجليزية يقيم بفيلا ملحقه بحديقة السجن، ويقوم بتربية خنزير أطلق عليه اسم (سعد باشا) نسبة للزعيم المصري سعد باشا زغلول. وقد انتقلنا بعد ذلك إلى سجن مصر العمومي - وهو الذي قام بهدمه أنور السادات بعد توليه رئاسة الجمهورية في احتفال رسمي - عندما نقرر إحالتها للمحاكمة الجنائية^١.

«كان إنكارى أى صلة لى بالجماعة، وبالتالي إنكارى لمعرفتى بأنور السادات من أهم العوامل التي ساعدت على نبرته في تلك القضية، إذ لم يكن يعرفه من جمعيتنا سوى حسين توفيق، وأنا، ولا يعرفه من جماعته سوى عمر أبو علي^٢.

«وقد اعترف كل من حسين وعمر عليه، كما اعترفا علي، وفررا أني قد قابلته في حضورهما مرتين، ولكن إنكارى التام لذلك، وإنكار السادات بدوره له، ساعده كثيراً في موقفه في القضية، خصوصاً أن النيابة العامة والبوليس السياسى - كانا يركزان على أنور السادات بوصفه المسئول الأول عن الاعتداءات التي وقعت حيث كان يكبرنا في السن، بالإضافة إلى ماضيه كضابط في الجيش أحيل إلى التقاعد، ولاشتراكه في عمليات منها محاولة تهريب عزيز باشا المصري القائد السابق للجيش المصري، والذي كان معروفاً بعناده الشديد للإنجليز حتى يسافر إلى العراق وينضم إلى ثورة رشيد عالي الكيلاني ضد الإنجليز^٣.

(٥٠)

ونصل الآن إلى الفقرات التي يتحدث فيها صاحب هذه المذكرات عن نحو علاقته بالسادات في السجن، بل وتوطد هذه العلاقة، وسوف نعجب كيف ظل هذا الصديق بعيداً عن السادات طوال ثماني سنوات من حكمه (١٩٧٠ - ١٩٧٨) على الرغم من هذه العلاقة الوطنية الأكيدة المتعمقة التي نمت بينهما في السجن، كيف غاب هذا الرجل بعيداً عن مصر وبعيداً عن الرئيس الذي كان في وسعه على الدوام أن يكتشف جوانب إيجابية في كل الناس، أم أن السادات كان يدخر محمد إبراهيم كامل لزمناً نال كما حدث بالفعل:

«قدر لى السادات موقفى هذا. وبعد أن نقلنا إلى سجن مصر العمومى، توطدت بيننا علاقات الصداقة، أثناء ساعات ظهيرة الفسحة التى كان يسمح لنا بها لمدة ساعة فى الصباح، وأخرى فى المساء للترىض والمشى».

«كان والدى يعمل نائباً لرئيس محكمة الاستئناف وكان يتمتع بشخصية قوية ومحجوبة فى أوساط القضاء والنيابة العامة، وقد كفل لى ذلك بعض الامتيازات، فكان يسمح لى بأن ألتقى الطعام من منزلى، فكانت والدتى ترسل لى طعاماً يكفىنى والعديد من زملائى فى القضية حيث كنت أقوم بتوزيعه بيننا بالعدل».

«وكان أنور السادات شغوفاً بالطعام، وكثيراً ما كان يطلب منى أن أبلغ والدتى بإعداد أصناف معينة مثل طواجن الحمام بالأرز، ومن ناحية أخرى حصل لى والدى على تصريح بعلاج أسناني خارج السجن، فكانت أخرج مرتين أسبوعياً مصحوباً بحراسة إلى عيادة الطبيب حيث ألتقى بأفراد عائلتى، وأعود بعد ساعتين محملاً بعلب السجائر والحلوى. ورغم أن ذلك كان ممنوعاً إلا أننى كنت أحدد مواعيد ذهابى للطبيب فى الأيام التى كانت تتولى إدارة السجن «نوباتشية» مجموعة من الضباط تربطهم صداقة بالسادات. فكانوا يسمحون لى بالدخول بما أحمله من مهرجات. ولم نلبث أن سمح لنا هؤلاء الضباط فى أيام مناوبتهم بأن نتناول الطعام معاً فى زنزانته أو زنزانتى».

«استمر الحال كذلك مدة سبعة أشهر حتى أفرج عنى بكفالة، وبعدها بخمسة أشهر نجح حسين توفيق فى الهرب من السجن، واستطاع بمعاونة بعض الاعوان فى الخارج السفر إلى بعض البلاد العربية حتى انتهى إلى الإقامة فى سوريا حيث تزوج من سورية، ولم يلبث أن كون جمعية سرية فى سوريا وحاول اغتيال الزعيم الشيشكلى، وحكم عليه بالإعدام، إلا أن الشيشكلى سقط بانقلاب عسكري قبل تنفيذ الحكم. وبعد قيام الثورة فى مصر أفرج عنه وعاد إلى مصر، وصدر قرار بالعفو عنه وباقى المحكوم عليهم فى قضية الاغتيالات السياسية».

«أما أنور السادات فقد ظل محبوساً حتى صدر الحكم فى القضية التى استمر نظرها أكثر من عامين، وفضى بالحكم غيابياً على حسين توفيق بالأشغال الشاقة عشر سنوات، وعلى باقى المتهمين بالسجن مدداً تتراوح بين خمس سنوات وثلاث سنوات، وبراءة كل من أنور السادات، وسعد الدين كامل، ونجيب فخرى، وأنا».

ويبدأ محمد إبراهيم كامل فى إلقاء بعض الشكوك أو فى التعبير عن بعض الشكوك تجاه أنور السادات ويقول:

«ارغم الصلة الوثيقة التى ربطت بينى وبين السادات فى السجن إلا أنه لم يصرح لى بشيء عن الجماعة التى ينتمى إليها، أو عن أى من أعضائها، وإن كان قد نقل لى انطباعاً غامضاً بأنها جماعة كبيرة تضم العديد من ضباط الجيش من مختلف الأسلحة. وكثيراً ما كانت تملكنى الحيرة من حقيقة أمره وهل هو عضو حقيقى فى مثل تلك الجماعة أم أنه شخص يعمل بمفرده؟»

«فى أحد الأيام حضر إلى لتناول الغداء معى فى زنازتى، وبعد انتهائنا ذكر لى أن شيئاً عظيماً سيحدث فى اليوم التالى سيقرب القضية رأساً على عقب ويضمن الحكم ببراءتنا وجميع المتهمين فى القضية، ولم يفض بكلمة أكثر من ذلك».

«كانت هناك فى اليوم التالى جلسة خاصة أمام قاضى الإحالة، وحدث أن هاجم شخصان يركبان سيارة خضراء ساعى المحكمة الذى كان يركب دراجة ربط على مقعدها الخلفى أصول ملفات القضية، أثناء سيره فى شارع محمد على المزدحم، حيث كان ينقل الملفات من بيت القاضى الذى كان يفحصها قبل الجلسة إلى المحكمة لتكون أمامه أثناء نظر القضية».

«حاول هذان الشخصان الاستيلاء على تلك الملفات ونقلها إلى السيارة، إلا أن المارة نجسوا على صراخ الحاسب، واضطر الشخصان إلى الهرب دون الاستيلاء على الملفات».

«كانت هذه فكرة جهنمية إذ كانت الملفات تحوى اعترافات حسين توفيق وباقى المتهمين موقعة بإمضاءاتهم، ولو اختفت هذه الأصول وعمد المتهمون إلى إنكار ما سبق أن اعترفوا به، لانساهت أهم الأدلة فى القضية ولتعذر الحكم فى القضية، بإدانة أى من المتهمين».

«وقد علمت فيما بعد أن السيارة التى استخدمت كانت ملك شقيق زوج أختى، كان من الأعيان ولا علاقة له بالسياسة ولا صلة له بالسادات، وعلمت أن الشخص الآخر الذى كان معه هو حسن عزت شريك السادات فى المقاولات، وكان طياراً بال سلاح الجوى ثم أحيل إلى التقاعد، ومن هنا زادت حيرتى بشأن التنظيم الذى ينتمى إليه السادات».

ويأتى صاحب هذه المذكرات إلا أن يعلق بعد هذا كله ببضعة تعليقات تصور مشاعره تجاه السادات ودوره فى هذه القضية، ودور القضية نفسها فى تاريخ السادات:

«وكانت قضية أمين عثمان التى عرفت «بقضية الاغنيالات السياسية الكبرى» قضية شهيرة حيث اشترك فى الدفاع عن المتهمين فطاحل المحامين ، سواء كانوا موكلين أو متطوعين، ودعى للشهادة فيها غالبية الزعماء السياسيين مثل النحاس باشا رئيس الوزراء السابق ورئيس حزب الوفد، وعلى ماهر باشا رئيس الوزراء السابق ورئيس الديوان الملكى وقتها، وحافظ باشا رمضان رئيس الحزب الوطنى، وحسين باشا سرى رئيس الوزراء السابق، ومحمد حسين هيكل باشا رئيس مجلس الشيوخ، ومكرم عبيد باشا رئيس حزب الكتلة الوطنية، وبهى الدين بركات باشا رئيس ديوان المحاسبة وغيرهم».

«وكان هناك تعاطف شعبى واسع النطاق مع المتهمين حيث كانوا من طلبة الجامعات الشبان صغرى السن، وكان الشعور الوطنى ضد الإنجليز قياً، نظراً لفشل الجهود التى كانت تقوم بها وزارة بعد أخرى فى المفاوضات لحمل الإنجليز على الانسحاب من مصر. ومن ناحية أخرى كانت سمعة أمين باشا عثمان كميل لانجلترا معروفة للجميع، وظلت القضية وما حفلت به من مفاجآت تشغل الصفحات الأولى فى جميع الصحف المصرية على مدى سنتين استغرقتهما القضية».

«وقد لمع فيها اسم أنور السادات واشتهر حيث كان التركيز عليه ولأنه كان ملفتاً للنظر بحركاته وصوته الجمهورى، فضلاً عن نصديه لمرافعة النائب العام بالهتاف بشعارات وطنية أثناء المحاكمة».

«وظلت هذه القضية هى الموضوع المحبب لدى السادات بعد توليه رئاسة الجمهورية، فكان يتلمس الفرص ليشير إليها فى عشرات من خطبه العامة، وأحاديثه مع الصحافة كبرهان عملى على كفاحه الوطنى من أجل مصر والذى يدها وهو فى شرح شبابه».

(٥١)

أما حديث صاحب هذه المذكرات عن فترة عمله مع صلاح سالم فى أول الثورة فلا

يأتى إلا مقتضباً جداً وعارضاً جداً، وذلك حين يزور القدس لاجتماع اللجنة السياسية فتعود به الذاكرة إلى زيارته الأولى للقدس عام ١٩٥٤ ويقول:

«أما أنا فكانت قد استقرت في عالم آخر، عادت بي ذاكرتي إلى سنة ١٩٥٤ عندما زرت القدس لأول مرة، كنت عضواً شاباً في الوفد المصري برئاسة الصاغ صلاح سالم وزير الإرشاد القومي وعضو مجلس الثورة في ذلك الوقت. وقد زار الوفد وقبها السعودية واليمن ولبنان والعراق ثم الأردن. وكانت مهمة الوفد إجراء مباحثات مع هذه الدول تستهدف منع انضمامها لحلف بغداد الذي كانت الولايات المتحدة وانجلترا تعملان على تكوينه بين دول المنطقة ليكون خط دفاع ضد الخطر السوفيتي».

(٥٢)

أما التوجهات السياسية لمحمد إبراهيم كامل فقد ظلت أقرب إلى توجهات الدبلوماسي المحترف الحريص على الاعتماد تماماً عن كل الممارسات السياسية بكل صورها، ولنقرأ هذه القصة اللطيفة التي تصور لنا كيف كان حريصاً على أن يظل بعيداً عن الانتماء للحزب الوطني أو غيره من الأحزاب القائمة من قبله: حزب مصر العربي الاشتراكي.

«وقبل وصول الرئيس حضر إلى السيد ماهر محمد علي المحامي والسيد منصور حسن - وزير الثقافة فيما بعد - وكلاهما كان من عهد إليهم السادات بدور تنفيذي في تنظيم حزبه الجديد، وسألاني: متى ستنضم للحزب؟ فقلت: إنني لن أنضم إليه، فقال ماهر محمد علي: ولكنك وزير الخارجية، فقلت: ولكني كنت كذلك قبل إعلان تشكيل الحزب. فصاح ماهر محمد علي: ولكنك كنت عضواً في الحزب الوطني القديم وأنت في فجر شبائك فكيف لا تنضم للحزب الوطني الجديد وأنت صديق الرئيس؟ فقلت: هذا صحيح ولكني لم أعد من أعضاء الحزب الوطني القديم لأنني خالفت سيادته التي تنادي بأنه لا مفاوضة إلا بعد الجلاء وهأنذا كما ترى في طريقي إلى كامب ديفيد للتفاوض قبل أن يتم الجلاء (!!) وعقدت الدهشة لسان ماهر محمد علي ونظر إلى مشككا في رجاحة عقلي».



ويستطرد صاحب المذكرات ليروي ما حدث قبل هذا من محاولات قادة حزب مصر العربى الاشتراكى السابق على الحزب الوطنى الديمقراطى إغراءه بالانضمام إلى الحزب وتصميمه على عدم الانضمام:

«والواقع أنى بعد أن عينت وزيراً للخارجية لمح لى مرة السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء ورئيس حزب مصر- الذى أوعز الرئيس للحكومة بتشكيله بعد التصريح بالأحزاب - لمح لى أمام الرئيس بالانضمام إلى الحزب وقلت له وقتها: إنى أعبر نفسى فى مهمة قومية فوق الأحزاب ، وبعدها كان السيد فؤاد محيى المدين سكرتير عام الحزب يرسل بصفة دورية دعوة للانضمام للحزب وبها الاستمارة الخاصة بذلك ولكنى كنت أهمل الرد».

ومع أن الانضمام للأحزاب حرية شخصية إلا أن سلوك محمد إبراهيم كامل يدلنا على مدى الترفع الذى يحس به دبلوماسى وطنى مثله تجاه الانضمام إلى الأحزاب الوطنية العاملة بالسياسة، ومثل هذا يحدث دون حرج فى بلاد ديمقراطية عريقة فى الديمقراطية، ولكنه لا ينبغي أن يحدث ممن شارك فى فجر حياته فى القضية الوطنية! على نحو ما فعل محمد إبراهيم كامل.

(٥٣)

ويدلنا صاحب هذه المذكرات من حيث لا يدري على حس السادات التاريخى الذى كان واعياً بأن المناصب زائلة، ولكن الفن باق، وكيف كان إيمان السادات بالفن وتقديره للفنانين يصل إلى حدود قصوى، ولتأخذ هذه الواقعة التى يوردها صاحب المذكرات من باب المعجب والانتقاد وما كان له أن يعجب:

«... ثم فتح باب المقابلات لغير الساسة والمسؤولين ورجال الأعمال فأصبح يقابل الأدياء والفنانين والرسميين وغيرهم. هذه البزاييت نايلور، وهذا خوليو أيجلسياس، واختلط الأمر فسيمن هو الآخر بالمقابلة، وأذكر أن سفير إحدى الدول الأوروبية الكبيرة أبلغتنى أنه أصيب بالحرج والذهول عندما قدم وزير الدولة للشئون الخارجية فى زيارة رسمية إلى القاهرة وكانت مقابلة الرئيس السادات من أول اهتماماته، ولكن الرئيس

اعتذر عن عدم إمكان مقابلته لانشغاله، وإذا به يشاهد في اليوم التالي صورة للرئيس في الصحف وهو يقابل المغنى الجزائري اليهودى انريكو ماسياس في حديقة استراحته بالقنطر وهو يعنى له الأغنية التى ألّفها ولحنها عن بطل السلام^٥.

(٥٤)

وفى هذه المذكرات فقرة مهمة عن الحياة السرية لعبدالحكيم عامر، يؤكد بها محمد إبراهيم كامل أفكار الأذكىاء غير المنشورة عن طبيعة العلاقة بين الثلاثى عبدالناصر والسادات وعامر، وتفسر لنا كيف كان يمكن لعبدالحكيم عامر أن يختفى عن الحياة ليوم أو يومين دون أن يعرف عبدالناصر مكانه. وفى ذات الوقت فإنه يظهر فى الوقت المناسب، ومن حسن الحظ أن صاحب هذه المذكرات كان صادقاً فى الرواية إلى أبعد حد ممكن، ومن حسن الحظ أيضاً أن أنور السادات كان صادقاً فى انفعالاته إلى أقصى حد ممكن، والسبب فى رأى ظرف نفسى واضح فإن أنور السادات فى ذلك المكان المعزول واجه المعزول اعتماد إلى ذاكرته صورة عبدالحكيم عامر حين كان يتعد عن الدنيا وعن الناس واستعداد ذكرى نفسه حين كان فى السجون الانفرادية، وهكذا فإنه حين أراد أن يسأل محمد إبراهيم كامل بحديث غير رتيب بعيداً عن عناء المفاوضات فقد وجد فى ذاكرته هذا الذى يرويه له عن عبدالحكيم عامر ولتقرأ رواية محمد إبراهيم كامل حيث يقول:

«.... ثم راح يسألنى عن أحوال بعض أقاربي الذين كانوا معنا فى قضية أمين عثمان ثم تحول إلى الحديث عن ذكرياته مع الرئيس جمال عبدالناصر وبعض رجال الثورة، وروى لى قصصاً حول حياة المشير عبدالحكيم عامر الخاصة مما كان يوقعه أحياناً فى حرج أمام الرئيس عبدالناصر، فقد كان عبدالحكيم عامر كثيراً ما يسافر يومين أو ثلاثة إلى إحدى الاستراحات دون أن يستأذن من الرئيس عبدالناصر وكان يخطر السادات بمكان وجوده ليصل به إذا اقتضى الحال، وفى بعض الأحيان كانت تنور بعض المسائل الهامة ويبحث عبدالناصر عن عبدالحكيم عامر فلا يجده وينتهى بسؤال السادات عن مكان وجوده ويحار فى اخلاق عذر يقبله عبدالناصر ثم يسارع بالاتصال بعامر يطلب منه العودة على الفور، وكنت أستمع له وأسأله عن بعض التفاصيل»^٦.

وعلى الرغم من سخونة الأحداث المتعاقبة التي يتناولها هذا الكتاب إلا أن صاحب هذه المذكرات بما طبع عليه من شخصية محبة لا يخل علينا بكثير من المواقف الطريفة العارضة التي حدثت بالفعل، وهو لا يفطن للطرفة ليضحكنا، ولكنه أيضاً لا يحرماننا من الطرفة إذا حدثت، ولك أن تقارن هذا اللطف بالجفاف الصحراوي الشديد في مذكرات محمود رياض أو شبه الشديد في مذكرات محمد حافظ إسماعيل.

كذلك لا يخل علينا محمد إبراهيم كامل ببعض اللمسات الإنسانية في حياته، وهو - على سبيل المثال - يحدثنا عن شعوره حين أتيت له في الغردقة ساعتان ما بين لقائه بالرئيس السادات ولقاء أثرثون بالسادات، فإذا به يعيش الحياة التي لم يعيشها منذ فترة:

«وخرجت إلى الشاطئ وكان الجو صحوً مشمساً والنسيم منعشاً، وكان السكون يخيم على المكان لا يقطعه إلا صوت الأمواج الصغيرة وهي تتلاشى على رمال الشاطئ في نغم غامض رتيب، والبحر بمتد على مرمى البصر في بسات أزرق جميل تتناثر عليه زوارق الصيد هنا وهناك».

«خلعت سترتي ورباط عنقي وحذائي ومثيت على حافة الشاطئ حيث نتقدم الأمواج تعانق الرمال ثم ترند لتعود من جديد في حركة أزلية لا تنهى، غير مكترثة بما يجري على وجه الأرض بين البشر من شقاء وصراع».

«وشعرت لأول مرة منذ توليت وزارة الخارجية بالبهجة والسعادة تغمرني وأنا بعيد عن الأوراق والمناقشات والتليفونات والاجتماعات وعادت بي الذكريات إلى الماضي حيث كانت تسابع تجارب الحياة اخلو منها ثم المرثم اخلو مرة أخرى وهكذا. وقت أن كنت طليقاً أنعم بالحرية قبل أن تكبلني هذه المسؤولية الخطيرة دون خيار مني والتي باتت تسيطر على فكري وتلتهم كل وقتي وتآكل صحتي وتعصف بأعصابي. ومضت ساعتان لم أشعر بمرورهما إلا بعد أن استدعيت لحضور اجتماع الرئيس السادات بأثرثون».

ونجد نفس الشيء عند حديثه عن أجازته في شهر أغسطس والتي أشار عليه السادات أن يقضيها في شاطئ سيدى عبدالرحمن:

... وكانت هذه أول أجازة لى منذ عينت وزيراً للخارجية، وأول مرة أجمع بعائلتى وابنى أحمد وعلى اللذين لم أكن أراهما إلا لماماً وأنا مجهد مكثود مشدود، وعزمت على أن أكرس هذه الأيام القليلة نهما وللراحة، وأن أفصل ذهنى تماماً عما يدور خارج هذا الشاطئ الجميل المنعزل. وقد نجحت فى ذلك إلى حد كبير فلم أحاول الاطلاع على الصحف أو حتى سماع نشرات الأخبار الإذاعية، وكنت أمضى الوقت بين المشى والسباحة والاستلقاء على رمال الشاطئ ولعب الطاولة والشطرنج والبياردو.

(٥٦)

أما الأخطاء التاريخية فى هذا الكتاب فنادرة بل تكاد تكون متعذرة، ولكن هامشاً أقحم على الكتاب فيما يبدو أوضاع انعدام الأخطاء الذى كان الكتاب يتمتع به، وحوله أى حول الانعدام إلى ندره . ففى صفحة (٣٩٤) تقول المذكرات:

«وافق الرئيس السادات على دفن جثمان الملك السابق فاروق فى مصر وفقاً لمرغبته التى أبدتها فى وصيته. وقد تم ذلك فى مقابر الأسرة المالكة بالجامع الشافعى المواجه للقلعة دون أى مراسم».

انتهى هذا الهامش العجيب ، وكل الناس يعرفون أن فاروق مات فى عهد عبدالناصر ولم يمض فى عهد السادات ، وأن الذى وافق على دفن فاروق فى مصر كان الرئيس عبدالناصر وليس السادات ، كذلك فإن الدفن لم يتم فى مقابر الأسرة بالجامع الشافعى المواجه للقلعة ، وإنما تم كما ذكر حسن طلعت فى مذكراته فى حوش مقبرة الخديوى توفيق ، أما نقل الجثمان فى عهد السادات فقد تم إلى مسجد الرفاعى وليس مسجد الشافعى ، ولكن لا بد لنا أن نسأل بعد هذا ما المقصود بمثل هذا الهامش؟ ما مناسبة الحديث أصلاً إلا أنه أقحم على الكتاب؟



ونأتى إلى تحفظ وحيد على سياق الأحداث ففى صفحة (٣٤) نورد المذكرات الحديث عن إلقاء السادات لخطابه فى الكنيسة وكأنه حدث بعد وصوله إلى المطار مباشرة، مع أنه لم يلق خطابه فى الكنيسة إلا فى يوم تال.

مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية
من أجل السلام

4

يكانفس لا تبراعى
السفير حسين ذوالفقار صبرى

دار الخيال

(١)

صاحب هذه المذكرات هو السفير حسين ذو الفقار صبرى، ظل لفترة طويلة بمثابة الرجل القوى في وزارة الخارجية المصرية، وكان بمثابة الرجل الثانى على الدوام فى هذه الوزارة طيلة تولي الدكتور محمود فوزى منصب وزير الخارجية، وقد عُين نائباً لوزير الخارجية وعضواً بمجلس الوزراء منذ أكتوبر ١٩٥٨ وحتى ترك هو والدكتور فوزى معاً مسئولية الوزارة (مارس ١٩٦٤) ليخلفهما محمود رياض كوزير للخارجية فى وزارة على صبرى الثانية، على حين أصبح محمود فوزى نائباً لرئيس الوزراء، بينما عين حسين ذو الفقار صبرى مستشاراً لرئيس الجمهورية للشئون الخارجية بدرجة وزير، وظل يشغل هذا المنصب طيلة الفترة من ١٩٦٤ حتى ١٩٧١.

من المهم الآن أن نذكر أن حسين ذو الفقار صبرى هو الشقيق الأكبر لعلى صبرى، ومن مفارقات القدر أن حسين ذو الفقار صبرى كان ذا ميول شورى مبكرة، وهو الذى اشترك مع عبدالمنعم عبدالرءوف فى محاولة تهريب عزيز المصرى بالجو للسفاح مع الألمان.

وقد وصل السيد ذو الفقار صبرى إلى عضوية مجلس الوزراء بعد وصول شقيقه الأصغر، فقد عُين نائباً لوزير الخارجية فى أكتوبر ١٩٥٨، على حين كان على صبرى قد وصل إلى منصب وزير الدولة وحددت اختصاصاته فى سبتمبر ١٩٥٧. ومع أن على صبرى لم يتول شئون وزارة كبيرة مهمة كحسين ذو الفقار صبرى، إلا أنه سرعان ما وصل إلى رئاسة الوزارة نفسها (سبتمبر ١٩٦٢) بمسمى رئيس المجلس التنفيذي، على

حين ظل حسين ذو الفقار نفسه نائب وزير، فلما شكل على صبرى وزارته الثانية (مارس ١٩٦٤)، اختير رياض ليكون وزيراً للخارجية وارتقى الدكتور محمود فوزى ليكون نائب رئيس وزراء، وترك حسين ذو الفقار صبرى منصبه فى الوزارة ليعمل مستشاراً لرئيس الجمهورية بعيداً عن الوزارة نفسها (هكذا كانت الطبيعة التوفيقية لتداول السلطة فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر .. مسميات كثيرة وازدواجيات واضحة ونتائج قليل بالطبع) . ولعل قراءة وتأمل مضمون المذكرات التى بين أيدينا تعطينا فكرة عن أسباب سبق الشقيق الأصغر للأكبر، وقد كان هذا للأسف الشديد بسبب تمتع الأكبر بمزايا لم تكن مطلوبة من الموضح والصراخ والصراخ كذلك، فضلاً عن الرؤية والرأى، ولكن هكذا كانت تمضى الأمور، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

قبل أن يتولى حسين ذو الفقار صبرى المسئوليات المتقدمة فى جهاز الخارجية المصرى كان قد عهد إليه بمهمة تمثل مصر فى لجنة الحاكم العام بالسودان من ١٩٥٣ وحتى ١٩٥٦، حيث أعلن استقلال السودان (!!) وقد كانت لحسين ذو الفقار صبرى جهود واضحة فى معالجة قضية السودان، ولكنها بالطبع كانت شأن كل جهود الثورة فى ذلك الوقت واحدة من جهود متعارضة ومتنافرة وشخصانية، ويستطيع القارئ لمذكرات صلاح نصر التى عرضناها فى الباب الثانى من كتابى «مذكرات قادة المخابرات والمباحث» أن يدرك مدى صحة ما أقول. وقد تناولت هذه الجهود أيضاً كتابات مذكرات محمد نجيب وعبد اللطيف البغدادي ومحمد جلال كشك وآخرين.

وقد كتب حسين ذو الفقار صبرى نفسه بعض معلومات عن قضية السودان فى كتاب بعنوان «ثورة يوليو واتفاقية السودان»، ولكنه - أى الكتاب - لا يتمتع بالشراء الأدبى والتعبيرى الذى يتمتع به الكتاب الذى بين أيدينا فى هذا الباب.

بعد استقلال السودان عاد حسين ذو الفقار صبرى للعمل فى القوات الجوية وليس عندي كثير من المعلومات عن هذه الفترة القصيرة، ولكن من الواضح بل ومن المتوقع أنه لم يحقق وفاقاً مع المشير عبد الحكيم عامر ورجاله فى القوات المسلحة .. ومن المعجب أن حين ذو الفقار صبرى كان فيما يبدو حريصاً على العودة إلى القوات الجوية، وربما لم يكن أحد لجحاريه فى هذا الحرص إلا زميله عبد المنعم عبد الرؤوف، وقد سجلت تفاصيل هذه الجزئية فى الباب الرابع من كتابى «مذكرات الضباط الأحرار» الذى عرضت فيه روايات عبد المنعم عبد الرؤوف عن إلحاحه فى فترة مبكرة فى العودة إلى القوات الجوية على نحو ما عاد زميله حسين ذو الفقار صبرى، وكاننا بسبب ميولهما الثورية بل ومحارساتهما الثورية قد أبعدا عن هذه القوات منذ ما قبل الثورة!

يعود مولد حسين ذو الفقار صبرى إلى عام ١٩١٥، أى أنه كان يكبر قادة الثورة، ويسبقهم فى التخرج، فهو من جيل عبدالنعم عبدالرؤف ومحمود رياض ومحمد فوزى ومحمد حافظ إسماعيل.

تولى أيضا مسئولية موازية فى الاتحاد الاشتراكي وعُين أميناً للعلاقات الخارجية بالاتحاد الاشتراكي (١٩٦٥ - ١٩٧١)، وهو ما كان يوازي منصب الوزير طبقاً للنظام القائم فى ذلك الوقت.

مثل حسين ذو الفقار صبرى بلاده فى مؤتمرات منظمة الوحدة الأفريقية على مستوى وزارة الخارجية وكأنه كان السابق على محمد فاتح ويطرس غالى فى هذا المجال.

فى عهد السادات عمل صاحب المذكرات سفيراً فى سويسرا منذ ١٩٧١ وحتى ١٩٧٥، أى حتى بلغ الستين فيما يبدو .

(٢)

يصور هذا الكتاب تجربة ذاتية من أروع التجارب فى أدبنا العربى المعاصر كله، إذ كتب فيه مؤلفه ذكرياته عن حرب ١٩٦٧ والأيام السوداء التى عاشها أثناء اندلاع الحرب، حين كان قد سافر قبيل الحرب مباشرة مبعوثاً من الرئيس عبدالناصر للقاء برؤساء دول أمريكا اللاتينية، فإذا الحرب تندلع وهو ما بين البرازيل والأرجنتين، وإذا الحرب تنتهى إلى ما انتهت إليه فإذا هو مضطر إلى أن يلغى زيارته لشيلي، وأن يعود من المكسيك إلى باريس ثم القاهرة.. وقد كتب صاحب هذه المذكرات ما كتب فى هذا الكتاب المهم والحى والحيوى بعد أن انقضت سنة أو أقل على هزيمة ١٩٦٧، ونشره على حلقات فى مجلة «المجلة» حين كان يرأس تحريرها أدبنا العظيم الجليل يحيى حقي، وقد أثر أن يجعله فصولاً وأن يجعل كل فصل ليوم من الأيام، وهكذا أصبح هذا الكتاب نموذجاً عربياً لليوميات الكلاسيكية فى أدب الترجمة الذاتية، وإن كان قد تناول أياماً معدودة وقليلة، فقد احتوى الكتاب أحد عشر فصلاً لأحد عشر يوماً من بين الخامس من يونيو ١٩٦٧ وحتى الخامس عشر من يونيو ١٩٦٧، ثم كان الفصل الثانى عشر بعنوان «وتمر ليال وأسابيع وشهور»، ثم القصل الثالث عشر وقد جعل عنوانه ١٣ - ١٧

أغسطس ١٩٦٨، وفي هذا الفصل الأخير تحليل رائع ورأى ناصع لكل ما اعتري حياة الثورة السياسية والعسكرية حتى تلك الأيام، وقد رفع فيه المؤلف عقيرته بما كان الآخرون يخشون التصريح به. وإذا بمثل هذا النص الذي يضمه هذا الكتاب يصبح بمثابة نص نادر في تلك الفترة، ولست أدري كيف أن نقاد الأدب وكتاب التاريخ لم ينتبهوا إلى ما فيه من آراء صريحة وتحليلات ناصعة الصواب إن صبح هذا التعبير، فإن لم يصح فهي واضحة الصواب على الأقل.

والطبعة التي بين يدي هي الطبعة الثانية، وقد صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب والنشر سنة سبعين (١٩٧٠)، وقد قدم المؤلف لهذه الطبعة بمقدمة ثانية (بالإضافة إلى إتيانته مقدمته الأولى فيها) وقد شكر في مقدمته الثانية كل الذين نفضلوا عليه بكلمة أو تعليق، ورحب بمبادرة الدكتورة سهير القلماوى رئيسة مجلس إدارة مؤسسة دار الكتاب العربي بإصدار طبعة ثانية من الكتاب!

وقد كان صاحب هذه المذكرات من الذكاء بحيث وضع قبل مقدمتيه الثانية والأولى تقديم الأستاذ يحيى حقي لكتابه، والحق أن التقديم شأنه شأن كل آثار يحيى حقي قطعة منتقاة من الأدب الرفيق، والخلق الرفيع، والفن المصنفي، والإنسانية الحانية الوقورة.

وسوف نتناول في هذا الباب هذا الكتاب المثرى، ولكننا قبل أن نمضى في قراءته وتحليله وعرضه ونقده سنتعرف بأن هذا الكتاب في حاجة إلى إعادة كتابة من أجل ترجمته إلى اللغة المعاصرة، فهو حافل بأوابد الألفاظ والتراكيب، وسوف يسأل سائل الآن عن هذه الأوابد وقد يظن ظان أنها الغرائب، نعم هي الغرائب، وقد حرص المؤلف على تنقيح هذا الكتاب بما أمكنه أو بكل ما أمكنه من هذه الألفاظ الغريبة بينها بئاً في سطورهِ وعباراته، وليس هذا بالمجال الذي أستعرض فيه هذه الألفاظ، فسوف يعدها القارئ بصورة واضحة جداً في العبارات التي سوف ننقلها من الكتاب.. هذا عن الألفاظ، أما عن التراكيب اللغوية فإنها بحاجة هي الأخرى إلى إعادة الصياغة، وخصوصاً حين يتعلق الأمر بأزمئة الأفعال، فنحن نرى هذا السفير العسكري ورجل الدولة المتميز حريصاً لأسباب بلاغية وتعبيرية وموضوعية على أن يستخدم زمن الفعل المضارع في الوقت الذي يكون واجباً فيه عليه أن يستخدم الزمن الماضي، وهو يستخدم الزمن الماضي حين يكون اللجوء إلى صيغة المضارع هو الأحرى. ومع هذا فلا بد أن أعترف أنه يلجأ لهذا لضرورة حقيقية، ولكنني من ناحية أخرى أعرف تمام المعرفة أن اللغة المعاصرة قد حلت

هذه الضرورات بحلول لغوية أخرى، وتلك سنة التطور والحياة.. ولعلنى أقرب الأمر إلى القصارى فأقول إن حسين ذو الفقار صبرى كان لا يزال يعول على التلخيص فى عصر الفاكس، وكان لا يزال يعول على التلغراف فى عصر التليفون المحمول، كأتى أريد أن أقول إنه يستخدم وسيلة مشروحة وصائبة ولكن غيرها من الوسائل أصبح يحقق الهدف الذى تحققه بقدر أكبر من السهولة واليسر بل ومن إجادة التعبير كذلك.

وعلى هذا النحو يمكن لى بدون تجاوز أن أكرر القول بأن كتاب حسين ذو الفقار صبرى أصبح اليوم بعد مضى ثلاثين عاماً على كتابته فى حاجة إلى إعادة كتابة، ولست أبالغ فسوف يرانى القارئ حين أشهد بنص من نصوصه وأنا مضطر إلى شرح بعض ما فى النص نفسه!!

(٣)

يشير صاحب المذكرات إلى ملخص قصة التجربة الذاتية التى تناولها هذا الكتاب فى مقدمته فيقول :

١ فى ظهيرة الاثنين الموافق ٢٩ مايو ١٩٦٧، صدرت الأوامر عاجلة بالسفر خلال ٤٨ ساعة - بل قيل لى ٢٤ ساعة إن أمكن - إلى أمريكا اللاتينية فأتصل أولاً بالمسؤولين فى الدولتين الممثلتين فى مجلس الأمن حينذاك - البرازيل والأرجنتين -، ثم بكبيرات دولها الأخرى، فأشرح تفصيلاً موقفنا من أزمة الشرق الأوسط التى كان قد مضى عليها عشرات الأيام، فسرى اعتقاد أن ذروة الفترة الحرجة، التى كانت تنذر بالتفجر إلى صدام مسلح، قد ولت، وأنا أمام مرحلة طويلة مضنية من مقارعات كلام سوف يشتد أوارها فى أروقة ومجامع المنظمات الدولية، وفى قاعة مجلس الأمن بخاصة.

وفى نهاية هذه المقدمة (التى كتبها فى يونيو ١٩٦٨) يلخص السفير صاحب المذكرات شعوره عن هذه الرحلة وعن تلك الأيام بقوله :

«ثم إنى أرى الآن ما صورت لم يكن مجرد تسجيل لتجربة اليمه وإنما محاولة استنفاة لهمة الوطن بأن أكشف عن أبعاد المهانة التى إليها تردنا إذ استهنا بالمصير، وغفلنا عن أن العدو متربص بنا أبداً.

فلعل ما سطررت أن يستنير كل مواطن، إيقاناً منا جميعاً بأن لا سبيل إلى خلاص.. لا سبيل إلى حياة.. إلا أن نتمثل باستبساله حكيم بن جبلة العبدى، في فتنة البصرة قبيل يوم الجمل، إذ قطعت رجله فأخذها وزحف بها على من ضربه فصرعه وقال:

يانفس لا تراعى إن قطعوا كراعى إن معى ذراعى

فمن قوله رأيت أن أستعبر لهذا الكتاب عنوانه .»

(٤)

لا أظن أن القارئ بحاجة إلى الإكثار من الحديث عن جدوى هذه الرحلات الدبلوماسية الموجهة إلى دول صديقة أو شبه صديقة في وقت الأزمات الدولية التي تكون بلادنا طرفاً فيها. ومن حسن الحظ أن صاحب هذه المذكرات لم يقدم بمقدمات طويلة لهذا المعنى، ولكنه أشار إليه بالطبع في كثير من فقرات مذكراته ملقياً ببعض الخبرة الشخصية في هذا المجال. وهو يتحدث - على سبيل المثال - بإجمال عن جدوى مناقشته ولقاءاته فيقول :

«هؤلاء جميعاً أمضيت معهم ساعات طوالاً، أناقش وأجادل، وأدفع الحجة بأخرى. إنها مواضيع جادة، مصيرية بالنسبة للأمة العربية ولكن غالبيتهم الكبرى لا سبيل إلى عقد الاتصال الإنساني معهم كقاعدة لازمة لأى تنافس فكري إلا عن طريق الممازحة، والنقطة المفاجئة إلى نوادر ينسبط لها القلب فتكسر الحدة إذا ما بدت لها لمعة خطر حين تتصاعد المناقشة فتندثر باحتدام. ثم أعود متلمساً مداخل جديدة أو موالج موانية، أو أكتفى أحياناً بالوقوف مع البعض على الشارف، فالنظرة من بعيد، وإن أهملت التعرض لتفاصيل لها أهميتها البالغة، إلا أنها تعين على بيان التداخل العضوى لأبعاد المشكلة ككل، فهبطت بتلك العناصر التي تنح فيها بالتهويل والولولة إلى مقاييس صادقة من نسبة موضوعية مترابطة».

كما يعترف صاحب هذه المذكرات بأنه كان من الصعب عليه أن يناقش المسئولين الأجانب الذين قابلهم في موضوع قرارنا بإغلاق خليج العقبة أمام مرور السفن

الإسرائيلية بنفس القوة التي يناقش بها في العادة، وهو يدلنا على أن هذا الموضوع بالذات كان يتكرر ويلج على مناقشاته ولفاءاته مع المسئولين والدبلوماسيين الأجانب:

«ولكن موضوع العقبة والممر من مضائق تيران هو الذي كان «بغسطس ويقب» كما يقولون، وقد استنفدت معهم مناقشة جوانبه جميعاً، هذا يعني الوضع القانوني البحت، وذلك يعجب إذ يكشف أنه أثر من آثار حرب السويس، أسخ عليه فوسنر دلاس، بشفره الصلف، صفة الدولة، فالعدوان كالجريمة لا يفيد أو هكذا يجب أن يكون، وغيرهما يتحسس لحق الدول المشروع في رفض عنت استبدت به دولة كبرى أصابها غطرسة من قوة غاشمة، دولة كبرى عاثوا سنها كثيراً في الماضي، ومارلوا في حبالها، وقد استحكمت مرائرها، يتخبطون...».

كذلك فإنه في وسط حديثه يكرر الحديث عن الأهمية القصوى للاتصال المباشر مع الجهات الرسمية وغير الرسمية في هذه الدول فيقول:

«فلو أن رسولا خاصاً أوفد إليه وقتذاك من القاهرة - أي رسول - فتتابع الصحافة أخبار اتصالاته، لكان هذا وحده كفيلاً بتبديد الكثير مما علق بأذهان العامة، فإن شعوب أمريكا اللاتينية، ورجالانهم في الحكم قبل شعوبهم، عاطفيون، إنهم أحفاد الأسبان الذين اختلطت دماؤهم وتشابكت أمزجتهم بدماء العرب خلال ثمانية قرون أو يزيد».

وفي موضع آخر من هذه المذكرات يتحدث صاحبها عن خاصية أخرى في هذه الشعوب اللاتينية، وهي وجود كثير من فقهاء القانون الدولي فيها نتيجة الخبرة بالتزاعات التقليدية التي تفاقمت بين هذه الدول بعضها وبعض، ومن ثم يصبح هناك من يفهم لغة حديثنا عن حقنا المسلوب، ويتحيز للمحق الظاهر فيها الذي كاد يضيع بسبب الدعاية الصهيونية المركزة:

«لهم إن الخلافات التي استمرت يوم دولهم لمئات السنين دفعت بأبحاث القانون الدولي عندهم إلى ذروة من عمق وشمول، فصار لهم في هذا المجال أساطين، ومن اليسير لمن كان على حق أن يكتسب منهم أعداداً إلى جانبه، وخاصة إذا طرحت القضايا على مهل عن طريق مداومة الاتصال وليس اعتساراً في أوقات الأزمات، وأن أصوات أولئك المثقات لتنمتع بوزن لا يجزئ ساستهم، مهما تعرضوا إلى ضغوط، على تجاهله تماماً، فهو الجبال الذي يتأكد لهم فيه على غيرهم تفوق وصيت وعلو شأن».

(٥)

وبعيني بصفة خاصة في حديث صاحب هذه المذكرات عن مهمته أن أعترف وأن أشيد بأنه كان بجيد تصوير الجو النفسي لما يعتمل في ذهنه من أفكار ومشاعر قبل كل لقاء من هذه اللقاءات المتعددة ذات المستويات المختلفة، وهو ينحسب للقاء الصديق الأقل صداقة وأكثر مما ينحسب للقاء الصديق الذي يظنه مطلق الإخلاص، كما أنه ينظر بدقة شديدة إلى الأرضية التي يتكلم وهو مستند إليها،

وقد نصح صاحب هذه المذكرات في التعبير الدقيق عن كل هذه المشاعر المتباينة بإجادة واضحة، ويكفي أن أصور للقارئ - على سبيل المثال - ما قدم به للقاءه بوزير خارجية المكسيك، وهو اللقاء الذي كان سيتم بعد أن تأكدت هزميتنا في معركة ٥ يونيو، ونحن من خبرتنا النفسية نعرف أنه في لحظات القلق التي تعترى المهزومين يصبح الإنسان أكثر حرصاً على الترتيب لحديثه مع الآخرين، وكأن حديثه هو الكفيل بالهزيمة أو بمحوها..

وعلى هذا النحو يصور حسين ذو الفشار صبري الأمور في مذكراته عن ذكرياته حين أتى ذكر استعداده لمقابلة وزير الخارجية المكسيكية وهو أول مشول يلقاه بعد أن تأكدت هزميتنا:

«فترة من هدوء فيصفو الذهن، وتفتح أسامه احتمالات ما قد يثيره الجانب الآخر من تساؤلات أو اعتراضات، فلا يؤخذ المرء على غرة، أو أن يرتج عليه، أو أن يتعثر به لسان، بل مسارعة بالعناصر الحاسمة من حجة وسبب ودليل إلى إجابة، دون تخليط بين ما يلزم وما لا يلزم، وإلا تحادر (أي انزلق أو تطرق) القول إلى الحاجة، حرية بأن تكون السداد بعينه، لو أن صانها اللسان إلى حيث يكون لها وضع فوق».

(٦)

ولا يبخل صاحب هذه المذكرات علينا بالحديث عن معاناته من بعض المسئولين الذين كان عليهم أن يقابلهم ومن بعض المساعدين الذين كانت الظروف تفرض عليه أن يواجههم، ونحن نرى هذه المعاناة واضحة غاموض الوضوح وهو يتحدث عن أحد كبار

مساعدى وزير الخارجية البرازيلى نبتو، فيذكر أن حوار مع الوزير كان يمكن أن يفضى
فى أخذ ورد هينين لولا معاناته من هذا المساعد، وهو بصفه فيقول :

«عاد لثو من زيارة إلى إسرائيل، متشياً لفخامة ما أحيط به من حفاوة، متفخ الأوداج
لكثرة ما صب فى أذنيه من مداينة ونفاق».

اقاطعنى مرة بعد أخرى، ولم يتورع عن مقاطعة رئيسه الوزير نفسه، ويبدو أنهم كانوا
قد أحسنوا تلقينه، فهناك كلمات معينة إذا دقت أذنه طن لها لسانه بهدير متصل من
حجج كئلك التى تساق إلى العامة فى صحف الإثارة الرخيصة وكان سغيرنا قد نهينى
إلى ميوه. ثم أوجست خيفة، والحق يقال، حين طالمنى بقامته الصلقة، وأطل على بهامة
تتحرك بحساب وفى استعلاء، مهابة مظهر أوجت إلى برجاجة مخبر، ثم إنه كان برنو
من حين لآخر إلى مقعد الوزير بنظرة طموح لا يخفى مغزاها، فقد قيل إن الأمريكان قد
أضجرتهم مواقف الوزير منذ أشهر قليلة فى مؤتمر «بوتنا دل است» بالأوروغواي، ثم إن
هذا الأخير قد جاوز السبعين وصاحبنا لا يزال فى عتفوان عمره».

«كنت قد توجهت بحواسى جميعاً إلى الوزير، محاولة منى أن أفرض على الاجتماع
روحاً من ثنائية حوار، فيحاشى أى من الحاضرين - إذا كان يتمتع بمرق من انضباط - أن
يقحم نفسه علينا، إلا أن تمن له ملاحظة فيهمس بها إلى أذن الوزير، ولكن صاحبنا
كبس علينا يشطح مرة ويتطح أخرى، فأرده فى أناة وصبر إلى أن كشف لى كلامه عن
سطحية تفكيره، فاستدرت أواجهه، ولكنى واجهته بخبث فوق فى الفخ وطاح بنطح لى
فراغ، لم أحاول أن أردّه كما كنت أفعل من قبل، بل أن أحبك له إجاباتى فى صورة
نساؤلات، ألوح له بها فى إلحاح فاستدرجته إلى الكشف عن جهله الثام بقضية فلسطين
ووقائهم وملايسانها، وأبين تقع المناطق منزوعة السلاح وما آلت إليه وكيف وبفعل من
ومتى، وأربط بين الأحداث وأحكام اتفاقيات الهدنة، فأتساءل عن البنود وتفسيراتها
المختلفة، محاول جهده أن يتملص وقد أصابه عى قائل لا يتفق مع الصورة التى أراد أن
يكونها كغيبه، فاندفع بهاجم موقفنا من موضوع العقبة، فجذبتة إلى ساقشة القواعد التى
يستند إليها القانون الدولى من حيث حق المرور فى المضائق أى كانت، وسألتة فجأة عن
تلك التى تضمنتها حيثيات حكم أصدرته محكمة العدل الدولية، فإذا به بجعل أنها
فعلت حين عرضت عليها مشكلة مضائق كورفو، فقفز إلى بر اعتقد أنه أمان، وألح إلى
قرارات المؤتمر جنبف عام ١٩٥٨، فحاصرته من خلالها حتى حصرته، فقد عجز عن أن

يفصل بالتحديد القواعد التي برزت وتعمدت خلال مناقشات المؤتمر، ناهيك عن مختلف التفسيرات القانونية التي يمكن إحاطتها بها».

«وقد كان لصاحبنا بقية من ذكاء أوحى إليه آخر الأمر بأن السلامة في السكوت فزم على شفيه، ولكن لم يفته أن يصغر خذه إبقاءً على مظهر مصلوبٍ هو رأس ماله الوحيد بعد كل».

وبعد فقرات يصف صاحب المذكرات تبدل موقف هذا المساعد إلى التقيض تماماً حين صدرت من صاحب المذكرات عبارة عابرة اعتبرها هذا المساعد دعوة له لزيارة القاهرة :

«ولما انتهت المقابلة فصافحت الوزير مودعا، كدت أن أصطدم بمساعده ذلك الذي ألتخت مناقشتنا الحامية، فأسكت بمساعده فجأة وسألته : ألا تزور القاهرة؟ فانفرجت أسنانه، ولأول مرة، عن ابتسامة عريضة، ودارت في رأسه خيالات عن استقبالات حافلة، ومقابلات وأحاديث واهتمامات بشخصه، سوف يبرق بتفاصيلها إلى صحافة بلاده، فترفع من مكانته وتدعم أسهمه، وأقبل يشد على يدي بحرارة دافقة، إنها دعوة إذن، إني اعتبرها كذلك» فأجبه «طبعاً ولسوف تسعد بلقائك»، واستمر يهز يدي هزاً حتى خشيت أن تنخلع».

«وفي المساء، رأيتاه يدخل علينا في السفارة الجزائرية، حيث اشترك السفراء العرب في إقامة حفل استقبال ينح لي فرص الاتصال بالسفراء الأجانب على أوسع نطاق، وكان قدومه المفاجئ مثار دهشة وتعليقات، فهو يترفع عن مثل هذه الحفلات العاسية، ولكن كلمتي العابرة التي اعتبرها «دعوة» فتشبت بها، كانت قد حركت في نفسه نوازع مهمة من طموح أسمى».

بروي حين ذو الفقار كل هذا ولكنه بعد توالي الأحداث على نحو ما عرفناه بقف متأملاً ومتسائلاً عن موقف هذا المساعد الآن بعد أن حاقت بنا الهزيمة:

«فما هو موقفه الآن يا نوري؟ أي نفع هذا يمكن أن تسبغه عليه زيارة للقاهرة الآن مسجاة بعد هزيمة مذهلة خاطفة؟ بل إنها فورة الحقد المكبوت نأراً لكبير من أشرار، فمرغ به، هنا في عقر دار أطماعه حين انطلق لسان من القاهرة دعي، يصلبه شواظاً من سخرية لاذعة، استناداً إلى مواقع من قوة كاذبة موهومة».

ويصدقنا صاحب المذكرات في كل ما يرويه عن لقاءاته بالمسؤولين، وهو لا يدعي أنه كان يستقبل استقبال الأبطال أو القائمين، ولا أن صيته كان يسبقه كما يسبق كينسجر (١) وإنما هو حريص على نقل التجربة الشعمورية بحذافيرها وبكل الصلوق الممكن، ونحن نراه حين يصف مقابلاته للرئيس البرازيلي وحرص ذلك الرئيس على التخلص منه مرة بعد أخرى وهو لا يجد أى حرج فى الاعتراف بكل هذا ويمحاوله هو كسب الوقت بالنشيب بالمقعد الذى يجلس عليه، وهو يتحدث أيضاً عن محاولة فرض حديثه على الرئيس مرة بعد أخرى إلى أن يصل إلى قوله:

«وأبقيت عندئذ أن رئيس الجمهورية ود لو أن تخلص من مقابلاتي حين علمت الإذاعات بأنباء الحرب، وكنت قد أبلغت فعلاً بتأجيل المقابلة مرة أخرى ولكنهم لم يجحدوا لأنفسهم مخرجاً آخر الأمر، فهي مقابلة سبق أن اتفق عليها منذ يومين، ولما حان الموعد المؤجل لم تأت السيارة التى كانوا قد وعدوا بأن تقلنى إلى مبنى الرئاسة، لولا «عدنان القدوسى» ذلك الشاب الفلسطينى المهاجر، الذى سارع إلينا من ضاحية بعيدة بمجرد أن انطلقت من الإذاعات أخبار الحرب، فدخل علينا وجسمه يستنفض جزعاً وحماساً، لولا سيارته الخاصة لما تمكنا من أن نصل إلى رئاسة الجمهورية فى الوقت المحدد».

«ولمحت بادرة من رئيس الجمهورية إذ يمد يده فيصافحنى إبهاناً بانتهاء المقابلة، بادرة لم يكن يسعى أن انجاهلها، ولكن هذا الإصرار من جانبه دفعنى فجأة إلى التصميم على أن أفرغ ما فى جعبتى».

وبعد فقرات استطرادية مهمة يلخص صاحب هذه المذكرات صدى هذه المقابلة فى نفسه فيقول :

«غادرت مبنى رئاسة الجمهورية البرازيلية متقبضاً متوتر الأعصاب، وهو أمر لم أتمرض له من قبل إلا فى النادر القليل».

«فلقد دارت المقابلة فى جو مشحون، أشعرت خللاً. بل منذ لحظتها الأولى، أنى قد نتحت دفائق من وقت رئيس الجمهورية أداء مظهرياً لوضع «مرسمى»، فلقد تحدث لها

مبعاد ولا مخرج لهم إلا أن تم وكفى، ويبدو أيضاً أنهم قرروا، إذ عجزوا عن التحلل منها، أن يستغلوا فرصة فيقرعوا أسماعى بخبر ذلك الجندى البرازيلى الذى قضى نحبه، فينخلع قلبى لتلك المصيبة التى أدى إليها اندلاع الحرب فى الشرق الأوسط^{١٨}.

«أما الركن الهام فى مثل هذه المقابلات، أن يجد المرء أذناً مصنية فقد كان معدوماً، أذان ست (يقصد أن الذين يسمعون ثلاثة لهم ست أذان) فى مواجهتى، ولكن أربعا منها قد صمت، والباقيتان يملكهما المترجم، وظيفتهما النقاط عجمة الكلام ثم إعادة تنسيقه فيعيد اللسان مفهوماً، عملية التهمة الدقائق المتاحة التهاما، فهى على أهميتها عائق مفرغ أضيق إلى جميع ما قابلت من حواجز، وقفت حائلاً بينى وبين خلق الاتصال الإنسانى الذى كنت أسعى إليه، والذى أعتقد أنه ضرورة لازمة فى مثل هذه الاتصالات^{١٩}.

ويبدأ صاحب هذه المذكرات فى التعبير عن قلقه من نتيجة حرب ٥ يونيو حين استمع إلى نشرة الثانية والنصف من إذاعة القاهرة فاذا به يسمع عن غارات لطائراتنا دون أن تحقق قصفاً جدياً :

«... وانطلقنا إلى الفندق، وكان عدنان قد أحضر معه جهاز استقبال فنلتقط إذاعة القاهرة، فلما كان منتصف الثالثة سمعنا فعلاً للحن المميز لنشرة أخبار الثامنة والنصف بتوقيت القاهرة، وحسب أنفاسى استمع إلى البلاغات الحربية التى تتابع صدورهما منذ الصباح، ثم أصابنى وجوم صدى عن الاستماع إلى بقية النشرة، ففادرت غرفة أبى شادى حيث كنا، وذهبت إلى غرفتى ألقى بنفسى على أول مقعد يصادفنى، ثم أقوم وأدور وأعود فأجلس، أدخلن سيجارة تلو أخرى، لم أسمع إلا كلاماً يتقصه التحديد، ثم لا شيء عن إغارات لطائراتنا على أرض إسرائيل، بل لا شيء عن قصف جوى لتجمعات العدو لماذا... لماذا... ثم لماذا؟^{٢٠}.

«ورفضت رفضاً باتاً أن تنجى بادرة من تفكيرى إلى أحداث ١٩٥٦، فأعتقد مقارنة ولو من بعيد، فهل يلدغ المؤمن من جحر مرتين.. إلا أن يخلط بين نوكل وتواكل^{٢١}.

«ومضيت أذرع الفرقة كالمحموم، أدوم مع حيرنى فلا أستقر طالما عجزت هى الأخرى عن أن تجد لنفسها محطاً^{٢٢}.

وربما يظل من حق القاري أن ألخص له ما يرويه صاحب المذكرات عن أحلك اللحظات التي صادفها في هذه المهمة، ولكنني لا أظنني قادراً على هذا من دون أن أقدم لهذا الحديث بطبيعة الجو المتفائل بل المغمم بالضاؤل الذي كان صاحب هذه المذكرات يعيشه وهو يظن وطنه قد حقق نصراً ساحقاً أودى بالعدو وقدرته، وهكذا فإن الوهم الذي نشرته وسائل إعلامنا كان قد طار بسرعة البرق ليسيطر على أجواء الدبلوماسيين العرب في أمريكا اللاتينية، وقد أثروا بالطبع أن يفرحوا بما أذاعته وسائل إعلام بلادهم على أن يأخذوا بما يرويه الصحافة العالمية.

٢ ... مع غروب شمس ٥ يونيو بتوقيت البرازيل وصل حسين ذو الفقار صبرى إلى ريو دي جانيرو فإذا السفراء العرب لا يزالون يعيشون لحظات الانتصار الواهم الذي نرأس إليهم من وسائل إعلامنا وهو يصف هذا الجو كله وصفاً بديعاً ومؤسفاً في ذات الوقت فيقول :

«وصلت بنا الطائرة إلى الريو مع غروب الشمس، فإذا بالمطار يجمع بالوفد المستقبلين، وقد بحث حناجرهم بهتاف كالصراخ، وانصدعت الجموع نحوى، ولكنني شعرت فجأة بشخص يطبق على ذراعي فيتأبطها في إصرار، وهمس في أذني بأنه من الشرطة السرية مكلف بحمايتي، ثم طالعني وجوه السفراء العرب وهم يحتضنونني واحداً بعد آخر، أساريرهم تنطق ببشر طاغ، وكأنما قلوبهم تكاد تقفز من بين ضلوعهم».

«بعد دقائق كنا مجلس جميعاً في مكتب أبي شادي بسفارتنا وتنطلق الكلمات وكأنها صواريخ الأعياد والأفراح، فيهتز لها جسد حسن السقا القائم بأعمال سوريا: «فصرنا حيفا وحطمتنا منشآت الميناء.. أسقطنا ٣٧ طائرة.. قواتنا تزحف مع العراقية نحو الناصرة».

«وأنظر من حولي وأنا لا أكاد أصدق، فيلوى فريد حبيب سفير لبنان رأسه في هدوء وتنفرج تجاعيد وجهه عن إسهامة هائلة: «أما نحن فقد أسقطنا ثلاثاً»، ويرفع من أصابعه ما يؤكد به الرقم المذكور».

«وسمعت أيضا عن احتلال القوات الأردنية لجبل المكبر، وأنها افتحمت القدس الجديدة، حيث يدور القتال عنيفاً في شوارع المدينة، وأن المدفعية الأردنية تذك نل بيب».

«وحانت مني التفاتة إلى حفيظ كرمان سفير الجزائر، جالساً في استرخاء بينما تلمع عيناه بريق النصر، فأشعر بطمأنينة غريبة. فهذا رجل لا يتأثر إلا بالواقع. نضاله داخل فرنسا نفسها معروف مشهود، حتى أنه حظر عليه، ولمدة طويلة بعد الاستقلال دخول الأراضي الفرنسية، أما صديقنا فنيح فهو لا يهدأ بمكان.. يخرج ويدخل ثم يعود فيخرج وقد تشبخت أساريره عن سعادة غامرة».

«وأجذبه إلى فأهمس في أذنه «وماذا عن الجبهة المصرية؟» فقد تبدد قلقي أمام تلك المظاهرة المنصبة المتجددة من مشاعر أطلق لها العنان، ولكن والحق يقال لا يزال بنخر في قلبي شعور مبهم ترسب عن تلك الحيرة التي تملكتني حين استمعت منذ ساعات في برازيليا إلى إذاعة القاهرة، وعلمت به الآن شائبة من بعض خجل - جميع تلك الانتصارات بطول الجبهات العربية دون مصر؟ لاشك أن إسرائيل قد حشدت قواتها جميعاً على جبهتنا، فالانتصار فيها كفيل بتحقيق المكسب لها آخر الأمر».

«وكان أبو الخير مستشار سفارتنا قد أقبل علىّ هو أيضاً، وظهر الجد على وجهه فنيح «لقد تخطمت القوى الجوية الإسرائيلية في هجماتها على مصر.. انتهت.. لم يصبح لها وجود.. الرئيس جمال عبدالناصر أصدر أوامره إلى الجيش بالزحف إلى تل أبيب».

«وهز أبو الخير رأسه مؤكداً: «انتهى الأمر! افتحمت مدرعاتنا خط الحدود ونوعلت عشرات الأميال.. هناك نصريح من ليفي أشكول نفسه بأن القتال يدور حالياً داخل إسرائيل في ثلاث مناطق على الأقل..» «وحاول فنيح أن يكتف ضحكة فوقرت في حلقة: «ألا نقابل بعض الصحفيين؟ جمعت لك نخبة منهم، ثلاثة أو أربعة..».

«وقلملت فإن من طبعتي الحرص في مثل هذه المواقف، حتى فيما بيني وبين نفسي، فأرفض الانزلاق إلى تفاؤل ولو أجمعت البشائر بأن ما يرجوه قلبي قريب التحقيق، بل أفضل أن أسكب بحماح مشاعري كأنما بأخمة مشدودة، حتى تبين النتائج فتصبح واقماً لا مرد له! ولكن حسن السقا القاسم بالأعمال السوري لا ينسى عن التعقيب على أخبار انتصاراتنا المزعومة: «وهل نتخلى أمريكا عن إسرائيل هكذا؟ هل تركها تتحطم وتنهار؟».

جملة أثارت شكوكي أول الأمر حول جدية البيان الأمريكي بالتزامهم الحياد، ولكنها شكوك سرعان ما تبددت تحت طرقات الكلمات وهي تتردد مرة بعد أخرى، فيستمد رنينها قوة من رجوع صداها، وتستدعى الشكوك إذ نتراقص أمام مخيلتي مظاهر تفتت الوجود الصهيوني الذي طالما تمينا انحصاره عن أرض فلسطين^٩.

«وحدث ما لم يحدث لى من قبل، فطلوحت بالحرص بعيداً، وقد سرت إلى العلوي^{١٠}.

«وخطوت إلى السقاعة التي اجتمع فيها الصحفيون، أنصنع تواضعاً لا أشعر به وأنا أحيمهم فأتخذ لنفسي مقعداً، وكنت قد تحسرت على تلك الجملة التي ألقيتها في الصباح على رئيس الجمهورية، فصد نفسه عن أن يسمعها، فحرام أن تضع، إنها المدخل السليم إلى نصريحات الليلة، والتي سوف تقرأها ريو جميعاً صباح الغد، ريو مدينة السهو الصاخب، والسامبا والرومبا.. فليرقصوا حتى الصباح! وليغترش شبابها رمال الكويابكانا طيلة الليل فتنتطبع على صفحاتها آثار المناغشات الخفيفة هنا والدعس المتصل هناك، فلتفعل ريو دي جانيرو ما تريد، هذا المساء وكل مساء! إنما موعدى معكم جميعاً على صفحات الجرائد في الصباح!»^{١١}.

«سادتي رجال الصحافة، تعلمون أنني أتيت إلى البرازيل في مهمة سلام، ولكن إسرائيل اختارت الحرب، فهي الحرب الشاملة إذن!»^{١٢}.

«ولمحررت الأفلام نلتقط كلامي أو نسجل نقاطا، وعجبت لرئيس الجمهورية كيف فاته أن يتذوق حسن سبك العبارة، ولكن لا محل للأسف، فهذا شأنه، «ذنبه على جنبه»^{١٣}.

(٩)

وعلى الرغم من أن كفة الحرب كانت قد بدأت تميل لصالح إسرائيل، إلا أن لقاء صاحب هذه المذكرات بالرئيس الأرجنتيني أفلح في طمأنته تجاه موقف الأرجنتين من القضية، ولو أن مثل هذه الطمأنة قد ذهبت أدراج الرياح حين وقعت الواقعة، وعصفت بكل ما من شأنه أن يرفع من أسهم قضيتنا في أي محفل دولي، ولكن الدرس الظاهر من

أهمية هذه المذكرات ولجأها في تحقيق هدفها بظل بارزاً حتى مع ما يرويه صاحب هذه المذكرات بقلق عن نهاية لقائه بالرئيس الأرجنتيني، تأني النصيحة بأهمية الاستمرار في الاتصال المباشر بين الدولتين الصديقتين على لسان الرئيس الأرجنتيني «أوغينيا» نفسه حيث يادر سفرنا بالقول:

«نعم.. نعم.. إننا نندار من الأمر مع إخواننا البرازيليين من حيث جوانبه جميعاً، ولسوف يكون مندوبنا في مجلس الأمن تحت تصرفكم فيما يعن لكم من آراء، فأرجو أن يظل وفدكم هناك على اتصال وثيق به، كما أرجو أن نرفعوا للرئيس جمال عبدالناصر عقيق شكري لمبادرته هذه، فليس مثل الاتصال الشخصي عاملاً فعالاً في توضيح الأمور وشرح ما يلابها من أسباب ربما خفيت علينا بعد المسافات وتذرة الاتصالات، ثم إننا أقرب إليكم بما نظنون، فلدينا جالية عربية هي محل كل تقدير».

وبعد ست صفحات من شروء صاحب المذكرات في شأن هذه الجالية العربية فإنه يواصل حديثه إلينا وبورد رده على الرئيس الأرجنتيني بقوله:

«سبدي الرئيس، لا تحدثني عن الجالية فإنها رباط ولاشك ولكن ما أوهاه إذا قيس بثلث القيم المشتركة التي هي الأصول الوجدانية لشعبنا».

(١٠)

ويبدو صاحب هذه المذكرات في غاية الشجاعة والإخلاص لوطنه وهو حريص على أن يهاجم بعض رجال الإعلام المتعالمين الذين أودوا بالأمانة الوطنية، وساقوا الشعب والقيادة إلى اعتناق معادلات ظاهرها الصواب وهي حافلة بالباطل والخراب، وهو بصف سلوكهم هذا بالتزدي وبالتفاق .. ونحن نراه حريصاً على هذا التوضيح والتصحيح في هذه المقالات والمذكرات التي لن تحظى بما تحظى به الصحيفة اليومية أو المقال الأسبوعي . ولكنه حريص على إرضاء ضميره دون أن يحسب حساباً لسطوة هؤلاء في الوقت الذي كتب فيه مذكراته :

«كلاً! ليس هدفى إثارة مكان من مواقع .. وإنما أن نهيب بكل ذي رأى من مواطنين ألا يتردوا مرة أخرى إلى اعتناق تلك المعادلات التي ينتق في ديجها من يدعون العلم من

رجالالات الإعلام، يتصاعدن بفصاحة متملقين الأهواء والآمال المطلقة، فتنساق من خلفها وكأنما هي المسلمات المنزلة - استغفرك ربى ١ - لا يأتبها باطل من أى جانب كان! ٢.

«وإلا فلا نلومن إلا أنفسنا إذ تدق مرة أخرى ساعة المواجهة مع العدو الإسرائيلي، إنها مواجهة حتمية، آتية لا ريب فيها، لا مهرب لنا منها إذا أردنا لأمتنا العيش والازدهار».

«كلام أسوقه إذ ألحظ، والعين آسية، شعارات جديدة، يسارع القوم من حولها متزاحمين، مشرنية أنظارهم، نذيراً بأن سوف ترقى إلى مرتبة قدسية من مسلمات، هي أصنامنا الجديدة، نخر أمامها ساجدين، مشلعة لسحرها مداركنا، لا يتحرك لنا لسان من فرط رهبة إلا بالنسيج، ولا تطرف لنا عين من فرط نخشع وكأنما قد حط عليها حجاب حاجب فلا تنجاسر إلى استطلاع ما قد يكون فوقها من آفاق، ونفوص حيث تلبث بنا الفكر إلى أغوار الجمود، أو ربما حاولنا أن ننطلق.. ولكن الرؤية إذا ما أغبشت (أى أصابها الارتباك والضباب) لحرية (أى كفيلة) بأن تحيد بأقدامنا عن الجادة إلى مناهات الضياع، أو تتردى بنا إلى مهالك من زلل ملج».

وهو على سبيل المثال يقدم بعض المسلمات التى بدأت تشيع فى ذلك الوقت ويبدأ فى توجيه انتقاداته لها فيقول:

«سمعت من يقول إن الوقت فى صفنا وليس فى صف إسرائيل، وأخشى ما أخشاه أن يتحول هذا القول إلى شعار ثم إلى مسلمة نستقيم لها.. فهل هناك أقوى من الزمان حليفاً؟».

«الوقت! ولكن ما هو الوقت؟ أليس حركة زمان.. شمس تشرق ثم تعود فتغرب.. أيام تمر وأسابيع تمضي فننسحب من خلفها الشهور والأعوام» كلا أى أبناء وطنى! ليس هكذا يكون حساب الوقت فى هذا العصر الذى نعيش، إنما نحول مفهومه إلى كميات إنتاج، إلى عمل يؤدي بمقاييس من دقائق وثوان، بل وكسور مرهقة من ثوان فى بعض الأحيان».



ثم يزيد صاحب هذه المذكرات الفكرة وضوحاً بالحديث عن طبيعة الطلعات الجوية ومدى أهمية عامل الزمن فيها وهي فكرة معروفة الآن ولكنها لم تكن معروفة حين كتب مذكراته ونشرها في تلك الفترة الحالكة من تاريخنا فيقول :

«طائراتها متناثرة في عشرات من قواعد، ولكنها تصعد إلى الجو في نسلسل زمني دقيق، تتلاقى أو يتألى مرورها فوق معالم محددة، ثم تنسحب فتتقضى على قواعدنا، على الرغم من نباين المسافات إليها، فتتزل بها جميعاً ضربتها الأولى في توافق زمني عجيب، كل «طلعة» خاضعة لبرنامج توقيني صارم كذا دقيقة وصولاً إلى الهدف، دقائق أربع أو زهاء ذلك، هي فحتها للقصف، ثم ندور أية وإلا نقطعت أنفاسها لنفاد الوقود»^١.

«وفرة محسوبة من دقائق - هي سبع ونصف - لا يتعدونها إلا في حالات من ضرورة قصوى، هي التي يسمح لها بها على أرض القاعدة، فيتم التفشيش عليها، ويعاد تزويدها بالمقابل وتعمير مدافعها بالذخيرة وسلء خزائنها بالوقود، ويستبدل بقائدها آخر أو أن يسارع إليه شخص مسئول فيلقى منه تقريراً بما أنجز، ثم إذا بها منطلقة إلى الأجواء مرة أخرى»^٢.

«سبع ونصف من دقائق! رقم مذهل، لا ينبسط فتسع لشئ تلك الجهود المتزاخمة، إلا أن نعتسر له، بطول تدريب وتمارين، الطاقات البشرية فتسقى إنجازاتها، متوافقة متكاملة وكأنما توجسها آلة الكترونية حاسية، ونقف مأخوذين إذ لا تكاد تخلو أجواء مصر من طائرات العدو، غادية رائحة، عشرات المئات من طير أبابيل، ولا يسمن إلا أن نظن أن موجة الهجوم الإسرائيلي قد دعمت بأسراب أجنبية لا حصر لها ولا عد، وإلا فكيف بها قد تضاعفت مثنى وثلاث، وكأنها فصائل لذة من طائرات تنوالد كلما نفع فيها الهواء»^٣.

على هذا النحو يكون صاحب هذه المذكرات قد نجح تماماً في توجيه ضرباته القاضية إلى المسلمة الجوفاء القائلة بأن الوقت لبس في صالح إسرائيل، وهو يختم مرافعة في نقض هذه المسلمة بقوله:

«كلا، أي أبناء وطني! ليس الوقت حليفاً إلا لمن عرف كيف أن يمسك به فيعسرده، ليس الوقت في صفنا أو في صف إسرائيل، وإنما هو أداة لمن عرف كيف أن يذللّه بالعمل الجاد مطيعة لأهدافه ومآربه».

(١٢)

ثم يتحدث صاحب هذه المذكرات عن مسلمة أخرى من مسلمات الإعلاميين الذين كانوا يتولون تخدير الشعب عن الحقيقة وشغله بالمسلمات الجوفاء دون أدنى داع لهذا التعامل والجهل والقول بغير علم مما يعود في النهاية بالأذى على روحنا وقضبتنا:

«... وسمعت أيضاً من يقول بأن العرب قد يخسرون المعركة، بل معركة تلو أخرى، ولكن إسرائيل لا يسمها أن تخسر معركة واحدة وإلا انتهت»^١.

ويتناول حسين ذو الفقار صبري بنفس الأسلوب وينفس الشجاعة مسلمة ثالثة فيقول:

«... سمعت من يقول أن لا خوف من النتيجة النهائية لمعركة المصير، فإنما إسرائيل آخر الأمر، ومهما بلغت من قوة، جزيرة معزولة وسط ذاك الحُضَم من مائة المليون»^٢.

«ما هكذا يكون الحساب في هذا العصر الذي نعيش - عصر الآليات والالكترونيات - حيث لا قيمة للسلاح الحديث إلا أن يعهد به إلى أذهان متفتحة، نفست فيها من روحها منجزات علوم العصر»^٣.

ويؤكد صاحب هذه المذكرات على هذه المعاني المتسقة المتحفزة ضد كل تجهيل في نهاية كتابه فيقول:

«هلا أن احترزنا من التردى مرة أخرى إلى مهاوى المسلمين، هلا أن نفقنا عن أنفسنا سلبات الفرة التي ولت، فننظر بصادق بصيرة إلى ما حولنا، مقعمة قلوبنا بإيمان، متفتحة أذهاننا، عاقدين العزم على شق الطريق، مسالك وشعابا، إلى حيث النصر المؤزر بإذن الله»^٤.

يقول عز وجل في كتابه الكريم: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ۝﴾.

«وإنه القول الصدق، عبرة لمن أراد أن يعتبر»^٥.

وإني أعتقد أن أفضل فقرات هذا الكتاب هي تلك التي حلل بها عن فهم عميق وجهة نظره في أن حرب السويس لم تضع حداً فاصلاً بين الاستعمار القديم والاستعمار الجديد، فإذا به قادر يعلمه وفهمه ومنطقه وإخلاصه لوطنه على أن يفند هذه النظرية التي روج لها مفكرو الهزيمة، بل ومن المعجب أنهم لا يزالون يروجون لها كلما سنحت لهم فرصة وكأنها الحق الذي لا يأتيه الباطل:

«ولقد عجبت فتحيرت إذ ضمتني، في أوائل عام ١٩٦٦، ندوة إلى عدد من المهتمين بشؤون السياسة الدولية - عشرة أعوام بعد حرب السويس وأربعة بعد أزمة صواريخ كوبا - فأرى تمسكاً بتلك النظرية، وكأنها مسلمة مطلقة منزهة عن كل نقد، القائلة بأن حرب السويس قد وضعت حداً فاصلاً، لا رجعة فيه - وهل نعود عقارب الساعة إلى الوراء في ضوء من حتمية حركة التاريخ؟ بين أساليب الاستعمار القديم وتدخلاته العسكرية السافرة، وبين الاستعمار الجديد وأساليبه غير المباشرة في إقرار السبطرة، وناء عنهم أن حركة التاريخ إنما هي إلى التواليف الجديدة قوامها عديد من عناصر مستمدة من أساليب قديمة».

«والأسانيد التي جوهت بها هي نفسها التي كنا توصلنا إليها عام ١٩٥٦ توازن نووي رهيب فلا نجسر أي من الكتلتين على الإقدام على مغامرة ربما أزلت (أي دفعت) بالعالم، إذ تفلت الأعصاب، إلى حرب نووية ضروس والمثل الصارخ الواضح ارتداد دولتين كبيرتين عن أرضنا، منكسرتي النفس، بفضل من مقاومة شعبية باسلة، لم يؤازرها الضمير العالمي فحسب، وإنما التوافق أيضاً بين وجهتي نظر الدولتين النوويتين الكبيرتين، ولا توافق إلا عن شعور راسخ مشترك بخطورة المغامرة فتتدلع نيران الحرب النووية».

«نعم، كان هذا صحيحاً عام ١٩٥٦، ولكن طرأت من بعد على الموقف تحولات خطيرة، وهذى الشواهد عليه حية ملموسة، فأسوقها، ولكني أقابل بمن يهون من دلائلها، وكأنما هي رواسب سلوكية أو انتفاضات لأساليب الاستعمار القديم من حلالة روح».



ويفيض صاحب هذه المذكرات في تنفيذ خطأ تعميم هذه النظرية ضارباً الأمثلة ومحللاً بتفكير واسع حقيقة موقف الاستعمار إلى أن يقول:

«ارتداد سافر إلى أساليب الاستعمار القديم بتدخلاته العسكرية السافرة، متحدية الرأي العام العالمي في وقاحة ونجس، بل متجاسرة عبر حدود التوازن النووي الرهيب! فلاشك إذن أن قد جد على الظروف الدولية جديد، ولم تعد حرب السويس حداً فاصلاً كما كان حراً بها أن تكون!».

«وإنها لأمور لم تخف على قيادتنا السياسية، في حرصها البالغ على تتسم رباح التغيير في أفق الاستراتيجية الدولية، ولكن غفلت عنها للأسف جمهرة من مثقفين من المهتمين بشئون السياسة الدولية، فقصروا عن نوعية الرأي العام المحلي بأبعاد ذلك التحول الخطير».

على هذا النحو يلتفت صاحب المذكرات إلى المسؤولية الواضحة لفكرى الهزيمة عن فرض هذا الفكر الغبي على قيادة قواتنا المسلحة وإهمال تقديم الفكر الحى البديل حتى وقعت الواقعة، ولا بد أن نعرف لصاحب هذه المذكرات بالشجاعة والجسارة التي جعلته يقبل على بيان مثل هذه الحقيقة على الرغم مما كان يعرف من سطوة مفكرى الهزيمة:

«نعمول خطير ارتبط بمفاهيم لنا حيوية. لم تنعكس لها آثار في تلك العقول المهيمنة على القيادة العامة لقواتنا المسلحة، فقد ظلت على اعتقادها الراسخ بأن عصر التدخل الاستعماري السافر قد ولى، وحيث - وتلك سلسلة أخرى خطيرة استناموا لها - أن إسرائيل لن تجرؤ أبداً على مهاجمتنا وحدها ودون معاونة مباشرة صريحة من الدول الاستعمارية الكبرى، أو إحداها على الأقل، فملينا إذن بتلك البسطخة الصمغية لا هجوم من إسرائيل! بل ولا جرأة لها على التفكير فيه حتى.. مهما كان!».

وهو يدلل على صحة نظريته بما حدث من إعداد قواتنا المسلحة للحرب على النحو الذي عرفه الناس جميعاً، ولم يكن هذا إلا نتيجة لهذا الضلال الذي أتاح له مفكرى الهزيمة أن يسيطر على فكر الجماهير وفكر القوات المسلحة وقادتها.. ومع هذا فإن أحداً لم ينتبه حتى الآن إلى مسؤولية مفكرى الهزيمة الذين استطاعوا بذكائهم الشديد حصر السؤال في مسؤولية القيادة العسكرية أم القيادة السياسية وتوقف النقاش عند هذا الحد فحسب، ولكن ما هو ذا رجل ذكى منصف ينتبه منذ مرحلة مبكرة للهزيمة إلى دور الفكر المشبوه في صناعتها وصياغتها:

«حتى الثالث من يونيو عام ١٩٦٧، ورغم تحذيرات رئيس الجمهورية ظلت قيادتنا العسكرية في غفلتها سادرة.. وهذى تقارير عن مجموعات كبيرة من مدرعاتنا أُرهِقت بالناورة المستمرة بطول الجبهة وعرضها، ليالى وأياما، حتى فجر الخامس من يونيو نفسه، فإذا ما وقعت الواقعة وجدت نفسها عاجزة عن الحركة، مشلولة، إذ نأكلت جنازير عجلها، لا قدرة لها حتى على محاولة الدفاع وقد كُلت عيون «طواقمها» وأوهنت طاقاتهم من فرط تطواف».

«تصرفات من القيادة العامة لا تفسر لها إلا اعتقاد راسخ بأن العدو لن يتجاسر فيهاجم، فلنزد إذن من المربة التي في قلوبهم».

ونظرة إلى تلك المسلمة التي ذكرت، استنمنا لها فأودت بنا.. فمن أين جاءهم أن إسرائيل لن نهاجمنا إلا إذا شاركتها في عدوانها علينا دولة كبرى؟.

«وكأننا من الضروري أن تكون المشاركة سافرة علنية».

«لم نحاول قيادتنا العسكرية التعمق في دراسة حرب السويس، وإنما علق يدهنها أن بن جوريون رفض بإصرار التورط فيها إلا أن يحصل على وثيقة تضمن له اشتراك قوات بريطانيا وفرنسا إلى جانبه، وقواتهما الجوية بالذات، حماية لأجواء إسرائيل».

«وقد كان من الطبيعي، إذ تكتشفت أسرار التواطؤ الثلاثي، أن يضغط معنقونا السياسيون على هذه المنطقة بالذات، فيعلم الرأى العام العربي بأبعاد المؤامرة، ويطعن ضمنا إلى قوتنا الذاتية، كرادع لإسرائيل، ولكن هذا التركيز في التعليق، بل هذا الإفراط الذي جاوز الحدود الموضوعية، رسمها لنا حقيقة قائمة بذاتها ولذاتها، وليس كما كانت فعلاً مجرد وضع أملت الظروف حينذاك، فندفع بمقول قيادتنا العسكرية إلى طمأنينة خادعة، ويهملون التعمق في دراسة متركزات الخطة الإسرائيلية كما كانت، سعياً إلى استكناه انجهاستها المحتملة في المستقبل، وكأننا الظروف من حولنا ثابتة مستقرة على ما هي عليه إلى أبد الأبدين، بنجوة من رياح التغيير التي يدفع بها جموح التقدم التكنولوجي، مكنسحاً أمامه كل قديم كأنما الأعاصير».

(١٤)

ويحفل هذا الكتاب بتأملات ناقدة عن مسار الحرب وما كان يجب أن يتم فيها

وقبلها وبعدها، ولكننا نلاحظ أن الرجل يتواضع وهو يقدم هذه التفسيرات التي يسجلها في ذكرياته، فهو يعتمد على ثقافة قرأها أو أدركها ولكنه لا يملئ علينا وجهة نظره، كما أنه لا يعتقد في صواب ما يظنه هو، وخطأ ما يظنه الناس، ومن الواضح أنه يتكلم بثقة ولكنها في كل ثنائيا ثقة المجتهد، ولنا أن نقارن بين أي نص من نصوصه وأي نص من نصوص مذكرات محمود رياض وقد تناولناها في الباب الثاني من هذا الكتاب، وعندئذ نجد رياضاً وقد تقمص دور الأستاذ الذي يملئ الإجابات الصحيحة على مقدرى الدرجات، ويعطى أحكاماً نهائية وكأن القوات المسلحة وقادتها مقاولو أشرار يعملون تحت إمرته وطبقاً لمشورته، ويكفي للتدليل على هذا أن يقول محمود رياض كما ذكرنا في الباب الثاني من هذا الكتاب: «وكننت قد اتفقت على أن يقوم الجيش بكذا!!» وكأن الجيش يعمل بأمره وفي الاتجاه الذي يريده..

ولكننا في هذه المذكرات نرى حسين ذو الفقار صبرى وهو المعروف بالعنف والشدة والاعتداء بالنفس متواضعا جدا إذا ما قورن بمحمود رياض وهو يبدو فوق الجميع علماً وقدرة وسلطة وفهماً.. ولم لا؟ ألم يصل رياض إلى مستصب وزير الخارجية بينما اكتفت الثورة لحسين ذو الفقار صبرى بمتصب نائب الوزير فحسب!.. لم أر في خبرتي بالسياسة نموذجاً واضحاً للممنبر حين يخدم صاحبه كالفارق بين حديث هذين الدبلوماسيين العسكريين عن الحرب! مع أن حسين ذو الفقار صبرى كان من الضباط الأحرار ولم يكن كذلك رياض، ومع أن حسين ذو الفقار صبرى كان من الذين مارسوا العمل السرى (والفدائية) ولم يكن محمود رياض كذلك.. وربما يكون هذا هو السبب!! فإن الذين يجلسون إلى المكتب يستسهلون الأمور أكثر من الذين يخوضون المغامرات، وإن كان كلاهما حربصاً على إظهار معارفة العسكرية.

ولكن صاحب هذه المذكرات يعترف بأن تقديراته عن الحرب نظرية وهو ما لم يفعله محمود رياض أبداً. وهذا هو النص الذى عبر به صاحب هذه المذكرات عن هذا المعنى :
«... ولكنه كلام أسوفه على مهل وأنا جالس إلى الورق، بمنأى عن الواقع الذى كان، وعن موضوعية ما لايسه من ظروف، فأخير بعضاً مما تساقط إلى من معلومات، مطرحة عوامل مازلت أجهلها وأخرى ليس من سبيل إلى التغافل عنها، لولا أنها حرية بأن ننشر بتلك الصورة التى أسعى إليها بخيالى، شفاء لخليل التمنيات، ثم إن المرء فيما بعد التوازل، وبعد أن تبين له بعض حقائق، موكل بأن يتوسم في نفسه مراتب من حكمة ونفاذ بصيرة»^{١٥}.

يتحدث صاحب هذه المذكرات فى مرحلة مبكرة عن خطأ استراتيجيتنا فى الحرب على ضوء ما وصله من معلومات فى ٨ يونيو وهو لا يزال فى الأرجنتين وهو يشير إلى الخطأ الكبير فى الإعلان عن عدم قيامنا بالضربة الأولى، وهو يتساءل عن الضربة الأولى وأين تقع، كما يتمعجب من دفعتنا بأغلبية مدرعاتنا لتكون فى متناول الضربة الأولى!! ويقول:

«وفى ضوء ما يتيسر لى الآن من معلومات، فإننى لأعجب كيف دفعتنا - وتلك نيتنا - بالجزم الأكبر من قواتنا المدرعة إلى الخطوط الأمامية، فى متناول تلك الضربة الأولى، والتي نعلم أن العدو سوف يباغتنا بها».

«ثم أين تقع تلك الضربة الأولى؟ إن حرب الحركة تستلزم من المهاجم أن يخفى نيته سن حيث أين نكون، فإذا ما تفتحت أمامه الثغرة أمكنه أن يدفع من خلالها فجأة بخيرة قواته الضاربة دون احتمالات تعرضها لهجمات مضادة قوية قد توقف من تدفقها، فيشير له حينذاك الالتفاف على المواقع الدفاعية فيحصرها ويعزلها بعضاً عن بعض».

ويتحدث صاحب المذكرات عن أسس العلم العسكرى الفائلة بالمرونة وسرعة المخاطر وتوزيع القوات وتحقق الاختراق:

«ولذا فإن المهاجم يحاول مشاغلة الجبهة كلها، فيحار المدافع أين القطاع الذى سوف تقع عليه الضربة المركزة بثقلها، ويضطر إلى توزيع احتياطيه بينها جميعاً، بل إن من أساطين حرب الصحراء، أمثال روميل، ممن يتمتعون بسرعة خاطر ومرونة فائقة، من يدخل المعركة حاملاً فى ذهنه عدداً من خطط تبادلية، فيضبط فجأة وفى نفس الوقت على عدد من قطاعات الجبهة حتى إذا تداعى أحدها، تحول إليه فوراً، محوراً رئيسياً لعمليات الاختراق».

وهو يعترف بأن الأمور أكبر من هذا، ولكن المبدأ الأساسى يظل هو العنصر الحاكم فى الخطط التى تستدعى الاحتفاظ بالقوات الضاربة إلى الخلف قليلاً حتى تستطيع الحركة فى كل الاتجاهات:

«ذاك هو المبدأ الأساسى، ولكن مع التبسيط الشديد، فإن الترابطات الجغرافية

والنكتية بين قطاعات الجبهة تجعل المسألة أعقد من ذلك بكثير، آلاف من عوامل فرعية لا يمكن إغفالها، تفرض على القائد في الميدان تقلبات سريعة من خطة إلى أخرى، وخاصة في تلك الدقائق الحرجة الحاسمة التي يستمر فيها القتال ويستخدم، بل وأن يتدع نكتيات يستحدثها في التو والملاحظة: نصدياً لنقمح (أى اقتحام) بدعنه فجأة ، أو اغتناماً لفرصة هي إلى زوال ولم تكذ تلوح بواورها».

«ومن هنا فإن المهاجم يحتفظ بقواته الضاربة إلى الخلف قليلا، في صورة من توزيع مترابط، فيتيسر لها أن تنطلق فوراً في تنابع متواصل متكاتف إلى حيث تصدعت الجبهة، وهو أى مكان من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار».



ويضرب حسين ذو الفقار صبرى أمثلة قيمة من التاريخ المعاصر مما أتيح له أن يستقره من دروس الحرب العالمية الثانية، سواء في ذلك نجاحات الألمان في اختراق خط ماجينو في بداية الحرب، أو ما وصل إليه روميل من أداء متقدم في حروب الصحراء التي جرت قرب نهاية الحرب العالمية الثانية، حتى إن هذه التطبيقات أصبح اسمها «الحركة المطلقة» دلالة على أهمية القدرة على التحريك السريع للقوات؛ وفي الحق فإن هذا هو جوهر ما كنا نفتقده في الأيام التالية من حرب ١٩٦٧، ويبدو واضحاً أننا لو كنا أخذنا بأي قدر من هذه الاستراتيجية التي يصورها صاحب هذه المذكرات لاحتفظنا بسيناء أو بالجزء الأكبر منها على الأقل:

«تلك أمور أصبحت من بديهيات حرب الحركة منذ أن نجح الجنرال الألماني «جودريان» في اختراق استحكامات خط «ماجينو» في أوائل الحرب العالمية الثانية، ثم إنها أصبحت أكثر من بديهية حين ارتقى بها المارشال روميل إلى مستويات عليا من مهارة في التطبيق في حروب الصحراء، سمعتها الحركة المطلقة، لا تعوق انطلاقاتها اعتبارات ملزمة من حيث مدن محصنة أو مناطق سكانية قد تتحول إلى معازل مقاومة أو تخریب، أو طرق مرصوفة أو شبكات ممدودة من سكك حديدية لا يجوز التغافل عنها أو إسقاطها من الحساب، فهي ميزة لمن يسبطر عليها أو أن يتمتعها عن العدو، حرب ميدانها لوحة تكاد أن تكون مسطحة تماماً، النصر فيها للمهارة «الشطرنجية» المطلقة».

ويعضى صاحب هذه المذكرات كذلك ليشرح لنا الخطة التي مكنت روميل من تحطيم

مئات من الدبابات فى شمال أفريقيا وكأنه يمتنى لو كان هذا قد مورس من قادننا وقواتنا:

«فإذا كان هذا هو حال المهاجم، فإنه ليتحتم على الجانب الذى فرض على نفسه أن يدخر جهده إلى ما بعد الضربة الأولى، أن يكون أكثر حرصاً فيتمتع بتوزيعات قواته الضاربة إلى خلف، يأتى عن بغتات العدو، ولكنه قادر مع ذلك أن يسارع بها فيطبق بضربات متلاحقة متآلية (أى متضافرة) حيثما تنكشف للعدو عورة. بل أن يخطط لها - فهي ذريعة ذلك الجانب الذى يلجأ إلى الدفاع استعداداً للانتقال فيما بعد إلى الهجوم - فيدفع بها إلى تلك الأماكن التى يموء فيها على العدو بضعف ليس فيها، يستدرجه إلى ثغرة يستغلها فى نفسه عن عمد، فإذا ما قاذف العدو بقواته الضاربة وجد نفسه قد وقع فى شرك منصوب، فجوانب الثغرة لا تتداعى كما كان يظن، بل تثبت وتضيق الخناق على مؤخرة القوات التى تجاوزتها فإذا بها معزولة وهدف لضربات ندمها من كل صوب. ومن حيث لم تكن تتوقع».

«إنها فى خطوطها العريضة الخطأ الذى مكنت روميل من تحطيم مئات من الدبابات، كانت بريطانيا قد أرسلتها إلى شمال أفريقيا على عجل، ونهذج صوت تشرشل همماً وغماً وهو ينوح بالخبر إلى أعضاء مجلس العموم».

(١٦)

ولا يكف صاحب هذه المذكرات عن الحديث عن أهمية الاحتفاظ بالمدركات قادرة على الحركة والناورة، وهو يزيد القارئ العادى من أمثالى فهماً بطبيعة حروب المدرعات فيشبهها بحروب البحر حيث يكون الصواب أن تتوقع السفينة الهجوم من كل اتجاه، ومن ثم فلا يجوز لها أن تلقى بمراسيها إذا ما حلت الحرب، وعلى هذا النحو كان صاحب المذكرات يريدنا أن نحفظ بالمدرعات، ولكنه مندهش من الاستراتيجية التى اتبعناها حين صورنا فى الصحف مدركاتنا مدفونة فى حفر فسلبناها أقوى نقاط قوتها فى مقابل أن نهىء لها القدرة على استخدام مدافعها القوية فحسب !! وهكذا يشخص حسين ذو الفقار صبرى استراتيجيتنا فى حرب المدرعات على أنها متأخرة لا نكاد نحظى بأى تقدم عن الاستراتيجية التى كانت متبعة قبل الحرب العالمية الثانية. فإذا صح هذا الذى يقرره

صاحب هذه المذكرات فإن للمرء من أمثالي أن يسأله عن هذا التخلّف الذي أصاب فكرنا العسكري في هذه الحرب، وإني لأذكر هنا ما كتبه الفريق صلاح الحديدي في كتابه «شاهد على حرب يونيو ١٩٦٧» مؤكداً أنه لو كانت القوات المسلحة المصرية قد انتصرت في هذه الحرب بما كانت عليه من قصور واضح، لتغير مجرى التاريخ العسكري كله:

«كان علينا إذن أن نحفظ بقواتنا المدرعة موزعة بعمق إلى الخلف، بتأى عن منازع الضربة الأولى وغلوائها، وليس كما شأخذنا في بعض ما نشر من تحقيقات صحفية مصورة، مدفونة في حفرة، نهبي لها بالفعل استخدام مدافعها القوية من خلف الاستحكامات الدفاعية، ولكنها تسلبها إذا ما دهمت. أعز ما غلّكه المدرعات، ألا وهي القدرة على الحركة والمناورة، وهو ما هدفت إليه تلك العقول التي اخترعت الدبابات، فإذا بنا نترد بها إلى عقلية ما قبل خط «ماجينو»، وقد قيل إن حروب المدرعات قوية الشبه بالحروب البحرية، عليها أن تتوقع الهجوم من أي اتجاه، مثلها مثل سفن الحرب، لا يستقيم لها أن تلقى بمراسيها إذا ما دنت ساعة الاشتباك».

«كان علينا أن نحفظ بمدرعاتنا بمنأى عن هجمات العدو ثم مرتكزة إلى خطوط إمداد لها دعائم راسية في تلك المفاتيح الجغرافية لشبه جزيرة سيناء، جبل وبيير الحسنة وتمد ونخل، ثم بير روض سالم، ومن خلفها بير جفجافة وعمر متلا مع توجيه عنابة خاصة لوضعية السكة الحديدية التي تربط بين العريش والقنطرة شرق».

(١٧)

وبدو صاحب هذه المذكرات ملماً إلى حد كبير بدبناميات السياسة الإسرائيلية في الوقت الذي كانت فلسفة نظام الحكم في مصر قائمة على تجاهل كل ما يخص إسرائيل وسياستها، ولكن يبدو أن أمثاله من رجال الدبلوماسية المصرية كانوا يقرؤون في الإسرائيليات بقدر ما يمكنهم في ذلك الوقت وقبل أن تنتبه إلى ضرورة معرفة ما في إسرائيل وارتفاع شعار «اعرف عدوك» فيما بعد حرب ١٩٦٧، ولست أجافى الحقيقة حين أقول مثل هذا القول، ولكن عبارات صاحب المذكرات نفسها تنبئنا بهذا، وانظر إلى ألفاظ من قبيل «عكف» في قوله «عكف على دراسة الشخصيات الإسرائيلية

الحاكمة^٩ بينما كل الناس اليوم يلمون بكل تفصيلات حياة باراك وتنتباهو وغيرهما ، ولكن الحال كان غير هذا في ١٩٦٧ ولولا المصيبة السوداء على وجه ديان ما تذكره الناس ، ولربما يعجب بعض القراء اليوم من أن يرد ذكر مناحم بيجن في ١٩٦٧ بينما لم يطف اسمه بمعلومات العرب إلا في ١٩٧٧ !!) ولكن صاحب المذكرات يستشهد بدخوله الوزارة يومها على انتهاء إسرائيل الحرب ، وهو بشرح لنا كيف كان من الممكن تفسير وتنبؤ ما حدث في ضوء التغيرات الداخلية التي ثمت في صفوف العدو، وهو يتحدث بحكمة عن دور قيادات إسرائيل في إشعال حرب ١٩٦٧ :

«ثم بعد ذلك عامل نفساني لا يلتفت إليه إلا من عكف على دراسة الشخصيات الإسرائيلية الحاكمة - دراسة لا أغنى عنها بأية حال - فإن الفاصل بين شن الحرب أو الركون إلى السلام، حتى فيما يتعلق بالدولتين العملاقين، إنما شعرة دقيقة متعلقة بقرار يتخذه آخر الأمر شخص فرد - مهما تضخمتم أكتوام التقارير، وتنازع الرأي فرق من مستشارين - في ضوء من موازنة بين كفتين، قرار مرتبط أشد الارتباط بشكوكه النفسي، وعلى الرغم من الصورة البطولية التي حيكت حول بن جوريون، وكأنه شخصية أسطورية منتزعة من أسفار الأولين، مغوار مقدام، نعم، ربما هو كذلك إذا ما حزم أمره، ولكن دون ذلك، وفي تلك الأوقات العصيبة التي سبق اتخاذ القرارات، فهو فريسة للمخاوف والشكوك، متراجع أبداً بين آماد من تفاؤل مطلق وتشاؤم حالك بهيم، صورة متناقضة تماماً لأولئك الرجال الذين انتقلت إليهم مقاليد الأمور، حين أعيد تشكيل الوزارة الإسرائيلية، فبدخلها موسى ديان ومناحم بيجن، أولهما لا يؤمن إلا بالحرب، والحرب الحاطقة المفاجئة، الحرب الوقائية كما يسميها، ولكنها في الحقيقة، الهجوم الغادر الآن وفورا ! وثانيهما سفاخ، نزاع بعينين إلى ذكريات مذبحه دير ياسين».

ويستطرد صاحب المذكرات إلى الحديث عن الكيفية التي وصل بها هذان الزعيمان إلى مواقع الحكم في إسرائيل فيما قبل حرب يونيو ١٩٦٧ فيقول:

«ثم إنهما لم يقفزا إلى الحكم عنوة، وإنما أتى بهما وقد اطمأنت المؤسسة السرية المهينة على الصهيونية العالمية، فلاشك أن مثل تلك القوة الموجهة لها وجود، والشواهد على ذلك لا يتسع المجال هنا لتفصيلها. على أن قد أعدت البعدة لمواجهة أسوأ الاحتمالات، إن خانها التوفيق فيما خططت انتزاعاً للمبادرة».

«هي المؤسسة السرية المهيمنة على الصهيونية العالمية، وليست المؤسسة العسكرية الإسرائيلية كما قيل، إذ ليست هذه إلا مجرد فرع ضمن فروع عدة، يؤتى بأفرادها أو ينحون عن مراكزهم حسبما يقتضى الحال، فلو أننا راجعنا المخططات الرامية إلى مساعدة إسرائيل لأذهلنا اتساع نشاطها على المستوى الدولي جميعاً، شاملاً لاتجاهات شتى، ثم التفتيق بينها في دقة بالغة».

وفى مقابل هذا كله فإن صاحب المذكرات لا ينسى عن وصف جمود الحركة السياسية في صفوف قيادتنا وارتكازها إلى تفكير قديم وغير واقعي عن استراتيجية العدو، فضلاً عن انشغالها بجلسات الأنس والترفشة (وهو هنا يعمر بوضوح شديد بل يصل إلى ذكر التعبير الشائع: انعدال المزاج) وهو يسخر من الاطمئنان الزائد الذي تمتعت به هذه القيادات فيما قبل حرب ١٩٦٧ فيقول :

«ولكن العالم كان قد انشغل أساساً ضد غطسة الدولتين الكبيرتين، وليس «حق» إسرائيل في الرد على حملات الفدائيين (كذا) و«البركة» في قصور.. بل في الجوامع (أي الانتدفاعات) العشوائية التي (لجأت إليها) وسائلنا الإعلامية، فهنيئاً لقيادتنا العسكرية وبطيختها الصيفي». فما أحلاها مذاقاً في الأسببات حين تصفو جلسات الأنس والترفشة وقد انعدل المزاج!».

(١٨)

ولا يبدو حسين ذو الفقار صبري مستفعلاً بهذا الذي يصوره في أثناء الحرب، ولكنه يبدو وهو مصمم على تكراره والتأكيد عليه في حديثه التأملى الذى كتبه بعد عام من وقوع الهزيمة لا يكف صاحب هذه المذكرات عن تأمل الجوانب المختلفة لما حدث في هذه الحرب وقبلها، وهو يفعل هذا لا من أجل إلقاء الاتهام على عاتق أحد دون أحد، ولا لجلد الذات ولا لتصفية حسابات شخصية أو تبرئة نفسه، وإنما هو يفعل هذا بروح وطنية صرفة متجردة لخدمة وطنها، ولتقرأ هذه العبارات الحافلة بالشعور والولاء وهو يتحدث عن مجربات الحرب والضربة الأولى والانفعال بها فيقول:

«... كانت الضربة الأولى قاصمة، وقيادتنا العامة في حالة من ذهول، لا نجد من متعلق إلا تلمس فسحة من وقت فربما أن جاءتها نجدة من السماء أو أن تقع معجزة ما.. فنجأت إلى أقدح أخطائنا جميعا، إذ نخفى (بقصد أنها أخفت) حقيقة الموقف عن القيادة السياسية!».

«وفي لحظة ظننتها من نجل، ومض في ذاكرتها أن انسحاب قواتنا عبر القناة عام ١٩٥٦. وقد أُنقذ الموقف حينذاك.. حقيقة أخرى استندت إلى سالف ظروف وملايسات، فاختزنتها بعض عقول (وقد حولتها إلى) مسلمة مطلقة، سمحية الأثر. أكيدة المقول، إذا ما تأزمت الأمور».

«ولكن أوامر الانسحاب عام ١٩٥٦ صدرت بينما قواتنا لم تكن قد حشدت هذا الخشد الذي كان عام ١٩٦٧ في سيناء. إذ احتفظ أول الأمر بجلتها لمواجهة احتمالات تدخل بريطاني - فرنسي عقب تأميم القناة، فلما أن تحركت إسرائيل، وكأنها أقدمت على المغامرة وحيدة دون شرك، بدأت قواتنا في عبور القناة إلى سيناء، معتمدة على أئويتنا المتقدمة، قليلة العدد، المراقبة على الحدود في تعطيل الزحف الإسرائيلي، ربّما يتسنى لنا الاحتشاد (أي التعبئة والتجميع) فالنخطيط لمواجهة في قلب شبه الجزيرة، عند منطقة بير روض سالم بالذات».

(١٩)

ويحدث صاحب هذه المذكرات بأسى شديد وأسف بالغ على ما فات عن انكشاف كل خططنا واتصالاتنا أمام العدو الإسرائيلي في حرب يونيو ١٩٦٧ وهو بصف موقف القيادة الإسرائيلية في هذه الحرب كما تراءى له فيدع في الوصف ويقول:

«والقيادة الإسرائيلية غير غافلة عما تم. فهي دائمة التصدت على اتصالاتنا اللاسلكية، مسيطرة على الأجواء، نقرأ ما يجري على الأرض وكأننا في كتاب مفتوح، مدركة تمام الإدراك للأهمية الاستراتيجية القصوى لتلك الممرات، فتتخذ إليها قوات «مظلية» تسقطها من الجو، وتتخير من قواتها البرية ما تحدد بها حيثما صوب تلك الممرات، فتسارع إليها لا

تلوى على شيء، مواصلة أثناء الليل بأطراف النهار، متجنباً الالتحام مع أى من قواتنا المتناثرة هنا أو هناك، بل تجاوزها متفادية مواقعها، تراوغها فنوتها، فى وعى تام بأن انزعاج الدقيقة بل الثانية معناه إحكام الحصار من حولها جميعاً، وقد سمعنا كيف أنها فى عجلها لم تتأن حتى إذا انفرد عن بعضها الوقود حتى يواتيها المدد، وإنما تشد بعضها بعضاً بالجنازير، ونغضى إلى أمام لا تلوى على شيء. تسابق الزمن وتود لو أن نسبته، وكأنما ابتعنا لجوهر تلك الصورة الموعلة فى القدم، واتنهم بها أسفار الأولين، إذ تدك جيوش الملوك المتحالفين بوابل من سجل. ثم يسارع الرب فيوقف حركة الزمان، فتكتمل ليسوع بن نون فرصة القضاء على أعداء بنى إسرائيل».

«هذا وقواتنا التى تم حشدتها على مدى أسابيع طوال، ما تزال متناثرة بقضها وقضيضها على صفحة شبه جزيرة سيناء، فإذا ما تكاثفت صفوفها، متزاحمة، متدافعة المتناكب. بغية عبور هذه الممرات بخواتمها الرهيبة، قليلة العدد، حصدت حصداً وكأنها الهشيم! ممرات صهرت عند مداخلها معدات جيش بنيها بما اقتطعناه من قوت الشعب طيلة سنوات عشر، ممرات فاظت على جنبانها أرواح الآلاف من زهرة شبابنا، تعلقت مقاديرهم ومصائرهم بسمادير ذهن ملئنا».

«تصرفات هى فى صميمها تراكب (أى تجمع) متهايل (أى مهول) من أخطاء فادحة فوق أخطاء. فتتهك عن الوطن أسباب الأمن والسلامة، مستذلاً، متفسخ الأوصال، مستباح الذمار (أى مستباح الحمى والحدود)، نهياً لمن تسول له نفسه اغتصاب حماة».

«تصرفات (فصحت) فى كلمتى هذه، ليس إثارة للمواجع النفس، كما قد نقول فى بعض أغانيها العاطفية، وإنما إهابة إلى حذر فلا نتردى مرة أخرى إلى مهاوى جليدة».

«تصرفات خرقاء - وإن الخرق لشؤم كما جاء فى الحديث الشريف - دفع بها تعلق الأذهان بتسلمات أضيفت عليها حالة من قدسية، وكأنها حقائق مطلقة، أولية أبدية، بيان شامخ من واجهات تفكير بينما العقول خواء...!».

«فإن البشر، إذا ما ووجهوا بالمعضلات، إنما يتصدرون لمعالجتها فى ضوء من دراسات مستقبضة لأبعاد الموقف، فيستخلصون منه الأساسيات، تلك الحقائق الأولية التى هى الركائز الوطنية للرأى السديد».

«ممكن الخطورة في أن يركن المرء إلى صورة ربما أن تحدث لها معالم، تصويراً صادقاً لأبعاد موقف معين، اكتشفته ظروف معينة، حيث ترابطت تلك الحقائق الأولية في إطار من قوى محسوبة المدى، محددة الاتجاه، إلى معادلة شبه «ثياغورية»، فيتعلق بها من قصرت مداركه أو تشعبت هبته إلى عديد من نوازع، وكأنها هي مسلمة مطلقة، صالحة لكل عصر وأوان، مبرأة من كل نقد، نفعيه من غت أعمال الفكر وإعادة التقييم».

(٢٠)

ويعقد صاحب هذه المذكرات مقارنة من أهم ما يمكن بين ظروف حرب ١٩٥٦ وظروف حرب ١٩٦٧ وكيف كان من السهل على قيادة قواتنا المسلحة أن تنتبه في سهولة إلى أنه لا يجوز تكرار خفة نجحت في ١٩٥٦ لمجرد أنها نجحت، وهو يتحدث عن الفرق بين القناة في الحربين وسوء تصرف عبدالحكيم عامر دون ذكر اسمه صراحة وإن كان هذا لا يخفى على أحد بالطبع:

«المبدأ الثابت للاستراتيجية المصرية القويمة، هو أن تدافع مصر عن القناة، فيكتب لكلتيهما السلامة، وليس العكس، فتضيع هذه وتلك»!

«المبدأ القويم، كما أقول، ومع ذلك فالخطر كل الخطر التثبت به على علامته سلمة مطلقة، فقد رأينا عام ١٩٥٦، كيف تضافرت علينا ظروف شاذة أجبرتنا على المفاضلة بينهما، فكان القرار بالتضحية بالقناة فداء لمصر، بل إن ملايسات الموقف الدولي أعطتنا، إذ ضحينا بالقناة، سلاحاً نهصد به مقدرات دولتى العدوان الكبيرتين في الصميم، فكانت نجاة مصر المنطلق إلى استعادة القناة».

«أما في يونيو ١٩٦٧ فقد انطوى قرار الانسحاب على التضحية بهم جميعاً.. وحفاظاً على ماذا!».

ويصل صاحب هذه المذكرات إلى إضفاء أقصى الصفات وأقصى الألفاظ على صاحب قرار الانسحاب ويقول:

«قرار أخرق، زاد من خرقه نزق استحوذ على صاحبه فراح ينفث به كيضاً اتفق إلى كل من نهى له الاتصال به من وحدات، وأكد أجزم أنه كان مسارعاً به إلى تلك التي

كانت أقرب إلى القنساء، اعتقاداً منه - فإن العلم «تورن»! - أن تلك هي أسرع وسائل الانسحاب، الأقرب فالأقرب وهكذا على التوالي، فيا له من منطق!.

« وأخيراً، ثم أخيراً بعد عدد من ساعات، والحرب الحديثة إنما حسابها بكسور من ثواني تعلم قيادتنا الميدانية بالقرار الخطير! ».



ويعود حسين ذو الفقار صبرى ليؤكد على المعنى الذى طرحه من قبل وهو لا يكاد يصدق أن يصدر قرار عسكري مصرى بكل هذا القدر من الترقى:

« قرار خطير وأخرق ما فيه إن لم تكن إليه حوجة أو ذريعة سوى سانحة من جهالة (يقصد لحظة طيش) ارتقت به في ذهن صاحبه إلى مسلمة استراتيجية أصيلة لا يأتيها باطل! وغاب عنه، أو أنه لم يع قط، أن القرارات الخطيرة إنما هي ألمية فكر ينفذ فجأة إلى جوهر الأمور، إذا ما أعضلت، بفضل من دراسة شاملة سابقة وعمق تمحيص وشتان ما بين ظروف عام ١٩٥٦ وتلك التى لايت الموقف فى سيناء فى أوار شمس يونية من سنة الشنوم تلك ١٩٦٧، حين تعلقت مصائر الوطن الغالى بذهن ملتات، «هلوس» بأوامر انسحاب، راح ينفث بها إلى كل اتجاه، فيسلم بها الأعداء فى تصتهم الدائب على وسائل الاتصال قبل أن تفاجأ بها، فتذهل لها قيادة القوات فى الميدان! ».

« أخطر ما اتطوى عليه هذا القرار من أخطاء فادحة هو جهل صاحبه المطبق بأساسيات عمليات الانسحاب، وخاصة فيما يتعلق بالمدركات فى حروب الصحراء حين تكون فى حالة اشتباك فعلى مع عدو مهاجم، إذ يتحتم عندئذ على الوحدات جميعاً أو يكاد، المتناثرة بطول الجبهة وعرضها، أن تخضع فى تحركاتها لحساب دقيق أى دقة، فتماشق حركة كل منها على حدة مع الصورة التكاملية لمجموع التحركات الأخرى، ومتوقعة الحركة التالية لأى منها على ما أحرزت زميلاتها من نجاح، أو ما يكون قد أصابها من فشل فيتدارك! ».

« إنها أشبه ما تكون بحركات النغم المتآلف وترابطاته الإيقاعية الشائكة فى المتابعات الموسيقية، إلا أنها ليست هنا نقلاً عن «نونة» أحكمت تفاصيلها فيلتزم بدقائقها القائد فى الميدان، وإنما هى خطوط إيقاعية عريضة، تجاهه خلال التنفيذ بنواشر مفاجئة، فيقابلها فوراً، وبألمعية من بدبده، باستداعات - وكأنها هى مرونة تنغية فائقة - فيعود بهذه

التنويمات المبكرة إلى الخط الإيقاعي الأصلي، أو قل إنها عملية خلق فوري لتوافقات من إيقاعات مركبة متغيرة، ولكنها مشدودة أبداً في سعيها إلى تحقيق أية من خاتمة، هي الهدف المنشود^٨.

١. إنها عملية أشد ما تكون حاجة إلى سيطرة مركزية صارمة - ميدانية حاضرة وليس متوارية بعيداً عن خطوط القتال - ثم إلى وحدات قياداتها على علم وثيق مسبق بخطة الانسحاب، بل بعدد من خطط انسحاب تبادلية، فليس بوسع كائن من كان التنبؤ بأي الأسباب سوف تفرض ضرورة الانسحاب، فإذا ما حزم القائد في الميدان أمره، أخطر قيادات الوحدات بالاسم الرمزي للمخطة التي اختار تطبيقها، محكماً في الوقت نفسه قبضته على زمامها جميعاً، موثقاً بها اتصالاته كل التوليس فيواجه تطورات الموقف المفاجئة، أولاً فأول، بحساب من دقائق وثواني^٩.

(٢١)

ويتحدث صاحب هذه المذكرات مرة أخرى بتفصيل معقول وتبسيط جيد عن العقيدة العسكرية القائلة بصعوبة الانسحاب:

«ثم إن عمليات الانسحاب، حتى في تلك الحالات التي يكون قد أحكم التخطيط لها مسبقاً، هي أخطر ما يمكن أن يواجه به قائد في الميدان، خاصة إذا كانت الحرب حرب حركة على الأرض العراء، إنها المحك الحقيقي لقدراته، فكم من أخطاء بطغي عليها فيخسبها نجاح طارئ في حالات الهجوم، أما في عمليات الانسحاب فإن الزلة إن لم تدارك فوراً تنقلب إلى كارثة محققة»^{١٠}.

٢. النجاح الطارئ الذي تحمزه وحدة من وحدات جيش مهاجم ربما أصابت عصباً حساساً أو أشاعت عند العدو ذعراً مفاجئاً، أما النجاح الذي تصيبه وحدة من وحدات جيش منسحب فلا بد لها أن تحقق الهدف الذي رسم لها، ثم حذار أن تجاوزه، في سعي مجرد إلى مسابقة زمن، أو وصولاً إلى موقع ربما بدا لها أفضل أو أمنع! نعم. فإن سعيها إلى مزيد من سلامة، من حيث ظروف زمان أو مكان. خارج دائرة التنسيق الصارم بينها وبين أوضاع الوحدات الزميلة، ربما أفقد هذه دون أن تدري تلك، مرتكزاً هو ضرورة لها

لازمة، فتعجز إذ يحين دورها عن الاضطلاع بما نيط بها من مهام، وهكذا بالتبادل وعلى التوالي.

ويردف صاحب هذه المذكرات بكثير من الإيضاح لاستراتيجيات الانسحاب وكأنه لا يزال يتمنى لو كانت الأمور قد سارت على هذا النحو، ومن فضل الله علينا أننا لم نلجأ إلى الانسحاب منذ ذلك اليوم الحزين، وأن الله سبحانه وتعالى رزقنا في حرب أكتوبر قائداً أعلى كان على استعداد لأى شيء إلا الانسحاب!!

ويمكن أن يقال بصفة عامة، وفي صورة من تبسيط، أن أول واجبات القائد حين يتقرر الانسحاب، هو توجيه عدد من وحداته الأمامية إلى حيث الخطر، فيدفع بها إلى هجمات شبه انتحارية، كسباً للوقت، بينما يحتم على مؤخرة جيشه أن تستمسك بمواقعها فلا تترجح عنها مهما كانت الظروف، إلى أن تتعداها قوات زميلة، وظيفتها احتلال مواقع دفاعية إلى الخلف منها، فإذا توطدت فيها أصبحت هى المؤخرة الجديدة، ومن ثم مركزاً لانسحاب تلك القوات التى كانت من قبل هى المؤخرة.

«مؤخرة الجيش إذن، إذ تظفر بها إلى الخلف وحدات تلو أخرى فى اتساق تبادلى متواتر، هى الركيزة الوطيدة للجيش المنسحب، ليس فقط من حيث إنها مستلزمة مادية لا غنى عنها، ولكن لأنها أيضاً من دعائم الروح المعنوية، والتى هى عرضة لأن يعصف بها مجرد الشعور بأن الجيش قد فرض عليه التخلي عن مواقعه الأصلية، تراجعاً أمام هجمات لا قبل له بأن يثبت فينصدى لها؛ أما فى معركتنا هذه فأى هزة نفسية حرة بأن نقوض الروح المعنوية من أساس، إذ أدخل فى روع قواتنا، إذا ما اتتوت، فالطريق إلى تل أبيب أمامها منبسط، بل يلغنى إذ عدت إلى الوطن، أنه فى نفس الوقت الذى تحول فيه جيشنا إلى حطام، خرجت بعض صحافتنا على الملأ يعناوين، زائرة هادرة بأن قواتنا تطوى الأرض طياً إلى مشارف كبريات المدن الإسرائيلية، فأى فجوة تلك.. أى هوة بين ما نقول وبين ما هو واقع، كما تعودنا أن نفعل فى اللافئات التى ترفع!».

(٢٢)

ويتحدث صاحب هذه المذكرات بقدر من التفصيل على صعوبة الانسحاب المضاعفة حين يتم فى الصحراء المكشوفة، وإذا به يلفت نظرنا إلى أن المحافظة على الأجانب لا تقل أهمية عن الحفاظ على المؤخرة.

«إلا أن العبرة في حروب الصحراء، حيث لا قيود جغرافية، أو تكاد على الحركة، ليست في الحفاظ على سلامة مؤخرة الجيش وحسب، وإنما أن تؤمن الأجانب أيضاً، فهي من مواطن الخطر، هذا إلى عديد من تفاصيل أخرى مرتبط بقدرات الجيش المهاجم، خاصة إذا ما انعقدت له السيطرة على الأجواء، فينحتم أن تكون الدفاعات مستنائة وإن ترابطت من حيث دقة التوزيع، متناثرة.. فهي ليست أهدافاً سهلة لطائرات العدو ولكنها مترابطة بأن تكون مجالات نيرانها الدفاعية متقاطعة فلا يتأذى للعدو التركيز على أى من المواقع بغية اختراق الجبهة دون التعرض لنيران متأللة تحدى به فتأخذه من كل جانب».

ويزيد صاحب هذه المذكرات أسانا حين يذكر لنا إشكالية جديدة تتعلق بحسمية انسحابنا فى الليل بسبب التفوق الجوى للعدو بينما كانت قوانا نعانى من صعوبات جملة فى الحركة الليلية:

«ثم إن التفوق الجوى للعدو - خاصة إذا ما كان كاسحاً كما رأينا - يفرض على القوات المنسحبة أن تقصر تحركاتها على ساعات الليل إلا فى حالات نادرة من ضرورة قصوى. أما نهائياً فعليها أن تثبت فى استحكاماتها الدفاعية، مدججة بأسلحتها المضادة للطائرات، وإلا حصدت حصداً فى الأرض العراء، وأن تقابل مدرعات العدو. أينما تجمعت سعيّاً إلى افتتاح مواقعها، بهجمات «انتحارية» تعويقية، تكاد أن توهم العدو بأن قد قررت التحول إلى الهجوم المضاد، وأن تتخذ تلك الهجمات طابعاً «الصحائياً»، يفقد طائرات العدو القدرة على التمييز، فتجهم عن الضرب وإلا قذفت قواتها من ضمن».

«هذا من الناحية النظرية، فإذا تصفحنا الواقع الجغرافى وجدنا حقيقة كبرى تفرض نفسها فرضاً على أى مواجهة عسكرية بين إسرائيل ومصر، ألا وهى القيمة الاستراتيجية بالغة الأهمية لشبه جزيرة سيناء، إنها عبء فادح على كاهل أى قوات مهاجمة، أرض عراء لا مأوى فيها أو بكساد، إلا أن تعد خطوة تلو أخرى، ولا مراكز تموين، من وقود لمركبات الحرب والنقل، ضرورة لازمة منذ أن كانت الحروب الحديثة، ومن أطنان القذائف استمواضاً لما تستنفذه شراة المدافع تحركها آلية الإلكترونيةيات. ثم ما ليس منه بد من خزان للماء، رباً لآلاف من رجال، كميات ضخمة تنقل عبر المسافات الطوال وخلف الجيوش المنطلقة إلى أمام. وإلا أوهنت حركتها، أو أن بصيها الشلل آخر الأمر».

«ثم إنها أرض حبتها الطبيعة بمفاتيح جغرافية، آخرها وأحصنها نكاد أن تتشكل فى صورة خط متصل الحلقات - من ممر سلا جنوباً إلى سيخات البردويل شمالاً - خط يوازى مجرى القناة بعض الشئ، بعيدة عنه مع ذلك بما يكفل نصاباً من أمن، فهى خط دفاعى

أكثر من مثالي، عدد من مضايق وشعاب، بعضها خواتم رهيبة، تعطى لمن استحكم فيها القدرة على السيطرة على التحركات، أياً كانت، من مصر وإليها».

«إنها معاقل لا يفرط فيها أي ذي عقل أو إدراك، حتى يتم سحب جملة القوات عبر القناة؛ لو أن كان للانسحاب عبر القناة ضرورة!».

«إلا أنه لم يكن للتضحية بالقناة من لازمة سوى تلك التهيزات التي استلهمت، وكأنها الوحى، من واقع ارتكز على سالف ظروف لم يعد لها شبهة من وجود».

لـ

ويحاول حسين ذو الفقار صبرى أن يتأمل العلاقة بين القيادة العامة والقيادة الميدانية في حديث سريع متأمل لم يتح له بالطبع (وقد نشره في ١٩٦٨) أن يعرف ما عرفنا - وما لا نزال - نعرف عن تفصيلات انعدام الاتصال بين القيادة المركزية والقيادة الميدانية:

«ومن حق قواتنا المقاتلة علينا؛ وإنصافاً لها، التوقف قليلاً فنتساءل عما إذا كانت القيادة العامة قد ندرست الموقف من قبل مع القيادة الميدانية فتعد ولو خطة انسحاب نيمة يلجأ إليها إذا ما أخرجنا إليها الحال، كما تفعل جميع القيادات منذ أن أصبح للحروب أصول، فأقول في ضوء ما رأينا وعائنا أنى أشك في هذا كل الشك، إذ لم يخطر للقيادة العامة قط أن سوف يعوق جيوشنا عن التقدم عائق، بل أن قد تملكهم إيمان راسخ بأن تلك الهالة التي أخذت عليهم وقتهم فبحيكونها من حولها - أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط كما كانوا يقولون، المدعمة بصواريخ موجهة افتنوا، ليس في إعدادها للعمل الجدى، وإنما في إطلاق الأسماء عليها وفي طرائق عرضها أثناء الاحتفالات الرسمية المهيبة - هي وحدها الرادع كفيل يارهاب العدو فلا يتجاسر علينا».

(٢٢)

ويعود صاحب هذه المذكرات إلى المقارنة بين حربى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ وجدوى الانسحاب فى الأولى وخطورته المقاتلة فى الثانية فيقول:

الم يع صاحب القرار إلا أن انسحاب ١٩٥٦ استخلص لنا من براثن هزيمة مرتقة سلاحين رهيبيين: انسداد القناة فيضطرب تفكير الدولتين الكبيرتين المعتدلتين، إذ يملكهما جزع قاتل أمام احتمالات استنزاف مواردهما، فليس أمامهما إلا الاستعاضة

عن نفط الشرق الأوسط بأخر لا يباع إلا في سوق الدولار. ومن ناحية أخرى فقد نهياً لنا استنقاذ الكتلة الكبرى من قوتنا الضاربة، وزعت على أحياء المدن المواجهة للمواجهة فتحول إلى أداة رهيبة قادرة، إذ تربض عند تقاطعات الشوارع الضيقة إلى تفثيت الجيوش الغازية، بأن تفرض عليها نوعاً من حرب العصابات - هي حرب الشوارع - نبعث قوتها وترهقها، بل وتسلبها فرصة إحقاق القصد الذي إليه تطلعت. لا بديل لها عنه في ظل الظروف الدولية السائدة، إلا إحراز النصر سريعاً، وخلال أيام، وإلا فقدته».

«أما قرار الانسحاب هذا، بل قل تلك الاستصراخات الموجهة إلى كل صوب وكيفما اتفق، متخفية القيادة في الميدان، متراوحة بين جزأ أو وحوحة الحاج - إذا رفض الإذعان لسخطها بعض قادة وحدات - فقد صدعت بذلك الروابط الخفية التي هي قوام كل جيش، فتجبله من قوات نظامية متماسكة إلى أشنات تشذبه الذعر، فلا هم لها إلا محاولة الإنفلات من مصير بدا وكأن قد بات محتوماً، فريسة سهلة لشوارع عدو تحدوه شراسة تصميم، فيطحن بهم الأرض طحناً. وكأنما ذراوة خبث مطروق».

«أما عن ذلك السلاح الآخر المزعوم، انسداد القناة - وأنه لفي حقيقته ذو حدين - فقد انقلب علينا وعلى أصدقائنا يخسران».

«كانت الدول الغربية قد وعدت دروس عام ١٩٥٦، فتتجه ونبدأ إلى استحداث الوسائل التي تعينها على تجاوز العقاقب التي ربما واجهتها مرة أخرى. الناقلات البروتية الضخمة القادرة على نقل النفط، دون ما زيادة مرهقة في التكلفة: من حول رأس الرجاء الصالح، متجنبة مجرى القناة».

«فإذا بالقناة بنسد مجراها فتضيق تلك الدعامة حرية كانت أن تعين من كان قد أزمع فينصلي لربة السيطرة الاحتكارية الأمريكية، أو أن يتملص من خناق استثماراتها المتغلغلة».

(٢٤)

ولا يكف حسين ذو الفقار صبري عن العودة إلى انتفاذ قرار الانسحاب الذي صدر منها الحرب وهو يبدو قادراً على أن يغفر كل شيء [مؤقتاً] إلا قرار الانسحاب هذا وكأنه الشرك بالله، وهو يقول بكل صراحة ووضوح:

«دع عنك جميع الأخطاء التي تمثلت في الدفع بخيرة قواتنا إلى مواقع أمامية - وكأنا متحفزة للانقضاض - في حين اتجهت النية السياسية إلى التريث فتعنصر غلوات الضرية الأولى، استعداداً لتوجيه ضربتنا المضادة».

«دع عنك تلك اللامبالاة، فلم تدرب قواتنا فتمتس بأساليب حرب الحركة، وخاصة أثناء الليل».

«دع عنك أن أوامر الانسحاب صدرت بينما جلة قواتنا - ٨٠٪ أو أكثر - لاتزال سليمة، لم نلنحم بعد بالعدو، وقادرة لو لم تنتزع من قياداتنا الميدانية سيطرتها المركزية، أن توجه فتتقض على المدرعات الإسرائيلية التي اخترقت بعض مواقع من خطوط الجبهة فتتحققها وهي مرهقة بعد طول قتال».

«دع عنك حتى هذا الخطأ القاتل، إذ تكتمت القيادة العامة عن القيادة الميدانية السبب الذي دفعها إلى تعجيل سحب القوات... تحول سلاحنا الجوي إلى حطام في أقل من ثلاث ساعات، وكأنا هو سر الأسرار، في حين أنها حقيقة مروعة نصكهم في كل لحظة آثارها، وابل من متفجرات وعاصف من حميم مصهور، بينا لو وجهوا بأصل العلة ابتداء، لسارعوا فيفرضوا على الانسحاب أسلوباً من انتشار، ولا يضيع ما ضاع من أرواح وعادت، ولا تضطرب النفوس فيزعزع الإيمان إذ يدهمون من حيث لا يعلمون».

«دع عنك ذلك جميعاً، إنما الكارثة التي أودت بجلة مدرعاتنا وبآلاف من صفوة شباننا المجند، هي تلك الهجوم التي أحالت جيشاً نظامياً إلى أشات ليس لها من هم إلا الانطلاق - النجاة! النجاة! صوب القناة».

«ليس جميعاً، فهناك عدد من وحدات سيطر عليها قادتها فتماسكت وصمدت، وقاتلت قتال الأبطال».

«ولكن قوام الجيش ليس في صمود بضع وحدات، هنا أو هناك، وإنما في تماسكها جميعاً فتساند... كل لزميلاتها ركيزة ودعامة».

«الكارثة كانت في تلك الهجوم، ترتب عنها إخلاء المعمرات التي هي المفاتيح الجغرافية لشبه جزيرة سيناء... الكارثة في أن لم يتب صاحب قرار الانسحاب فيقه بأوامر صارمة للوحدات المراقبة من حول تلك المعمرات الحيوية، ليس بعدم إخلالها

فحسب، وإنما بتعزيزها وتحصينها، وخاصة ضد الهجمات الجوية وقد أسسك العدو بزمام الأجواء».

«لو أن فطنت القيادة في القاهرة للأمر، لتحطمت موجة الهجوم الإسرائيلي عند تلك الممرات فنكص عنها.. كلا! بل لاكتفت القيادة الإسرائيلية بالمناوشة عند مشارفها، دون أن تنجاسر فتحاول اقتحامها.. ربما أن تجهت إلى قذفها من الجو قذفاً عنيفاً بعض الوقت. ولكن الهجمات الجوية وإن كانت سريعة الأثر إذا ما صبت قذائفها على قوات متحركة في أرض فضاء، إلا أنها تفقد القدر الأكبر من فعاليتها أمام المواقع موطدة الأركان، والتي أعدت بحرص وإحكام».

ويروى حسين ذو الفقار صبرى أن كثيراً من قادة وحداتنا أخذوا يسيهون إلى إمكان الصمود وتحقيق نصر على العدو وقد استنفدت مدرعته مخزونها من الوقود وأصبح من اليسر علينا أن نحقق انتصارات على بعضها ولكن كان نبيهم بمضى من دون جدوى!!

«ورغم هذا الخطأ الفادح، ورغم أن جيشنا بات مكشوف الظهر، عرضة لأن يعتور من خلف، فكّم من قادة وحداتنا في الميدان تدمروا، إذ استصرخوا إلى انسحاب، فيسيهون قيادة القاهرة إلى أن المعلومات لديهم أكيدة بأن الجزء الأكبر من المدرعات الإسرائيلية في تقدمها المستمر الحافظ قد استنفدت مخزونها من وقود وذخيرة، وأن «طواقمها» يكادون أن يتهاووا من فرط إعياء، ولكن الأذان كانت قد صمت، أم أنها كانت تستفز وكأنما الإدلاء بمثل هذه المعلومات بمثابة تشكيك في صحة تقدير قرار الانسحاب فبادرة من تحد، أو إهدار لوقت وجب تكريسه لإنفاذ تلك «الخطّة» التي تفتتت عنها ألبية صاحبها، فيعود بعقارب الساعة إلى الوراء، إلى تلك الأوضاع التي انتزعت النصر من يرائن الهزيمة عام ١٩٥٦».

«وكانت الكارثة! إذ تخلص تلك الممرات الحيوية من القوات المربطة بها، فهي القوات الأقرب إلى منطقة القناة، حرية بأن يتم سحبها قبل غيرها.. يا للأذهان المنفتحة.. وكأنما الانسحاب هو مجرد عملية «الحق ودبلك في أسنانك»

هل لنا أن نعود الآن إلى صاحب المذكرات وإلى المذكرات لتأمل ما نجش به فقراتها من تعبير صادق عن الأحوال النفسية التي مر بها في تلك الأيام التي يسجل ذكرياته عنها، ونحن نرى صاحب هذه المذكرات وقد أصبح من أثر الصدمة لا يعرف معنى ترامى إليه الخبر بقبولنا وقف إطلاق النار، أي قبولنا الهزيمة ويمضى على مدى عدة صفحات يحاول أن يذكرنى عرف بالنبأ الحزين وكيف عرف به وأين، فإذا هو عاجز بينما الأمر محصور فى نطاق ساعات معدودة، صحيح أنه متقل فيها من دولة إلى أخرى ومن جو إلى جو، ولكن هذا لا يكفى لتفسير حالة الضياع الذهني التي أصبح يعانيها وهو يقدم لنا فى فقرات مطولة تحليلاً نفسياً فى غابة الروعة عن هذه اللحظات نتقطف منه على سبيل هذا قوله:

«لم أعود للأسف أن أدون لنفسى مذكرات شخصية، فإذا ما حاولت استعادة ما مر به من أحداث اختلطت على أحياناً بعض تفاصيل، فأعجز عن أن أحدد مواقعها من حيث زمان ومكان».

«فمنى ترامى إلى مثلاً أول ما ترامى ذلك الخبر عن قبولنا واحداً من قرارات مجلس الأمن المتلاحقة بوقف إطلاق النار؟ أهو مساء الخميس قبل مغادرتي لليونس أيرس، أم صباح الجمعة عقب وصولي إلى مدينة المكسيك؟».

«نقطة تحول حاسمة بالنسبة للمعركة وعواقبها، فكيف بذاكرتي نتعثر فتعجز عن أن تحدد متى وأين وصلنى النبأ؟».

«ويدفعنى إلى التساؤل ما كان منى حين قابلت ممثلى الصحافة المكسيكية إثر هبوطي من الطائرة صباح الجمعة التاسع من يونيو، كيف أن تنوه ذاكرتى عن الملابس المحيطة بذلك النبأ الخطير، بينما هي حاضرة الوعى إزاء تفاصيل مقابلة عابرة نبودلت خلالها كلمات مازحة نافهة مع نفر من رجال الصحافة؟».

وعلى هذا النحو يمضى صاحب المذكرات فى تحليله حتى يصل إلى قوله:

«لست أدري والله، لست أعلم إلا أن الأمر الأول صدمنى إلى دھول، وقد تألّبت على الأحداث من قبل فأصبحت أعانى من اضطراب للمشاعر عتيف، تمور بى إلى كل انجاء،

نرتفع بى أنا لتتحط بى حطاً بعد حين، فأصابنى تبرد وفتور فأعياء، وانفصلت أو يكاد عن المصالح الحسية من حولى، كأنما طففاوة من غشاء على صفحة الزمان الجارى فإذا ما صكتنى من بعد أحداث جديدة انطبعت لها فى ذهنى آثار ليس إلى محوها سبيل، إلا أن الذاكرة رغم ذلك خافلة عما أحاط بها من محوسات زمان ومكان^١.

وبمحاول صاحب المذكرات أن يعلق على هذه الحالة التى وصل إليها فى ذلك اليوم الحزين فيقول:

«ثم إن الانطباعات ليست مجرد آثار تتركها الأحداث فى حينها وتنفوت، إنما هى عملية لا شعورية مستمرة متصلة، يعمل فيها العقل الباطن على طمس معالم الألم ومواطن الأسى حرصاً على سوية النفس وحفاظاً عليها من اضطراب».

(٢٦)

ونحن نرى هذه المذكرات وقد حفلت بالتعبير الصادق عن المشاعر المتباينة التى تنالت على صاحبها طيلة هذه الفترة التى يكتب عنها هذه المذكرات. وهو يتحدث - على سبيل المثال - عن زيارته المكسيك، وقد توجه إليها بعدما كانت المعركة قد حسمت لصالح العدو، وأصبح يشعر بمشاعر الهزيمة بكل وضوح فإذا هو شأن الإنسان السوى يرى فى كل ما يحيط به ما يذكره بهذه الهزيمة، وما يكاد يدفعه إلى الإحساس المرهف بأن كل الناس لا يعاملونه إلا على أنه مهزوم، ونحن نراه وهو يقدم لنا لقطات من الإحساس بالهزيمة فى مطار المكسيك حين لم يجد مندوباً من الدولة فى استقباله على الرغم من أن الزيارة رسمية وقد تمخّذ لها موعد من قبل، وهو رجل حرفى فى التفاصيل منعدود عليها يحكم عسكرينه السابقة ومناصبه الدبلوماسية الكبيرة، وهو يصف نتائج فكره فى هذه الجزئية وصفاً صادقا فيقول:

«... من أن نفذت إلى مبنى المطار حتى أحاط بى رهط من رجال الصحافة متدافعين من حولى، فوجئت بهم وكأنما انشقت عنهم الأرض، ولا مهرب إلى خارج، فالإجراءات لم تتم بعد... نفر من أعضاء سفارتنا توفّر مع عبد الحميد إسماعيل على الإسراع بها ومعهم جواز سفرى وشهادتى الصحية، ثم عليهم انتظار تفريغ الطائرة فتجاز حقائبنا

جمركها، ولم تكن وزارة الخارجية المكسيكية قد أوقدت مندوباً عنها لاستقبالى. فالساعة مبكرة، هكذا قلت لنفسى معزياً لياها عن الحقيقة المرة، فالزيارة رسمية، إذ تحدد لى ميعاد مقابلة مع وزير الخارجية، فأن لا يؤخذ أحد رجال المراسم لاستقبالى فهى «جليطة» على أقل تقدير، ولكنى أرى بعين نازعة عن الهوى أننا لو كنا مكانهم لما فضلناهم: «ونروح له المطار على إيه...؟ بلا دوشة».

ثم يبدأ صاحب المذكرات فى تحليل الأسباب التى تدفع المكسيكيين أو غيرهم إلى إهمال شأنه فى مثل هذه اللحظة فيعترف بكثير من سلبيات سياستنا ودبلوماسيتنا ووسائلنا الإعلامية التى أهملت العناية بصورتنا الدولية مما جعل الصورة التى يقدمها أعداؤنا هى السائدة.

«فقد رسمت لنا الدعايات المسعورة صورة مشوهة مألها إلى إثارة شماتة العدو، بل وزارة كثير من بلاد توسنا فيها صداقة فإذا بها مدهات موتور. صورنا دولة تدك الأرض مرحاً فتكاد أن تحرقها بينما أنفها فى السماء، صورنا دولة غملاً الدنيا ضجيجاً وعجيجاً ونسبه بنفسها عجباً فلا يعنيتها لو نسبت فى اندلاع حرب نووية ضروس. ثم صورنا آخر الأمر دولة إنما من تجايف طبل قد هتكت عنها الأستار فجأة، فلا غرو أن تعترم (أى تتفاعل) فى النفوس تجاهنا مشاعر متراكبة من شماتة وزارة ثم سحق. أشد ما يكون أواراً هند أولاء الذين بذلوا لنا بعض اهتمام أو عناية، ليس عن اعتداد بتجزات نورتنا أو تطلع لثلاثها، وإنما عن ملق ومدارة».

على هذا النحو يصور صاحب هذه المذكرات حال بلاده فى تلك اللحظات التجايف من طبل هتكت عنها الأستار فجأة، وعلى هذا النحو أيضاً يصور مشاعر النفوس الأخرى تجاهنا فإذا هى شماتة وزارة وسخط.. إلخ. هذه الصورة البديعة التى يقدمها فى سرعة خاطفة بدقة بالغة.

(٢٧)

ولا يتوقف صاحب هذه المذكرات عند الحديث عن نتيجة الحرب فحسب. ولكنه يتابع كل ما لابد للمغترب عن وطنه فى هذه اللحظات من أن يتابعه، وهو سجين -

كالمعهد به في هذه المذكرات - تصوير اللحظات التي بلغه فيها استقالة الرئيس جمال عبدالناصر وتوجيهه عن منصبه، وكيف تابعت إليه الأخبار حاملة إليه هذا النبأ ما بين نبأ خاطف غير مؤكد، أو غير قابل للتصديق، إلى أن يصل إلى وصف مشاعره وهو يستمع إلى صوت الرئيس الذي يعرفه جيداً وهو يذاع مجلداً في وسط الأنباء العالمية :

«وأطفأت جهاز الإرسال فانكم صوت جولدمبرج [هو المندوب الأمريكي في الأمم المتحدة، وهو يهودي كان أكبر عمون لإسرائيل طيلة ما بعد الحرب في تعطيل أي قرار يفيد العرب أو يعيد إليهم حتى بعض حقوقهم.. ويوسع القارئ أن يتطالع بعض الحديث عن نصرافاته وسلوكه في الباب الثاني من هذا الكتاب وهو الباب الذي نعرض فيه لمذكرات محمود رياض] وانقطع هترة، وأثلجني بعض راحة وكأنا قد أقحمته، وساد الغرفة سكوت فأخلق بذهنى أتصيد الأفكار.. ساعياً بها إلى ترتيب وتنسيق وتسلسل، استعداداً لموعدي مع وزير الخارجية المكسيكية، وليس بينى وبينه إلا ساعات».

«ومضى بي الفكر مترسلاً محللقاً، ولا أدري كم سيجارة دخنت وكم من أقذاح قهوة ارتشفت، وكأنا شمر عبدالرحمن حسن بحاجتي إلى أن أدخلو إلى نفسي، فانسحب من الغرفة بهدوء، ولم يفته أن ينبه إلى من يمدني بأقذاح القهوة تبعاً».

«ثم إذا به يقتحم الباب، نافذاً إلى في خطوات مضطربة عجلية: «هناك إشاعة تسري الرئيس استقال...».

«وتحولت إليه بنظرات ساهمة، فأوصالي جميعاً قد سدرت إلى استرخاء، وقد سلبها استرسال الفكر أسياب النشاط».

«إن هي لحظة ثم أهب منفضاً، مبهوت الوجه، منبر الأنفاس...».

«ويسارع عبدالرحمن حسن فيقول: «إشاعة.. مجرد إشاعة...»، ثم يردف مغمغماً: «خبر التغطية موظف بالسفارة من إحدى الإذاعات.. حرب إشاعات.. محاولات للتشويش.. فقد حرصوا على القول بأن النبأ لم يتأيد بعد».

«ودار على عقبيه، ثم عاد والتفت ولما قد نخطى عتبة الباب: «سوف أتقصى الخبر بنفسى، إنى وأئن من أنه مختلق».

«وتذلق (يقصد وتتحرك) يدي إلى الجهاز فأعلى من نأمة (يقصد درجة) الصوت،
مشرعاً له سمعى: ١... إليكم الآن تسجيلاً بصوت ناصر نفسه».

«ولكن التسجيل المزعوم قد أخفت فلا يطنى على خنخة زعم أنها ترجم عنه،
ولكنى أحاول أن أتجاوزها فأنفذ إلى خلفيتها، وأعسر نغضى متصيخاً مستوضحاً: وى!
إنه الرئيس بعينه، فهذى نبرات صوته لا نخطئها الأذن، ولكنى عاجز إلا أن أنصيد شيئاً
منقطعا من كلمات: «آية عوامل... موقفى... قرار أريدكم... وفجأة تصكشى: ٢... أن
أنتهى تماماً ونهائياً».

وعند هذا الحد يصف حسين ذو الفقار صبرى مشاعره تجاه صدمة تحيى الرئيس
ويقول:

«ودهمت إلى ذهول فأغوص بأوصال مستأخدة فى مقعدى وكأنما الغوط ليس له قرار،
وينطبق الزمان إلى سكون وقد أمسكت به خبوط مستحكمة فكأنما الأرض قد كفت عن
الدوران، أم هو الوجود قد تلاشى إلى خواء، زمته قائلة رهية لا يمزق سترها إلا أن
تنفطر السماء أو أن يخسف بالأرض إلى أسفل سافلين».

(٢٨)

ويحرص حسين ذو الفقار صبرى فى هذا الكتاب على أن يصور لنا بدقة شديدة
معتقداته فيما يتعلق بأهمية الزعامة للشعوب والأوطان، وهو يشعل هذا من وحي الشعور
السائد يومها بأهمية الالتفاف حول زعامة الرئيس جمال عبدالناصر الذى وجهت إليه
والى أمته فى شخصيته أسمى هزيمة منى بها زعيم، وتعتمل هذه الفكرة فى نفسية
صاحب هذه المذكرات وإذا هو يعبر عنها فى أكثر من موضع من هذه المذكرات، وحين
يخلو مع نفسه إلى تأمل اللوحة الرائعة التى صورها ريفيرا فى مطار المكسيك يأخذ فى
تحليل اللوحة وما اشتملت عليه من عناصر الإبداع، ثم يعتمد تحليل ما اشتملت عليه من
عناصر التقصير كذلك، ويركز على الزعامات التى ضمتها الصورة، ويفيض فى شرح
الفروق بين هذه الزعامات مما لا أظن له محلاً فى كتابنا هذا ولكنه يخلص من هذا كله
بعد أكثر من عشرين صفحة إلى قوله:

«ويل للامة إذا فقدت الزعيم! ذلك الذى تجسدت فيه آمال الشعب فيبتدر نفسه لتحقيقتها، كاتبها جماع من تسول له نفسه أن يشط أو أن يشرده».

ويستأنف عرض فكرته عن الزعامة والشعب ويقول:

«صحيح أن الشعب باق بإحساساته العميقة وآماله الإنسانية العراض، ولكنها قوى مبعثرة، متناثرة بل متضاربة إلا أن نجد مَنْ يجسدها لها فى صورة حية على أساس من ثقة وتصميم، فلما الجماهير ملايين من أفراد، كل غارق فى مشاكله الملحة تأكل عليه وقته، عاجز عن أن يتفد إلى صميم المشاعر المتعملة فى صدره، فيسقطها الإسقاط الصحيح، مترجماً إيها إلى خطوات عملية تقوده آخر الأمر إلى حيث الصراط، بل أنسى له أن يتكيف مع الزميل بله الغريب، فيشكلوا من تعارضاتهم وحدة الاتجاه إلى الأفق البعيد حيث الصالح العام؟».

على هذا النحو يصور صاحب هذه المذكرات الزعامة مستلهماً صورة عبدالناصر فى ذلك الوقت ومستلهماً فى ذلك الوقت فكرته عن عبدالناصر وعن نفسه هو، فهو لا يصور عبدالناصر قائداً مهيباً أو حكيماً ذا ثورة أو منهج، ولكنه يصوره على نحو ما يتصور ويتصور المايسترو الذى يقود الخطوات ويوحد التنافر.

(٢٩)

وفى خضم حديثه عن القضية العربية وعن مهمته من أجل تعريف الدول التى بزورها بحقائق قضيتنا، نجد صاحب هذه المذكرات يستطرد فى حديثه عن خطوات رحلته الحاطفة ليقدّم لنا لوحات معرفية معبرة عما يصادفه فى سعيه، وحين تتأمل هذه اللوحات نجدها حافلة بالثقافة والعلم والتاريخ ونجدها حريضة على أن توضح لنا بعض أطراف الصورة التى نعرض لها مما له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بقضيتنا العربية، ومن هذه اللوحات تلك الفقرة التى يصور بها مدى قوة اليهود فى الأرجنتين، وهو يصف كيف كانت الشرطة حريضة على حمايته طيلة تحركاته، ويتطرق بانسيابية ملحوظة إلى الحديث عن نفوذ الجالية اليهودية فى الأرجنتين وحجم هذه الجالية والأصول التاريخية لها، بل وممارستها فى الحاضر. ولنقرأ كل هذا الذى يرويه فى عبارة مركزة حيث يقول:

«هاجمتني جموع الصحفيين والمصورين في أروقة وزارة الخارجية تسد على المنافذ، وأصررت مع ذلك على ألا أنطق بحرف حتى أنهى من مقابلي لوزير الخارجية».

«وتقدمني مدير المراسم يشق طريقه بصعوبة بالغة، بينما أحاط بي من شمال ويمين رجال الشرطة السرية المكلفان بحراستي، فالأرجنتين هي معقل الجاليات اليهودية بأمريكا اللاتينية، أضخمها حجماً، إذ تناهز نصف المليون، وأقواها نفوذاً، إذ قوامها الأثرياء من يهود ألمانيا الذين فتح أمامهم هتلر باب الهجرة حين نولي الحكم. كذب من قال إنه عمل في اليهود قتلاً في سنه الأولى، بل إنه فتح لهم الأبواب على مصاريعها حينذاك، أما من اختار منهم البقاء فإما عن رغبة أو سعياً إلى غرض، ولكنها قصة أخرى طويلة».

«يهود الأرجنتين، كما لاحظ الرئيس الأسبق فرونديزي - حين اختطفوا أيخمان - دولة داخل الدولة، كلاً بل دولة تغلغلت إلى أدق تفاصيل الدولة فسيطرت عليها داخل».

«وربما كانت أجهزة الأمن - كما لمست في زيارتيين سابقتين - هي الوحيدة التي قاوم رجالها ذلك التغلغل، إذ لا يكاد يمر بهم يوم دون أن يضعوا أيديهم على عصاة تهريب أو وكر للتغريب بالفئات - بضاعة تصدر لبيوت الدعارة حيثما تكون - أو أن يكشفوا عن تلاعبات مالية تحت ستار تصفية أعمال أو إعلانات إفلاس مختلفة، أو أن يقموا على شبكات استزاف قوامها «بلسطجة» وقحة أو أندية ميسر مرفهة أنيقة، ورعوس الشر فيها جميعاً يهود أو واجهات تسنر من خلفها يهود».

(٣٠)

وفي مقابل هذا الأثر الفعال للجالية اليهودية في الأرجنتين، فإن صاحب هذه المذكرات يعتقد في التخاذل التام للجالية العربية في تلك البلاد، وهو لا يردف هذا الحديث بذلك ولا يعقد مقارنة مباشرة، ولكن القارئ لهذه المذكرات يعقد المقارنة من تلقاء نفسه. ولنقرأ هذه الفقرة التي يتحدث فيها عن تخاذل الجالية العربية في الأرجنتين: «وكنت قد سمعت عن مخاوف أبديت في بعض الأوساط من أن يتحرك أفراد من

الجلالية العربية متظاهرين، فتصمدى لهم الجلالية اليهودية بالمثل فتقع بينهم مصادمات، ولكنى كنت بتخاذل رءوس الجلالية العربية فى الأرجنتين عليهما، فكم من اتصالات دارت، كلما يشتد أوار الدعاية الصهيونية، مع رجال الإعلام، ومع القائمين على محطات التليفزيون على وجه الخصوص، فيردون بأنها برامج تحتاج إلى تمويل، وأن الجلالية اليهودية تدفع، وتدفع بخفاء، فلو أن اجتمع المغتربون ودفع الواحد منهم دولاراً واحداً لا غير، فإنها عندئذ حصينة محترمة من منات الألواف، كفيلة بإعداد برامج لها وزن، فإذا ما نقل الكلام إلى أقطاب الجلالية العربية وقع من أذانهم، «كالأذان فى مالطة».

ولكن أحداث العدوان نجحت فى الدفع بهم إلى الاجتماع آخر الأمر، فتمخضت حميتهم عن خمسة وسبعين دولاراً.. أو هكذا قيل لى!.



وبعد أن بسرد ذكرياته عن حفل عشاء فخم أقيم تكريماً له أثناء زيارة سابقة فى سنة ١٩٦٤، وبعد خمس صفحات من هذه المذكرات يعود صاحب هذه المذكرات إلى موضوع الدولارات الخمسة والسبعين متحدثاً فى أسى وأسف ويعقب بقوله:

«اجتمعوا إذن بالأمس. ثانى أيام العدوان، تلك هى القصة كما طرقت مسامعى، فجمعوا خمسة وسبعين دولاراً، فماذا هم بها فاعلون؟ وصاح أحدهم فجأة بأن تستخدم فى إرسال برقية تأييد، ولا أريد أن أنقل عليكم حمزى من تفصيل، وإنما الذى يعيننا أنهم قرروا بعد نقاش طويل توجيهها باسم الرئيس جمال عبدالناصر، إلا أن ذلك اللوذعى الذى كلف بصياغتها أخذته الحمية فتجاوز بكلماتها الحد المباح، فهى عندئذ تتكلف ثمانين دولاراً، فأين لهم بالخمسة الباقية؟ وكان أن تكفل أحدهم بالانكباب عليها فينكمش بها داخل الحدود المالية التى رسمت لها!».

(٣١)

ولا يكتفى صاحب هذه المذكرات بالحديث عن الجوانب الدولية والاستراتيجية والعسكرية لأزمئنا، بل إنه وهو انشوب حماسة وانفعالا، يتطرق باقتدار شديد إلى النواحي الاجتماعية والنفسيات للمجتمع العربى بعد الهزيمة. وحين يروى صاحب هذه المذكرات تأملاته بعد عام من العدوان فإنه يحرص على إيضاح رؤيته المستنيرة تجاه ما

ساد المجتمع المصرى فى ذلك الوقت من أهمية وضرورة الرجوع إلى الدين، ويبدو حسين ذو الفقار صبرى واعياً للاتجاهات الاجتماعية السائدة بين مواطنيه، فهو يناقش هذه الاتجاهات ولا يتجاهلها ولا يتعالى عليها، ولكنه يعبر بحكم ثقافته ووطنيته بل وتدينه كذلك عن فهم عميق لدور الإيمان والتدين والعمل فى مصائر الشعوب، وهو يخرج من إطار الدروشة وإطار التشكيك ليصل إلى جوهر الحقيقة التى يسهل علينا اليوم فهمها، ولكن من الإنصاف أن نذكر أنه كان من الصعب فى ذلك الوقت أن تتقرر على هذا النحو الصريح، فقد كانت سطوة اللادينية مازالت قائمة، وكانت سطوة الغيبات على عقول العامة أقرب إلى النفاذ من سطوة الدين الحقيقى، وهكذا كان من الصعب حتى على علماء الدين الكبار أن يجابهوا أسطورة ظهور العذراء فى كنيسة بالزيتون. ولكن صاحب هذه المذكرات يتناول هذه القضية فى وضوح وتدين ويقول:

«أول ما لفت انتباهى فى اعتقاد العدوان تلك الموجة الغالبة من ضراعة إلى الله، ولا غرو فهو التصير حين لا يكون نصيراً ولكنى أنساءل: أهي صادقة حقاً؟ أصادرة هي عن قلوب أنعمها الإيمان فعلاً؟ أم تراها قول لسان؟ أو أدهى من ذلك . صرخة اليأس كتلك التى أطلقها فرعون بأن قد آمن، وما كان ليقولها لولا أن أدركه الفرق!».

«ما من مكان إلا وعلقت به الآيات الكريمة، تراها حيثما كنت، وأنى توجهت.. فى الطرقات، فى الحوانيت، فى المكاتب، وعلى جدران البيوت.. واحدة منها هي السبابة إلى الأناظر ولا منازع، فنحن نعانى من آثار هزيمة نكراء، لا يمحوها إلا النصر، نصر من الله وفتح قريب!».

«إن ينصركم الله فلا غالب لكم»، حروف تشع بنور فى كل مكان فيلهج بها كل لسان، هكذا قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز: «وإنه على وعده لحفيظ».

«ولكن مهلاً! فقد أتبعها تعالى بما فيه توضيح وتحذير لمن أراد أن يتدبر ويتعظ: «وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون».

«فإن الله لا يوزع النصر جزافاً، إنما هو الوعد الحق لمن استحق! وإنه لوعد حق - ما فى ذلك مرية - ولكن ليس كما اعتقد من أنه أن يقعد عن السعى.. فليس للإنسان إلا ما سعى!».

«وكانى بنشر نتيجهم فيبرطم بذلك السؤال الاستنكارى التليد: «وهل ينخلى الله عن المسلمين!».

«ولكن مهلاً مهلاً مرة أخرى! بل أربع على نفسك قبل أن يجمع بك اللسان فتلويه يقول يغويناً بالاستكانة إلى عصى الأمور.. نحسبه من الكتاب وما هو من الكتاب! فإنما اختص الله برحمته أصحاب دار الإيمان، وليس من وعد لمن عبده على حرفه!».

«ولذا فكم أثلجني أن أرى بعض تحول - طفيف للأسف ولكنه بداية على كل حال - حين اتجه البعض إلى تلك الآية الكريمة الأخرى، واضحة المعنى لكل ذي فهم، فصرت مداركه أم اتسعت، والني تصور حالنا أصدق تصوير، إذ يقول عز وجل: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

على هذا التحو يؤكد حسين ذو الفقار صبرى بما يستشهد به من آيات القرآن الكريم على أهمية العمل وعلى أن للقضية وجهين، قاله القادر على نصرنا سيخذلنا أيضاً إذا كنا نستحق الخذلان!! وهكذا يتجو صاحب هذه المذكرات بنفسه ويقرائه من النزعين السائدين وقت كتابة المذكرات، نزعة اللادينيين من ناحية وما كان أكثرهم، ونزعة المتواكلين الجدد وكانوا قد بدأوا يتكاثرون.

(٣٢)

ولا يخلو هذا الكتاب من حديث عن المواقف الدولية التي فرضت نفسها على قضيتنا عقب الهزيمة، فإذا به في هذه المذكرات يصرح بموقف معاد لإيطاليا يستشهد على صحته بجداول الاقتراع في الأمم المتحدة، ومن العجيب أن نرى في مذكرات محمد حافظ إسماعيل (الباب الأول من كتابي: مذكرات قادة المخابرات والمباحث) أنه كان بدأ يرى بصيص نور في الموقف الإيطالي حين كان سفيراً لنا في روما حين وقعت الحرب!.

«ونظرة منا إلى إيطاليا.. دولة البحر المتوسط التي ربطنا بها أوثق الأواصر منذ القدم وعلى مر الدهور، هي نفس الدولة التي اختلجت أوساطها الصناعية بنقنات من روح «الريكو مانى» الموثبة، فإليه يعود الفضل الأكبر في قلقله قبضة الاحتكارات الأمريكية على مصادر النفط العربي، فتتزعزع ابتداء دول المنطقة لنفسها نسياً أعلى من فائض الأرباح - نظرة منا إلى إيطاليا.. فهي إلى جانب ذلك كله أكثر الدول الغربية تأثراً بالمرور بقناة السويس، فراها - ولا عجب فهناك السبب! - الدولة الوحيدة من دول المتوسط التي

انحازت جهاراً نهاراً إلى إسرائيل، وإن جداول الاقتراع على قرارات الأمم المتحدة في هذا الصدد لشاهد على ما أقول!». .

«كلاً! بل ألهمت فيها المشاعر، وكأنها مبتعثة بعد طول احتجاز... انفعالات هستيرية، تعود بهم القهقري عبر الزمان. فيؤدون التحية لقادة إسرائيل. افتخاراً بهم، وكأنهم أبطال العصر «الموسوليني» المجيد!». .

«وأين إذن أصدقاؤنا الذين نعرف من أقطاب الحزب الحاكم؟ أين كلمة الصدق التي كان عليهم أن يدفعوا بها، ليس دفاعاً عن حقنا، وإنما إفضاحاً عن رأى آمنوا أن فيه مصلحة بلادهم آخر الأمر، إبراء لذمة ضمير وإيلاء لفرض أمانة منصب أو مكانة؟ كم من مرة خلال جلسات صاحبة البرلمان الإيطالي سمعنا عن عضو يارى قام يستند بالعدوان الإسرائيلي، فلا يحظى من هؤلاء النفر إلا بالإيماءة تسرق بها الرأس، يود صعبه لو أن غاص بها بين كتفيه، فكأنها اختلاجة لا إرادية وليس إبداء لرأى عليه احتمال وزره». .

«ولكن أكثر الدول تأثراً باستمرار انسداد القناة هي قطعاً دول الكتلة الشرقية الصديقة، المظلة بموانئها على حوض المتوسط وامتداداته المائية عبر مضائق البوسفور، إذ تقطعت أسباب اتصالها المباشر بدول آسيا وشرق أفريقيا، فتصاب حركتها التجارية معها بأضرار فادحة، بل أدهى من ذلك إذ تعطل إمدادات الاتحاد السوفيتى بالغة الحيوية إلى جمهورية فيتنام الديمقراطية، وتفرض عليها أعباء النقل البحري الطويل من موانئ البحر الأسود عبر المضائق، عبر جبل طارق، وأخيراً حول رأس الرجاء الصالح صوب جنوب شرقي آسيا، أو النقل برّاً، باهظ التكاليف، عبر القارة الآسيوية جميعاً إلى فلاديفوستك من موانئ المحيط الهادى». .

(٣٣)

ويعترف صاحب هذه المذكرات بأنه كان هو نفسه صاحب القرار بإنهاء مهمته وعدم استكمالها، وعلى الرغم من أن المؤسسات الدبلوماسية في الدول اللاتينية التي تضمنها برنامج زيارته كانت فى انتظار زيارة مبعوث مصر إليها ولم تعتذر عن هذا الاستقبال

بسبب قيام الحرب أو بسبب حسمها لصالح إسرائيل، إلا أن أثر الصدمة المروعة التي خلقتها الهزيمة كان يمضى فى اتجاه إلغاء هذه المهمة الدبلوماسية حتى لو لم تصدر بهذا تعليمات، ومن ذا الذى كان قادراً فى ذلك الوقت على إصدار تعليمات؟ إنما هى روح الشرق الحساسة المزهفة تجعل أهل البيت يهرعون إليه حين تقع الواقعة وتنزل الكارثة فيتجمعون فى دارهم الكبيرة لكى يتشاركوا وجدانياً فى الأحزان، ويبدو أن هذا هو ما دفع صاحب هذه المذكرات إلى أن يتخذ قراره [مرة بعد الأخرى] بقطع زيارته والعودة إلى الوطن.. مع أنه سهل علينا اليوم أن نقول وبأعصاب باردة إنه كان من الضروري لزيارته أن تستمر حتى لو تعدلت الأحاديث التى سينحدث بها إلى المسؤولين فى هذه الدول من إيضاح موقفنا أننا لن نبدأ، إلى إيضاح الحقيقة بأننا بالفعل لم نبدأ.. ولكن يبدو أن المفروض الذى أقدمه الآن يبدو وكأنه أقرب إلى التعسف، فلم تكن دبلوماسيتنا فى ذلك الحين على هذا القدر البالغ من المرونة أو توقع البدائل أو تغيير الخطط، هذا فضلاً عن أن وسائل الاتصالات نفسها لم تكن بمقدارة على أن تحقق اتصالات تليفونية مباشرة على سبيل المثال، أضف إلى هذين العاملين أن الصدمة نفسها كانت أقوى من كل تفكير ومن كل تخطيط.. ولنقرأ على سبيل المثال هذا الذى يرويه صاحب المذكرات عن اضطراره إلى إلغاء زيارته لشبلى بعد تردد :

«... وكنت قد أبرقت إلى القاهرة، مرة تلو الأخرى، أطلب التعليمات هل أعود أم أستمّر؟ إذ تغيرت طبيعة مهمتى منذ أن نشب القتال، ولكن ما من مجيب، ولا غرو فأحداث العدوان قد شغلتهم عما عداها، فقررت أن أستمّر، خاصة وقد تقاطرت مكالمات تليفونية من سفرائنا فى دول أمريكا اللاتينية الأخرى، يلح كل منهم أن أسارع إليه عسى أن يكون لاتصالاتى بعض أثر على الجهات المسئولين فى هذه العاصمة أو تلك».

ثم نقرأ فى تعجب واندعاش السبب الذى جعل سفيرنا فى شبلى يسارع ويؤكد على طلبه منه ألا يزور شبلى تقديراً وتخوفاً لعواقب الحماس المنفعل فى أوساط الجالية العربية بسبب سقوط القدس العربية فى أيدي القوات الإسرائيلية(!!):

«ويذكر جرس التليفون بالحاج، إنه توفيق شاتيل، سفيرنا فى سانتياجو، فى حالة من اضطراب بالغ، كلمانه يركب بعضها البعض، وأحاول أن أحثه إلى هدوء، ولكنه جافل البروق كأنما حواسه جميعاً قد تركزت فى لسان قد قمص إلى جموح، فأنترك الساعة

إلى صالح محمود، وتفهم بعد لاي أنه لا يريدنى أن أذهب إليه، بل يلح ألا أفعل، فالجالية العربية فى شيلى هاتجة مائجة بعد ورود أنباء سقوط القدس القديمة فى أيدي القوات الإسرائيلية. وأنه لن يسنى وتلك حالهم أن أقوم باتصالات يرجى منها أى فائدة مع حكومة شيلى، بل ربما نعذر على مقابلة المسئولين، فما أن تطأ قدمى أرض مطار سانتياجو حتى تحاصرني جموع الجالية بالآلاف من تساؤلات واستفسارات، فلا يتركوا لى فسحة أو فرصة للتحرك أو أى اتجاه.



ونقرأ بعد هذا كله تصويراً نفسياً دقيقاً يلخص به صاحب المذكرات المشاعر الحقيقية التى اضطرت فى صدره فى تلك اللحظات والنمى جعلته يتخذ قراراً قد تنصوره اليوم غير مصيب فيه. ولكننا كما ذكرنا فى مواضع كثيرة من نسقنا للمذكرات لا نطالب صاحبها بالصواب ولكننا نطالبه بالصدق، وها هو قد فعل وأجاد التعبير عما حدث بالضبط:

«ولوحت لصالح محمود فى ضيق وضجر أن يخبره بأنى لن أسافر إليه، وكانت أطرافى فى رعشة من فرط انفعال، اتخذت قرارى هذا فى التو واللحظة، وكأنا أزيح به عن كاهلى عبئاً يعوقني عن سرعة العودة إلى أرض الوطن حيث المعركة على أشدها، ولكن ضميرى ينكتني بوخز اليم كأنى قد نكصت عن ميدان كان على أن أخوض عرابه».

ثم يتحدث صوت العقل الذي يسميه صاحب هذه المذكرات بالوخز (كأنه يقصد التعبير الشائع وخز الضمير).. أو بعبارته هو وخز الألم.

ويذكر حسين ذو الفقار صبرى الأسباب التى جعلته يحس بالندم لقراره المتسرع بإلغاء زيارته لشيلى فيقول:

«شيلى هى أصلح الميادين لنا فى أمريكا اللاتينية، حكومتها لها اتجاهات اشتراكية، وجاليتها العربية - غاليتهم المعظمى من الفلسطينيين المتحمين - أكثر الجاليات تماسكاً، وأقواها شوكة، تملك القطاع الأكبر من المصارف والمؤسسات المالية الكبرى، ثم إنها، على عكس نظيرتها فى الأرجنتين، تنقد حماساً لعروبيتها لا تسلوها، بل إن سر قوتها وتفوذها يكمن فى أنها عرفت كيف تمزج بين ولائها لوطنها الجديد وبين الأواصر الروحية التى تشدها إلى أصولها فى الشرق البعيد».

ويعود صاحب المذكرات ليبدى الندم والأسف على تسرعه فى اتخاذ القرار بإلغاء زيارته لشبلى ولكنه يحاول أن يتلمس من معرفة السفير المصرى فى شبلى الأمر الواقع عذراً بكفيه هذا التأنيب واللوم لنفسه، وعندى أن هذه العبارات التى يراوح فيها التعبير عن الصراع النفسى بين اللوم والتأنيب والرضا والصبر تمثل ذروة من ذرى التعبير عن التجربة الشعورية التى يستحضرها كاتب المذكرات وهو يروى ما مر به من تجربة نفسية لم يطلع عليه فيها أحد، ولكنه يجيد إطلاعنا عليها وإشراكنا فيها على هذا النحو الذى نقرأه:

«قرار اتخذته فى التو واللحظة، وفى قلبى ضربات من حسرة وتبكييت ضمير نسعى إلى احتدام، فأسكن من حسيما عليها أن تبوخ وتهمد، فالسفير أدرى بوائع الحال، بمثابة القائد فى الميدان، أو هكذا يجب أن يكون، وإن لم يكن، فكفانا حالته النفسية وما هى فيه من اضطراب، خلية بأن يكون لها انعكاسات قد تودى بأسباب النجاح الذى أسمى إليه فى مهمتى، أو ربما تحولت بجهودي إلى تقيض هدف».

«ثم إنى فى أقاصى المعمور فأنبوق إلى أن أطلع على «وش الدنيا» كما يقولون، فأكون أقرب إلى المنطقة التى هى قلب الأحداث».

وفى وسط كل هذه الأحاديث السياسية والدبلوماسية والفلسفية يتعد حسين ذو الفقار صبرى بنفسه بعض الشئ عن حياة البشر وقلقهم وطبائعهم، ولكن سرعان ما تتباهى الهواجس عن أسرته حين يذكّر أصدقاء الهجوم الإسراىلى على بلاده بينما هو بعيد عن الوطن وعن الأسرة، ومذكراته تعبر بدقة بالغة عن مشاعر القلق ومحاولة الوصول إلى الطمأنينة النفسية فى مقابل هذا القلق النفسى الطبعى فيقول:

«كلا! لا يمكن أن يكون قد حدث لزوجى شئ». ولكن.. لاشك أن أصابها جزع.

وهي المرفقة الحس، رقيقة عطوف، إذ بدأ الضرب، بينما خالد، طفلنا الصغير التحيل، لم يتعد العاشرة بعد، بعيداً عنها في مدرسته قبالة مطار الماطة...^{١٠}

ثم يبدأ في تذكر أولاده :

«وأحاول أن أهدئ من نبضات دم متدافع فلور، وماذا عن عمرو، ابني الآخر الطالب بالجامعة، فقد سارع إلى تقييد اسمه بقائمة المتطوعين؟ أن يصاب هذا أو ذلك بمكروه لكفيل بأن يتخلع له فؤاد زوجي وتثقل من أسى وولده، لا قدر الله!».

«أم أنها ابنتي أو زوجها أو أحفادي منهما...»^{١١}.

ويصور الطمأنينة التي يريدها لنفسه ولكنها تنأى عليه في هذه اللحظات :

«وأحاول أن أطرد الهواجس عني، فلا مدعاة لتطير، فإن استيقاظي في ساعة مبكرة عادة لأزمتني في أسفاري، وخاصة في تلك الليالي الأولى التي تعقب انتفالي من مكان إلى مكان جديد، فيعود ويهجم بي الهاجس... إنها لم تكن مجرد يقظة وإما اجفالة نضحت ذهني إلى حالة من تبه غريب».

ثم تترأى له صور الدمار الذي يمكن أن يكون قد حاق بوطنه :

«وأرى بعين الخيال القنابل تساقط على مطاراتنا، وتلاشي صورة أهلي الأقرين، فلا أشعر إلا بما يشهد وطني من أخطار، كلنا فداء له! أنا وزوجي وأولادي وأحفادي جميعاً!»^{١٢}.

وتنتابه موجة من تقليل الثقة في النفس حيث لا يمكن له أن يحقق شيئاً بينما هو بظن نفسه قادراً على الفداء... وماذا يجدي الفداء... وكيف يمكن أن يكون وهو بعيد جداً:

«فأسخر من نفسي، فأنا هنا في بيونس أيرس على آلاف الأميال من ميدان القتال، فكيف أقحم نفسي في الحديث عن الفداء؟ أقدم أهلي قرباناً، بينما أنا في حمى من بعد مسافة وأسفار زمان؟ أه لو أتي هناك».

«فإذا ما عدت وقد وقعت بهم نازلة، لا قدر الله! فأين موضعي وقد فقدت الرحم والأسرة؟ وطني الصغير ومثله آلاف أخرى يأوي إليها المرء، فتشابك وترابط إلى ذلك الوطن الكبير الذي يؤمنا جميعاً».

ويختم حديثه في هذا الموضع بالتعبير عن الضياع المطبق عليه ويقول :

«أين مكاني في أرض أعرف فيها ألف وجه ولكن قلبي فيها حائر لا يدري له نوباً أو مستقراً؟ أهبم كالتنازع إلى غربة، ضائعاً وسط الملايين، فشقيق بين الدنيا على سعتها وكأنما ليس لها طول وعرض؟».

(٣٦)

ونحن نرى صاحب هذه المذكرات وهو يؤكد على هذه المعانى عند حديثه (بعد بضعة أيام) عن عودته إلى بلاده والاستقبال الذي حظي به في المطار ولقائه بابنه عمرو وقد تخيل فيه أو تمثل قدرة الجيل الجديد على إنجاز ما فشل جيله هو في إنجازه :

«وتقابلنا عدة وجوه متطلعة.. إنني أكاد أعرفهم جميعاً، فهذا مدير المطار وأحد مساعديه، زميلان قديمان من القوات الجوية، وكبير المهندسين وبعض أعوان، يتظرون إلينا متصفحين كأننا مخلوقات قد هبطت عليهم من المريخ».

«أصافحهم في صمت إلا من اختلاجة شفاء كأنى أعمغم بتحية، ثم يصيح أحدهم: «الله.. أنت كنت بره...».

«آه...» ثم أمضى ثقیل الحظو نحو المبنى.. ويقبل على أحد رفاق هذه الرحلة الكثيرة الحزينة، فيشد على يدي في عنف حتى يكاد أن يخلعها، محبباً إياي بسلامة الوصول، فأثمت رداً على تحيته وأسارع فأشيع عنه بوجهي، خشية أن تطفر من عيني الدموع».

«ولكنني أشعر بها تزاحم جفوني إذ أرى ابني عمرو مقبلاً، في لباس المقاومة الشعبية، خشن الوجه من لحية امتد بها العمر أياماً ثم تراها أسابيع أو شهوراً».

«عمرو.. أزيلك...» ويكاد أن يختنق صوتي فأغالب نفسي ضاغطاً على مخارج الحروف... «أزيبهم كلهم...».

«وأستدير فجأة ساعياً إلى حيث باب الخروج، ماداً ذراعي فأحيط بكامله فلا يتخلف عني...».

«وأضرب بعيني إلى أعلى، إلى السماء التي تظل أرض وطني، فتبدو وكأنها ترون علينا بزمته خائفة، وأبدل الجهد تساقاً، مغالباً نفسي فلا أتداعى، بينما أوصالي جميعاً ترتعد من فرط انفعال...».

«وأختلس إليه نظرة إذ يمشى بعذائي.. هذا به قد شد قليلاً إلى أمام، صلب العمود، ثابت المخطو.. وينشع عن فجأة ذاك الشعور الذى يلزم الأب أبداً بأن ولده مازال بعد طفلاً..».

«قاله. هاك هو قد استوى إلى رجولة.. واحد من عشرات من مئات الألوف هم عماد جيلنا الصاعد!».

«وإذا بأوصالى قد تأسكت، ويدب فيها على استخفاء أول الأمر نيار متصاعد من ثقة وأمل، فتفرع قامتى ويشند خطوى وأمضى معى، كنفه لصق كنفى، إلى أمام».

(٣٧)

وفى خضم هذا الحديث الاستراتيجى المنفرد كله فإن صاحب هذه المذكرات يبدو وكأنه حريص كل الحرص على أن يتحدث باستفاضة وتأمل عن محاولة إغراء تعرض لها فى حفل الجالية العربية فى الأرجنتين سنة ١٩٦٤، وهو يتذكر هذه الواقعة المثيرة (له) أثناء حديثه عن تخاذل الجالية العربية فى الأرجنتين تجاه حرب يونيو ١٩٦٧، ومن المهم أن نقرأ هذا الوصف الجميل المعبر الذى أفرغ فيه قدراته على تصوير الملذات الحسية، ونحن نشكر له حرصه على أن يطلعنا على هذا الجانب من قلمه من ناحية ومن الحياة التى صادفها من ناحية أخرى، كما نشكر له حرصه على إيراد هذا الحديث مع أنه كان فى وسعه أن يحذفه من الكتاب فى الطبعة الأولى، وكان فى وسعه مرة ثانية أن يحذفه فى الطبعة الثانية، ولكنه احتفظ لنا به نصاً من نسيج هذا الكتاب وكانت شجاعته تفوق شجاعتي أنا المؤلف الذى أجلت الحديث عنه إلى نهاية هذا الباب:

«ثم إن يتهن نسوة لا يدفمن إلى الحفل مجرد توق إلى مباحاة أو مكابدة من حيث رشاقة أو جمال أو علو ثراء، فإن لبعضهن مأرب أخرى».

«حاصرني خمس أو ست، واحدة برتهن جميعاً أسلوباً وجراً مغلفة بمكر لاشك أنها تمرست عليه، هى بضرة رخصة رطبة، عيناها الخضراوان نسقيانك طهراً وبراءة، اخترعت قصة عن ابن عمومة لها لاشك أنى أعرفه، فهو ضابط سورى انتقل إلى ميدان السياسة،

كثير الترحال إلى القاهرة، ولكنى لا أذكره ولا أعتقد أنى رأته، ولكنها تلح علىّ أن أذكر فيخفت صوتها إلى نبرة من توسل هامس، وتتأود وهي تتكلم فتستل إلى أمام حتى أكلت المسافة التى بيننا، وأصبحت أنفاسى تداعب جيدها وتحرها، وأكتنفها العارية تعكس الأضواء كأنما بشرتها من زجاج وقراق، ولم تعد بى حاجة إلى اختلاس النظر إلى طوق نوبها الذى انحسر عن صدر عاجى رحيب، فقد كبست حتى أصبحت ملء البصر تحجب عن عيني ما عداها، وأنظر فأعجب كيف أن نوبها ما يزال منبئنا بمكان، لولا أن نهذا له ما يناهده، فهو بحنايا جسدها لصيق، مخروخ يتلأل مع الأضواء إذ لا تنى صاحبه عن التئني.

«وبدأت أشميب عرقاً وقد تملكى الحرج اليس لها زوج وأين هو؟ وماذا يكون موقفه إذا ما نظر رأتى؟ أم أنها لم تزوج بعد؟ فهى فوق العشرين بقليل، فأين إذن صاحبها من أب وأم أو أقارب أدنين؟»

«ولكنى قد حوصرت وظهري إلى جدار القاعة، وصدرها يكاد أن ينطاع جسدي يمين وشمال، وتلفتت حولي أبغى خلاصاً ولكن الجميع عنى فى شغل شاغل وقد شدتهم تلك الاهتمامات التى هى بعض دوافعهم إلى إقامة هذا الحفل، وإذا كان نفر قد لاحظ ما أنا فيه فرمى أن سرهم الحال فتخرجوا من أن يحرموني شعة لاشك أنى سعيد بها فى اسار حلقة الانسجام المضروبة من حولي».

«وفيما أنا أتلفت وفعت عيني على تلك الفتاة الأخرى التى كانت ألصق من غيرها بصاحبيتنا، إنها أصدق صديقاتها ولاشك، سمراء نحيفة القوام عظيم، وإن كانت ملفوفة الأطراف، تتابع الحديث بابتسامة خفيفة تنم عن رضا، فإن للصدافة فروضاً، أو ربما هى من اللاتي، وخاصة إذا كن لا يشتمعن بمسحة ملفنة من جمال، فيجدن غبطة أو نسلية فى «التوفيق بين رأسين» ولهن فى الحرام مجالات أوسع منها فى الخلال، وأنى لها بمنل صاحبتنا طعماً شيئاً تفور له الدماء، ويسيل له اللعاب».

«ولكن إذا تقابلت الأعين فقد حدجننى فجأة بنظرة كأنما من صقر جارح واضطربت أطراف أنفها الصارم كأنما قد مسنها رعدة، ثم حركة طفيفة باعدت بها يتيها وبين صاحبيتها فتستنى تبعيتها لها، ولكن مع ذلك لا تنطق بحرف بالرغم من أن صاحبتنا قد

أعيانها الكلام، ولكن الأخباريات سرعان ما انتهزن الفرصة فملأن الفراغ بشقشقة متصلة، فأحاول أن ألتقط معنى أو لفظاً، منتقلاً بنظري بينهم، فتقع عيني صرة بعد أخرى على تلك الفتاة السمراء ضامرة القوام يابسامتها الحقيقة الساخرة فتلمع عيناها بذلك البريق الغامض، فيه التحدي وفيه تربع الصقر إذ يتحفر لانقضاها.

«وكأنني بها نقول: سحرتك صاحبتا إذ تساود وتأوه، فإن بأعطافها اللينة فورة تنازع ثوبها اللصيق فيكاد أن ينفق، ولكنها ليست إلا طفلة بعد كل سرعان ما يصيبها فتور، فهي عندئذ مهدد من راحة واسترخاء، أما هنا فاللواعج المتصلة إذا ما قدحت بزناد، لهيب لا يكاد يخو فيتأجج من جديد، نار مستمرة، تأكل أكلا ثم تعود فتصاعد بك إلى جموح، مرة بعد أخرى فتحار أبن الغلة وأبن الروى... ولكنها أمور لا يقدر عليها إلا من كان من معدن، وأى معدن... غاي الرجال أنت؟»

٢

وبعد كل هذا الوصف الدقيق والتحليل المتأنى يعقب صاحب هذه المذكرات وكأنه قد أصبح الرجل التقى الثواب صاحب النفس اللوامة فيقول:

«ولكن أين الحقيقة مما أقول؟ هل يحق لي أن أنصيد طفيف عرض فأحلل وأستج ثم أقرر كأنني بخوالج النفوس عليم؟»

«أليست جميعاً خطرات قد قفزت إلى مخبلي فأجسمها إلى يقين، إنها أقرب إلى تمنيات مكبوتة قابضة في أغوار النفس، فأرمي غيرة بداء هو دائي وإن كنت به غير دار، تنزيهاً لنفسي أمام نفسي!»

(٣٨)

ومن حق السفير حسين ذو الفقار صبرى بعد كل هذا النقد والتحليل لمذكراته والتعقيب عليها أن ننتقل هنا بعض فقرات من البناء الجم والتشريط الجميل الذي حفل به تقديم الكاتب الكبير الأستاذ يحيى حتى لكتابته، بانفس لا تراعى^٢ حيث يقول:

« كتاب يتحدث عن رحلة لم تدم أكثر من خمسة عشر يوماً ولكن المؤلف صب فيه
 عصارة ذهنه وقلبه وحياته كلها شأن الأعمال الكبيرة. لا يسع القارئ إلا أن يعجب
 لتعدد تجاربه واهتماماته ووفرة العلم الذى حصله من قبل أن يكتب ، إنه من طراز
 انسيكلويدى قلما تعرفه بلادنا اليوم. وقد فوجئى حملة الأقلام عندنا وعرتهم الدهشة
 حينما رأوه ينزل إلى ميدانهم ويسبقهم، ونساء لوا أين كان، ما سبب صمته من قبل، من
 يدري كم فى شعبنا العريق من أناس مجهولين يؤثرون الصمت لو نطقوا لتألمت
 أسماؤهم فى سماء الأدب تألى النجوم ».

« بقيت بعد ذلك لهذا الكتاب صفة تملو كل صفاته الأخرى هى التى جعلتنى قبل
 غيرها أتملق به وأخصه بإعجابى، صفة التصدى لمشاكل التعبير بالنصحى فى عصرنا
 الحديث الذى بالغ من أجل الوضوح والدقة فى تقسيم الباب الواحد إلى فروع عديدة
 متميزة بعضها عن بعض. وصاغ لكل فرع لفظة، المشكلة ليست فى التعبير عن الألوان
 بل عن أطيافها المتسربة. لا عن الأحاسيس العامة بل عن فروعها الدقيقة، وكل من عانى
 التأليف والترجمة لا بد له أن يمر بهذه التجربة ».

« سيقتف أولاً أمام أشياء كثيرة لا يجد لها اسماً إلا فى العاية - إن وجد - وهذه
 مشكلة هينة إذا قيسَتْ بمشكلاته حين يحس فى نفسه إحساساً يريد أن يفرد ويستضح
 ويحتاج التعبير عنه إلى الانتقال من التعميم وهو سهل إلى التخصص فىجده عبيراً أشد
 العسر، بل يكاد يمتنع عليه، فماذا يفعل؟ إما أن يلجأ اضطراراً إلى التعميم أو الهرب من
 الموقف كله، يتجاوزة تفادياً لمشقته، أو يشرح ما ينبئى التعبير عنه بكلمة واحدة فى جملة
 طويلة لا نفى مع ذلك بمطلبه لأن المعنى المقصود يظل متأبياً عليه، وهو فى جميع الأحوال
 يكتن عن القارئ إحقاقه ويخرج كتابه للناس لا يعطيهم صورة صادقة دقيقة لما كان
 يحاول فى نفسه، هذا هو سر غلبة التعميم على التخصص فى مؤلفاتنا ومن ثم هبوط
 مسواها الفكرى والبلغوى، وأكاد أشهد القارئ عن خبرة وتجربة أن خير ترجمة عندنا
 نظل دائماً تقريبية هيهات أن نطابق الأصل تمام المطابقة، تقريبية ولا بد أيضاً أغلب
 مؤلفاتنا لأن المشكلة واحدة، ولا يتأتى لأدبنا انبعث وتجدد مساواة بالأدب العالمية إلا إذا
 عدلنا عن التهرب من مواجهة مشاكل التعبير وتصدينا لها بشجاعة وإصرار، قد نصيب
 وقد نخفق ولكن الركب يسير ».

«هذا الكتاب إلى الخطوة المثلى التى ينبغى أن ينتهجها هذا المبعوث، كيف يستند لمهمته وكيف يعد من سابق كلامه وأسلوبه وردوده على أسئلة يتوقعها ومداخل حديثه مع من سيتقابله من الزعماء والناسا بعد أن يكون قد أسلم ببرته وطباعه وسزاجه وأطباعه، كيف يحاور ويداور محدثه حتى يقوده إلى الطريق الذى يريد له أن يسير فيه أو يحيد به عن الطريق الذى يريد أن يتجنبه، كيف يصد مناوشة متفحمة بآدى الخصام فيعاجله بذكاء ويسقيه دواء من جنس دائه، كيف يكون لقاءه مع رجال الصحافة وكيف يداورهم أو يزوغ منهم، ومتى وكيف يخلط الجلد بالهزل معهم، ما أجدر هذا الكتاب بأن يقرأه كل رجال السلك الدبلوماسى عندنا، كبيرهم وصغيرهم، وإذا هيأناك بالفرن فقط مع المؤلف أمام لوحة ديجو ريفيرا التى أودعها تاريخ جهاد شعب المكسيك من أجل التحرر، واستمع لشرحه لها وتفسيره لدلالاتها وكيف ثمت عن فروق الوسائل والطباع بين زعماء ثلاثة كان لكل منهم قدر مختلف، أهذا درس فى الفن أم فى التاريخ أم فى السياسة أم فى توارث الشعوب؟ هو كل ذلك جميعاً، أو قف مع المؤلف أمام العمارة الحديثة فى مدينة برازيليا من مساكن ومعابد واستمع لوصفه لها وحكمه عليها، وإذا كان هيأناك بالفلسفة فسنبجد حديثاً يشوقك عن سارتر والوجودية يمزج بين النظريات والتحليل النفسى، وأخيراً إذا كان هيأناك بالغوص إلى أسرار النفوس والإضطلال على نوازعها ومضامح جمالها وعامانها فسيهناك لك هذا الكتاب آخر الحجب عن نفوس كثيرة، فما من رجل قابله المؤلف إلا خيل إليك أنه مائل أمامك متجرداً من كل أفتنته، لم يترفق المؤلف بأحد ممن خضع لمبضعه، لم يترفق حتى بنفسه، فهو كلما كشف عن خبيء أعمل مبضعه إلى أعماق، بلا رحمة، ومن الصدق والأمانة ما يبلغ حد القسوة ولكن المؤلف عرف كيف يلحق القسوة بدعابة حلوة تخفف من وقعها، وكان له هو نفسه من هذه الدعابة أكبر نصيب».

ويواصل يحيى حتى امتداحه للكتاب وصاحبه فيقول:

«كتاب فريد فى ثرائه، وفريد فى انتقاده، شأن الأعمال الكبيرة، إنه انتقاد متعدد متراكم متجاوب، جمرته هى الهزيمة التى نجرعنا عازها ومرارها فى حرب يونيو، يمتد شواظها من بعيد إلى المؤلف وهو غائب عن وطنه فى مهمة رسمية تطلع به أرجاء الأرض، فتتقد عواطفه، ويتقد أسلوبه، ومع أن المؤلف قد كتب هذا العمل بعد وقت من معاناته للتجربة فإن هذا الانتقاد ظل باقياً على حاله، لا يخمد أواره، وزادت معزة الوطن لأنه بعيد ومنكوب، فنغتنى به ونواجه بكلام من نثر ولكنه من صميم الشعراء».

مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية
من أجل السلام

5

شرح في جدار
الجامعة المصرية
للدكتور عبد الوهاب العشاوي

دار الخيال

(١)

هذه مذكرات فى غابة الخطورة والأهمية، ولكنها للأسف الشديد لم تلق العناية الكافية ولا الفهم اللائق، وربما لم تلق القراءة المتأنية أو الدراسة الجديرة، ومع أنه ينبغي علينا أن نتحسر على مصير هذه المذكرات فإننا لن نفعل وسنتبه كثيراً، وننبه قليلاً إلى ما فيها من حقائق مذهلة ونفاصيل كثيرة تهيم وطننا العربى كله لا مصر فحسب، وتهيم شعوبنا كلها وليس مجرد المهتمين بالأدب أو التاريخ أو سياسات التعاون العربى أو التجارب الشخصية أو النقد.

صاحب هذه المذكرات قانونى مصرى بارز، تخرج فى كلية الحقوق جامعة القاهرة، وأتيح له أن يعمل أميناً عاماً مساعداً للجامعة العربية، ونولى شئون ما سُمى به الدفاع الاجتماعى، وقد كان على الدوام لأمراً فى أذانه لمهمته فى الجامعة العربية، وكان من الواضح للمراقبين جميعاً أنه صاحب فكرة وأنه يعمل من أجل تنفيذها.

أعطته عائلته بعداً آخر من الإلمام بقضايا السياسة والعروبة فوالده، هو محمد حسن العشماوى باشا وزير المعارف فيما قبل الثورة ورئيس اللجنة الاجتماعية فى الجامعة العربية، أما شقيقه فهو حسن العشماوى صديق جمال عبدالناصر وأحد أبرز زعماء الإخوان المسلمين، والذي كان مرشحاً لنولى الوزارة مع الثورة فى أول عهده ممثلاً للإخوان. أما زوج شقيقته فهو منير الدلة الذى كان أيضاً مرشحاً للتعاون الوثيق مع الثورة كممثل للإخوان.

أما عبد الوهاب العثماني نفسه فقد قادته خطواته إلى أن يتولى الشؤون الاجتماعية في الجامعة العربية خلفاً لوالده، وفي عهده انتمت فكرة الدفاع الاجتماعي، وبدأ كما لو أنه يعتمد بنفسه - عن قصد - عن السياسة وعواقبها، ومن هنا تأتي أهمية هذه المذكرات التي تمثل آراء صاحبها في كل القضايا السياسية التي مرت بسجله، وهو يبدى هذه الآراء من الموقع المميز الذي أتيج له في شرفة الجامعة العربية وفي داخلها أيضاً ومع أنه لم يكن معنياً (ولا متورطاً) بالقضايا السياسية والدبلوماسية على نحو مباشر فإنه يتحدث في كل هذه القضايا بحس الوطني المثقف المتحمي، ومن هنا تبرز أهمية حديثه وبخاصة أنه مع هذا القرب المبتعد في ذات الوقت (والمبتاعد عن قصد في الغالب) كان يشغل منصباً مرموقاً في هذه المنظمة التي قدر لها أن تكون وعاء للأفكار والتطلعات والأمانات والخلافات والنزاعات والنزاعات والمشكلات العروبية على نحو أو آخر.

(٢)

نشر المكتب انصري الحديث بالقاهرة هذه المذكرات عام ١٩٧٩، أي بعدما اتخذت الدول العربية قرارها بنقل مقر الجامعة من القاهرة وبعدها استنقال محمود رياض من منصب الأمين العام، ولكن صاحب المذكرات لا يتخذ من هذا الحادث أو ذاك مدخلاً لمذكراته، وإنما هو يقدمها لقرائه في الإطار الأعم والأشمل دون أن يكون لحادث واحد تأثير على الأحداث أو بدايتها أو نهايتها.

وفي هذه المذكرات يتحدث عبد الوهاب العثماني عن تفصيلات كثيرة ومهمة فيما يتعلق بأداء الجامعة العربية وأسلوبها في هذا الأداء والعوامل التي أثرت في سياساتها وأدائها، وهو رقيق في تعبيراته، وفي اتهاماته بالنسائي، ومع أنه يلجأ إلى الترميز كأن يسمى محمود رياض بالأمين الثالث، وعبدالحالقي حسونة بالأمين الثاني وعبد الرحمن عزام بالأمين الأول، إلا أن رموزه لا تكاد تخرج عن هذا النحو من الرمز الواضح.

وهو يتحدث عن المنهج الذي اتخذته في كتابة هذه المذكرات فيقول:

«لست أدعي أنني من العالمين بواطن الأمور بل أحمد الله أنني طوال عشرين عاماً قضيتها في خدمة الجامعة، لم أشهد جلسة سرية واحدة، ولا ضمني اجتماع مغلّق. فقد

كنت ومازلت أنقر من الأبواب المغلقة، وأكره العمل بعيداً عن أعين الناس. وكنت ومازلت أؤمن بأن العلانية هي الضمان الوحيد لطهارة العمل وأصالته ومخلصه لوجه الله».

«لذلك لم أجد حرجاً في أن أكتب هذه الصفحات، لأنني لا أخون بها أمانة، ولا أذيع بها سرّاً أؤمنت عليه، ولكني أرفع بها عن كاهلي وزراً حملته سنين طويلة هي عمري في خدمة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية. ويشهد الله أنني خلال هذا العمر قد احترمت الكبير وأحببت الصغير، فإذا بدا في هذه الصفحات مساس بأحد، فلأنني أرجو صفحة إن كنت قد أخطأت. وإذا كنت قد أصبت فلعل الناس أن يكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً».

وبعد عدة صفحات ينتهي الدكتور عبد النواهب العشماوي من مقدمات كثيرة إلى نتيجة مهمة يقول فيها:

«لقد كتب الكثيرون عن الجامعة العربية، وامتألت مكتبات الجامعات بالرسائل والمؤلفات التي تعرض أصول الجامعة العربية وتعرض فروعها. ولكنني في هذه الصفحات سأحاول في أمانة الممارس لا العالم. وصدق الراوي لا المؤرخ، أن أحكى قصة الجامعة وفق توزيع موسيقى جديد لا يحس اللحن ولا يغير الكلمات»

(٣)

لست أحب أن أبدأ في تناول هذه المذكرات دون أن أشير إلى تفرد أسلوب كاتبها، وإن كان مع هذا التفرد قد ظل حريصاً على التنوع بين كل ما أمكنه أن يجمع بينه فهو يجمع بين أساليب البلاغة العربية القديمة وأساليب الكتابة الصحفية المعاصرة، وبين الكتابة بالانطباع وكتابة المذكرات القانونية وكتابة البحوث العلمية، وهو ينتقل بين هذه الطرز من طرازات الكتابة في رشاقة عجيبة تدل على صفاء نفسه، وصفاء عقله أيضاً، وعمدء باله، وهو يعالج كل هذه المشكلات الشخصية والقومية والإقليمية دون أن يفقد بوصلته في الحديث، كذلك فإنه يتطرق في كل ما يسجله في هذه الكتابات من مواقف واضحة وضح الشمس في منتصف النهار في الأيام الصحوقة، وله رؤيته الواضحة التي

كونها وما زال عليها، ويبدو صياغاته واضحة المدلول والغزى فى أغلب الأحيان رغم حرصه على الغموض والتعميم على نحو ما يحب الأكاديميون لكتابتهم حتى تبدو وكأنها بعيدة عن الذاتية والشخصانية، ومع أن العشماوى اضطر إلى الحديث عن والده فإنه كان مقتصدا فى هذا الحديث إلى الحدود المسموح بها (فى نظره) فحسب.

ولكنى حتى بأن أشير إلى تهذيب عبد الوهاب العشماوى وحياته الشرقى فى نفس الوقت وهو يهدى هذه المذكرات إلى زوجته دون ذكر اسمها أو صفتها ويقول: «إهداء».

«تحية شكر وإعزاز، لمن استطاعت أن تدفعنى إلى كتابة هذه الصفحات بعد تردد طال أمده، حتى يعلم المواطن العربى، ما يبدو بين جدران جامعة العربية».

(٤)

يعتقد عبد الوهاب العشماوى بل ويؤمن بأن أسلوب عمل الجامعة العربية كان على الدوام متأثرا بالأسلوب الذى يختاره الأمين العام ويلتزم به فى أداء عمله، وهو يعبر عن هذا المعنى فى أكثر من موضع فيقول:

«قضى عهد الأمين الأول واجهت الجامعة العربية أعتى القضايا السياسية وأشدّها عتفا ولعبت فيها دورا ربما كان أحيانا أكبر من حجمها. وعلى عهد الأمين الثانى تمت تشكيلات الجامعة الادارية وتطورات أجهزتها وتعددت فروعها، وخضعت لأسلوب متميز من الإدارة لم نشهده على عهد الأمين الأول، حتى إن علاجها للشئون السامية قد اتسم فى كثير من الأحيان بهذه السمة الإدارية الغالبة، والتى كانت راجعة دائما إلى طبيعة الأمين العام وأسلوبه فى التفكير».

ويؤكد العشماوى على هذا المعنى حين يأتى الحديث عن محمود رياض فيقول:

«ثم جاء الأمين الثالث بخلفيته العسكرية واهتماماته بالقضية الفلسطينية على وجه الخصوص وبالشئون الاقتصادية على وجه العموم، لكنى يوجه الجامعة وجهة التركيز على هذه الأمور، مما يسقط بأن أسلوب عمل الجامعة قد خضع دائما للأسلوب الذى اختاره الأمين العام وجعله خطا التزم به فى أداء مهامه، أو بعبارة أخرى خضع للنمط الذى يسير عليه تفكير هذا الأمين وأسلوبه فى العمل».

بلى إن صاحب هذه المذكرات يرى فى موضع آخر من هذه المذكرات أن النجاحات التى حققتها الجامعة العربية نفسها طيلة حياتها (حتى تاريخ كتابة مذكراته) لم تتحقق إلا بالجهود الفردية لهؤلاء الأمناء العامين الثلاثة الأوائل:

«إن نجاح العمل العربى كان غالباً نتيجة جهود فردية شخصية قام بها الأمين العام للجامعة أو قامت بها كفاءات متميزة فى جهاز الأمانة العامة. فقد استطاع عبدالرحمن عزام مثلاً بمبادرات شخصية وبغير معونة على الإطلاق من جهاز الأمانة العامة، أن يتولى عدداً من القضايا السياسية فى مقدمتها تحقيق استقلال ليبيا، وإثارة قضايا المغرب العربى على المستوى الدولى ومواجهة السياسة البريطانية ومنع تدخلاتها المستمرة فى شئون الوطن العربى».

«واستطاع الأمين الثانى بصلاته الدبلوماسية المتميزة أن يفتح عدداً من مكاتب الجامعة فى دول أجنبية كان من الصعب بل وربما من المستحيل أن تستجيب لطلب إقامة هذه المكاتب فى عواصمها، كما استطاع أن ينشئ كثيراً من جمعيات الصداقة فى عدد كبير من دول العالم بين مواطنيها وبين الجاليات العربية المقيمة فيها، تلك الجمعيات التى ساهمت بحق فى الإعلام عن الجامعة وعن عدد من القضايا العربية الكثيرة أكثر مما ساهمت به مكاتب الجامعة العربية ذاتها».

«واستطاع الأمين الثالث بمبادرات شخصية كذلك أن يملأ خزائن الجامعة بالأموال لينفقها فى سبيل دعم نشاطها على النحو الذى رآه من وجهة نظره محققاً لهذه الغاية، كما استطاع أحياناً أن يدخل الجامعة كشريك فيما اتخذته الدول العربية من سياسات اقتصادية ودبلوماسية فى القارة الأفريقية، وبفضل جهود الأمين الثالث الشخصية تم إنشاء المصرف العربى للتنمية الاقتصادية لأفريقيا فى الخرطوم، وصندوق النقد العربى فى أبوظبى، صحيح أن الأمين الثالث قد أراد بإنشاء هاتين المنظمتين أن تكون عوناً له فى تنفيذ سياسة الجامعة الاقتصادية، ولكن الصحيح كذلك أن الرياح قد جاءت بما لا يتصوره محمود رياض أمين الجامعة العربية، وسرعان ما استقلت هاتان المنظمتان وسرعان ما بدأت مواجهة بينهما وبين جهاز الأمانة العامة، تمسكت فيها كل من المنظمتين استناداً إلى اتفاقية إنشائها بأنه ليس للأمين العام ولا لمجلس الجامعة حق التوجيه أو الإشراف على أعمالهما».

ولا يقف الدكتور عبدالوهاب العشماوى فى إيمانه بالآثار الفردية عند الأمناء العاميين فحسب، ولكنه يمتد بنفسه المنطق إلى نخبة ممن تولوا رئاسة اللجان المختلفة فى الأمانة العامة للجامعة ويقول:

«وعلى مستوى العاملين فى جهاز الأمانة العامة كان للمرحوم أحمد أمين فضل الدعوة إلى الوحدة الثقافية العربية، وكان للمرحوم الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى فضل إثراء العمل الثقافى من خلال الجامعة، طوال الفترة التى قضاها رئيساً للجنة الثقافية الدائمة ومشرفاً على الإدارة الثقافية بأمانة الجامعة».

«وكان للمرحوم الدكتور عبدالرزاق السنهورى عالم القانون الفضل الأكبر وربما الوحيد فى كل المراحل التى قطعتها أمانة الجامعة حتى الآن فى سبيل توحيد التشريعات العربية، بل لا أكون مبالغاً إذا قلت إن ما تم من توحيد فى مجال التشريعات قد قام به السنهورى وحده وليست أمانة جامعة الدول العربية».

«وكان للمرحوم محمد العشماوى رائد الخدمة الاجتماعية الفضل الأكبر فى تبنى الدول العربية للأفكار الاجتماعية ولأنظمة التأمينات والضمان الاجتماعى، وقد استطاع من خلال إشرافه الطويل على قطاع الشئون الاجتماعية فى الجامعة العربية أن يقود ما يمكن تسميته بالثورة الاجتماعية الهادئة فى كثير من الدول العربية، حتى لقد شارك بفكره فى إنشاء وزارات الشئون الاجتماعية وعدد من المؤسسات الاجتماعية فى الدول العربية».

كذلك يتحدث العشماوى عن أدوار محددة لبعض العاملين فى الأمانة العامة.

«وعلى المستوى المعاصر لا يمكن أن تغفل جهود عدد من العاملين فى الأمانة العامة من أمثال الدكتور يحيى الحشاش فى المجال الثقافى والدكتور ساطع الحصرى فى مجال الدراسات، والدكتور صلاح المنجد فى مجال المخططات العربية، ويحيى أبو بكر فى مجال الإعلام العربى، وغيرهم ممن لم أسعد بالعمل معهم أو ممن قد تخوننى الذاكرة فى بعض الأحيان عن أن أذكرهم بالتفصيل».

ويكاد الدكتور العشماوى على مدى هذه المذكرات بنظر إلى محمود رياض فى تعالٍ شديد، فهو يرى أن الظروف هى التى قادته إلى هذه المناصب التى تولاها، وهو يفعل هذا بإنصاف ظاهر لا يخلو من التعسف. بل ربما يغلب التعسف الذى يكتنف الإنصاف على الإنصاف نفسه حتى يتوارى الإنصاف مع أنه موجود، وهو - على سبيل المثال وكما سنقرأ فى النصوص - يرى أن المصادفة هى التى أتاحته لمحمود رياض أن يكون من بين الضباط العاملين فى سكرتارية الوفد المصرى فى مباحثات الهدنة (!!) انظر إلى هذا التعبير فهو بصفه أولاً بأنه من الضباط (!) وليس الضابط الكبير ولا أحد أبرز الضباط ولا الضابط الوحيد، مع أن محمود رياض كان قد وصل إلى رتبة كبيرة حين أدى هذه المهمة، ثم هو يقرر بمنتهى الثقة أنه كان من العاملين فى سكرتارية الوفد المصرى فى مباحثات الهدنة، وكأن ذلك الوفد المصرى كان كبيراً جداً وذا سكرتارية كبيرة جداً فيها عاملون كثيرون من الضباط ومن غير الضباط، وعلى الرغم من كل هذا الذى يبدو تعسفاً من العشماوى فى توصيف وضع محمود رياض فإنه فى رأى المتواضع ينصف به محمود رياض لأن الرواية البديلة تقول إن ضم رياض لهذا الوفد كان بواسطة أحد أصدقائه من المقرين إلى القصر الملكى، ولم يكن الهدف إلا إتاحة فرصة له لسفره إلى الخارج مع عمل مريح بعيد عن العسكرية المملة والتقليدية!! أما محمود رياض نفسه فى مذكراته التى عرضناها فى الباب الثانى من هذا الكتاب، فإنه لا يميز التفاصيل الاهتمام المطلوب، مع أن مذكرات العشماوى هذه نشرت قبل مذكراته، وكان من الواجب عليه أن يوضح هذه الحقائق حتى ولو لم يدّ أنه يرد على العشماوى بالذات!

وربما أنتهز الفرصة هنا لأكرر التنبيه إلى التقصير الذى وقع فيه محمود رياض نفسه حين نشر مذكراته وتغاضى عن أن يذكر (لا بالتحديد ولا بالإشارة ولا بالتلميح) السبب الذى دفعه إلى الوجود فى هذا الوفد المكلف بمثل هذه المهمة!

ستقرأ هذا الذى يرويه عبدالوهاب العشماوى عن محمود رياض وسنلاحظ أيضاً أن صاحب المذكرات يعبر بطريقة لا شعورية عن تحنظه على الوحدة بين مصر وسوريا فيصفها بـ "الموقوتة" وهى صفة غريبة تحتاج إلى إيضاح أو بيان، وظنى أنه أراد بها الكناية

عن معنى السقابل الموقوتة التى تنفجر بعد حين بما تحمل من عوامل الانفجار. ومع هذا فإني لا بد أن أنحفظ على مثل هذا الوصف.

كذلك سوف يمكننا أن نتأمل - وإن أدهشنا التأمل - هذا الموقف الذى تخيل العثماني حدوده من محمود رياض وهو ينظر من نافذة مكتبه فى الخارجية إلى مبنى الجامعة العربية، ويتخيل نفسه أميناً للجامعة بعد عشرين عاماً من دخوله مبنى الخارجية المصرية.. فلنقرأ هذه اللوحة الطريفة التى يقدم بها صاحب المذكرات شخصية الأمين العام الثالث للجامعة العربية:

«أما محمود رياض فخريج الكلية العسكرية المصرية فى القاهرة، ما كاد أن يتم علومه العسكرية حتى شارك فيما شارك به الجيش المصرى من جهد متواضع إبان الحرب العالمية الثانية (ينبغى هنا أن نتحفظ على الاستخدام اللغوى لفعل من أفعال الشروع (ما كاد) فى زمن امتد ثلاث سنوات ما بين تخرج محمود رياض فى الكلية الحربية المصرية سنة ١٩٣٦ وبداية الحرب العالمية الثانية فى ١٩٣٩)، ثم انتهى اشتبائك الجيوش العربية مع القوات الإسرائيلية بالهدنة فى عام ١٩٤٩، أتاح الصدف لمحمود رياض أن يكون من بين الضباط المصريين العاملين فى سكرتارية الوفد المصرى فى مباحثات الهدنة، كما أتاح له هذه التجربة رصيذاً من المعرفة لم يلبث أن وجد مجالاً لاستثماره (تأمل هذا التعبير الدقيق والجميل والموحى) عندما قامت الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأعطت اهتماماً خاصاً للقضية الفلسطينية، وحرصت على الاستعانة بذوى الخبرة والمعرفة بهذه الأمور من رجال القوات المسلحة، وبذلك ودع محمود رياض حياته العسكرية ودخل إلى مبنى وزارة الخارجية لمواجهة مبنى جامعة الدول العربية، وكيلاً (تأمل النص على أنه بدأ وكيلاً مع أن الشائع فى ترجمة محمود رياض لنفسه أنه بدأ مديراً) ثم مديراً لإدارة فلسطين. وربما كانت هذه هى بداية اهتماماته الدبلوماسية والسياسية، وربما حدث ذات يوم وهو يطل من نافذة مكتبه فى وزارة الخارجية أن سرح به الخيال أو فكشف عنه الغيب فرأى نفسه بعد عشرين عاماً فى الغرفة المواجهة تماماً لمكتبه فى وزارة الخارجية وهى غرفة الأمين لجامعة الدول العربية. وتقلب محمود رياض فى مناصب الدبلوماسية المصرية، وكان أبرز ما نولاه منصب سفير فى دمشق، ذلك المنصب الذى هباً له فيما يقال السبيل لكى يتعاون مع عدد من رجالات الأحزاب فى سوريا والذى هباً له تبعاً لذلك السبيل إلى مركز المشارك فى صنع الوحدة الموقوتة بين مصر وسوريا فى عام

١٩٥٨.

وفي موضع آخر يصف صاحب هذه المذكرات أسلوب محمود رياض بالهزة العنيفة التي عرضت العمل العربي المشترك نفسه للاهتزاز ويقول:

«... وعندما تولى الأمين الثالث أمانة الجامعة غلب عليها أسلوب الطفرة في أغلب الأمور، فشهدت محاولات التطوير بالغة العنف، كما طرقت الجامعة في عهده مبادئ كانت في أغلب الأحيان فوق قدراتها وأكبر من امكانياتها، الأمر الذي عرض جهاز الجامعة والعمل العربي المشترك لعدد من الهزات العنيفة على نحو لم تتعرض له الجامعة خلال عشرين عاما تولى فيها الأمين الثاني إدارة الجامعة العربية».

(٧)

أما حديث صاحب هذه المذكرات عن شخصية محمود رياض وأدائه، فلا يمتضى في نسق واحد من التقدير أو النقد، لكنه يضمه عوامل كثيرة بحكم ما كان في شخصية محمود رياض نفسه من ثراء وتباين، وقد رأينا نقيمه النصف لشخصية محمود رياض كما رأينا إشفاقه عليه ونضاضته معه فيما عاناه في بدايات عمله وحتى نهاية ١٩٧٣ من خطط التطوير، وهو يعترف له بتعمقه في القضية الفلسطينية لا إلى النهاية ولكن إلى أن يحدث التحول في استراتيجية العمل الدبلوماسي المصري فيقول:

«ثم أتيت لمحمود رياض فرصة التفرغ لدراسة القضية الفلسطينية وترديدها حتى غدا بحق مرجعا لوقائعها وقاموسا لوثائقها، فمن طول ما تحدثت عن القضية الفلسطينية وهو يشغل منصب المندوب الدائم لمصر في الأمم المتحدة أصبحت القضية الفلسطينية جزءا من كيانه بل وحجر الزاوية في اهتماماته. وعندما أصبحت القضية الفلسطينية بالأسلوب الذي كانت تعالج به هي محور السياسة المصرية في الستينات، فقد كان طبيعيا أن يكون محمود رياض وزيرا لخارجية مصر، وأن يظل كذلك حتى تغير أسلوب الفكر السياسي في مصر وتغيرت تبعاً لذلك استراتيجية العمل الدبلوماسي المصري. وقد شغل محمود رياض منصب وزير خارجية مصر في وقت تركزت فيه السياسة المصرية حول القضية الفلسطينية وقت اختلطت فيه الاتجاهات السياسية بالأنظمة الاقتصادية، ولذلك عندما جاء محمود رياض ليشغل منصب الأمين الثالث لجامعة الدول العربية، انصبت اهتمامات الجامعة على القضية الفلسطينية مدعومة بالقوة العسكرية والعمل الاقتصادي».

ويعترف صاحب المذكرات بأن ظروف محمود رياض في الجامعة العربية لم تكن سهلة، فقد شهدت فترة أصعب لحظات الخلافات:

«وبقدر ما شهد محمود رياض بلوغ الجامعة العربية أعلى قمته واتساع آفاق نشاطها واحتلالها مكاناً مرموقاً في ميدان العمل الدولي، بقدر ما شهد محمود رياض الجامعة وهي تواجه فمة محتتها والخلافات العربية تتهددها من كل جانب، ومبادرة السلام المصرية تقلب موازين الجامعة وسياستها رأساً على عقب».

[]

كما يشير صاحب المذكرات في موضع آخر إلى اضطراب محمود رياض إلى العيش والتعايش في دوامة التغير والتطوير التي أحاطت بالجامعة العربية، ويشير العشماوي إلى أن محمود رياض قد اضطر إلى هذا على أمل ولكنه لم يتحقق له هذا الأمل:

«وهكذا عاش الأمين العام منذ توليه مسئوليته، في دوامة التجديد والتطوير، وفر قراره، مهما فعلت به المقادير، على أن يستخرج الشهد من الطين! ودعا مجلس الجامعة، فاستجاب لدعوته، وأُفرِد له من السفراء ستة جلسوا معه فأطالوا الجلوس، وقلبوا الأمور حتى كاد أن يعرج معتد لها وأن يتكسر معوجها. وأتم السفراء ميعادهم مبشرين جلسة، فرغوا بعدها من مهمتهم، ودفعوا بها إلى مجلس الجامعة، فتكلم فيها السفراء فأطالوا الكلام، ثم انتهى الأمر بالمجلس، فوافق على ما قدم إليه، دون حذف أو إضافة. فما أفادت المناقشة ولا أجدت المداولة، ولكنها الطقوس والشكليات، أمور لا بد منها لبني الإنسان».

وبروي صاحب المذكرات بعض التفاصيل المهمة للصراع بين مجلس الجامعة والأمين العام الثالث:

«ويعلم الله - وقد كنت يومها شهيدا - كيف فرح الأمين بما نقرر، وكيف عاد فأقبل على أمره كله بين يديه، والرجع كله إليه، وأزاحت عن طريق العمل ما عاقه من عقبات، وتكلفت بالأ تأتية من بعد ذلك عشرات، ولم يفتن الأمين الثالث - إلا بعد حين - إلى أن ما أعطاه المجلس إياه باليمين واليسار، وأن التطوير في حقيقته كان وما زال حبرا على ورق، وأن المجلس قد عاد بعد قليل يشارك الأمين كل صغيرة وكبيرة، ويدخل إلى الأمانة من الشباك، ما استحال إدخاله من الباب. وأطلقت الجامعة على قطعتان الأمانة ذئاب الرقابة المالية، فراححت تنهش الصغير وتخوف الكبير. ونظاره الناس من أجل الستات

والمليسات، بينما انطلق رجال من حول الجامعة يتجهون بالألوف، بل ربما بالملايين من الدولارات. ودخل الأمين الثالث مع المجلس في مواجهة لم يلبث بعدها أن أدار للمجلس ظهره، وراح ينلمس النجاة في أكثر من مجال يفرغ فيه طاقته ويحقق به حلمه.

(٨)

ولا يجد الدكتور عبدالوهاب المشماوى حرجاً من أن يشير بصراحة شديدة إلى ما آثر أن يتجنبه في فقرة سابقة، من صدام عنيف بين الرقابة المالية والأمين العام نفسه، وهو يشبه رياض في هذا الموقف بالأسد الذي لا يشور لعدوان يقع على أحد رعاياه وإنما يزار لجرح يمسّه هو:

دوفي محاولة أخيرة يوجه المخططون إلى هيئة الرقابة المالية في تقريرها الثاني أن تنال من الأمين العام شخصياً وأن تلقى ظلالاً من الشك حول عدد من تصرفاته. وكالأسد، الذي لا يشور لعدوان وقع على أحد رعاياه، وإنما يزار لجرح يمسّه هو، نجد أن الأمين الثالث يطمش بهيئة الرقابة في غير رحمة فيضلك برئيسها ويترك أعضائها نزلاء في غرف الإنعاش. والحق أن الأمين الثالث قبل أن يترك منصبه بأشهر قليلة كان قد نجح، في تقليص مخالب هيئة الرقابة المالية. وفي أن يحيل رجالها من وحوش كاسرة إلى جياذ مستأنسة، استمرأت يوماً بعد يوم مرعى الأمانة العامة ووجدت في أوراقه الخضراء غاية ما اشتهدت وأكثر مما كانت تأمل أو تريد.

تأمل التعبير بالأوراق الخضراء وما فيه من دلالات متعددة تبدأ بأوراق المراعى وبالأوراق الرسمية البروتوكولية وتنتهى بالظطع إلى أوراق البنكنوت وهى الدولارات فى الغالب!

وعلى هذا النحو فإن عبدالوهاب المشماوى حين يتحدث فى مواضيع متعددة من هذه المذكرات عن استقالة محمود رياض من أمانة الجامعة فإنه يورد هذه الاستقالة فى سياق التنبجة الطبيعية حتى وإن كان يظل هذه التنبجة بظلال الحيرة فى البحث عن السبب الحقيقى الذى دفع رياض إلى تقديم استقالته ويقول:

«وعندما أعلن محمود رياض إلى العالم العربي استقالته في الرابع والعشرين من شهر مارس عام ١٩٧٩ ، وقبل توقيع المعاهدة المصرية الإسرائيلية بشمان وأربعين ساعة ، فإنه من الصعب الكشف عما كان يدور في ذهن الأمين الثالث وهو يتخذ هذا القرار ، هل كان اليأس قد بلغ به مدهاء . واستحال عليه أن يؤدي مهام منصبه . أم أن المفاهيم التي عاش عليها طوال العديد من السنين قد آن لها أن تتغير وأصبح حتما أن يتغير معها فكر كل من يعمل في إطار العمل العربي المشترك وخاصة من يجلس على قمته . أم أن الأمين الثالث أراد أن يبين تمسك الدول العربية بسياسته واتجاهاته ، أو أن يتيح لها فرصة اختيار أمين رابع ليحرب حظه مع الأحداث ! كل ذلك ستكشف عنه الأشهر القليلة القادمة ، فطالما ظن من شاركوا في صنع وقائع التاريخ أن في استطاعتهم أن يسحبوا الحقيقة عن الناس ، ولقد خيت الأيام دائما ظنهم ، وجاء اليوم الذي نظهر فيه الحقيقة لتؤكد من جديد للمسؤولين في كل دولة أن التاريخ لا يرحم وأن الحقيقة آية دائما وأن الضياء يعقب الظلام مهما طال مدهاء».

ولا يخل علينا عبدالوهاب العشماوى بوصف درامى أو سيناريو مبرر للمحنة خروج محمود رياض من الجامعة العربية ويبدو واضحا لنا أنه لا يتعاطف معه في خروجه وهو يكتفى في تصوير الخروج بأن يلفت النظر إلى الفارق الضخم بينه وبين خروج الأمين العام الثانى حسونة باشا فيقول:

«ويوم غادر محمود رياض مبنى الأمانة العامة للجامعة في الحادى والثلاثين من شهر مارس عام ١٩٧٩ فقد أتبع للأمانة العامة يومها أن تعيش مشهدا يختلف تماما عن ذلك الذى عاشته يوم ودعت عبد الحالى حسونة الأمين الثانى للجامعة ، ففي الحادى والثلاثين من شهر مارس ١٩٧٩ حشد محمود رياض العاملين في الأمانة العامة ليفضى إليهم بأخر ما فى نفسه ، فحذلهم عن إنجازاته في الجامعة وما حققه لهم من زيادة في الدرجات ورفع المرتبات ، وقبل أن تتاح للعاملين فرصة الإفضاء لأمينهم بما فى نفوسهم أو طلب نصحه ومشورته بالنسبة لمستقبل حياتهم ، قبل هذا وذاك كان الأمين الثالث يتمتع بالانصراف من مبنى الأمانة العامة ، منها فى منصبه سبع سنوات إلا ستين يوما».

(٩)

ويصرح العشماوى في هذا الكتاب بما أراه مهسا جدا لتاريخ الجامعة من رواية موقف

الأمين الثاني عبدالحالق حسونة وهو الرجل المهذب شديد التهذيب والدبلوماسية تجاه خلفه محمود رياض الذى انتزع منه كرسى الأمانة:

«و غادر الأمين الثانى يوماً مقر عمله فى شهر مايو ١٩٧٢، فى رحلة عمل إلى الخارج، مكتمل الصحة موفور النشاط، وقبل عودته يومين اثنين طلعت جريدة الأهرام على الناس بخبر عجيب سمعه العوام فصدقوه وقرأه الخاصة فاستنكروه. كانت كلمات الخبير تروى كيف أن عبدالحالق حسونة قد ساءت صحته وأنه قد طلب إعفاءه من منصبه، ومضى خبر الأهرام يقول إن المرشح لأن يكون أمين الجامعة شخصية عربية دولية ساهمت ومازالت تسهم فى القضايا العربية، عرفت ومازالت تعرف بالكفاءة والدبلوماسية. والحق أننى وكثيرين غيرى - ممن لا يملكون بالقطع بواطن الأمور - ظنوا أن المرشح هو وزير خارجية مصر الأسبق وصونها الرائع فى الأمم المتحدة، ورئيس وزرائها السابق ونائب رئيس جمهوريتها ورائد من رواد الدبلوماسية العالمية. والحق كذلك أننى وكثيرين غيرى قد استبشرنا بهذا الذى تصورناه، ونواري أسفنا على الشيخ الجليل من فرط فرحتنا بالقادم الجديد».

على هذا النحو يتحدث العشماوى عن هذا التمهيد الإعلامى لهذا التغير وكيف استند هذا التمهيد إلى كذبة كبيرة فى شأن الأمين العام الثانى الذى كان مكتمل الصحة موفور النشاط، وإلى تصوير غير دقيق ومبالغ فيه للشخصية خلفه جعل العشماوى وزملاءه يتصورون أن القادم هو الدكتور محمود فوزى وليس محمود رياض. ثم يتحدث صاحب المذكرات عما أشرنا إليه من موقف حسونة من رياض:

«وفى يوم الأربعاء الثلاثين من شهر مايو ١٩٧٢ صافح عبدالحالق حسونة جميع العاملين فى مبنى الأمانة العامة من مديرين وموظفين ومساءة، وشهدت الأمانة العامة ربما لأول مرة مهرجانا للمعبة والوفاء، فقد كانت لعبدالحالق حسونة منزلة لدى الصغير قبل الكبير، وكان العاملون يحسبونه أباً لهم جميعاً، لذلك كان وداع الأمين الثانى خليطاً من البكاء والدعاء حتى لقد فقد بعض الموظفين السيطرة على مشاعرهم فآلقوا بأنفسهم فى طريقه يمتعون من سفادة المكان. ولكن عجلة الزمان كان لا بد لها أن تمضى، فقد أصر الأمين الثانى على أن يغادر الدار قبل أن يدخلها الأمين الثالث صباح يوم الخميس ٣١ مايو سنة ١٩٧٢، بل لقد أصر الأمين الثانى على ألا يحضر جلسة المجلس التى أقيم فيها محمود رياض يمين الولاء للجامعة. ولم يقض عبدالحالق حسونة إلا الخاصة

خاصته بالسِر الذى دعاه إلى اتخاذ هذا الموقف وهو الدبلوماسى الجامل، المبالغ فى مجاملته فى أغلب الأحيان».

(١٠)

وعلى الرغم من أن صاحب هذه المذكرات قد تجنب بكل الطرق المقارنة المباشرة بين عبد الخالق حسونة ومحمود رياض فإنه قد عبر عنها فى كثير من فقرات هذا الكتاب ، ولكنه وضع هذه المقارنات فى إطار القضايا التى يتحدث عنها ، ومع هذا فإنه لم يستطع منع نفسه من الحديث مثلاً عن مشاعر حسونة تجاه محمود رياض ، ومن عجائب الأقدار أن حسونة أبعد عن الأمانة بمقولة اعتلال صحته ، وهو ما يفتيه عبد الوهاب العشماوى فى هذه المذكرات مشيراً إلى حقائق وتفاصيل ما تم فى هذا الشأن ، ولكن ما يعيننا هنا من عجائب الأقدار أن حسونة ومحمود رياض ظلا على قيد الحياة حتى توفاهما الله فى أسبوع واحد !! وقد كان الأمين العام للجامعة حين وفاتهما هو الأمين الخامس الدكتور أحمد عصمت عبد المجيد الذى عمل تحت رئاسة الرجلين فى جهاز الخارجية المصرية ، ومن المفيد أن نقطع تواصل حديث صاحب هذه المذكرات لننتقل للسقارى نص عبارات عصمت عبد المجيد « الرسمية » التى نعى بها الأمينين الثانى والثالث فى صحيفة الأهرام ، ومع أن مثل هذه الصيغ تكاد تكون شكلية فى معظم الأحيان إلا أن النصين اللذين بين يدينا يختلفان فى كثير من الأوصاف ويتفقان أيضاً فى كثير من الأوصاف كما سنرى دون تعليق :

هذا هو نص نعى الأمين الخامس للأمين الثانى :

الدكتور أحمد عصمت عبد المجيد - أمين عام الجامعة العربية - نعى ببالح الحزن والأسى المفطور له عبد الخالق حسونة الذى انتقل إلى رحمة الله بعد حياة طويلة حافلة بالعمل المدعوب والمطاء المتواصل من أجل مصر والأمة العربية. لقد فقدت جامعة الدول العربية بوفاة الراحل الكبير مسئولاً قداماً لمدته عشرين عاماً فحمل مسئولياتها وأعباءها بكل جد وإخلاص، وكان على امتداد هذه الأعوام الرجل الأمين على رسالتها، أخيرى على مبادئها، السغير على أهدافها. فقدم لنا جميعاً مثلاً عظيماً يحتذى به فى التفانى والعطاء. باسمى وباسم زملائى العاملين بالأمانة العامة أتقدم إلى مصر والأمة

العربية وأسرة الراحل الكبير بخالص التعازى داعياً الله - عز وجل - أن ينغمده برحمته ويسكنه فسيح جناته .

هذا هو نص نعي الأمين الخامس للأمين الثالث :

ينعى الدكتور أحمد عصمت عبد المجيد - الأمين العام لجامعة الدول العربية والأمناء العاملون المساعدون وسائر العاملين بالأمانة العامة إلى العالم العربي والإسلامي ببالغ الحزن والأسى المغفور له الأستاذ محمود رياض الأمين العام الأسبق لجامعة الدول العربية الذي انتقل إلى رحمة الله تعالى بعد حياة حافلة بالعمل السدءوب والعطاء المتواصل من أجل مصر والأمة العربية . لقد فقدت مصر والعالم العربي بوفاة الراحل الكبير مسئولاً يعمل بكل شجاعة عبء العمل العربي المشترك في فترة عصيبة واستطاع طوال قيادته للأمانة العامة لجامعة الدول العربية أن يحرص على مبادئها وأهدافها فقدم لنا جميعاً مثلاً كبيراً يحتذى به في التفاني والعطاء . فإلى جنة الخلد روح الراحل الكبير وإلى مصر والأمة العربية وجامعتها وأسرة الفقيد ومحبيه جميل الصبر والعزاء .

{ ٩٩ }

ويرى عبدالوهاب العشماوى أسباباً كثيرة لعجز الجامعة العربية عن أداء ما كان يتطلع إليه المثقفون العرب من وجودها وبقائها، وهو يرتب حديثه عن هذه الأسباب بطريقة تاريخية حسبما تترأى له الأحداث في قصة الجامعة ومسيرتها، ولكننا سنلجأ إلى ترتيب مغاير نلجأ فيه إلى رؤوس الموضوعات وإلى أن نأخذ بالأهم فالمهم (ربما من وجهة نظرنا) .

ولاشك أن تشخيص العشماوى لمشكلات الجامعة العربية تشخيص دقيق ولكنه يفتقد - في رأيي - إلى الإطار الجماهيري، ذلك أن العشماوى يقدم تشخيصه كما يقدم أستاذ الطب التشخيص لطلاب في حلقة الدرس، وكان أولى به أن يقدم هذا التشخيص باللغة التي لا بد أن يفهمها الرأي العام العربي لا العاملون في حقل العمل العربي المشترك فحسب، وسنحاول بالطبع أن نضع تشخيص عبدالوهاب العشماوى في الألفاظ التي نوافق مع التشخيص الجماهيري من دون أن نتعسف في هذا الذي نضعله. ومن دون أن نحمل الأمور أكثر مما نحمل، ولربما بدت الرؤية الحاكمة لهذا التشخيص بعيدة عما أراده

عبد الوهاب العشماوى، وكأنما بدت وكأنها رؤية صاحب هذه السطور الذى هو محمد الجوادى، ولكن محمد الجوادى نفسه يعترف بأنه لم يصف من عنده شيئاً وأن كل ما يلى من تشخيص قد ورد بنصه فيما سجله عبد الوهاب العشماوى فى هذا الكتاب. لما فهو - على سبيل المثال - يتحدث بوضوح وبمهارة وبأسف ويتمن عن افتقاد الجامعة إلى الدراسات والبحوث ويقول:

«... ويرتبط بما تقدم ويكاد أن يكون جزءاً متصلاً له افتقار الجامعة العربية منذ البداية إلى جهاز علمي متخصص فى معالجة القضايا السياسية وغيرها. ورغم كل ما كتب وما قيل فإننى أتحدى أن تكون هناك دراسة علمية جامعة قامت بها الأمانة العامة استناداً إلى منهج علمي سليم ومعلومات وبيانات صادقة حول أى مشكلة سياسية عربية أو دولية واجهتها الجامعة العربية أو كان مفروضاً عليها أن تعالجها. وأذكر أنه فى كل مرة انعقد فيها مجلس الجامعة لىواجه قضية من القضايا العربية لم يجد المجلس إلا مذكرة تقدمت بها إحدى الدول حول هذا الموضوع لا تكاد تعكس إلا وجهة نظرها، وإلى جانبها مذكرة أعدتها الأمانة العامة للجامعة لا تكاد تشتمل إلا على المراسلات أو المكاتبات الإجرائية التى تمت حول ذلك الموضوع».

□ ويأتى المثل الذى يضره العشماوى لهذه الجزئية أكثر من رائع، ومن الطريف أنه - كما نعرف - قد تكرر مرة أخرى بعد نشر العشماوى لهذه المذكرات:

«ولعلنى أضرب مثلاً ترددت كثيراً قبل إيراده، وهو هل كان لدى الجامعة العربية أى دراسة حول الدول العربية التى انضمت أخيراً إلى عضوية الجامعة، برغم ما أثير من مناقشات فى المجلس حول هذه العضوية وحول ضرورة الاتفاق على تعريف واضح لمُدلول «الدولة العربية» وهى أول كلمة وردت فى بروتوكول الإسكندرية، وهى أول كلمة أيضاً وردت فى ميثاق جامعة الدول العربية. ولعلنى أضيف أننى وأنا أعمل فى الجامعة العربية منذ عشرين عاماً لم أجد فى إدارات الجامعة كلها دراسة ولو متواضعة حول جيوغرافيا العضو الثانى والعشرين فى الجامعة العربية، اللهم إلا مقال أعده موظف من موظفى إدارة الإعلام بجامعة الدول العربية أشبه ما يكون بمقال أعده أحد هواة الصيد الأجانب عن رحلة قضاها فى مجاهل أفريقيا لصيد الوحوش، وبالإنصاف فإننى لا أستطيع أن أنسى اللوم هنا كاملاً على جهاز الجامعة، فإن هذا الجهاز قد ضم فى وقت

من الأوقات عدداً من الرجال الذين فهموا ومارسوا السياسة العربية وعرفت لهم المكتبة العربية العديد من المؤلفات والدراسات حول هذه الشؤون من أمثال سيد نوفل الذى عاش العمل السياسى العربى زهاء خمسة وعشرين عاماً ترك فيها بصمات فكره على الكثير من الأعمال والقرارات السياسية التى صدرت عن مجلس الجامعة. ولكننى كذلك لا أريد أن أعفى من اللوم دول الجامعة التى بخلت دائماً على الجامعة بالأكفاء من رجالها بل وضعت بما لديها من معلومات أو دراسات عن أن تكون فى متناول أمانة الجامعة أو العاملين فيها.

(١٢)

وقد سبق لصاحب هذه المذكرات أن يلمز ذات المعنى حين تحدث عن إنشاء الإدارة السياسية فأبدى فى عبارة مركزة انطباعه السلبى وإحساسه بخيبة الأمل من روح ونص الصياغة التى تضمنها قرار إنشاء هذه الإدارة السياسية وعبر عن اعتقاده بأن النص القانونى الذى وضع اختصاصات هذه الأمانة كان كفيلاً بتحجيم دورها ودور الجامعة العربية نفسها، وحصر هذا الدور فى عمل مكتبى بحث يتعلق بتلقى الآراء وإعادة طباعتها على ورق الأمانة العامة:

«... وعندما أصدر مجلس الجامعة قراره رقم ١١٣ فى ديسمبر عام ١٩٤٦ بإنشاء إدارة سياسية بالأمانة العامة، جاء القرار مخيباً لآمال كل من تمنى أن تكون لجامعة الدول العربية سياسة خارجية يعبر عنها مجلسها، ويعمل بمقتضاها أمينها العام، بصرف النظر عن سياسات الدول العربية الأعضاء فى الجامعة. جاء القرار مخيباً للآمال عندما نص على أن تتولى هذه الإدارة السياسية مهمة تحضير وإعداد الموضوعات التى تعرض على وزراء الخارجية، وزادت الآمال خيبة عندما أصبح التحضير والإعداد هو فى الأغلب عملية إعادة طباعة ما تلقته الجامعة من الحكومات على أوراق تحمل اسم الأمانة العامة وشعارها».

ويكاد عبدالوهاب المشماوى يمس هذا المعنى منذ الصفحات الأولى لكتابه، حين يتحدث عن بروتوكول إنشاء الجامعة وتعيين الأمين العام الأول للجامعة، وهو يرى أن التخوف من مكانة الأمين ودور الأمانة كان أكثر من اللازم من ناحية، ومن ناحية أخرى

كان قادراً على أن يحجم الوسائل الكفيلة بتحقيق الآمال المرجوة من الجامعة العربية، وهو ما جعل موقعي البروتوكول وواضعي الميثاق يترددون ويحرصون وقد تركوا الأمور بغير تحديد لا يعلم مستقبلها إلا الله وحده:

«ولعل أول ما يلفت النظر في هذا الصدد أن تعيين أول أمين للجامعة كان لمدة سنتين اثنتين فقط، وهي مدة يعكس قصرها مبلغ ما أحاط بالميثاق وموقعيه من حرص وتردد، ومبلغ ما أحاط بالفكرة كلها من خشية وتخوف. ولعل في تلك العبارات التي أرجأ بها هذا الملحق وضع النظام المستقبلي للأمانة العامة، ما يكشف عن تلك المعاني وما يؤكد ما سيتضح لنا فيما بعد من أن نظام الأمانة العامة قد وضعته الأحداث وشكلته الأساليب التي لجأ إليها أثناء جامعة الدول العربية على التوالي فيهما واجههم من مشكلات وما اعترض طريقهم من عقبات. وكما عجزت الوفود التي وقعت على بروتوكول الإسكندرية عن أن تحقق الآمال التي تضمنها هذا البروتوكول رغم نواضعها الشديدة، فقد عجز كذلك واضعو الميثاق عن أن يحددوا منذ البداية أسلوب العمل العربي والأجهزة التي يمكن أن يستعان بها في مباشرته، ولذلك فقد ترك الأمر كله لمستقبل لا يعلمه إلا الله وألقى العبء بأكمله على كاهل الأمين الأول الذي استطاع في أمانة وصدق أن يحمل المسؤولية على النحو الذي اقتنع به هو، وأن يحرك دفة الأمانة العامة في الاتجاه الذي رآه من وجهة نظره محققاً لأهداف الجامعة ومتشياً مع سياستها».

ثم يؤكد صاحب هذه المذكرات في فصل متأخر من كتابه أن الأمور لم تمض إلى الأحسن، وأن الجامعة على العكس من ذلك ظلت على مدى عمرها على ما نشأت عليه من قصور في تحديد الرؤية والفعالية، وهو يطور هذه الفكرة في عبارات إنشائية يقدم بها للفصل الذي عنوانه «الجامعة وأسلوبها في معالجة القضايا السياسية» ويقول ما نصه:

«واهم غارق في الوهم من تصور أن الجامعة العربية قد تغير حالها منذ العام الخامس والأربعين في منتصف القرن العشرين والعام الثامن والسبعين على مشارف القرن الجديد أو منذ كان العالم ينقض عنه ويلات حرب ضروس، وحتى اليوم الذي يخطط فيه الناس لقرن قادم لا يعلم إلا الله إن كنا سنبقى فيه على الأرض أو نرقى فيه إلى كواكب السماء».

«لم تغير الجامعة العربية منذ أراد الله لها أن تكون، وحتى يأذن الله لها أن تزول. ولا

تغير مجلس الجامعة منذ كان يضم رؤساء الحكومات وحتى أصبح لا يجد كمال النصاب من ممثلي الدول الأعضاء. ولا تغير حال الأمانة العامة منذ كانت تشغل غرفاً فى بناء متهالك يسمونه قصر البستان، إلى أن أصبحت تشغل من القاهرة أحلى وأجمل مكان».

(١٣)

ويؤكد عبدالوهاب المشماوى على رؤيته التى هو مقتنع بها؛ وبإذلل للجهد فى سبيل شرحها على مدى صفحات هذا الكتاب، وهو يلخص - على سبيل المثال - وجهة نظره فى جمود الجامعة فى أكبر قضية واجهتها وهى قضية فلسطين، وهو يجاهر بأن الجامعة العربية فشلت فى أن تواكب استعمال مصر لأحدث وأذكى أساليب الدبلوماسية المعاصرة، ومن ثم واجهت الجامعة نفسها أعنف أزمة فى تاريخها، والحقيقة أن المشماوى لا يتحاز فى هذا الذى يقرره إلى وجهة النظر المصرية فى ذلك الوقت فحسب، ولكنه يقرر واقعاً حدث بالفعل، فنحن نرى الآن المحصلة النهائية للخطوات الدبلوماسية والسياسة المختلفة التى اتخذتها مصر من ناحية، والتى اتخذتها الجامعة العربية من ناحية أخرى، وقد أكدت صواب وجهة نظر المشماوى وبعد نظره، فقد سبقت السياسة المصرية سياسة الجامعة العربية بخطوات واسعة، وقد بدأت مصر السياسة الجديدة من داخل الجامعة العربية نفسها، ولكن الكثيرين - كما يقول المشماوى - لم يفتشوا إلى تحرك الدبلوماسية المصرية المبكر فى هذا الاتجاه:

«فإن جمود جامعة الدول العربية تجاه القضية السياسية الكبرى وهى قضية فلسطين، قد أدى بها إلى أن تواجه أعنف أزمة فى تاريخها، تلك الأزمة التى بدأت يوم أن غيرت مصر مسار التفكير السياسى العربى واتجهت إلى مواجهة القضية عن طريق الحوار، مستعملة فى ذلك أحدث وأذكى أساليب الدبلوماسية المعاصرة. وفى عام ١٩٧٧ لم يفتن الكثيرون إلى تحرك الدبلوماسية المصرية داخل الجامعة العربية من أجل إعطاء فلسطين العضوية الكاملة فى الجامعة، فلقد كانت هذه الحركة تمهيداً لمخططاً لاتجاه جديد تعترم السياسة المصرية أن تسير فيه من أجل مواجهة القضية الفلسطينية وما يرتبط بها من قضايا الأراضى العربية المحتلة»

ويؤكد المشماوى أنه كان على الجامعة - ولكنها للأسف لم تستطع - أن تحصى

الاتجاه السياسى المصرى الجديد وأن نضعه موضع المناقشة ليكون عملاً عربياً جماعياً شاملاً:

«ولو أنه قد توفرت للجامعة العربية المرونة الكافية لاحتواء الاتجاه السياسى المصرى الجديد ووضع موضع الدراسة والمناقشة والتمحيص ليكون عملاً عربياً جماعياً شاملاً، لاستطاعت الجامعة عن هذا الطريق أن تحقق دوراً بارزاً وأن تساهم مساهمة رائعة فى حل كثير من المشكلات التى تواجه الدول العربية وتعمق مسيرتها فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل والعلمية والثقافية كذلك».

ويصل العسماوى فى هذا الاتجاه إلى أن يصور الفارق الواسع بين التحرك الدبلوماسى المصرى من ناحية، وبين قرارات الجامعة العربية من ناحية أخرى، على أنه كالفارق بين مفاعل ذرى عملاق وبين موقد غاز:

«إن الجامعة العربية قد وجدت نفسها إزاء الاتجاه المصرى الجديد بمثابة موقد غاز متخلف تجاه مفاعل ذرى عملاق، بمعنى أن الجامعة العربية بالأسلوب الجامد الذى يسيطر عليها والفكر الضيق المحدود الذى يحيط بتحركاتها، لم تستطع أن تستوعب هذا الاتجاه بسبب عدم وجود أى عوامل مشتركة بين اتجاهاتها خلال خمسة وثلاثين عاماً وبين هذا الاتجاه الجديد».

وعلى الرغم من أننا نقرأ الآن هذه المذكرات بعد عشرين عاماً من كتابتها وبعد اتضاح الصورة فيما يتعلق بتباين وجهات النظر المختلفة فى ذلك الوقت، إلا أننا نرى العسماوى وقد استطاع أن يخترق الضباب القائم وقتها ويحدد موقفه من الصواب! بل إنه - وهذا هو المهم - كان يظن أن مرور عام وأكثر كان كفيلاً بأن تنضج الحقيقة، فإذا هو متمجب من أن بعضى عام وأكثر دون أن يتنبه المسئولون فى الجامعة إلى الحقائق ويستعيدوا توازنهم وتوازن الجامعة تجاه الأحداث:

«وبرغم مرور أكثر من عام وبرغم تطور الأحداث الدولية تأكيداً أو تدعيماً لهذا الاتجاه المصرى، فإن الجامعة لم تستطع أن تستعيد توازنها تجاه هذه الأحداث».

(١٤)

ويلخص صاحب هذه المذكرات الموقف الذى كان على الجامعة أن تتخذه من التحرك

المصري وتناجيه في سؤال واحد يطرح على بساط البحث للنقاش إذا أريدت الموضوعية، ولا يبدو العشماوى مختزلاً للمشكلة في توجيهه للسؤال على هذا النحو، ولكنه في واقع الأمر يلورها بطريقة قانونية وسياسية ذكية كان لابد منها لعلاج الموقف الناشئ في ذلك الوقت :

«مع أن الأمر لو أخذ على نحو موضوعي لانهصر في سؤال واحد: هل ما فعلته مصر هو صلح منفرد يتنافى مع السياسة التي نبنتها الدول العربية منذ عام ١٩٥٠، أم أن ما فعلته هو أولى الخطوات من أجل إتمام عملية سلام شامل؟ إن الإجابة عن هذا السؤال مسألة علمية يحتمل أن يتنبأ على بساط البحث وأن يناقشها مجلس الجامعة في ضوء الدراسات التي يتم إعدادها في هذا الشأن. وكيفما انتهى نقاش المجلس في شأنها فإن مصر كدولة التزمت بميثاق جامعة الدول العربية ينبغي عليها إما أن تقبله أو أن تحدد موقفها إزاءه. ومن الغريب أن ما بذاع الآن وما يسمى برد الفعل بالنسبة لعدد من الدول العربية والذي يصور على أنه أمر جديد، هذا الذي بذاع سبق أن تضمنته قرار صدر عن مجلس الجامعة في أول أبريل عام ١٩٥٥، ولاشك أن الدبلوماسية المصرية تدرك تماماً فحوى هذا القرار الذي عدد العقوبات التي يمكن أن تفرض على أية دولة عربية ترم صلحاً منفرداً مع حكومة إسرائيل. ولكن يبقى السؤال دائماً: هل ما حدث كان صلحاً منفرداً أم مقدمة لعمل عربي شامل من أجل تحقيق السلام الكامل والعدل في المنطقة؟» والإجابة عن هذا السؤال لا تأتي عبر الأثير ولا من خلال مواقف يسودها الانفعال، وإنما تأتي نتيجة البحث الهادئ والحجة المتبادلة والفهم الواعي والرغبة الصادقة في إيجاد حل للمشكلة».

بل إن العشماوى يحدثنا أنه يتعمق الأمور لدرجة أن يصل إلى تقرير أن مصر قد سبقت الجامعة العربية في تناولها لقضايا الحرب والسلام، ويصل في هذا إلى أن يلفت النظر إلى حقيقة موقف الجامعة العربية من حرب أكتوبر ١٩٧٣ فيفاجئنا بأن يرينا ما لم نكن نراه وهو يروى موقف الجامعة من حرب أكتوبر:

«وتأتي أحداث أكتوبر عام ١٩٧٣ وتفاجأ بها الجامعة العربية والأمة كلها مفاجأة مذهلة، وتكون مفاجأة الفلسطينيين بها أشد وطأة وأبعد أثراً. نرى هل كانوا يفضلون أن يكونوا شركاء هذا القرار أو أن يكونوا هم وحدهم صانعوه؟ فقد حملت مصر سر هذه الأحداث وحدها وبدأت بها أول خيوط سياستها لحل المشكلة المستعصية. تأتي هذه

الأحداث وقد استنفدت الجامعة طاقاتها وقدراتها وما أوتيت من سحر البيان وورصاة الكلام بفضل ما احتل به منها عدد من الدول الأعضاء وعدد آخر من ممثلي فلسطين ومن يدعوون الحديث باسمها».

على هذا النحو المهذب والقاسى فى نفس الوقت بوجه صاحب هذه المذكرات مثل هذه الاتهامات الرهيبة بأعصاب باردة، ثم هو يصف تصرفات الجامعة بالترنع فى معالجة قضية المصير فى اللحظة التى تبلغ فيها هذه القضية قمة تطورها:

«وترنع الجامعة وهى تعالج قضية المصير بينما تبلغ فى الوقت ذاته قمة التطور عندما تتحول من أسلوب البيانات إلى أسلوب النداءات. تعال معى نستمع إلى نداء أصدرته الجامعة فى سبتمبر ١٩٧٤ فى عبارات لم تعد ندرس فى كتب البلاغة والفصاحة. لقد تجلّى الحقد الأسود على الأمة العربية فى أبرز صورة عندما انسحبت القوات الإسرائيلية من مدينة القنيطرة وتركتها ركاماً وحطاماً، فقد نسفت المدينة عن آخرها بالمنفجرات، وهدم ما تبقى منها بالبلدوزات».

(١٥)

إلى هذا الحد يسخر العشماوى من أداء الجامعة العربية فى ذلك الوقت، ومن العجيب أننا لا نكاد نذكر فى تاريخنا العربى المعاصر أن هذا كان هو أسلوب الجامعة فى ذلك الوقت.

بل إن صاحب هذه المذكرات وهو يقرأ وثائق الجامعة وقراراتها فيما يسميه هو كتاب الجامعة يطلعتنا على قراول لمجلس الجامعة فى مارس ١٩٧٧ يؤجل فيه النظر فى قضية دعم الصمود فى الأرض المحتلة ويسخر العشماوى فى هدوء من تصرف الجامعة فى مثل هذا الموضوع:

«وبعد هذا تؤكد الجامعة فى نداءها أن العرب دعاة محبة وسلام وأنهم قادرون على إزالة آثار الاحتلال. ويصل الأمر بالجامعة فى ٢٩ / ٣ / ١٩٧٧ إلى أن تطرح عليها قضية دعم الصمود فى الأرض المحتلة، فتؤكد ضرورة العمل على ذلك. وتؤجل بحث الموضوع إلى دورة مقبلة! وكأنا فقدت الجامعة القدرة على المواصلة، أو كأننا فقدت هى

هي ذاتها القدرة على الصمود، ويشهد الحاضرون موقف الوفد الفلسطيني وهو يساهم في تأجيل قضية الصمود فتملكهم الحيرة ويستبد بهم الإحساس بالضياغ».

ويبدو صاحب هذه المذكرات في قمة تحامله وهو يصور الجامعة العربية وقد أصابها وهن كبير وشيخوخة، فهي تكاد تلفظ أنفاسها في مجال البيانات، أما العقل فإن الأطباء ينصحون بتوقفه!! وأما اللسان فإنه أوشك أن يخرس:

«وفي سبتمبر عام ١٩٧٧ تكاد تلتفظ الجامعة آخر أنفاسها في مجال البيانات والنداءات فتجمع شتات نفسها وتودع قراراتها كل ما أوتيت من عبارات، فهي إذ تدرك بوعى، وتؤكد من جديد، وتقرر بكل وضوح، وتعبّر عن قلق عميق، وتستنكر بشدة، وتب بقوة، وتقرر في أوضح عبارة، إذ تفعل ذلك كله تنتهي كماداتها في كل مرة إلى الاستنكار ومجرد التأيد».

«وندامهم الشيخوخة الجامعة من كل جانب وتتأوب عليها العلل والأمراض، من مفصل لا يريد أن يتحرك إلى ساق لا بد أن تبسر إلى صدر ضاق بما فيه إلى لسان أوشك الشلل أن يخرسه، إلى عقل ينصح له الأطباء أن يتوقف. ويأتي ختام عام ١٩٧٧ وعلى وجه التحديد يوم ١٩ نوفمبر من ذلك العام بما لم يكن في الحسبان».

ثم يصل صاحب هذه المذكرات إلى أن يقارن بين ثبات موقف مصر، واتباعه خطوات مرسومة وبين الجامعة التي تصدم دون أن تفيق من الصدمة فيقول:

«وتباشر مصر لثاني خطواتها المرسومة من أجل حل القضية الكبرى. وتبصر الجامعة معاييرها وقد تغيرت وموازينها وقد انقلبت وبياناتها وقد نبذت ونداءاتها وقد تشنت. وإذا الصدمة أقوى من أن تقف لها هي وعدد من الدول التي تنتظم في عضويتها، فالهزة أعنف من أن تحمّلها والفلسفة أعمق من أن تستوعبها. وأمت تلك الجهات وكأنها موقد غاز متخلف في مواجهة مفاعل ذرى عملاق، فأثرت السلامة إلى حين، وانطوت الجامعة العربية على نفسها وتابع الأمين الثالث وعدد من مساعديه رحلتهم في هدوء، ليدخلوا بالجامعة في قوقعة الزمان لعل الصبيحة تدخل بعد حين في غياهب النسيان، ولكن الأمر لم يكن كما صورته الأمانى، فقد مضت مصر في طريقها متحملة مشولية ما أقدمت عليه مقتنعة بأنها تسلك الطريق الصحيح إلى حل القضية الكبرى مؤمنة بأن مزيداً من الدول العربية سوف ينضم إلى المسيرة وأن من غابت عنه الحقيقة أو من لم يرد أن يراها لا بد سيحدها مائلة أمامه في يوم من الأيام».

ولا تتوقف رؤية العشماوي لمشكلة فلسطين عند هذا الحد، ولكنه قبل هذا يرينا صورة من التأمل الهادئ تجاه ما قد يطلق عليه مسمى مشكلة التمثيل الفلسطيني، وقد درسها صاحب هذه المذكرات دراسة وافية على مدى صفحات متعددة قيل أن يتناول أزمة الجامعة الأخيرة، وقد انتهى إلى قوله:

«وتهدأ قضية تمثيل الفلسطينيين في مجلس الجامعة. وتتحمل مصر كماداتها دائماً نتائج المشوية وتقيم حكومة عموم فلسطين على أرض مصر، وتتحمل مصر كذلك النصيب الأكبر من نقاشاتها وموازاناتها».

ثم يشير صاحب المذكرات إلى ذكاء القرارات التي استطاعت مصر أن تحسم بها مشكلة التمثيل الفلسطيني في مؤتمر القمة العربي بالرباط، ويلفت صاحب المذكرات نظرنا إلى ما عانته مصر بسبب جهدها في استصدار هذا القرار:

«وتنضى الأيام وينعقد مؤتمر قمة في الرباط ونقود مصر بدافع من آتمائها العربي الأصيل حملة تستهدف وضع حد للخلاف حول من يمثل الفلسطينيين ويؤيد مؤتمر القمة ما دعت إليه مصر وتصبح منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للفلسطينيين في الأرض المحتلة وغير المحتلة على السواء. ونجنى مصر كالعادة كذلك ثمار هذا القرار فتعرض لحمولات ضارية من جانب المنظمات الفلسطينية الأخرى، وتنضى مصر رغم ذلك في سياستها وفي الالتزام بما دعت إليه واقتنعت به فتدعم منظمة التحرير الفلسطينية بكل ما تستطيع بل وتفتح لها الأفاق الدولية بعد أن أكدت لها وجودها على المستوى العربي».

ويستأنف صاحب هذه المذكرات عرض رؤيته المؤيدة عمماً لسياسة مصر الدبلوماسية والمتقدمة في ذات الوقت السياسات المعارضة لمصر، وهو يؤيد التصرفات المصرية التي كانت نتيجة حتمية لهذه السياسات فيما انتهجت من واقعية وإيجابية كما أنه يستقد بوضوح كل التصرفات التي يعزو سببها إلى سبب واحد يصرح به ويحدده بأنه نتيجة الحقد على الدور المصري، وهو يجيد تصوير رؤية المخالفين لمصر وسياساتها ربما بأكثر مما يستطيعون هم تصوير أو تصور رؤاهم:

«والغريب أنه عندما تحركت مصر في مجلس جامعة الدول العربية ونجحت في إعطاء العضوية الكاملة لفلسطين في الجامعة، لم تسلم يومئذ من القول بأنها قد أرادت من وراء ذلك أن تجمد نشاط المنظمة، وأن تطيع الثورة الفلسطينية بالطابع الدبلوماسي! ولعل القارئ فيما مضى من صفحات قد تبين كيف كانت مشكلة قتل فلسطين مشكلة المشاكل التي لم تخل منها دورة من دورات المجلس. ولكن واقع الأمر أن الفلسطينيين قد أرادوا من البداية أن تكون القضية قضيتهم وحدهم، هم أصحاب الحق في تحريكها إن شاءوا وفي تجميدها إن أرادوا، وما على الجامعة العربية إلا أن تكن مقررًا لأعمالهم. وما على الدول العربية إلا أن تكون ممولًا لهذا النشاط».

(١٧)

ويحكم التكوين القانوني لمصاحب هذه المذكرات، فإنه منذ بداية كتابه يؤكد على نقاط الضعف في صياغة الميثاق نفسه فيقول:

«ميثاق جامعة الدول العربية، الذي لم يستطع أن يتجاوز الإطار الذي وضعه له بروتوكول الإسكندرية، فجاء ليردد في مواده جانباً مما أشار إليه البرونوكول مؤكداً أن ما يقرره مجلس الجامعة بالإجماع يكون ملزماً لجميع الدول المشتركة في الجامعة وما يقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزماً لمن يقبله، فكان ذلك مطلق القسيمة الكافرة ونقطة الضعف التي جعلت الكثير من قرارات الجامعة أدنى قيمة بالنسبة لمن يرفضها من الحبر الذي كتبت به والورق الذي سطرت عليه».

ومن العجيب أننا بعد عشرين عاماً من نشر هذه المذكرات لا نزال نعاني مما أشار إليه صاحب هذه المذكرات، وربما يدرك أولو الأمر في كل مكان جدوى قراءة مثل هذه النصوص التي نضيء لنا الواقع الذي يحدد المشكلات من حين لآخر حتى نتقابل معه بما يستحق من شجاعة وقدرة على التغيير.

(١٨)

أما الجامعة من حيث كونها جهازاً إدارياً فإنها تحل كثيراً من حديث صفحات هذا

الكتاب عن الشرح الذى أصاب جدارها ويمكن القول بأنه يركز فى حديثه على موضوعين رئيسيين هما الأمانة العامة والإعلام، فأما الأمانة العامة فهى فى نظر صاحب هذه المذكرات ولدت واستمرت عاجزة، ولكن عجزها كان يعالج بسياسات تزيد من المشكلات، وهو يتتقد - على سبيل المثال - سياسة استخدام الخبراء التى اتبعها الأمين العام الثالث ويقول:

«ومن الإنصاف أن نقول إن أمناء جامعة الدول العربية على التوالى قد فطنوا إلى عجز جهاز الأمانة العام، فسرى الأمين الأول يستعين بعدد كبير من رجال الثقافة والسياسة والاجتماع ليعهد إليهم بمهمة الإشراف على هذه القطاعات، وسرى مجلس الجامعة يسير على نفس المنهج، فيعهد إلى أشخاص بذواتهم بمهام مفروض أن يقوم به جهاز الأمانة العامة، وسرى الأمين الثانى يحيط نفسه بمجموعة من الحكماء الذين لهم فى مجال العمل العربى وزن وباع كبيران ويجعل منهم أهل مشورته كما يجعل منهم منهل الفكر والمعرفة للعاملين فى جهاز الجامعة»

«وسرى الأمين الثالث لا يكاد يدع مناسبة ألا ويندد فيها بجهاز الأمانة العامة رامياً إياها بالعجز وعدم الكفاية بل وعدم الصلاحية فى أغلب الأحيان، الأمر الذى دعا مجلس الجامعة إلى إطلاق يد الأمين الثالث فى الاستعانة بالباحثين والخبراء».

ويعلق العشماوى على هذه السياسة التى اتبعها الأمين الثالث باستقدام الباحثين والخبراء بانتقاد واضح:

«وإذا كانت هذه الاستعانة قد جلبت إلى ميدان العمل العربى فى بعض الأحيان خبرة مخصصة جادة، فإنها قد جرت على الجامعة فى أغلب الأحيان مساوئ الاحتراف والاتجار بالخبرة والبحث العلمى، وشهدت الجامعة فى عهده عدداً من المحترفين يعمل فى إطارها ويقدم أفكاراً غريبة على الفكر العربى الخالص دخيلة عليه فى أغلب الأحوال. وربما فات الأمين الثالث إن الخير المحترف لا يقدم عادة كل ما لديه، لأنه ينتظر دائماً من يدفع له الأجر الأعلى ليقدم له فى مقابل ذلك مزيداً من الخبرة ومزيداً من الابتكار. ولقد وقعت جامعة الدول العربية كما سترى ضحية عدد من هؤلاء المحترفين فى مجال الاعلام والسياسة والاقتصاد بما لا محل هنا للكلام عن تفصيلاته. فلفد ذهب هؤلاء المحترفون وبقي الجهاز على ضعفه وعدم قدرته وقلة خبرته وحاجته إلى من يأخذ بيده

ويعالج علة. ولم يسلم الجهاز حتى من كلمات هؤلاء الذين أثروا على حساب ضعفه وقبضوا الأموال بحجة عدم صلاحيته^٢.

(١٩)

وفيما قبل هذا الحديث المتقدم لسياسات محمود رياض في معالجة عجز الأمانة العامة، فإن صاحب هذه المذكرات نفسه يشرح بالتفصيل رأيه في الجهاز الإداري للجامعة، وهو يطرح رؤية متناقضة للرؤى التي شكلت أسلوب ممارسة الجهاز الإداري للجامعة لوظيفته، بل ولتكوينه من الأساس، ويبدو العسماوى مؤمنا تمام الإيمان - كما ذكرنا في مطلع هذا الباب - بأهمية البحث العلمي والدراسات من أجل النجاح في أداء وظائف كبرى كوظيفة الجامعة العربية، وهو يضرب أمثلة توضح رؤيته التي لا تحتاج - في رأى - إلى دعم أو إقناع، ويقول:

«لطالما قيل أن جهاز الجامعة هو جهاز إدارى بالدرجة الأولى، وأنه ليس من المفروض أن يضم علماء أو خبراء، ولكننى إذا وافقت على هذا القول إلا أثنى من المؤمنين بأن الجامعة العربية بغیر دراسات أو بحوث علمية تكون فى متناول جهازها لا يمكن أن تحقق القدر الأدنى فى مجال العمل العربى المشترك. ومن هنا كان ينبغى منذ البداية التفرقة بين الجهاز الإدارى للجامعة والذي يتولى سكرتارية المجلس والسجبان وبين جهاز البحث العلمى المتخصص الذى يستطيع أن يقدم خلاصة الخبرة والعلم فى كل مجال تعمل فيه الجامعة أو تطرق بابه. فعندما تشارك الجامعة فى وضع سياسة عربية بتروية لا يمكن ألا تكون لخبرائها وعلمائها المستجدين عن أى انتماء قُطرى رأى فى هذه السياسة وكيفية تشكيلها، وعندما تكون الدول العربية أعضاء فى حركة عدم الانحياز فمن غير المعقول ألا تكون للجامعة مساهمة علمية فى مجال تكوين سياسة هذه الحركة وتطويرها، وعندما تشكل الأموال العربية دعامة أساسية فى توجبه السياسة النقدية العالمية فإنه من غير المقبول أن تنفخ الجامعة العربية موقف المتفرج المنابع للأحداث فى الوقت الذى ينبغى فيه أن تكون دراساتها وبحوثها وما يصدر عنها من إحصاءات هى المرجع الأساسى - ولا أقول الوحيد - لمختلف الجهات الدولية التى تعنى بهذه الأمور».

ثم يتحدث صاحب هذه المذكرات عن نشأة المنظمات المتخصصة وكيف أضافت هذه المنظمات إلى المشكلات القائمة بالفعل نتيجة سعى الأمانة العامة إلى تكرار كيانات في داخلها تتوازي مع المنظمات المتخصصة، دون تعاون أو تنسيق، بل إن الازدواجية والتكرار كانا هما الطابع المميز:

«إن ضحفت جهاز الأمانة العامة للجامعة وعدم تخصصه وافتقاره إلى الكفاءات الحقيقية، كل ذلك قد أدى إلى حد كبير إلى فقدان ثقة الدول العربية في إمكانيات قيام هذا الجهاز باسمها أو نيابة عنها بعمل علمي جاد. وربما كان ذلك هو أحد الأسباب التي ساعدت على قيام المنظمات العربية المتخصصة، فقد رأت فيها الدول الأعضاء أملاً سمعت وراءه لعلها أن تجد فيه ما لم تجده في أمانة الجامعة».

«فلم يلبث الداء أن تسرب إلى المنظمات العربية وأصبحت في غالبيتها العظمى نسخاً مكررة لجهاز الأمانة العامة. وسرى فيما يلي أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل انتقل إلى منافسة صريحة بين أجهزة قائمة في الأمانة العامة أو تم إنشاؤها مؤخراً وبين الأجهزة القائمة في المنظمات العربية، فمع قيام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أنشأت الأمانة العامة جهازاً للشئون الثقافية، ومع قيام منظمة الوحدة الاقتصادية والعديد من المنظمات الاقتصادية المتخصصة كصندوق النقد العربي والمصرف العربي للتنمية، أقامت الأمانة العامة للجامعة صرحاً اقتصادياً عالياً مازالت تدعمه عاماً بعد عام ليقوم بذات المهام ويمارس ذات النشاطات. ومن الطريف بعد ذلك أن تشكو الجامعة وأن تقيم جهازاً للتنسيق بينها وبين تلك المنظمات ليعمل على منع الازدواجية وعدم تشتيت الجهود العربية. مع أن أمانة الجامعة هي وحدها القادرة على أن تضع حداً لهذه الازدواجية وهذه الجهود المبعثرة، وبإمكانها أن تفعل ذلك لو أنها قبلت سنة التطور واكتفت بما بقي لها من عمل، وتركت المنظمات العربية تؤدي مهامها دون منافسة ودون عوائق».

(٢٠)

وبروي صاحب هذه المذكرات تفاصيل تجربة السبعينيات في تطوير الأمانة العامة للجامعة وهو التطوير الذي أطلق عليه في قرار مجلس الجامعة مسمى «دعم الأمانة العامة للجامعة» فيقول:

« كان قدوم الأمين الثالث ايذاناً للمحفظ بأن يتعجل فيما رسمه لنفسه من خطوات وخاصة بعد أن زالت أكبر عقبة كانت تقف في طريقه بخروج الأمين الثاني عبد الخالق حسونة. فما إن اجتمع مجلس الجامعة في شهر سبتمبر عام ١٩٧٢، حتى وجد (أي مجلس الجامعة) أمامه محاولة جديدة لا تكاد تختلف عن المحاولة السابقة إلا في أنها قد غلفت بغلاف من الرغبة الصادقة في إصلاح شئون الجامعة وتطوير أجهزتها وتنمية قدرتها على القيام بالأعباء الملغاة على عاتقها. وكان من وراء هذه المحاولة المندوب الدائم للجمهورية العربية السورية بناصره ويسائده عدد من المندوبين الدائمين لدى الجامعة، ثم لم يلبث أمين الجامعة أن أعجبه الفكرة وصار من أشد المستحمسين لها. وتم لهم ما أرادوه، وصدر عن مجلس الجامعة قراره ٢٩٦٢ في ١٣ سبتمبر عام ١٩٧٢ تحت عنوان جذاب يحمل عبارة "دعم الأمانة العامة للجامعة" ويحمل بين طياته مزيداً من المحاولة والتخطيط من أجل ضرب الأمانة العامة وتنشيط المشاكل من داخل جهازها وشل قدرتها وفعاليتها في القيام بأى عمل جاد. وأسفر قرار مجلس الجامعة عن لجنة جديدة يرأسها الأمين العام وتضم في عضويتها سفراء سوريا والجزائر والكويت والسعودية ولبنان ومصر. ومرة أخرى يكون ممثل الجمهورية السورية ورئيس اللجنة الدائمة للشئون الإدارية في الوقت ذاته، هو المحرك لأعمال اللجنة، والواضع لمشروعاتها، المعبر عن آرائها، العالم وحده بمكنون أسرارها».

ثم يلخص صاحب هذه المذكرات النتائج القليلة التي انتهى إليها التطوير، وهو يصف هذه النتائج بأنها تبدو وكأن في ظاهرها الرغبة وفي باطنها العذاب، وهو يبدى مبرراته لحكمه هذا، فقد أصبحت تسمية أوضاع الموظفين سلطة مطلقة في يد الأمين العام، وكذلك تعيين الأمناء الماعدين، هذا فضلاً عن الأمر الجديد الثالث وهو تفتت إدارة الأمانة العامة من أجل هدف خبيث هو تقليل وجود القيادات المصرية في إدارة الجامعة، ولا يمكن لنا أن نسارع بإضفاء النزعات الإقليمية على صاحب هذه المذكرات حين يرى هذا الرأي، إذ يبدو واضحاً لنا أن هذا الهدف كان هو الدافع الحقيقي بالفعل! ونحن نقرأ له هذه الأفكار بتفصيل معقول حيث يقول:

«ويتمنى التطوير دون أن يأتي بجديد اللهم إلا أموراً ثلاثة ظاهرها فيه الرغبة الصادقة وباطنها فيه العذاب الشديد، سلطة مطلقة في يد أمين الجامعة لتسوية أوضاع الموظفين بالمخالفة لأحكام الأنظمة التي تحكم أوضاعهم، وصلاحيات جديدة سلبها الأمين العام من

مجلس الجامعة جعلت أمر تعيين الأمناء المساعدين كاملاً في يده خروجاً على نظام الجامعة وأحكام ميثاقها، وتفتتت لإدارات الأمانة العامة لم يستهدف صالح العمل دائماً وإنما استهدف جعل القيادات المصرية في الأمانة العامة قلة نادرة بعد أن كانت كثرة غالبية. وأدخل التطوير على سيمفونية الأمانة العامة حثاً نشازاً لم تعرفه الجامعة من قبل، وبه تم التفريق في المعاملة بين المصري وغير المصري والقديم والجديد والدائم والمؤقت وهكذا تفرق العاملون شعباً دانت كل فرقة منها لزعيم، وذهبت ريح الجامعة وضاعت الألفة والمحبة بين الناس بعد أن كانتا طابعا مميزا لأسرة الجامعة ومنظمتها العاملة في نطاقها.

(٢١)

ثم يصل بنا صاحب هذه المذكرات إلى تلخيص وتحليل النتائج التي أسفرت عنها سياسات التطوير التي فرضت على الجامعة العربية في السبعينات، وهو يرويه كعادته بالرسوز الواضحة التي يمكن معرفة أصحابها على وجه دقيق وإن لم يكن قد أورد أسماءهم بالتحديد، وقد نلمح في حديثه بعض الميل إلى الهجوم على أشخاص معينين أو إلى تصفية حسابات شخصية معينة، ولكن الجانب الموضوعي يظل مع هذا بارزاً بشدة وبوضوح.

ومنذ شهر أكتوبر عام ١٩٧٤، ومع بداية التطوير، دخل إلى مبنى الأمانة العامة عدد من القيادات الجديدة هم ثمرة التطوير ونتاجه. دخل إلى الأمانة على التوالي مندوب سوريا الدائم لدى الجامعة وفي أثره سفير الأردن وصوت فلسطين من قبل وفي النهاية محافظ البنك المركزي وسفير العراق السابق في القاهرة، دخلوا ليحتلوا ضمن خطة محكمة مناصب الأمناء المساعدين لأمين الجامعة وليسيطروا سيطرتهم الكاملة على قطاعات السياسة والاقتصاد والتنظيم والإعلام وليحيطوا الأمين الثالث بحلقه طاماً تعذر عليه الخروج منها أو مواجهة ضغوطها. وفي أعقاب السادة الأمناء المساعدين دخل تحت مظلة التطوير عدد لا بأس به من سفراء سوريا وليبيا والعراق ومن قادة فلسطين ليحتلوا مراكز المديرين لإدارات الجامعة في الداخل ومكاتبها في الخارج. وهكذا أصبح المصريون بين يوم وليلة يشكلون طاقم الجنود بينما تسلم الآخرون القيادة وأركان حربها.

ويصف صاحب المذكرات في دقة بالغة مدى العناية الذي لقيه الأمين العام الجديد محمود رياض نتيجة إقرار هذه السياسة ويبدو متعاطفاً معه إلى حد بعيد ومقدراً لما فرض عليه، ولم تقبله هو بحسن نية فيقول:

«وحتى ٣١ ديسمبر عام ١٩٧٣ الموعد المحدد لإعادة النظر في أوضاع الموظفين ، تحمل الأمين الثالث فوق ما يحمل البشر ، وعكر صفو نهاره وأرق هناء ليلته ضغط لا يهدأ من أجل تطهير جهاز الأمانة العامة وإقصاء عدد من القيادات المصرية عن مناصبها . ويصمد الأمين قدر طاقته وتنتهي الفترة المحددة لكي يلتقط أنفاسه ظناً منه أنه قد نجح أو أن القوى المحيطة به قد هداها اليأس أو رضيت بالهزيمة».

(٢٢)

وبحرص صاحب هذه المذكرات على أن يروي بطريقة طريفة ومفعمة بالكفاية البلاغة القديمة حقيقة موقف الأمين العام للجامعة من مجلس الجامعة العربية وموقف المجلس منه وكيف تمكنت القوى المناوئة له من زيادة عدد العاملين في الأمانة بما ليس مطلوباً لمصلحتها وإنما لمصلحة تعدد الأتوان والأجناس والأشكال . ويبدو صاحب المذكرات وكأن مصرته قد أوذيت في الصميم من أناس تعلموا في مصر ونالوا خيرها في حياتهم وفي تعليمهم، ولكنهم على أي حال لا يحملون جنسية مصر (هكذا يكتفى العشماوى بالتلميح فحسب):

«... ويوم أدار الأمين ظهره للمجلس ، فقد أدار ظهره كذلك للأمانة العامة وإذا كانت له من قبل تجربة يتحدث دوماً عنها فيقبل الحديث ، فقد فعل مع الأمانة العامة مثل ما فعل من قبل مع وزارة كان يتولى أمرها . فلم يكتف بأن هجرها وهجر رجالها وكادت أن تنقطع عنه أخبارها، وإنما جمع إليه نخبة من أهل ثقته فأسكنهم من حوله وجعل الأمر كله من خلالهم إليه وحده . وطابت بذلك نفسه وظن أن ما رضيت به الأمانة السابقة هو بالضرورة أمر تسكت عليه الأمانة اللاحقة . ونسى أن الأمانات معادن منها من يرتضى الفهر فيشره وربما امتلأ به جسده، فيحسب الناس أنه في أحسن حال وأنه ماض إلى خير مآل ، كالخشب يستفخ من طول ما يبلله الماء ومرث به السيول وجرفه النيار . ومنهم من يطحنه الهجر ويسحقه الضنى . كالصدا يأكل الصلب من الحديد فيقنيه

ويعدمه، ومنها من كالجامعة يزيد الهجر شهوة ويفقده الهجران نوازنه، فإذا هي كالضائعة لا يستقر لها قرار ولا تهدأ لها نفس، تبعد الخوف عنها بالكثرة، وتلتمس الأمن بالناس تملاً بهم حجرائها، وتفتح لهم مغلق أبوابها. وهكذا كثر العاملون في الأمانة العامة بعد أن كانوا قلة، وعددت فيها الألوان والأجناس والأشكال، وأصبحت واجهة رائعة لبضائع فرضت نفسها أو قيل أنه تم استيرادها من أقصى بلاد المغرب العربي أو من أرض الخليج وأحق يقال أنه لم يكن محض الشراء أن توصف البضائع بأنها مستوردة، فهي وإن تم تجميعها محلياً، فهي في حقيقتها قد جاءت من أصول مستوردة، صحيح أنها ليست دائماً تحمل علامة الجودة، ولكنها على أي حال لا تحمل جنسية مصر وإنما عاشت على نوايا وشريت من نيلها ونفست من هوائها وتلقت العلم على يد علمائها. والحق يقال كذلك إنه بفضل هذه التوليفة الجديدة استطاع مخرج الروائع أن يقدم ربما لأول مرة لوحة العروبة الخالدة، تقدمها الجامعة العربية في المناسبات وكلما عصفت بها الأنواء وأحاطت بها الخطوب والملمات!

(٢٣)

ولا يجد العنماوى حرجاً في أن يصرح في هذا الكتاب بالظروف التي أحاطت بخروج عبدالحالق حسونة من منصبه كأمين عام لجامعة الدول العربية، وسنرى نزعة من «المصرية الواضحة» تسيطر على صاحب هذه المذكرات على الرغم من أن عبدالحالق حسونة مصري وخلفه محمود رياض مصري أيضاً، ولكن صاحب المذكرات ينظر إلى الأمور من وجهة نظر أخرى ترى أن خروج حسونة كان ضرورياً لكي تستطيع الاتجاهات المناوئة لمصر وللكفاءات المصرية أن تسيطر على الجامعة وأن تجعلها أداة لتنفيذ ما يطلب إليها تنفيذه لا القيام به.. ومن الجائز أن يوصف حديث العنماوى في هذه الفقرات بأنه يخلط ما بين وجود المصريين في مناصب الأمانة وبين الكفاءات، وكان الكفاءات لا تكون إلا من مصر. ولا أظن أن صاحب هذه المذكرات يؤمن بهذا أو يصبر عنه، وإنما هو حقيقة الأمر يعبر عن واقع حقيقى ساد لفترة من الوقت، واتجه إلى تنبيل فرض كل ما هو مصري وكل من هو مصري، وهكذا يمكن القول بأن المعركة فرضت عليه ولم يفرضها هو، فهو في موقف الدفاع لا الهجوم، ولست بطبعي محباً للالتحياز إلى مثل هذه الرؤية.

ولكنى للأسف الشديد أدرك من واقع ما رأيته أن هذا هو ما حدث بالفعل وليس عندي ولا عند المصريين الأكفاء مرارة من هذا، فإن الكفاءة لا تعمد التقدير ولا تعمد من بقدرها، كما أن من حق الإخوة في كل مكان أن يأخذوا فرصهم التي لم يأخذوها من قبل، ولكن المصارحة والمكاشفة بقبان ضرورتين، وبخاصة إذا كانت مثل هذه الإزاحة للكفاءات المصرية قد قادت بدون سبب معقول إلى التأثير على كفاءة وفعالية أجهزة عربية مهمة وحساسة كالأمانة العامة للجامعة العربية :

«والقصة في هذه المرة ليست نديمة قدم الجامعة، ولكنها تبدأ مع الأشهر الأولى من عام ١٩٧١ عندما تقرر البدء في تنفيذ مخطط محكم يستهدف ضرب الجامعة من الداخل عن طريق تفتيت جهازها وإقصاء الكفاءات المصرية عن رئاسة إدارتها، ثم تفجير الخلافات بين العاملين فيها، ثم السيطرة عليها وجعلها أداة لتنفيذ ما يطلب إليها تنفيذه، لا القيام بما هو مفروض عليها أن تقوم به».

«بدأت القصة في اليوم الرابع والعشرين من شهر مارس عام ١٩٧١، فقد حدث عندما كان مجلس الجامعة ينظر مقترحات تقدمت بها لجنة من الخبراء الإداريين لعلاج ما يعانيه عدد من الموظفين المصريين من رسوب وظيفي أبقي عليهم في درجاتهم لسنوات طويلة، بينما كان المجلس ينظر هذه المقترحات، وجد المندوب الدائم للجمهورية العربية السورية - الذي أصبح فيما بعد أميناً عاماً مساعداً لشئون التنظيم والإدارة - وجد الفرصة سانحة لكسب يجعل من أبواب الرحمة أبواباً للعقاب. وبدلاً من أن يصدر المجلس قراره بعلاج الرسوب الوظيفي لموظفي الأمانة العامة، إذا به يرى بقدرة قادر أن استعراض هذه المقترحات فرصة مناسبة طيبة لإعادة تنظيم أجهزة الجامعة العربية وإذا المجلس يقع تحت سيطرة مخطط أحكمت حلقاته ويصدر قراره رقم ٢٧٧١ الذي شكل بمقتضاه لجنة عليا برئاسة الأمين العام للجامعة ضمت في عضويتها المندوب الدائم للجمهورية العربية السورية والمندوب الدائم للجمهورية العراقية - صاحبي الاقتراح - ورئيس اللجنة القانونية الدائمة ورئيس المحكمة الإدارية للجامعة والممثل الدائم لجمهورية مصر العربية.

وبدلاً من أن تنولي هذه اللجنة مهمة تنظيم أجهزة جامعة الدول العربية، إذا بمجلس الجامعة يعهد إليها بمهمة تقييم جميع الموظفين العاملين في الأمانة العامة والهيئات الملحقة. وأناط القرار بالأمين العام مهمة إنهاء خدمات الموظفين الذين تقرر للجنة إعفاءهم من الخدمة، وذلك خلال مدة أقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور قرار مجلس

الجامعة بتشكيل هذه اللجنة العليا، وإسعاداً في حرمان الموظفين من كل الضمانات التي تكفلها لهم قواعد العدالة، نص قرار مجلس الجامعة على أن تكون قرارات إنهاء الخدمة الصادرة عن الأمين العام بناء على رأى اللجنة غير قابلة للطعن فيها لا أمام المحكمة الإدارية ولا أمام مجلس الجامعة.

(٢٤)

ويُحسب لصاحب هذه المذكرات أنه اعترف لأصحاب الفضل بفضلهم حين نبهوا إلى الصواب والخطأ وصدروا في هذا عن حرص بالغ على الجامعة وعلى العاملين فيها، ولكن الأغلبية كانت تقضي طريق آخر على نحو ما نرى:

«وشهادة للتاريخ فإن واحداً فقط من أعضاء مجلس الجامعة هو الذي تنبه إلى ما وراء هذا القرار من أمور لا تؤمن عواقبها، وما يمكن أن يؤدي إليه من الإطاحة بعدد من كبار موظفي الأمانة العامة ومن الكفاءات المصرية على وجه الخصوص. كان هذا العضو هو السفير الشيخ طاهر رضوان رئيس وفد المملكة العربية السعودية ومندوبها الدائم لدى الجامعة. وللحق والإنصاف فإن هذا السفير قد عبر في كثير من مواقفه عن حرص بالغ على الجامعة وعلى مصالح العاملين فيها، وسرى فيما يلي كيف كان موقفه عندما بلغ المخطط مداه وكيف استطاع بقوة حجته وصلابة رأيه، أن يحول دون تنفيذ ما أريد يومئذ بالجامعة وجهازها. وإلى جانب طاهر رضوان - العضو الوحيد الذي تحفظ على القرار وعارضه - كان هناك الأمين الثاني عبدالحق حسونة، الذي أدرك بقطنته وشدة حساسيته ما ينطوي عليه الأمر من خطورة، لكنه أثر أسلوب الدبلوماسية الهادئة لعل اللجنة أن تكون سبيلاً إلى تخفيف آثار هذا القرار أو الحيلولة دون تحقيق ما قصدوا إليه من ورائه. ولكن ما أن اجتمعت اللجنة العليا حتى أصر مقررها والمتحدث الأوحد فيها على أن تعمل صباح مساء حتى تفرغ من مهمتها. وقدم الممثل السوري في اللجنة حشداً من المعلومات والشائعات عن العاملين في الأمانة العامة والمصريين منهم على وجه الخصوص، تهدف كلها إلى النيل منهم في كفاءاتهم أحياناً وفي خصوصياتهم في أغلب الأحيان. وسأنده فيما جاء به من أبناء ممثل الجمهورية العراقية، ورئيس اللجنة القانونية

حينئذ المحامى شفيق أرشيدات. وفات اللجنة يومها أن تبين ما قدم إليها حتى لا نندم على ما فعلت. وفرغت اللجنة من عملها وأصدرت مجموعة من القرارات طلبت من الأمين العام تنفيذها. وإذ كانت هذه القرارات فى مضمونها فصلا ونشربداً لسنخبة من العاسلين فى الأمانة العامة، فقد أبى الأمين الثانى على نفسه أن يكون أداة للنيل من معاونيه، وبأسلوبه الدبلوماسى الهادى أصدر مجموعة من القرارات خيبت أمل من حرك اللجنة، ومن أراد لها أن تكون مذبحة للعاملين».

ثم يروى صاحب هذه المذكرات كيف أمكن الوصول إلى صيغة تحفظ ماء الوجه بعد أن كانت الصيغة المطروحة لا تتفق مع قواعد الدبلوماسية والعرف المتبع فى الجامعة:

«وهذأت الأمور إلى حين، ولكن القوى المتريصة بأمين الجامعة وبالنخبة الطيبة من معاونيه، لم تلبث أن تحركت، وبأسلوب لا يتفق مع قواعد الدبلوماسية والعرف المتبع فى الجامعة، سلم المندوب الدائم للجمهورية العربية السورية فى يوم من أيام شهر أبريل عام ١٩٧٢، مذكرة إلى أحد الأمناء المساعدين (سورى) يطلب فيها إنهاء خدمة السيد عبد الحافظ حسونة. وأبت مصر يومها أن تستجيب لملل هذا الأسلوب وسمى الساعون بعد ذلك - وهم اليوم يحملون وزر سعيهم - فأناحوا للأمين الثانى فرصة أن يترك منصبه مختاراً. ثم كان ما كان من ترشيح الأمين الثالث ونولييه مسئولية الأمانة مع نهاية شهر مايو عام ١٩٧٢».

(٢٥)

ونأى إلى مشكلة من أهم مشكلات الجامعة العربية يعرضها العشماوى فى وضوح شديد رغم حساسيتها واقترباها من السرية: وهى الإعلام، ونحن نجد صاحب هذه المذكرات يجاهر بمدى العبث الذى انتهجته سياسة الجامعة العربية فى عهد محمود رياض من أجل دعم الإعلام. وهو يدلنا على صور من الإنفاق السرى الذى أنفق بلا مبرر (وبلا نتيجة) على سياسة إعلامية غير واضحة، ويكاد العشماوى يتهم المسئولين عن الإعلام فى الجامعة - بمن فيهم الأمين العام نفسه - بأنهم لم يكونوا يقصصون من هذا الإعلام إلا الشوشرة على الرئيس المصرى أنور السادات حين يكون فى زيارته إلى

أمريكا، وهو يبدأ حديثه عن هذا الموضوع بالإشارة إلى أن الأمين العام المساعد لشئون الإعلام كان يملك من الصلاحيات فى (مملكته) ما لا يملكه الأمين العام ذاته، وهكذا كان لا بد للأمين العام الجديد (محمود رياض) من إعلام خاص، كان قد أعد العدة له، ويروى العشماوى تفاصيل مذهلة عن هذا الإعلام «الخاص» الذى تحملت مصر فيه نصيبها من التزامات مالية وصلت إلى ثلاثين مليوناً من الدولارات وضعت فى يد محمود رياض ليفقها فى تغيير المفاهيم دون أن يتجح فى ذلك على الإطلاق!!:

«وفى الوقت الذى كان فيه الإعلام العام فى الجامعة مملكة يرأسها الأمين المساعد لشئون الإعلام. ويملك فيها من الصلاحيات ما لا يملكه الأمين العام ذاته، كان الأمين الثالث للجامعة قد تولى رئاسة جهاز الأمانة العامة منذ وقت قصير، وكان قد أعد العدة لإعلام خاص. وخلال اجتماعات مؤتمر القمة السادس فى الجزائر نم ميلاد الإعلام الجديد».

«وإذا كان الإعلام سرا من الأسرار لا يعلم أمره إلا القلة من أهل الثقة، فسوف اتحمل مسئولية الكشف عن هذا الإعلام، وأعلم إنى متهم من الآن بكل صنوف الادعاء والافتراء. ولكن ربما لا يعلم الكثيرون أننى وأنا أجوب أروقة الأمانة العامة ذات ليلة، قد وقمت على كتاب الأسرار، ومنه سأحكى لك أيها القارئ ما وقع عليه نظرى وما وعته ذاكرتى. ولو أننى كنت مسئولاً عن الإعلام فى بلد من البلدان لحاسبت أولئك الذين تعاملوا مع هذا الإعلام الخاص فأحسن معاملتهم وأجزل العطاء لهم».

«ثلاثون مليوناً من الدولارات، قدمتها الدول العربية، ومنها من هو أحوج ما يكون إلى ما تبرع به، ولكنها أمانة المشاركة والوفاء بالمعهد وفريضة الانتماء إلى أمة واحدة. ولعل هذه المعانى هى التى حدث بمصر إلى المضى فى تحمل التزاماتها المالية قبل العمل العربى المشترك. ولو أن ما قدمته مصر من أرواح ودماء تقدر بـشمن لأعفيت مصر من حصنها فى كل المنظمات العربية والدولية ما شاء الله لهذه المنظمات أن تعمل وما شاء الله لها أن تدوم».

«ثلاثون مليوناً من الدولارات وضعت فى يد الأمين الثالث ليواجه بها تجربة جديدة فى دنيا الإعلام، ولتكون رداً على من يدعى أن الإنفاق فى مجال الإعلام لا يعدو أن يكون قطرة فى بحر الإنفاق. فلتعمل الجامعة وليتحرك أمينها وجيبه مطمئن إلى المال، وليدع الأمين أسلوب الإعلام العام بمضى فى طريقه ينظم المحاضرات ويرتب الزيارات

ويصدر الكتب والنشرات، أما الإعلام الخاص فأسلوب مبتكر وتحرك جديد يستهدف تغيير المفاهيم بل وتغيير الأوضاع إن كان ذلك في الإمكان^٥.

(٢٦)

ويكاد صاحب هذه المذكرات يسخر بأسلوب مبتكر من كل أفكار الأمين العام محمود رياض فيما يتعلق بسياسة الإعلام الخاص، وما كانت تهدف إليه أو ينشر به، وهو يلجأ في هذا الصدد إلى أن يروى لنا أنه قد اعتراه الزهو وهو يرى هذا الإعلام وقد أصبح يستهدف توجيه الناخب الأمريكي الوجهة التي يريد بها العرب في انتخابات الرئاسة الأمريكية نفسها!!:

«كنت أستمع مرة إلى الأمين الثالث وهو يشرح خطة الإعلام الخاص، وكانت الانتخابات الأمريكية يومها على الأبواب. ولا أخفى عليك أيها القارئ أنني أحسست بالزهو بغمري من رأسي إلى قدمي وأنا أشعر أن العرب قادرون على أن يغيروا دفة هذه الانتخابات وأن يوجهوا الناخب الأمريكي الوجهة التي يريدونها. ووددت لو أن الثلاثين مليوناً قد أصبحوا ألفاً، إذا لدان لنا العالم شرقه وغربه وشماله وجنوبه، ولربما استطعنا بالفائض بعد ذلك أن نحسن أوضاع العاملين وأن نرفع مرتبات الموظفين!^٦»

ثم يتحدث صاحب هذه المذكرات عن السرية الغربية التي أحاطت بعثات المبررين الذين أوفدتهم الجامعة العربية في برنامج الإعلام الخاص وهو يذكر أن الاعتماد المطلوب لسياسة الإعلام الخاص لم يأت كله ويمكن الجامعة بدأت سياستها بما وصل من أموال مرصودة، وأنفقها دون أي جدوى أو عائد:

«والحق أن الملايين كلها لم تأت، ولكن جاء منها ما يكفي للبدء بعملية تحرك شامل. وخرجت طلائع المبررين من مصر ولبنان وسوريا وفلسطين، خيرات عجز الإعلام العام عن أن يطوعها لخدمته، فجاء الإعلام الخاص ليكسر أشواكها ولبعثاً فراع عيونها. وانطلقت الطلائع إلى أمريكا وأوروبا وآسيا لكسب نفعل الفعلة الكبرى وتحقق الأمل الذي طال ترقبه. وكما خرجت الطلائع في سر عادت كلها في سر كذلك، وكما أحيطت خطتها بالسرية الكاملة فقد لفت نتائجها بالسرية الشاملة كذلك، حتى المال الذي أنفق

تم إنشاؤه في سرية تامة وتمت المحاسبة عليه في سرية أتم، فما كان لذلك أن يعلن فالأمر كله ينبغي أن يبقى سرا لا يعلم به أحد ولا يحس به إنسان. وإذا كنت دائما من المشاغبين المولعين بالتحليل والاستنباط فقد لفت نظري في هذا الإعلام الخاص أمران : الأول أن هذا الإعلام الخاص قد تحرك دائما في توقيت واحد مع التحرك المصري الذي تم في السنوات الأخيرة. فمع رحلة الرئيس المصري إلى أمريكا أوفد الإعلام الخاص من نتائج الرحلة ويحاول جاهدا أن يبدد آثارها، ومع تحركات الدبلوماسية المصرية في أوروبا وآسيا، تحرك الإعلام الخاص في مواجهتها ويهدف إبطال مفعولها. وهكذا، توافق غريب في التوقيت وتقابل أشد غرابة في الهدف من التحرك، ترى هل وقع هذا مصادفة أم عن عمد ونخطيط، ذلك أمر لا أعرفه ولا أملك الاستنتاج فيه. والأمر الثاني : أن هذا الإعلام الخاص في كل ما قام به وما أنفقه لم يخرج - فيما أعلم - بعائد يسمح بتقييم نتائجه أو دراسة أسباب فشله.

ويصل صاحب هذه المذكرات إلى أن يروي أن تغطية مستندات هذه السفقات كانت صعبة جداً حتى على المستوى الورقي ويقول:

«وكل ما أعلمه أنه عندما أراد أحد العاملين يوما أن يستكمل الشكل الذي يريجه به ضميره وأن يضمنه صورة التقرير المقدم عن مهمة بالذات. نه في رفق أولا ثم عنف في قسوة ثانيا، بأن الأمر أكبر من أن يكتب في شأنه تقرير أو أن نصل فيه إلى نتائج محددة!».



ويضرب الدكتور العشماوي مثلاً بسيطاً على هذا الذي يراه متعجباً من ضياع الأموال على هذا النحو:

«إن علمي المتواضع قد وقف عند مليونين فقط من هذه الملايين العديدة، أن مليوناً منها أو يزيد قد تم تجهيز البشريين الأربعة بها، ومليوناً أخرى حولت إلى أمريكا، ولكنها فيما يبدو قد أخطأت الطريق. لقد كان مفروضاً أن تصل إلى سفير الكويت في واشنطن في أيام معدودة ولكنها قطعت الرحلة في عام أو يزيد. وعندما أجرى تحقيق حول هذا الموضوع قيل يومها في بساطة أن خطأ نافها في اسم السفير هو المستول عن هذا التأخير، ولم يكشف التحقيق عن فوائد هذا المليون ولا عن الأمور التي تم فيها صرف المليون ذاتها».

ويقترح صاحب هذه المذكرات - ربما بعد فوات الأوان - أن تنفق الجامعة الأموال الباقية من هذه الميزانية من أجل السلام! أليس هو الهدف النهائي:

«واليوم ذهب الأمين الثالث، وبقيت الملايين في خزائن بنوك الجامعة. ولو أن يبدى الأمر أو كنت أهلاً للمشورة، لقررت أو أشرت بأن تخصص البقية الباقية من أجل دعم جهود السلام. فثلك غاية ما كان يصبو إليه الإعلام، الخاص منه أو العام».

(٢٧)

بقى الحديث عن ذكريات صاحب هذه المذكرات نفسه مع الجامعة العربية والعمل فيها، وهو يروي هذه التجربة الشخصية باختصار شديد قد نأخذ عليه الاكتفاء به، ونحن في إطار الحديث عن التجارب الشخصية، وما ينبغي أن نحصر عليه من ذكر التفاصيل الدقيقة لحياة صاحبها في العمل العام والوظائف الرسمية، ولكن يبدو أن الظروف لم تكن في ذلك الوقت لتشجع مثل هذا الانجاء «الذاتى» الصرف في ظل الحديث الدائم والمستمر عن مشكلات موضوعية وانجاءات كبرى، ومع هذا فإننا لا نعدم في فقرات هذا الكتاب بعض هذه الملامح الشخصية عن هذه التجربة حين يرويها صاحب المذكرات فيقول:

«دخلت الجامعة العربية في مطلع الستينيات، ومازلت أذكر خطواتي المترددة، وأنا ألج ذلك المبنى الأنيق وقد تقدمنا الأمين العام يومئذ، ذلك الشيخ الجليل الذى حملنا له من الاحترام قدراً كبيراً، ربما لم يدع في قلوبنا مكاناً لحبه ومعزته. ورحبت يومها بين عمد من المحظوظين أختار الحجرة التى تلاثمنى والجهة التى تناسبنى والدور الذى يوافقنى. وإذا كان الجو حاراً يومها، فقد اخترت انجاء الريح، وإذا كان قلبى يحدثنى بأن المصعد سوف تهده السنون، فقد اخترت من بين الأدوار رابعها، فتوسطت العقد وقربت من مركز السلطان، دون أن أرتبط به، فأمنت بذلك شره، وسعدت بجواره...».

وهكذا انطلق كل محظوظ فاختار من المواقع ما أعجبه، ثم لما فاز بالنعمة فرسانها، جىء بالمشاة فحشروا فيما تبقى من الحجرات حشراً، ومن يومها استقر إلى حين توزيع

غريب لأجهزة الأمانة العامة ومرافقتها، لو أنني استرجعت اليوم لوجدت فيه طرافة غير مقصودة ومفارقة لم تكن يومها منظورة. ففيها تحت الأرض يرقد مسجد الجامعة مقهوراً بتسعة أدوار تعلوه، فلا يكاد يرتفع له صوت ولا يكاد ينطلق منه أذان.

«وفي الدور الأول تنتشر قاعات الاجتماعات أو صالات العروض، يمدو من حولها رجال المراسم والتشريفات، أشبه ما يكونون بهؤلاء الذين تشاهدهم في صالات ومسارح القاهرة، غاية ما هناك أنهم لا يحملون البطاريات وغالباً ما يمتنعون عن قبول الهدايا والإكراميات. وخصص الدور الثاني لأمين الجامعة ومدير شئونها وصاحب الحق وحده في التعاقد باسمها والتعبير عن مكتون أسرارها، ومن حوله تنتشر مواقع أركان حربه وأهل ثقته، المتحدثين باسمه الراوين لآثره الغاضبين لغضبه السائرين في ركابه، الذين عادة ما يألفون ولكن لا يؤلفون. ومن فوق قاعدة الحكم ترتفع أدوار سبعة، ملئت كلها باللاعبين والمنفذين والمدرسين، جيء بهم من كل حذب وصوب ليحققوا أمل الأمة العربية».

(٢٨)

وفي موضع آخر يتحدث صاحب هذه المذكرات عن تردد ذكر الجامعة العربية في أحاديث وحوارات بينهم، وهو يروى كيف كان يلم بتفاصيل الحوار بين والديه حول هذه الجامعة، مقدماً صورة جميلة منسوبة إلى أم كلثوم، لا أظن أن أحداً يتشجع على أن يصرح بها على هذا النحو:

«وكان ما لدى من علم عن الجامعة العربية قد أخذته عن المرحوم والدي، الذي كان - رحمه الله وغفر له - من المؤمنين بالجامعة العاملين فيها، المتحمسين لها، كانت شغله الشاغل وقصده الدائم، يسعى إليها أول النهار ويعود منها آخر الليل، ينظم الاجتماعات ويعقد المؤتمرات. وكانت أمي - أدخلها الله في رحمته - تضيق بهذا العشق الجديد الذي ملك من الرجل حواسه وملأ عليه حياته. وكان يحلو لها أن تسخر من الجامعة... وسألت أمي ذات مرة عن وصف سيدة الغناء للجامعة، فروى لي قصتها. قال: كان ذلك إثر دورة يجلس الجامعة كثر فيها الشجار وارتفع السباب إلى عنان السماء، وعندما ضم الوفود في المساء عشاء: راح القوم يداعب بعضهم بعضاً، وقد صفت نسوسهم وتحابت قلوبهم، ولمحت سيدة الغناء أمين الجامعة وقد ركبته الهم واستبد به الحزن. فقالت له في رفق: «لا

تعمزن إنها مجمرة العرب^١، وروت له يومها كيف أن كبير قريتها قد أزعجه تشابك الناس وتخاصمهم في الأسواق والطرقات، فعقد العزم على أن يبني لهم خارج المدينة مضيفة يندو إليها كل راغب في الشجار مشتاق إلى السباب، حتى إذا بلغها أفرغ بين جدرانها ما حملته نفسه من قذى، وما احتبس به لسانه من سب، فارتاحت بذلك نفسه وظهر لسانه، وعاد إلى المدينة صافى النفس هادئ القلب لا يعرف إلا المودة ولا ينطق إلا بالحسب. وبعدها صارت المضيفة مجمرة للناس، ومصافاة لأحقادهم. ويومها ضحك الحاضرون لحديث سيدة الغناء وتجهم وجه الشيخ الجليل، فقد كان - مع الابتسامة التقليدية التي لا تفارقه - يكره المزاح ولا يرتاح إلى التبسط^٢.

وعلى الرغم من أنى أدعى كثيرا أنى أفهم فى النصوص، فإننى لا أعرف هل كان الأمين الذى قيلت له النكتة هو عبدالرحمن عزام الأمين الأول .. أم الأمين الثانى عبدالخالق حسونة؟

مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية
من أجسل السسلام

6

طرائف دبلوماسية
للسفير جمال بركات

دار الخيال

(١)

يمثل هذا الكتاب نوعاً طريفاً من المذكرات الشخصية والدبلوماسية، إذ يستعرض فيه كاتبه المسير جمال بركات حياته فى السلك الدبلوماسى بطريقة طويلة مرتبة. تبدأ بأولى خطواته فى السلك وتنتهى بإحالاته إلى التقاعد، ثم عمله بعد التقاعد فى وظيفة مرتبطة أيضاً بخبراته الدبلوماسية. وهو لا يحدثنا حديث الموظفين الذين يعنون بالأقدمات والدرجات والحق الذى ضاع منهم أو الحظ الذى صادفوه، أو نوالهم ما استحقوا، أو فقدانهم ما أملوا. كما أنه لا يحدث حديث الساميين الذين يدبرون الأحداث من حول أشخاصهم أو يجدون لأشخاصهم - على الأقل - مكاناً فى سياق الأحداث وتسلسل الوقائع وتوالى الحكومات والأحزاب. ولا هو يحدثنا حديث المؤرخين المعنيين بالتحليل والنسب وبالأصول إلى النتائج.

هو لا يحدثنا هذا الحديث، لا ذاك ولا ذلك، وإنما هو يحدثنا عن الجانب الطريف من نفسه هو، وهو يعتمد أن تتوالى اللقطات الطريفة، ولكنه بذلك نادر حريص فى ذات الوقت أن يجد الطرفة فى كل خطوة من خطوات حياته الوظيفية فى سلك الدبلوماسية. وهكذا فإنه يحكى لنا تاريخه الشخصى وتاريخه الوطنى - بل وتاريخه العقلى والإنسانى والعائلى والوطنى من خلال الطرائف المتتالية التى مر بها ومرت به وكأنه يقدم لنا إن صح التعبير فيلمًا تسجيليًا كوميدياً على الرغم من افتقاده فى السينما إلى مثل هذا النوع من الأفلام حتى الآن.

ومع هذا فإن جمال بركات لا يتخذ مبدأ الطرافة لبقدم لنا طرائف فحسب، ولكنه ينتقى من طرائف الحياة التى نوالست أمام عينيه طرائف لا تحدث فى الغالب إلا للدبلوماسيين. وهكذا فإنه فى انتقائه الذكى لطرائف بعيد التأكيد على انشاء كتابه إلى المجال الذى يكتبه فيه وفى إطاره ، بل ويتخذ له العنوان متعلقاً به.

وهو رجل مقتصد فى القول، سريع الوصول إلى الهدف من كتابته، كما أنه مركز العبارة إلى أبعد الحدود، ومع هذا فإنك لا تحس ثقلاً فى تعبيره ولا فى الروح التى وراء هذا التعبير، وإنما تحس بكل وضوح برشاقة الرياضى الذى يجرى إلى هدفه فيحققه سريعاً سريعاً، دون أن يجهد نفسه ودون أن يجهد الذين ينظرون إليه ، أو الذين يشاهدونه وهو يحقق هذا الإنجاز الممتع لهم وله على حد سواء، إنما تتعلق عيونهم به للمحظة قصيرة جداً ثم هم يرونه يحرز قصب السبق الذى جرى من أجله.

وهو يعبر عن بعض هذه المعانى فى صراحة شديدة منذ أول سطر فى كتابه حيث يقول:

«إن الفكرة من وراء نشر هذه الأوراق الدبلوماسية المتناثرة هى إلقاء الضوء على بعض مراحل العمل الدبلوماسى التى قطعناها خلال خدمتى فى مواقع متفرقة على امتداد أكثر من ثلاثين عاماً. وقد قصدت أن أجمع فيها عدداً من المفارقات والمواقف التى صادفتنى خلال هذه الرحلة إلى جوار الانطباعات والتعليقات السياسية عن بعض البلاد التى عملت فيها بحيث تجمع فى النهاية بين الجد والطرافة».

ومع ذلك فإن صاحب هذه المذكرات واع جداً للروح التى تغلب على قراء مثل هذا النوع من الكتب، ولذلك فهو يردف فى السطر الخامس من مقدمته بقوله :

«فهى ليست مذكرات سياسية تقليدية على نحو ما يكتبه بعض السفراء وكبار السياسيين عن مشاكل السياسة والحكم، وإنما هى أوراق ذات مذاق خاص».

«ونعلاها بهذه الصورة تكون مقروءة من الفرد العادى، ومن ربة البيت بحيث يجدون فيها سباحة خفيفة حول العالم».

أرأيت إلى حديثه هذا واهتمامه بربة البيت. والفرد العادى . كم من الذين كتبوا مذكرات شخصية فى أدبنا العربى تذكروا ربة البيت فيما كتبوا... أوفيمما يكتبون.

وهو - أى صاحب هذه المذكرات - يتمنى إلى جيل من الدبلوماسيين شهدوا بل وشاركوا فى التغيير الذى أصاب مهنة الدبلوماسية ومحترفيها حتى أصبحت أصعب بكثير من الصورة التى كانت عليها حين بدأ طريقه فيها، وهو لذلك معنى وحقى بأن يجعل من هذا الكتاب أداة للدبلوماسيين الشبان وغير الشبان أو نافذة يطلون منها على هذا العالم الكبير. وقد استشر صاحب هذه المذكرات هذا التحول فى الأداء الدبلوماسى والمعرفة الدبلوماسية بعدما قضى أخريات سنوات حياته فى خدمة الدبلوماسية المصرية مسئولاً عن المعهد المعنى بالدراسات الدبلوماسية وتأهيل الدبلوماسيين الشبان وغير الشبان وهو يعبر عن هذا المعنى فى وضوح فيقول:

... ولم تعد الدبلوماسية - مهما تحسّر البعض - مجرد حفلات واستقبالات وانحناءات وبروتوكول كما هى الصورة القديمة عنها، ولم يعد الدبلوماسى النموذجى هو من يجيد رياضتى التنس والجولف ويتقن لعبة البريدج فحسب، بل فقد تغيرت المفاهيم وأصبحت المهنة تحتاج لدراسة اللغات ومناعبة للأحداث الدولية، والوجود فى أماكن الخدمة الشاقة، ومناطق الخطر، والشمراض لحوادث الإرهاب الدولى^٨.

ثم يؤكد جمال بركات هذا المعنى العميق الذى تحولت إليه الممارسة الدبلوماسية على مستوى العالم كله ويفيض فى شرح هذا المعنى بصورة أخرى حين يقول:

دفنى العالم المعاصر أدى التطور فى وسائل الاتصال والانتقال والتقدم التكنولوجى السريع إلى تطوير أسلوب العمل الدبلوماسى تطويراً جذرياً، وظهر الرأى العام المحلى والعالمى كقوة مؤثرة فى اتخاذ القرار السياسى لدى الدول والحكومات. وقد ساعد على ذلك ضخامة تأثير وسائل الإعلام ودورها فى تشكيل الرأى العام، وأصبحت الصحافة ووسائل نقل الأخبار المسموعة والمرئية من إذاعة وتلفزة، غداً الدبلوماسى بالمعلومات بكل ما يدور حوله فى العالم، شأنه فى ذلك شأن حكومته ذاتها. وأصبحت السرعة التى تغلف العمل الدبلوماسى عملية مرحلية لا بد أن تعقبها المواقف العلنية المعلنة المكشوفة^٩.

ويمكن القول بأن جمال بركات بكتابه هذا يأتي على رأس الذين نيهوا منذ مرحلة مبكرة إلى مشاق المهنة الدبلوماسية ومتاعبها من حيث هي مهنة تكاد تعصف بالإنسانية في الذين يمتحنونها، وهو لا يفتأ يتحدث عن معاناة الدبلوماسيين في حياتهم المهنية وعلى مدى هذه الحياة ومن هذا قوله:

«والواقع أن قليلا من الناس فقط هو الذي يقدر حجم ما يمرض له الدبلوماسيون من مفاجآت في السفر، سواء بالطائرات أو بغيرها. إذ تقوم وظيفتهم على التنقل الدائم الأمر الذي يعتبر من مخاطر المهنة ولا يمكن درؤه».

«وأذكر أنني سافرت كثيراً بين عواصم بلاد أفريقية صغيرة في وسط القارة أعوام ٦٦ إلى ١٩٦٨: من نيروبي لكيمبالا، من كيبجالي (رواندا) لبوجمبورا (بوروندي)... إلخ بطائرات عتيقة ذات محركات».

وعلى الرغم من هذه الإنسارات الواضحة، فإنه لا ينسى أنه مطالب بأن يقدم الصورة الشائعة وأن يتحدث عن الطرائف، وفي ظل هذه الموازنة فإن صاحب هذه المذكرات يوفى الجوانب الإيجابية في حياة الدبلوماسيين حقها في أكثر من موضع من كتابه هذا، وهو يتحدث عن بعض هذه الجوانب فيقول:

«والذي يعمل بالسلك الدبلوماسي مثلاً لدولته بالخارج، يفتح ولاشك على ثقافات وحضارات مختلفة ويمارس عمله تحت مظلة من المزايا والخصائص الدبلوماسية والإعفاءات الجمركية، ويختلط بشرائع اجتماعية متميزة. ولكنه في كل ذلك يعيش غرباً مشدوداً لبلده، ولا يشعر بالراحة والاطمئنان مثلما يشعر بهما عند عودته لوطنه وأهله أباً كانت ظروف بلده وأوضاعه. إنه الشعور الكامن بالانتماء والاحتواء والاسترخاء».

لهذه الأسباب ولغيرها فإن جمال بركات برده حديثه عن منهجه في كتابة المذكرات بالاعتراف بإحساسه بالواجب تجاه الأجيال القادمة :

«كما أحسست بعد مسيرتي الدبلوماسية والخبرة التي اكتسبتها أنه من الواجب أن أنقل

إلى الأجيال القادمة من الشباب الدبلوماسى المصرى، بعضاً من هذه الخبرات ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

«وكانت أولى هذه المهام المشاركة فى اختيار أفضل العناصر المتقدمة للالتحاق بالسلك الدبلوماسى، وضرورة الحفاظ على مستوى مشرف للعاملين بتلك المؤسسة التى هى واجهة الدولة فى الخارج».

ولأن المؤلف يفكر بهذه الطريقة المثقفة الواعية بالحضارة فإنه فى موضع آخر من هذا الكتاب يوجه النصيحة إلى زملائه فى السلك الدبلوماسى بضرورة التعرف على البلدان المجاورة للبلدان التى يعملون بها فيقول:

«بعد أن أمضيت عاماً فى بغداد وجدت من الضروري زيارة إيران. وكنت خلال خدمتى بالسلك الدبلوماسى أضح لنفسى قاعدة، وهى أن أمضى عامى الأول فى الدولة المعتمد لديها أزور مناطقها المختلفة، وفى العام الثانى أزور الدول المجاورة. فعندما كنت فى سوريا فى الخمسينيات سافرت بالسيارة من حلب إلى أنقرة مروراً بالإسكندرونة وأضنة، ثم إلى استامبول مروراً بمدينة بورصة الشهيرة بمياهها ومطاعمها. وعندما كنت فى كمبالا زرت نيرويس والخرطوم والكونغو (زائير) وعندما كنت فى هلسنكى زرت استكهولم وكوبنهاجن وليننجراد وموسكو... وهكذا».

«وسوف يجد الدبلوماسى فى أى موقع يعمل فيه أن الكثير من القضايا السياسية الداخلية فى البلد المعتمد فيها لها جذور تاريخية تفسرها علاقات الجوار، سواء كانت غزواً أو احتلالاً أو اندماجاً أو نزاعاً أو حسن جوار. ولذا فإننى أوصى الدبلوماسى أياً كانت درجته الوظيفية أن يضع لنفسه برنامجاً لزيارة الدول المجاورة للدولة الموفد إليها من قبيل الدراسة والسياحة والإحاطة بالإلزام بالواقع الجغرافى فى المنطقة. وأن يتجاوز أية صعوبات أو عقبات مادية قد تعيقه عن القيام بهذه الرحلات. وأولى هذه الصعوبات فى تقديرى هى مجرد التردد والكسل، ولكنه متى أقدم على القيام بها سوف يجد فيها فائدة كبرى وراحة وخبرة وإثراء لمعلوماته، بل وارتفاعاً فى مستوى أدائه لوظيفته».

(٤)

ويتحدث جمال بركات فى كتابه هذا عن لقاءات الدبلوماسيين بعضهم ببعض حيث

تعمق (أو تبتدى) العلاقات مع دبلوماسيين من الجنسيات الأخرى، وقد تتكرر - بحكم الزمن - اللقاءات مع بعض أولئك من الذين سبق العمل معهم في مواقع أخرى من دول العالم، وهو معنى في هذا الحديث بأن يؤكد على معنى التواصل الإنساني وأهميته:

«هذه اللقاءات بين الدبلوماسيين هي أمتع ما بصادفه المرء في الخدمة في السلك الدبلوماسي، فأينما يذهب يتعرف على زملاء جدد، ويقيم صداقات جديدة، ثم تفرق بينهم الأقدار، وبعد مرور عدد من الأعوام - ربما عشر سنين أو أكثر - يفاجأ بأن يلتقوا مرة أخرى في بلد آخر».

وبعد صفحات قليلة نجد صاحب المذكرات وقد أورد نموذجاً مهماً لهذا التعارف المكر بين اثنين من الدبلوماسيين الشبان يصيران بعد زمن من كبار رجال الدبلوماسية في بلادهما أحدهما بالطبع هو جمال بركات والثاني هو السفير الأمريكي الأشهر روي اثرتون ونحن نقرأ هذه القصة الممتعة:

«... وعندما رجعت لحلب وجدت رسالة من القنصل الأمريكي بحلب فاتصلت به مستفسرة. فقال إن سلطات الأمن السورية قد قبضت في اللاذقية على ماعده نائب القنصل وسعه المترجم وهو سوري الجنسية. وأنه لا يعرف السبب، ورجاني بوصفي عميد السلك القنصلي أن أساعده في الإفراج عنهما»

«اتصلت بالجهات السورية المستولة بحلب فقالوا لي إن قوات الأمن ضبطت نائب القنصل وكانباً بالقنصلية يتجسسون باللاذقية ويحاولون التقاط صور للميناء وللقوات السورية والمصرية، وأنه بعد إجراء التحقيق سيتم الإفراج عن الأمريكي. واستأذنتهم في إبلاغ ذلك الرد للقنصل الأمريكي فوافقوا».

«أبلغت القنصل الأمريكي رد سلطات السورية فأذكر بطبيعة الحال واقعة التجسس وقال إن زميله جديد. وله مصالح بود قضاءها في اللاذقية، وأنهم لو أرادوا التجسس للجاؤوا لطرق أخرى أكثر حرصاً ودهاء. وفي اليوم التالي عاد نائبه إلى حلب. أما كاتب القنصلية السوري فقد رحل إلى سجن المرة في الشام».

«وقد توثقت المعرفة والصداقة بيني وبين القنصل الأمريكي روي اثرتون منذ ذلك الوقت، والتقينا بعد ذلك في واشنطن عام ١٩٥٩ عندما كنت مستشاراً لسفارة

الجمهورية العربية المتحدة، وهو رئيس لأحد أقسام الشرق الأوسط بالخارجية الأمريكية، والتقىنا بعد ذلك في أكثر من مناسبة حتى أصبح سفيراً للبلد في القاهرة في أوائل الثمانينات».

(٥)

ومن المهم لتاريخنا المعاصر أن ننقل للقارئ بعض ما برويه المؤلف عن تجربة رائدة كان من الممكن أن تنمي الإحساس المعاصر بالوحدة العربية على مستويات مختلفة، وهي تجربة توطيد الفلاحين المصريين في العراق:

«... وقد وقع الاختيار على قرية تسمى «الخالصة» تبعد حوالي ٦٠ كيلومتراً عن بغداد، بنيت خصيصاً لاستيعاب مائة عائلة من الفلاحين المصريين تضم الأسرة أربعة أفراد في المتوسط».

«وقد توجهت في أبريل ١٩٧٦ إلى تلك القرية مع الإخوة العراقيين من اتحاد الزراعيين لمتحريب بوصول أفواج الفلاحين. وتألف المدار المخصصة للفلاح من ثلاث غرف ومطبخ كبير فيه ثلاثة وفرن بوتاجاز، والحمام فيه سخان وغسالة أوتوماتيك. والقرية مزودة بالمياه النقية والكهرباء وشوارعها ممهدة، وفي وسطها أقيمت سوق ومستوصف ومدرسة ابتدائية وصالة للحفلات والاجتماعات والمناسبات كالأفراح ومسجد».

«وبمجرد وصول العائلة المصرية يُلم رب الأسرة بيتاً وبقرة ومبلغاً من المال ليعينه على بدء الحياة والإنتاج، ونصيبه من الأرض وهو من ٢٠ إلى ٢٥ دونماً (الدونم ثلثا فدان). ويضم الفلاحين جمعية تعاونية لديها عدد من المكائن مثل الجرارات وأحصادات والموتورات وتمدها الجمعية الفلاحية في بغداد بالسلف الزراعية لشراء البذور ورعاية المحصول. ويركز الفلاحون في زراعتهم على الخضروات».

ويورد صاحب هذه المذكرات بعض التفاصيل المتعلقة بهذه التجربة الرائدة التي شاء القدر أن تتم وهو سفير لمصر في بغداد:

«ولكني تنجح هذه التجربة روعيت عدة عوامل لتهيئة المناخ المناسب لإنجاحها:

١ - الموقع من الناحية الجغرافية: فالمقرية قريبة من بغداد، أرضها منبسطة تشبه الأرض المصرية، شقت فيها الترع والمصارف وليست منطقة تعتمد على الأمطار مثلاً.

٢ - من ناحية المناخ: فهو قريب الشبه جداً بجو مصر خاصة الصعيد، والقريبة بعيدة عن المناطق الجبلية في الشمال حيث تسقط الثلوج، وهو ما لم يند عليه الفلاح المصري.

٣ - من ناحية الإسكان: أنشئت مساكن صحية بالطوب الأحمر، فيها مياه جارية وكهرباء، وزودت القرية بالمرافق والخدمات وسوق ومدرسة.. إلخ.

٤ - من الناحية النفسية: وحدة اللغة والعادات والتقاليد والدين والتراث. ورؤى كبدية قصر سُكنى القرية على المصريين. وطبيعى أن اللغة العربية - رغم اختلاف اللهجة - تجعل الانسجام والتسويق سهلاً ميسوراً، فضلاً عن أن التليفزيون يدخل معظم منازل القرية، ويشاهد سكانها الأفلام والمسلسلات المصرية والعراقية.

٥ - الإعداد الدقيق: فقد توجهت وفود عراقية من اتحاد المزارعين إلى مصر لاختيار أصالح العناصر، ووضعت قواعد وضوابط: فروعى أن يكون الشخص متعلماً تعليماً عاماً وليس آمياً، وأن يكون سليم البدن لا يشكو من الأمراض المتوطنة (كالبلهارسيا)، وألا يزيد عمره على ٤٠ عاماً، متزوج وله أسرة بحد أقصى طفلين. وتم الاختيار من بين محافظات الشرقية والغربية والمنوفية من الوجه البحري، وبنى سويف والمنيا وسوهاج من الوجه القبلي.

ثم يعلق صاحب هذه المذكرات على ما انتهت إليه هذه التجربة بقوله :

«وقد شددت هذه التجربة انتباه الكثيرين من المشتغلين بالزراعة والمتخصصين في علم الاجتماع والدراسات السكانية، وكانت محل زيارة ودراسة من جانب كثير من الوفود الزراعية من مختلف الدول المشاركة بالمؤتمرات الزراعية التي انعقدت في بغداد».

«وكان التساؤل يثور دائماً: هل هناك جوانب سلبية للتجربة؟».

ويجيب الضيف جمال بركات على هذا السؤال بذكر بعض الجوانب السلبية التي حدثت بالفعل:

«وطبيعى هى كأتى تجربة فيها جوانب سلبية، وإنما محدودة للغاية. ومثال ذلك عندما زرنا القرية اكتشفنا أن بعض العناصر رغم اشتراط معرفة القراءة والكتابة إلا أنها اندست بين الوافدين، وهى غير مؤهلة. وفى بعض الحالات رب الأسرة يعمل حلاق صحة

وليس له خبرة بالفلاحة ويود تأجير أرضه، ويفتح صالون حلاقة! وشخص آخر يرغب في أن يتزعم الفلاحين ويعمل عمدة وهم يزرعون له أرضه!»

«كذلك مشكلة ملكية الأرض: فالجمعية الزراعية العراقية كانت تفكر في جعلها مزارع تعاونية جماعية على طريقة «الحوالكوز»، ولكن الفلاح المصري يؤمن بالملكية الفردية، لذا أصر على أن يمتلك قطعة أرض محددة حتى يبذل فيها قصارى جهده ويورثها لذريته».

ويردف صاحب المذكرات بالسؤال :

«والآن بعد مرور عشر سنوات - أى فى عام ١٩٨٦ - ماذا عن حصيلة تلك التجربة للفلاحين المصريين؟».

«كان المتوقع أنه لو أن بعض العناصر لم تستطع التأقلم بنسبة تصل إلى ١٠٪ فإنها تعتبر تجربة ناجحة. وتدل معلوماتنا على أن ٨٦ عائلة من أصل المائة عائلة قد استقرت نهائياً بينما عادت لمصر ١٤ عائلة، أى بنسبة ١٤٪ لم توفى، وهذا يعتبر نجاحاً كبيراً بكل المقاييس».

«هذه التجربة الرائدة هى نموذج للتعاون البناء بين مصر والعراق. وقد بذلت الجهات الفلاحية العراقية ووزارة الزراعة العراقية جهوداً كبيرة فى تخطى العقبات وتذليل الصعوبات التى واجهت التجربة».

«وهذا هو السبيل العملى للتكامل الاقتصادى العربى. وهو ما لم يحدث أثناء وحدة مصر مع سوريا أعوام ١٩٥٨ - ١٩٦١، ولا مع السودان رغم وحدة وادى النيل على امتداد تاريخها».

«وفى لقاء مع الرئيس العراقى الراحل أحمد حسن البكر فى يولية ١٩٧٧ قال لى: إنهم يرغبون فى التوسع فى استخدام الفلاحين المصريين من منطلق قومى، فإذا ضاقت بهم الرقعة فى مصر. وفى العراق مساحات شاسعة صالحة للزراعة، وليس المطلوب فقط مائة عائلة بل مئات وآلاف، مليون فلاح، وكل فلاح يأخذ ثمرة جهده ويجنى حاصلات أرضه. فالقومية ليست مجرد أقوال وشعارات، وإنما ينبغى أن تترجم إلى أفعال وممارسات».

وعلى الرغم من الحرص الظاهري لجمال بركات على ألا يخوض بكتابه هذا في القضايا السياسية فإنه لم يترك قضية سياسية إلا ومها عارضا فيها جوهر رأيه ، ولنا نحب أن نرفع بهذا من قدر ما كتب ولا أن نعمله ما لا بطريق، ولكن يبدو أن هذا هو ما حدث بالفعل. وانظر إليه وهو يلخص آراءه السياسية في سياسات التعاون الدولي التي تنبئها المنظمات الدولية ، وهو يبدى رأيه الحاسم بتركيز شديد فيقول:

«هذه اللجنة تمثل نموذجاً للمفاد الذي تعاتبه المنظمة الدولية ويسبب عجزاً دائماً في ميزانيتها وأولى بالأمم المتحدة أن توفر الرواتب التي تدفعها للجنة وتلغها كلية في مقابل تنشيط لجنة أهل القارة في المنظمة الأفريقية».

«إن ما تحتاجه أفريقيا ليس لجاناً أكاديمية، وإنما هو التدريب العملي والمزارع التجريبية ورأس المال والإرشاد الزراعي ومكافحة الآفات».

كذلك فإنه بعد أن يستعرض على مدى صفحات ملخصاً لتاريخ أوغندا وثوراتها وأزماتها منذ الاستقلال وحتى أُلِف هذا الكتاب يخرج بالمظة والاعتبار فيما يتعلق بالوضع السياسي في الدول الأفريقية بعد نوالها استقلالها وخوضها محارب الحكم الذاتي ويقول:

«ولابد لي هنا من كلمة، وهي أنه بعد نحو ربع قرن من تحقيق الاستقلال السياسي لمعظم دول أفريقيا السوداء مازالت أبعد ما تكون عن الاستقرار السياسي. وقد وقع فيها ستون انقلاباً بواقع انقلاب كل خمسة شهور. ولن يكون الانقلاب في أوغندا آخر الانقلابات... هذا بخلاف العديد من الانقلابات الفاشلة التي لم تر النور».

لنا وهو يحزم بأن أسلوب الحكم في أفريقيا هو سبب كل مشكلاتها وليست الطبيعة مهما بدا من قسوتها في بعض مظاهرها :

«وما نشاهده اليوم في كثير من الدول الأفريقية من فقر مدقع وجماعة مهلكة ليس مرجعه وحده الجفاف أو التصحر. إن أفة أفريقيا الحقيقية هي أسلوب الحكم».

«حاولت كثير من الدول الأفريقية أن تأخذ بالنظام الديمقراطي الغربي بالكامل مع وجود معارضة يمكنها أن تفوز بالسلطة في انتخابات حرة. ولكن لم يؤخذ بهذا النظام

في التطبيق العملي. وفي الدول التي مازال فيها الحكم المدني قائماً يهيمن عادة على السلطة حزب واحد بحجة الوحدة الوطنية. ومؤسسه في معظم الأحوال رئيس يتولى السلطة مدى الحياة، ولا سبيل إلى تحيته إلا بوفاته، أو بانقلاب عسكري^{١٠}.

«هناك بطبيعة الحال نماذج استثنائية نادرة لهذه القاعدة مثل تنازل ليوبولد سنجور في السنغال، وجوليوس نيريري في تنزانيا».

وعلى هذا فإن جمال بركات ينه قراءه إلى أن الديمقراطية الغربية بحذافيرها ليست بالضرورة هي الحل الأمثل لمشكلة أفريقية السياسة:

«وليس الديمقراطية الغربية بحذافيرها هي بالضرورة الحل الأمثل لنظام الحكم في الدول الأفريقية، لأن المشكلة ربما تكون مواجهة الفقر والمجاعة والأزمة الاقتصادية بالدرجة الأولى. ولكن لا بد من الديمقراطية كأسلوب حكم مع تطويرها بما يناسب الظروف المحلية لكل بلد بغير إهدار لقيمها ومفهومها ومضامينها».

١١- ويضرب جمال بركات أمثلة من أوغندا يؤكد بها صحة نظريته فيما يتعلق بالنظام الأمثل لحكم أفريقيا فيقول:

«ففي أوغندا - على سبيل المثال - الانتماء القبلي أقوى بكثير من الانتماء القومي. و«شعب بوجندا» حريص على مقوماته وحكمه الذاتي أكثر من اندماجه في وحدة الدولة الأوغندية، ولا يمكن القضاء على القبلية المتوارثة عبر الأجيال في بضع سنين كما حاول أوبوتي، وذلك في غياب التعليم والوعي السياسي، فضلاً عن محاولة فرض هيمنة قبيلته على الباقين. وهذا لا يعني تعميق القبلية والانفصالية، وإنما يبنى السير في اتجاه التقريب ولكن بشؤدة وخطوات ثابتة، وقبل كل شيء بأمانة ونجدة وإخلاص من أجل المصلحة الوطنية الكبرى، لا من أجل الحزبية والمنفعة الشخصية».

١٢- ولا يفوت صاحب المذكرات أن يتدد بالديكتاتورية بكل صورها حتى لا يبدو تحفظه على الديمقراطية المطلقة وكأنه دعوة إلى الديكتاتورية بصورة أو بأخرى:

«أما أسلوب الديكتاتوريات والفهر والبطش وإهدار حقوق الإنسان ونزوير الانتخابات وتلفيق الاستفتاءات والاعتماد على القوات المسلحة كمصدر القوة للرئيس، فإنه يمهّد السبيل لتولي العسكريين الحكم بأنفسهم. وهكذا ندور أمور السياسة في أفريقيا في حلقة مفرغة يكون ضحيتها الشعوب في فقرها وجوعاتها وتخلفها».

لـ ثم يعقب جمال بركات فى النهاية متأثراً بالطبع بالعقلية التى تعلّى من قيمة التقدم والنمو والتنمية فيقول :

«ولو أن ونستون تشرشل قام من قبره وشهد ما جرى ويجرى فى أوغندا، لشعر على ما نردت إليه أوضاعها بحيث لم تعد «درة أفريقيا»، بل ربما أقرب ما تكون إلى «جوهرة فى الوحل»*.

(٧)

ولا يقف جمال بركات عند حدود النظم السياسية ولكنه يتطرق ملتفتاً إلى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ومشكلات التخلف ومصاعب التنمية، وفى موضع ثالث من كتابه نقرأ جمال بركات بعض الفقرات المهمة التى تصور بعض الواقع المر الذى لا تزال أفريقيا تعانيه من فقر وتخلف ونحن نقرأ له ما يرويه عن زيارته لمنطقة «كاراموجا» حيث يقول:

«بعد أن أمضيت عدة أعوام فى أوغندا قررت زيارة منطقة «كاراموجا» التى تقع فى أقصى الشمال الشرقى، تحدها كينيا شرقاً والسودان شمالاً، وهى مقاطعة لا يسمح للأجانب بدخولها إلا بإذن خاص»*.

«وهى منطقة شديدة الجفاف شديدة الفقر، لا يتجاوز عدد سكانها ٣٠ ألف نسمة، وتبعد عن كمبالا بنحو ٤٢٠ كيلومتراً».

«وقد وصلنا بالسيارة إلى معسكر يتبع الأمم المتحدة، وكان يرافقنى فى الرحلة مدير مكتب الرى المصرى المهندس عبدالهادى سماعة المقيم فى جنجا (وأصبح وزيراً للرى المصرى من ٧٨ - ١٩٨٠). وكان فى استقبالنا بالمعسكر المهندس المقيم، وهو أمريكى الجنسية ويشرف على تنفيذ مشروع تنولاه منظمة الأغذية والزراعة لاستخراج المياه من باطن الأرض للشرب المواطنين».

ثم يبدأ صاحب هذه المذكرات فى وصفه المعسكر مبدئياً إعجابه بهذا النمط من التنمية المحسوبة :

«والمعسكر عبارة عن عربة كارقان، ويضع خيام للضيوف وللعمالين والحرس الأفريقيين يحيط به سور من الأعشاب. ويسكن الأمريكي في عربة الكارقان، ربما لأنها أسلم من الناحية الأمنية في تلك المنطقة النائية التي لا يصلها الرجل الأبيض. وخلفها وضع خزان فوق الأشجار يتدلى منه كوز مخرم وحبل بشده فتقطر منه المياه ويستعمله كدش للاستحمام!».

«وقد توجهنا في صباح اليوم التالي إلى أحد صابير المياه الجوفية بصحبة المهندس الأمريكي الذي يعرف بعض كلمات للتفاهم باللهجة المحلية. ووجدنا الأهالي مجتمعين يحملون جرازهم والأواني للشهيا بالمياه العذبة، وغالبيتهم من النساء جميعهن صدورهن عارية حسب المألوف في هذه المنطقة».

«وأخبرنا المهندس أن السيدات المتزوجات يلبسن جوسلة من القماش السميك. أما البنات غير المتزوجات فيلبسن جوسلة من جلود الحيوانات وعليها عدد من الأحزمة. ونرى الرجال يشتغلون بفلاحة الأرض، أو يتجمعون في سوق القرية صرايا إلا من قطعة من القماش تتدلى من كتفهم».

«وقد أكبرت ذلك العمل الذي يشرف عليه الأمريكي في دق طلعبات المياه خدمة لأهالي تلك المنطقة النائية. وعلمت منه أنه يقضى نحو ثلاثة شهور بالمنطقة، ثم يعود إلى نيويورك في اجازة طويلة... وهكذا».

وبعد أن يبدى صاحب المذكرات إعجابه بجهد ذلك المهندس الأمريكي يؤكد على ظنه أن لا أحد في الأمم المتحدة قد سمع عن جهد هذا الجندي المجهول ويقول :

«وانى أشك في أن أحداً بالأمم المتحدة يسمع عن ذلك الجندي المجهول الذي يعيش في ظروف بدائية قاسية، وعن ذلك العمل الجليل الذي يؤديه. وقد لاحظت أنه يتعاطى المشروبات الروحية باستمرار ربما في محاولة للتغلب على ظروف الحياة الموحشة التي يحياها مهما كان عائدها المادى عليه».

«وبعد يوم آخر واصلنا السفر إلى حديقة الحيوان البرية المسماة «كيدبو». وهي على حدود السودان، وقابلنا الإنجليزي المشرف عليها. وهي ليست غنية بالحيوانات مثل حديقة شلالات مارشيزون التي تقع في شمال غرب أوغندا والمعروفة للسياح».

«وفي طريق عودتنا عند أحد الروافد المائية في شمال «كاراموجا» وقفنا عند نقطة

تفتيش صحى، وجاء شخص أفرىقى مدرّب يحمل فى يده شبكة مصيدة للحشرات ويلبس معطفاً أبيض، وأخذ يتطلع داخل السيارة بعمىون يقظة حادة دون أن يقول شيئاً. ونزلنا من السيارة ونوجهنا إلى مكتبه وهو استراحة وغرفة نظيفة على جانب الطريق. وجاءنا بعد التفتيش، ويخ السيارة بالمطهرات، وقال كل شيء على ما يرام. فسألته عن مهمته فقال إنه يصطاد ذبابة الدنسى تسمى «». ووجدته معلقاً على الحائط صوراً ونشرات وتحذيرات من هيئة الصحة العالمية. والمعروف أن ذبابة أو بعوضة الدنسى تسمى «هى التى تسبب فى مرض النوم لدى الأفريقيين».

«وسألت الممرض الأفريقى عما إذا كانت تلك الذبابة موجودة فى هذه المنطقة، ففتح درج مكتبه وأرأى بضع حشرات من التى التقطها بشبكته وقتلها».

«شكرته على كفاءته وقفزت فى السيارة، وقلت للسائق إلى كمبالا بغير توقف، وحاولت النوم، ولكن صورة ذبابة الدنسى تسمى «كانت تؤرقنى».

وعلى الرغم من أن هذه الزيارة كانت رحلة اختيارية قام بها صاحب المذكرات بنفسه وبيارادته، إلا أنه يعقب عليها بطريقة استثمارية لافتاً الانتباه إلى مشقة الخدمة الدبلوماسية، وكأنها كانت رحلة عمل دبلوماسية!! :

«أعتقد أن قليلاً من الدبلوماسيين هو الذى يعرف حق المعرفة المخاطر التى يتعرضون لها فى مناطق الخدمة الشاقة».

(٨)

ولابسى جمال بروكات أن يضم كتابه هذا بعض الحديث الطريف عن طبيعة وتقاليده مهنته الدبلوماسية، وهو يفعل هذا مع كل نقلة فى حياته أو فى المذكرات، ولبس هذا المجال لاستعراض كثير مما تحدث عنه ولكننا نكتفى بأن نستقل عنه حديثه وهو يلخص للقراء بل للدبلوماسيين خبرته فى البرونوكولات المتعلقة بتقديم أوراق الاعتماد :

«... وفى أثناء خدمتى الطويلة فى السلك الدبلوماسى - بعد ذلك - اكتشفت أنه فى بعض الأحيان يحضر السفير. ولا تكون أوراق اعتماده جاهزة، ويطلب إليه السفر بصفة عاجلة، فتتفق معه إدارة المراسم فى البلد الموفد إليه أن يقدم مظروفاً يحوى أوراقاً على

يباض حتى نصل أوراق الاعتماد الموقعة من رئيس دولته فيسلمها لإدارة المراسم، وفي أحوال أخرى يسافر السفير من بلده، وينسى أوراق اعتماده ويتحدد موعد تقديمها دون أن تكون قد وصلت، وفي إحدى دول أمريكا اللاتينية بعد وصول السفير وقبل تقديمه أوراق اعتماده حدث انقلاب، وتولى السلطة رئيس جديد للدولة، وحرصاً على أن يقدم السفير أوراق اعتماده للنظام الجديد، طلبت منه إدارة المراسم أن يقدم لرئيس الدولة مظروفاً يحوى أوراقاً بيضاء حتى لا يتأخر مراسم تقديم أوراق الاعتماد، ولكنى بدأ مهمة السفير بصفة رسمية إلى حين وصول الأوراق موقعة من رئيس دولته باسم الرئيس الجديد.

«وفي أثناء مدة خدمتى بأوغندا التى امتدت قرابة خمس سنوات، حدث صراع على السلطة بين رئيس الوزراء ملتون أوبوتى وبين رئيس الدولة (الكاباكا)، أسفر عن هرب الكاباكا إلى الجبلترا وإسبلاء أوبوتى على السلطة وتنصيب نفسه رئيساً لأوغندا عام ١٩٦٦. وقد رُئي حينذاك ألا توجد حاجة للسفراء المعتمدين أن يقدموا أوراق اعتماد جديدة باسم الرئيس الجديد، والاكتفاء بأوراق الاعتماد السابق تقديمها، وذلك نقادياً للمضغوط أو المطالب التى قد تتقدم بها بعض الدول - خاصة الكبرى - للموافقة على الوضع الجديد. وهكذا بقيت أوراق اعتمادى على حالها وأصبحتنا جميعاً سفراء معتمدين لدى الدولة رغم تغير اسم رئيسها من «الملكة» (يقصد ملكة بريطانيا) إلى «الكاباكا» (وقد مات) إلى الرئيس أوبوتى (وقد عزل)».

ينبغى هنا أن نشير إلى أن مذكرات السفير سعد الفطاطرى «سعادة السفير» قد أوردت قصة الموقف الطريف الذى أحاط بتسليم الدكتور محمود فوزى أوراق اعتماده كسفير لمصر فى لندن. وكيف نسى هذه الأوراق، وعاد من وسط الطريق ثم اكتشف الدبلوماسيون المصريون الحلول الأخرى التى كان يمكن لها أن تنقذ الموقف على نحو ما ذكر السفير جمال بركات فى ذلك الكتاب، وهذه هى رواية سعد الفطاطرى :

«كان يرافق السفير بالعرة الأولى رئيس التشريعات .. وكنا جميعاً بالزى الرسمى (الفراك) والأوسمة. أتذكر بهذه المناسبة، طرفة أسوقها للتفكه .. فإنه ما كاد موكبنا بعرباته المظهمة التى تجرها الجياد المصحوبة بالحرس .. ما كاد الموكب يخترق شوارع لندن إلا وتوقف بعد عشر دقائق فى منتصف الطريق .. فقد تذكر الدكتور محمود فوزى أنه

نسى أوراق اعتماده على المكتب بعرفته .. الأمر الذى اضطر أحد الحراس أن يجرى بحصانه حتى السفارة ليحضرها .. مضى علينا الوقت ونحن فى العربات يحملق فىنا الناس ونحملق فيهم وكأننا نثقل فيلما عين المعصور الوسطى . كان يمكن - على ما علمت فيما بعد - أن يتفق على أن يسلم السفير للملكة مظروفاً خالياً إنفاذاً للموقف وأن يوافي القصر بعد ذلك بالأوراق . *

(٩)

كذلك يتناول السفير جمال بركات فى هذه المذكرات بعض الجوانب التى مازالت محل جدل واختلاف فى تنظيم المهنة الدبلوماسية وهو يعتمد تأخير الحديث عن مثل هذه القضايا إلى آخر كتابه، وستجئنى للقارئ بعض الفقرات التى تصور بعض مشكلاتنا الدبلوماسية المعاصرة:

« وكان التساؤل هل يحق للمحاصلين على بكالوريوس الطب أو العلوم أو الزراعة أو العلوم العسكرية أو الشرطة التقدم لامتحان السلك الدبلوماسى ؟ وقد لوحظ فى مصر مثلاً أن بعض الأطباء والزراعيين قد تفوقوا فى الامتحان التحريرى، ويشمل عادة المواد المتصلة بمهنة الدبلوماسية مثل العلاقات الدولية والاقتصاد والعلوم السياسية والدبلوماسية واللغات الأجنبية . »

« ويعارض بعض كبار الدبلوماسيين السماح لخريجي الكليات العملية بالالتحاق بالسلك بحجة أنه لا يسمح لخريجي العلوم السياسية أو الحقوق مثلاً بالالتحاق بمهنة الطب أو الهندسة . »

« ولكن مؤتمر مديري المعاهد والأكاديميات الدبلوماسية رأى بالإجماع أنه لا ينبغي التفرقة بين خريجي الكليات النظرية والعملية، وأن العبرة هى بالتفوق فى امتحان المسابقة الذى تمده وزارات الخارجية. وأضاف مدير معهد الخدمة الخارجية الأمريكى أن ذلك حق دستوري لأى مواطن لا يمكن المساس به أو حرمانه منه . »

« ولست أدري ما هو إحساس القارئ، وهل هو يؤيد قرار مديري المعاهد الدبلوماسية

فى العالم، أم أن له رأياً مخالفاً؟ علماً بأن بعض السفراء التابعين فى السلك الدبلوماسى المصرى كانوا أطباء.^٢



كذلك يحرص جمال بركات على أن يبدى رأيه فى مشاركة المرأة فى الجهاز الدبلوماسى فيبدو فى هذه الجزئية محافظاً ومتحفظاً بأكثر مما نتوقع من سفير أتيح له أن يعيش الحضارة الأوروبية على نحو ما يتصورها القراء :

«... كذلك من الموضوعات الشيقة الشائكة هو التحاق المرأة بالسلك الدبلوماسى، إذ تبلغ نسبها الآن فى الدول المتقدمة ما بين ٥٪ و ١٠٪ من مجموع العاملين بالسلك بالدولة المعنية، ولم تحقق المرأة فى الدول الغربية نجاحاً يذكر رغم ما أتيح لبعضهن من فرص فى رئاسة البعثات الدبلوماسية أو لدى الأمم المتحدة مثلما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية من تعيين كلير بوث لوس، أو شيرلى تمبل، أو جين كيرك باتريك».

«وطبعاً أن عضوية المرأة للسلك الدبلوماسى فى أى دولة تفرض قيوداً معينة على تحركها وعلى تنقلها لاعتبارات أمنية مختلفة، ولذا فإنها لم يسمح لها بالالتحاق بالسلك الدبلوماسى فى بعض الدول العربية الإسلامية والأفريقية».

«وفى مصر لا يفرق قانون السلك فى الالتحاق بوظائفه بسبب الجنس، ويوجد فيه ٨٠ امرأة موزعات على مختلف الدرجات، بينهم واحدة سفيرة، أى بنسبة ٨,٧٪ من مجموع أعضاء السلك الدبلوماسى المصرى».

«ولكن ليس من صالح العمل ولا صالح المرأة ذاتها، مراعاة للظروف العائلية والحياة الأسرية، أن تزداد نسبة العاملات بالسلك كثيراً عن ذلك، وعم أنه فى امتحان المتقدمين للالتحاق بالسلك الدبلوماسى كثير من الفتيات يتفوقن على الشبان، ولكنه تفوق مرحلى وليس فى المدى البعيد».

على هذا النحو يصدر جمال بركات أحكاماً شبه قاطعة قد لا أستطيع أن أمضى فى كتابى دون أن أتخفظ عليها وأن أعجب لصدورها عنه !

(١٠)

وعلى مستوى الثقافة العامة يجد هذا الكتاب محلاً متميزاً بين الكتب التى تنمى

المعرفة بالآخرين من شعوب وأوطان وتاريخ وسياسة، وليس من شك أن كتب التجارب الذاتية كقيلة يمثل هذا الإنجاز لأنها تصور علاقات الإنسان بالإنسان وحديث الإنسان عن الإنسان، ولجمال بركات تعليلات مركزة في غابة الأهمية عن البلاد التي عمل بها، انظر مثلاً إلى ما يرويه عن كثير من تسهيلات الحياة في الولايات المتحدة، وعن صداقته هناك، ولكنى أكتفى من هذا كله بفقرتين اثنتين، يصور لنا فيهما كيف كان يبدو وكأنه أمريكي، وحتى إذا لم يكن كذلك فقد كان بإمكان الحلاق أن يوصي عليه ليكون كذلك:

هذه هي الفقرة الأولى :

«لم نشعر أنا وعائلتي بالقرية خلال سنوات إقامتنا الثلاث في واشنطن، فلقد نجحت الولايات المتحدة بحكم تكوينها السكاني المنفرد في أن ينصهر كل من يستوطنها في البوثة الأمريكية، ويأخذ نفس العادات والسلوك والتفكير وأسلوب الحياة، وبفخر بأنه مواطن أمريكي. وهو أمر نشاهده على امتداد القارة الأمريكية شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، مع فوارق طبيعية بين التجمعات السكانية».

وهذه هي الفقرة الثانية:

«وعندما نقلت ذهبت قبل سفري لدى حلاقي المفضل وقلت له إنني سأترك الولايات المتحدة. فدهش الرجل - وكان يظن أنني أمريكي وقال ولكنك نتكلم الإنجليزية بطلاقة. ذلك أن بعض الأمريكيين حديثي النجس لغتهم «الأمريكية» محدودة - وعرض على خدماته بحرارة لمساعدتي لدى إدارة الهجرة للحصول على الجنسية الأمريكية».

وهذا هو تعليقه على أنيويما بما فيها من بهجة وتدين وإمبراطورها وجوهر سياسته في البعد عن التعامل مع الدول العظمى في ذلك الوقت:

«أما الإمبراطور فكان يفضل في التعامل الدول الاسكندنافية الصغيرة التي ليس لها مطامع وبمعهد إليها بمشروعات البنية الأساسية في بلده!».

«أما الشعب فكان يجمع بين البهجة والتدين. وقد حضرنا احتفالاً دينياً كبيراً في ساحة واسعة يتزعمه القساوسة من الرهبان المسيحيين الأرثوذكس. والمعروف أنهم كانوا يسمعون الكنيسة القبطية المصرية وبايا الإسكندرية لعدة قرون إلى أن استقلوا عنها أخيراً. وفي المساء برقصون في النوادي والفنادق»

وعلى هذا النحو أيضا يصف جمال بركات الشعب السوفيتي الذي لم يعمل في بلاده وإنما زاره زيارات عابرة خلال إقامته في فنلندا فيقول:

«طبعاً لا يمكن النحرض لنظام الحكم في الاتحاد السوفيتي كدولة كبرى مترامية الأطراف أو تقسيمه لمجرد قضاء زيارة سياحية أو أكثر، فهذا أمر يحتاج لإقامة أطول، ودراسة أعمق، وهو ما لم يكن ميسوراً بطبيعة الحال».

«ولكن كلمة حق: الشعب السوفيتي نفسه رجالاً ونساء شعب عامل نشيط، قوى الاحتمال، شديد الاحترام للمواعيد، يميل للبهجة والموسيقى والأكل والشراب والغناء، وفيه شيء من الأسلوب الشرقي العاطفي، ولكنه يحذر الأجانب، وطبعاً عدم معرفة اللغة الروسية، بحروفها المختلفة في النطق عن بعض الحروف اللاتينية، وإن تحدثت معها في الرسم، يخلق حاجزاً قوياً في وجه إقامة جسور التعارف والتقارب».

(١١)

ولأننا معنيون بما يمكن للتجارب الذاتية ولكتب التراجم الذاتية أن تقدمه من خبرات ذاتية بحياة الآخرين على مستويات مختلفة، فسوف نتناول بقدر معقول من التفصيل ما كتبه صاحب هذه المذكرات عن فنلندا كنموذج للدول التي عاش فيها وألم بطبائعها وبالمميزات الخاصة في سياستها.

وفي هذه المذكرات يحرص جمال بركات على أن يستعرض تاريخ فنلندا الحديث وسياساتها ثم يبدى رأيه في الفكر الذي يحكم موقفها السياسي وثقافتها في السياسة الدولية المعاصرة ويقول:

«وقد حاول الخط الرسمي للسياسة الخارجية الفنلندية جاهداً أن يتبع سياسة الحياد، وفسر ذلك الحياد على أنه مزيج من الحياد الإيجابي وعدم الانحياز مع الانتماء عن التكتلات والمحاور العسكرية».

«وفي نفس الوقت تأخذ تلك السياسة في اعتبارها الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتي. وقد وصفت تلك السياسة «بالفنلندية» Finlandization، وكُتبت في شرحها الكتب والمؤلفات بين محبذ ومعلق ومننقد. وقد قصد بها أن تكون نموذجاً لعلاقة

السوفييت بفنلندا بحيث تحتذى بها الدول الأوروبية الأخرى المجاورة للسوفييت والتي تتعرض بحكم الجوار لضغوط سوفييتية.

والهدف من تلك النظرية الاقتراب من نموذج سويسرا والنمسا في الحياد، ولكن مع القيام بدور نشيط في تخفيف التوتر والتهدئة بين الشرق والغرب والحفاظ على علاقات طيبة مع الجارة الكبرى.

ويلفت جمال بركات النظر إلى أنه على الرغم من هذه السياسة فإن العالم الخارجي لا ينظر إلى فنلندا على نحو ما تريد السياسة الفنلندية أن ينظر إليها :

"وقد لاحظت - رغم كل ذلك الجهد من جانب المسؤولين الفنلنديين - أن الانطباع الغالب في العالم الخارجي عن فنلندا أنها بلد شيوعي ضمن المنظومة الاشتراكية. وهو أمر مخالف للواقع: فنلندا من حيث نظام الحكم وأسلوب المعيشة بلد ينتمي للغرب بكل المقاييس".

"طبعاً هناك حزب شيوعي، ولكن قوته لا تزيد على ١٥٪ من مجموع الناخبين. وتكاد تكون هذه النسبة ثابتة دون إحراز أى تقدم. والنجارة مع السوفييت تبلغ نحو ٢٠٪ من إجمالي تجارة فنلندا. ولكن الاتحاد السوفيتي يشكل قوة داخلية ضاغطة ومؤثرة. فلا يمكن مثلاً تشكيل وزارة معادية للسوفييت. والسفارة السوفيتية في هلسنكي مبنى هائل بضاهي في ضخامته وزارة الخارجية الفنلندية ذاتها! ولكن الشعب شديد الانفرادية وأبعد ما يكون عن التوجه الاشتراكي".

"ولذا فكل حديث عن الحياد والفنلدة لا يغير من الواقع شيئاً، إذ مازال من المشكوك فيه كثيراً اقتران الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة بحياد فنلندا حقيقى في مواجهة الجوار السوفيتي الذي هو حقيقة تاريخية فرضتها الظروف الجغرافية، ولا سبيل إلى تجاهلها أو التقليل من ثقلها".

(١٢)

ثم يصنف صاحب هذه المذكرات بدقة شديدة الشعب الفنلندي في سلوكه وحياته ونعامله مع الطبيعة :

«أما من الناحية الاجتماعية، فالشعب الفنلندي يشتم بالنزاهة والبساطة والواقعية وليس ميالاً للبلذخ أو المظهريّة. ومن الطبيعي أن تحكمه ظروفه المناخية. فشهور الشتاء الطويلة تتميز في البداية: نوفمبر - ديسمبر بالظلمة الداكنة، ثم تناقط بعد ذلك الثلوج بغزارة وتسطع الشمس الباهتة في فبراير - مارس».

«وقد عودت تلك الطبيعة القاسية الشعب على الجلد والمنابرة وقوة الاحتمال. فتجد بعض هواة صيد الأسماك يحفر ثقباً في الجليد يدلى منه السنارة لكى بصطاد الأسماك الصغيرة التى تمشى في المياه الجارية تحت الطبقة الجليدية المتجمدة على السطح؛ ويجلس لساعات طويلة في البرد القارس يمارس تلك الهواية!».

«أما شهور الصيف: يونية - يولية فأبامها أعرض من طولها، ونهارها أطول من ليلها».

«وفد نترك ذلك الطقس بصماته على طباع الشعب، وعزلته النسبية عن العالم الخارجى».

«كما دفع الجو شديد البرودة الكثيرين إلى تناول المشروبات الروحية. ولديهم إنتاجهم الخاص من الفودكا، وفي الريف لديهم مشروب كمحلى يستخرج من جذوع الأشجار فى الغابات! وطبيعى أن الحكومة تحاول الحد من تداول الخمر وذلك يبيعها فى متاجر خاصة حصصاً شهرية لأفراد المواطنين. ولكن مع كل التوايا الحسنة والجهود المبذولة ظالماً بقيت فنلندا على مشارف الدائرة القطبيةبقى تناول المشروبات الروحية فى شىء من الإسراف أحياناً عادة اجتماعية لا سبيل إلى درتها وإنما التخفيف من مضارها».

على هذا النحو يصور جمال بركات المشكلات التى تنشأ عن الكحوليات لقراء ربما يظن معظمهم أن ليس فى الأمر مشكلة أبداً غير الحرية الشخصية والمقيدة الدينية.

ولعل هذا يذكرنا أيضاً بموقفه وهو لا يزال فى أفريقيا وهو يلخص خبرته الدولية فى طبائع المشروبات الكحولية فيقول:

«... وإن المشروبات الروحية تستخرج فى كل بلد من الحفاسات أو المزروعات المحلية الوفيرة. ففى أوغندا يقطر «الورجى» من الموز المخمر، والساكى مشروب السابان الوطنى يستخرج من الأرز. وفى العراق «العرقى» من البلح حيث نكثرو أشجار النخيل. وفى السودان «البوظة» من الذرة العؤوجة، وفى لبنان «العرقى» من العنب. وفى أمريكا الوسطى «الروم»: عسل قصب السكر المخمر، وفى اسكتلندا «الويسكى» من الشوفان، وفى الاتحاد

السوفيني «الفودكا» من القمح، وفي فرنسا «الشمبانيا» من العنب من المقاطعة المعروفة بنفس الاسم في شمال شرق فرنسا الشهيرة بنبيلها».

كذلك يعلّق جمال بركات بسرعة على الفنلنديين وجههم للرياضة حتى مع تقدم السن والمركز فيقول:

«والواقع أن الشعب الفنلندي مثل باقي شعوب الشمال رياضي بطبيعته، فتراهم رغم تسوة الشتاء وطوله - أو ربما بسببها - يمارسون رياضات العدو والمشي والتزحلق على الجليد في الهواء الطلق، والتنس والاسكواش في الملاعب المغطاة، والباحة في البحر صيفاً، وفي حمامات السباحة المغطاة المدفأة طوال العام. وكان رئيسهم آنذاك «ارمو كيكونين» وقد جاوز السبعين عاماً بطلاً من أبطال الرياضة في صباه، وظل يمارس الرياضة حتى في سنه المتقدمة».

(١٣)

وفي خضم هذا كله فإن كتاب جمال بركات حافل بكل ما يمكن لكتاب في حجمه وفي موضوعه أن يستوعبه من مشاعر الوطنية والانتماء، ومن الفسقات العاطفية باللغة التأثير التي تجعل قلب القارئ يتحرك في مكانه، تلك التي يرونها جمال بركات في أكثر من موضع عن تحقق الوحدة ثم انقراط الوحدة بين مصر وسوريا، مما سنتناوله بعد قليل، أو تلك التي يرونها عن تشابه بل تطابق المسلمين الوطنيين المصريين والعراقيين حين يتحدث عن هذا التوافق فيقول :

«ومن الطريف أنه أثناء إحدى زيارات «نائب الرئيس المصري حسني مبارك المتكررة لبغداد للشاور وتبادل الرأي والتنسيق مع القيادات العراقية، وذلك في نوفمبر ١٩٧٦، كنا بانتظاره بالمطار مع كبار رجال الدولة والمسؤولين العراقيين، وعندما نزل من الطائرة الخاصة التي كانت تقله عزفت الموسيقى السلام الجمهوري المصري تحية للضيف، ثم السلام الجمهوري العراقي. وإذا بهما نفس النوتة الموسيقية، لدرجة أن البعض لاحظ أنه كان يكفي أن يعزف السلام مرة واحدة طالما أن المسلمين (متطابقان) عنواناً على وحدة الهدف بين البلدين».

«ولم يكن هذا الأمر مفاجأة لي لأنه عندما كنت صغيراً في هلسنكي قبل ذلك بسنوات عام ١٩٧٢، حضر من استكهولم سفير العراق لتقديم أوراق اعتماده سفيراً غير مقيم في فنلندا، ولم يكن ذا خلفية أو خبرة دبلوماسية، وأظنه كان من رجال التعليم، المهم أنه لم يحضر معه النشيد القومي لدولته وليس لديه وقت لكي يبحث ليعتداف مؤلفاته به، وقد اتصل بي مدير المراسم بالخارجية الفنلندية في محاولة للخروج من المأزق؛ فقلت له إنه حسب علمي النشيد الوطني العراقي هو نفس النشيد الوطني المصري، وأرسلت له النوتة الموسيقية، وكلمات النشيد. وعندما أطلع عليها سفير العراق أكد للفنلنديين أنها فعلاً النشيد الوطني العراقي، وجرت مراسم تقديم أوراق الاعتماد، وصدحت موسيقى الحرس الجمهوري بالنشيد الوطني العراقي».

(١٤)

وحين يتذكر جمال بركات أيام الوحدة مع سوريا ومقدماتها ومآلت إليه بعد هذا فإنه يورد واقعة كان هو بطلها تشل مفارقة من اللطف ما يمكن، كما أنه يروي أحداثاً لم يروها أحد غيره، ويقول:

«... كانت حلب توج في تلك الفترة من ٥٥ إلى ١٩٥٨ بالمشاعر الحماسية الوطنية الدافقة والمظاهرات تزهف على القنصلية المصرية في المساء مطالبة بشعارات الوحدة والعروبة».

«وعندما زار الرئيس الراحل أنور السادات حلب عام ١٩٥٧، كان آنذاك رئيساً لمجلس الأمة المصري على رأس وفد من المجلس يضم المرحوم فؤاد محبى الدين وغيره. تأخر ركبته في الوصول وغمرت الشمس فاستقبلته الآلاف المؤلفة من الجماهير على مشارف المدينة بمظاهرة كبرى من حملة المشاعل، ورفعت سيارته من فوق الأرض رفعاً. فنزل وعانق مستقبله وبهر من روعة الاستقبال».

«وعندما قدم عبد الناصر لأول مرة إلى حلب في فبراير ١٩٥٨ عقب إعلان الوحدة بين مصر وسوريا، تدفقت الجماهير على قصر المحافظة حيث كان يقيم، ولكن لوحظ أن الساحة المواجهة للقصر لا تكني للأعداد الهائلة من المواطنين من حلب والأقضية المجاورة

التي قدمت لاستقباله، فانتقل إلى موقع آخر له شرفة تطل على ساحة فضاء كبيرة ليخاطب الجماهير^٥.

«وعندما أجريت الانتخابات للوحدة في حلب توجهت للمرور على بعض صناديق الاقتراع وخاصة في حي الأرمن، فوجدت حماساً منقطع النظير للاقتراع للوحدة وعبد الناصر، وأصروا في كل موقع اقتراع على أن أدلى بصوتي قائلين لو كنت بمصر لكنت مارست حقك الانتخابي».

«وهكذا كما أنشأت القنصلية المصرية العامة في حلب عام ١٩٥٥ قممت بإغلاقها عقب إعلان الوحدة في ٢٢ فبراير ١٩٥٨ وغادرتها إلى موقع آخر».

«وهي من الحالات النادرة في العلاقات الدولية التي ينولى فيها نفس الشخص إنشاء تمثيل قنصلي، وإنهاءه»^٦.



كذلك يحكي جمال بركات عن أحد المواقف الحساسة التي قابلته في أثناء العدوان الثلاثي على مصر قبل أن تتحقق الوحدة، فإذا بنا نلاحظ مدى تعاطف الشعور القومي في ذلك الوقت إلى الحدود التي ربما تؤذي القضية نفسها:

«...عندما وجهت بريطانيا وفرنسا إنذارهما المعروف لمصر في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦، وأعقبت ذلك العمليات العسكرية، اشتد حماس السوريين، وكانت سيارات الحكومة تمر في أحياء حلب تنتقل للشعب آخر أنباء القتال عن طريق مكبرات الصوت وتذيع أخبار الانتصارات العربية وسط تصفيق الجماهير في الأماكن العامة»^٧.

.....

«اتصل بي في هذه الأثناء سفيرنا في دمشق، وقال لي يهدوء إن لنا باخرة ركاب تجارية مصرية تتبع شركة بواخر البوستان الحديدية راسية حالياً في اللاذقية وقبطانها إنجليزي. وأضاف أن هذه الباخرة يجب أن تبقى في اللاذقية حتى تنتهي العمليات لأنها لو أبحرت الآن أغرقها الأساطيل المهاجمة لبورسعيد، أو أخذتها هيئة أو غنيمه حرب، وثمنها أكثر من نصف مليون جنيه. المهم تصرف مع القبطان الإنجليزي وتخلص منه بسلام. وقد أصدرت السلطات المسؤولة في دمشق تعليماتها لمحافظ اللاذقية بما يلزم»^٨.

«صافرت في الصبح بالسيارة إلى اللاذقية وعبرت نقاط التفتيش المقامة بالطريق بعد أن حظرت الحكومة السورية الانتقال للاذقية إلا بتصريح خاص. وتوجهت فور وصولي لقيادة المسؤولين السوريين من مدنيين وعسكريين.. واتفقتنا على تأمين نقل القبطان الإنجليزي إلى دمشق».

«توجهت إلى الباخرة المصرية وبدأت بزيارة القبطان في غرفة قيادته وأفهمته أنه بالنظر لظروف العمليات العسكرية الجارية فإنه يخشى على حياته من البحارة المصريين، وأنه تأمناً له تقرر سفره لدمشق ومنها للخارج، وسوف تقوم سلطات الأمن السورية بذلك، وأنها سترسل في استدعائه الآن، وعليه أن يجمع أمتعته الشخصية».

«وقد تفهم الموقف تماماً وشكرني وناولنا قدين من البيرة، وعلمت أنه بريطاني الجنسية وأن زوجته يونانية مقيمة بالإسكندرية ويود طمأننتها والاطمئنان عليها، فأخذت عنوانها منه لإجراء اللازم».

«طلبت عقد اجتماع عام مع البحارة المصريين، على ظهر الباخرة، وقلت لهم إنه تقرر تحية ونرحيل القبطان البريطاني. وأن يتولى الضابط الأول للباخرة سلطات القبطان بالنيابة، وأنه صدرت التعليمات بعدم مغادرة الباخرة للاذقية وأن لا تتحرك إلا بتعليمات من السفارة المصرية في دمشق، وأن من يرغب في العودة إلى مصر فليقدم بطلبه للضابط الأول، وستقوم السلطات السورية بنقله إلى دمشق تمهيداً لعودته للوطن».

«كان شعور الجميع حماسياً، يستفسرون عن الأوضاع والأخبار وعائلاتهم ومعظمهم بالإسكندرية، وأبدى عدد منهم الرغبة في العودة».

«في هذه الأثناء قدم مندوبون عن السلطات السورية واصطحبوا القبطان البريطاني، ولحقت بهم في قيادة الموقع حيث توليت الترجمة لأنهم لا يجيدون سوى الفرنسية، ولا يتكلمون الإنجليزية».

«وبعد الظهر عدت إلى حلب، واتصلت بالسفير في دمشق وقلت له تم إنجاز المهمة وطلبت إبلاغ الشكر للسلطات السورية على صادق تعاونها».

(١٥)

ولعل الواقعة السابقة تلفت نظرنا إلى واقعة أخرى تضمنتها فقرة أخرى في هذه

المذكرات، وهى فى رأى من الفقرات المهمة لتاريخنا المعاصر فى العلاقات الدولية ،
أقصد تلك التى يروى بها السفير جمال بركات ما سسمى بمشكلة أو أزمة الباخرة
كليوباترا عام ١٩٦٠ فيما بين الحكومتين المصرية والأمريكية وهى أزمة عابرة لا تحظى
بكثير من الاهتمام فى الكتابات التاريخية المعاصرة ، ولعل السبب فى هذا أن المشكلة قد
حلّت فى وقتها ولو أنها لم تحل لكأن قد نسيبت فى أزمة يظل ذكرها متاحاً فى
الكتابات التاريخية:

«وأصعب مشكلة واجهتنا فى العلاقات الثنائية هى أزمة الباخرة كليوباترا. فى ١٣
أبريل ١٩٦٠ أبلغتنا الخارجية الأمريكية أن عمال ميناء نيويورك يرفضون تفريغ شحنة
الباخرة كليوباترا بناء على قرار الاتحاد الدولى لنقابات عمال الشحن والتفريغ والاتحاد
الدولى لعمال الموانئ فى نيويورك، علماً بأن الباخرة تابعة لشركة بواخر البوستان الخديوية،
وتتمتع بجنسية الجمهورية العربية المتحدة».

«وقد أوضحنا للجانب الأمريكى أن هذه المقاطعة سوف تترتب عليها أضرار بالغة
للشركة. ويمكن أن تتطور المسألة لتصبح أزمة فى العلاقات بين الولايات المتحدة ومصر
والمعالم العربى. وأن السبيل إلى تفادى ذلك هو تدخل الحكومة الأمريكية لإنهاء
الإضراب، وأن لدى الرئيس الأمريكى الصلاحيات القانونية لئلا هذا التدخل».

«وكانت وجهة النظر الأمريكية أن أمر إنهاء المقاطعة معروض على المحكمة
الفيدرالية بنيويورك فى ٢ أبريل وأنه ينبغي الانتظار حين صدور حكم القضاء».

«وقد توجهت إلى نيويورك لسماع حكم المحكمة الذى صدر برفضها طلب الشركة
إلزام العمال بتفريغ السفينة، باعتبار أن القضية هى من قبيل المنازعات العمالية».

«وذهبت إلى حيث ترسو الباخرة فوجدت اثنين من العمال يحملان لافتات بالمقاطعة
ويسيران فى تراج أمام الباخرة، وقيل إن هذا بشكل حسب التقاليد العمالية خطأ وهماً
قائماً لا يجوز اختراقه».

ثم يربنا صاحب هذه المذكرات أن الحضور الطاغى لشخصية الرئيس العظيم جمال
عبد الناصر كان كئيباً بحل هذه الأزمة والقضاء على المشكلة فى مهدها:

«وأخذت الأزمة فى التصاعد، وبدأ الاتحاد الدولى للعمال العرب فى تعبئة الشعوب
ضد الولايات المتحدة، وأعلن الرئيس عبد الناصر أن العمال العرب ينظرون إلى الحادث

على أنه إجراء عدائى ضد وطنهم له مساس بمصالحه وكرامته. وكانت لخطب عبدالناصر أصداؤها القوية فى ذلك الوقت فى أنحاء العالم العربى^١.

«وظهر اتجاه من جانب عمال الميناء الزواج لتحدى خط المنع وتفريغ الباخرة بالقوة».

«وقرر اتحاد العمال العرب مقاطعة السفن الأمريكية فى جميع الموانئ العربية اعتباراً من منتصف ليل ٢٩ أبريل. وإزاء هذا التهديد وازدياد الشعور العدائى لأمريكا وخشية الإضرار بالمصالح الأمريكية، تدخلت الحكومة الأمريكية وأنهات المقاطعة».

«ويبدو أن الهدف من المقاطعة كان محاولة التأثير على موقف الجمهورية العربية المتحدة من مرور السفن والبضائع الإسرائيلية فى قناة السويس».

«وقد توجهت سرية أخرى إلى نيويورك وصعدت إلى الباخرة كليوباترا ونقلت لبحارتها وطاقمها وربانها تحية الحكومة بمناسبة انتهاء المقاطعة».

«وهكذا تم احتواء الأزمة ومرورها بسلام».

(١٦)

وأجدنى مدفوعاً إلى أن أطلع القارئ على هذه الفقرة التى تصور الجو النفسى الذى كان الدبلوماسيون المصريون يعيشون فيه من جراء الحرب المتصلة مع إسرائيل والروح التى كانت السياسة العربية والدبلوماسية العربية تفرضها على مواقف سفرائنا ومتدوبينا فى المجتمعات الدولية والمحافل الدبلوماسية:

«...وما هى إلا أسابيع حتى نلقيت دعوة حضور حفل يقام ظهرًا بالقصر الجمهورى احتفاءً برئيس وزراء إحدى الدول الصديقة المجاورة لفنلندا التى يزورها زيارة رسمية. وقد جرت العادة على أن يقدم إلى الضيف الكبير السفراء المعتمدين بهلستكى».

«تصفحت القائمة الدبلوماسية التى تصدرها إدارة المراسم بوزارة الخارجية - مرة كل سنة شهوياً - فاكشفت أن آخر سفير قدم أوراق اعتماده قبلى - خلال شهر سبتمبر - هو سفير إسرائيل، وهذا يعنى أننا إذا وقفنا صفاً فى ذلك الاحتفال وقفنا إلى جانب بعضنا البعض».

«وتذكرت على الفور أن الرئيس عبدالناصر عزل نائب وزير الخارجية لتصريح حول إسرائيل، وتوقعت أن المصحف سوف تنشر صورنا الفوتوغرافية ونحن نتحدث في صفحاتها الأولى مما يكون له مردود سيئ في القاهرة، لذلك قررت تضادى هذا المأزق عملاً بالمثل القاتل: «الباب الذى يجرى منه الريح سده واستريح».

«تحدثت مع مدير المراسم وشرحت له وضعنا بالنسبة لإسرائيل، وأنه ليس فقط أنه لا يوجد اعتراف بها ولا علاقة دبلوماسية معها، بل أكثر من ذلك أنها تحتل أراضي ثلاث دول عربية من بينها مصر».

«وطلبت منه تضادياً للخرج ألا أقف جنباً إلى جنب مع سفير إسرائيل في حفل الاستقبال المقام لرئيس الوزراء الضيف، وأن ذلك ليس فيه أى اعتبار شخصى، وأنه لن يعدم الوسيلة لتحقيق تلك الرغبة البسيطة».

«وقد شعرت من رد مدير المراسم أن هذا الترتيب البيروتوكولى تفرضه أقدمية السفراء، وأنه لا سبيل له إلى التصرف، بل علق على طلبى بأنه لعل هذا المتجاوز المرتقب بينى وبين سفير إسرائيل يكون يادرة طيبة لدور تقوم به دولة صديقة للطرفين.. بمعنى قتلنا».

«وانجحه فكري إلى وجهة أخرى.. قابلت زميلى سفير الهند وكان صديقاً كريماً ودبلوماسياً كفواً.. وقلت له إننى مستنازل عن أقدميتى بحيث يقف قبلى فى المناسبات الرسمية، فنحن قدما أوراق اعتمادنا فى نفس اليوم، وكل ما فى الأمر أننى أسبقه بنصف ساعة فقط. فوافق على الفور وسر لذلك سروراً شديداً».

«وفى يوم استقبال الرئيس الضيف وقفنا صفاً طويلاً، أكثر من ستين سفيراً معتمداً حسب الأقدمية، وأفهمت مدير المراسم أننى بادلت أقدميتى مع سفير الهند، ولاحظ سفير إسرائيل بذلكه بأن الذى يقف بجواره سفير الهند، وأصبح بين مصر وإسرائيل شبه القارة الهندية بأسرها.. وفهم سفير الهند سر التغيير وابتسم».

بعقب صاحب المذكرات بنفسه على ما يرويه ويقول :

«كان هذا عام ١٩٦٩، وهو ما يكشف عن عمق التغيير فى «الخط الرسمى» الذى نبناه الرئيس السادات تجاه إسرائيل ابتداء بزيارة القدس فى نوفمبر ١٩٧٧، وانتهاء بتوقيع اتفاقية السلام معها فى مارس ١٩٧٩».

«وبعد نحو عام ونصف العام علمت أن سفير إسرائيل قد نقل إلى منصب آخر، ونقلينا دعوة لحضور حفل افتتاح البرلمان ونوجهنا إلى ذلك الحفل الكبير وأخذ السفراء يأخذون مواقعهم حسب ترتيب أقدميتهم، وعندئذ قلت لزميلى سفير الهند أن يعود لأقدميته بعدى، وعندما اندهش قلت له إن الظروف قد تغيرت.. ففهم وقال: كم ستدفع عن هذه المدة؟ وابتسمنا نحن الاثنين».

(١٧)

لعل من حق القارئ أن يستمتع الآن ببعض الطرائف التى وعده العنوان بالحديث عنها وبخاصة بعد كل هذا الذى استعرضناه له من ثقافة ومياسة ودبلوماسية وتاريخ وتجارب فى هذا الكتاب ، وفى هذا الصدد فإنى أختار للقارئ ما يسمى فى الأدب « قصة الغلاف» وحين نقرأ هذه القصة ، فلا بد أن نستبه إلى المعنى الذى أورده لنا جمال بركات دون أن يكلف نفسه المضى فى خطابة كثيرة ، وهو يتحدث عن سعة الحيلة فى التصرف من أجل الحفاظ على البروتوكول مع الحفاظ فى ذات الوقت على رأس مال الدبلوماسية. وهذه الطرفة التى سنلخصها للقارئ بعد قليل هى التى استوحى منها الفنان مصطفى حسين غلاف هذا الكتاب المبر حين رسم جمال بركات وهو بجرى البروفة على بذلة رسمية من البدل بينما هو يتطلع إلى صورة نفسه فى المرآة وقد ارتدى الجاكت ولم يرتد السروال بعد... ولنقرأ هذه القصة:

«...كنت أشغل منصب السكرتير الثالث فى السفارة المصرية بلندن عندما تلقيت فى يونية ١٩٥٢ دعوة لحضور حفل الشاي المستوى التقليدى الذى تقيمه الملكة فى ذلك الشهر الذى يصادف عيد ميلادها، وتدعو إليه رؤساء البعثات الدبلوماسية المعتمدة فى بريطانيا وعدداً محدوداً من دبلوماسى كل سفارة».

« وقد سعدت بتلك الدعوة سعادة غامرة وأخذت أقرأ بطاقة الدعوة بإسماع فوجئت أن الزى المطلوب هو «بذلة الصباح» Morning Suit أو البوهور، وطبعاً نظراً لحداثة عهدى فى السلك الدبلوماسى لم يكن لدى تلك البذلة. كانت الوزارة تصرف لنا بذلة رسمية موشاة بالقصب. نذهب إلى أخصر النزيهة الأجانب بالقاهرة ونفصل البذلة بخطاب رسمى من الوزارة، وكانت أشغال القصب على المنسنة تزداد على الصدر

والأكمام حسب الدرجة الدبلوماسية ووفق رسومات محددة موجودة لدى التريزي، ولكن هذه البذلة لا تصلح وينبغى ارتداء البونجور (وقد أُلغيت بعد قيام ثورة ١٩٥٢)».

«وسألني زملائي المقدامي بالسفارة عما سأفعل. قلت سأفصل بذلة جديدة في «سافيل روي» لحضور الحفل. و«سافيل روي» هو الشارع الذي يوجد فيه أفخم وأعلى نرزة الإنجليز في الحى الغربى الراقى في لندن».

«وسمع الحديث أحد أصدقائي من الزملاء الكبار (لا يذكر لنا جمال بركات اسمه وكان حرياً به أن يفعل حتى نشاركه النساء عليه أو الترحم على روحه)، فجاءني في مكتبى وأسر إلى أن تكاليف البذلة ستتجاوز ١٥ جنيه استرليني في ذلك الوقت، أى أكثر من راتبى الشهرى، وسوف تستخدم مرة واحدة في السنة، وأبقى لآخر الشهر بدون طعام، وقال: إن هناك محلات متخصصة لتأجير مثل هذه الملابس الرسمية لمختلف المناسبات كالأفراح وغيرها، ونصحني أن أجرب حظى».

«وفعلاً في المساء توجهت إلى أحد المحلات في «يكر ستريت» فاستقبلني الموظف بالمحل بشاشة وقال: من أجل حفل شاي، فأجبت بالإيجاب. فأخذني إلى حيث الملابس والغرف المخصصة لنخلع والقياس والمرايا على الجانبين، ففوجئت بوجود عدد كبير من الزبائن يسرون بسراريلهم في الضراقات يجربون المقاسات، وكأننا السلك الدبلوماسى بأسره قد جاء إلى المحل، وبعضهم يبدو من سنه أنهم سفراء أو على الأقل وزراء مفاوضون».

«وقد وجدت البذلة المناسبة مقاسى بالضبط، واشترت رباط العنق الرمادى والقفاز الأصفر، ولكن المشكلة صادفتنا في القبعة العالية Top hat. فإن مقاس رأسى صغير، ووجدنا من المتعذر الحصول عليه. وكان الحل لدى الموظف الذى استقبلنى وعنى بى منذ البداية، فقال: من واقع علمه وخبرته إن القبعة لا تُلبس في داخل القصر، وإنما تحمل في اليد عند الدخول وتترك هي والقفاز في المدخل، ولذا فيمكننى أن آخذ قبعة وإن كانت أكبر من مقاسى قليلاً، وأحملها في يدي بدلاً من البحث في محلات القبعات المتخصصة وشراء واحدة جديدة ثمنها يتجاوز ٦٥ جنيه استرليني، وهو ما كان».

«وقد أخذت البذلة كأمانة وخرجت على أن أعيدها فور انتهاء الحفل. وقد كلفنى إيجارها ٢ جنيه».

وأحب أيضاً أن أنقل للقاري طرفة أخرى من الطوائف التي حدثت له في زيارته إلى إيران:

«ودعينا برفقة سفيرنا في طهران إلى إحدى حفلات السهر الخاصة في فيللا طيب جراح إيراني مشهور أستاذ كبير في الجامعة».

«وقد لاحظت أن مستوى جمال السيدات الإيرانيات المحاضرات مرتفع للغاية، وأن أنوفهن صغيرة ودقيقة وبشرة وجوههن ناصعة البياض، ولم أستطع مقاومة إبداء هذه الملاحظة، فأتضح أن المضيف هو جراح تجميل وأن جميع المدعووات من الأرستقراطية الإيرانية قد أجرى لهن المضيف عمليات تجميل ناجحة في وجوههن.. ولعل أقل العمليات توفيقاً هي التي أجراها لزوجته».

(١٨)

خلاصة القول: فقد وفق السفير جمال بركات أيما توفيق في تقديم هذه المذكرات الشخصية الطريقة التي ستفيد القارئ كما ستفيد الدبلوماسي الشاب، وهي بعد ذلك مفيدة لفكرنا الحديث ولتاريخنا المعاصر وللأجيال القادمة.

